

تأليف
أحمد بن سليمان أيوب
ونخبة من الباحثين

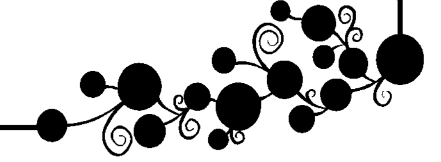
فكرة وإشراف
د. سليمان الدريع

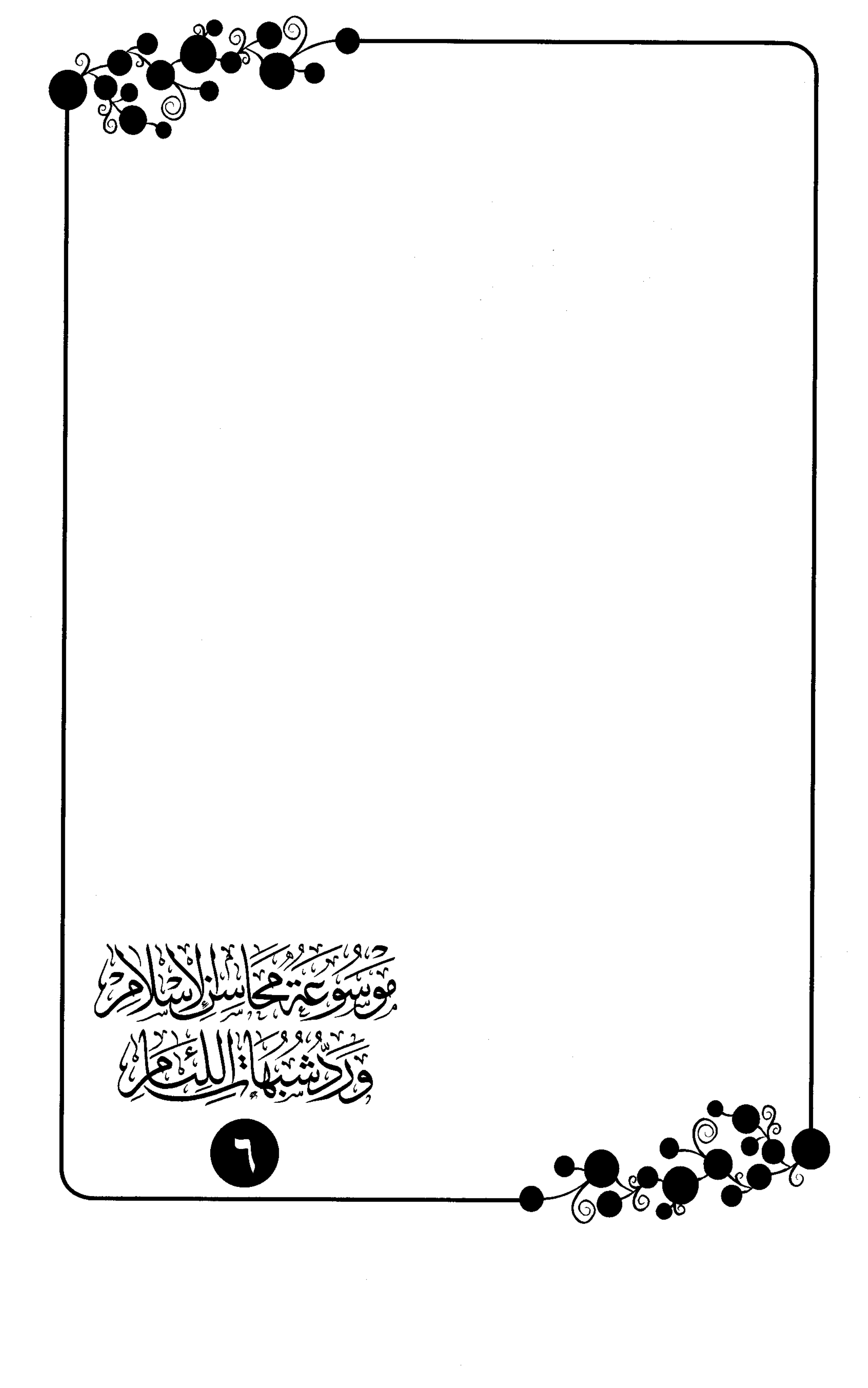
المجلد السادس

شبهات عن القرآن

دار إيلاف الدولية
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم




موسوعة محاسن الإسلام
ورد شبهات اللئام
٦



١٤٣٦هـ - ٢٠١٥ م

دار إيلاف الدولية
للنشر والتوزيع
(دار وقفية دعوية)

المدير العام: د/ فرحان بن عبيد الشمري

falaslmi@gmail.com

الإدارة: مجمع المخيال - هاتف: ٢٤٥٧٠٠٨٢ - ٩٦٩٩٩١٨٢- الكويت.

الفرع الأول: الجهراء - مجمع الخير - الدور الأول مكتب ١٠ هاتف ٢٤٥٥٧٥٥٩

الفرع الثاني: حولي - شارع المثنى ، هاتف وناسوخ: ٢٢٦٤١٧٩٧

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١١٠٤٥/ ٢٠١٥م

التوزيع داخل جمهورية مصر العربية:

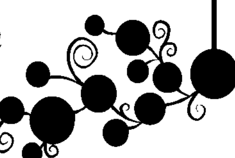


للبحث العلمي وتحقيق التراث

لصاحبها : أحمد بن سليمان

ah.solaiman1970@gmail.com

ت : ٠١١٥٨٩٨٠٥٨٠



تابع
شبهات عن القرآن

سورة الحجر

وفيها:

١- شبهة: حول الورود على الصراط.

٢- شبهة: حول تبشير إبراهيم عليه السلام.

١- شبهة: حول الورود على الصراط.

نص الشبهة:

أن الله تعالى قال في سورة(الحجر: ٤٣ -٤٤): ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾، وقال في سورة (مريم: ٧١): ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾.

فقالوا: هذه الآيات تشير بأن الله حكم على جميع الناس بورودهم جهنم، بارهم وفاجرهم، تقيهم وعاصيهم، موحدهم ومشركهم، فقالوا: فما هي قيمة التوبة والغفران؟ وما هو الفرق بين الطائع والعاصي؟!.

والجواب على هذه الشبهة من هذه الوجوه:

الوجه الأول: بيان المعنى الصحيح لآية الحجر، وأنها خاصة في الكفار.

الوجه الثاني: بيان المعنى الصحيح للورود، وأن الراجح هو المرور على الصراط.

الوجه الثالث: بيان المعتقد الصحيح في أن النار لا يخلد فيها إلا الكافرون.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: بيان المعنى الصحيح لآية الحجر وأنه خاص في حق الكفار.

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾

قال ابن كثير: أي: جهنم موعد جميع من اتبع إبليس، كما قال عن القرآن: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ (هود: ١٧)، ثم أخبر أن لجهنم سبعة أبواب: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ أي: قد كُتِبَ لكل باب منها جزءٌ من أتباع إبليس يدخلونه، لا محيد لهم عنه -أجارنا الله منها- وكل يدخل من باب بحسب عمله، ويستقر في دَرَك بقدر فعله، فدل ذلك على أن المقصود بقوله ﴿لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: من أتباع إبليس، والدليل: أن الله ذكر بعدها حال المتقين فقال سبحانه ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ (الحجر:

٤٥)، وقد ذكر الله عز وجل حال أهل الجنة – المتقين – ليظهر التباين، والضمير في قوله ﴿مَوْعِدُهُمْ﴾ عائد على قوله﴿اتَّبَعَكَ﴾. [١]

الوجه الثاني: بيان معاني الورود.

الورود لغة: قال ابن سيده: وورد الماء وغيره وردًا وورودًا وورد عليه: أشرف عليه دخله أو لم يدخله، وكل من أتى مكانًا منهلًا أو غيره فقد ورده، وفي اللغة: ورد بلد كذا وماء كذا، إذا أشرف عليه، دخله أو لم يدخله، قال: فالورود: بالإجماع ليس بالدخول[٢].

الورود شرعًا: المعنى الأول: الورود هو الدخول، ولكن عنى به الكفار دون المؤمنين:

قال القرطبي: وقالت فرقة: المراد ب﴿مِنكُمْ﴾: الكفرة، والمعنى: قل لهم يا محمد، وهذا التأويل أيضًا سهل التناول، والكاف في ﴿مِنكُمْ﴾ راجعة إلى الهاء في ﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾، فلا ينكر رجوع الكاف إلى الهاء، فقد عرف ذلك في قولهﷻ ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١) إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا (٢٢)﴾ (الإنسان: ٢١ – ٢٢) معناه: كان لهم، فرجعت الكاف إلى الهاء[٣].

وقد خرج الطبري بإسناده إلى ابن عباس كان يقرؤه ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١)﴾ فقد يعني الكفار، قال: لا يردها مؤمن. [٤]

وأسنده أيضًا إلى عكرمة كان يقول: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ يعني: الكفار. [٥]

ورد على هذا القول بأن الله قال بعدها: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ فدل ذلك على أن الورود ليس خاصًا بالكفار.

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٨/ ٢٥٩)، انظر الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٣٥).

(٢) لسان العرب (٦/ ٤٨١٠– ٤٨١١)، تهذيب اللغة (١٤/ ١٦٣).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١١/ ١٤٤)، زاد المسير (٥/ ٢٥٤: ٢٥٥).

(٤) جامع البيان (١٩/ ١١٠)، وهو ضعيف لأجل الانقطاع بين عبد الله بن السائب وابن عباس.

(٥) جامع البيان (١٩/ ١١١) وهو صحيح عن عكرمة.

استدلوا بقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ (الأنبياء: ١٠١)، قالوا: فلا يدخل النار من ضمن الله أن يبعده عنها.

والجواب عليه: قالوا: إن معنى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ أي: أنهم مبعدون عن العذاب فيها، والاحتراق بها، فمن دخلها وهو لا يشعر بها، ولا يحس منها وجعا، ولا ألمًا فهو مبعد عنها. (١)

المعنى الثاني: الورود بمعنى المرور – يعني على الصراط –، والدليل:

١. ما رواه الطبري بإسناده عن عبد الله بن مسعود في قوله: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ قال: الصراط على جهنم مثل حد السيف فتمر الطبقة الأولى كالبرق، والثانية كالريح والثالثة كأجود الخيل، والرابعة كأجود البهائم، ثم يمرون والملائكة يقولون: اللهم سلم سلم. (٢)

٢. ما رواه الطبري بإسناده عن قتادة من طريقين:

الأول: قال: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ يعني: جهنم، مرّ الناس عليها.

الثاني: في قوله: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ قال: هو المرّ عليها. (٣)

المعنى الثالث: المراد بالورود: هو عام لكل مؤمن وكافر، غير أن ورود المؤمن المرور، وورود الكافر الدخول.

الدليل: قال ابن زيد في قوله: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾: ورود المسلمين المرور على الجسر

---

(١) فتح البيان (٨/ ١٨٧).

(٢) جامع البيان (١٩/ ١١٠) إسناده صحيح.

(٣) جامع البيان (١٦/ ١١٠) إسناده صحيح، سعيد بن أبي عروبة: ثقة حافظ كثير التدليس اختلط بآخره من أثبت الناس في قتادة (التقريب١/ ٢١٠) قلت أما عن تدليسه، فقد ذكره ابن حجر في طبقات المدلسين في الطبقة الثانية، وهذه الطبقة أخرج لهم في الصحيحين، لإمامتهم، وقلة تدليسهم في جنب ما رووا، أو كان لا يدلس إلا عن ثقة، أضف إلى ذلك أن سعيدًا من أثبت الناس في حديث قتادة، فلا يضر العنعنة هنا، ويزيد بن زريع: ثقة ثبت (التقريب ٢/ ٦٧١) وهو ممن روى عن سعيد قبل الاختلاط، بل هو من أثبت الناس في سعيد –نهاية الاغتباط (١٣٩ -١٤٧)، وبشر بن معاذ صدوق – التقريب (١/ ٧١).

بين ظهريها، وورود المشركين أن يدخلوها، قال: وقال النبي ﷺ: "الزالون والزالات يومئذ كثير، وقد أحاط الجسر سماطان من الملائكة دعواهم يومئذ يا الله سلم سلم ". [١]

المعنى الرابع: الورود بمعنى ما يصاب به المؤمن في الدنيا من حمّى ومرض:

والدليل على ذلك: ١ . حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ يعود رجل من أصحابه وبه وعك وأنا معه فقال رسول الله ﷺ: "إن الله يقول هي ناري أسلطها على عبدي المؤمن لتكون حظه من النار في الآخرة "[٢].

---

(١) الطبري (٨/ ٣٦٤) وإسناده صحيح، أما الحديث ففي شعب الإيمان (١/ ٣٣١)، وضعفه البيهقي من حديث أنس.

(٢) صحيح. أخرجه أحمد (٢/ ٤٤٠)، والترمذي (٢٠٨٨)، والحاكم (١/ ٣٤٥)، وابن أبي شيبة (٣/ ١١٧)، وابن ماجه (٣٤٧٠) كلهم من طريق أبي أسامة عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن إسماعيل ابن عبيد الله، عن أبي صالح الشعري عن أبي هريرة. . . . الحديث، أبو صالح الأشعري: قال أبو زرعه لا يعرف اسمه، وقال أبو حاتم لا بأس به (تهذيب الكمال ٣٣/ ٤١٣: ٤١٤)، وقال ابن حجر: مقبول (التقريب ٢/ ٧٣٢)، والحديث صححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٧٩٤) ولفظ الترمذي: "هي ناري أسلطها على عبدي المذنب لتكون حظه من النار".

١. عند أحمد (٥/ ٢٥٢، ٢٦٤)، والطبراني في الكبير (٧٤٦٨)، والبيهقي في الشعب (٩٨٤٣) كلهم من طريق محمد بن مطرف، عن أبي إمامة مرفوعًا قال رسول الله ﷺ" الحمى كي من جهنم فما أصاب المؤمن كان حظه من النار". وفيه: أبو الحصين مروان بن رؤية التغلبي: قال ابن حجر: مقبول (التقريب ٢/ ٥٧٧).

٢. وعند العقيلي في الضعفاء (١٥٠٢) من حديث الفضل بن حماد الواسطي ثنا عبد الله بن عمران القرشي ثنا مالك بن دينار عن معبد الجهني عن عثمان مرفوعًا: قال رسول الله ﷺ " الحمى حظ كل مؤمن من النار" ميزان الاعتدال (٤/ ١٤١، ٣/ ٤٢٦)، وفيه فضل بن حماد الواسطي وهو مجهول.

٣. وعند الشهاب مسنده (٦٢)، وفيه صالح بن أحمد الهروي، قال أبو أحمد الحاكم: فيه نظر: ذكره الشيخ حمدي السلفي في تعليقه على مسند الشهاب (١/ ٧١)، وفيه أحمد بن رشد الهلالي، قال الذهبي أتي غير باطل عن بني العباس ميزان الاعتدال (١/ ٩٧)، وذكره ابن حبان في الثقات، وأما ابن طاهر فأعله بالحسن بن صالح لكن الحسن ثقة واحتج به مسلم وغيره، وقال الألباني: ضعيف جدًّا (السلسلة الضعيفة ٣٥٣٢) وله كلام نفيس في السلسة الضعيفة رقم (٦١٤٣).

٤. وفي الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/ ٣٢٢): أخبرنا الفضل بن دكين، قال: أخبرنا إسماعيل بن مسلم العبدي، قال: أخبرنا أبو المتوكل: أن نبي الله ﷺ ذكر الحمى فقال " من كانت به حمى فهي حظه من النار"

قال: فسألها سعد فلزمته ولم تفارقه حتى فارق الدنيا. وفيه أبو المتوكل، هو علي بن داود أبو المتوكل الناجي البصري مشهور بكنيته ثقة من الثالثة، قاله ابن حجر في التقريب (١/ ٤١٣)، وهو مرسل.

٥. وفي الطبراني في المعجم الأوسط رقم (٧٥٤٠)، قال: حدثنا محمد بن إبراهيم العسال، نا سليمان بن داود الشاذكوني، نا عبيس بن ميمون، حدثني قتادة، عن انس، قال: قال رسول الله ﷺ "الحمى حظ المؤمن من النار "، وقال لم يرو هذا الحديث عن قتادة، إلا عبيس بن ميمون تفرد به الشاذكوني، سليمان بن داود الشاذكوني وهو متروك، قاله أبو حاتم، وقال النسائي: ليس بثقة، وكذبه ابن معين، وقال البخاري: فيه نظر. انظر ميزان الاعتدال (٢/ ٢٠٥)، عيسى بن ميمون، قال أحمد والبخاري: منكر الحديث، وقال ابن معين وأبو داود: ضعيف، وقال الفلاس: متروك، والنسائي: ليس بثقة (ميزان الاعتدال ٣/ ٢٧).

٦. وفي البخاري في التاريخ الكبير (٧/ ٦٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٨٤٦)، والطحاوي في مشكل الآثار (٣/ ٦٨)، عن أبي ريحانه مرفوعًا قال: قال رسول الله ﷺ "الحمى من فيح جهنم وهي نصيب المؤمن من النار". وفيه شهر بن حوشب، وهو ضعيف.

٧. وفي كشف الأستار (٧٦٥) من طريق عثمان بن مخلد، عن هشيم عن المغيره عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة، أن النبي ﷺ قال: "الحمى حظ كل مؤمن من النار" وقال عقبه: لا نعلم أسنده عن هشيم إلا عثمان، وعثمان بن مخلد لم يذكر له ابن أبي حاتم جرحًا ولا تعديلًا (٦/ ١٧٠)، وفيه هشيم، وهو مدلس، وقد عنعن في السند، قال الدارقطني في علله: عثمان بن مخلد الواسطي، لا بأس به، لكنه خولف في رفع هذا الحديث، فأخرجه مندل بن علي عن هشيم به موقوفًا، وهو المحفوظ. نقلًا من تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للذيلعي (٢/ ٣٣٥).

٨. جامع البيان (١٦/ ١١١)، وفيه يحيى بن يمان، قال أحمد: ليس بحجة، وقال يحيى بن معين: ليس بثبت، وقال مرة: أرجو أن يكون صدوقا، وقال مرة: ليس به بأس، ابن المديني قال: صدوق، وكان فلج فتغير حفظه، قال النسائي: ليس بالقوي – تهذيب الكمال (٣٢/ ٥٥: ٥٩)، والحديث كما في الطبري بإسناده، عن مجاهد قال: الحمى حظ كل مؤمن من النار، ثم قرأ: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾.

وبالجملة فقد صحح الشيخ الألباني حديث الحمى هذا نظرًا للشواهد، كما في السلسلة الصحيحة (١٨٢١: ١٨٢٢).

أما ابن حجر- رحمه الله- قال (في الكافي الشافي في تخريج أحاديث الكشاف – بذيل تفسيرالكشاف ٣/ ٣٥): وكلها ضعيفة وهي بمعناه لا بلفظه.

وفي أضواء البيان (٤/ ٣٨٠): وعلى فرض صحة الحديث؛ الجواب على هذا الاستدلال قالوا: لا دليل فيه لمحل النزاع، لأن السياق صريح في أن الكلام في النار في الآخرة وليس في حرارة منها في الدنيا، لأن أول الكلام اقوله تعالى ﴿ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾ إلى قوله ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ﴾. (مريم ٦٨: ٧١)، فدل على أن كل ذلك في الآخرة، لا في الدنيا كما ترى.

المعنى الخامس المراد بالورود: الإشراف عليها، والقرب منها، والاطلاع عليها.

الدليل: ١-احتجوا بقول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ (القصص: ٢٣)، قالوا: فهذا ورود مقاربة، وإشراف عليه.

٢-قوله تعالى ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ (يوسف: ١٩).

٣-من كلام العرب قول زهير بن أبي سلمى في معلقته:

فلما وردن الماء زرقا جمامة   وضعنا عصا الحاضر المتخيم

والعرب تقول: وردت القافلة البلد وإن لم تدخله ولكن قربت منه.[1]

المعنى السادس: الورود هو الدخول للمؤمنين والكافرين:

١. والدليل على ذلك: عَنْ أَبِي سُمَيَّةَ، قَالَ: اخْتَلَفْنَا هَا هُنَا فِي الْوُرُودِ، فَقَالَ بَعْضُنَا: لاَ يُدْخُلُهَا مُؤْمِنٌ، وَقَالَ بَعْضُنَا: يَدْخُلُونَهَا جَمِيعا، ثُمَّ يُنَجِّي الله الَّذِينَ اتَّقَوْا، فَلَقِيتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ الله، فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّا اخْتَلَفْنَا هَا هُنَا فِي الوُرُودِ، فَقَالَ: يَرِدُونَهَا جَمِيعًا. وَقَالَ سُلَيْمَانُ مَرَّةً يَدْخُلُونَهَا جَمِيعًا، فَقُلْتُ لَهُ إِنَّا اخْتَلَفْنَا فِي ذَلِكَ، فَقَالَ بَعْضُنَا: لاَ يَدْخُلُهَا مُؤْمِنٌ، وَقَالَ بَعْضُنَا: يَدْخُلُونَهَا جَمِيعًا، فَأَهْوَى بِأُصْبُعَيْهِ إِلَى أُذُنَيْهِ وَقَالَ: صُمَّتَا إِنْ لَمْ أَكُنْ سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ "الْوُرُودُ الدُّخُولُ لاَ يَبْقَى بَرٌّ وَلاَ فَاجِرٌ إِلاَّ دَخَلَهَا فَتَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِ بَرْدًا وَسَلاَمًا كَمَا كَانَتْ عَلَى إِبْرَاهِيمَ حَتَّى إِنَّ لِلنَّارِ - أَوْ قَالَ إِنَّ لِجَهَنَّمَ - ضَجِيجًا مِنْ بَرْدِهِمْ، ثُمَّ يُنَجِّي الله الَّذِينَ اتَّقَوْا وَيَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا"»[2]

---

(١) أضواء البيان (٤/ ٣٧٧)، البحر المحيط (٦/ ١٩٧)، فتح البيان (٨/ ١٨٧).

(٢) ضعيف. أخرجه أحمد (٣/ ٣٢٩) من حديث أبي سمية، قال الذهبي: مجهول (الميزان ٤/ ٥٣٤)، وقال ابن حجر في التقريب: مقبول، وأخرجه الحاكم (٤/ ٥٨٧) من حديث مسه الأزدية، عن عبد الرحمن بن شيبة، عن جابر (تحريف في المطبوع إلى منيه وسقط جابر (انظر الاتحاف (٣/ ٢٢٩)، قال الدارقطني: لا يحتج بها (ميزان الاعتدال ٤/ ٦١٠)، قال ابن حجر: مقبولة (التقريب ٢/ ٨٧٦) والحديث ضعيف، قال ابن كثير: غريب ولم يخرجوه (التفسير٩/ ٢٧٩).

٢. ما رواه الطبري، في تفسيره، بإسناده إلى ابن عيينة، عن عمرو، قال: أخبرني من سمع ابن عباس يخاصم نافع بن الأزرق، فقال ابن عباس: الورود: الدخول، وقال نافع: لا، فقرأ ابن عباس: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ أورودٌ هو أم لا؟ وقال ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾ أورود هو أم لا؟ أما أنا وأنت فسندخلها، فانظر هل نخرج منها أم لا؟ وما أرى الله مخرجك منها بتكذيبك، قال: فضحك نافع.[1]

٣. ما رواه الطبري في تفسيره، بإسناده إلى عطاء بن أبي رباح، قال: قال أبو راشد الحروري: ذكروا هذا فقال الحروري: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾، قال ابن عباس: ويلك أمجنون أنت؟ أين قوله تعالى﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾ ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾، وقوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ والله إن كان دعاء من مضى: اللهم أخرجني من النار سالمًا، وأدخلني الجنة غانمًا[2].

٤. ما رواه الطبري في تفسيره، بإسناده إلى ابن عباس في قوله ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ قال: يعني البرّ والفاجر، ألم تسمع إلى قول الله تعالى لفرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾، وَقَالَ ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ فسمى الورود في النار دخولا وليس بصادر[3].

---

(١) جامع البيان (١٩/ ١٠٨، ١٠٩) وهو ضعيف فيه رجل مبهم.

(٢) جامع البيان (١٩/ ١٠٩) وفيه: الحسين بن داود المصيصي – (سنيد) صاحب تفسير- وهاه النسائي (ميزان الاعتدال ١/ ٥٣٤)، وضعفه ابن حجر في التقريب (١/ ٢٣٢)، وقال أبو حاتم: صدوق (الجرح والتعديل ٤/ ٣٢٦)، وقال النسائي: ليس بثقة (تهذيب الكمال ١٢/ ١٦٤).

(٣) جامع البيان (١٦/ ١٠٩)، وفي إسناده: محمد بن سعد – شيخ الطبري – وهو محمد بن سعد بن محمد ابن الحسن بن عطية العوفي قال الخطيب: كان لينا في الحديث، وروى الحاكم عن الدارقطني أنه قال: لا بأس به (ميزان الاعتدال ٣/ ٥٦٠)، الأنساب (٤/ ٢٥٨).

٥. قال خالد بن معدان: قال أهل الجنة بعد ما دخلوا الجنة: ألم يعدنا ربنا الورود على النار؟ قال: قد مررتم عليها وهي خامدة.

قال ابن عرفة، قال مروان بن معاوية، قال بكار بن أبي مروان، أو قال: جامدة. [(١)]

٦. إن في نفس الآية قرينة دالة على تفسير الآية، وهي أنه تعالى لما خاطب جميع الناس بأنهم سيردون النار، برهم وفاجرهم، بقوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١)﴾ بين مصيرهم ومآلهم بعد ذلك الورود المذكور بقوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا﴾ أي: نترك الظالمين فيها- دليل على أن ورودهم لها دخولهم فيها- إذ لو لم يدخلوها لم يقل: ﴿وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا﴾، بل يقول: ونُدخل الظالمين، وهذا واضح كما ترى وكذلك قوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ دليل على أنهم وقعوا فيما من شأنه أنه هلكة، ولذا عطف على قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ قوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا﴾. [(٢)]

ونعقب هذا القول بالآتي:

١. بأن الأحاديث والآثار السابقة مختلف في صحتها، فلا يستدل بها.

٢. **قال ابن عاشور**: فليس الخطاب في قوله ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ لجميع النّاس مؤمنهم وكافِرهم على معنى ابتداء كلام، بحيث يقتضي أن المؤمنين يردون النّار مع الكافرين، ثم يَنْجوَن من عذابها، لأنّ هذا معنى ثقيل ينبو عنه السياق، إذ لا مناسبة بينه وبين سياق الآيات السابقة، ولأنّ فضل الله على المؤمنين بالجنّة، وتشريفهم بالمنازل الرفيعة ينافي أن يسوقهم مع المشركين مَساقًا واحدًا، كيف وقد صدّر الكلام بقوله﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ (مريم: ٨)، وقال تعالى﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ (مريم: ٨٥، ٨٦)، وهو صريح في اختلاف حشر الفريقين.

---

(١) جامع البيان (١٦/ ١٠٩)، وهو ضعيف: وفيه بكار بن أبي مروان لم أقف على ترجمته فيمن روى عن خالد بن معدان، ولا من شيوخ مروان بن معاوية. ومروان ثقة حافظ، كان يدلس في أسماء الشيوخ، قاله ابن حجر في التقريب (٢/ ٥٧٧).

(٢) أضواء البيان (٤/ ٣٧٨).

فموقع هذه الآية هنا كموقع قوله تعالى ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (الحجر: ٤٣)عقب قوله ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ (الحجر: ٤٢)، فلا يتوهم أن جهنّم موعد عباد الله المخلصين مع تقدّم ذكره، لأنّه ينبو عنه مقام الثناء.

وقال أيضًا: وجملة ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ زيادة في الارتقاء بالوعيد بأنّهم خالدون في العذاب، فليس ورودهم النّار بموقّت بأجل.

و(ثمّ) للترتيب الرتبي تنويهًا بإنجاء الذين اتّقوا وتشويهًا بحال الذين يبقون في جهنم جُثيًّا. فالمعنى: وعلاوة على ذلك؛ ننجي الذين اتّقوا من ورود جهنم. وليس المعنى: ثمّ ينجي المتقين من بينهم، بل المعنى أنهم نَجَوْا من الورود إلى النّار. وذكر إنجاء المتقين - أي المؤمنين - إدماج ببشارة المؤمنين في أثناء وعيد المشركين. وجملة ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا﴾ عطف على جملة ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾، والظالمون: المشركون[1].

قلت: ومن قال بأن دخول النار يكون للناس جميعًا يقولون: بأن المؤمنين يدخلون النار من غير خوف وضرر البتة بل مع الغبطة والسرور وذلك لأن الله تعالى أخبر عنهم أنهم ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ ﴾ (الأنبياء: ١٠٣)، ولأن الآخرة دار الجزاء لا دار التكليف، وإيصال الغم والحزن إنما يجوز في دار التكليف، إلى أن قال: وكيف يدفع عنهم الضرر في النار.

وقال بعضهم: البقعة المسماة بجهنم لا يمتنع أن يكون في خلالها ما لا نار فيه، ويكون من المواضع التي يسلك فيها إلى دركات جهنم، وإذا كان كذلك لم يمتنع أن يدخل الكل في جهنم فالمؤمنون يكونون في تلك المواضع الخالية عن النار، والكفار يكونون في وسط النار. وثانيها: أن الله تعالى يخمد النار فيعبرها المؤمنون وتنهار بغيرهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «يردونها كأنها إهالة» وعن جابر بن عبد الله: " أنه سأل رسول الله ﷺ فقال: " إذا دخل أهل الجنة الجنة قال بعضهم لبعض أليس وعدنا ربنا بأن نرد النار فيقال لهم: قد وردتموها وهي

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ١٥٠).

خامدة "، وثالثها: أن حرارة النار ليست بطبعها فالأجزاء الملاصقة لأبدان الكفار يجعلها الله عليهم محرقة مؤذية والأجزاء الملاصقة لأبدان المؤمنين يجعلها الله بردًا وسلامًا عليهم). [١]

قلت: وهذا على صحة الأدلة التي ذكروها ولكن فيها كلام تقدم ذكره.

المعني السابع: الورود بمعني يراها الجميع ثم يصدر عنها المؤمنون بأعمالهم.

والدليل علي ذلك:

١-حديث ابن مسعود: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، قال رسول الله ﷺ "يرد الناس النار كلهم، ثم يصدرون منها بأعمالهم". [٢]

---

(١) تفسير الفخر الرازي (٢١/ ٢٤٣: ٢٤٤) بتصرف، وانظر: الجامع لأحكام القرآن (١١/ ١٤٥) وإليه ذهب القرطبي.

(٢) الحديث أخرجه الترمذي (٣١٦٠)، والطبري في التفسير (١٩/ ١١١) من حديث يحيي بن سعيد، وأخرجه أحمد (١/ ٤٣٣)، الترمذي (٥/ ٣١٧) من حديث عبدالرحمن بن مهدي، كلاهما-يحيي بن سعيد وعبدالرحمن بن مهدي- عن شعبة عن السدي عن مرة الهمداني عن عبدالله بن مسعود ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ قال: يردونها، ثم يصدرون منها بأعمالهم).

ومن طريق يحيي، وطريق عبدالرحمن بن مهدي قال: (يدخلونها، أو يلجونها، ثم يصدرون منها بأعمالهم) موقوفًا. أخرجه أحمد (١/ ٤٣٥) من حديث عبد الرحمن بن مهدي، وأخرجه الحاكم (٢/ ٣٧٥)، والترمذي (٣١٥٩)، والدارمي (٢٨١٠) من حديث عبيدالله بن موسي كلاهما-عبدالرحمن بن مهدي وعبيدالله بن موسي- عن اسرائيل، عن السدي، قال: سألت مُرَّة الهمداني عن قول الله عز وجل﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ فحدثني أن عبدالله بن مسعود حدثهم، قال: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "يَرِدُ النَّاسُ النَّارَ ثُمَّ يَصْدُرُونَ مِنْهَا بِأَعْمَالِهِمْ فَأَوَّلُهُمْ كَلَمْحِ الْبَرْقِ ثُمَّ كَالرِّيحِ ثُمَّ كَحُضْرِ الْفَرَسِ ثُمَّ كَالرَّاكِبِ فِي رَحْلِهِ ثُمَّ كَشَدِّ الرَّجُلِ ثُمَّ كَمَشْيِهِ"هذا حديث عبيدالله بن موسي مرفوعًا. قلت: فالحديث جاء مرفوعًا من حديث إسرائيل، وموقوفًا من حديث شعبة، وقد أخرجه عبدالرحمن بن مهدي علي الوجهين، وقال لشعبة: إن إسرائيل رفعه، قال شعبة: وقد سمعته من السدي مرفوعًا، ولكني عمدًا أدعه-جامع الترمذي (٥/ ٣١٧)، وقال الترمذي عن المرفوع هذا حديث حسن. قلت: لأن مدار الحديث على السدي- وهو إسماعيل بن عبدالرحمن بن أبي كريمة- وهوصدوق يهم كما قال الحافظ بن حجر في التقريب (١/ ٥٢).

٢-ما رواه الطبري بإسناده عن مجاهد قال: (كنت عند ابن عباس، فأتاه رجل يُقال له أبو راشد، وهو نافع بن الأزرق، فقال له: يا ابن عباس أرأيت قول الله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ قال: أما أنا وأنت يا أبا راشد فسنردها فانظر هل نصدر عنها أم لا. [1]

قلت: وأولي هذه الأقوال: أن الورود هو المرور على الصراط، والصراط على متن جهنم، فينجي الله الناس من على الصراط بأعمالهم، والأدلة علي ذلك:

١-حديث أبي هريرة مرفوعًا في الصحيحين في حديث الرؤية والشفاعة وفيه"وَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ فَأَكُونُ، أَنَا وَأُمَّتِي أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُهَا، وَلَا يَتكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرُّسُلُ، وَدَعْوَى الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللهمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ. . . ". [2]

٢-حديث أبي سعيد الخدري مرفوعًا وفيه"ثُمَّ يُؤْتَى بِالْجِسْرِ، فَيُجْعَلُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ، قُلْنَا يَا رَسُولَ الله وَمَا الْجِسْرُ؟ قَالَ: مَدْحَضَةٌ مَزِلَّةٌ، عَلَيْهِ خطا طيف، وَكَلَالِيبُ، وَحَسَكَةٌ مُفَلْطَحَةٌ لَهَا شَوْكَةٌ عُقَيْفَاءُ تكُونُ بِنَجْدٍ يُقَالُ لَهَا السَّعْدَانُ، الْمُؤْمِنُ عَلَيْهَا كَالطَّرْفِ، وَكَالْبَرْقِ، وَكَالرِّيحِ، وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ، فَنَاجٍ مسلم، وَنَاجٍ مَخْدُوشٌ، وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، حَتَّى يَمُرَّ آخِرُهُمْ يُسْحَبُ سَحْبًا. . . "[3].

٣-حديث أبي هريرة، وحذيفة معًا في حديث استفتاح باب الجنة عن النبيﷺ وفيه: "وَتُرْسَلُ الْأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ فتقُومَانِ جَنَبَتَيْ الصِّرَاطِ يَمِيناً وَشِمَالًا، فَيَمُرُّ أَوَّلُكُمْ كَالْبَرْقِ، قَالَ: قُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، أَيُّ شَيْءٍ كَمَرِّ الْبَرْقِ؟ قَالَ: أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْبَرْقِ كَيْفَ يَمُرُّ وَيَرْجِعُ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ، ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ، ثُمَّ كَمَرِّ الطَّيْرِ وَشَدِّ الرِّجَالِ، تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ وَنَبِيُّكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصِّرَاطِ يَقُولُ: رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ، حَتَّى تَعْجِزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ، حَتَّى يَجِيءَ الرَّجُلُ فَلَا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلَّا زَحْفًا! قَالَ: وَفِي حَافَتَيْ الصِّرَاطِ كَلَالِيبُ مُعَلَّقَةٌ مَأْمُورَةٌ بِأَخْذِ مَنْ أُمِرَتْ بِهِ، فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ، وَمَكْدُوسٌ فِي النَّارِ. . . "[4].

---

(١) جامع البيان (٩/ ١١١)، وإسناده ضعيف فيه عنعنة عبدالملك بن جريج، وهو مدلس

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٣٧)، مسلم (١٨٢).

(٣) أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، مسلم (١٨٣).

(٤) أخرجه مسلم (١٩٥).

٤- حديث جابر بن عبدالله ﷺ، رواه مسلم في صحيحه، من حديث أَبِي الزُّبَيْرِ، أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ يُسْأَلُ عَنْ الْوُرُودِ فَقَالَ: نَجِيءُ نَحْنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ كَذَا وَكَذَا، انْظُرْ أَيْ ذَلِكَ فَوْقَ النَّاسِ قَالَ: فَتُدْعَى الْأُمَمُ بِأَوْثَانِهَا وَمَا كَانَتْ تَعْبُدُ، الْأَوَّلُ فَالْأَوَّلُ، ثُمَّ يَأْتِينَا رَبُّنَا بَعْدَ ذَلِكَ فَيَقُولُ: مَنْ تَنْظُرُونَ؟ فَيَقُولُونَ نَنْظُرُ رَبَّنَا، فَيَقُولُ أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ حَتَّى نَنْظُرَ إِلَيْكَ، فَيَتَجَلَّى لَهُمْ يَضْحَكُ، قَالَ: فَيَنْطَلِقُ بِهِمْ وَيَتَّبِعُونَهُ، وَيُعْطَى كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ مُنَافِقٍ أَوْ مُؤْمِنٍ نُورًا، ثُمَّ يَتَّبِعُونَهُ، وَعَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ كَلَالِيبُ، وَحَسَكٌ تَأْخُذُ مَنْ شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يُطْفَأُ نُورُ الْمُنَافِقِينَ، ثُمَّ يَنْجُو الْمُؤْمِنُونَ، فَتَنْجُو أَوَّلُ زُمْرَةٍ وُجُوهُهُمْ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، سَبْعُونَ أَلْفًا لَا يُحَاسَبُونَ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ كَأَضْوَاءِ نَجْمٍ فِي السَّمَاءِ ثُمَّ كَذَلِكَ. . .)[1].

٥-حديث حفصة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله" ﷺ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ لَا يَدْخُلَ النَّارَ- إِنْ شَاءَ اللهُ- أَحَدٌ شَهِدَ بَدْرًا وَالْحُدَيْبِيَةَ، قَالَتْ: فَقُلْتُ: أَلَيْسَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾، قَالَ فَسَمِعَتْهُ يَقُولُ: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا ﴾[2].

قال أبو هريرة: إذا كان يوم القيامة، يجتمع الناس نادى مناد: ليلحق كل أناس بما كانوا يعبدون، فيقوم هذا إلى الحجر، وهذا إلى الفرس، وهذا إلى الخشبة حتى يبقى الذين يعبدون الله، فيأتيهم الله، فإذا رأوه قاموا إليه، فيذهب بهم فيسلك بهم على الصراط، وفيه عليق، فعند ذلك يؤذن بالشفاعة، فيمرّ الناس، والنبيون يقولون: اللهمّ سلم سلم. قال بكير: فكان ابن عميرة يقول: فناج مسلم ومنكوس في جهنم ومخدوش، ثم ناج[3].

وهذه بعض أقوال أهل العلم في ذلك:

---

(١) أخرجه مسلم (١٩١).

(٢) أحمد (٦/ ٣٦٢)، الطبري في التفسير (٩/ ١١٢)، ابن ماجه (٤٢٨١)، الفاكهي في أخبار مكة (٢٨٧٤) من حديث الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر، عن أم مبشر، عن حفصة، قالت: قال رسول الله ﷺ. . . . الحديث. وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٤٥٤)، وأصله في مسلم (٢٤٩٦) من حديث أم مبشر، أنها سمعت النبيﷺ يقول عند حفصة"لايدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد الذين بايعوا تحتها".

(٣) تفسير الطبري (١٦/ ١١٢) إسناده صحيح. بسر بن سعيد ثقة (تقريب التقريب١/ ٦٨)، بكير بن عبدالله الأشج ثقة (تقريب التقريب١/ ٧٥)، عمرو بن الحارث بن يعقوب ثقة (تقريب التقريب١/ ٤٣٧).

قال ابن حجر: وَاخْتَلَفَ السَّلَف فِي الْمُرَاد بِالْوُرُودِ فِي الْآيَة، فَقِيلَ هُوَ الدُّخُول، وَقِيلَ الْمُرَاد بِالْوُرُودِ الْمَمَرّ عَلَيْهَا، وَهَذَانِ الْقَوْلَانِ أَصَحّ مَا وَرَدَ فِي ذَلِكَ وَلَا تَنَافِي بَيْنهمَا، لِأَنَّ مَنْ عَبَّرَ بِالدُّخُولِ تَجَوَّزَ بِهِ عَنْ الْمُرُور، وَوَجْهه أَنَّ الْمَارّ عَلَيْهَا فَوْق الصِّرَاط فِي مَعْنَى مَنْ دَخَلَهَا، لَكِنْ تَخْتَلِف أَحْوَال الْمَارَّة بِاخْتِلَافِ أَعْمَالهمْ، فَأَعْلَاهُمْ دَرَجَة مَنْ يَمُرّ كَلَمْعِ الْبَرْق، ثم قال: وَفِي هَذَا بَيَان ضَعْف قَوْل مَنْ قَالَ: الْوُرُود مُخْتَصّ بِالْكُفَّارِ، وَمَنْ قَالَ: مَعْنَى الْوُرُود الدُّنُوّ مِنْهَ، وَمَنْ قَالَ: مَعْنَاهُ الْإِشْرَاف عَلَيْهَا، وَمَنْ قَالَ: مَعْنَى وُرُودهَا: مَا يُصِيب الْمُؤْمِن فِي الدُّنْيَا مِنْ الْحُمَّى، عَلَى أَنَّ هَذَا الْأَخِير لَيْسَ بِبَعِيدٍ، وَلَا يُنَافِيه بَقِيَّة الْأَحَادِيث، وَالله أَعْلَم[١].

قال النووي: وَالصَّحِيح أَنَّ الْمُرَاد بِالْوُرُودِ فِي الْآيَة: الْمُرُور عَلَى الصِّرَاط، وَهُوَ جِسْر مَنْصُوب عَلَى جَهَنَّم، فَيَقَع فِيهَا أَهْلهَا، وَيَنْجُو الْآخَرُونَ[٢].

قال الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: يردها الجميع ثم يصدر عنها المؤمنون، فينجيهم الله، ويهوي فيها الكفار، وورودهما هو ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ من مرورهم على الصراط المنصوب على متن جهنم، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ وَمُكَدَّسٌ فيها[٣].

قال الشوكاني: ولا يخفى أن القول بأن الورود هوالمرور على الصرط، أو الورود على جهنم وهي خامدة فيه، جمع بين الأدلة من الكتاب والسنّة، فينبغي حمل هذه الآية على ذلك[٤]

الوجه الثالث: بيان المعتقد الصحيح في أن النار لا يخلد فيها إلا الكفار

أن النار لا يخلد فيها إلا الكافرون والجنة لا يخلد فيها إلا المؤمنون، وأما العصاة من المسلمين فأمرهم إلي الله، إن شاء عذبهم، وإن شاء عفا عنهم وأمرهم في النهاية إلي الجنة. وهذا بدليل الكتاب والسنة والإجماع:

أولًا: من الكتاب: فقد بين الله سبحانه وتعالي جزاء المؤمنين والكافرين أحق بيان، ففي المؤمنين قال الله تعالي ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ

(١) فتح الباري (٣/ ١٤٩)، باب: فضل من مات له ولد فاحتسب.

(٢) شرح صحيح مسلم (٨/ ٢٩٦)، وانظر: الاستذكار لابن عبد البر (٨/ ٣٣٠: ٣٢٦).

(٣) جامع البيان (٩/ ١١٢).

(٤) فتح القدير (٣/ ٤٨٧)، فتح البيان (٨/ ١٨٧).

خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ﴾ (النساء: ٥٧)، وقال ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ﴾ (النساء: ١٢٢)، وقال أيضا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ١٠٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾ (الكهف١٠٧ : ١٠٨)، وقال﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ﴾ (البينة٧: ٨)، والآيات في الباب كثيرة.

وفي حق الكافرين قال الله تعالي ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴾ (النساء ١٦٨ : ١٦٩)، وقال تعالي: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ﴾ (فاطر: ٣٦)، وقال أيضًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴾ (البينة: ٦)، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٦١ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ١٦٢﴾ (البقرة ١٦١ : ١٦٢)، وقال فيهم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٣٦ يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴾ (المائدة ٣٦: ٣٧)، والآيات في الباب كثيرة.

فأخبرنا تعالي في هذه الآيات، وأمثالها، أن أهل النار الذين هم أهلها، خلقت لهم وخلقوا لها، وأنهم خالدون فيها أبد الآبدين، ودهر الداهرين لا فكاك لهم منها، ولا خلاص، ولات حين مناص. فأخبر الله عن أبديتهم فيها بقوله﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ونفي تعالي خروجهم منها بقوله﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ونفي تعالي انقطاعها عنهم بقوله تعالي ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَا ﴾ ونفي فناءهم فيها بقوله تعالي ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾.

ثانيًا: من السنة: وهذه بعض الأدلة من السنة علي أن الجنة للموحدين، والنار للمشركين.

١-حديث عثمان بن عفان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ " مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ". [١]

٢-حديث أبي هريرة ﷺ: قال رسول الله ﷺ " أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ لَا يَلْقَى اللهَ بِهِمَا، عَبْدٌ غَيْرَ شَاكٍّ فِيهِمَا، إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ"[٢].

٣-حديث عبادة بن الصامت ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ "مَنْ قَالَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ، وَابْنُ أَمَتِهِ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ، وَأَنَّ النَّارَ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللهُ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ شَاءَ)[٣].

٤-حديث معاذ بن جبل ﷺ قال: أن رسول الله ﷺ قال: "مَا مِنْ عَبْدٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، إِلَّا حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى النَّارِ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلَا أُخْبِرُ بِهَا النَّاسَ فَيَسْتَبْشِرُوا؟ قَالَ إِذًا يَتَّكِلُوا، فَأَخْبَرَ بِهَا مُعَاذٌ عِنْدَ مَوْتِهِ تَأَثُّمًا"[٤].

وأخيرًا: حديث أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ "يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ فَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَن فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، فَيُذْبَحُن ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ، خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ ثُمَّ قَرَأَ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ وَهَؤُلَاءِ فِي غَفْلَةٍ أَهْلُ الدُّنْيَا ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ .[٥]

فهذا كله يوضح لنا أن النار لا يخلد فيها إلا الكافرون، وأن الجنة لايدخلها ولا يخلد فيها إلا المؤمنون، وأما العصاة من المسلمين الذين ماتوا علي الإسلام فأمرهم إلي الله، إن

(١) أخرجه مسلم (٢٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧).

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٣٥)، مسلم (٢٨)، واللفظ له.

(٤) أخرجه البخاري (١٢٨)، مسلم (٣٢)، واللفظ له.

(٥) أخرجه البخاري (٤٧٣٠)، مسلم (٢٨٤٩).

شاء عذبهم، وإن شاء عفا عنهم، وإن عذبهم فأدخلهم النار فلا يخلدون فيها، لكن علي قدر ذنوبهم فهم يطهرون، وإليك بعض الأدلة علي ذلك:

١- حديث أبي سعيد الخدري ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ" أَمَّا أَهْلُ النَّارِ، الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا، فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ، وَلَكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمُ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ- أَوْ قَالَ بِخَطَايَاهُمْ- فَأَمَاتَهُمْ إِمَاتَةً، حَتَّى إِذَا كَانُوا فَحْمًا أُذِنَ بِالشَّفَاعَةِ، فَجِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرَ ضَبَائِرَ، فَبُثُّوا عَلَى أَنْهَارِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ قِيلَ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ، فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحِبَّةِ تَكُونُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ". (١)

٢-حديث أبي هريرة ﵁ -حديث معرفة الرؤية- وفيه قول النبي ﷺ "حَتَّى إِذَا فَرَغَ الله مِنْ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ، وَأَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ بِرَحْمَتِهِ مَنْ أَرَادَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنْ النَّارِ مَنْ كَانَ لَا يُشْرِكُ بِالله شَيْئًا مِمَّنْ أَرَادَ الله تَعَالَى أَنْ يَرْحَمَهُ مِمَّنْ يَقُولُ لا إِلَهَ إِلَّا الله، فَيَعْرِفُونَهُمْ فِي النَّارِ، يَعْرِفُونَهُمْ بِأَثَرِ السُّجُودِ. . . وَقَدْ امْتَحَشُوا، فَيُصَبُّ عَلَيْهِمْ مَاءُ الْحَيَاةِ، فَيَنْبُتُونَ مِنْهُ كَمَا تَنْبُتُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ.. ". (٢)

٣-حديث جابر بن عبدالله ﵁ وفيه" ثُمَّ تَحِلُّ الشَّفَاعَةُ وَيَشْفَعُونَ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنْ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ شَعِيرَةً فَيُجْعَلُونَ بِفِنَاءِ الْجَنَّةِ:. (٣)

٤-حديث أنس أن النبي ﷺ قال: "يَخْرُجُ مِنْ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنْ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ شَعِيرَةً ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنْ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ بُرَّةً ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنْ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ ذَرَّةً". (٤)

وعنه أيضا: أن النبي ﷺ قال في حديث الشفاعة"**ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا** فَيُقَالُ لِي يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ وَسَلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَقُولُ: يَا رَبِّ ائْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا الله قَالَ لَيْسَ ذَاكَ لَكَ أَوْ قَالَ لَيْسَ ذَاكَ إِلَيْكَ وَلَكِنْ وَعِزَّتِي وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي وَجِبْرِيَائِي لَأُخْرِجَنَّ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا الله).

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٥)، باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار.

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٣٧)، مسلم (١٨٢) واللفظ له.

(٣) أخرجه مسلم (١٩١).

(٤) أخرجه مسلم (١٩٣).

ثالثًا: الإجماع:

قال النووي: وَأَمَّا حُكْمه ﷺ عَلَى مَنْ مَاتَ يُشْرِك بِدُخُولِ النَّار وَمَنْ مَاتَ غَيْر مُشْرِك بِدُخُولِهِ الْجَنَّة فَقَدْ أَجْمَع عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ. فَأَمَّا دُخُول الْمُشْرِك النَّار فَهُوَ عَلَى عُمُومه فَيَدْخُلهَا وَيَخْلُد فِيهَا وَلَا فَرْق فِيهِ بَيْن الْكِتَابِيّ الْيَهُودِيّ وَالنَّصْرَانِيّ وَبَيْن عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ وَسَائِرِ الْكَفَرَة. وَلَا فَرْق عِنْد أَهْل الْحَقّ بَيْنَ الْكَافِر عِنَادًا وَغَيْره، وَلَا بَيْن مَنْ خَالَفَ مِلَّة الْإِسْلَام وَبَيْن مَنْ اِنْتَسَبَ إِلَيْهَا. ثُمَّ حُكِمَ بِكُفْرِهِ بِجَحْدِهِ مَا يَكْفُر بِجَحْدِهِ وَغَيْر ذَلِكَ. وَأَمَّا دُخُول مَنْ مَاتَ غَيْر مُشْرِك الْجَنَّة فَهُوَ مَقْطُوع لَهُ بِهِ لَكِنْ إِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِب كَبِيرَة مَاتَ مُصِرًّا عَلَيْهَا دَخَلَ الْجَنَّة أَوَّلًا، وَإِنْ كَانَ صَاحِب كَبِيرَة مَاتَ مُصِرًّا عَلَيْهَا فَهُوَ تَحْت الْمَشِيئَة، فَإِنْ عُفِيَ عَنْهُ دَخَلَ أَوَّلًا وَإِلَّا عُذِّبَ، ثُمَّ أُخْرِجَ مِنْ النَّار، وَخُلِّدَ فِي الْجَنَّة.[1]

أقوال بعض الأئمة:

قال النووي: وَاعْلَمْ أَنَّ مَذْهَب أَهْل السُّنَّة، وَمَا عَلَيْهِ أَهْل الْحَقّ مِنْ السَّلَف وَالْخَلَف، أَنَّ مَنْ مَاتَ مُوَحِّدًا دَخَلَ الْجَنَّة قَطْعًا عَلَى كُلّ حَال، فَإِنْ كَانَ سَالِمًا مِنْ الْمَعَاصِي كَالصَّغِيرِ، وَالْمَجْنُون وَالَّذِي اِتَّصَلَ جُنُونه بِالْبُلُوغِ، وَالتَّائِب تَوْبَة صَحِيحَة مِنْ الشِّرْك، أَوْ غَيْره مِنْ الْمَعَاصِي، إِذَا لَمْ يُحْدِث مَعْصِيَة بَعْد تَوْبَته، وَالْمُوَفَّق الَّذِي لَمْ يُبْتَلَ بِمَعْصِيَةٍ أَصْلًا، فَكُلّ هَذَا الصِّنْف يَدْخُلُونَ الْجَنَّة، وَلَا يَدْخُلُونَ النَّار أَصْلًا، لَكِنَّهُمْ يَرِدُونَهَا عَلَى الْخِلَاف الْمَعْرُوف فِي الْوُرُود، وَالصَّحِيح أَنَّ الْمُرَاد بِهِ الْمُرُور عَلَى الصِّرَاط وَهُوَ مَنْصُوب عَلَى ظَهْر جَهَنَّم- أَعَاذَنَا الله مِنْهَا وَمِنْ سَائِر الْمَكْرُوه- وَأَمَّا مَنْ كَانَتْ لَهُ مَعْصِيَة كَبِيرَة، وَمَاتَ مِنْ غَيْر تَوْبَة فَهُوَ فِي مَشِيئَة الله تَعَالَى: فَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ وَأَدْخَلَهُ الْجَنَّة أَوَّلًا وَجَعَلَهُ كَالْقِسْمِ الْأَوَّل، وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ الْقَدْرَ الَّذِي يُرِيدهُ سُبْحَانه وَتَعَالَى، ثُمَّ يُدْخِلهُ الْجَنَّة، فَلَا يَخْلُد فِي النَّار أَحَد مَاتَ عَلَى التَّوْحِيد وَلَوْ عَمِلَ مِنْ الْمَعَاصِي مَا عَمِلَ. كَمَا أَنَّهُ لَا يَدْخُل الْجَنَّة أَحَد مَاتَ عَلَى الْكُفْر وَلَوْ عَمِلَ مِنْ أَعْمَال الْبِرّ مَا عَمِلَ.

هَذَا مُخْتَصَر جَامِع لِمَذْهَبِ أَهْل الْحَقّ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَة، وَقَدْ تَظَاهَرَتْ أَدِلَّة الْكِتَاب وَالسُّنَّة وَإِجْمَاع مَنْ يُعْتَدّ بِهِ مِنْ الْأُمَّة عَلَى هَذِهِ الْقَاعِدَة، وَتَوَاتَرَتْ بِذَلِكَ نُصُوص تُحَصِّل الْعِلْم الْقَطْعِيّ.[2]

---

(١) شرح صحيح مسلم (١/ ٣٧٤).

(٢) شرح صحيح مسلم (١/ ٢٥٦: ٢٥٥).

وقال الطحاوي: وَأَهْلُ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّة مُحَمَّدٍ ﷺ في النَّارِ لَا يُخَلَّدُونَ، إِذَا مَاتُوا وَهُمْ مُوَحِّدُونَ وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا تَائِبِينَ بَعْدَ أَنْ لَقُوا الله عَارِفِينَ. وَهُمْ فِي مَشِيئَتِه وَحُكْمِه، إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ وَعَفَا عَنْهُمْ بِفَضْلِه، كَمَا ذَكَرَ ﷻ فِي كِتَابِه: ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ (النساء٤٨)، وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ فِي النَّارِ بِعَدْلِه، ثُمَّ يُخْرِجُهُمْ مِنْهَا بِرَحْمَتِه وَشَفَاعَة الشَّافِعِينَ مِنْ أَهْلِ طَاعَتِه، ثُمَّ يَبْعَثُهُمْ إِلى جَنَّتِه، وَذَلِكَ بِأَنَّ الله تعالى مَوَلَّى أَهْلَ مَعْرِفَتِه، وَلَمْ يَجْعَلْهُمْ فِي الدَّارَيْنِ كَأَهْلِ نَكَرَتِه، الَّذِينَ خَابُوا مِنْ هِدَايَتِه، وَلَمْ يَنَالُوا مِنْ وِلَايَتِه. [١]

وقال الإمام أحمد بن حنبل: ومن لقي الله بذنب يجب له به النار تائبا غير مصر عليه؛ فإن الله ﷻ يتوب عليه، ويقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات، ومن لقيه وقد أقيم عليه حد ذلك الذنب في الدنيا؛ فهو كفارته، كما جاء الخبر عن رسول الله ﷺ، ومن لقيه مصرًا غير تائب من الذنوب التي قد استوجب بها العقوبة؛ فأمره إلى الله ﷻ، إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له ومن لقيه كافرًا؛ عذبه ولم يغفر له. [٢]

* * *

(١) شرح العقيدة الطحاوية (٢/ ٥٢٤).

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٢/ ١٨٢) للالكائي، وهو معتقد علي بن المديني أيضًا.

٢- شبهة: حول تبشير إبراهيم عليه السلام.

نص الشبهة:

قال تعالى في سورة الحج ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ (الحجر: ٥٣)، وقال تعالى في سورة هود: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ (هود: ٧١).

قالوا هذا اضطراب في القرآن:

١. الأولى بشروا إبراهيم، والثانية بشروا زوجته.

٢. فهم أن البشارة في الآية: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾﴾ (هود: ٧٤) هي: إهلاك قوم لوط، وقالوا: ولكننا نعلم أن الأنباء بإهلاك (سدوم) هي بخلاف البشارة بميلاد إسحاق.

والجواب عن هذا من هذه الوجوه:

الوجه الأول: أن هذا ليس بتعارض، فالولد لهما جميعًا فبشروه أولًا، ثم بشروها.

الوجه الثاني: بيان الحكمة في تخصيص سارة بالبشارة.

الوجه الثالث: في بيان معنى البشرى، وأن المراد بها البشرى بإسحاق.

وإليك التفصيل،

الوجه الأول: أن هذا ليس بتعارض.

إذ إن الولد لإبراهيم عليه السلام ولزوجته، فالبشرى لهما أو لأحدهما بشرى للجميع، فبشروه أولًا، ثم بشروها ثانيًا، فالأصل هي البشرى لإبراهيم عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾ (الحجر ٥٣: ٥٥)، وقال تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (الصافات: ١١٢)، وقال تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ (الذاريات ٢٨: ٢٩).

ثم كانت البشرى لزوجته، قال تعالى: ﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴿٧١﴾ ﴾ (هود: ٧١).

وفي هذه الآيات- من سورة هود- يتضح الأمر أن البشرى له، ثم لها أيضًا، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ﴿٧٠﴾ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴿٧١﴾ ﴾ (هود ٦٩: ٧١).

الوجه الثاني: الحكمة في تخصيص سارة بالبشرى.

وفي تعيين سارة -زوجة إبراهيم عليه السلام- بالبشرى أسباب، منها:

١ -إيذان بأن ما بشر به يكون منها، إذ إن إبراهيم عليه السلام له زوجة أخرى. (١)

٢ -لكونها عقيم، وحريصة على الولد، وقد كان ولد لإبراهيم من هاجر أمته. (٢)

٣- لعظم فرحها بالولد ولربما زاد على فرح الزوج في هذه الحالة . (٣)

٤ -مكافأة لها على خدمتها. (٤)

الوجه الثالث: في بيان معنى البشرى.

القول الأول: البشرى(إسحاق):

قال الطبري: فلما ذهب عن إبراهيم الخوفُ الذي أوجسه في نفسه من رسلنا، حين رأى أيديهم لا تصل إلى طعامه، وأمن أن يكون قُصِد في نفسه وأهله بسوء ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ ﴾ بإسحاق، ظلّ ﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ﴾، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل:

عن قتادة: قوله ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ ﴾ يقول: ذهب عنه الخوف ﴿وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ ﴾ بإسحاق(٥).

---

(١) محاسن التأويل (٩/ ١٤٩)، فتح القدير (٢/ ٧١٣).

(٢) روح المعاني (١٢/ ٩٩)، تفسير أبي السعود (٤/ ٣٢٥)، فتح البيان (٦/ ٢١٣).

(٣) البحر المحيط (٥/ ٢٤٣).

(٤) النكت والعيون (٢/ ٧٣: ٧٤).

(٥) جامع البيان (١٢/ ٧٧)، وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١١٠٣٥)، ورجاله ثقات.

وعن ابن إسحاق: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ ﴾ بإسحاق، ويعقوب ولد من صلب إسحاق، وأمن مما كان يخاف، قال: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ ﴾[١].

القول الثاني: البشرى إهلاك قوم لوط.

وقد ذكره الطبري في تفسيره، وصدره بقوله: قيل، وممن قال به قتادة ﴿وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ ﴾ قال: حين أخبروه أنهم أرسلوا إلى قوم لوط، وأنهم ليسوا إياه يريدون.[٢]

قلت: وكأن الصحيح عن قتادة أن المراد بالبشرى إسحاق، بدليل أن معمر قال: وقال آخرون بشر بإسحاق.[٣]

القول الثالث: البشرى نبوته.

عن عكرمة -يعني قوله ﴿جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ ﴾ قال: بشر بنبوته[٤].

وهذا القول مردود لأسباب:

أولًا: ضعف الخبر.

ثانيًا: أن نبوة إبراهيم عليه السلام كانت قبل ذلك بكثير.

القول الرابع: أنهم بشروه بإخراج محمد ﷺ من صلبه، وأنه خاتم الأنبياء.[٥]

ورد هذا القول: بأن البشرى جاءت مصرحة في بعض الآيات، قال تعالى: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ (الذريات: ٢٨)، وقال: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ (الحجر: ٥٣).

---

(١) جامع البيان (١٢/ ٧٧)، وإسناده ضعيف.

(٢) جامع البيان (١٢/ ٧٧)، ابن أبي حاتم (١١٠٣٦)، وعبد الرزاق في تفسيره (١٢١٩)، إسناده صحيح، والطبري، وابن أبي حاتم، من طريق محمد بن عبد الأعلى، ثنا محمد بن ثور، عن معمر، عن قتادة. . ، وأخرجه عبد الرزاق عن معمر به، ومحمد بن عبد الأعلى: ثقة- التقريب (٢/ ٥٣٣)، ومحمد بن ثور: ثقة. التقريب (٢/ ٥١٦).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (١٢٢٠)، جامع البيان (١٢/ ٧٨).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٥٣) حديث (١١٠٠٥).

(٥) النكت والعيون (٢/ ٤٨٢)، زاد المسير (٤/ ١٢٧).

قلت: الراجح أن البشرى كانت بإسحاق ، وذلك للآتي:

أولًا: صحة الدليل عليه.

ثانيًا: سياق القصة يدل عليه.

ثالثًا: أن البشرى قد حصلت قبل أن يخبروه بأنهم أُرسلوا إلى قوم لوط ولو كانت البشرى هي إهلاك قوم لوط فلماذا سألهم عن حالهم وماذا يريدون لقوله تعالى: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ (الحجر: ٥٧).

رابعًا: لو كانت البشرى بإهلاك قوم لوط؛ فلماذا كان يجادل الملائكة في أمرهم بعد ذلك؟

وهذا بعض كلام أهل العلم في معني البشري:

قال الشنقيطي: قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا ﴾ (هود: ٦٩)، لم يبين هنا ما المراد بهذه البشرى التي جاءت بها الرسل – الملائكة – إبراهيم، ولكنه أشار بعد هذا إلى أنها البشارة بإسحاق ويعقوب في قوله: ﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ (هود: ٧١)؛ لأن البشارة بالذرية الطيبة شاملة للأم والأب، كما يدل لذلك قوله: ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (الصافات: ١١٢)، وقوله: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ (الذاريات: ٢٨)، وقوله: ﴿ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ (الحجر: ٥٣).

وقيل: البشرى هي إخبارهم له بأنهم أرسلوا لإهلاك قوم لوط، وعليه فالآيات المبينة لها: كقوله هنا في هذه السورة: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾ (هود: ٧٠)، وقوله: ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ ﴾ (الحجر: ٥٨، ٥٩)، وقوله: ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ (الذاريات ٣٢، ٣٣)، وقوله: ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ (العنكبوت: ٣١).

والظاهر القول الأول، وهذه الآية الأخيرة تدل عليه؛ لأن فيها التصريح بأن إخبارهم بإهلاك قوم لوط بعد مجيئهم بالبشرى؛ لأنه مرتب عليه بأداة الشرط التي هي(لما)كما ترى. [1]

---

(١) أضواء البيان (٣/ ٢٥، ٢٦).

قال الشوكاني: والبشرى التي بشروه بها هي بشارته بالولد، وقيل بإهلاك قوم لوط، والأول أولى. [١]

قال ابن عطية: وهذه الآية تقضي باشتراكهم في البشارة بإسحاق، وقالت فرقة- وهي الأكثر-: ﴿ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ هي بإسحاق، وقالت فرقة: ﴿ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ هي بإهلاك قوم لوط. [٢]

قال السعدي: ﴿بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ أي: بالبشارة بالولد، حين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط، وأمرهم أن يمروا على إبراهيم، فيبشروه بإسحاق. [٣]

* * *

(١) فتح القدير (٢/ ٧١١)، فتح البيان (٦/ ٢١٠).

(٢) المحرر الوجيز (٣/ ١٨٧).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٣٨٥).

سورة النحل

شبهة: الإكراه على الكفر.

نص الشبهة:

يقولون: جاء في سورة النحل قول الله تعالى: ﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (النحل: ١٠٦)، وقد نزلت في عمار بن ياسر ﷺ؛ وذلك لأن المشركين أخذوه وأباه وأمه وغيرهم فعذبوهم وقتلوا أباه وأمه، وأما عمار فوافقهم وكفر بمحمد وقلبه كاره، فأتى عمارُ محمدًا ﷺ وهو يبكي، فقال له محمد: كيف وجدت قلبك؟ قال: مطمئنًا بالإيمان، فجعل النبي يمسح عينيه وقال: "إن عادوا فعد لهم بما قلت"، يعني: يجوز الكفر باللسان إذا كان في القلب الإيمان؟

وهذا تعليم فاسد، فهل يرضى الله بالشرك به باللسان؟ وهل من الأمانة أن يُزَوِّرَ الإنسانُ في عقيدته وينكر إلهه في سبيل إرضاء الناس؟

قال المسيح: لاَ تَخَافُوا مِنَ الَّذِينَ يَقْتُلُونَ الْجَسَدَ، وَبَعْدَ ذلِكَ لَيْسَ لَهُمْ مَا يَفْعَلُونَ أَكْثَرَ. بَلْ أُرِيكُمْ مِمَّنْ تَخَافُونَ: خَافُوا مِنَ الَّذِي بَعْدَمَا يَقْتُلُ، لَهُ سُلْطَانٌ أَنْ يُلْقِيَ فِي جَهَنَّمَ. . . وَمَنْ أَنْكَرَنِي قُدَّامَ النَّاسِ، يُنْكَرُ قُدَّامَ مَلاَئِكَةِ الله. (متى ١٠/ ٢٨، ٣٣).

والجواب من وجوه:

الوجه الأول: معنى الآية وسبب النزول.

الوجه الثاني: التفصيل في مسألة الإكراه على الكفر.

الوجه الثالث: الحكمة من جواز التلفظ بكلمة الكفر مع اطمئنان القلب بالإيمان.

الوجه الرابع: بيان الكفر البواح في الكتاب المقدس خاصةً مع الأنبياء.

وإليك التفصيل،

الوجه الأول: معنى الآية وسبب نزولها.

أخبر تعالى عمن كفر به بعد الإيمان والتبصر، وشرح صدره بالكفر واطمأن به: أنه قد غَضب عليه؛ لعلمهم بالإيمان ثم عدولهم عنه، وأن لهم عذابًا عظيمًا في الدار الآخرة؛ لأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، فأقدموا على ما أقدموا عليه من الردة لأجل الدنيا، ولم يهدِ الله قلوبهم ويثبتهم على الدين الحق، فطبع على قلوبهم فلا يعقلون بها شيئًا ينفعهم وختم على سمعهم وأبصارهم فلا ينتفعون بها، ولا أغنت عنهم شيئًا، فهم غافلون عما يراد بهم، ﴿ لا جَرَمَ ﴾ أي: لا بد ولا عجب أن من هذه صفته ﴿ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ أي: الذين خسروا أنفسهم وأهاليهم يوم القيامة. وأما قوله: ﴿ إِلا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ ﴾ فهو استثناء ممن كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مُكْرَهًا لما ناله من ضرب وأذى، وقلبه يأبى ما يقول وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله.[١]

وقد نقل أهل التفسير أن الآية نزلت في عمار بن ياسر؛ قال ابن عباس: وذلك أن المشركين أصابوا عمار بن ياسر فعذّبوه، ثم تركوه، فرجع إلى رسول الله ﷺ فحدّثه بالذي لقي من قريش والذي قال: فأنزل الله تعالى عذره: ﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

وعن قتادة قال: ذُكِر لنا أنها نزلت في عمار بن ياسر، أخذه بنو المغيرة فغطوه في بئر ميمون وقالوا: اكفر بمحمد، فتابعهم على ذلك وقلبه كاره، فأنزل الله تعالى ذكره: ﴿ إِلا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا ﴾ أي: من أتى الكفر على اختيار واستحباب ﴿ فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

وعن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر؛ قال: أخذ المشركون عمار بن ياسر، فعذّبوه حتى باراهم في بعض ما أرادوا فشكا ذلك إلى النبيّ ﷺ، فقال النبيّ ﷺ: «كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟» قال: مطمئنًا بالإيمان، قال النبيّ ﷺ: «فإنْ عادُوا فَعُدْ»[٢].

الوجه الثاني: التفصيل في مسألة الإكراه.

١ـ جواز التلفظ بكلمة الكفر.

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/ ٣٥٧).

(٢) تفسير الطبري (١٧/ ٣٠٤).

أجمع أهل العلم على أن من أُكره على الكفر حتى خَشِيَ على نفسه القتل أنه لا يأثم عليه إن كفر وقلبه مطمئن بالإيمان، ولا تَبِينُ منه زوجته، ولا يحكم عليه بحكم الكفر[(١)].

٢ـ شروط الإكراه أربعة:

الأول: أن يكون فاعله قادرًا على إيقاع ما يهدد به والمأمور عاجزًا عن الدفع ولو بالفرار.

الثاني: أن يغلب على ظنه أنه إذا امتنع أوقع به ذلك.

الثالث: أن يكون ما هدده به فوريًا، فلو قال: إن لم تفعل كذا ضربتك غدًا لا يعد مكرهًا، ويستثنى ما إذا ذكر زمنًا قريبًا جدًّا أو جرت العادة بأنه لا يخلف.

الرابع: أن لا يظهر من المأمور ما يدل على اختياره كمن أكره على الزنا فأولج وأمكنه أن ينزع ويقول: أنزلت فيتمادى حتى ينزل، وكمن قيل له: طلق ثلاثًا فطلق واحدة، وكذا عكسه، ولا فرق بين الإكراه على القول والفعل عند الجمهور[(٢)].

٣ـ استعمال المعاريض.

قال المحققون من العلماء: إذا تلفظ المكره بالكفر فلا يجوز له أن يجريه على لسانه إلا مجرى المعاريض فإن في المعاريض لمندوحة عن الكذب، ومتى لم يكن كذلك كان كافرًا لأن المعاريض لا سلطان للإكراه عليها مثاله: أن يقال له: اكفر بالله، فيقول: باللاهي، فيزيد الياء، وكذلك إذا قيل له: اكفر بالنبي، فيقول: هو كافر بالنبي – مشددًا- وهو المكان المرتفع من الأرض، ويطلق على ما يعمل من الخوص شبه المائدة؛ فيقصد أحدهما بقلبه ويبرأ من الكفر، ويبرأ من إثمه، فإن قيل له: اكفر بالنبيء مهموزًا فيقول: هو كافر بالنبيء؛ يريد بالمخبر أيَّ مخبرٍ كان كطليحة ومسيلمة الكذاب، أو يريد به النبيء الذي قال فيه الشاعر:

فأصبح رتما دقاق الحصى ... مكان النبيء من الكاث[(٣)]

الصبر على العذاب أفضل من التلفظ بالكفر.

أجمعوا على أنه لا يجب عليه التكلم بكلمة الكفر وإن اختار القتل فهو أعظم أجرًا عند

---

(١) تفسير القرطبي (١٠/ ١٦٠)، المغني لابن قدامة (١٠/ ٩٧)، وفتح الباري (١٦/ ٧٨).

(٢) فتح الباري (١٦/ ٧٨).

(٣) تفسير القرطبي (١٠/ ١٦٠)، تفسير الرازي (٢٠/ ٩٧).

الله ممن اختار الرخصة ويدل عليه وجوه:

أحدها: أنا روينا أن بلالًا صبر على ذلك العذاب، وكان يقول: أحد أحد، ولم يقل رسول الله ﷺ: بئس ما صنعت بل عظمه عليه، فدل ذلك على أنه لا يجب التكلم بكلمة الكفر.

وثانيها: ما رُوي أن مسيلمة الكذاب أخذ رجلين فقال لأحدهما: ما تقول في محمد؟

فقال: رسول الله، فقال: ما تقول في؟ قال: أنت أيضًا، فخلاه وقال للآخر: ما تقول في محمد؟ قال: رسول الله، قال: ما تقول في؟ قال: أنا أصم، فأعاد عليه ثلاثًا، فأعاد جوابه فقتله، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «أما الأول فقد أخذ برخصة الله، وأما الثاني فقد صدع بالحق، فهنيئًا له» وجه الاستدلال بهذا الخبر من وجهين: الأول: أنه سمى التلفظ بكلمة الكفر رخصة. والثاني: أنه عظم حال من أمسك عنه حتى قتل. وثالثها: أن بذل النفس في تقرير الحق أشق؛ فوجب أن يكون أكثر ثوابًا لقوله ﷺ: «أفضل العبادات أحمزها» أي: أشقها. ورابعها: أن الذي أمسك عن كلمة الكفر طهر قلبه ولسانه عن الكفر، أما الذي تلفظ بها فهب أن قلبه طاهر عنه إلا أن لسانه الظاهر قد تلطخ بتلك الكلمة الخبيثة؛ فوجب أن يكون حال الأول أفضل، والله أعلم[1].

واختلفوا فيمن أكره على غير القتل من فعل ما لا يحل له.

فقال أصحابُ مالكٍ الأخذَ بالشدة في ذلك، واختيار القتل والضرب أفضل عند الله من الأخذ بالرخصة. روى خباب بن الأرت قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلت: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: "قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه فما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون» فوصفه ﷺ هذا عن الأمم السالفة على جهة المدح لهم والصبر على المكروه في ذات الله، وأنهم لم يكفروا في الظاهر وتبطنوا الإيمان ليدفعوا العذاب عن

---

(١) تفسير الرازي (٢٠/ ٩٨).

أنفسهم وهذه حجة من آثر الضرب والقتل والهوان على الرخصة والمقام بدار الجنان[1].

٤ـ حد الإكراه: يجب ههنا بيان الإكراه الذي عنده يجوز التلفظ بكلمة الكفر؛ وهو أن يعذبه بعذاب لا طاقة له به مثل التخويف بالقتل، ومثل الضرب الشديد والإيلامات القوية. قال مجاهد: أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وخباب، وصهيب، وبلال، وعمار، وسمية. أما الرسول ﷺ فمنعه أبو طالب، وأما أبو بكر فمنعه قومه، وأُخذ الآخرون وأُلبسوا دروع الحديد، ثم أُجلسوا في الشمس فبلغ منهم الجهد بِحَرِّ الحديد والشمس، وأتاهم أبو جهل يشتمهم ويوبخهم ويشتم سمية، ثم طعن الحربة في فرجها. وقال الآخرون: ما نالوا منهم غير بلال؛ فإنهم جعلوا يعذبونه فيقول: أحد أحد، حتى ملوا، فكتفوه وجعلوا في عنقه حبلًا من ليف ودفعوه إلى صبيانهم يلعبون به حتى ملوه فتركوه. قال عمار: كلنا تكلم بالذي أرادوا غير بلال، فهانت عليه نفسه فتركوه.

قال خباب: لقد أوقدوا لي نارًا ما أطفأها إلا ودك ظهري[2].

الوجه الثالث: الحكمة من جواز التلفظ بالكفر مع اطمئنان القلب بالإيمان.

يقول المعترض: إن هذا تعليم فاسد، وهل يرضى الله أن يشرك به باللسان، وكيف يزور الإنسان في عقيدته من أجل إرضاء الناس؟

وللإجابة عن ذلك نقول وبالله تعالى التوفيق والسداد:

وإنما أجاز الإسلام هذا الأمر من باب دفع الضرر عن أبنائه، والمحافظة عليهم، والإبقاء على حياتهم، وليس معناه أن من فعله أو أخذ بالرخصة أنه قد كره الإسلام أو أنكر الحق الذي يعتقده، وإنما هذا من باب ارتكاب أخف المفسدتين لدفع أعلاهما، وليست العبرة فقط بما يقوله اللسان، فكم من منافق كان على عهد النبي ﷺ يعلن الشهادتين بل ويصلي مع النبي ﷺ في المسجد وهو من ألد أعداء هذا الدين، حيث كان يبطن في قلبه الكفر والبغض للإسلام ونبي الإسلام، وكان النبي ﷺ يقبل منهم ظاهرهم ويكل باطنهم إلى الله تعالى، ومن سمات الإسلام الواضحة والظاهرة لكل ذي عينين أنه

---

(١) تفسير القرطبي (١٠/ ١٦٠).

(٢) تفسير الرازي (٢٠/ ٩٩).

دين الرحمة والوسطية وليس دين التشدد والغلو، فأباح لأبنائه التلفظ بكلمة الكفر عند تعرضهم للإكراه عليها، والله عليم ببواطنهم وما تنطوي عليه نفوسهم.

الوجه الرابع: بيان الكفر البواح في الكتاب المقدس خاصةً مع الأنبياء.

وهذا الذي نقل عن المسيح عليه السلام إن كان قد صح عنه فهو من الآصار والأغلال التي كانت على الأمم السابقة والتي وضعها الله عنا كما في أواخر سورة البقرة: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٨٦).

أي: لا تكلّفنا من الأعمال الشاقة وإن أطقناها كما شرعته للأمم الماضية قبلنا من الأغلال والآصار التي كانت عليهم التي بعثتَ نبيَك محمدًا ﷺ نبي الرحمة بوضعه في شرعه الذي أرسلته به من الدين الحنيف السهل السمح. وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "قال الله: نعم"[(١)].

ولم يرد أبدًا لا في القرآن ولا في الحديث الشريف ولو كلمة واحدة تمس نبيًا أو رسولًا من رسل الله بما يسيء إليه أو ينتقص من حقه، فلم يقل القرآن أبدًا عن نبي أو رسول أنه زنا مع بناته، أو أنه لص، أو أنه كفر وسجد لغير الله؛ حاش لله أن يكون أنبياء الله بهذا الوصف وهذا القبح الذي يصف به كتاب النصارى رسل الله وأنبياءه وهم مبرؤن منه.

فمن ذلك: سليمان كفر وهو ابن زنا كما يزعمون:

فَغَضِبَ الرَّبُّ عَلَى سُلَيْمَانَ لأَنَّ قَلْبَهُ مَالَ عَنِ الرَّبِّ إِلهِ إِسْرَائِيلَ الَّذِي تَرَاءَى لَهُ مَرَّتَيْنِ، ١٠وَأَوْصَاهُ فِي هذَا الأَمْرِ أَنْ لاَ يَتَّبِعَ آلِهَةً أُخْرَى، فَلَمْ يَحْفَظْ مَا أَوْصَى بِهِ الرَّبُّ. ١١فَقَالَ الرَّبُّ لِسُلَيْمَانَ: «مِنْ أَجْلِ أَنَّ ذلِكَ عِنْدَكَ، وَلَمْ تَحْفَظْ عَهْدِي وَفَرَائِضِيَ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ بِهَا، فَإِنِّي أُمَزِّقُ الْمَمْلَكَةَ عَنْكَ تَمْزِيقًا وَأُعْطِيهَا لِعَبْدِكَ (الملوك الأول ١١/ ١١: ٩).

وَكَانَ فِي زَمَانِ شَيْخُوخَةِ سُلَيْمَانَ أَنَّ نِسَاءَهُ أَمَلْنَ قَلْبَهُ وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَى، وَلَمْ يَكُنْ قَلْبُهُ كَامِلًا مَعَ الرَّبِّ إِلهِهِ كَقَلْبِ دَاوُدَ أَبِيهِ (الأيام (٢)/ ٤).

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٤٥٥).

بولس يُكفِّرُ النصارى: وَبَيْنَمَا هُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ حُكَمَاءُ صَارُوا جُهَلاَءَ وَأَبْدَلُوا مَجْدَ الله الَّذِي لاَ يَفْنَى بِشِبْهِ صُورَةِ الإِنْسَانِ الَّذِي يَفْنَى، وَالطُّيُورِ، وَالدَّوَابِّ، وَالزَّحَّافَاتِ. ٢٤لِذلِكَ أَسْلَمَهُمُ الله أَيْضًا فِي شَهَوَاتِ قُلُوبِهِمْ إِلَى النَّجَاسَةِ، لإِهَانَةِ أَجْسَادِهِمْ بَيْنَ ذَوَاتِهِم. ٢٥الَّذِينَ اسْتَبْدَلُوا حَقَّ الله بِالْكَذِبِ، وَاتَّقَوْا وَعَبَدُوا الْمَخْلُوقَ دُونَ الْخَالِقِ، الَّذِي هُوَ مُبَارَكٌ إِلَى الأَبَدِ (رومية ١/ ٢١-٢٥).

ويُعلم الردة: وَقَدْ أُخْبِرُوا عَنْكَ أَنَّكَ تُعَلِّمُ جَمِيعَ الْيَهُودِ الَّذِينَ بَيْنَ الأُمَمِ الارْتِدَادَ عَنْ مُوسَى، قَائِلًا أَنْ لاَ يَخْتِنُوا أَوْلاَدَهُمْ وَلاَ يَسْلُكُوا حَسَبَ الْعَوَائِدِ (أعمال الرسل ٢١: ٢١).

* * *

سورة الكهف

وفيها:

١- شبهة: ادعاؤهم أن قصة أهل الكهف من الخرافات.

٢- شبهة: مغيب الشمس في بئر.

١ـ شبهة: ادعاؤهم أن قصة أهل الكهف من الخرافات.

نص الشبهة:

قالوا: في سورة الكهف (٩: ١٠) ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾.

كيف يكون هذا الكلام وحيًا من عند الله؟ ، والقاصي والداني يعلم أن قصة أهل الكهف قصة خرافية اخترعها المسيحيون أثناء الاضطهاد لكي يشجعوا المؤمنين؟

والرد عليه من وجوه:

الوجه الأول: من فوائد القصص في القرآن.

الوجه الثاني: معرفة اليهود بهذه القصة.

الوجه الثالث: عدم حجية الكتاب المقدس.

الوجه الرابع: شهادة علم التاريخ و الآثار على وقوع هذه القصة.

الوجه الخامس: العثور على قرائن ومعالم للكهف.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: من فوائد القصص في القرآن.

عرف علماؤنا القرآن الكريم بأنه: كلام الله المنزل على محمد ﷺ بلفظه ومعناه، المعجز بتلاوته، والمنقول إلينا بالتواتر.

وهذا التعريف له دلالته في وصف القرآن الكريم، فكل ما ورد فيه من قصص وأخبار وأحكام وعقائد وغيرها قاله الله سبحانه يقينًا وأوحي به على قلب محمد ﷺ.

والقصة القرآنية كما هو معروف تمتاز بالصدق، والواقعية والدعوة للتوحيد والهدايات الربانية، وقد جاء ذكر كثير من هذا القصص بشكل أو بآخر في الكتب القديمة ولم يستطع علم التاريخ الحديث أن يبطل واحدة من هذه القصص بإقامة أدلة على عكس ما ذكره القرآن الكريم، بل قد عجز عن التوصل إلى معرفة خفايا كثير منها.

الوجه الثاني: معرفة اليهود بهذه القصة.

هذه القصة كانت معروفة عند اليهود في عهد رسول الله ﷺ، حيث أوعزوا لنفر من

قريش منهم النصر بن الحارث، وعقبة بن أبي مُعَيْط، وغيرهما أن يسألوا محمدًا ﷺ عن ثلاثة أمور لا يعلمها إلا نبي مرسل:

عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم؛ فإنه قد كان لهم حديث عجب، وسلوه عن رجل طواف طاف مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه، وسلوه عن الروح ما هي؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه، وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول فاصنعوا في أمره ما بدا لكم. فأقبل النضر وعقبة حتى قدما مكة على قريش فقالا: يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور وأخبروهم بها فجاءوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد: أخبرنا فسألوه عما أمروهم به، فقال لهم رسول الله ﷺ: "أخبركم عما سألتم عنه غدًا، ولم يستثن، فانصرفوا عنه فمكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله تعالى إليه في ذلك وحيًا ولا يأتيه جبريل عليه السلام حتى أرجف أهل مكة وقالوا: وعدنا محمد غدًا واليوم خمس عشرة ليلة وقد أصبحنا فيها لا ينجزنا بشيء مما سألناه عنه حتى حزن رسول الله ﷺ ومكث الوحي عنه، وشق عليه ما تكلم به أهل مكة ثم جاء جبريل من الله بسورة أصحاب الكهف فيها معاتبة إياه على حزنه، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطواف. يقول الله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[1].

فلو كانت هذه قصة غير صحيحة لما اقترحها يهود، ولاعترضوا عليها عندما سمعوها منه، ولأظهروا بطلانها، فعندما سمعوها ولم يعترضوا عليها دل ذلك على صدقها، وبطلان زعم هؤلاء أنها قصة خرافية.

الوجه الثالث: عدم حجية الكتاب المقدس.

أما حجتهم بعدم ذكرها في الكتاب المقدس فليس بدليل لهم؛ لأن هذا الكتاب دخله الزيادة والنقصان، والتحريف والتبديل وما فيه من اضطراب يزعزع الثقة فيه كما هو حال رسائل بولس مع الأناجيل الأربعة، ومع سبق ذكره من الأدلة علي ذلك.

ومسألة تحريف الكتاب الذي بين أيدي النصارى الآن تكاد تكون متواترة.

---

(١) سيرة ابن إسحاق (١/ ١٧٨)، والبداية والنهاية لابن كثير (٣/ ٥٢).

ولقد اعترف بعض النصارى بهذا التحريف، وألقاه على عاتق اليهود ومن هؤلاء (مرقيون)، وهو هرطوقي في نظر الكنيسة، عاش في القرن الثاني الميلادي مقتنعًا بأن اليهود قد حرفوا إنجيل المسيح الأصلي، ولذلك كان لا يعترف بأناجيل متى ومرقس ويوحنا.

وهذا يدل على أن ما ورد في الأناجيل ليس بحجة، وعدم وجود شيء فيها لا يدل على عدم وجوده ولا على عدم حدوثه.

وتكرار القصة في ديانتين أو أكثر فذلك لوحدة المصدر ولأن القصص في الديانات السماوية يتكرر ذكره لمصلحة الناس آنذاك وتأييدًا لنبي تلك الفترة، وإذا كان هؤلاء صادقين فيما يذكرونه فليثبتوا عكس ما أثبته القرآن الكريم. (١)

الوجه الرابع: شهادة علم التاريخ و الآثار على وقوع هذه القصة.

ذكرت المصادر النصرانية هذه القصة وأنها موجودة في كتب معتمدة.

قال الأستاذ محمد تيسير ظبيان/ في كتابه (أهل الكهف): لدى مراجعة المصادر المسيحية القديمة والحديثة تبين أن أول من كتب قصة أصحاب الكهف بالسريانية هو (جيمس الساورغي)، وكان كاهنًا لمقاطعة (ساروغ) في العراق، وقد ولد سنة (٤٥٢م) ومات سنة (٥١٨ م) أي بعد وفاة الإمبراطور (أثيودوسيس الثاني) المعروف بالأصغر.

وقد نقلت عنه القصة إلى اللغة اللاتينية بعناية (غريغوري) حوالي القرن السادس الميلادي كما تشير إلى ذلك موسوعة (chamfeus of tours).

ويقول الأستاذ/ رفيق الدجاني عالم الآثار الأردني، والذي كان له اليد الطولى في حفريات الكهف، أنه (أي الساروغي) عاصر الإمبراطور (جستينوس الأول) الذي حكم من سنة (٥١٨م) إلى (٥٢٧م) وفي زمانه بنيت الصومعة فوق الكهف، كما ثبت ذلك بالمكتشفات الأثرية التي عثر عليها كنقوده التي وجدت عند قواعد البنيان.

وقد نقلت هذه القصة من السريانية إلى اليونانية واللاتينية والحبشية والهندية والفارسية، ثم إلى العربية وإليها استند المفسرون والمؤرخون المسلمون في سرد تفاصيل هذه القصة.

* وجاء في دائرة المعارف للأخلاق والديانات تعقيبًا على هذه القصة: إن قصة النائمين السبعة

---

(١) آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره ـ د/ عمر بن إبراهيم رضوان (١/ ٢٩٢-٢٩٣).

من أكبر القصص التي تروي عن القديسين من حيث المتعة العقلية، والذيوع في الآفاق، ومما يذكر أن ذكرى هؤلاء الفتية حفظت في اجتماعات العشاء الرباني في الشرق المسيحي.

وقال (رفيق الجاني): وأخبرني أحد رجال الكهنوت في عمان أن لديهم صلاة خاصة تحمل اسم (الرقيم) نسبة إلى جبل الرقيم الذي يوجد في الكهف. (١)

ويقول محمد رضا صاحب كتاب (محمد رسول الله ﷺ) نقلًا عن الدكتور (ولفنسون الإسرائيلي) مدرس اللغات السامية بالجامعة المصرية ودار العلوم فقال في رسالته (تاريخ اليهود في بلاد العرب) ما يأتي: وينفي بعض المستشرقين صحة هذه القصة الخطيرة دون أن يأتوا بدليل نطمئن إليه، والحق أن من العسر إنكار الرواية تاريخيًا كانت سببًا في نزول سورة الكهف والآيات الخاصة بالروح وذي القرنين، وعندنا دليل يحملنا على الاعتقاد بأن هذه الرواية من المحتمل(٢) أن تكون واقعية وهي أن في التلمود قصة مشهورة تشبهه قصة أهل الكهف، أخذ أحبار اليهود الأسئلة التي وجهوها للرسول بواسطة وفد بني قريش، ويؤيد هذه القصة ما ذهبنا إليه من أنه لم يكن بمكة أحد من اليهود، إذ لو وجد منهم في مكة ما أوفد قريش وفدهم إلى المدينة ليسألوا أحبار اليهود عن شأن النبي ﷺ، وإذا وجد منهم أحد فلا بد أن يكون غير عالم. (٣)

الوجه الخامس: العثور على قرائن ومعالم للكهف.

ومما يدحض الاتهامات والأباطيل اكتشاف معالم الكهف، والعثور على قرائن وأدلة وبيانات تاريخية وأثرية تؤيد ما ورد في القرآن الكريم أعظم اكتشاف تاريخي وأثري في القرن العشرين، حيث أظهرت المعجزة القرآنية الكبرى بإخبار عن غيب ينكره هؤلاء، والأدلة والشواهد على حصول هذه القصة كثيرة، وهو أمر يتجاهله الكثير من النصارى اليوم. (٤)

* * *

(١) آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره ـ د/ عمر بن إبراهيم رضوان (١/ ٢٩٣-٢٩٤) نقلًا عن كتاب (أهل الكهف) لمؤلفه: محمد تيسير ظبيان.

(٢) قوله من المحتمل تعبير ضعيف، بل هي واقعية ليس في ذلك أدنى شك.

(٣) محمد رسول الله لمحمد رضا (١٢١).

(٤) آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره (١/ ٢٩٥).

٢ـ شبهة: مغيب الشمس في بئر.

نص الشبهة:

قالوا: جاء في سورة الكهف (٨٣-٨٦) ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾.

والسؤال: إذا كانت الشمس أكبر من الأرض مليونًا وثلاثين ألف مرة، فكيف تغرب في بئر رآها ذو القرنين ورأى ماءها وطينها ورأى الناس؟.

والرد على هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: معنى قوله تعالى: ﴿وَجَدَهَا﴾.

الوجه الثاني: معنى حرف الجر (في).

الوجه الثالث: تعدد معاني (في) في الكتاب المقدس.

الوجه الرابع: معنى (عين).

الوجه الخامس: تحريفهم لما نقلوه عن البيضاوي.

الوجه السادس: معاني الآية الكريمة.

الوجه السابع: آيات سورة (يس) تزيل الإشكال.

الوجه الثامن: وماذا عن الكتاب المقدس؟.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: معنى قوله تعالى: ﴿وَجَدَهَا﴾.

معنى ﴿وَجَدَهَا﴾: يحكي القرآن الكريم نبأ ﴿ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ فقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾.

ونريد الآن أن نفهم معنى الفعل الماضي ﴿وَجَدَهَا﴾ ونستطيع أن ندرك معنى هذا الفعل عن طريق هذا السؤال لما يسأل الواحد منا عن صحته فيقال له: كيف تجدك اليوم؟ أي: كيف حالك؟ ، فيجيب قائلًا: أجدني بخير وعافية، وقد يكون هذا القائل

مريضًا لكنه لا يدري، لأن أعراض المرض ليست من الوضوح، أو لأنه في اندماجه في حياته اليومية بحيث لا ينتبه لحالته الصحية الحقيقية.

وبالمثل قد يقول الواحد منا (صادقًا فيما يظن) إنه وجد فلانًا يضرب ابنه عند البيت، بينما الحقيقة أنه كان يداعبه، أو كان يضرب ابن الجيران مثلًا لكن المتكلم توهم الأمر على ما قال.

وقديمًا قال المتنبي الشاعر:

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرًا به الماء الزلالا

فهذا يعني أن الإنسان قد يجد الشيء على وضع ولا يعني هذا أنه على هذا الوضع في الحقيقة والواقع.

وفي قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾ (الكهف: ٧٧).

وليس هناك في الدنيا جدار يريد لأنه من الجمادات، وأيضًا فإن المفسرين قد قالوا إن الآية لو قالت: إن الشمس كانت تغرب في العين فعلًا لكان ثم سبيلًا لانتقادها، أما قولها إن ﴿ذا القرنين﴾ وجدها تغرب في العين فمعناه: أن ذلك هو إدراكه للأمر لا حقيقته الخارجية.

ولقد صرح البيضاوي بذلك حيث قال: ولعله بلغ ساحل المحيط فرآها كذلك إذ لم يكن في مطمح بصره غير الماء، ولذا قال: وجدها تغرب، ولم يقل: كانت تغرب[1].

وهذا الذي صرح به المفسرون هو الصواب، وفي الكتاب المقدس لدى اليهود والنصارى شيء مثل ذلك ومنه هذان الشاهدان:

١-(وأما نوح فوجد نعمة في عيني الرب) (تكوين ٦ : ٨)

٢-(فوجدها ملاك الرب على عين الماء في البرية. على العين التي في طريق شور) (تكوين ١٦ : ٧)، فالنعمة لا تجد في عين الرب على سبيل الحقيقة، كما أن المرأة التي وجدها ملاك الرب لم تكن على العين بل- عند العين-: أي أن الحقيقة الخارجية في كلا الشاهدين لم تكن على حرفية ما جاء في العبارتين.

٣-وعلى ضوء ما سبق يمكننا أن نقرأ الشواهد الشعرية التالية:

---

(١) تفسير البيضاوي (٤١١).

قال الأسعر الجعض:

إني وجدت الخيل عزًا ظاهرًا   تنجي من الغمى ويكشفن الدجى

وقال مالك بن عمرو:

متى تفخر بزرعه أو بحجر   تجد فخرًا يطير به السناء

وقال الحصين بن حمام الفزاري:

تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد   لنفسي حياة مثل أن أتقدما

ذلك أن وجدانك الشيء على وضع من الأوضاع، إنما يعني إدراكك له على هذا الوضع رؤية أو سماعًا أو شمًا أو لمسًا أو شعورًا باطنيًا أو استدلالا عقليًا كما في العبارات الآتية: (نظرت فوجدته قائمًا) أو (حينما اقتربت من الحجرة وجدته يقرأ) أو (قربت الزهرة من نفى فوجدتها مسكية العبير) أو (احتكت يدي بالحائط فوجدته خشن الملمس) أو (وجدت وقع إهانته عليَّ عنيفًا) أو (أعاد العلماء النظر في هيئة الأرض فوجدوها أقرب إلى شكل الكرة) ثم سواء عليك بعد هذا أكان هو فعلًا في الواقع والحقيقة كذلك أم لا.

٤-وعلى ضوء ما سبق نستطيع أن نقرأ قول الزبيدي صاحب (تاج العروس):

وقال المصنف في البصائر نقلًا عن أبي القاسم الأصبهاني:

الوجود أضرُب: **وجود** بإحدى الحواس الخمس، نحو: وجدت زيدًا ووجدت طعمه ورائحته وصوته وخشونته، **ووجود** بقوة الشهوة: وجدت الشبع، **ووجود** أيده الغضب نحو: وجود الحرب والسخط، **ووجود** بالعقل أو بوساطة العقل: كمعرفة الله تعالى ومعرفة النبوة، وما نسب إلى الله تعالى من الوجود فبمعنى العلم المجرد، إذ كان الله تعالى منزهًا عن الوصف بالجوارح والآلات، نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾. وكذا المعدوم يقال على ضد هذه الأوجه، ويعبر عن التمكن من الشيء بالوجود، نحو قوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ أي حيث رأيتموهم، وقوله تعالى ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾، وقوله ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ﴾ وقوله: ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ ووجود بالبصيرة، وكذا قوله

﴿وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ وقوله ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا﴾ أي إن لم تقدروا على الماء.[1]

الوجه الثاني: معنى حرف الجر (في).

حروف الجر ينوب بعضها عن بعض:

فمن المعروف عند علماء اللغة أن هناك توسعًا في استعمال حروف الجر، بحيث يؤدي هذا الحرف معاني غيره من الحروف الأخرى، ولنأخذ مثالًا على ذلك، فحرف الجر الذي معنا في هذه الآية وهو (في) لنرى ماذا يقول النحاة في استعمالاته:

قال ابن هشام: (في) حرف جر، له عشرة معاني:

١- الظرفية: وهي إما مكانية أو زمانية وقد اجتمعتا في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤﴾ (الروم: ١-٤).

أو مجازية: نحو ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾، ومن المكانية (أدخلت الخاتم في إصبعي، والقلنسوة في رأسي).

٢- المصاحبة، نحو قوله تعالى ﴿ٱدْخُلُوا فِيٓ أُمَمٍ﴾ أي معهم.

٣- التعليل، نحو قوله تعالى ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ وقال ﷺ" إن امرأة دخلت النار في هرة حبستها". أي بسبب.

٤- الاستعلاء، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾

٥- مرادفة الباء: كقول الشاعر:

ويركب يوم الروع منا فوارس يصيرون في طعن الأباهر والكلى

والشاهد قوله: يصيرون في طعن، حيث جاءت (في) بمعنى الباء.

٦- مرادفة (إلى) نحو قوله تعالى: ﴿فَرَدُّوٓا أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: مد الكفار أيديهم إلى أفواه الرسل ليمنعوهم من الدعوة إلى الهدى والنور.

---

(١) تاج العروس للزبيدي (١/ ٢٣١٩).

٧- مرادفة (من).

٨- المقايسة: وهي الداخلة بين مفضول سابق وفاضل لاحق، نحو قوله تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

٩-التعويض: وهي الزائدة عوضًا من (في) أخرى محذوفة، كما في قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾، والمقصود أن كلًا منهم يضع طرف إصبع واحدة من أصابعه عند فتحة الأذن، لا في داخلها.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، ولم يجعل المولى الإنسان خليفة في الأرض، أي في باطنها بل على سطحها، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي تحاجوننا بشأن الله، وقوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: صواب نواحي السماء وليس في السماء فعلًا.

ونقرأ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ والإنسان لا ينفق ماله في الرقاب وإنما لعتق الرقاب، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ أي: مقابلة جريمة القتل وتعويضًا لأهل القتيل، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾﴾ ومعلوم أنهم ليسوا في الأنهار، إنما تجري الأنهار من تحتهم.

١٠- التوكيد وهي الزائدة لغير التعويض[1].

الوجه الثالث: تعدد معاني (في) في الكتاب المقدس.

وكذلك في الكتاب المقدس أمثلة كثيرة على ما نقول، وهذه هي طبيعة اللغة، سواء في كتاب الله ﷻ أو في كلام أهل الكتاب أو في أي كلام آخر، وإليك بعض هذه الأمثلة:

(**كُلُّ شَجَرِ الْبَرِّيَّةِ لَمْ يَكُنْ بَعْدُ فِي الأَرْضِ**) (تكوين/ ٢: ٥).

---

(١) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب (١/ ٢٢٥) بتصرف.

(وَكَانَ قَايِينُ عَامِلًا فِي الأَرْضِ) (تكوين/ ٤: ٢)، (وَأَمَّا نُوحٌ فَوَجَدَ نِعْمَةً فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ) (تكوين/ ٦: ٨)، (كَانَ نُوحٌ رَجُلًا بَارًّا كَامِلًا فِي أَجْيَالِهِ) (تكوين/ ٦: ٩). (إِنْ كُنْتَ تُنْجِحُ طَرِيقِي الَّذِي أَنَا سَالِكٌ فِيهِ) (تكوين/ ٢٤: ٤٢)، (فَوَضَعْتُ الْخِزَامَةَ فِي أَنْفِهَا) (تكوين/ ٢٤: ٧)، (فَأَحَبَّ إِسْحَاقُ عِيسُوَ لأَنَّ فِي فَمِهِ صَيْدًا) (تكوين/ ٢٥: ٢٨) (فَتَعَاظَمَ الرَّجُلُ وَكَانَ يَتَزَايَدُ فِي التَّعَاظُمِ) (تكوين ٢٦: ١٣)، (فَالآنَ يَا ابْنِي اسْمَعْ لِقَوْلِي فِي مَا أَنَا آمُرُكَ بِهِ) (تكوين ٨: ٢٧)، (وَيَتَبَارَكُ فِيكَ وَفِي نَسْلِكَ جَمِيعُ قَبَائِلِ الأَرْضِ) (تكوين ٢٨: ١٤)، (وَخَلَعَ فِرْعَوْنُ خَاتِمَهُ مِنْ يَدِهِ وَجَعَلَهُ فِي يَدِ يُوسُفَ، وَأَلْبَسَهُ ثِيَابَ بُوصٍ، وَوَضَعَ طَوْقَ ذَهَبٍ فِي عُنُقِهِ) (تكوين ٤١: ٤٢)، (١٩فَتَقَدَّمُوا إِلَى الرَّجُلِ الَّذِي عَلَى بَيْتِ يُوسُفَ، وَكَلَّمُوهُ فِي بَابِ الْبَيْتِ) (تكوين ٤٣: ١٩).

وكغيرها كثير بالمئات إن لم تكن بالآلاف.

الوجه الرابع: معنى العين.

قال في لسان العرب (والعينُ: عين الماء، والعين التي يخرج منها الماء، والعين: ينبوع الماء الذي ينبع من الأرض ويجري. . . ، وعين الركبة: مفجر مائها ومنبعها، وعين القبلة: حقيقتها، والعين: مطر أيام لا يقلع، قال الرعي:

وأناءُ حيٍ تحت عين مطيرةٍ   عظام البيوت ينزلون الروابيا

يعني بحيث لا تخفى بيوتهم، يريدون أن تأتيهم الأضياف، والعين: الناحية، والعين: عين الركبة، ويعن الركبة: نقرة في مقدمها. . .). [(١)]

وغيرها كثير مما يدل على أن قول هؤلاء إن الشمس تغرب في بئر كلام غير صحيح لأن معنى كلمة العين تصدق على البحر والسحاب والمطر وغير ذلك.

الوجه الخامس: تحريفهم لما نقلوه عن البيضاوي.

إن ما نقله عن البيضاوي أنه قال: (إنها تغرب في بئر) فيه كذب وتدليس وقد سبق نقل قول البيضاوي في تفسيره للآية وها أنا ذا أعيد نقله ثانية ليتضح للقارئ كذب وتدليس هؤلاء.

قال البيضاوي: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ أي ذات حمأ من حمأت البئر إذا صارت

(١) لسان العرب لابن منظور (٤/ ٣١٩٧، ٣١٩٨).

ذات حمأ وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر ﴿حَامِيَةٌ﴾ أي: حارة، ولا تنافي بينهما لجواز أن تكون العين جامعة للوصفين على أن ياءها مقلوبة عن الهمزة لكسر ما قبلها ولعله بلغ ساحل المحيط فرآها كذلك إذ لم يكن في مطمح بصره غير الماء وكذلك وجدها تغرب ولم يقل كانت تغرب.

وقيل: إن ابن عباس سمع معاوية يقرأ ﴿حَامِيَةٌ﴾ فقال: ﴿حَمِئَةٍ﴾، فبعث معاوية إلى كعب الأحبار كيف تجد الشمس تغرب، قال: في ماء وطين كذلك نجده في التوراة[1].

الوجه السادس: معاني الآية الكريمة.

المعنى الأول: أن ذا القرنين لما بلغ موضعًا في المغرب، ولم يبق بعده شيئ من العمارات، وجد الشمس كأنها تغرب في عينٍ وهي مظلمة وإن لم تكن كذلك في الحقيقة، كما أن راكب البحر يرى الشمس كأنها تغيب في البحر إذا لم ير الشط وهي في الحقيقة تغيب وراء البحر.[2]

إذن فالكلام هنا على الرؤية البصرية، ولا شك أن حديث العينين عن الأفلاك

والشمس والقمر قديمًا وحديثًا يختلف عن حديث الفكر والعلماء، ومن الغباء أو الخداع الخلط بينهما، وينقل بيان الله تعالى في القرآن حوارًا بين سيدنا إبراهيم والنمرود الذي كان يدعي الربوبية، كثيرًا ما وصف من قبل المتصنعين للنقد العلمي بأنه دليل على سذاجة واضعي القرآن وعدم إطلاعهم على بديهيات علم الفلك، والحقيقة أن نقدهم هو الدليل الواضح على سذاجتهم أو على تصنعهم لنقد علمي لا معنى له ولا وجود له.

يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (البقرة: ٢٥٨).

أي: فإن الذي تراه العينان من كل إنسان أن الشمس تقبل من جهة الشرق إلى الغرب، فالمتحدي ينبغي أن يطالبه بالعكس بأن يأتي بها من جهة الغرب في الصباح، وهذا الذي يجري

---

(١) تفسير البيضاوي (٤١١).

(٢) تفسير الرازي (٢١/ ١٦٦)، فتح الباري (٨/ ٤٠٣).

فيه الحوار مما تراه العين، لا علاقة له بها وراء ذلك مما يقرر ه العلم أو العقل، إذ لكل منهما مجاله، والخلط بينهما تفاهة لا يقرها العلم، ويشمئز منها الذوق، فأنت تقول لصاحبك: مهما كنت خبيرًا بعلم الفلك وعلاقة الشمس بالأرض هاهي الشمس بازغة تطلع، وهاهي ذي توشك أن تغيب، ولا تقول: هاهي ذي الأرض قد دنت من الشمس حتى بدت للعيان. (١)

المعنى الثاني: أن للجانب الغربي من الأرض مساكن يحيط البحر بها، فالناظر إلى الشمس يتخيل كأنها تغيب في تلك البحار، ولا شك أن البحار الغربية قوية السخونة فهي حامية وهي أيضًا حمئة لكثرة ما فيها من الحمأة السوداء والماء فقوله ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ إشارة إلى أن الجانب الغربي من الأرض قد أحاط به البحر وهو موضع شديد السخونة. (٢)

المعنى الثالث: ويجوز أن تكون هذه العين من البحر، ويجوز أن تكون الشمس تغيب وراءها أو معها أو عندها، فيقام حرفة الصفة مقام صاحبه والله أعلم. (٣)

المعنى الرابع: ويجوز أن يكون المعنى أن ذا القرنين هو كان في العين الحمئة، والحامية حمية من حماتها، حامية من استحرارها، كما تقول رأيتك في البحر تريد أنك إذ رأيته كنت أنت في البحر، وبرهان هذا: أن مغربها الشتوي إذا كانت من آخر رأس الجدي إلى آخر مغربها الصيفي إذا كانت من رأس السرطان مرئي مشاهد ومقداره ثمان وأربعون درجة من الفلك، وهو يوازي من الأرض كلها بالبرهان الهندسي أقل من مقدار السدس، يكون من الأميال نحو ثلاثة آلاف ميل ونيف، وهذه المساحة لا يقع عليها في اللغة اسم عين البتة، لاسيما أن تكون عينًا حمية حامية، وباللغة العربية خوطبنا، فلما تيقنا بأنها عين بإخبار الله ﷻ الصادق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، علمنا يقينًا أن ذا القرنين انتهى به السير في الجهة التي مشي فيها من المغارب إلى العين المذكورة، وانقطع له إمكان المشي بعدها لاعتراض البحار له هناك، وقد علمنا بالضرورة أن ذا القرنين وغيره من الناس ليس يشغل من الأرض إلا مقدار مساحة جسمه فقط قائمًا أو قاعدًا أو مضطجعًا، ومن هذه صفته فلا يجوز أن يحيط

---

(١) لا يأتيه الباطل، لمحمد سعيد البوطي (ص٦٧، ص٦٩).

(٢) التفسير الكبير للرازي (٢١/ ١٦٧).

(٣) تفسير القرطبي (١١/ ٥٤) نقلًا عن القتبي.

بصره من الأرض كما يظن أهل الجهل، ولا بد أن يلقى خط بصره من حدبة الأرض أو من نشز من أنشازها ما يمنع الخط من التمادي، إلا أن يقول قائل إن تلك العين هي البحر فلا يجوز أن يسمى البحر في اللغة عينًا حمئة ولا حامية، وقد أخبر الله ﷻ أن الشمس تسبح في الفلك، وأنها إنما هي في الفلك سراج، وقول الله تعالى هو الصدق الذي لا يجوز أن يختلف أو يتناقض، فلو غابت في عين من الأرض كما يظن أهل الجهل أو في البحر لكانت الشمس قد زالت عن السماء وخرجت عن الفلك، وهذا هو الباطل المخالف لكلام الله ﷻ حقًا، نعوذ بالله من ذلك.[1] ولا سيما مع ما قام البرهان عليه أن جرم الشمس أكبر من جرم الأرض.

برهان آخر قاطع: وهو قول الله ﷻ: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ وقرئ ﴿حَامِيَةٍ﴾، ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ فصح ضرورة أنه وجد القوم عند العين لا عند الشمس، ومن كان عند العين فهو في العين.[2]

الوجه السابع: آيات سورة (يس) تزيل الإشكال.

ولا شك أن هذا الذي يدندن حول هذه الشبهة الواهية في سورة الكهف، قد قرأ سورة يس بحثًا عن شبهات أخرى، ولا ريب أنه وجد منها هذه الآيات الكريمات:

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ (يس: ٣٧-٤٠)، فليته أصغى السمع على هذا الكلام الذي يتنزل من عند الله الكريم، عن الليل والنهار والشمس والقمر والنظام الذي بثه الله في كل منها، فلا ريب أنه تلقى من هذه الآيات الجواب الشافي عن شبهته، وإنه لجواب مقنع حقًا لكل منصف.

ولكن آفة هذا العصر أن فيه من يحترف البحث عن المشكلات فإن لم يجدها اختلقها، ويحترف الفرار من حلولها وأجوبتها، فإن ووجه بها تصامم عنها أو تغابى عن فهمها،

(١) الفصل في الملل والنحل لابن حزم (١/ ٣٠٧) (قلت): وملخص هذا المعنى أن قوله ﴿ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ حال من صاحبها وهو ذو القرنين ويكون المعنى: وجدها تغرب حالة وجوده في العين الحمئة.

(٢) المصدر السابق.

فيقرأ في القرآن الآيات التي استشكلها ولم يعرج على الآيات التي تجيب عنها.[1]

الوجه الثامن: وماذا عن الكتاب المقدس.

ففي الكتاب المقدس عبارات كثيرة من نوع الآية القرآنية التي بين أيدينا، فنراه قد أوغل في مضمار الاستخدامات المجازية، ومن الشواهد على هذا الكلام:

أَمَا هُمَا فِي عَبْرِ الأُرْدُنِّ، وَرَاءَ طَرِيقِ غُرُوبِ الشَّمْسِ فِي أَرْضِ الْكَنْعَانِيِّينَ السَّاكِنِينَ فِي الْعَرَبَةِ، مُقَابِلَ الْجِلْجَالِ، بِجَانِبِ بَلُّوطَاتِ مُورَةَ؟ (قضاة٥: ٣١).

هكَذَا قَالَ الرَّبُّ: هأَنَذَا أُقِيمُ عَلَيْكَ الشَّرَّ مِنْ بَيْتِكَ، وَآخُذُ نِسَاءَكَ أَمَامَ عَيْنَيْكَ وَأُعْطِيهِنَّ لِقَرِيبِكَ، فَيَضْطَجعُ مَعَ نِسَائِكَ فِي عَيْنِ هذِهِ الشَّمْسِ (صموئيل: ٢/ ١٢: ١١) (**قُدَّامَ الشَّمْسِ يَمْتَدُّ اسْمُهُ**) (مزامير ٧٢: ١٧)، (**ثُمَّ رَجَعْتُ وَرَأَيْتُ كُلَّ الْمَظَالِمِ الَّتِي تُجْرَى تَحْتَ الشَّمْسِ**) (الجامعة ٤/ ١)، (**وَفَسَدَتِ الأَرْضُ أَمَامَ الله، وَامْتَلأَتِ الأَرْضُ ظُلْمًا**) (تكوين ٦: ١١)، (**وَأُدْخِلُكُمْ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي رَفَعْتُ يَدِي أَنْ أُعْطِيَهَا لإِبْرَاهِيمَ**) (خروج ٦: ٨)، (**دَوْرٌ يَمْضِي وَدَوْرٌ يَجِيءُ، وَالأَرْضُ قَائِمَةٌ إِلَى الأَبَدِ**) (جامعة ١: ٤).

ومن الواضح أن هذا كله على خلاف الواقع وينبغي ألا يأخذه القارئ مأخذًا حرفيًا، إلا لم يكن للكلام معنى، فمثلًا ليس هناك للشمس **تحت** ولا فوق، وإنما هو تعبير بشري، فنحن أينما كنا على الأرض نتصور أن الشمس فوقنا، ومن ثم فنحن تحتها، على حين أنه لو كان الأمر كذلك لكان ينبغي إذن أن نكون فوق الشمس بعد ستة أشهر من ذلك حين تدور الأرض نصف دورتها السنوية، وهذا لا يصير، كذلك فليس للشمس عين ولا أذن ولا أنف أصلًا حتى نكون أو لا نكون في عينها، كما أنها ليس لها طريق تسير فيه الأرض، ودعك من أننا يمكن أن نسير فيه نحن.

وبالنسبة لقول هابيل إنه هرب في الأرض فهو مجرد تعبير بشري، وإلا فقولنا: في الأرض، إنما يعني حرفيًا داخل الأرض وهو ما لا يقصده قابيل ولا أي إنسان آخر في مثل موضعه، وهكذا.

* * *

(١) (لا يأتيه الباطل) لمحمد سعيد البوطي (٧١).

سورة مريم

وفيها:

١- شبهة: زكريا عليه السلام يخشى من الموالي.

٢- شبهة: انتباذ مريم عليها السلام.

٣- شبهة: صيام مريم عليها السلام.

٤- شبهة: تكلم المسيح عليه السلام في المهد.

٥- شبهة: عن إسماعيل عليه السلام.

٦- شبهة: نزول جبريل عليه السلام.

١ـ شبهة: زكريا عليه السلام يخشى من الموالي.

نص الشبهة:

جاء في القرآن على لسان زكريا: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ﴾ لماذا خاف زكريا من الموالي (عصبته وبني عمه)، هل لأنه صاحب مال فخشي توريث ماله لمواليه؟ مع أنه مكتوب في التوراة أنه كان وزوجته بارَّين ولم يخشيا أحدًا؟

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: العلة من سؤال زكريا ربه.

الوجه الثاني: سبب خوف زكريا.

الوجه الثالث: زهد الأنبياء.

الوجه الرابع: الأنبياء لا يورثون.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: العلة من سؤال زكريا ربه.

إن زكريا عليه السلام خشي من الموالي أن يتصـرفوا من بعده في الناس تصرفًا سيئًا، فسأل الله ولدًا يكون نبيًّا من بعده، لِيُسَوِّسَهُمْ بنبوته وما يوحى إليه. فأجيب في ذلك[1].

إذن كان سبب خوف زكريا وخشيته سببًا دينيًا لا سببًا دنيويًا، وفي مثل هذا يُمدح الرجال ويعظمون.

الوجه الثاني: سبب خوف زكريا.

إذن سبب خشيته منهم دينيٌّ، لا أنه خشي من وراثتهم له ماله، فإن النبي أعظم منزلة وأجل قدرًا من أن يشفق على ماله إلى ما هذا حده أن يأنف من وراثة عصابته له، ويسأل أن يكون له ولد، فيحوز ميراثه دونه دونهم.[2]

الوجه الثالث: زهد الأنبياء.

أنه لم يذكر أنه كان ذا مال، بل كان نجارًا يأكل من كسب يديه، ومثل هذا لا يجمع

(١) تفسير ابن كثير (٩/ ٢١٥).

(٢) تفسير ابن كثير (٩/ ٢١٥).

مالًا؛ ولا سيما الأنبياء - عليهم السلام- فإنهم كانوا أزهد شيء في الدنيا[(١)].

الوجه الرابع: الأنبياء لا يورثون.

قد ثبت في الصحيحين من غير وجه: أن رسول الله ﷺ قال: "لا نورث ما تركنا صدقة"، وفي رواية عند الترمذي بإسناد صحيح: "نحن معشر الأنبياء لا نورث" وعلى هذا فتعين حمل قوله: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي﴾ على ميراث النبوة، ولهذا قال: ﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ كقوله: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ أي: في النبوة، إذ لو كان في المال لما خصه من بين إخوته بذلك، ولما كان في الإخبار بذلك كبير فائدة؛ إذ من المعلوم المستقر في جميع الشرائع والملل أن الولد يرث أباه، فلولا أنها وراثة خاصة لما أخبر بها، وكل هذا يقرره ويثبته ما صح في الحديث: "نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركنا فهو صدقة"[(٢)].

* * *

---

(١) تفسير ابن كثير (٩/ ٢١٦: ٢١٥)، وانظر تفسير القرطبي (١١/ ٨٣).

(٢) أضواء البيان (٤/ ٢٢٣).

٢ـ شبهة: انتباذ مريم عليها السلام.

نص الشبهة:

قال المعترض: جاء في سورة مريم: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ (مريم٢٢: ١٦).

ولم يذكر القرآن لنا لماذا انتبذت مريم العذراء من أهلها مكانًا شرقيًا، واتخذت من دونهم حجابًا قبل أن تبشر بالمسيح، هل كانت في مشاجرة مع أهلها؛ وهم المشهورون بالتقوى؟

ولماذا تسكن فتاة عذراء بعيدًا عن أهلها، مع أن القرآن يقول: إنها كانت في المحراب في كفالة زكريا؟ ويقول الإنجيل: إن مريم كانت في الناصرة وهي مخطوبة ليوسف النجار (لوقا: ١/ ٢٧).

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: من إعجاز القرآن الإجمال فيما لا فائدة من ذكره.

الوجه الثاني: ذكر الآراء في سبب الانتباذ.

الوجه الثالث: انتباذ مريم كما في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: من إعجاز القرآن الإجمال فيما لا فائدة من التفصيل فيه.

فمن إعجاز القرآن الكريم أنه يُجمل فيما لا فائدة من التفصيل فيه، وذلك كذكر أسماء إخوة يوسف، وعدة أصحاب الكهف، وغيرها من الآيات التي أجملت ما لا فائدة منه، وإنما المقصودُ أخذُ العظةِ والعبرةِ من القصة، فهو المقصود الأول من ذكر القصص في القرآن الكريم، كما قال تعالى في آخر سورة يوسف: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾، فهل المطلوب من القرآن الكريم أن يذكر كل شيء عن حياة الشخص الذي يتحدث عنه؟!

ربما لم يذكر القرآن سبب انتباذها لأنه لن يفيد شيئًا في سياق القصة، أو للاختصار، أو لأي سبب نحو ذلك، والبحث في ذلك ليس وراءه كبيرُ نفعٍ، أو تعلق الذكر بما نتج عن هذا الانتباذ، ومولد نبي الله عيسى عليه السلام.

الوجه الثاني: ذكر الآراء في سبب الانتباذ.

قد ذكر المفسرون أسبابًا عدة لانتباذ مريم عليها السلام، أسوق بعضها مع عدم الجزم بصحة واحد منها؛ إذ لم يرد فيها نص صحيح عن نبينا المعصوم ﷺ، وأيضًا هذا مما لم نُكلف بالبحث عنه.

السبب الأول: أنها طلبت الخلوة لئلا تشتغل عن العبادة[(١)].

السبب الثاني: لحيض أصابها[(٢)].

السبب الثالث: لتفلي رأسها[(٣)].

وغيرها من الأقوال التي ليس عليها دليل صحيح يشجعنا لأن نجزم به دون غيره، وإنما نقول في مثل هذا: الله أعلم.

الوجه الثالث: انتباذ مريم كما في الكتاب المقدس.

وليس معنى انتباذ مريم أنها خرجت من بينهم بعد مشاجرة مع قومها، أو خصام معهم، وانظر إلى ما ورد في الإنجيل في معنى الانتباذ: " وَفِي ذلِكَ الْوَقْتِ وُلِدَ مُوسَى وَكَانَ جَمِيلًا جدًّا، فَرُبِّيَ هذَا ثَلاَثَةَ أَشْهُرٍ فِي بَيْتِ أَبِيهِ. ٢١ وَلَمَّا نُبِذَ، اتَّخَذَتْهُ ابْنَةُ فِرْعَوْنَ وَرَبَّتْهُ لِنَفْسِهَا ابْنًا. " (أعمال الرسل ٧/ ٢١: ٢٠).

قوله: " ولما نبذ " لا يدل على أن أهله كرهوه، وإنما يدل على أنهم وضعوه في التابوت، وهم لوضعه كارهون. ومن ينتبذ عن قوم، لا يدل انتباذه عنهم على كره لهم، وإنما يدل

(١) التفسير الكبير للرازي (٢١/ ١٩٦)، والمحرر الوجيز لابن عطية (٤/ ٩).

(٢) تفسير ابن كثير (٩/ ٢٢٥)، وزاد المسير لابن الجوزي (٥/ ٢١٦).

(٣) زاد المسير لابن الجوزي (٥/ ٢١٦).

على ابتعاده عنهم لسبب أو لأسباب أو لطلب العزلة فقط، وإذا صح وثبت أن ابتعادها كان لعبادة الله؟ يثبت أنها لم تنبذ لمشاجرة[١].

أمّا قوله: أن القرآن ذكر أنها كانت في أورشليم، مع أن الإنجيل ذكر أنها سكنت الناصرة فالجواب:

١ـ جاء في إنجيل يعقوب: أن مريم وهى في سن الثالثة: ذهبت بها أمها بصحبة أبيها إلى "أورشليم" وسلماها إلى كهنة هيكل سليمان، وكانت علامات السرور تبدو عليها. ثم تركاها ورجعا إلى أورشليم، وعاشت مع الراهبات المنذورات إلى أن حبلت.

٢ ـ وإن أنت نظرت في خريطة فلسطين. تجد (حبرون) أسفل (أورشليم) وقريبة منها، وتجد الناصرة على نفس الخط وبعيدة عن (أورشليم). فتكون أورشليم غرب الناصرة، وشرق (حبرون).

٣. وقد تبين أن "الناصرة" من نصيب سبط (زبولون) ـ وهو من أسباط (السامريين) ـ وهى من سبط (يهوذا) ـ على حد زعمه! ـ فكيف تكون من سكان الناصرة؟!

وإذا كانت من سكان (الناصرة) فلماذا أتت إلى أورشليم لتعدّ مع سكانها، وسكان أورشليم من سبطى (يهوذا) (وبنيامين)؟! فالحق ما قاله القرآن أنها كانت (هارونية). ومعلوم أن زكريا وامرأته ويوحنا المعمدان كانوا من التابعين لأهل (أورشليم)[٢].

*   *   *

(١) حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين (صـ٤٧٥).

(٢) المصدر السابق (صـ٤٧٤).

٣- شبهة: صيام مريم عليها السلام.

نص الشبهة:

قالوا: جاء في سورة مريم (٢٢-٢٦): ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾.

ولنا في هذه الآيات ثلاثة أسئلة:

١- لقد ولدت مريم السيد المسيح في بيت لحم كما تنبأ أنبياء التوراة قبل حدوثه بمئات السنين، وليس بجوار جذع نخلة، ولكن وضعت مريم وليدها في المذور (لوقا٢/ ٢٤: ٥).

٢- وغريب أن يكلمها وليدها من تحتها: بأن تهز جذع النخلة، وتأكل من البلح، وتشرب من الجدول.

٣- وبعدما تأكل من البلح وتشرب من الجدول إذا مر بها أحد تقول: ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ فأين الصوم؟ وهي الآكلة الشاربة المتكلمة!

والرد على ذلك في ثلاثة وجوه:

الوجه الأول: ولادة مريم لعيسى عليه السلام.

الوجه الثاني: من المنادي في الآية؟.

الوجه الثالث: معنى الصوم في الآية.

واليك التفصيل

الوجه الأول: ولادة مريم لعيسى عليه السلام.

١- لا مانع من أن تلد مريم عيسى عليه السلام ببيت لحم ويكون تحت جذع نخلة، فلا غرابة في ذلك[1]. وليس عندنا من الآيات أو الأحاديث الصحيحة ما ينفي ذلك أو يثبت أنه ولد ببيت لحم أولًا، المهم أنه ولد تحت جذع نخلة.

(١) تفسير ابن كثير (٩/ ٢٣٢).

٢- ولادة المسيح في بيت لحم – كما قال المؤلف– تدل على أن مريم من سكان الخليل التي هي (حبرون)، ولا تدل على أنها من سكان (الناصرة). ففي خريطة فلسطين تجد (بيت لحم) تحت أورشليم وبعدها (حبرون). وعلى هذا تكون مريم بعد حملها بالمسيح وإحساسها بدنو الوضع قد اتجهت إلى حبرون ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ ﴾ عند (بيت لحم)، وكانت من (الناصرة) وعندئذ يكون الوضع في مكان بين (أورشليم) وبين (الناصرة). فقولهم بالمخاض في (بيت لحم) يصدق القرآن في أنها كانت من نسل هارون الساكنين في (حبرون).

٣- وقول المعترض: إن التوراة تنبأت بولادة المسيح في (بيت لحم)، يقصد به ما جاء في سفر محيا وهو: **أَمَّا أَنْتِ يَا بَيْتَ لَحْمَ أَفْرَاتَةَ، وَأَنْتِ صَغِيرَةٌ أَنْ تَكُونِي بَيْنَ أُلُوفِ يَهُوذَا، فَمِنْكِ يَخْرُجُ لِي الَّذِي يَكُونُ مُتَسَلِّطًا عَلَى إِسْرَائِيلَ، وَمَخَارِجُهُ مُنْذُ الْقَدِيمِ، مُنْذُ أَيَّامِ الأَزَلِ** (ميخا ٥ : ٢).

والنبوة موضوعة وليست من النص الأصلي بدليل: أن المسيح ﷺ كان من الهارونيين من جهة أمه، وبيت لحم من مدن سبط يهوذا، ولو كان له أب لأمكن للنصارى نسبته إلى سبط أبيه ولكنه لا أب له، فكيف ينتسب ليهوذا أو غير سبط يهوذا؟.

وبدليل: أن المتسلط على إسرائيل وهو النبي الأمي الآتي على مثال موسى يكون ملكًا وفاتح بلاد، ولم يكن المسيح ملكًا ولا فاتح بلاد.

وبدليل: أن سفر ميخا مرفوض من السامريين، وبدليل أن شرح سفر ميخا يصرحون بالتناقض فيه، والنبوة من مواضع التناقض التي صرحوا بها.

يقول الشراح: "هناك تعليمان متشابكان في كتاب ميخا:

١- الله يدين شعبة ويعاقبه (ف ١ : ٦: ٣-١، ٧: ٧).

٢- الله يعد شعبه بالخلاص (ف٤-٥، ٢٠-٨: ٧) حين يعيده إلى حاله السابقة ويجعله بقيادة رئيس من نسل داود (٥: ٤-١).

٣- وقد جاء من إنجيل متى الأبوبكريفي معجزة النخلة. [1]

الوجه الثاني: من المنادي في الآية؟.

(١) حقائق الإسلام في مواجهة المشككين (٤٧٧-٤٧٦).

أولًا: وقع اختلاف بين المفسرين في الـمُنادي الذي ناداها من تحتها على قولين:

١- إما أنه جبريل عليه السلام وقال بهذا القول: ابن عباس، وعمرو بن ميمون، والضحاك والسدي.

٢- وإما أنه المسيح عيسى عليه السلام وقال بهذا القول: مجاهد، والحسن، وقتادة.

والراجح والله أعلم أنه عيسى عليه السلام للآتي:

١-لأنه من كناية ذكره أقرب منه من ذكر جبرائيل، فرده على الذي هو أقرب إليه أولى من رده على الذي هو أبعد منه، ألا ترى في سياق قوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ يعني به: فحملت عيسى فأنتبذت به، ثم قيل: ﴿فَنَادَىٰهَا﴾ نسقًا على ذلك من ذكر عيسى، والخبر عنه.

٢- ولعلة أخرى وهي قوله: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ ولم تشر إليه إلا وقد علمت أنه ناطق في حاله تلك، والذي كانت قد عرفت ووثقت به منه بمخاطبته إياها بقوله لها: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ وما أخبر الله عنه أنه قال لها: أشيري للقوم إليه، ولو كان ذلك قولًا من جبرائيل لكان خليقًا أن يكون في ظاهر الخبر، مبينًا أن عيسى سينطق ويحتج عنها للقوم، وأمرًا منه لها بأن تشير إليه للقوم إذا سألوها عن حالها وحاله[1].

ثانيًا: وما الغرابة في ذلك أن يكون عيسى هو المتكلم؟ "أليس الذي خلقه من غير أب قادر على أن ينطقه في المهد؟! أليس الله على كل شيء قدير؟

ثالثًا: "في نطق عيسى عليه السلام معجزة ظاهرة قوية على أن أمه بريئة من الزنا؛ لأنه نطق أول ما نطق بقوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ فهل يتصور أن يكون نبيًا من أم زانية؟!

وفيه أيضًا: إشارة إلى أنه سيكون له شأنٌ آخر غير البشر الآخرين.

رابعًا: كلام المسيح في المهد جاء في (برنابا)، وفى إنجيل (الطفولية العربي) وجاء في تاريخ "يوسطيوس""[2].

الوجه الثالث: معنى الصوم في الآية.

---

(١) تفسير الطبري (١٦/ ٦٩).

(٢) حقائق الإسلام (٤٧٧).

المقصود بقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ أي: كلي واشربي من الرزق الذي رزقكم الله إياه، فإما ترين من البشر أحدًا فقولي: إني نذرت للرحمن صمتًا، فهي صامت فقط عن الكلام لا عن الأكل والشرب بدليل قولها: ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ ولم تقل: فلن آكل[1].

* * *

(١) تفسير الطبري (١٦/ ٧٤، ٧٥)، حقائق الإسلام (٤٧٨) بتصرف.

٤ـ شبهة: تكلم المسيح ﷺ في المهد.

نص الشبهة:

قال المعترض: يقول تعالى في سورة (مريم٣٢: ٢٩): ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾

قالوا: هذا هو حديث المسيح في المهد كما صوره القرآن، غير أن الإمام الرازي اعترض على هذه الرواية القرآنية بقوله: اليهود والنصارى ينكرون أن عيسى تكلم في زمان الطفولة، واحتجوا عليه بأن هذا من الوقائع العجيبة التي تتوفر الدعاوى على نقلها، فلو وجدت لنقلت بالتواتر، ولو كان ذلك لعرفه النصارى، لاسيما وهم من أشد الناس غلوا فيه، حتى زعموا كونه إلهًا، ولا شك أن الكلام في الطفولة من المناقب العظيمة والفضائل التامة، فلما لم تعرفه النصارى، مع شدة الحب وكمال البحث عن أحواله علمنا أنه لم يوجد.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: أدلة إثبات الكلام لعيسى ﷺ في المهد.

الوجه الثاني: بيان الحكمة في كلام عيسى في المهد.

الوجه الثالث: الرد على من زعم أن عيسى لم يتكلم في المهد.

الوجه الرابع: بيان الحق في كلام الرازي.

واليك التفصيل

الوجه الأول: أدلة إثبات الكلام لعيسى ﷺ في المهد.

أولًا من القرآن: ١- قال تعالى ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾(آل عمران٤٦: ٤٥).

٢- قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ (المائدة: ١١٠).

٣- قال تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠)﴾ (مريم ٣٠: ٢٩).

فهذه الآيات تدل دلالة ظاهرة على أن عيسى تكلم في المهد.

ثانيًا من السنة:

١- عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: "لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى. . . "[1].

٢- عن أبي هريرة ﷺ قال: أُتي رسول الله ﷺ بلحم فرفع إليه الذراع، وكانت تعجبه، فنهس منها نهسة، ثم قال: "أنا سيد الناس يوم القيامة وهل تدرون مم ذلك؟. . . فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وكلمت الناس في المهد صبيًا، اشفع لنا، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول عيسى: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله قط، ولن يغضب بعده مثله - ولم يذكر ذنبًا- نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد ﷺ ". [2]

والشاهد في الحديث قول الناس: "يا عيسى أنت رسول الله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وكلمت الناس في المهد صبيًا" ففيه أيضًا إثبات الكلام لعيسى في المهد.

ثالثا من المعقول: قال الرازي أما المسلمون فقد احتجوا من جهة العقل على أنه تكلم، فإنه لو لا كلامه الذي دلهم على براءة أمه من الزنا لما تركوا إقامة الحد على الزنا عليها، ففي تركهم لذلك دلالة على أنه عليه السلام تكلم في المهد[3].

الوجه الثاني: بيان الحكمة في كلام عيسى في المهد.

١ـ دلالةً على براءَة أمه مما قَذفها به المفترون عليها[4].

٢ـ دلالة على نبوته[5].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٣٦)، مسلم (٢٥٥٠).

(٢) أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤).

(٣) تفسير الرازي (٢١/ ٢١٦).

(٤) الطبري في التفسير (٣/ ٣٧٢)، النكت والعيون (١/ ٣٩٤)، الرازي في التفسير (٨/ ٥٢).

(٥) الطبري في التفسير (٣/ ٣٧٢)، النكت والعيون (١/ ٣٩٤)، التحرير والتنوير (٣/ ٢٤٧).

الوجه الثالث: الرد على من زعم أن عيسى لم يتكلم في المهد.

قال الألوسي: وزعمت النصارى أنه ﷺ لم يتكلم في المهد ولم ينطق ببراءة أمه صغيرًا، بل أقام ثلاثين سنة واليهود تقذف أمه بيوسف النجار. وهذا من أكبر فضائحهم الصادحة برد ما هم عليه من دعوى الألوهية له ﷺ، وكذا تنقله في الأطوار المختلفة المتنافية؛ لأن مَنْ هذا شأنه بمعزل عن الألوهية، واعترضوا بأن كلامه في المهد من أعجب الأمور فلو كان لنُقل ولو نُقل لكان النصارى أولى الناس بمعرفته؟

وأجيب: بأن الحاضرين إذ ذاك لم يبلغوا مبلغ التواتر، ولما نقلوا كُذبوا فسكتوا، وبقي الأمر مكتومًا إلى أن نطق القرآن به، وهذا قريب على قول ابن عباس: (إنه لم يتكلم إلا ساعة من نهار)، وعلى القول الآخر: وهو أنه بقي يتكلم يُقال: إن الناس اشتغلوا بعد بنقل ما هو أعجب من ذلك من أحواله: كإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، والإخبار عن الغيوب، والخلق من الطين كهيئة الطير، حتى لم يذكر التكلم منهم إلا النزر، ولا زال الأمر بقلة حتى لم يبق مخبر عن ذلك، وبقي مكتومًا إلى أن أظهره القرآن.

وبعد هذا كله لك أن تقول: لا نسلم إجماع النصارى على عدم تكلمه في المهد، وظاهر الأخبار وقد تقدم بعضها يشير إلى أن بعضهم قائل بذلك، وبفرض إجماعهم نهاية ما يلزم الاستبعاد وهو بعد إخبار الصادق لا يسمن ولا يغني من جوع عند من رسخ إيمانه وقوي إيقانه، وكم أجمع أهل الكتابين على أشياء نطق القرآن الحق بخلافها والحق أحق بالاتباع، ولعل مرامهم من ذلك أن يطفئوا نور الله بأفواههم ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (التوبة: ٣٢)[1].

الوجه الرابع: بيان الحق في كلام الرازي.

زعم المعترض أن الرازي - رحمه الله - أنكر كلام عيسى في المهد، وأنقل الآن كلام الرازي في تفسيره، ونرى هل صحيح ما ذكره عنه هؤلاء أم هو الكذب والتدليس؟.[2]

قال الرازي: اعلم أنه وصف نفسه بصفات تسع:

---

(١) روح المعاني (٣/ ١٦٣).

(٢) قال الرازي (٢١/ ١٧٨).

الصفة الأولى: قوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ وفيه فوائد:

-الفائدة الأولى: أن الكلام منه في ذلك الوقت كان سببًا للوهم الذي ذهبت إليه النصارى، فلا جرم أول ما تكلم إنما تكلم بما يرفع ذلك الوهم فقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ وكان ذلك الكلام، وإن كان موهمًا من حيث إنه صدر عنه في تلك الحالة، ولكن ذلك الوهم يزول ولا يبقى من حيث إنه تنصيص على العبودية.

- الفائدة الثانية: أنه لما أقرَّ بالعبودية فإن كان صادقًا في مقاله، فقد حصل الغرض وإن كان كاذبًا لم تكن القوة قوة إلهية، بل قوة شيطانية فعلى التقديرين يبطل كونه إلهًا.

-الفائدة الثالثة: أن الذي اشتدت الحاجة إليه في ذلك الوقت إنما هو نفي تهمة الزنا عن مريم عليها السلام، ثم إن عيسى عليه السلام لم ينص على ذلك، وإنما نص على إثبات عبودية نفسه، كأنه جعل إزالة التهمة عن الله تعالى أولى من إزالة التهمة عن الأم، فلهذا أول ما تكلم إنما تكلم بها.

- الفائدة الرابعة: وهي أن التكلم بإزالة هذه التهمة عن الله تعالى يفيد إزالة التهمة عن الأم؛ لأن الله سبحانه لا يخصُّ الفاجرة بولد في هذه الدرجة العالية والمرتبة العظيمة. وأما التكلم بإزالة التهمة عن الأم لا يفيد إزالة التهمة عن الله تعالى فكان الاشتغال بذلك أولى فهذا مجموع ما في هذا اللفظ من الفوائد.

قلت: ثم راح الرازي يعدد صفات عيسى عليه السلام التي وصف نفسه بها صفة صفة، ويتكلم عليها ويجيب عن الإشكالات التي تعرض عليها، مما يدل دلالة قاطعة على أنه أثبت الكلام له عليه السلام.

ثم قال في آخر حديثه عن هذه الآيات:

(المسألة الثالثة: قال القاضي: (السلام) عبارة عما يحصل به الأمان ومنه السلامة في النعم وزوال الآفات، فكأنه سأل ربه وطلب منه ما أخبر الله تعالى أنه فعله بيحيى، ولا بُدَّ في الأنبياء من أن يكونوا مستجابي الدعوة، وأعظم أحوال الإنسان احتياجًا إلى السلامة هي هذه الأحوال الثلاثة؛ وهي: يوم الولادة، ويوم الموت، ويوم البعث، فجميع الأحوال التي يحتاج فيها إلى السلامة واجتماع السعادة من قبله تعالى طلبها ليكون مصونًا عن الآفات والمخافات في كل الأحوال.

واعلم أن اليهود والنصارى ينكرون أن عيسى عليه السلام تكلم في زمان الطفولية، واحتجوا

عليه بأن هذا من الوقائع العجيبة التي تتوافر الدواعي على نقلها، فلو وجدت لنقلت بالتواتر ولو كان ذلك لعرفه النصارى، لا سيما وهم من أشد الناس بحثًا عن أحواله وأشد الناس غلوًا فيه، حتى زعموا كونه إلهًا، ولا شك أن الكلام في الطفولية من المناقب العظيمة والفضائل التامة، فلما لم تعرفه النصارى مع شدة الحب وكمال البحث عن أحواله علمنا أنه لم يوجد، ولأن اليهود أظهروا عداوته حال ما أظهر ادعاء النبوة فلو أنه ﷺ تكلم في زمان الطفولية وادعى الرسالة لكانت عداوتهم معه أشد ولكان قصدهم قتله أعظم فحيث لم يحصل شيء من ذلك علمنا أنه ما تكلم، أما المسلمون فقد احتجوا من جهة العقل على أنه تكلم، فإنه لولا كلامه الذي دلهم على براءة أمه من الزنا لما تركوا إقامة الحد على الزنا عليها، ففي تركهم لذلك دلالة على أنه ﷺ تكلم في المهد، وأجابوا عن الشبهة الأولى بأنه: ربما كان الحاضرون عند كلامه قليلين، فلذلك لم يشتهر. وعن الثاني: لعل اليهود ما حضروا هناك وما سمعوا كلامه فلذلك لم يشتغلوا بقصد قتله)[1].

وقد قال الرازي قبل هذا: أجاب المتكلمون عن هذه الشبهة (من أنكر كلامه في المهد). قالوا: إن كلام عيسى ﷺ في المهد إنما كان للدلالة على براءة حال مريم من الفاحشة، وكان الحاضرون جمعًا قليلين، فالسامعون لذلك الكلام كان جمعًا قليلًا، ولا يبعد في مثله التواطؤ على الإخفاء، وبتقدير: أن يذكروا ذلك إلا أن اليهود كانوا يكذبونهم في ذلك وينسبونهم إلى البهت، فهم أيضًا قد سكتوا لهذه العلة، فلأجل هذه الأسباب بقي الأمر مكتومًا مخفيًا إلى أن أخبر الله سبحانه وتعالى محمدًا ﷺ بذلك، وأيضًا فليس كل النصارى ينكرون ذلك، فإنه نقل عن جعفر بن أبي طالب: لما قرأ على النجاشي سورة مريم، قال النجاشي: لا تفاوت بين واقعة عيسى، وبين المذكور في هذا الكلام بذرة[2].

فأنت تلحظ من كلامه – أي: الرازي- أنه مجرد حاكٍ لكلام اليهود والنصارى وليس مقرًا له بدليل قوله: **(أما المسلمون فقد احتجوا من جهة العقل على أنه تكلم فإنه لولا كلامه الذي. .) فوضح الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا.**

* * *

(١) الرازي في التفسير (٢١/ ٢١٦: ٢١٣).

(٢) الرازي في التفسير (٨/ ٥٢).

٥- شبهة: عن إسماعيل عليه السلام.

نص الشبهة:

قال المعترض: يقول تعالى في سورة مريم: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ (مريم٥٥: ٥٤)، وتُعلمنا التوراة في سفر التكوين (١٦/ ١٢) أن إسماعيل يكون وحشيًا يده على كل واحد، ويد كل واحد عليه، والقرآن جعله رسولًا ونبيًا. وادَّعوا أنه أرسل إلى جرهم؛ وهم قبيلة من عرب اليمن، ولم يسمع أن الله أرسل رسولًا إلى العرب، وبماذا وعد إسماعيل وصدق؟ فما هي وعوده؟ وما هي رسالته وبماذا تنبأ؟ فلا الكتاب المقدس ذكر هذا ولا حتى القرآن!

أم أن هذا الكلام لتحسين سمعة إسماعيل لأنه حسب التوراة: (إبراهيم طرده مع أمه)، وحسب العهد الجديد يقول: وَأَمَّا نَحْنُ أَيُّهَا الإِخْوَةُ فَنَظِيرُ إِسْحَاقَ، أَوْلاَدُ الْمَوْعِدِ. ٢٩ولكِنْ كَمَا كَانَ حِينَئِذٍ الَّذِي وُلِدَ حَسَبَ الْجَسَدِ يَضْطَهِدُ الَّذِي حَسَبَ الرُّوحِ، هكَذَا الآنَ أَيْضًا. ٣٠لكِنْ مَاذَا يَقُولُ الْكِتَابُ؟ «اطْرُدِ الْجَارِيَةَ وَابْنَهَا، لأَنَّهُ لاَ يَرِثُ ابْنُ الْجَارِيَةِ مَعَ ابْنِ الْحُرَّةِ». ٣١إِذًا أَيُّهَا الإِخْوَةُ لَسْنَا أَوْلاَدَ جَارِيَةٍ بَلْ أَوْلاَدُ الْحُرَّةِ.

والردُّ على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: فضل إسماعيل عليه السلام في القرآن والسنة.

الوجه الثاني: الجواب عن الشبهات المذكورة.

الوجه الثالث: ذكر إسماعيل في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: فضل إسماعيل عليه السلام في القرآن والسنة.

١- أثنى الله تعالى عليه في القرآن الكريم فقال: ﴿إنه كان صديقًا نبيًا﴾.

٢- استسلامه لأمر الله عز وجل لما أخبره والده إبراهيم بأمر الله له بذبحه، فاستسلم وأطاع، يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢)﴾ (الصافات: ١٠٢)

٣- طاعته لوالده لما كلفه الله تعالى برفع قواعد البيت، وطلب من ابنه أن يعينه فقال: (وأعينك)[١].

الوجه الثاني: الجواب عن الشبهات المذكورة.

١- أما قولهم: أن الله تعالى لم يرسل رسولًا إلى العرب. فهذا مما لا شك فيه أنه سينكره أهل الكتاب، حتى لا تثبت النتيجة المسلمة التي بعدها، وهي أن محمدًا من نسل إسماعيل، وهو رسول من العرب إلى الناس كافة، ولكن ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ (التوبة: ٣٢).

٢- ما هي وعوده؟

أقول: هذا ثناء من الله تعالى على إسماعيل بن إبراهيم الخليل - عليهما السلام- وهو والدُ عربِ الحجاز كلهم بأنه ﴿كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾.

قال ابن جريج: لم يَعِدْ ربه عدةً إلا أنجزها، يعني: ما التزم عبادة قط بنذر إلا قام بها ووفاها حقها[٢].

وأيضًا كان ﷺ إذا وعد الناس بشيء أنجز وعده فآتاه تعالى وصفه بهذا الخلق الشريف.

وروي عن ابن عباس ﷺ: أنه وعد صاحبًا له أن ينتظره في مكان فانتظره سنة. ووعد من نفسه الصبر على الذبح فوفى به، حيث قال: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[٣].

٣- أما ما هي رسالته؟ وبماذا تنبأ؟

فالجواب هو: أن الرسول لا يجب أن يكون صاحب شريعة، فإن أولاد إبراهيم كانوا على شريعته، أو أن الله تعالى وصفه بالرسالة لكون إبراهيم أرسله إلى جرهم[٤].

وأزيد فأقول: لا يشترط أن يذكر الله تعالى عن كل نبي رسالته وما أنزل عليه؟ أو بماذا تنبأ؟ ففي القرآن الكريم ذكرٌ لأنبياء ورسل لم تُذكر رسالتهم ولا نبؤاتهم، ففي القرآن

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٦٤).

(٢) تفسير ابن كثير (٩/ ٢٥٧).

(٣) تفسير الرازي (٢١/ ٢٣٣).

(٤) تفسير فتح القدير للشوكاني (٣/ ٤٧٨).

الكريم يقول الله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ (الأعراف: ٦٥). ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ (الأعراف: ٧٣)، وغير هؤلاء من الأنبياء الكرام.

وكذلك في التوراة: ذكر أنبياء ولم تذكر لهم رسالات ولا نبؤات، فهل معنى هذا أنهم ليسوا بأنبياء؟!!!

والسؤال الآن لك أيها المعترض: ما هي رسالة لوط، وما هي رسالة يعقوب؟ وإسحاق؟ وإشعيا؟ وغيرهم من الأنبياء المذكورين عندكم؟

جوابك هو نفس جوابي عن سؤالك!

٤- أما أن إبراهيم طرد إسماعيل وأمه، فهذا من كيسكم أنتم ليظهر لكل ذي العينين مدى الحقد والحسد، الذي في قلوبكم على إسماعيل جد العرب والذي منه خرج النبي محمد ﷺ خاتم الرسل والأنبياء.

أما القصة عندنا: قال ابن عباس: (أَوَّلَ مَا اتَّخَذَ النِّسَاءُ الْمِنْطَقَ مِنْ قِبَلِ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ، اتَّخَذَتْ مِنْطَقًا لَتُعَفِّيَ أَثَرَهَا عَلَى سَارَةَ، ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ وَبِابْنِهَا إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُرْضِعُهُ حَتَّى وَضَعَهُمَا عِنْدَ الْبَيْتِ عِنْدَ دَوْحَةٍ فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى الْمَسْجِدِ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ، وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ، فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ وَسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ، ثُمَّ قَفَّى إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا، فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، فَقَالَتْ: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلَا شَيْءٌ؟ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا، وَجَعَلَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ لَهُ: آللهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَتْ: إِذَنْ لَا يُضَيِّعُنَا، ثُمَّ رَجَعَتْ، فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لَا يَرَوْنَهُ اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ الْبَيْتَ ثُمَّ دَعَا بِهَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ وَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ رَبِّ: ﴿إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿يَشْكُرُونَ﴾، وَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ وَتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ، حَتَّى إِذَا نَفِدَ مَا فِي السِّقَاءِ عَطِشَتْ وَعَطِشَ ابْنُهَا، وَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّى - أَوْ قَالَ يَتَلَبَّطُ -، فَانْطَلَقَتْ كَرَاهِيَةَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَوَجَدَتْ الصَّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ فِي الْأَرْضِ يَلِيهَا، فَقَامَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَتْ الْوَادِيَ تَنْظُرُ هَلْ تَرَى أَحَدًا؟ فَلَمْ تَرَ أَحَدًا،

فَهَبَطَتْ مِنْ الصَّفَا حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ الْوَادِيَ رَفَعَتْ طَرَفَ دِرْعِهَا ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ الْإِنْسَانِ الْمَجْهُودِ حَتَّى جَاوَزَتْ الْوَادِيَ، ثُمَّ أَتَتْ الْمَرْوَةَ، فَقَامَتْ عَلَيْهَا وَنَظَرَتْ هَلْ تَرَى أَحَدًا؟ فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَفَعَلَتْ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "فَذَلِكَ سَعْيُ النَّاسِ بَيْنَهُمَا". فَلَمَّا أَشْرَفَتْ عَلَى الْمَرْوَةِ سَمِعَتْ صَوْتًا فَقَالَتْ: صَهٍ - تُرِيدُ نَفْسَهَا- ثُمَّ تَسَمَّعَتْ فَسَمِعَتْ أَيْضًا، فَقَالَتْ: قَدْ أَسْمَعْتَ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ غِوَاثٌ، فَإِذَا هِيَ بِالْمَلَكِ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ فَبَحَثَ بِعَقِبِهِ أَوْ قَالَ بِجَنَاحِهِ حَتَّى ظَهَرَ الْمَاءُ، فَجَعَلَتْ تُحَوِّضُهُ وَتَقُولُ بِيَدِهَا هَكَذَا، وَجَعَلَتْ تَغْرِفُ مِنْ الْمَاءِ فِي سِقَائِهَا وَهُوَ يَفُورُ بَعْدَ مَا تَغْرِفُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ: ﷺ "يَرْحَمُ اللهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ لَوْ تَرَكَتْ زَمْزَمَ - أَوْ قَالَ لَوْ لَمْ تَغْرِفْ مِنْ الْمَاءِ- لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا". قَالَ: فَشَرِبَتْ وَأَرْضَعَتْ وَلَدَهَا، فَقَالَ لَهَا: الْمَلَكُ لَا تَخَافُوا الضَّيْعَةَ؛ فَإِنَّ هَا هُنَا بَيْتَ اللهِ يَبْنِي هَذَا الْغُلَامُ وَأَبُوهُ، وَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَهْلَهُ، وَكَانَ الْبَيْتُ مُرْتَفِعًا مِنْ الْأَرْضِ كَالرَّابِيَةِ، تَأْتِيهِ السُّيُولُ فَتَأْخُذُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، فَكَانَتْ كَذَلِكَ حَتَّى مَرَّتْ بِهِمْ رُفْقَةٌ مِنْ جُرْهُمَ أَوْ أَهْلُ بَيْتٍ مِنْ جُرْهُمَ مُقْبِلِينَ مِنْ طَرِيقِ كَدَاءٍ، فَنَزَلُوا فِي أَسْفَلِ مَكَّةَ، فَرَأَوْا طَائِرًا عَائِفًا، فَقَالُوا: إِنَّ هَذَا الطَّائِرَ لَيَدُورُ عَلَى مَاءٍ لَعَهْدُنَا بِهَذَا الْوَادِي وَمَا فِيهِ مَاءٌ فَأَرْسَلُوا جَرِيًّا أَوْ جَرِيَّيْنِ فَإِذَا هُمْ بِالْمَاءِ، فَرَجَعُوا فَأَخْبَرُوهُمْ بِالْمَاءِ فَأَقْبَلُوا، قَالَ: وَأُمُّ إِسْمَاعِيلَ عِنْدَ الْمَاءِ، فَقَالُوا: أَتَأْذَنِينَ لَنَا أَنْ نَنْزِلَ عِنْدَكِ؟ فَقَالَتْ: نَعَمْ، وَلَكِنْ لَا حَقَّ لَكُمْ فِي الْمَاءِ، قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "فَأَلْفَى ذَلِكَ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُحِبُّ الْإِنْسَ، فَنَزَلُوا وَأَرْسَلُوا إِلَى أَهْلِيهِمْ فَنَزَلُوا مَعَهُمْ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِهَا أَهْلُ أَبْيَاتٍ مِنْهُمْ، وَشَبَّ الْغُلَامُ، وَتَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ مِنْهُمْ، وَأَنْفَسَهُمْ وَأَعْجَبَهُمْ حِينَ شَبَّ، فَلَمَّا أَدْرَكَ زَوَّجُوهُ امْرَأَةً مِنْهُمْ، وَمَاتَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، فَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ بَعْدَمَا تَزَوَّجَ إِسْمَاعِيلُ يُطَالِعُ تَرِكَتَهُ، فَلَمْ يَجِدْ إِسْمَاعِيلَ، فَسَأَلَ امْرَأَتَهُ عَنْهُ؟ فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا، ثُمَّ سَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ؟ فَقَالَتْ: نَحْنُ بِشَرٍّ، نَحْنُ فِي ضِيقٍ وَشِدَّةٍ، فَشَكَتْ إِلَيْهِ، قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَقُولِي لَهُ: يُغَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِهِ، فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ كَأَنَّهُ آنَسَ شَيْئًا، فَقَالَ: هَلْ جَاءَكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ جَاءَنَا شَيْخٌ كَذَا وَكَذَا، فَسَأَلَنَا عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ، وَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا؟ فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا فِي جَهْدٍ وَشِدَّةٍ، قَالَ: فَهَلْ أَوْصَاكِ بِشَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ السَّلَامَ، وَيَقُولُ: غَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِكَ، قَالَ: ذَاكِ أَبِي، وَقَدْ أَمَرَنِي أَنْ أُفَارِقَكِ، الْحَقِي بِأَهْلِكِ، فَطَلَّقَهَا وَتَزَوَّجَ مِنْهُمْ أُخْرَى، فَلَبِثَ عَنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ

مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ أَتَاهُمْ بَعْدُ فَلَمْ يَجِدْهُ، فَدَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ فَسَأَلَهَا عَنْهُ؟ فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا، قَالَ: كَيْفَ أَنْتُمْ؟ وَسَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ؟ فَقَالَتْ: نَحْنُ بِخَيْرٍ وَسَعَةٍ، وَأَثْنَتْ عَلَى اللهِ، فَقَالَ: مَا طَعَامُكُمْ؟ قَالَتْ: اللَّحْمُ، قَالَ: فَمَا شَرَابُكُمْ: قَالَتْ: المَاءُ، قَالَ: اللهمَّ، بَارِكْ لَهُمْ فِي اللَّحْمِ وَالْمَاءِ. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ حَبٌّ، وَلَوْ كَانَ لَهُمْ دَعَا لَهُمْ فِيهِ، قَالَ: فَهُمَا لَا يَخْلُو عَلَيْهِمَا أَحَدٌ بِغَيْرِ مَكَّةَ إِلَّا لَمْ يُوَافِقَاهُ". قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَمُرِيهِ يُثْبِتُ عَتَبَةَ بَابِهِ، فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ قَالَ: هَلْ أَتَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، أَتَانَا شَيْخٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ - وَأَثْنَتْ عَلَيْهِ- فَسَأَلَنِي عَنْكَ؟ فَأَخْبَرْتُهُ، فَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا؟ فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا بِخَيْرٍ، قَالَ: فَأَوْصَاكِ بِشَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، هُوَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ، وَيَأْمُرُكَ أَنْ تُثْبِتَ عَتَبَةَ بَابِكَ، قَالَ: ذَاكِ أَبِي، وَأَنْتِ الْعَتَبَةُ، أَمَرَنِي أَنْ أُمْسِكَكِ، ثُمَّ لَبِثَ عَنْهُمْ مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ وَإِسْمَاعِيلُ يَبْرِي نَبْلًا لَهُ تَحْتَ دَوْحَةٍ قَرِيبًا مِنْ زَمْزَمَ، فَلَمَّا رَآهُ قَامَ إِلَيْهِ فَصَنَعَا كَمَا يَصْنَعُ الْوَالِدُ بِالْوَلَدِ وَالْوَلَدُ بِالْوَالِدِ، ثُمَّ قَالَ: يَا إِسْمَاعِيلُ، إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ، قَالَ: فَاصْنَعْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ، قَالَ: وَتُعِينُنِي؟ قَالَ: وَأُعِينُكَ، قَالَ: فَإِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ هَا هُنَا بَيْتًا - وَأَشَارَ إِلَى أَكَمَةٍ مُرْتَفِعَةٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا-، قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا الْقَوَاعِدَ مِنْ الْبَيْتِ، فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بِالْحِجَارَةِ، وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي، حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ جَاءَ بِهَذَا الْحَجَرِ فَوَضَعَهُ لَهُ فَقَامَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَبْنِي وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ، وَهُمَا يَقُولَانِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، قَالَ: فَجَعَلَا يَبْنِيَانِ حَتَّى يَدُورَا حَوْلَ الْبَيْتِ وَهُمَا يَقُولَانِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1].

فهكذا القصة عندنا، لم يطرد إبراهيمُ إسماعيلَ وأمَّه، بل كل ما في الأمر هو أن سارة غارت من هاجر – ككل نساء العالمين– أن رزقها الله بالولد ولم ترزق هي، فأخذهما إبراهيم وبأمر من الله – تعالى– إلى مكان سيكون عنده البيت الحرام، ويعيش هناك إسماعيل، ويتربى، ويتزوج من قبيلة جرهم التي استوطنت المكان لوجود الماء، ويتزوج منهم، ويولد له أولاد، ومن ذريته خرج النبي العربي الخاتم محمد رسول الله ﷺ.

فلم الإنكار علينا؟ وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم؟

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٦٤).

٥- أما قولهم عن أنفسهم: (نحن أبناء الحرة وأنتم أبناء الجارية) فلعمري (تلك شكاة ظاهر عنك عارها).

الوجه الثالث: ذكر إسماعيل عليه السلام في الكتاب المقدس.

(٢٠وَأَمَّا إِسْمَاعِيلُ فَقَدْ سَمِعْتُ لَكَ فِيهِ. هَا أَنَا أُبَارِكُهُ وَأُثْمِرُهُ وَأُكَثِّرُهُ كَثِيرًا جدًّا. اِثْنَيْ عَشَرَ رَئِيسًا يَلِدُ، وَأَجْعَلُهُ أُمَّةً كَبِيرَةً) (تكوين: ٢٠: ١٧).

وفي الترجمة الكاثوليكية الرهبانية اليسوعية (تكوين: ٢٠: ١٧): (وأما إسماعيل فقد سمعت قولك فيه، وهاءنذا أباركه وأنميه وأكثره جدًّا، ويلد اثنى عشر رئيسًا، وأجعله أمة عظيمة).

وأما قول الأفاك الأثيم: (وتعلمنا التوراة في تكوين (١٦/ ١٢) أن إسماعيل: **وَإِنَّهُ يَكُونُ إِنْسَانًا وَحْشِيًّا، يَدُهُ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ، وَيَدُ كُلِّ وَاحِدٍ عَلَيْهِ**).

فالذي في (التكوين١٢: ١٦): (ويكون إنسانًا وحشيًا يعادي الجميع والجميع يعادونه، ويعيش مستوحشًا متحديًا كل إخوته).

وفي الترجمة الكاثوليكية الرهبانية اليسوعية (تكوين١٢: ١٦): (ويكون حمارًا وحشيًا بشريًا يده على الجميع ويد الجميع عليه، وفي وجه جميع إخوته يسكن).

فأقول: بأي هذه النصوص نقول؟ وبأيها نأخذ؟ فإن أخذناها كلها فهي متناقضة، وإن أخذنا بعضها فعلى أي أساس نأخذها؟ فدل هذا التناقض على التحريف.

*   *   *

٦ـ شبهة: نزول جبريل عليه السلام.

نص الشبهة:

قال المعترض: جاء في القرآن في سورة مريم: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾ (مريم: ٦٤).

قيل: احتبس جبريل عن محمد حين سأله اليهود عن أمر الروح، وأصحاب الكهف وذي القرنين، فقال: أخبركم غدًا، ولم يقل: إن شاء الله، حتى شق ذلك عليه، ثم نزل جبريل بعد أيام فقال له محمد ﷺ: أبطأت علي حتى ساء ظني واشتقت إليك، فقال له جبريل: وإني كنت أشوق إليك، ولكني عبد مأمور، إذا بعثت نزلت، وإذا حُبست احتبست، فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾.

والحقيقة هي أن اليهود كانوا يوقفون محمدًا في المسائل، فكان يعجز عن الإجابة إلى أن يستفهم من هذا وذاك، ثم يقول: إن جبريل علمه، وحاشا لجبريل أن يلقنه الأخطاء أو يتأخر عليه ليفضحه.

والرد من وجوه:

الوجه الأول: السبب الصحيح لنزول الآية.

الوجه الثاني: أسئلة اليهود للنبي ﷺ.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: السبب الصحيح لنزول الآية.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: "ألا تزورنا أكثر مما تزورنا". قال فنزلت: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾ الآية. قال: كان هذا الجواب لمحمد ﷺ[1].

وأما السبب المذكور في الشبهة فقد أخرجه ابن إسحاق في سيرته، قال: حدثني رجل من أهل مكة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس... وذكر القصة، وكما هو مُلاحظ في الإسناد أن شيخ ابن إسحاق مجهول، فلا تصح القصة[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٤٦).

الوجه الثاني: أسئلة اليهود للنبي ﷺ.

ومن خلال تتبع سنة النبي ﷺ، نجد أن هناك محاورات وأسئلة حصلت بين النبي واليهود، أسوق بعضها لنعلم هل كان يقف النبي ﷺ عند كل سؤال فعلًا كما يدعيه هؤلاء ليسأل هذا وذاك، أم هو الوحي والنبوة؟!

١- عن أنس ﷺ قال: بلغ عبد الله بن سلام مقدم رسول الله ﷺ المدينة فأتاه فقال إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ ومن أي شيء ينزع الولد إلى أبيه، ومن أي شيء ينزع إلى أخواله؟

فقال رسول الله: ﷺ "خبرني بهن آنفًا جبريل». قال: فقال عبد الله: ذاك عدو اليهود من الملائكة. فقال رسول الله ﷺ: (أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب. وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت. وأما الشبه في الولد فإن الرجل إذا غشي المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له وإذا سبق ماؤها كان الشبه لها).

قال أشهد أنك رسول الله، ثم قال: يا رسول الله، إن اليهود قوم بهت، إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني عندك، فجاءت اليهود ودخل عبد الله البيت، فقال رسول الله ﷺ: (أي رجل فيكم عبد الله بن سلام)؟ قالوا: أعلمنا وابن أعلمنا، وأخيرنا وابن أخيرنا. فقال رسول الله ﷺ: (أفرأيتم إن أسلم عبد الله). قالوا: أعاذه الله من ذلك. فخرج عبد الله إليهم فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله. فقالوا: شرنا وابن شرنا ووقعوا فيه"[2].

٢- عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: "كنت قائمًا عند رسول الله ﷺ فجاء حبر من أحبار اليهود فقال: السلام عليك يا محمد فدفعته دفعة كاد يصرع منها فقال لم تدفعني؟ فقلت: ألا تقول يا رسول الله؟ فقال اليهودي إنما ندعوه باسمه الذي سماه به أهله. فقال رسول الله ﷺ: إن اسمي (محمد) الذي سماني به أهلي. فقال اليهودي: جئت أسألك. فقال له رسول الله ﷺ: أينفعك شيء إن حدثتك؟ قال: أسمع بأذني. فنكت رسول الله ﷺ بعود معه

---

(١) وانظر: أسباب النزول للواحدي (٤٩٣)، وأسباب النزول للسيوطي (٢٦٨)، والصحيح المسند من أسباب النزول، تأليف: مقبل بن هادي الوادعي.

(٢) أخرجه البخاري (٣١٥١).

فقال: سل. فقال اليهودي: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات؟ فقال رسول الله ﷺ: هم في الظلمة دون الجسر. قال: فمن أول الناس إجازة؟ قال: فقراء المهاجرين. قال اليهودي: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ قال زيادة كبد النون. قال: فما غذاؤهم على إثرها؟ قال: ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها. قال: فما شرابهم عليه؟ قال: من عين فيها تسمى سلسبيلًا. قال: صدقت. قال: وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبي أو رجل أو رجلان؟ قال: ينفعك إن حدثتك؟ قال: أسمع بأذني. قال جئت أسألك عن الولد؟ قال: ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فعلا منيُّ الرجل منيَّ المرأة أذكرا بإذن الله، وإذا علا منيُّ المرأة منيَّ الرجل آنَّثا بإذن الله. قال اليهودي: لقد صدقت وإنك لنبي ثم انصرف فذهب. فقال رسول الله ﷺ: لقد سألني هذا عن الذي سألني عنه، وما لي علم بشيء منه حتى أتاني الله به"[1].

٣- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: قال النبي ﷺ: "تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده كما يكفأ أحدكم خبزته في السفر نزلًا لأهل الجنة. فأتى رجل من اليهود فقال: بارك الرحمن عليك يا أبا القاسم، ألا أخبرك بنزل أهل الجنة يوم القيامة؟ قال: «بلى». قال: تكون الأرض خبزة واحدة - كما قال النبي ﷺ-. فنظر النبي ﷺ إلينا ثم ضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال: ألا أخبرك بإدامهم؟ قال: إدامهم بالامُ[2] ونون. قالوا: وما هذا؟ قال: ثور ونون يأكل من زائدة كبدهما سبعون ألفًا "[3].

٤- عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: "بينا أنا أمشي مع النبي ﷺ في خرب المدينة وهو يتوكأ على عسيب معه فمر بنفر من اليهود فقال بعضهم: لبعض سلوه عن الروح؟ وقال بعضهم: لا تسألوه لا يجيء فيه بشيء تكرهونه. فقال بعضهم: لنسألنه. فقام رجل منهم فقال: يا أبا القاسم، ما الروح؟ فسكت. فقلت: إنه يوحى إليه فقمت. فلما انجلى عنه فقال: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ

---

(١) أخرجه مسلم (٣١٥).

(٢) بالام: الثور معربة عن العبرانية.

(٣) أخرجه البخاري (٦١٥٥)، ومسلم (٢٧٩٢).

ﵟٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗاﵞ (الإسراء: ٨٥)"[١].

٥- عن أبي هريرة ﷺ قال: "لما فتحت خيبر أهديت للنبي ﷺ شاة فيها سم فقال النبي ﷺ: (اجمعوا إلي من كان ها هنا من يهود)، فجمعوا له فقال: (إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقي عنه؟) فقالوا: نعم. قال لهم النبي ﷺ: (من أبوكم؟) قالوا: فلان فقال: (كذبتم بل أبوكم فلان). قالوا: صدقت. قال: (فهل أنتم صادقي عن شيء إن سألت عنه؟)، فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبنا عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا. فقال لهم: (من أهل النار؟). قالوا: نكون فيها يسيرًا ثم تخلفونا فيها. فقال النبي ﷺ: (اخسؤوا فيها والله لا نخلفكم فيها أبدًا) ثم قال: (هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه). فقالوا: نعم يا أبا القاسم. قال: (هل جعلتم في هذه الشاة سمًا؟)، قالوا: نعم، قال: (ما حملكم على ذلك؟). قالوا: أردنا إن كنت كاذبًا نستريح وإن كنت نبيًا لم يضرك"[٢].

٦- قال عبد الله: "جاء رجل إلى النبي ﷺ من أهل الكتاب فقال: يا أبا القاسم، إن الله يمسك السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر والثرى على إصبع، والخلائق على إصبع، ثم يقول: أنا الملك أنا الملك. فرأيت النبي ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه ثم قرأ: ﵟوَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦﵞ"[٣].

٧- عن البراء بن عازب قال: "مر على النبي ﷺ بيهودي محممًا مجلودًا فدعاهم ﷺ فقال: (هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟) قالوا: نعم. فدعا رجلًا من علمائهم فقال: (أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى، أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟) قال: لا، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك، نجده الرجم، ولكنه كثر في أشرافنا، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، قلنا: تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع، فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم. فقال رسول الله ﷺ:

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٥)، مسلم (٢٧٩٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٩٨).

(٣) أخرجه البخاري (٦٩٧٨)، و مسلم (٢٧٨٦).

(اللهم إني أول من أحيا أمرك إذا أماتوه) فأمر به فرجم فأنزل الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ﴾ إلى قوله: ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾ (المائدة: ٤١) يقول: ائتوا محمدًا ﷺ فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ (المائدة: ٤٤) ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (المائدة: ٤٥) ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ (المائدة: ٤٧) في الكفار كلها"[١].

٨-عن ابن عباس رضي الله عنه قال: "أقبلت يهود إلى النبي ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم أخبرنا عن الرعد ما هو؟ قال ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله. فقالوا: فما هذا الصوت الذي نسمع؟ قال زجره بالسحاب إذا زجره حتى ينتهي إلى حيث أمر. قالوا: صدقت. فأخبرنا عما حرم إسرائيل على نفسه؟ قال: اشتكى عرق النسا فلم يجد شيئًا يلائمه إلا لحوم الإبل وألبانها فلذلك حرمها قالوا صدقت؟ ".[٢]

٩- عن ابن عباس رضي الله عنه قال: "حضرت عصابة من اليهود نبي الله ﷺ يومًا فقالوا: يا أبا القاسم حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبي. قال: (سلوني عما شئتم، ولكن اجعلوا لي ذمة الله وما أخذ يعقوب عليه السلام على بنيه لئن حدثتكم شيئًا فعرفتموه لتتابعني على الإسلام). قالوا: فذلك لك. قال: (فسلوني عما شئتم؟). قالوا: أخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهن، أخبرنا أيَّ الطعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة؟ وأخبرنا كيف ماء المرأة وماء الرجل كيف يكون الذكر منه؟ وأخبرنا كيف هذا النبي الأمي في النوم؟ ومن وليه من الملائكة؟ قال: (فعليكم عهد الله وميثاقه لئن أنا أخبرتكم لتتابعني) قال: فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق، قال: (فأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى ﷺ هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب عليه السلام مرض مرضًا شديدًا، وطال سقمه فنذر لله نذرًا لئن شفاه

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٠٠)، (محمما) أي: مسود الوجه من الحممة الفحمة.

(٢) أخرجه الترمذي (٣١١٧) و قال هذا حديث حسن غريب، والنسائي في الكبرى (٩٠٧٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٥٥٣).

الله تعالى من سقمه ليحرمن أحب الشراب إليه وأحب الطعام إليه، وكان أحب الطعام إليه لحم الإبل وأحب الشراب إليه ألبانها)، قالوا: اللهم نعم، قال: (اللهم أشهد عليهم. فأنشدكم بالله الذي لا إله الا هو الذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ وأن ماء المرأة أصفر رقيق فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله، إن علا ماء الرجل على ماء المرأة كان ذكرًا بإذن الله، وإن علا ماء المرأة على ماء الرجل كان أنثى بإذن الله) قالوا: اللهم نعم، قال: (اللهم أشهد عليهم. فأنشدكم بالذي انزل التوراة على موسى هل تعلمون أن هذا النبي الأمي تنام عيناه ولا ينام قلبه). قالوا: اللهم نعم، قال: (اللهم أشهد). قالوا: وأنت الآن فحدثنا من وليك من الملائكة فعندها نجامعك أو نفارقك. قال: (فإن وليي جبريل عليه السلام ولم يبعث الله نبيًا قط إلا وهو وليه)، قالوا: فعندها نفارقك لو كان وليك سواه من الملائكة لتابعناك وصدقناك، قال: (فما يمنعكم من أن تصدقوه؟)، قالوا: أنه عدونا قال فعند ذلك قال الله عز وجل: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فعند ذلك ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ ". [1]

١٠- عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: "أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل من اليهود فقال: يا أبا القاسم، ألست تزعم أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون؟ وقال لأصحابه: إن أقر لي بهذه خصمته. قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بلى والذي نفسي بيده إن أحدهم ليعطى قوة مائة رجل في المطعم والمشرب، والشهوة والجماع. قال: فقال له اليهودي: فإن الذي يأكل ويشرب تكون له الحاجة؟ قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: حاجة أحدهم عرق يفيض من جلودهم مثل ريح المسك، فإذا البطن قد ضمر [2].

* * *

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٢٧٨ (٢٥١٤))، والطبراني في الكبير (١٢/ ٢٤٦/ ١٣٠١٢).

(٢) مسند أحمد بن حنبل (٤/ ٣٦٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٦٢٧).

سورة طــه

وفيها:

١- شبهة: الأقوال المختلفة في القصة الواحدة.

٢- شبهة: خروج موسى عليه السلام.

٣- شبهة: إضلال السامري.

١ـ شبهة: الأقوال المختلفة في القصة الواحدة.

نص الشبهة:

قالوا: في نفس القصة الوحدة نجد اختلافًا في نصوصهما: ففي سورة طه: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠﴾ (طه: ١٠، ٩).

وفي سورة النمل: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧﴾، وفي سورة القصص: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٢٩﴾ من هنا نجد أن أقوال موسى لأهله مختلفة عن بعضها البعض تمامًا. في نفس الموقف الواحد الغير متكرر.

فهل قال موسى لأهله: ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾؟ أم قال لهم: ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ (طه: ١٠)؟ أم قال لهم: ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ (القصص: ٢٩).

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول:

حكى الله عن موسى هذا المعنى بزيادة ونقصان في الألفاظ المنسوبة إليهم، وهذه الواقعة ما وقعت إلا مرة واحدة؛ لأن الله حكى ذلك عنهم باللغة العربية فمرة حكاه مطابقًا للفظهم في الترجمة رعاية للفظ، وبعد ذلك حكاه بالمعنى جريًا على عادة العرب التفنن في الكلام والمخالفة بين أساليبه لئلا يمل إذا تمحض تكراره[1].

---

(١) تفسير الرازي (١٥٤)، وأصل هذا الكلام ذكره الرازي تحت قصة سيدنا موسى في سورة الأعراف، وعزا الكلام في سورة طه إلى سورة الأعراف.

الوجه الثاني:

قوله تعالى: ﴿بِقَبَسٍ﴾ أي: شهاب، بدليل قوله تعالى في سورة النمل: ﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ وذلك هو المراد بالجذوة في قوله تعالى: ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ أي: من يهديني إلى الطريق ويدلني عليها؟ لأنهم كانوا ضلوا الطريق والزمن زمن برد[1].

تأكيد التحدي وإظهار الإعجاز، كما أن المبارز إذا خرج من الصفّ قال: نزال نزال هل من مبارزة؟ هل من مبارز؟ مكررًا ذلك، ولهذا أسمى الله القرآن: (مثاني) لأنه تثنت فيه الأخبار والقصص.

* * *

(١) أضواء البيان لمحمد الشنقيطي (٤/ ٣١٤)، تفسير ابن كثير (٩/ ٣١٥).

٢ـ شبهة: خروج موسى عليه السلام.

نص الشبهة:

يقول المعترض: في سورة طه: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾﴾ (طه: ٥٧) وواضح أن هذا الكلام من قول فرعون، وهذا غير معقول، فكتاب الله يعلمنا أن موسى لم يأتِ لمصر ليخرج فرعون وقومه منها، بل جاء ليخرج بني إسرائيل؛ لأن مصر كانت أرض عبودية لهم.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: حكاية الله تعالى أقوال المخالفين ليس معناه إقرارها.

الوجه الثاني: لماذا قال فرعون (لتخرجنا) بضمير الجمع؟

الوجه الثالث: من الذي خرج من مصر؟

وإليك التفصيل

الوجه الأول: حكاية الله تعالى أقوال المخالفين ليس معناه إقرارها.

وقد ورد في القرآن الكريم أمثلة كثيرة من هذا النوع، منها:

١ - في قصة أصحاب الكهف يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾ (الكهف: ٢١).

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: كما أرقدناهم وأيقظناهم بهيآتهم، أطلعنا عليهم أهل ذلك الزمان ﴿لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ أي: في أمر القيامة، فمن مثبت لها ومن منكر، فجعل الله ظهورهم على أصحاب الكهف حجة لهم وعليهم ﴿فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ أي: سدوا عليهم باب كهفهم، وذروهم على حالهم ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾.

حكى ابن جرير في القائلين ذلك قولين: أحدهما: أنهم المسلمون منهم. والثاني: أهل الشرك منهم، فالله أعلم.

والظاهر أن الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفوذ، ولكن هل هم محمودون أم لا؟ فيه نظر؛ لأن النبي ﷺ قال: "لعن الله اليهود والنصارى؛ اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد" يحذر ما فعلوا[1].

والشاهد من الآية: أن الله تعالى ذكر قول الذين غلبوا على أمرهم بأن يبنوا على قبورهم مسجدًا، مع أنه مناقض للشرع الحنيف.

٢- ذكرُ الله تعالى لقول إبليس في القرآن الكريم مثل قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ (الأعراف: ١٢) فهذا ليس إقرارًا وتأييدًا من الله تعالى لقول إبليس.

٣- ومنها أيضًا ذكر الله تعالى لأقوال اليهود ثم التعقيب عليها مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ (البقرة: ١١١)، وقوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ (المائدة: ٦٤).

الوجه الثاني: لماذا قال فرعون: (لتخرجنا) بضمير الجمع؟

لقد ذكر المفسرون عدة أوجه لقول فرعون هذا الكلام منها:

الأول: أنه قصد أن يخرجهم من أرضهم قياسًا منه على الذين يقومون بدعوة ضد الملوك أنهم إنما يبغون بذلك إزالتهم عن الملك وحلولهم محلّهم، يعني أن موسى غرّته نفسه فحسب أنه يستطيع اقتلاع فرعون من ملكه؛ أي: حسبتَ أنّ إظهار الخوارق يطوّع لك الأمة فيجعلونك ملكًا عليهم وتخرجني من أرضي، فضمير المتكلم المشارك مستعمل في التعظيم لا في المشاركة؛ لأنّ موسى لم يصدر عنه ما يشمّ منه إخراجهم من أرضهم[2].

الثاني: ويجوز أن يكون ضمير المتكلم المشارك مستعملًا في الجماعة تغليبًا، ونزّل فرعون نفسه واحدًا منها، وأراد بالجماعة جماعة بني إسرائيل حيث قال له موسى: ﴿فَأَرْسِلْ

(١) تفسير ابن كثير (٥/ ١٤٧).

(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٤٤).

مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ (طه: ٤٧) أي: جئت لتخرج بعض الأمة من أرضنا وتطمع أن يتبعك جميع الأمّة بما تظهر لهم من سحرك[١].

الثالث: أنه قال ذلك ليحمل قومه على غاية المقت لموسى عليه السلام بإبراز أن مراده ليس مجرد إنجاء بني إسرائيل من أيديهم بل إخراج القبط من وطنهم وحيازة أمواهم وأملاكهم بالكلية حتى لا يتوجه إلى إتباعه أحد ويبالغوا في المدافعة والمخاصمة؛ إذ الإخراج من الوطن أخو القتل كما يرشد إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا﴾ (النساء: ٦٦)[٢].

الوجه الثالث: من الذي خرج من مصر؟

الظاهر من آيات القرآن الكريم أن هدف موسى عليه السلام من دخوله مصر كان هو إخراج بني اسرائيل لينجيهم من عبودية فرعون إلى عبودية الواحد الأحد قال تعالى: ﴿أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٧﴾ أي: أطلقهم من إسارك وقبضتك وقهرك وتعذيبك؛ فإنهم عباد الله المؤمنون، وحزبه المخلصون، وهم معك في العذاب المهين[٣].

* * * *

(١) المصدر السابق.

(٢) روح المعاني للآلوسي (٨/ ٥٢٨).

(٣) تفسير ابن كثير (٦/ ١٣٧).

٣ـ شبهة: إضلال السامري.

نص الشبهة:

جاء في سورة طه (٨٨: ٨٥): ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾﴾.

وقالوا: السامرة مدينة في فلسطين لم يكن لها وجود لما خرج بنو إسرائيل من مصر وسافروا في سيناء فعمل لهم هارون العجل الذهبي كطلبهم، فكيف نتخيل سامريًا يصنع لهم العجل قبل أن يكون للسامريين وجود؟

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول:

قبل الخوض في التفاصيل أنبه إلى أن الكتاب المقدس ليس حكمًا على القرآن، وهذا أمر مرفوض تمامًا؛ لأننا نحن المسلمين نؤمن ونقطع بتحريف الكتاب المقدس وتبديله، وعلى ذلك لا نقبل أن يجعلوه حكمًا على القرآن الكريم، ولا نسلم بصحة معلوماته التاريخية، فكيف نقبل بكتاب نؤمن بتحريفه أن يكون حكمًا على القرآن الكريم المحفوظ الخاتم؟.

الوجه الثاني: أنه ليس نسبًا إلى شيء إنما اسمه هكذا.

ويجوز أن تكون الياء من (السامري) غير ياء النسب؛ بل حرفًا من اسم مثل ياء: علي وكرسي، فيكون اسمًا أصليًا أو منقولًا في العبرانية، وتكون اللام في أوله زائدة[١].

الوجه الثالث: أنه نسب لطائفة من اليهود.

واعلم أن السامريين لقب لطائفة من اليهود؛ يقال لهم أيضًا: السامرة، لهم مذهب خاص مخالف لمذهب جماعة اليهودية في أصول الدين، فهم لا يعظمون بيت المقدس، وينكرون نبوءة أنبياء بني إسرائيل عدا موسى وهارون ويوشع، وما كانت هذه

---

(١) التحرير و التنوير (١٦/ ٢٨٠).

الشذوذات فيهم إلا من بقايا تعاليم الإلحاد التي كانوا يتلقونها في مدينة السامرة المبنية على التساهل والاستخفاف بأصول الدين، والترخص في تعظيم آلهة جيرتهم الكنعانيين أصهار ملوكهم، ودام ذلك الشذوذ فيهم إلى زمن عيسى عليه السلام ففي إنجيل متى (إصحاح ١٥) وفى إنجيل لوقا (إصحاح ٩) ما يقتضي أن بلدة السامريين كانت منحرفة على اتباع المسيح، وأنه نهى الحواريين عن الدخول إلى مدينتهم[١].

الوجه الرابع: (السامري) نسب إلى قرية اسمها السامرة.

ويحتمل أن يكون (السامري) نسبًا إلى قرية اسمها السامرة من قرى مصر، كما قال بعض أهل التفسير، فيكون فتى قبطيًا أندس في بني إسرائيل لتعلقه بهم في مصر أو لصناعة يصنعها لهم[٢]، وفي قلبه ما فيه من عبادة البقر[٣].

الوجه الخامس:

يظن المعترض أن اسم (السامري) مقتبس من مدينة تسمى (السامرة)، وأيضًا يظن أن السامرة هي أول شيء أطلق عليه سامرة، وفي هذا خطأ جسيم.

لعدة أسباب:

أولًا: اسم السامرة (شومرون) بالعبري، مشتق من سامر؛ وهو (شامر) بالعبرية الذي معناه: (الحارس)، والأسماء مثل ذلك ينطق بها العبريون هكذا: (موشى، يشوع، شبت، شامر)، ومعني السامرة هو مركز (الحارس).

ثانيًا: وبنيت هذه المدينة على جبل اسمه (جبل السامرة)، وهذا الجبل كان يمتلكه رجل اسمه (شامر).

وفي أيام حكم الملك عمري (ملك يهوذا) اشترى الملك الجبل من شامر، ثم بنى المدينة عليه ولهذا دعيت المدينة (مدينة السامرة) نسبة إلى شامر الذي كان يمتلك الجبل الذي

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (١/ ٢٨٠، ٢٨١)، ويراجع تفسير القاسمي (١١/ ١٨٤)، تاج العروس (١/ ٢٩٦٧)، لسان العرب (٤/ ٣٧٦)، القاموس المحيط (١/ ٥٧٧).

(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٨٠).

(٣) تفسير القرطبي (١١/ ٢٤٩)، ويراجع (الكشاف) للزمخشري (٣/ ٨١).

بنيت عليه، واقرأ في سفر الملوك الأول (١٦: ٢٣، ٢٤): فِي السَّنَةِ الْوَاحِدَةِ وَالثَّلاَثِينَ لآسَا مَلِكِ يَهُوذَا، مَلَكَ عُمْرِي عَلَى إِسْرَائِيلَ اثْنَتَيْ عَشَرَةَ سَنَةً. مَلَكَ فِي تِرْصَةَ سِتَّ سِنِينَ. ٢٤وَاشْتَرَى جَبَلَ السَّامِرَةِ مِنْ شَامِرَ بِوَزْنَتَيْنِ مِنَ الْفِضَّةِ، وَبَنَى عَلَى الْجَبَلِ. وَدَعَا اسْمَ الْمَدِينَةِ الَّتِي بَنَاهَا بِاسْمِ شَامِرَ صَاحِبِ الْجَبَلِ «السَّامِرَةَ».

فمن هذا نستخلص الآتي: أن اسم (السامرة) لم يوجد لأول مرة زمن وجود المدينة، بل كان هذا الاسم موجودًا قبل وجود المدينة، فلا يمنع أن يكون هذا الاسم قديمًا، وأن يكون هناك قبل (شامر) صاحب الجبل بمئات السنين من تسمى بهذا الاسم[1].

الوجه السادس:

١- أنه ليس في فلسطين مدينة تسمى بمدينة السامرة، وإنما كان للسامريين مملكة في فلسطين عاصمتها (نابلس) المسماة قديمًا (شكيم)، وكانت هذه المملكة مكونة من عشرة أسباط، وكان للسبطين مملكة في فلسطين عاصمتها (القدس) المسماة قديمًا (أورشليم).

٢- ولما صعد موسى عليه السلام إلى جبل الطور وتلقى التوراة، نزل فوجد اليهود يعبدون عجلًا جسدًا له خوار، فسأل عن ذلك، فدلوه على من أغراهم بعبادتهم، فأمسك به وسأله: (ما خطبك ياسامري؟) أي: ما هذا الذي فعلت أيها المضل؟ لأن كلمة (سامري) تطلق على المضل، ولا تطلق على شخص كاسم من الأسماء.

وبهذا المعنى لايكون الذي أضلهم رجل مسمى بالسامري، حتى يتوجه الإشكال، وإلا يلزم أن يكون السامري من أسماء المسيح عيسى عليه السلام، فإن اليهود قالوا: (**إِنَّكَ سَامِرِيٌّ وَبِكَ شَيْطَانٌ**) (يوحنا ٨: ٤٨)[2].

الوجه السابع:

وأخيرًا نقول لهذا المعترض: أجب عن هذا الاعتراض منا على ما ورد في كتابكم؟

---

(١) للمزيد انظر: موسوعة اليهود واليهودية د/ عبد الوهاب المسيري الباب السابع من المجلد الرابع باسم " العبرانيون ".

(٢) حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين (٤٦٤).

وهذا الاعتراض: هو أن كون الملك عمري أول من بني مدينة (السامري)، أمر ليس مقطوعًا بصحته، بل ذهب قاموس (الكتاب المقدس) إلى احتمال أن الملك عمري أصلح بناء المدينة وهذا يقول الكتاب المقدس، فماذا تقول أنت؟

السامرة: اسم عبراني معناه: (مركز الحارس).

١- عاصمة الأسباط العشرة أثناء أطول مدة في تاريخهم وقد بنيت المدينة أو أصلح بناؤها أيام عمري بن آخاب ملك إسرائيل (٨٧٦ - ٨٤٢) ق. م على ما تل اشتراه بوزنتين من الفضة (أي: نحو ألف جنيه مصري) وكان صاحب الأرض اسمه (شامر) الذي يعني: (مراقب) أو حارس، فقوله: (بنيت) أو أصلح بناؤها يفيد احتمالًا وهو أن المدينة موجودة من قبل، وربما كانت مهدمة أو قديمة فأعاد الملك بناءها.

والذي يدل على أن المدينة قديمة وموجودة قبل الملك عمري هذا النص في سفر الملوك الأول (١٣/ ٣٢) لأنه تمامًا سيتم الكلام الذي نادى به بكلام الرب نحو المذبح الذي في بيت إيل، ونحو جميع بيوت المرتفعات التي في مدن السامرة، وهذا الكلام ذكر قبل ثلاثة إصحاحات من ذكر بناء الملك عمري للمدينة، فكيف يقول: (في مدن السامرة) ولم تكن المدينة قد بنيت بعد.

فإما أن يقولوا: إن هذا تحريف في الكتاب المقدس أو يقروا أن المدينة موجودة قبل الملك عمرى ولا يعرف زمن بنائها ولا يستطيع أحد أن يحدد في هذا الاحتمال أن المدينة لم تكن موجودة في زمن موسى عليه السلام، ولربما أنها موجودة قبل موسى عليه السلام أيضًا وهذا مالا يمكن الجزم به.فإذن سقط الاعتراض من أساسه. . . والحمد لله[1].

* * *

(١) حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، وانظر: التحرير والتنوير (٦/ ٢٨٠: ٢٧٧).

سورة الأنبياء

وفيها:

١- شبهة: حكم وعلم لوط عليه السلام.

٢- شبهة: حكم داود وسليمان عليهما السلام.

٣- شبهة: حصب جهنم.

١- شبهة: حكم وعلم لوط عليه السلام.

نص الشبهة:

يقول المعترض: في سورة (الأنبياء: ٧٤): ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

ونحن نتساءل: ما هي الحكمة التي كانت عند لوط، وبماذا يمكننا أن نستفيد منها؟ فلا الكتاب المقدس تكلم عنه بشيء حسن، ولا هنا نعلم ما هي حكمته، ولا حتى عن علمه، ثم يقول إنه نجاه من القرية، فما هي هذه القرية وأين تقع وما اسمها؟ وحتى لم يقل من هو لوط، هل كالعادة نحتاج إلى الكتاب المقدس لكي نفهم القرآن؟

والجواب من وجوه:

الوجه الأول: فضل نبي الله لوط عليه السلام في القرآن والسنة.

الوجه الثاني: معنى الحكم والعلم الذي أعطيه لوط عليه السلام.

الوجه الثالث: ومتى احتجنا إلى كتابكم المقدس؟.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: فضل نبي الله لوط عليه السلام في القرآن والسنة.

ورد ذكر قصة نبي الله لوط عليه السلام في عدة سور من القرآن الكريم منها المطول، والمختصر، فقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ (الأعراف٨٤: ٨٠).

وقال تعالى في سورة هود: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ

إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ (هود٨٣: ٦٩).

وورد في السنة من فضل لوط عليه السلام: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال " نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾. ويرحم الله لوطًا لقد كان يأوي إلى ركن شديد ولو لبث في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي ". [1]

وعنه أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن تبارك وتعالى قال: قال رسول الله ﷺ "لو لبثت في السجن ما لبث يوسف ثم جاءني الداعي لأجبته إذ جاءه الرسول فقال: ﴿قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ ورحمة الله على لوط إن كان ليأوي إلى ركن شديد إذ قال لقومه لو أن لي بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد ما إن

(١) أخرجه البخاري (٣١٩٢) ومسلم (١٥١).

بعث الله بعده من نبي إلا في ثروة من قومه قال محمد الثروة الكثرة والمنعة.[1]

الوجه الثاني: معنى الحكم والعلم الذي أعطيه لوط عليه السلام.

التعريف بنبي الله لوط عليه السلام: هو: لوط بن هاران بن تارح - وهو آزر - ولوط ابن أخي إبراهيم الخليل فإبراهيم وهاران وناحور أخوة.

وكان لوط قد نزح عن محلة عمه الخليل عليهما السلام بأمره له، وإذنه، فنزل بمدينة سدوم من أرض غور زغر وكان أمّ تلك المحلة ولها أرض، ومعتملات وقرى مضافة إليها ولها أهل من أفجر الناس وأكفرهم وأسوأهم طوية وأردأهم سريرة وسيرة يقطعون السبيل ويأتون في ناديهم المنكر ولا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون. ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم وهي إتيان الذكران من العالمين وترك ما خلق الله عن النسوان لعباده الصالحين.

فدعاهم لوط إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطي هذه المحرمات والفواحش المنكرات والأفاعيل المستقبحات، فتمادوا على ضلالهم وطغيانهم، واستمروا على فجورهم وكفرانهم، فأحل الله بهم من البأس الذي لا يرد ما لم يكن في خلدهم وحسابهم، وجعلهم مثلة في العالمين، وعبرة يتعظ بها الألباء من العالمين.[2]

وأما الحكم والعلم الذي أوتيه لوط عليه السلام:

قال الطبري: القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾﴾، يقول تعالى ذكره: وآتينا لوطا حكمًا، وهو فصل القضاء بين الخصوم، وعلما: يقول: وآتيناه أيضًا علمًا بأمر دينه، وما يجب عليه لله من فرائضه. وقوله ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ﴾ يقول: ونجيناه من عذابنا الذي أحللناه بأهل القرية التي كانت تعمل الخبائث،

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٦٠٥)، والترمذي (٣١١٦)، وابن حبان (٦٢٠٦)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٦١٧).

(٢) قصص الأنبياء (٢٢٨) لابن كثير.

وهي قرية سَدُوم التي كان لوط بعث إلى أهلها، وكانت الخبائث التي يعملونها: إتيان الذكران في أدبارهم، وخَذْفهم الناس، وتضارطهم في أنديتهم، مع أشياء أخرَ كانوا يعملونها من المنكر، فأخرجه الله حين أراد إهلاكهم إلى الشام[١].

و أصل الحكم في اللغة: المنع كما هو معروف. فمعنى الآيات: أن الله آتاه من النبوة والعلم ما يمنع أقواله وأفعاله من أن يعتريها الخلل. والقرية التي كانت تعمل الخبائث: هي سدوم وأعمالها، والخبائث التي كانت تعملها جاءت موضحة في آيات من كتاب الله:

منها اللواط، وأنهم هم أول من فعله من الناس، كما قال تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، وقال: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾. ومن الخبائث المذكورة إتيانهم المنكر في ناديهم، وقطعهم الطريق، كما قال تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾. ومن أعظم خبائثهم: تكذيب نبي الله لوط وتهديدهم له بالإخراج من الوطن. كما قال تعالى عنهم: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾، وقال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾إلى غير ذلك من الآيات. وقد بين الله في مواضع متعددة من كتابه: أنه أهلكهم فقلب بهم بلدهم، وأمطر عليهم حجارة من سجيل، كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾ والآيات بنحو ذلك كثيرة. والخبائث: جمع خبيثة، وهي الفعلة السيئة كالكفر واللواط وما جرى مجرى ذلك[٢].

وأما مكان القرية فقد ورد في كتب البلدان:

سدوم: قصبة قرى قوم لوط. وهي بين الحجاز والشام. كانت أحسن بلاد الله وأكثرها مياهًا، وأشجارًا، وحبوبًا وثمارًا، والآن عبرة للناظرين. وتسمى الأرض المقلوبة لا زرع

---

(١) تفسير الطبري (١٠/ ٤٩).

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٤/ ٦٤٨).

بها ولا ضرع ولا حشيش، وبقيت بقعة سوداء فرشت فيها حجارة، ذكر أنها الحجارة التي أمطرت عليهم وعلى عامتها كالطابع[١].

الوجه الثالث: ومتى احتجنا إلى كتابكم المقدس؟

أقول لصاحب الكتاب المقدس افتح معي كتابك هذا لكي تفهم - كما تزعم - ماذا حكى عن لوط وابنتيه؟

لوط يزني بابنتيه:

وَصَعِدَ لُوطٌ مِنْ صُوغَرَ وَسَكَنَ فِي الْجَبَلِ، وَابْنَتَاهُ مَعَهُ، لأَنَّهُ خَافَ أَنْ يَسْكُنَ فِي صُوغَرَ. فَسَكَنَ فِي الْمَغَارَةِ هُوَ وَابْنَتَاهُ. ٣١وَقَالَتِ الْبِكْرُ لِلصَّغِيرَةِ: «أَبُونَا قَدْ شَاخَ، وَلَيْسَ فِي الأَرْضِ رَجُلٌ لِيَدْخُلَ عَلَيْنَا كَعَادَةِ كُلِّ الأَرْضِ. ٣٢هَلُمَّ نَسْقِي أَبَانَا خَمْرًا وَنَضْطَجعُ مَعَهُ، فَنُحْيِي مِنْ أَبِينَا نَسْلًا». ٣٣فَسَقَتَا أَبَاهُمَا خَمْرًا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، وَدَخَلَتِ الْبِكْرُ وَاضْطَجَعَتْ مَعَ أَبِيهَا، وَلَمْ يَعْلَمْ بِاضْطِجَاعِهَا وَلاَ بِقِيَامِهَا. ٣٤وَحَدَثَ فِي الْغَدِ أَنَّ الْبِكْرَ قَالَتْ لِلصَّغِيرَةِ: «إِنِّي قَدِ اضْطَجَعْتُ الْبَارِحَةَ مَعَ أَبِي. نَسْقِيهِ خَمْرًا اللَّيْلَةَ أَيْضًا فَادْخُلِي اضْطَجِعِي مَعَهُ، فَنُحْيِيَ مِنْ أَبِينَا نَسْلًا». ٣٥فَسَقَتَا أَبَاهُمَا خَمْرًا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ أَيْضًا، وَقَامَتِ الصَّغِيرَةُ وَاضْطَجَعَتْ مَعَهُ، وَلَمْ يَعْلَمْ بِاضْطِجَاعِهَا وَلاَ بِقِيَامِهَا، ٣٦فَحَبِلَتِ ابْنَتَا لُوطٍ مِنْ أَبِيهِمَا. ٣٧فَوَلَدَتِ الْبِكْرُ ابْنًا وَدَعَتِ اسْمَهُ «مُوآبَ»، وَهُوَ أَبُو الْمُوآبِيِّينَ إِلَى الْيَوْمِ. ٣٨وَالصَّغِيرَةُ أَيْضًا وَلَدَتِ ابْنًا وَدَعَتِ اسْمَهُ «بِنْ عَمِّي»، وَهُوَ أَبُو بَنِي عَمُّونَ إِلَى الْيَوْمِ. التكوين (١٩/ ٣٨: ٣٠).

* * *

(١) آثار البلاد وأخبار العباد (١/ ٨٠) للقزويني، وانظر: معجم البلدان لياقوت الحموي

٢ـ شبهة: حكم داود وسليمان عليهما السلام.

نص الشبهة:

يقول المعترض: في سورة الأنبياء: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ (الأنبياء: ٧٨ -٧٩).

قال ابن عباس وغيره: إن رجلين دخلا على داود أحدهما صاحب زرع والآخر صاحب غنم فقال صاحب الزرع إن غنم هذا دخلت زرعي ليلًا فوقعت فيه فأفسدته فلم تبق منه شيئًا فأعطاه رقاب الغنم بالزرع فخرجا فمرا على سليمان فقال: كيف قضى بينكما؟ فأخبراه، فقال سليمان لو رأيت أمركما لقضيت بغير هذا فأخبر بذلك داود فدعا سليمان واستفهم منه عن الأرفق بالفريقين، فقال: أدفع الغنم للمزارع ينتفع بدرها ونسلها وصوفها ومنافعها، ويزرع صاحب الغنم لصاحب الأرض مثل حرثه فإذا صار الحرث كهيئته يوم أكل دفع إلى صاحبه وأخذ صاحب الغنم غنمه، فقال داود: القضاء ما قضيت وكان عمر سليمان يوم حكم إحدى عشرة سنة. ولا يعقل أن سليمان كان يتعقب أحكام والده، ووالده من الرجال المدربين، هذا فضلا عما خصه الله به من الوحي الإلهي؟ وكيف يعجز عن الحكم في هذه القضية ويرضى بتغير الحكم أمام رعيته؟ ولكن هذا خلط أبشالوم بسليمان، جاء في (٢ صموئيل ١٥: ٦١) إن أبشالوم لما دبر للانقلاب الفاشل ضد والده، كان يستميل رجال بني إسرائيل، ويقول من يجعلني قاضيًا في الأرض، لأنصف المظلوم؟ وكان يقبل ويكرم طرفي النزاع، فاستمال الأفئدة وثار على والده.

والجواب من وجوه:

الوجه الأول: فضل داود وسليمان في القرآن والسنة

الوجه الثاني: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

الوجه الثالث: ماذا قالت التوراة عن داود وسليمان.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: فضل داود وسليمان في القرآن والسنة.

أولًا: داود عليه السلام:

ألان الله له الحديد:

١- قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (سبأ: ١٠ - ١١).

٢-وقال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ (الأنبياء: ٧٩ - ٨٠).

أعانه الله على عمل الدروع من الحديد ليحصن المقاتلة من الأعداء وأرشده إلى صنعتها وكيفيتها فقال: ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ أي: لا تدق المسمار فيفلق ولا تغلظه فيفصم قاله مجاهد وقتادة والحكم وعكرمة.

قال الحسن البصري و قتادة و والأعمش: كان الله قد ألان له الحديث حتى كان يفتله بيده لا يحتاج إلى نار ولا مطرقة.

أعطاه الله القوة في العبادة: وقال تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ (ص: ١٧ - ٢٠).

قال ابن عباس ومجاهد: الأيد القوة في الطاعة يعني ذا قوة في العبادة والعمل الصالح قال قتادة: أعطي قوة في العبادة وفقها في إسلام قال: وقد ذكر لنا أنه كان يقوم الليل ويصوم نصف الدهر.

وقد ثبت أن رسول الله ﷺ قال: "أحب الصلاة إلي الله صلاة داود وأحب الصيام إلى الله صيام داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه وكان يصوم يومًا ويفطر يومًا"[١].

أعطاه الله الصوت الحسن: وقوله: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾ (ص: ١٨ -١٩) كما قال: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ (سبأ: ١٠)

(١) أخرجه البخاري (١٠٧٩)، ومسلم (١١٥٩) عن عبد الله بن عمرو ﷺ.

أي سبحي معه قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد في تفسير هذه الآية: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ أي عند آخر النهار وأوله وذلك أنه كان الله تعالى قد وهبه من الصوت العظيم ما لم يعطه أحد بحيث إنه كان إذا ترنم بقراءة كتابه يقف الطير في الهواء يرجع بترجيعه ويسبح بتسبيحه وكذلك الجبال تجيبه وتسبح معه كلما سبح بكرةً وعشيًا عليه السلام.

رزقه الله السرعة في قراءة الزبور: وقد كان مع هذا الصوت الرخيم سريع القراءة لكتابة الزبور، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: قال: " خفف على داود عليه السلام القرآن فكان يأمر بدوابه فتسرج فيقرأ القرآن قبل أن تسرج دوابه ولا يأكل إلا من عمل يده". [1]

له القربى من الله يوم القيامة: قال الله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ (ص: ٢٥)، أي إن له يوم القيامة لزلفى وهي القربة التي يقربه الله بها ويدنيه من حظيرة قدسه بسببها كما ثبت في حديث " إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل وكلتا يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا". [2]

زاد الله في عمره من عمر آدم عليه السلام: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح عطس فقال: الحمد لله فحمد الله بإذنه فقال له ربه: رحمك الله يا آدم اذهب إلى أولئك الملائكة إلى ملإ منهم جلوس فقل السلام عليكم قالوا: وعليك السلام ورحمة الله ثم رجع إلى ربه فقال: إن هذه تحيتك وتحية بنيك بينهم، فقال الله له ويداه مقبوضتان: اختر أيهما شئت قال: اخترت يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين مباركة، ثم بسطها فإذا فيها آدم وذريته فقال: أي رب ما هؤلاء؟ فقال: هؤلاء ذريتك؛ فإذا كل إنسان مكتوب عمره بين عينيه فإذا فيهم رجل أضوؤهم أو من أضوئهم قال: يا رب من هذا؟ قال: هذا ابنك داود قد كتبت له عمر أربعين سنة قال: يا رب زده في عمره قال: ذاك الذي كتبت له قال: أي رب فإني قد جعلت له من عمري ستين سنة؟ قال: أنت وذاك قال: ثم أسكن الجنة ما شاء الله، ثم أهبط منها فكان آدم يعد لنفسه قال: فأتاه ملك الموت فقال له

(١) أخرجه البخاري (٣٢٣٥).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٢٧).

آدم: قد عجلت قد كتب لي ألف سنة قال: بلى ولكنك جعلت لابنك داود ستين سنة فجحد فجحدت ذريته ونسي فنسيت ذريته قال: فمن يومئذ أمر بالكتاب والشهود.[(١)]

ثانيًا: سليمان عليه السلام:

١- قال الله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ (النمل: ١٦) أي ورثه في النبوة والملك وليس المراد ورثه في المال.

٢- وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ (النمل: ١٦) يعني أنه عليه السلام كان يعرف ما يتخاطب به الطيور بلغاتها ويعبر للناس عن مقاصدها وإرادته، ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي من كل ما يحتاج الملك إليه من العدد والآلات والجنود والجيوش والجماعات من الجن والإنس والطيور والوحوش والشياطين السارحات والعلوم والفهوم والتعبير عن ضمائر المخلوقات من الناطقات والصامتات ثم قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي من بارئ البريات وخالق الأرض والسموات كما قال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ (النمل: ١٧-١٩).

يخبر تعالى عن عبده ونبيه وابن نبيه سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام أنه ركب يومًا في جيشه جميعه من الجن والإنس والطير، فالجن والإنس يسيرون معه، والطير سائرة معه تظله بأجنحتها من الحر وغيره وعلى كل من هذه الجيوش الثلاثة وزعة - أي نقباء - يردون أوله على آخره فلا يتقدم أحد عن موضعه الذي يسير فيه ولا يتأخر عنه قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٦٨)، وابن حبان (١٤-٤٠-٦١٦٧)، والحاكم (١-١٣٢-٢١٤)، وأبو يعلى (١١-٢٦٣-٦٣٧٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢٠٩).

سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾ (النمل: ١٨) فأمرت وحذرت واعتذرت عن سليمان وجنوده بعدم الشعور.

والمقصود أن سليمان عليه السلام فهم ما خاطبت به تلك النملة لأمتها من الرأي السديد والأمر الحميد وتبسم من ذلك على وجه الاستبشار والفرح والسرور بما أطلعه الله عليه دون غيره.

وقال الله عز وجل: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ (النمل: ٢٠-٣٧).

يذكر تعالى ما كان من أمر سليمان والهدهد وذلك أن الطيور كان على كل صنف منها مقدمون يقدمون بما يطلب منهم ويحضرون عنده بالنوبة كما هي عادة الجنود مع الملوك وكانت وظيفة الهدهد على ما ذكره ابن عباس وغيره أنهم كانوا إذا أعوزوا الماء في القفار في حال الأسفار يجيء فينظر لهم هل بهذه البقاع من ماء وفيه من القوة ألتي أودعها الله تعالى فيه أن ينظر إلى الماء تحت تخوم الأرض فإذا دلهم عليه حفروا عنه واستنبطوه وأخرجوه واستعملوه لحاجتهم فلما تطلبه سليمان عليه السلام ذات يوم فقده ولم يجده في موضعه

من محل خدمته: ﴿فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ﴾ أي ماله مفقود من هاهنا أو قد غاب عن بصري فلا أراه بحضرتي: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا﴾ توعده بنوع من العذاب اختلف المفسرون فيه والمقصود حاصل على تقدير: ﴿أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ أي بحجة تنجيه من هذه الورطة.

قال الله تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ﴾ أي فغاب الهدهد غيبة ليست بطويلة ثم قدم منها: ﴿فَقَالَ﴾ لسليمان: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾ أي اطلعت على ما لم تطلع عليه: ﴿وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾ أي بخبر صادق: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾﴾ يذكر ما كان عليه ملوك سبأ في بلاد اليمن من المملكة العظيمة والتبابعة المتوجين وكان الملك قد آل في ذلك الزمان إلى امرأة منهم ابنة ملكهم لم يخلف غيرها فملكوها عليهم.

وقوله: ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ أي مما من شأنه أن تؤتاه الملوك: ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾ يعني سرير مملكتها كان مزخرفا بأنواع الجواهر واللآلئ والذهب والحلي الباهر، ثم ذكر كفرهم بالله وعبادتهم الشمس من دون الله وإضلال الشيطان لهم وصده إياهم عن عبادة الله تعالى وحده لا شريك له الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما يخفون وما يعلنون أي يعلم السرائر والظواهر من المحسوسات والمعنويات: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٦﴾﴾ أي له العرش العظيم الذي لا أعظم منه في المخلوقات.

فعند ذلك بعث سليمان عليه السلام كتابه يتضمن دعوته لهم إلى طاعة الله وطاعة رسوله والإنابة والإذعان إلى الدخول في الخضوع لملكه وسلطانه ولهذا قال لهم: ﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ﴾ أي لا تستكبروا عن طاعتي وامتثال أوامري: ﴿وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ أي واقدموا علي سامعين مطيعين بلا معاودة ولا مراودة فلما جاءها الكتاب مع الطير ومن ثم اتخذ الناس البطائق ولكن أين الثريا من الثرى تكل البطاقة كانت مع سائر سامع مطيع فاهم عالم بما يقول ويقال له فذكر غير واحد من المفسرين وغيرهم أن الهدهد حمل الكتاب وجاء إلى قصرها فألقاه إليها وهي في

خلوة لها ثم وقف ناحية ينتظر ما يكون من جوابها عن كتابها فجمعت أمراءها ووزراءها وأكابر دولتها إلى مشورتها: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ ثم قرأت عليهم عنوانه أولًا: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ﴾ ثم قرأته: ﴿وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ (النمل: ٣٠-٣١)، ثم شاورتهم في أمرها وما قد حل بها وتأدبت معهم وخاطبتهم وهم يسمعون: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾ (النمل: ٣٢) تعني ما كنت لأبت أمرا إلا وأنتم حاضرون: ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ (النمل: ٣٣) يعنون لنا قوة وقدرة على الجلاد والقتال ومقاومة الأبطال فإن أردت منا ذلك فإنا عليه من القادرين: ﴿وَ﴾ مع هذا: ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ فبذلوا لها السمع والطاعة وأخبروها بما عندهم من الاستطاعة وفوضوا إليها في ذلك الأمر لترى فيه ما هو الأرشد لها ولهم.

فكان رأيها أتم وأشد من رأيهم وعلمت أن صاحب هذا الكتاب لا يغالب ولا يمانع ولا يخالف ولا يخادع: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾ قول برأيها السديد: إن هذا الملك لو قد غلب على هذه المملكة لم يخلص الأمر من بينكم إلا إلي ولم تكن الحدة والشدة والسطوة البليغة إلا علي: ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أرادت أن تصانع عن نفسها وأهل مملكتها بهدية ترسلها وتحف تبعثها ولم تعلم أن سليمان عليه السلام لا يقبل منهم والحالة هذه صرفًا ولا عدلًا لأنهم كافرون وهم وجنوده عليهم قادرون، ولهذا: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾﴾ إليه ووافدها الذي قدم عليه والناس حاضرون يسمعون: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ يقول ارجع بهديتك التي قدمت بها إلى من قد من بها فإن عندي مما قد أنعم الله علي وأسداه إلي من الأموال والتحف والرجال ما هو أضعاف هذا وخير من

هذا الذي أنتم تفرحون به وتفخرون على أبناء جنسكم بسببه: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ أي فلأبعثن إليهم بجنود لا يستطيعون دفاعهم ولا نزالهم ولا مما نعتهم ولا قتالهم ولأخرجنهم من بلادهم وحوزتهم ومعاملتهم ودولتهم أذلة: ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ عليهم الصغار والعار والدمار.

فلما بلغهم ذلك عن نبي الله لم يكن لهم بد من السمع والطاعة فبادروا إلى إجابته في تلك الساعة وأقبلوا صحبة الملكة أجمعين سامعين مطيعين خاضعين فلما سمع بقدومهم عليه ووفودهم إليه قال لمن بين يديه ممن هو مسخر له من الجان ما قصه الله عنه في القرآن: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠) قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤)﴾ (النمل: ٣٨-٤٤).

لما طلب سليمان من الجان أن يحضروا له عرش بلقيس وهو سرير مملكتها التي تجلس عليه وقت حكمها قبل قدومها عليه: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩)﴾ (النمل: ٣٩) يعني قبل أن ينقضي مجلس حكمك وكان فيما يقال من أول النهار إلى قريب الزوال يتصدى لمهمات بني إسرائيل وما لهم من الأشغال؛ ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ أي وإني لذو قدرة على إحضاره إليه وأمانة على ما فيه من الجواهر النفيسة لديك: ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ المشهور أنه آصف بن برخيا وهو ابن خالة سليمان: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ قيل: معناه قبل أن تبعث رسولًا إلى أقصى ما ينتهي

إليه طرفك من الأرض، ثم يعود إليك، وقيل: قبل أن يصل إليك أبعد ما تراه من الناس، وقيل: قبل أن يكل طرفك إذا أدمت النظر به قبل أن تطبق جفنك، وقيل: قبل أن يرجع إليك طرفك إذا نظرت به إلى أبعد غاية منك ثم أغمضته، وهذا أقرب ما قيل: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ أي فلما رأى عرش بلقيس مستقرًا عنده في هذه المدة القريبة من بلاد اليمن إلى بيت المقدس في طرفة عين: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ أي هذا من فضل الله علي وفضله على عبيده ليخبرهم على الشكر أو خلافه: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ أي إنما يعود نفع ذلك عليه: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ أي غني عن شكر الشاكرين ولا يتضرر بكفر الكافرين.

ثم أمر سليمان عليه السلام أن يغير حلي هذا العرش وينكّر لها لتختبر فهمها وعقلها ولهذا قال: ﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ (النمل: ٤١- ٤٢)، وهذا من فطنتها وغزارة فهمها؛ لأنها استبعدت أن يكون عرشها؛ لأنها خلفته وراءها بأرض اليمن ولم تكن تعلم أن أحدًا يقدر على هذا الصنع العجيب الغريب. قال الله تعالى إخبارًا عن سليمان وقومه: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾ (النمل: ٤٢-٤٣)، أي ومنعها عبادة الشمس التي كانت تسجد لها هي وقومها من دون الله إتباعا لدين آبائهم وأسلافهم لا لدليل قادهم إلى ذلك ولا حادهم على ذلك.

وكان سليمان قد أمر ببناء صرح من زجاج وعمل في ممره ماء وجعل عليه سقفًا من زجاج وجعل فيه السمك وغيرها من دواب الماء وأمرت بدخول الصرح وسليمان جالس على سريره فيه: ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ (النمل: ٤٤).

وقال تعالى في سورة ص: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ

﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣) وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ (٤٠)﴾ (ص ٣٠: ٤٠).

يذكر تعالى أنه وهب لداود سليمان عليهما السلام ثم أثنى الله تعالى عليه فقال: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي رجاع مطيع لله ثم ذكر تعالى ما كان من أمره في الخيل الصافنات وهي التي تقف على ثلاثة وطرف حافر الرابعة الجياد وهي المضمرة السراع: ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢)﴾ يعني الشمس، وقيل: الخيل على ما سنذكره من القولين: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣)﴾ قيل: مسح عراقيبها وأعناقها بالسيوف، وقيل: مسح عنها العرق لما أجراها وسابق بينها بين يديه على القول الآخر.

والذي عليه أكثر السلف الأول؛ فقالوا: اشتغل بعرض تلك الخيول حتى خرج وقت العصر وعلى ما سنذكره من القولين: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ قيل: مسح عراقيبها وأعناقها بالسيوف، وقيل: مسح عنها العرق لما أجراها وسابق بينها بين يديه على القول الآخر.

والذي عليه أكثر السلف الأول؛ فقالوا اشتغل بعرض تلك الخيول حتى خرج وقت العصر وغربت الشمس.

وفي سنة النبي ﷺ.

عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ: "أن سليمان بن داود سأل الله تبارك وتعالى ثلاثًا فأعطاه اثنتين وأرجو أن يكون قد أعطاه الثالثة سأله ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده فأعطاه إياه، وسأله حكمًا يواطىء حكمه، فأعطاه إياه وسأله من أتى هذا البيت - يريد به بيت المقدس - لا يريد إلا الصلاة فيه أن يخرج منه كيوم ولدته أمه؛ فقال رسول الله ﷺ: "وأرجو أن يكون قد أعطاه الثالث". [1]

(١) إسناده صحيح. أخرجه أحمد (٢/ ١٧٦، ٦٦٤٤)، والحاكم (٢/ ٤٧١).

فأما الحكم الذي يوافق حكم الله تعالى فقد أثنى الله تعالى عليه وعلى أبيه في قوله: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ٧٩﴾ (الأنبياء: ٨٧ -٧٩)، وقد ذكر شريح القاضي وغير واحد من السلف أن هؤلاء القوم كان لهم كرم فنفشت فيه غنم قوم آخرين أي رعته بالليل فأكلت شجرة فأكلت فتحاكموا إلى داود عليه السلام فحكم لأصحاب الكرم بقيمته فلما خرجوا على سليمان قال: بم حكم لك نبي الله؟ فقالوا: بكذا وكذا فقال: أما لو كنت أنا لما حكمت إلا بتسليم الغنم إلى أصحاب الكرم فيستغلونها نتاجًا ودرًا حتى يصلح أصحاب الغنم كرم أولئك ويردوه إلى ما كان عليه ثم يتسلموا غنمهم فبلغ داود عليه السلام ذلك فحكم به.

وقريب من هذا ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: " بينما امرأتان معهما ابناهما إذ عدا الذئب فأخذ ابن إحداهما فتنازعتا في الآخر فقالت الكبرى: إنما ذهب بابنك وقالت الصغرى: بل إنما ذهب بابنك فتحاكمتا إلى داود فحكم به للكبرى فخرجتا على سليمان فقال: آتوني بالسكين أشقه نصفين لكل واحدة منكما نصفه فقالت الصغرى: يرحمك الله هو ابنها فقضى به لها"[(١)]

ولعل كل من الحكمين كان سائغًا في شريعتهم وكان ما قاله سليمان أرجح، ولهذا أثنى الله عليه بما ألهمه إياه بعد ذلك إياه فقال: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ٧٩ وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ ٨٠﴾ (الأنبياء: ٧٩-٨٠).

ثم قال: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ﴾ أي وسخرنا لسليمان الرحي عاصفة: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ ٨١ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ﴾ (الأنبياء: ٨١-٨٢).

وقد ذكر غير واحد من السلف أنه كانت لسليمان من النساء ألف امرأة- سبعمائة

(١) أخرجه البخاري (٦٣٨٧)، ومسلم (١٧٢٠).

بمهور وثلاثمائة سراري، وقيل بالعكس ثلاثمائة حرائر وسبعمائة من الإماء-، وقد كان يطيق من التمتع بالنساء أمرًا عظيمًا جدًّا.

عن أبي هريرة ﷺعن النبي ﷺ قال: " قال سليمان بن داود عليه السلام: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تحمل كل امرأة فارسًا يجاهد في سبيل الله فقال له صاحبه: إن شاء الله فلم يقل فلم تحمل شيئًا إلا واحدًا ساقطًا أحد شقيه؛ فقال النبي ﷺ: لو قالها لجاهدوا في سبيل الله". (1)

الوجه الثاني: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

نقول وما المانع إذا كان الله قد علم سليمان بعض الأشياء التي غابت عن أبيه داود ولا يعني ذلك تفضيل سليمان على داود عليهما السلام فما زال الصغير يستدرك على الكبير وما يزال المفضول يقف على ما لم يقف عليه الفاضل ولا يعني هذا أنه أفضل منه، ثم إن القضية التي حكم فيها داود وسليمان من الأمور الاجتهادية التي يجتهد فيها البشر.

وعندنا في الإسلام كما ورد في السنة من هذا القبيل الشيء الكثير، منها أن عمر رضي الله عنه كان يدخل ابن عباس وهو صغير في مجالس الكبار من مشايخ الصحابة وأحب عمر رضي الله عنه أن يثبت لهم، فسألهم مرة عن تفسير قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ (سورة النصر).

فقال ابن عباس: القول الصحيح فيها بأنه أجل النبي ﷺ أعلمه الله إياه، وصوبه عمر رضي الله عنه، والأمثلة على ذلك كثيرة، ثم إن سليمان عليه السلام كان نبيًا مثل أبيه، وقال الله تعالى عنه: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٥ وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ (النمل: ١٥-١٦).

وقد قرر العلماء أن الصحيح أن ميراث سليمان من أبيه كان ميراث النبوة وليس ميراث المال. ثم إن الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل، وما المانع أن يرجع النبي داود إلى الحق والصواب متى استبان له ذلك فليس هذا فيه أدنى طعن في النبي داود عليه السلام.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٦٤)، ومسلم (١٦٥٤).

الوجه الثالث ماذا قالت التوراة عن داود وسليمان؟

داود يزني ويقتل وينجب من الزنا سليمان

(صمويل الثاني ١١/ ١٦: ٢): وَكَانَ فِي وَقْتِ الْمَسَاءِ أَنَّ دَاوُدَ قَامَ عَنْ سَرِيرِهِ وَتَمَشَّى عَلَى سَطْحِ بَيْتِ الْمَلِكِ، فَرَأَى مِنْ عَلَى السَّطْحِ امْرَأَةً تَسْتَحِمُّ. وَكَانَتِ الْمَرْأَةُ جَمِيلَةَ الْمَنْظَرِ جِدًّا. ٣فَأَرْسَلَ دَاوُدُ وَسَأَلَ عَنِ الْمَرْأَةِ، فَقَالَ وَاحِدٌ: «أَلَيْسَتْ هذِهِ بَثْشَبَعَ بِنْتَ أَلِيعَامَ امْرَأَةَ أُورِيَّا الْحِثِّيِّ؟ ». ٤فَأَرْسَلَ دَاوُدُ رُسُلاً وَأَخَذَهَا، فَدَخَلَتْ إِلَيْهِ، فَاضْطَجَعَ مَعَهَا وَهِيَ مُطَهَّرَةٌ مِنْ طَمْثِهَا. ثُمَّ رَجَعَتْ إِلَى بَيْتِهَا. ٥وَحَبِلَتِ الْمَرْأَةُ، فَأَرْسَلَتْ وَأَخْبَرَتْ دَاوُدَ وَقَالَتْ: «إِنِّي حُبْلَى». ٦فَأَرْسَلَ دَاوُدُ إِلَى يُوآبَ يَقُولُ: «أَرْسِلْ إِلَيَّ أُورِيَّا الْحِثِّيَّ». فَأَرْسَلَ يُوآبُ أُورِيَّا إِلَى دَاوُدَ. ٧فَأَتَى أُورِيَّا إِلَيْهِ، فَسَأَلَ دَاوُدُ عَنْ سَلاَمَةِ يُوآبَ وَسَلاَمَةِ الشَّعْبِ وَنَجَاحِ الْحَرْبِ. ٨وَقَالَ دَاوُدُ لأُورِيَّا: «انْزِلْ إِلَى بَيْتِكَ وَاغْسِلْ رِجْلَيْكَ». فَخَرَجَ أُورِيَّا مِنْ بَيْتِ الْمَلِكِ، وَخَرَجَتْ وَرَاءَهُ حِصَّةٌ مِنْ عِنْدِ الْمَلِكِ.وَدَعَاهُ دَاوُدُ فَأَكَلَ أَمَامَهُ وَشَرِبَ وَأَسْكَرَهُ. وَخَرَجَ عِنْدَ الْمَسَاءِ لِيَضْطَجِعَ فِي مَضْجَعِهِ مَعَ عَبِيدِ سَيِّدِهِ، وَإِلَى بَيْتِهِ لَمْ يَنْزِلْ. ١٤وَفِي الصَّبَاحِ كَتَبَ دَاوُدُ مَكْتُوبًا إِلَى يُوآبَ وَأَرْسَلَهُ بِيَدِ أُورِيَّا. ١٥وَكَتَبَ فِي الْمَكْتُوبِ يَقُولُ: «اجْعَلُوا أُورِيَّا فِي وَجْهِ الْحَرْبِ الشَّدِيدَةِ، وَارْجِعُوا مِنْ وَرَائِهِ فَيُضْرَبَ وَيَمُوتَ». ١٦وَكَانَ فِي مُحَاصَرَةِ يُوآبَ الْمَدِينَةَ أَنَّهُ جَعَلَ أُورِيَّا فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي عَلِمَ أَنَّ رِجَالَ الْبَأْسِ فِيهِ.

سليمان كفر وهو ابن زنا كما يزعمون

(الملوك الأول ١١/ ١١: ٩): فَغَضِبَ الرَّبُّ عَلَى سُلَيْمَانَ لأَنَّ قَلْبَهُ مَالَ عَنِ الرَّبِّ إِلهِ إِسْرَائِيلَ الَّذِي تَرَاءَى لَهُ مَرَّتَيْنِ، ١٠وَأَوْصَاهُ فِي هذَا الأَمْرِ أَنْ لاَ يَتَّبِعَ آلِهَةً أُخْرَى، فَلَمْ يَحْفَظْ مَا أَوْصَى بِهِ الرَّبُّ. ١١فَقَالَ الرَّبُّ لِسُلَيْمَانَ: «مِنْ أَجْلِ أَنَّ ذلِكَ عِنْدَكَ، وَلَمْ تَحْفَظْ عَهْدِي وَفَرَائِضِيَ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ بِهَا، فَإِنِّي أُمَزِّقُ الْمَمْلَكَةَ (صمويل الأول ١١/ ٢٤): وَعَزَّى دَاوُدُ بَثْشَبَعَ امْرَأَتَهُ، وَدَخَلَ إِلَيْهَا وَاضْطَجَعَ مَعَهَا فَوَلَدَتِ ابْنًا، فَدَعَا اسْمَهُ سُلَيْمَانَ، وَالرَّبُّ أَحَبَّهُ.

* * *

٣ـ شبهة: حصب جهنم.

نص الشبهة:

قال المعترض: يقول تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ (الأنبياء: ٩٨).

قال مفسرو المسلمين: إن محمدًا لما تلا هذه الآية، سأله عبد الله بن الزبعرى: ألم تقل إن اليهود عبدوا عزيرًا، والنصارى عبدوا المسيح، وبني مليح عبدوا الملائكة، والصابئين الكواكب؟ فهل هؤلاء وقود النار؟ (الرازي في تفسير هذه الآية)

وقد اعتذر الرازي عن ذلك بقوله: إنه كان يخاطب العرب فقط بدليل قوله: ﴿إِنَّكُمْ﴾ ولكن القرآن في مواضع كثيرة استخدم نفس اللفظ للجميع، فقال في سورة مريم: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ (مريم: ٧١)، فهل يعني العرب فقط؟ ثم إن العرب كانوا يعبدون الشمس والقمر والكواكب والنجوم، فهل كل هذه في النار؟.

وقد اعتذر الرازي بقوله: إن لفظ (ما) تستخدم لغير العاقل، نقول جاء في القرآن: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ (الشمس ٧: ٨)، فهل (ما) هنا لغير العاقل؟.

والجواب عن ذلك من وجهين:

الوجه الأول: تحقيق الرواية المذكورة عن ابن الزبعري.

الوجه الثاني: الرد على الاعتراض.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: تحقيق الرواية.

وردت هذه الرواية من أربعة طرق عن ابن عباس:

الأولى: من طريق يحيى بن آدم قال: حدثنا أبو بكر بن عياش، عن عاصم، عن أبي رزين عن أبي يحيى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: آيَةٌ فِي كِتَابِ الله ﷻ لَا يَسْأَلُنِي النَّاسُ عَنْهَا وَلَا أَدْرِي، أَعَرَفُوهَا فَلَا يَسْأَلُونِي عَنْهَا أَمْ جَهِلُوهَا فَلَا يَسْأَلُونِي عَنْهَا؟ قِيلَ: وَمَا هِيَ؟ قَالَ: آيَةٌ لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى

أَهْلِ مَكَّةَ وَقَالُوا: شَتَمَ مُحَمَّدٌ آلِهَتَنَا؛ فَقَامَ ابْنُ الزِّبَعْرَى فَقَالَ: مَا شَأْنُكُمْ قَالُوا: شَتَمَ مُحَمَّدٌ آلِهَتَنَا قَالَ: وَمَا قَالَ؟ قَالُوا قَالَ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ قَالَ: ادْعُوهُ لِي فَدُعِيَ مُحَمَّدٌ ﷺ، فَقَالَ ابْنُ الزِّبَعْرَى: يَا مُحَمَّدُ هَذَا شَيْءٌ لِآلِهَتِنَا خَاصَّةً أَمْ لِكُلِّ مَنْ عُبِدَ مِنْ دُونِ اللهِ؟ قَالَ: بَلْ لِكُلِّ مَنْ عُبِدَ مِنْ دُونِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: فَقَالَ: خَصَمْنَاهُ وَرَبِّ هَذِهِ الْبَنِيَّةِ يَا مُحَمَّدُ! أَلَسْتَ تَزْعُمُ أَنَّ عِيسَى عَبْدٌ صَالِحٌ، وَعُزَيْرًا عَبْدٌ صَالِحٌ، وَالْمَلَائِكَةَ عِبَادٌ صَالِحُونَ قَالَ: بَلَى قَالَ: فَهَذِهِ النَّصَارَى يَعْبُدُونَ عِيسَى، وَهَذِهِ الْيَهُودُ تَعْبُدُ عُزَيْرًا، وَهَذِهِ بَنُو مَلِيحٍ تَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ قَالَ: فَضَجَّ أَهْلُ مَكَّةَ فَنَزَلَتْ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ عِيسَى وَعُزَيْرٌ وَالْمَلَائِكَةُ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ قَالَ: وَنَزَلَتْ: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾﴾[1].

الثانية: أخرجها الطحاوي في مشكل الآثار (٦١١٢)، قال: حدثنا أبو أمية، حدثنا محمد بن الصلت، وأخرج الطبري في تفسيره (١٨/ ٥٤٠) قال: حدثنا ابن سنان القزاز، قال: حدثنا الحسن بن الحسين الأشقر، كلاهما (محمد والحسن) قالا: حدثنا أبو كدينة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ الْآيَةَ.

قَالَ الْمُشْرِكُونَ فَإِنَّ عِيسَى ﷺ يُعْبَدُ وَعُزَيْرٌ ﷺ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ عِيسَى وَعُزَيْرٌ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمَا[2].

---

(١) إسناده ضعيف. أخرجه الطحاوي في مشكل الآثار (٦١١٣ تحفة الأخيار)، والواحدي في أسباب النزول (ص٤٩٩) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٠/ ٣٢٩) وأخرجه بنحوه الطبراني في الكبير (١٢٧٣٩) بنفس الإسناد إلا أنه أسقط أبا يحيى.

قلت: إسناده ضعيف وآفته أبو يحي مصدع وضعفه ابن حبان وجهله ابن معين وقال الحافظ: مقبول.

(٢) إسناد ضعيف، عطاء بن السائب: ثقة إلا أنه اختلط. أبو كدينة: وثقه ابن معين وأبو داود والنسائي والعجلي. ولكن سماعه من عطاء لم يذكر قبل أو بعد الاختلاط، والظاهر أنه بعده.

الثالثة: أخرجها الطحاوي في مشكل الآثار (٦١١٥ تحفة الأخيار)، قال: حدثنا أحمد بن داود، حدثنا إبراهيم بن محمد بن عرعرة، حدثنا يزيد بن أبي حكيم، حدثنا الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: «جاء عبد الله بن الزبعرى إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، تزعم أن الله أنزل عليك هذه الآية: إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون، فقد عبدت الشمس والقمر والملائكة وعزير وعيسى صلوات الله عليهم، أوكل هؤلاء في النار مع آلهتنا؟ ، فأنزل الله ﷻ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴾، ونزلت: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ﴾.[1]

الرابعة: أخرج الحاكم في المستدرك (٣٤٤٩) حدثنا أبو العباس قاسم بن القاسم السياري ثنا محمد بن موسى بن حاتم ثنا علي بن الحسن بن شقيق ثنا الحسين بن واقد عن يزيد النحوي عن عكرمة عن ابن عباس ﷺ قال: لما نزلت: ﴿ إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ فقال المشركون: الملائكة و عيسى و عزير يعبدون من دون الله فقال: لو كان هؤلاء الذين يعبدون آلهة ما وردوها قال، فنزلت: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ عيسى و عزيز و الملائكة وقال: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه.[2]

وللحديث شواهد:

منها ما أخرجه الطبري في تفسيره (١٨/ ٥٣٩) قال: حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، عن ابن إسحاق، قال: جلس رسول الله ﷺ فيما بلغني يوما مع الوليد بن المغيرة، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم وفي المجلس غير واحد من رجال قريش، فتكلم

---

(١) **إسناده يحسن**. الحكم بن أبان: وثقه ابن معين والنسائي والعجلي، وضعفه ابن حبان، وقال: ربما أخطأ وكذا ابن عدي، وقال ابن حجر: صدوق عابد وله أوهام.

(٢) **إسناده حسن**. يزيد النحوي: وثقه ابن معين وأبو زرعة والنسائي، وقال أبو حاتم: صالح الحديث الحسين بن واقد: وثقه ابن معين، وقال أبو زرعة والنسائي وأحمد: ليس به بأس. علي بن الحسين بن شقيق: قال أحمد: لم يكن به بأس، وقال الحافظ: ثقة حافظ.

رسول الله ﷺ، فعرض له النضر بن الحارث، وكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه، ثم تلا عليه وعليهم: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾، ثم قام رسول الله ﷺ، وأقبل عبد الله بن الزِّبَعْرى بن قيس بن عديّ السهمي حتى جلس، فقال الوليد بن المغيرة لعبد الله بن الزِّبَعْرى: والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب آنفا وما قعد، وقد زعم أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم، فقال عبد الله بن الزبعري: أما والله لو وجدته لخصمته، فسلوا محمدا: أكلّ من عبد من دون الله في جهنم مع من عبده؟ فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عُزَيرا، والنصارى تعبد المسيح عيسى ابن مريم، فعجب الوليد بن المغيرة ومن كان في المجلس من قول عبد الله بن الزِّبَعْرى، ورأوا أنه قد احتج وخاصم، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ من قول ابن الزِّبَعْرى، فقال: رسول الله ﷺ: "نعم كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبد، إنما يعبدون الشياطين ومن أمرهم بعبادته"، فأنزل الله عليه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ . . . إلى ﴿خَٰلِدُونَ﴾[1].

ومنها: ما أخرجه الفاكهي في أخبار مكة (باب ذكر أبواب المسجد الحرام)

قال: حدثنا أحمد بن سليمان الصفار قال: ثنا زيد بن المبارك قال: ثنا ابن ثور، عن ابن جريج قال: دخل النبي ﷺ المسجد فطاف سبعًا، وقريش جلوس بين باب بني مخزوم وباب بني جمح، فقال ﷺ بيده وأشار إليهم وإلى أوثانهم: إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون، ثم خرج ﷺ، فجاء ابن الزبعرى، وإذا قريش تسبه، فقال: ما لكم؟ فقالوا: إن ابن أبي كبشة سبنا وسب أوثاننا، فلما أن كان من العشي لقي ابن الزبعرى، فقال: يا محمد، أهي لنا ولآلهتنا خاصة دون الأمم، أو هي لجميع الأمم؟ قال: " « بل هي لكم ولجميع الأمم»، قال ابن الزبعرى: خصمتك ورب الكعبة؛ فإنك تثني على عيسى وأمه خيرًا، وقد

(١) **إسناده ضعيف**. شيخ الطبري محمد بن حميد ضعيف وقد أخرجه ابن إسحق مرسلًا والمرسل من أقسام الضعيف.

عبد، فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾"(١).

الوجه الثاني: الرد على الاعتراض.

والجواب من أوجه:

الأول: أن هذه الآية لم تتناول الملائكة ولا عيسى لتعبيره ب (ما) الدالة على غير العاقل وَ﴿مَا﴾ فَإِنَّمَا تُقَالُ لِغَيْرِ بَنِي آدَمَ وَيُقَالُ مَكَانَهَا لِبَنِي آدَمَ (مَنْ) كَمَا قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ﴾ ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ فِي أَمْثَالِ ذَلِكَ مِمَّا يُرِيدُ بِهِ بَنِي آدَمَ، وَقَالَ فِي سِوَى بَنِي آدَمَ: ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ لِغَيْرِ بَنِي آدَمَ وَفِيمَا رَوَيْتُمُوهُ وَأَضَفْتُمُوهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا قَدْ ذَكَرْتُمُوهُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ وَفِي إِحْدَى الْآيَتَيْنِ اللَّتَيْنِ تَلَوْتُمُوهَا فِيهِ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ أُرِيدَ بِهِ بَنُو آدَمَ فَكَانَ جَوَابُنَا لَهُ فِي ذَلِكَ بِتَوْفِيقِ اللهِ ﷻ وَعَوْنِهِ أَنَّ (مَنْ) وَ (مَا) فِي الْأَكْثَرِ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ يَخْرُجَانِ عَلَى مَا ذُكِرَ وَقَدْ تَسْتَعْمِلُ الْعَرَبُ أَيْضًا فِي كَلَامِهَا فِي بَنِي آدَمَ (مَا) كَمَا تَسْتَعْمِلُ (مَنْ) وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ مِمَّا لَا تَسْتَعْمِلُهُ فِيهِمْ كَثِيرًا كَمَا تَسْتَعْمِلُ فِيهِمْ (مَنْ) وَمِنْ ذَلِكَ قَوْله تَعَالَى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ مَكَانَ إِلَّا مَنْ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وقَوْله تَعَالَى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وَ: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾. وَقَوْلُهُ ﷻ: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾﴾ يَعْنِي آدَمَ ﷺ وَمَا وَلَدَ. (٢)

الثاني: أن الملائكة وعيسى نص الله على إخراجهم من هذا دفعا للتوهم ولهذه الحجة الباطلة بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ (الأنبياء: ١٠١). (٣)

---

(١) مرسل ومراسيل ابن جريج واهية والخلاصة: أن الحديث بطرقه وشواهده يحسن إسناده مما يدل على أن للحديث أصلًا.

(٢) مشكل الآثار للطحاوي (٨/ ٤٣٩، تحفة الأخيار)، دفع إيهام الاضطراب (٢٠٣).

(٣) دفع إيهام الاضطراب (٢٠٣، ٢٠٤)، الروض الأنف (٢/ ١٤٣).

الثالث: ورد في الحديث أن النبي ﷺ رد على المعترض فقال: إن كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده، إنهم إنما يعبدون الشياطين، ومن أمرهم بعبادته" فأنزل الله تعالى تصديقًا لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ١٠١ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ١٠٢ لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ (الأنبياء: ١٠١-١٠٣).

فانظر إلى هذا الجواب المفحم الذي لم يترك للمجادل مجالًا للتمادي بالباطل، حيث أعلمه أن من ذكر لم يأمروهم بعبادتهم، وأنهم إنما يعبدون الشياطين، وأنهم لو أمروهم بذلك أو حبذوا ذلك منهم لكان الحكم عامًا فيهم.[1]

* * * *

(١) رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ (١/ ١٢٦) تأليف: عماد الشربيني.

سورة الحـــج

وفيها :

١- شبهة الغرانيق

٢- شبهة: ادعاؤهم أن الحج شعائره وثنية.

١ـ شبهة الغرانيق

نص الشبهة:

تحت عنوان: (وحي من الشيطان) كتب أعداء الإسلام ما يلي:

جاء في سورة الحج: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢﴾ (الحج: ٥٢)، حيث قالوا: قال المفسرون: إن محمدًا ﷺ لما كان في مجلس قريش أنزل الله عليه سورة النجم فقرأها حتى بلغ ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ٢٠﴾، فألقى الشيطان على لسانه ما كان يحدث به نفسه ويتمناه - وهو: تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى، فلما سمعت قريش فرحوا به، ومضى محمدﷺ في قراءته، فقرأ السورة كلها، وسجد في آخرها، وسجد المسلمون بسجوده، كما سجد جميع المشركين. ، وقالوا: لقد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر، وقد عرفنا أن الله يحيي ويميت؛ ولكن آلهتنا تشفع لنا عنده!.

قالوا: ونحن نسأل: كيف يقر محمد ﷺ لوحدانية الله ﷻ ويمدح آلهة قريش ليتقرب إليهم، ويفوز بالرياسة عليهم بالأقوال الشيطانية؟ وما الفرق بين النبي الكاذب والنبي الصادق إذا كان الشيطان ينطق على لسان كليهما؟

والجواب من وجوه:

الوجه الأول: أن القصة من جهة الإسناد لا تثبت عن النبي ﷺ.

الوجه الثاني: الراجح عند أهل العلم أن المرسل ليس بحجة.

الوجه الثالث: الأدلة من القرآن على بطلان هذه القصة.

الوجه الرابع: الأدلة من السنة على بطلان واستحالة هذه القصة.

الوجه الخامس: الأدلة من المعقول على بطلان القصة.

الوجه السادس: في ذكر بعض كلام المحققين على هذه القصة.

الوجه السابع: ولكن أهل العلم أجابوا عنها على فرض صحتها، وقد أعاذنا الله من صحتها.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: أن القصة من جهة الإسناد لا تثبت عن النبي ﷺ.

فالطريق المسندة عن ابن عباس ﷺشديدة الضعف وبقية الطرق مرسلة، وإليك بيان كل طريق وما فيه من علة.

أولا الرواية المسندة: عن ابن عباس ﷺأن رسول الله ﷺ قرأ النجم فلما بلغ ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ **ألقى الشيطان على لسانه: تلك الغرانيق العلى وشفاعتهم ترتجى فلما بلغ آخرها سجد، وسجد المسلمون، والمشركون فأنزل الله ﷻ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ إلى قوله ﴿ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ يوم بدر.** [١]

(١) ضعيف جدًا، وله طرق عن ابن عباس ﷺ:

الطريق الأول: أخرجه الطبراني في الكبير (١٢٤٥٠)، ، ومن طريقه الضياء في المختارة (٨٤)من طريق الحسين بن إسحاق التستري، وعبدان بن أحمد.

وأخرجه الضياء في المختارة (٨٣)من طريق ابن مردويه، عن محمد بن أحمد بن إبراهيم عن علي بن الحسين بن الجنيد، عن أحمد بن محمد بن عاصم، وأخرجه البزار كما في كشف الأستار (٣/ ٧٢)من طريق يوسف بن حماد، جميعهم (الحسين، وعبدان، وأحمد بن محمد بن عاصم، ويوسف بن حماد) عن أمية بن خالد، عن شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس فيما أحسب وذكره بهذا الشك فيه واختلف على شعبة في وصل الحديث وأرسله، فأخرجه عنه أمية بن خالد كما تقدم متصلًا، وخالفه جماعة فرووه عن شعبة بهذا الإسناد إلى ابن جبير مرسلًا وها هم:

١-محمد بن جعفر (وهو أثبت الناس في شعبة) أخرجه الطبري في تفسير سورة الحج آية (٥٢) من طريق محمد بن بشار، عن محمد بن جعفر، عن شعبة به مرسلًا.

٢-عبد الصمد، أخرجه الطبري من طريق ابن المثنى، حدثني عبد الصمد، عن شعبة به مرسلًا.

٣-أبو داود الطيالسي، أخرجه ابن أبي حاتم كما ذكره ابن كثير من طريق يونس بن حبيب، عن أبي داود عن شعبة به، فهؤلاء أصحاب شعبة الأثبات فيه، ومحمد بن جعفر هو ربيب شعبة، وهو المشهور بغندر، قال ابن المبارك: إذا اختلف الناس في حديث شعبة فكتاب غندر حكم بينهم.

قلت: وتابعه اثنان من الأثبات على الإرسال، فثبت شذوذ أمية بن خالد ووهمه في الرواية.

الطريق الثاني: أخرجه الضياء في المختارة، فقال: أخبرنا أبو القاسم بن أحمد بن أبي القاسم الخباز، أن أبا الخير محمد بن رجاء بن إبراهيم أخبرهم ابن أحمد بن عبد الرحمن ابن أحمد بن موسى بن مردويه حدثني إبراهيم بن

محمد حدثني أبو بكر محمد بن علي المقرئ البغدادي، ثنا جعفر بن محمد الطيالسي، ثنا إبراهيم بن محمد بن عرعرة، ثنا أبو عاصم النبيل، ثنا عثمان بن الأسود، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس به.

وهذا إسناد ضعيف فيه أبو بكر المقريء؛ واسمه محمد بن على بن الحسن أبو بكر المقريء ترجم له الخطيب في التاريخ (٣/ ٦٨)ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلًا، وقال الألباني: مجهول الحال واختلف على عثمان بن الأسود، فأخرجه عنه أبو عاصم النبيل كما سبق متصلًا وأخرجه عنه يحيى القطان مرسلًا.

أخرجه الواحدي في أسباب النزول (١/ ٢٠٩)فقال: أخبرنا أبو بكر الحارثي، قال: أخبرنا أبو بكر بن حيان قال: أخبرنا أبو يحيى الرازي قال: أخبرنا سهل العسكري قال: أخبرنا يحيى (هو القطان)عن عثمان بن الأسود، عن سعيد بن جبير به مرسلًا.

وإسناده صحيح إلى سعيد بن جبير، والقطان أحفظ من أبي عاصم ورواية أبي عاصم مقدمة على روايته، ثم إن إسناد الطريق الأول ضعيف.

الطريق الثالث: أخرجه الطبري فقال: حدثني محمد بن سعد قال: ثني أبي قال: ثني عمي قال: ثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس بنحوه،

فال الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على تفسير الطبري١/ ٢٦٣: هو إسناد مسلسل بالضعفاء من أسرة واحدة، إن صح هذا التعبير! وهو معروف عند العلماء بـ "تفسير العوفي"، لأن التابعي -في أعلاه- الذي يرويه عن ابن عباس، هو"عطية العوفي". اهـ

ففي الإسناد محمد بن سعد قال الخطيب: كان لينًا (التاريخ ٥/ ٣٢٢، ٣٢٣)

والده سعد بن محمد بن الحسن بن عطية العوفي ضعيف (تاريخ بغداد ٩/ ١٢٦)

وعمه الحسين بن الحسن بن عطيه متفق على ضعفه (تاريخ بغداد ٨/ ٢٩)

وأبوه الحسن بن عطيه وجده عطية العوفي ضعيفان مشهوران بالضعف (تهذيب التهذيب ٢/ ٢٧٢).

فالطريق واهي لا يصلح للاعتبار.

الطريق الرابع: أخرجه ابن مردويه -نقلًا عن فتح الباري ٨/ ٤٣٩من طريق عباد بن صهيب عن يحيى بن كثير عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس وقال البزار: وإنما يروى هذا عن أبي صالح عن ابن عباس.

قلت: وإسناده ضعيف جدًا، والكلبي متهم بالكذب ورمي بالرفض كما قال الحافظ في التقريب (٥٩٠١)، وأبو صالح لم يسمع من ابن عباس.

الطريق الخامس: عن ابن عباس ذكرها الحافظ بعد ذكر الطريق السابقة فقال فيما يعزوه لابن مردويه: وعن أبي بكر الهذلي، وأيوب عن عكرمة، عن ابن عباس.

وهذا إسناد ضعيف جدًا أبو بكر الهذلي إخباري متروك الحديث؛ كما في التقريب (٨٢٨٣)

ثانيًا: الروايات المرسلة:

أولًا: مرسل سعيد بن جبير وهو صحيح إليه، وقد سبق تخريجه مع طريق ابن عباس.

ثانيًا: مرسل محمد بن كعب القرظي ومحمد بن قيس قالا: " جلس رسول الله ﷺ في ناد من أندية قريش كثير أهله فتمنى يومئذ أن لا يأتيه من الله شيء فينفروا عنه فأنزل الله عليه: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ (النجم: ١، ٢) فقرأها رسول الله ﷺ حتى بلغ ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ۝٢٠﴾ (النجم: ١٩، ٢٠) ألقى عليه الشيطان كلمتين: تلك الغرنقة العلى وإن شفاعتهن لترتجى فتكلم بها ثم مضى فقرأ السورة كلها فسجد في آخر السورة وسجد القوم جميعا معه ورفع الوليد بن المغيرة ترابًا إلى جبهته فسجد عليه وكان شيخاً كبيراً لا يقدر على السجود فرضوا بما تكلم به وقالوا: قد عرفنا أن الله يحيي ويميت وهو الذي يخلق ويرزق ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده إذ جعلت لها نصيبا فنحن معك قالا: فلما أمسى أتاه جبرائيل عليه السلام فعرض عليه السورة فلما بلغ الكلمتين اللتين ألقى الشيطان عليه قال: ما جئتك بهاتين فقال رسول الله ﷺ: افتريت على الله وقلت على الله ما لم يقل فأوحى الله إليه ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥ﴾ (الإسراء: ٧٣) إلى قوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا﴾ (الإسراء: ٧٥) فما زال مغمومًا مهمومًا حتى نزلت عليه ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٥٢﴾ قال: فسمع من كان من المهاجرين بأرض

وأيوب هو السختياني والظاهر أن الراوي قرن أيوب مع أبي بكر في رواية أصل الحديث لا في هذه الزيادة ومما يبين ذلك أن البخاري أخرج رواية أيوب للحديث برقم (٤٨٦٢: ١٠٧١) من غير ذكر ولا إشارة لقصة الغرانيق فظهر بهذا أنها ليست من رواية أيوب ولكن الراوي قرنه معه في قصة السجود فقط.

الطريق السادس: ذكرها الحافظ وعزاها لابن مردويه من طريق سليمان التيمي عمن حدثه عن ابن عباس به، وهذه رواية ظاهرة الانقطاع ومن ثم قال الحافظ في الفتح ٨/ ٤٣٩بعد ذكر هذه الطرق: وكلها سوى طريق سعيد بن جبير إما ضعيف وإلا منقطع.

وكلام ابن حجر هذا يؤيد ما رجحناه من شذوذ الطريق الموصولة، وأن المحفوظ الطريق المرسل.

الحبشة أن أهل مكة قد أسلموا كلهم فرجعوا إلى عشائرهم وقالوا: هم أحب إلينا فوجدوا القوم قد ارتكسوا حين نسخ الله ما ألقى الشيطان"(١)

ثالثا: مرسل محمد بن كعب القرظي:

قال: لما رأى رسول الله ﷺ تولي قومه عنه، وشق عليه ما يرى من مباعدتهم ما جاءهم به من عند الله تمنى في نفسه أن يأتيه من الله ما يقارب به بينه وبين قومه وكان يسره مع حبه وحرصه عليهم أن يلين له بعض ما غلظ عليه من أمرهم حين حدث بذلك نفسه وتمنى وأحبه فأنزل الله: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ (النجم ٢: ١)، فلما انتهى إلى قول الله ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ۝٢٠﴾ (النجم ٢٠: ١٩) ألقى الشيطان على لسانه لما كان يحدث به نفسه ويتمنى أن يأتي به قومه: تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن ترتضى فلما سمعت قريش ذلك فرحوا وسرهم وأعجبهم ما ذكر به آلهتهم فأصاخوا له والمؤمنون مصدقون نبيهم فيما جاءهم به عن ربهم ولا يتهمونه على خطأ ولا وهم ولا زلل فلما انتهى إلى السجدة منها وختم السورة سجد فيها فسجد المسلمون بسجود نبيهم تصديقًا لما جاء به واتباعًا لأمره وسجد من في المسجد من المشركين من قريش وغيرهم لما سمعوا من ذكر آلهتهم فلم يبق في المسجد مؤمن ولا كافر إلا سجد إلا الوليد بن المغيرة فإنه كان شيخًا كبيرًا فلم يستطع فأخذ بيده حفنة من البطحاء فسجد عليها ثم تفرق الناس من المسجد وخرجت قريش وقد سرهم ما سمعوا من ذكر آلهتهم يقولون: قد ذكرنا محمد آلهتنا بأحسن الذكر وقد زعم فيما يتلو أنه الغرانيق العلى وأن شفاعتهن ترتضى وبلغت السجدة من بأرض الحبشة من أصحاب رسول الله

---

(١) ضعيف. أخرجه الطبري ٩/ ١٧٤، قال: حدثنا القاسم بن الحسن ثنا الحسين بن داود ثنا حجاج عن أبي معشر عن محمد بن كعب القرظي ومحمد بن قيس به.

وهو مع الإرسال إسناده ضعيف فيه أبو معشر اسمه نجيح بن عبد الرحمن السندي قال الحافظ في التقريب (ت٧١٠٠): ضعيف من السادسة أسن واختلط والحسين بن داود المصيصي يلقب سُنَيد ذكره الذهبي في ميزان الاعتدال (٢/ ٢٣٦) وقال: قال النسائي: الحسين بن داود ليس بثقة، وقال أبو داود لم يكن بذاك.

والقاسم بن الحسن ذكره صاحب معجم شيوخ الطبري (٤٧)وقال: لم أعرفه. ولم يعرفه الشيخ أحمد شاكر.

ﷺ وقيل: أسلمت قريش فنهضت منهم رجال وتخلف آخرون وأتى جبرائيل النبي ﷺ فقال: يا محمد ماذا صنعت؟ لقد تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله وقلت مل لم يقل لك فحزن رسول الله ﷺعند ذلك وخاف من الله خوفًا كبيرًا فأنزل الله تبارك وتعالى عليه وكان به رحيمًا يعزيه ويخفض عليه الأمر ويخبره أنه لم يكن قبله رسول ولا نبي تمنى كما تمنى ولا أحب كما أحب إلا والشيطان قد ألقى في أمنيته كما ألقى على لسانه ﷺ فنسخ الله ما ألقى الشيطان وأحكم آياته أي فأنت كبعض الأنبياء والرسل فأنزل الله ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ ﴾ الآية فأذهب الله عن نبيه الحزن وأمنه من الذي كان يخاف ونسخ ما ألقى الشيطان على لسانه من ذكر آلهتهم أنها الغرانيق العلى وأن شفاعتهن ترتضى يقول الله حين ذكر اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى إلى قوله ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ ﴾ (النجم: ٢٦)أي فكيف تنفع شفاعة آلهتكم عنده فلما جاءه من الله ما نسخ ما كان الشيطان ألقى على لسان نبيه قالت قريش: ندم محمد على ما كان من منزلة آلهتكم عند الله فغير ذلك الحرفان اللذان ألقى الشيطان على لسان رسوله قد وقعا في فم كل مشرك فازدادوا شرًا إلى ما كانوا عليه ". [1]

رابعًا: مرسل أبي العالية قال: قالت قريش لرسول الله ﷺ: إنما جلساؤك عبد بني فلان ومولى بني فلان فلو ذكرت آلهتنا بشيء جالسناك فإنه يأتيك أشارف العرب فإذا رأوا

---

(١) ضعيف. أخرجه الطبري ٩/ ١٧٤، فقال: حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة عن ابن إسحاق عن يزيد بن زياد المدني عن محمد بن كعب به.

قلت: وإسناده ضعيف جدًّا، وفيه محمد بن حميد بن حيان الرازي (ضعفه جمهور النقاد)، قال أبو نعيم بن عدي: سمعت أبا حاتم الرازي في منزله وعنده ابن خراش وجماعة من مشايخ أهل الري وحفاظهم فذكروا ابن حميد فأجمعوا على أنه ضعيف في الحديث جدًا وأنه يحدث بما لم يسمعه وأنه يأخذ أحاديث أهل البصرة والكوفة فيحدث بها عن الرازيين وقال النسائي: ليس بشيء، وقال مرة: كذاب، وقال ابن حجر: حافظ ضعيف. اهـ من تهذيب التهذيب ٩/ ١١٤، وتقريب التهذيب (٥٨٣٤)، وفيه أيضًا محمد بن إسحاق: مدلس؛ وقد عنعن.

جلساءك أشراف قومك كان أرغب لهم فيك قال: فألقى الشيطان على لسانه: تلك الغرانيق العلى وشفاعتهن ترجى مثلهن لا ينسى قال: فسجد النبي ﷺ حين قرأها وسجد معه المسلمون والمشركون، فلما علم الذي أجري على لسانه كبر ذلك عليه فأنزل الله ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾.(١)

خامسًا: مرسل الضحاك قال الضحاك في قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ الآية: أن نبي الله ﷺ وهو بمكة أنزل الله عليه في آلهة العرب فجعل يتلو اللات والعزى ويكثر ترديدها فسمع أهل مكة نبي الله يذكر آلهتهم ففرحوا بذلك ودنوا يستمعون فألقى الشيطان في تلاوة النبي ﷺ: " تلك الغرانيق العلى منها الشفاعة ترتجى فقرأها النبي ﷺكذلك فأنزل الله عليه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ﴾ إلى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.(٢)

سادسًا: مرسل أبي بكر بن عبد الرحمن: عن ابن شهاب أنه سئل عن قوله ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ﴾، قال ابن شهاب: ثني أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث أن رسول الله ﷺ وهو بمكة قرأ عليهم ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾﴾ (النجم: ١)، فلما بلغ

(١) **مرسل صحيح الإسناد.** أخرجه الطبري ٩/ ١٧٤، فقال حدثنا ابن عبد الأعلى، قال ثنا المعتمر، قال: سمعت داود (هو ابن أبي هند)، عن أبي العالية به.

وأخرجه من وجه آخر عن حماد بن سلمة، عن داود به، وإسناده صحيح إلى أبي العالية، وأبو العالية هو رفيع بن مهران ثقة من الطبقة الثانية وهو كثير الإرسال والمرسل كما هو معلوم ضعيف لكن ثبت هذا القول إلى أبى العالية ولم يتعده.

(٢) **موضوع.** أخرجه الطبري٩/ ١٧٤، قال: حُدِّثت عن الحسين قال: سمعت أبا معاذ يقول: أخبرنا عبيد قال: سمعت الضحاك، وذكره.

وهذا إسناد منقطع فالطبري لم يذكر شيخه، والحسين هو ابن الفرج يعرف بابن الخياط، قال ابن معين: كذاب يسرق الحديث، وقال في رواية ابن أبي حاتم: كذاب صاحب سكر شاطر، وقال أبو زرعة: ذهب حديثه اهـ وقال ابن حجر: وقال ابن أبي حاتم: كتب عنه أبي بالبصرة أيام أبي الوليد ثم تركه وقول الذهبي مشاه غيره ما علمت من عنى. اهـ من لسان الميزان (٢/ ٣٠٧).

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ (النجم: ١٩ – ٢٠)، قال: إن شفاعتهن ترتجى وسها رسول الله ﷺ فلقيه المشركون الذين في قلوبهم مرض فسلموا عليه وفرحوا بذلك فقال لهم: إنما ذلك من الشيطان فأنزل الله ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ﴾ حتى بلغ فينسخ الله ما يلقي الشيطان.[1]

سابعًا: مرسل ابن شهاب قال: أنزلت سورة النجم، وكان المشركون يقولون: لو كان هذا الرجل يذكر آلهتنا بخير أقررناه وأصحابه، ولكنه لا يذكر من خالف دينه من اليهود والنصارى بمثل الذي يذكر آلهتنا من الشتم، والشر، وكان رسول الله ﷺ اشتد عليه ما ناله وأصحابه من أذاهم وتكذيبهم، وأحزنه ضلالهم فكان يتمنى هداهم فلما أنزل الله سورة النجم قال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾ ألقى الشيطان عندها كلمات حين ذكر الله الطواغيت فقال: وإنهن لهن الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لهي التي ترتجى وكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته فوقعت هاتان الكلمتان في قلب كل مشرك بمكة وذلت بها ألسنتهم وتباشروا بها وقالوا: إن محمداً قد رجع إلى دينه الأول ودين قومه فلما بلغ رسول الله ﷺ آخر النجم سجد وسجد كل من حضره من مسلم أو مشرك غير أن الوليد بن المغيرة كان رجلاً كبيراً فرفع على كفه ترابا فسجد عليه فعجب الفريقان كلاهما من جماعتهم في السجود لسجود رسول الله ﷺ فأما المسلمون فعجبوا لسجود المشركين معهم على غير إيمان ولا يقين ولم يكن المسلمون سمعوا الآية الذي ألقى الشيطان في مسامع المشركين فاطمأنت أنفسهم لما ألقى الشيطان في أمنية رسول الله ﷺ وحدثهم به الشيطان أن رسول الله ﷺ قد قرأها في السورة فسجدوا لتعظيم آلهتهم ففشت تلك الكلمة في الناس وأظهرها الشيطان حتى بلغت أرض الحبشة ومن بها من المسلمين عثمان بن مظعون، وأصحابه، وتحدثوا أن أهل مكة قد أسلموا كلهم

---

(١) **مرسل صحيح الإسناد**. إلى قائله أخرجه الطبري ٩/ ١٧٥، قال: حدثني يونس قال: أخبرنا ابن وهب قال: أخبرني يونس، عن ابن شهاب به، وهذا إسناد صحيح، وأبو بكر تابعي من الطبقة الثالثة مرسله واهي. ومراسيل الزهري واهية كما قال ابن أبي حاتم.

وصلوا مع رسول الله ﷺ وبلغهم سجود الوليد بن المغيرة على التراب على كفه وحدثوا أن المسلمين قد أمنوا بمكة فأقبلوا سراعًا، وقد نسخ الله ما ألقى الشيطان، وأحكم الله آياته، وحفظه من الفرية، وقال الله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ فلما بين الله قضاءه وبرأه من سجع الشيطان انقلب المشركون بضلالتهم، وعداوتهم المسلمين واشتدوا عليهم.[١]

ثامنًا: عن موسى بن عقبة في قصة الذين خرجوا إلى أرض الحبشة وفيها:

وكان المشركون يقولون: لو كان هذا الرجل يذكر آلهتنا بخير أقررناه وأصحابه، ولكنه لا يذكر من خالف دينه من اليهود والنصارى بمثل ما يذكر به آلهتنا من الشتم والشر، وكان رسول الله ﷺ قد اشتد عليه ما ناله هو وأصحابه من أذاهم وتكذيبهم وأحزنته ضلالتهم وكان يتمنى هداهم، فلما أنزل الله عز وجل سورة النجم قال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ ألقى الشيطان عندها كلمات حين ذكر الله ﷻ آخر الطواغيت فقال: وإنهن الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لهي التي ترتجى.

وكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته، فوقعت هاتان الكلمتان في قلب كل مشرك بمكة، وزلت بها ألسنتهم وتباشروا بها، وقالوا: إن محمدا قد رجع إلى دينه الأول ودين قومه، فلما بلغ رسول الله ﷺ آخر النجم سجد، وسجد كل من حضر من مسلم أو مشرك، غير أن الوليد بن المغيرة وكان شيخًا كبيرًا رفع ملء كفيه ترابًا فسجد عليه، فعجب الفريقان كلاهما من جماعتهم في السجود بسجود رسول الله ﷺ؛ فأما المسلمون فعجبوا لسجود المشركين معهم على غير إيمان ولا يقين، ولم يكن المسلمون سمعوا الذي ألقى الشيطان على ألسنة المشركين، وأما المشركون

---

(١) **مرسل**. أخرجه ابن أبي حاتم (كما قال ابن كثير في التفسير ٣/ ٣٠٨): فقال: حدثنا موسى بن أبي موسى الكوفي، حدثنا محمد بن إسحاق المسيبي، حدثنا محمد بن فليح، عن موسى بن عقبة، عن ابن شهاب به.
قلت: ومراسيل ابن شهاب واهية.

فاطمأنت أنفسهم إلى النبي ﷺ وأصحابه لما ألقي في أمنية النبي ﷺ وحدثهم الشيطان أن رسول الله ﷺ قد قرأها في السجدة، فسجدوا لتعظيم آلهتهم، وفشت تلك الكلمة في الناس، وأظهرها الشيطان حتى بلغت أرض الحبشة، ومر بها من المسلمين عثمان بن مظعون وأصحابه، وحدثوا أن أهل مكة قد أسلموا كلهم وصلوا مع رسول الله ﷺ، وبلغهم سجود الوليد بن المغيرة على التراب على كفيه، وحدثوا أن المسلمين قد آمنوا بمكة، فأقبلوا سراعًا وقد نسخ الله ﷻ ما ألقى الشيطان وأحكم الله آياته وحفظها من الباطل، فقال الله ﷻ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٢﴾ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾ فلما بين الله ﷻ قضاءه وبرأه من سجع الشيطان، انقلب المشركون بضلالتهم وعداوتهم على المسلمين واشتدوا عليهم.(١)

تاسعًا: مرسل قتادة: أن النبي ﷺ كان يتمنى أن لا يعيب الله آلهة المشركين فألقى الشيطان في أمنيته فقال: إن الآلهة التي تدعي أن شفاعتها لترتجي وإنها للغرانيق العلى فنسخ الله ذلك وأحكام الله آياته ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ﴿١٩﴾﴾ حتى بلغ ﴿مِن سُلۡطَٰنٍ﴾ (النجم: ٢٣)، قال قتادة: لما ألقى الشيطان ما ألقى قال المشركون: قد ذكر الله آلهتهم بخير ففرحوا بذلك فذكر قوله: ﴿لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾.(٢)

---

(١) **معضل، وإسناده حسن إلى موسى بن عقبة.** أخبرنا أبو الحسين بن الفضل القطان، ببغداد قال: أنبأنا أبو بكر بن عتاب قال: حدثنا القاسم بن عبد الله بن المغيرة قال: أخبرنا إسماعيل بن أبي أويس قال: أخبرنا إسماعيل بن إبراهيم بن عقبة، عن عمه موسى بن عقبة في كتاب المغازي، وذكره مطولًا.

قلت: وموسى بن عقبة من الطبقة الخامسة، فجُلّ روايته عن التابعين وأتباع التابعين، فأنّى له برواية مثل هذا، وقد حدّث بهذا على طريقة الإخباريين وأصحاب المغازي، ولم يسند ما قاله، فالإعضال في الرواية شديد.

(٢) **معضل، وهو صحيح الإسناد إليه.** أخرجه الطبري من طريق ابن عبد الأعلى، عن أبي ثور. ومن طريق الحسن، عن عبد الرزاق كلاهما – أبو ثور، وعبد الرزاق – عن معمر، عن قتادة به، وإسناده إلى قتادة ظاهره الصحة ولكنه مرسل، وقتادة من الطبقة الرابعة ومراسيله واهية.

عاشرًا: مرسل عروة بن الزبير: عن عروة بن الزبير في قصة مهاجري الحبشة قال: وقال المشركون من قريش: لو كان هذا الرجل يذكر آلهتنا بخير أقررناه، وأصحابه فإنه لا يذكر أحدًا ممن خالف دينه من اليهود والنصارى بمثل الذي يذكر به آلهتنا من الشتم والشر، فلما أنزل الله ﷻ السورة التي يذكر فيها والنجم وقرأ ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ ﴾ ألقى الشيطان فيها عند ذلك ذكر الطواغيت فقال: وإنهن لمن الغرانيق العلى وإن شفاعتهم لترتجى، وذلك من سجع الشيطان وفتنته، فوقعت هاتان الكلمتان في قلب كل مشرك، وذلت بها ألسنتهم، واستبشروا بها، وقالوا: إن محمدًا ﷺ قد رجع إلى دينه الأول، ودين قومه، فلما بلغ رسول الله ﷺ آخر السورة التي فيها النجم سجد، وسجد معه كل من حضر من مسلم ومشرك غير أن الوليد بن المغيرة كان رجلًا كبيرًا فرفع على كفه ترابًا فسجد عليه فعجب الفريقان كلاهما من جماعتهم في السجود لسجود رسول الله ﷺ فأما المسلمون فعجبوا من سجود المشركين على غير إيمان ولا يقين، ولم يكن المسلمون سمعوا الذي ألقى الشيطان على ألسنة المشركين، وأما المشركون فاطمأنت أنفسهم إلى النبي ﷺ، وأصحابه لما سمعوا الذي ألقى الشيطان في أمنية النبي ﷺ، وحدثهم الشيطان أن رسول الله ﷺ قد قرأها في السجدة فسجدوا لتعظيم آلهتهم ففشت تلك الكلمة في الناس، وأظهرها الشيطان حتى بلغت الحبشة فلما سمع عثمان بن مظعون، و عبد الله بن مسعود، ومن كان معهم من أهل مكة أن الناس قد أسلموا وصلوا مع رسول الله ﷺ، وبلغهم سجود الوليد بن المغيرة على التراب على كفيه أقبلوا سراعًا، وكبر ذلك على رسول الله ﷺ، فلما أمسى أتاه جبريل عليه السلام فشكا إليه، فأمره فقرأ عليه فلما بلغها تبرأ منها جبريل عليه السلام وقال: معاذ الله من هاتين ما أنزلهما ربي ولا أمرني بهما ربك، فلما رأى ذلك رسول الله ﷺ شق عليه وقال: أطعت الشيطان، وتكلمت بكلامه، وشركني في أمر الله فنسخ الله ﷻ ما ألقى الشيطان وأنزل عليه ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ

﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٣﴾، فلما برأه الله من سجع الشيطان، وفتنته انقلب المشركون بضلالهم، وعدواتهم، وبلغ المسلمين ممن كان بأرض الحبشة، وقد شارفوا مكة فلم يستطيعوا الرجوع من شدة البلاء الذي أصابهم، والجوع، والخوف خافوا أن يدخلوا مكة فيبطش بهم فلم يدخل رجل منهم إلا بجوار. . . . الحديث.[1]

الحادي عشر: مرسل المطلب بن عبد الله بن حنطب ومحمد بن فضالة الظفري

قالا: رأى رسول الله ﷺ من قومه كفًا عنه فجلس خاليًا فتمنى فقال ليته لا ينزل علي شيء ينفرهم عني وقارب رسول الله ﷺ قومه ودنا منهم ودنوا منه فجلس يومًا مجلسًا في نادٍ من تلك الأندية حول الكعبة، فقرأ عليهم ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ حتى إذا بلغ ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩﴾ ألقى الشيطان كلمتين على لسانه تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى فتكلم رسول ﷺ بهما ثم مضى فقرأ السورة كلها، وسجد وسجد القوم جميعًا، ورفع الوليد بن المغيرة ترابًا إلى جبهته فسجد عليه، وكان شيخًا كبيرًا لا يقدر على السجود، ويقال إن أبا أحيحة سعيد بن العاص أخذ ترابًا فسجد عليه رفعه إلى جبهته، وكان شيخًا كبيرًا فبعض الناس يقول إنما الذي رفع التراب الوليد، وبعضهم يقول أبو أحيحة، وبعضهم يقول كلاهما جميعًا فعل ذلك فرضوا بما تكلم به رسول الله ﷺ، وقالوا قد عرفنا أن الله يحيي ويميت ويخلق ويرزق ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده، وأما إذ جعلت لها نصيبًا فنحن معك، فكبر ذلك على رسول الله ﷺ من قولهم حتى جلس في البيت فلما أمسى أتاه جبريل عليه السلامفعرض عليه السورة فقال جبريل: جئتك بهاتين الكلمتين فقال رسول الله

---

(١) **ضعيف مع إرساله.** أخرجه الطبراني في الكبير (٨٣١٦)فقال: حدثنا محمد بن عمرو بن خالد الحراني، ثنا أبي، ثنا ابن لهيعة، عن أبي الأسود، عن عروة به. قلت: وإسناده ضعيف، وفيه علتان: الإرسال، وابن لهيعة ضعيف، وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٧٢): أخرجه الطبراني مرسلا وفيه ابن لهيعة ولا يحتمل هذا من ابن لهيعة.

ﷺقلت على الله ما لم يقل فأوحى الله إليه ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ﴾إلى قوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾. [١]

الثاني عشر: مرسل أبي صالح

قال السيوطي: وأخرج عبد بن حميد، من طريق السدي، عن أبي صالح، قال: قام رسول الله ﷺ، فقال المشركون: أن ذكر آلهتنا بخير ذكرنا آلهته بخير فألقى الشيطان في أمنيته ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ إنهن لفي الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى قال: فأنزل الله ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾، فقال ابن عباس رضي الله عنه: أن أمنيته أن يسلم قومه. [٢]

ومن خلال ما مر نعرف أن القصة لاتصح مسندة وما صح إسناده منها فهو مرسل والمرسل من أنواع الضعيف، وإليك بيان كلام العلماء عليه بشيء من التفصيل.

الوجه الثاني: الراجح عند أهل العلم أن المرسل ليس بحجة.
وبيان ذلك مايلي:

الحديث المرسل: هو الذي يرويه المحدث بأسانيد متصلة إلى التابعي فيقول التابعي: قال رسول الله ﷺ. [٣]

حكمه: الحديث المرسل ضعيف لا يحتج به عند جمهور المحدثين وكثير من الفقهاء، وأصحاب الأصول والنظر، وذلك للجهل بحال الساقط من السند فإنه يحتمل أن يكون

---

(١) **ضعيف جدًا**. أخرجه ابن سعد في الطبقات (١/ ٢٠٥)، فقال: أخبرنا محمد بن عمر قال: حدثني يونس ابن محمد بن فضالة الظفري عن أبيه، قال: وحدثني كثير بن زيد، عن المطلب بن عبد الله بن حنطب به. وهو مع إرساله من طريق الواقدي وهو متروك الحديث.

(٢) هكذا أورده السيوطي رحمه في الدر المنثور (٦/ ٦٥)، وهو على أحسن أحواله مرسل، وأبو صالح هو ذكوان من التابعين.

(٣) معرفة علوم الحديث للحاكم (١/ ٦٧)، والنكت على ابن الصلاح للزركشي (١/ ٤٤٧).

غير صحابي، وإذا كان كذلك فيحتمل أن يكون ضعيفًا، وإن اتفق أن يكون المرسل لا يروي إلا عن ثقة فالتوثيق مع الإبهام غير كاف.[(١)]

وقال بعض الأئمة الحديث المرسل صحيح يحتج به، وقيد ابن عبد البر ذلك بما إذا لم يكن مرسله ممن لا يحترز، ويرسل عن غير الثقات فإن كان فلا خلاف في رده.

وقال أبو داود في رسالته إلى أهل مكة: وأما المراسيل فقد كان يحتج بها العلماء فيما مضى مثل سفيان الثوري، ومالك، والأوزاعي حتى جاء الشافعي فتلكم فيها، وتابعه على ذلك أحمد بن حنبل، وغيره، فإذا لم يكن مسند غير المراسيل، ولم يوجد المسند، فالمرسل يحتج به، وليس هو مثل المتصل في القوة.

وقال الطبري: أجمع التابعون بأسرهم على قبول المرسل ولم يأت عنهم إنكاره، ولا عن أحد من الأئمة بعدهم إلى رأس المئتين.

قال ابن عبد البر: كأنه يعني أن الشافعي أول من رده.

وقد انتقد بعضهم قول من قال إن الشافعي أول من ترك الاحتجاج بالمرسل، فقد نقل ترك الاحتجاج عن سعيد بن المسيب، وهو من كبار التابعين، ولم ينفرد هو بذلك بل قال به من بينهم ابن سيرين والزهري.[(٢)]

وقد أخرج مسلم في مقدمة صحيحه عن ابن سيرين أنه قال: لم يكونوا يسألون عن الإسناد فلما وقعت الفتنة قيل: سموا لنا رجالكم فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم[(٣)].

وقد ترك الاحتجاج بالمرسل ابن مهدي، ويحيى القطان، وغير واحد ممن قبل الشافعي، والذي يمكن نسبته إلى الشافعي في أمر المرسل هو زيادة البحث عنه والتحقيق فيه، وأخرج في الحلية من طريق ابن مهدي، عن ابن لهيعة أنه سمع شيخًا من الخوارج يقول بعدما تاب إن هذه الأحاديث دين فانظروا عمن تأخذون دينكم فإنا كنا إذا هوينا أمرًا صيرنا له حديثًا.

---

(١) توجيه النظر إلى أصول الأثر (٢/ ٥٥٩)، وفتح المغيث (١/ ١٤٢).

(٢) توجيه النظر إلى أصول الأثر ٢/ ٥٥٩.

(٣) صحيح مسلم ١/ ١٢.

قال ابن حجر: هذه والله قاصمة الظهر للمحتجين بالمرسل إذ بدعة الخوارج كانت في مبدأ الإسلام والصحابة متوافرون ثم في عصر التابعين فمن بعدهم وهؤلاء إذا استحسنوا أمرًا جعلوه حديثًا وأشاعوه، فربما سمع الرجل الشيء فحدث به ولم يذكر من حدثه به تحسينًا للظن فيحمله عنه غيره ويجيء الذي يحتج بالمنقطعات فيحتج به مع كون أصله ما ذكرت.[1]

وأما مراسيل الصحابة فحكمها حكم الموصول على المشهور الذي ذهب إليه الجمهور قال ابن الصلاح ثم إنا لم نعد في أنواع المرسل ونحوه ما يسمى في أصول الفقه مرسل الصحابي مثل ما يرويه ابن عباس وغيره من أحداث الصحابة عن النبي ﷺ ولم يسمعوه منه لأن ذلك في حكم الموصول المسند لأن

روايتهم عن الصحابة والجهالة بالصحابي غير قادحة لأن الصحابة كلهم عدول.

قال الحافظ العراقي: وفي قوله: لأن روايتهم عن الصحابة نظر، والصواب أن يقال لأن غالب روايتهم إذ قد سمع جماعة من الصحابة من بعض التابعين.[2]

ولم يذكر ابن الصلاح خلافًا في مرسل الصحابي وفي بعض كتب الأصول أنه لا خلاف في الاحتجاج به، وليس بجيد فقد قال الأستاذ أبو إسحاق الإسفرائيني إنه لا يحتج به، والصواب ما تقدم من الاحتجاج به.

وأما مراسيل من أُحضر إلى النبي ﷺغير مميز كعبيد الله بن عدي بن الخيار فلا يمكن أن يقال إنها مقبولة كمراسيل الصحابة لأن رواية الصحابة إما أن تكون عن النبي ﷺ أو عن صحابي والكل مقبول، واحتمال كون الصحابي الذي أدرك، وسمع يروي عن التابعين بعيد بخلاف مراسيل هؤلاء فإنها عن التابعين بكثرة فقوي احتمال أن يكون الساقط غير صحابي، وجاء احتمال كونه غير ثقة.[3]

وقال ابن حزم: المرسل من الحديث هو الذي سقط بين أحد رواته وبين النبي ﷺ ناقل واحد فصاعدًا وهو المنقطع أيضًا وهو غير مقبول، ولا تقوم به حجة لأنه عن مجهول، وقد

---

(١) فتح المغيث (١/ ١٤٤).

(٢) التقييد والإيضاح (١/ ٧٥)، والشذا الفياح (١/ ١٥١).

(٣) توجيه النظر إلى أصول الأثر (٢/ ٥٦١).

قدمنا أن من جهلنا حاله ففرض علينا التوقف عن قبول خبره وعن قبول شهادته حتى نعلم حاله، وسواء قال الراوي حدثنا الثقة أو لم يقل لا يجب أن نلتفت إلى ذلك إذ قد يكون عنده ثقة من لا يعلم من جرحته ما يعلم غيره وقد قدمنا أن الجرح أولى من التعديل.

وقد وثق سفيان الثوري جابرًا الجعفي، وجابر قد عرف من حاله ما عرف، ولكن قد خفي أمره على سفيان فقال بما ظهر منه إليه، ومرسل سعيد بن المسيب، ومرسل الحسن البصري وغيرهما سواء لا يؤخذ منه شيء.

ثم قال رحمه الله: فواجب على كل أحد أن لا يقبل إلا من عرف اسمه وعرفت عدالته وحفظه، فما أحد ينصح نفسه يثق بحديث مرسل أصلًا. (١)

وقال ابن تيمية: قد تنازع الناس في قبول المراسيل وفي ردها، وأصح الأقوال أن منها المقبول ومنها المردود ومنها الموقوف فمن علم من حاله أنه لا يرسل إلا عن ثقة قبل مرسله ومن عرف أنه يرسل عن الثقة وغير الثقة كان إرساله رواية عمن لا يعرف حاله فهذا موقوف، وما كان من المراسيل مخالفًا لما رواه الثقات كان مردودًا، وإذا كان المرسل قد ورد من وجهين وكان كل من الراويين قد أخذ العلم عن غير شيوخ الآخر فهذا يدل على صدقه فإن من أخبر بمثل ما أخبر به الآخر مع العلم بأن واحدًا منهما لم يستفد ذلك من الآخر فإنه يعلم أن الأمر كذلك. (٢)

وفي رسالة الشافعي أنه سئل: فهل تقوم بالحديث المنقطع حجة على مَن علمه؟

وهل يختلف المنقطع؟ أو هو وغيره سواءٌ؟

فقال: المنقطع مختلف فمن شاهد أصحاب رسول الله ﷺ من التابعين فحدث حديثًا منقطعًا عن النبي ﷺ اعتبر عليه بأمور:

١-منها: أن ينظر إلى ما أرسل من الحديث فإن شركه فيه الحفاظ المأمونون فأسندوه إلى رسول الله ﷺ بمثل معنى ما روى كانت هذه دلالة على صحة ما قبل عنه وحفظه.

وإن انفرد بإرسال حديث لم يَشركه فيه من يُسنده قُبِل ما ينفرد به من ذلك ويعتبر عليه بأن:

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام (٢/ ١٤٣).

(٢) منهاج السنة (٧/ ٤٣٥).

١-ينظر هل يوافقه مرسل غيره ممن قبل العلم عنه من غير رجاله الذين قبل عنهم فإن وجد ذلك كانت دلالة تقوي له مرسله وهي أضعف من الأولى.

٢-وإن لم يوجد ذلك نظر إلى بعض ما يروى عن بعض أصحاب النبي ﷺ - قولًا له فإن وجد يوافق ما روى عن النبي ﷺ كانت في هذا دلالة على أنه لم يأخذ مرسله إلا عن أصل إن شاء الله تعالى.

٣-وكذلك إن وجد عوام من أهل العلم يفتون بمثل معنى ما روى عن النبي ﷺ.

٤-ثم يعتبر عليه بأن يكون إذا سمى من روى عنه لم يسم مجهولًا ولا مرغوبًا عن الرواية عنه فيستدل بذلك على صحته فيما يروي عنه.

٥-ويكون إذا شرك أحدًا من الحفاظ في حديث لم يخالفه فإن خالفه ووجد أنقص كانت في هذه دلائل على صحة مخرج حديثه.

ومتى خالف ما وصفت أضر بحديثه حتى لا يسع أحدًا منهم قبول مرسله قال وإن وجدت الدلائل لصحة حديثه بما وصفت أحببنا أن نقبل مرسله ولا نستطيع أن نزعم أن الحجة تثبت به ثبوتها بالمتصل وذلك أن معنى المنقطع مغيب يحتمل أن يكون حمل عمن يرغب عن الرواية عنه إذا سمي وأن بعض المنقطعات وإن وافقه مرسل مثله فقد يحتمل أن يكون مخرجهما واحدا من حديث من لو سمي لم يقبل.

وإن قول بعض أصحاب رسول الله ﷺ إذا قال برأيه لو وافقه لم يدل على صحة مخرج الحديث دلالة قوية إذا نظر فيها ويمكن أن يكون إنما غلط به حين سمع قول بعض أصحاب رسول الله ﷺيوافقه ويحتمل مثل هذا فيمن وافقه من بعض الفقهاء.

قال: فأما من بعد كبار التابعين الذين كثرت مشاهدتهم لبعض أصحاب النبي ﷺفلا أعلم أحدا منهم يقبل مرسله لأمور:

أحدها: أنهم أشد تجوزا فيمن يروون عنه.

والآخر: أنهم توجد عليهم الدلائل فيما أرسلوا بضعف مخرجه.

والآخر: كثرة الإحالة في الأخبار وإذا كثرت الإحالة كان أمكن للوهم وضعف من يقبل عنه. اهـ[(١)]

ثم إن السقوط من السند قد يكون واضحا يشترك في معرفته كثيرون من أهل الفن ولا يخفى عليهم وذلك في مثل ما إذا كان الراوي لم يعاصر من روى عنه وقد يكون خفيًا لا يدركه إلا الأئمة الحذاق المطلعون على طرق الأحاديث وعلل الأسانيد والأول يدرك بمعرفة التاريخ لتضمنه التعريف بأوقات مواليد الرواة ووفياتهم وطلبهم وارتحالهم وغير ذلك.

وقد ادعى أناس الرواية عن شيوخ أظهر التاريخ كذب دعواهم فيها ولذا عني المحدثون بالتاريخ كثيرًا.

ويقال للإسناد الذي يكون السقوط فيه واضحًا المرسل الجلي وللإسناد الذي يكون السقوط فيه خفيا المدلس بالفتح إن كان الإسقاط صادرًا ممن عرف لقاؤه لمن روى عنه والمرسل الخفي إن كان الإسقاط صادرًا ممن عرف معاصرته له ولم يعرف إنه لقيه وهذا على قول من فرق بينهما وجعلهما متباينين وأما من جعل المرسل الخفي داخلًا في المدلس فإنه يعرف المدلس بأنه هو الإسناد الذي يكون السقوط فيه خفيًا.[(٢)]

وقال النووي: مذهب الشافعي والمحققين أن الحديث المرسل إذا روى من جهة أخرى متصلًا احتج به وكان صحيحًا وتبينا برواية الاتصال صحة رواية الإرسال ويكونان صحيحين.[(٣)]

وقال النووي: الحديث المرسل لا يحتج به عندنا وعند جمهور المحدثين وجماعة من الفقهاء وجماهير أصحاب الأصول والنظر وحكاه الحاكم أبو عبد الله بن البيع عن سعيد بن المسيب ومالك وجماعة أهل الحديث وفقهاء الحجاز: وقال أبو حنيفة ومالك في المشهور عنه واحمد وكثيرون من الفقهاء أو أكثرهم يحتج به ونقله الغزالي عن الجماهير: وقال أبو عمر بن عبد البر وغيره ولا خلاف انه لا يجوز العمل به إذا كان مرسله غير متحرز يرسل عن غير الثقات.

---

(١) الرسالة (٤٦١).

(٢) توجيه النظر إلى أصول الأثر لطاهر الجزائري (٢/ ٥٥٨-٥٦٧).

(٣) شرح مسلم للنووي (١٨/ ٢٣).

ودليلنا في رد المرسل مطلقًا أنه إذا كانت رواية المجهول المسمى لا تقبل لجهالة حاله فرواية المرسل أولي لأن المروى عنه محذوف مجهول العين والحال: ثم إن مرادنا بالمرسل هنا ما انقطع إسناده فسقط من رواته واحد فأكثر وخالفنا في حده أكثر المحدثين، فقالوا: هو رواية التابعي عن النبي ﷺ: قال الشافعي رحمه الله وأحتج بمرسل كبار التابعين إذا أسند من جهة أخرى أو أرسله من أخذ عن غير رجال الأول ممن يقبل عنه العلم أو وافق قول بعض الصحابة أو أفتى أكثر العلماء بمقتضاه قال ولا أقبل مرسل غير كبار التابعين ولا مرسلهم إلا بالشرط الذي وصفته هذا نص الشافعي في الرسالة وغيرها وكذا نقله عنه الائمة المحققون من أصحابنا الفقهاء والمحدثين كالبيهقي والخطيب البغدادي وآخرين: ولا فرق في هذا عنده بين مرسل سعيد بن المسيب وغيره هذا هو الصحيح الذي ذهب إليه المحققون:

قال الغزالي: والمختار رده، والدليل أنه لو ذكر شيخه، ولم يعدله وبقي مجهولا عندنا لم نقبله فإذا لم يسمه فالجهل أتم فمن لا يعرف عينه كيف تعرف عدالته.[1]

وقال الترمذي: ومن ضعف المرسل فإنه ضعف من قبل أن هؤلاء الأئمة حدثوا عن الثقات وغير الثقات، فإذا روى أحدهم حديثًا وأرسله لعله أخذه عن غير ثقة قد تكلم الحسن البصري في معبد الجهني ثم روى عنه حدثنا بشر بن معاذ البصري حدثنا مرحوم بن عبد العزيز العطار حدثني أبي، وعمي قالا سمعنا الحسن يقول إياكم، ومعبد الجهني فإنه ضال مضل قال أبو عيسى: ويروى عن الشعبي حدثنا الحارث الأعور، وكان كذابا، وقد حدث عنه، وأكثر الفرائض التي ترونها عن علي وغيره هي عنه وقد قال الشعبي: الحارث الأعور علمني الفرائض، وكان من أفرض الناس قال: وسمعت محمد بن بشار يقول: سمعت عبد الرحمن بن مهدي يقول: ألا تعجبون من سفيان بن عيينة لقد تركت لجابر الجعفي بقوله لما حكى عنه أكثر من ألف حديث ثم هو يحدث عنه قال محمد بن بشار: وترك عبد الرحمن بن مهدي حديث جابر الجعفي.

وقد احتج بعض أهل العلم بالمرسل أيضًا حدثنا أبو عبيدة بن أبي السفر الكوفي حدثنا سعيد بن عامر عن شعبة عن سليمان الأعمش قال قلت لإبراهيم النخعي أسند لي عن

---

(١) المستصفى (١/ ١٣٥).

عبد الله بن مسعود فقال إبراهيم إذا حدثتك عن رجل عن عبد الله فهو الذي سميت وإذا قلت قال عبد الله فهو عن غير واحد عن عبد الله. (١)

وقال ابن حجر: بعد أن ذكر المرسل في أنواع المردود: (وإنما ذكر في قسم المردود للجهل بحال المحذوف لأنه يحتمل أن يكون صحابيًا، ويحتمل أن يكون تابعيًا وعلى الثاني يحتمل أن يكون ضعيفًا ويحتمل أن يكون ثقة، وعلى الثاني يحتمل أن يكون حمل عن صحابي، ويحتمل أن يكون حمل عن تابعي، وعلى الثاني فيعود الاحتمال السابق، ويتعدد أما بالتجويز العقلي فإلى ما لا نهاية، وأما بالاستقراء فإلى ستة أو سبعة، وهو أكثر ما وجد في رواية بعض التابعين عن بعض). (٢)

ومن قال بالعمل به من أهل العلم نص على شرط، وهو أن لايكون في الباب شيء يدفعه قال ابن القيم رحمه الله في ذكر أصول الإمام أحمد: الأصل الرابع الأخذ بالمرسل والحديث الضعيف إذا لم يكن في الباب شيء يدفعه. (٣)

وفي صدر (صحيح مسلم): المرسل في أصل قولنا وقول أهل العلم بالأخبار ليس بحجة وابن عبد البر - حافظ المغرب - ممن حكى ذلك عن جماعة أصحاب الحديث والاحتجاج به مذهب (مالك) و(أبي حنيفة) وأصحابهما - رحمهم الله - في طائفة والله أعلم. (٤)

وخلاصة هذا البحث: أن الراجح الذي عليه العمل عند جمهور المحدثين أن المرسل من أنواع الضعيف وأن الخلاف في الاحتجاج بالمرسل إنما هو في أحكام الفروع، ولا يمكن أن يكون جاريًا في أصول العقائد، لأنها لا تثبت إلا بدليل صحيح، وأن تقويته لابد فيها من شروط سبق ذكرها عن الإمام الشافعي وهذه الشروط لا تتفق على ما صح من الطرق المرسلة لهذه القصة.

---

(١) العلل الصغير (١/ ٧٥٤).

(٢) نزهة النظر ص٤٣-٤٤.

(٣) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد (١١٦)، وإعلام الموقعين ١/ ٣١، وانظر معرفة علوم الحديث (١/ ٦٧).

(٤) المقدمة (١/ ٣١)، والتقييد والإيضاح (١/ ٥٢).

فأما الشرط الأول: وهو أن يكون المرسل أسند من وجه آخر فهذا لا يتفق مع هذه القصة لأن الرواية المسندة شاذة في أصح طرقها وبقية الطرق شديدة الضعف والشاذ وما لم يرو سواء لأن الرواي أخطأ فيه، ومن الواضح أن سبب رد العلماء للشاذ إنما هو ظهور خطأها بسبب المخالفة المذكورة وما ثبت خطؤه فلا يعقل أن يقوى به رواية أخرى في معناها فثبت أن الشاذ والمنكر مما لا يعتد به ولا يستشهد به، بل إن وجوده وعدمه سواء)[1].

وأما شديد الضعف لايزيد الضعيف إلا ضعفًا كحال المريض يستعين بمحتضر فهل يعينه؟

فإذا عدم الشرط الأول فإنه يقبل بشروط أما الأول: فهو أن يأتي مرسلًا عمن أخذ العلم عن غير رجال الأول والذي صح من مراسيل هذا القصة ما يلي:

١-مرسل سعيد بن جبير ٢- مرسل أبي العالية ٣-مرسل أبي بكر بن عبد الرحمن ٤- مرسل الزهري ٥-مرسل موسى بن عقبة ٦- مرسل قتادة.

فأما مرسل أبي العالية: فقال العلائي رحمه الله: ومرسلات أبي العالية ضعيفة روى ابن عدي عن ابن سيرين قال كان ههنا ثلاثة يصدقون كل من حدثهم الحسن وأبو العالية وسمى آخر فبهذا ونحوه تقصر مرتبة المرسل وأن اعتضد بغيره. [2]

وأما مرسل الزهري، وقتادة: فقال القطان مرسل الزهري شر من مرسل غيره لأنه حافظ وكلما قدر أن يسمي سمى وإنما يترك من لا يستجيز أن يسميه وروى عباس الدوري عن يحيى بن معين قال مراسيل الزهري ليست بشيء. [3] وكان يحيى بن سعيد القطان لا يرى إرسال الزهري وقتادة شيئًا ويقول هو بمنزلة الريح. [4]

وأما مرسل موسى بن عقبة: فهذا معضل وليس بمرسل فحسب.

(١) إرواء الغليل (٣/ ٣٥١).

(٢) جامع التحصيل (٤٥).

(٣) جامع التحصيل (١/ ٩٠).

(٤) الجرح والتعديل (١/ ٢٤٥).

وأما مرسل سعيد: فهو من الثالثة مات سنة (٩٥هـ)، وقال علي بن المديني: سمعت يحيى بن سعيد يقول مرسلات سعيد بن جبير أحب إلي من مرسلات عطاء.[(١)] وهذا لا يعني أنها صحيحة لأن مرسلات عطاء ضعيفة عندهم قال ابن المديني: كان عطاء يأخذ من كل ضرب.[(٢)]

وعليه فهذا من باب ضعيف وأضعف. والله أعلم.

وأما مرسل أبي بكر بن عبد الرحمن فهو من الثالثة سنة (٩٤هـ)فهو من نفس طبقة سعيد بن جبير فلا يبعد أن يكون شيخهما واحد ومع قيام هذا الاحتمال لا يتحقق شرط الشافعي في كون المرسل أخذ العلم عن غير شيوخ الأول.

وأما بقية الشروط: فلا يتفق منها شيئ كذلك وها هي:

١-وإن لم يوجد ذلك نظر إلى بعض ما يروى عن بعض أصحاب النبي ﷺ - قولا له فإن وجد يوافق ما روى عن النبي ﷺ كانت في هذا دلالة على أنه لم يأخذ مرسله إلا عن أصل إن شاء الله تعالى.

قلت: ولا يصح عن أحد من الصحابة شيء في هذا الأمر فأين كانوا عن مثل هذه القصة على شدة خطرها حتى لم يروها إلا التابعون ولا تصح تسمية صحابي واحد فيها وابن عباس على ضعف الرواية عنه وشذوذها لم يكن ولد عند نزول السورة.

٢-وكذلك إن وجد عوام من أهل العلم يفتون بمثل معنى ما روى عن النبيﷺ قلت: والموجود عكس ذلك حيث أنكرها أكثر أهل العلم كما سيأتي عنهم.

٣-ثم يعتبر عليه بأن يكون إذا سمى من روى عنه لم يسم مجهولا ولا مرغوبا عن الرواية عنه فيستدل بذلك على صحته فيما يروي عنه.

قلت: ولايوجد مثل هذا في أحد ممن أرسل هذه القصة كما سبق بيانه.[(٣)]

---

(١) جامع التحصيل (١/ ٣٧).

(٢) نفس المصدر.

(٣) المصدر السابق

ثم قال الشافعي رحمه الله بعد هذه الشروط: ومتى ما خالف ما وصفت أضرَّ بحديثه حتى لا يسع أحدًا منهم قبول مرسله.

قال: وإذا وجدت الدلائل بصحة حديثه بما وصفت أحببنا أن نقبل مرسله ولا نستطيع أن نزعُم أن الحجة تثبت به ثبوتها بالمتَصِل. وذلك أن معنى المنقطع مُغَيَّب يحتمل أن يكون حُمِل عن من يُرغب عن الرواية عنه إذا سُمّي وإن بعض المنقطعات - وإن وافقه مرسل مثله - فقد يحتمل أن يكون مخرجها واحدًا من حيث لو سمي لم يُقبل وأن قول بعض أصحاب النبي ﷺ- إذا قال برأيه لو وافقه - يدل على صحة مَخرج الحديث دلالةً قوية إذا نُظر فيها، ويمكن أن يكون إنما غلِط به حين سمِع قول بعض أصحاب النبي يوافقه ويحتمل مثل هذا فيمن وافقه من بعض الفقهاء.[1]

قال السيوطي بعد هذا الشروط: فإن فقد شرط مما ذكر لم يقبل مرسله فإن وجدت قبل.[2]

ومع التسليم بتحقق هذا الشرط في المرسل: وهو ليس بالأمر الهين فإنه لوتحققنا من وجوده فقد يرد إشكال آخر وهو أنه يحتمل أن يكون كل من الواسطتين أو أكثر ضعيفا وعليه يحتمل أن يكون ضعفهم من النوع الأول الذي ينجبر بمثله الحديث على ما سبق نقله عن ابن الصلاح ويحتمل أن يكون من النوع الآخر الذي لا يقوى الحديث بكثرة طرقه ومع ورود هذه الاحتمالات يسقط الاستدلال بالحديث المرسل وإن تعددت طرقه.[3]

قال الألباني: وبالجملة فالمانع من الاستدلال بالحديث المرسل الذي تعدد مرسلوه أحد الاحتمالين:

الأول: أن يكون مصدر المرسلين واحدًا.

الثاني: أن يكونوا جمعًا ولكنهم جميعًا ضعفاء ضعفًا شديدًا، وعليه فلو ألقينا النظر على روايات هذه القصة لألفيناها كلها مرسلة حاشا حديث ابن عباس ولكن طرقه كلها واهية شديدة الضعف لا تنجبر بها تلك المراسيل فيبقى النظر في هذه المراسيل وهي كما

(١) الرسالة (١/ ٤٦٣)

(٢) التدريب (١/ ١٩٩)

(٣) نصب المجانيق (٤٤).

علمت سبعة صح إسناد أربعة منها وهي مرسل سعيد بن جبير وأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث وأبي العالية ومرسل قتادة وهي مراسيل يرد عليها أحد الاحتمالين السابقين لأنهم من طبقة واحدة: فوفاة سعيد بن جبير سنة (٩٥) وأبي بكر بن عبد الرحمن سنة (٩٤) وأبي العالية - واسمه رفيع مصغرًا - سنة (٩٠) وقتادة سنة بضع عشرة ومائة والأول كوفي والثاني مدني والأخيران بصريان.

فجائز أن يكون مصدرهم الذي أخذوا منه هذه القصة ورووها عنه واحدا لا غير وهو مجهول وجائز أن يكون جمعا ولكنهم ضعفاء جميعًا فمع هذه الاحتمالات لا يمكن أن تطمئن النفس لقبول حديثهم هذا لا سيما في مثل هذا الحدث العظيم الذي يمس المقام الكريم فلا جرم تتابع العلماء على إنكارها، بل التنديد ببطلانها ولا وجه لذلك من جهة الرواية إلا ما ذكرنا. [1]

وأخيرًا نؤكد على مسألة دقيقة في قبول المرسل حتى عند من يقبله لو صح إسناده وهي أن العلماء اشترطوا فيه أن لا يكون مخالفًا لأصول الدين المتفق عليها وهذا إعلال من المتن لايتوصل إليه إلا بعد البحث في نصوص الباب واستقصاء البحث فيما ورد في المسألة.

قال الزيلعي بعد أن رجح مذهبه في قبول المرسل: ومن شروط قبول الأخبار عند الحنفية مسندة كانت أو مرسلة أن لا تشذ عن الأصول المجتمعة عندهم وذلك أن هؤلاء الفقهاء بالغوا في استقصاء موارد النصوص من الكتاب والسنة وأقضية الصحابة إلى أن أرجعوا النظائر المنصوص عليها والمتلقاة بالقبول إلى أصل تتفرع هي منه وقاعدة تندرج تلك النظائر تحتها، وهكذا فعلوا في النظائر الأخرى إلى أن أتموا الفحص والاستقراء فاجتمعت عندهم أصول - موضع بيانها كتب القواعد والفروق - يعرضون عليها أخبار الآحاد[2].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) وهذا ليس على عمومه لأن الخبر لو صح عن النبي ﷺ فهو عن الله متواتر كان أو آحادًا إلا إذا كان فيه علة خفية في المتن أو الإسناد وما سوى ذلك من التعارض بين النصوص والأصول فسببه إما فساد الأصل أو ضعف النص.

فإذا ندت الأخبار عن تلك الأصول وشذت يعدونها مناهضة لما هو أقوى ثبوتا منها وهو الأصل المؤصل من تتبع موارد الشرع الجاري مجرى خبر الكافة والطحاوي كثير المراعاة لهذه القاعدة في كتبه ويظن من لا خبرة عنده أن ذلك ترجيح منه لبعض الروايات على بعضها بالقياس وآفة هذا الشذوذ المعنوي في الغالب كثرة اجتراء الرواة على الرواية بالمعنى بحيث تخل بالمعنى الأصلي وهذه قاعدة دقيقة يتعرف بها البارعون في الفقه مواطن الضعف والنتوء في كثير من الروايات فيرجعون الحق إلى نصابه بعد مضاعفة النظر في ذلك ولهم أيضا مدارك أخرى في علل الحديث دقيقة لا ينتبه إليها دهماء النقلة وللعمل المتوارث عندهم شأن يختبر به صحة كثير من الأخبار. [١]

وفي مقدمة شرح مسند أبي حنيفة: ذكر من أصوله قبول مرسلات الثقات إذا لم يعارضها ما هو أقوى منها. [٢]

وقال ابن اللحام: واعتبر الشافعي في المتن أن يسند الحفاظ المأمونون عن النبي ﷺ من وجه آخرمعنى ذلك المرسل أو يرسله غيره وشيوخهما مختلفة أو يعضده قول صحابي أو قول عامة العلماء، وكلام أحمد في المرسل قريب من كلام الشافعي. [٣]

وقال ابن تيمية: وما كان من المراسيل مخالفًا لما رواه الثقات كان مردودًا. [٤]

وإذا كان الأمر كذلك فحري أن نذكر النصوص الشرعية من القرآن والسنة التي تخالف هذا المرسل وهو الوجه الثالث.

الوجه الثالث: الأدلة من القرآن على بطلان هذه القصة.

أحدها: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ (الحاقة:)

وثانيها: قوله: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ (يونس: ١٥).

---

(١) نصب الراية (١/ ٢٢).

(٢) شرح مسند أبي حنيفة (١/ ٣).

(٣) المختصر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل (١/ ٩٦)

(٤) منهاج السنة (٧/ ٤٣٥)وتوجيه النظر إلى أصول الأثر (٢/ ٥٦٤)

وثالثها: قوله: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾(النجم: ٣: ٤) فلو أنه قرأ عقيب هذه الآية تلك الغرانيق العلي لكان قد ظهر كذب الله تعالى في الحال وذلك لا يقوله مسلم.

ورابعها: قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ ﴾ (الإسراء: ٧٣) وكلمة كاد عند بعضهم معناه قرب أن يكون الأمر كذلك مع أنه لم يحصل، وقال عياض رحمه الله: ذكر الرواة لهذه القضية أن فيها نزلت ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ ﴾ الآيتين، وهاتان الآيتان تردان الخبر الذي رووه لأن الله تعالى ذكر أنهم كادوا يفتنونه حتى يفترى، وأنه لولا أن ثبته لكاد يركن إليهم فمضمون هذا ومفهومه أن الله تعالى عصمه من أن يفترى وثبته حتى لم يركن إليهم قليلًا فكيف كثيرا وهم يرون في أخبارهم الواهية أنه زاد على الركون والافتراء بمدح آلهتهم وأنه قال ﷺ: " افتريت على الله وقلت ما لم يقل " وهذا ضد مفهوم الآية وهى تضعف الحديث لو صح فكيف ولا صحة له؟ وهذا مثل قوله تعالى في الآية الأخرى﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ﴾، وقد روى عن ابن عباس كل ما في القرآن كاد فهو ما لا يكون قال الله تعالى ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ ولم يذهب وأكاد أخفيها ولم يفعل، قال القشيري القاضي: ولقد طالبه قريش وثقيف إذ مر بآلهتهم أن يقبل بوجهه إليها ووعدوه الإيمان به إن فعل فما فعل ولا كان ليفعل، قال ابن الأنباري: ما قارب الرسول ولا ركن وقد ذكرت في معنى هذه الآية تفاسير أخر ما ذكرناه من نص الله على عصمة رسوله ترد سفسافها فلم يبق في الآية إلا أن الله تعالى امتن على رسوله بعصمته وتثبيته بما كاده به الكفار وراموا من فتنته، ومرادنا من ذلك تنزيه وعصمته ﷺوهو مفهوم الآية، وأما المأخذ الثاني فهو مبنى على تسليم الحديث لو صح وقد أعاذنا الله من صحته.

وخامسها: قوله: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ ﴾ (الإسراء: ٧٤) وكلمة لولا تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره فدل على أن ذلك الركون القليل لم يحصل لأنه نفى المقاربة للركون فضلا عن الركون.

وسادسها: قوله: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ (الفرقان: ٣٢).

وسابعها: قوله: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ ﴾.

وثامنها: ومن أصرح الأدلة القرآنية في بطلانها أن النبي ﷺ قرأ بعد ذلك في سورة النجم قوله تعالى: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾ فلو فرضنا أنه قال تلك الغرانيق العلى ثم أبطل ذلك بقوله: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ ﴾ فكيف يفرح المشركون بعد هذا الإبطال والذم التام لأصنامهم بأنها أسماء بلا مسميات وهذا هو الأخير وقراءته ﷺ سورة النجم بمكة وسجود المشركين ثابت في الصحيح ولم يذكر فيه شيء من قصة الغرانيق.

وتاسعها: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ (النحل: ٩٩-١٠٠) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتبعك مِنَ الغاوين﴾ (الحجر: ٤٢) وقوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ ﴾ (سبأ: ٢١) الآية وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ﴾ (إبراهيم: ٢٢) الآية. وعلى القول المزعوم أن الشيطان ألقى على لسانه ﷺ ذلك الكفر البواح، فأي سلطان له أكبر من ذلك.

وذكر غير واحد أنه يلزم على القول بأن الناطق بذلك النبي ﷺ بسبب إلقاء الشيطان الملبس بالملك أمور. منها تسلط الشيطان عليه عليه الصلاة والسلام وهو ﷺ بالإجماع معصوم من الشيطان لا سيما في مثل هذا من أمور الوحي والتبليغ والاعتقاد.

العاشرة: قوله: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ (الشعراء: ٢٢١-٢٢٢)

الحادية عشرة: وقوله في القرآن العظيم: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الحجر: ٩).

الثانية عشرة: وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ (فصلت: ٤١-٤٢) فهذه الآيات القرآنية تدل على بطلان القول المزعوم[١].

الثالثة عشرة: أن الله تعالى أخبر أن بيان القرآن على لسان النبي ﷺ موكول إلى الله تعالى كما قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾﴾ وعن ابن عباس ﷺفي قوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾﴾، قال: كان رسول الله ﷺإذا نزل جبريل بالوحي وكان مما يحرك به لسانه وشفتيه فيشتد عليه وكان يعرف منه فأنزل الله الآية التي في ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾﴾ ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾﴾. قال علينا أن نجمعه في صدرك ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾﴾ فإذا أنزلناه فاستمع ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾﴾ علينا أن نبينه بلسانك. قال فكان إذا أتاه جبريل أطرق فإذا ذهب قرأه كما وعد الله.[٢]

وإذا كان البيان موكولًا إلى الله تعالى فهذا يجعل صحة هذه القصة أمرًا مستحيلًا.

وقال الشنقيطي: والحاصل: أن القرآن دل على بطلانها، ولم تثبت من جهة النقل، مع استحالة الإلقاء على لسانه ﷺ لما ذكر شرعًا، ومن أثبتها نسب التلفظ بذلك الكفر للشيطان. فتبين أن نطق النَّبي ﷺ بذلك الكفر، ولو سهوًا مستحيل شرعًا، وقد دل القرآن على بطلانه، وهو باطل قطعًا على كل حال.[٣]

الوجه الرابع: الأدلة من السنة على بطلان واستحالة هذه القصة.

---

(١) تفسير الرازي سورة الحج آية ٥٢، ودفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب (١/ ٦١).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٤٥) معلقًا.

(٣) أضواء البيان.

١-عن أبي هريرة: عن النبي ﷺ قال: " تَسَمَّوْا بِاسْمِي وَلاَ تَكْتَنُوا بِكُنْيَتِي، وَمَنْ رَآنِي فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَآنِي، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لاَ يَتَمَثَّلُ فِي صُورَتِي، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ". [١]

ومنع الشيطان أن يتصور في خلقته لئلا يكذب على لسانه في النوم كما خرق الله تعالى العادة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالمعجزة وكما استحال أن يتصور الشيطان في صورته في اليقظة[٢].

فقوله: " ولا يتمثل الشيطان بي "، قال القسطلاني: هو كالتتميم للمعنى والتعليل للحكم أي لا يحصل له أي للشيطان مثال صورتي ولا يتشبه بي فكما منع الله الشيطان أن يتصور بصورته الكريمة في اليقظة كذلك منعه في المنام لئلا يشتبه الحق بالباطل. [٣]

وقال الآلوسي: وإذا لم يتمثل منامًا فلأن لا يتمثل يقظة من باب أولى، وعلله الشراح بلزوم اشتباه الحق بالباطل. اهـ[٤]

قلت: فإذا منع الشيطان من التشبه به فمن ذلك صوته وقراءته في تبليغ الوحي للناس فلو حدث لكان فيه أعظم التلبيس على الناس فلأن يمنع الشيطان من ذلك من باب أولى والله أعلم.

٢-عن سعد بن أبي وقاص ﷺ أن رسول الله ﷺ قال لعمر بن الخطاب ﷺ: " وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ قَطُّ سَالِكًا فَجًّا إِلاَّ سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ"[٥].

والحديث محمول على ظاهره أن الشيطان متى رأى عمر سالكا فجا هرب هيبة من عمر، وفارق ذلك الفج، وذهب في فج آخر لشدة خوفه من بأس عمر أن يفعل فيه شيئا

(١) أخرجه البخاري (١١٠).

(٢) عمدة القاري (٢/ ١٥٥).

(٣) عون المعبود (١٣/ ٢٥٠)، وفيض القدير (٦/ ١٣١)

(٤) روح المعاني (١٣/ ١١١).

(٥) أخرجه البخاري (٣٢٩٤)، مسلم (٢٣٩٦).

قال القاضي، ويحتمل أنه ضرب مثلًا لبعد الشيطان وإغوائه منه، وأن عمر في جميع أموره سالك طريق السداد خلاف ما يأمر به الشيطان.[١]

قال الحافظ ابن حجر: فيه فضيلة عظيمة لعمر تقتضي أن الشيطان لا سبيل له عليه لا أن ذلك يقتضي وجود العصمة إذ ليس فيه إلا فرار الشيطان منه أن يشاركه في طريق يسلكها ولامنع ذلك من وسوسته له بحسب ما تصل إليه قدرته فإن قيل عدم تسليطه عليه بالوسوسة يؤخذ بطريق مفهوم الموافقة لأنه إذا منع من السلوك في طريق فالأولى أن يلابسه بحيث يتمكن من وسوسته له فيمكن أن يكون حفظ من الشيطان، ولا يلزم من ذلك ثبوت العصمة لأنها في حق النبي واجبة وفي حق غيره ممكنة ووقع في حديث حفصة عند الطبراني في الأوسط بلفظ إن الشيطان لا يلقى عمر منذ أسلم إلا خر بوجهه وهذا دال على صلابته في الدين واستمرار حاله على الجد الصرف والحق المحض.[٢]

قلت: وإذا كان هذا لعمر رضي الله عنه وهو ليس بمعصوم فرسول الله به أولى لأنه معصوم من الله عز وجل، والله أعلم

٣ـومما يؤكد ذلك هذا الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه صلى صلاة قال: " إن الشيطان عرض لي فشد علي ليقطع الصلاة علي فأمكنني الله منه فذعته ولقد هممت أن أوثقه إلى سارية حتى تصبحوا فتنظروا إليه فذكرت قول سليمان عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ﴾. فرده الله خاسئًا.[٣]

وإذا أمكنه الله منه في الصلاة فأن يحفظه منه في إبلاغ الوحي من باب أولى.

٤ـ عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: "ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن، قالوا: وإياك يا رسول الله، قال: وإياي؛ إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير"[٤]

(١) شرح مسلم للنووي (١٥/ ١٦٦).

(٢) تحفة الأحوذي (١٠/ ١٢٣).

(٣) أخرجه البخاري (١١٥٢)ومسلم (٥٤٢).

(٤) أخرجه مسلم (٢٨١٤).

قال النووي: فأسلم برفع الميم وفتحها وهما روايتان مشهورتان فمن رفع قال معناه أسلم أنا من شره وفتنتة ومن فتح قال إن القرين أسلم من الإسلام وصار مؤمنا لايأمرني إلا بخير. [١]

وإذا كان النبي ﷺ سلم من شره فهذا منه ولابد.

الوجه الخامس: الأدلة من المعقول على بطلان القصة.

وها هي من وجوه:

أحدها: أن من جوز على الرسول ﷺ تعظيم الأوثان فقد كفر لأن من المعلوم بالضرورة أن أعظم سعيه كان في نفي الأوثان.

وثانيها: أنه عليه السلام ما كان يمكنه في أول الأمر أن يصلى ويقرأ القرآن عند الكعبة آمنًا أذى المشركين له حتى كانوا ربما مدوا أيديهم إليه وإنما كان يصلي إذا لم يحضروها ليلًا أو في أوقات خلوة وذلك يبطل قولهم.

وثالثها: أن معاداتهم للرسول كانت أعظم من أن يقروا بهذا القدر من القراءة.

دون أن يقفوا على حقيقة الأمر، فكيف أجمعوا على أنه عظَّم آلهتهم حتى خروا سجدًا مع أنه لم يظهر عندهم موافقته لهم.

ورابعها: قوله: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ وذلك لأن إحكام الآيات بإزالة ما يلقيه الشيطان عن الرسول أقوى من نسخه بهذه الآيات التي تبقى الشبهة معها، فإذا أراد الله إحكام الآيات لئلا يلتبس ما ليس بقرآن قرآنًا، فبأن يمنع الشيطان من ذلك أصلًا أولى.

وخامسها: وهو أقوى الوجوه أنا لو جوزنا ذلك ارتفع الأمان عن شرعه وجوزنا في كل واحد من الأحكام والشرائع أن يكون كذلك ويبطل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ (المائدة: ٦٧) فإنه لا فرق في العقل بين النقصان عن الوحي وبين الزيادة فيه فبهذه الوجوه عرفنا على سبيل الإجمال أن هذه القصة موضوعة[١].

---

(١) شرح مسلم للنووي (١٧/ ١٥٧).

وسادسها: أنه يمتنع في حق النبي ﷺ أن يتمنى أن ينزل عليه شيء من القرآن في مدح آلهة غير الله لأن ذلك كفر. كما يمتنع في حقه أن يتسود الشيطان عليه، ويشبه عليه القرآن حتى يجعل فيه ما ليس منه، ويعتقد النبي أن من القرآن ما ليس منه حتى يفهمه جبريل ذلك.

وسابعها: ويقول العالم الهندي محمد علي: إن قراءة الآيات متسلسلة تظهر أن ليس من المعقول أن تحشر بينها آيات مناقضة لها في أصل العقيدة الإسلامية. وصلب دعوة محمد ﷺ، دعوة التوحيد. (٢)

وثامنها: استحالة هذه القصة نظراً، وعرفا، وذلك أن هذا الكلام لو كان كما روي لكان بعيد الالتئام متناقض الأقسام ممتزج المدح بالذم متخاذل التأليف، والنظم، ولماكان النبي ﷺ ومن بحضرته من المسلمين وصناديد المشركين ممن لايخفى عليه ذلك وهذا لا يخفى على أدنى متأمل فكيف بمن رجح حلمه واتسع في باب البيان فصيح الكلام علمه.

وتاسعها: أنه قد علم من عادة المنافقين ومعاندي المشركين وضعفة القلوب، والجهلة من المسلمين نفورهم لأول وهلة، وتخليط العدو على النبي ﷺ لأقل فتنة، وتعييرهم المسلمين والشماتة بهم الفينة بعد الفينة، وارتداد من في قلبه مرض ممن أظهر الإسلام لأدنى شبهة، ولم يحك أحد في هذه القصة شيئا سوى هذه الرواية الضعيفة الأصل، ولو كان ذلك لوجدت قريش بها على المسلمين الصولة، ولأقامت بها اليهود عليهم الحجة كما فعلوا مكابرة في قصة الإسراء حتى كانت في ذلك لبعض الضعفاء ردة، وكذلك ما روى في قصة القضية، ولا فتنة أعظم من هذه البلية لو وجدت ولا تشغيب للمعادي حينئذ أشد من هذه الحادثة لو أمكنت فما روى عن معاند فيها كلمة ولا عن مسلم بسببها بنت شفة فدل على بطلها واجتثاث أصلها ولا شك في إدخال بعض شياطين الإنس، أو الجن هذا الحديث على بعض المحدثين ليلبسن به على ضعفاء المسلمين. (٣)

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي الموضع السابق.

(٢) أيسر التفاسير لأسعد حمود (٢٥٢٧).

(٣) الشفا للقاضي عياض ٢/ ١٢٧

وعاشرها: أن هناك من النص ذاته ما يستبعد معه أن يكون سبب نزول الآية شيئًا كهذا، وأن يكون مدلوله حادثًا مفردًا وقع للرسول ﷺ فالنص يقرر أن هذه القاعدة في الرسالات كلها مع الرسل كلهم: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ ﴾، فلا بد أن يكون المقصود أمرًا عامًا يستند إلى صفة في الفطرة مشتركة بين الرسل جميعًا، بوصفهم من البشر، مما لا يخالف العصمة المقررة للرسل. [1]

الوجه السادس: في ذكر بعض كلام المحققين على هذه القصة:

١ـ قال ابن كثير: قد ذكر كثير من المفسرين هاهنا قصة الغَرَانيق، وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة، ظَنا منهم أن مشركي قريش قد أسلموا. ولكنها من طرق كلها مرسلة، ولم أرها مسندة من وجه صحيح، والله أعلم. [2]

٢ـ قال الآلوسي: وقد أنكر كثير من المحققين هذه القصة.

فقال البيهقي: هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل.

وقال القاضي عياض في الشفاء: يكفيك في توهين هذا الحديث أنه لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواه ثقة بسند صحيح سليم متصل وإنما أولع به وبمثله المفسرون. والمؤرخون المولعون بكل غريب المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم.

وذكر الشيخ أبو منصور الماتريدي في كتاب حصص الأتقياء الصواب أن قوله: تلك الغرانيق العلا من جملة إيحاء الشيطان إلى أوليائه من الزنادقة حتى يلقوا بين الضعفاء وأرقاء الدين ليرتابوا في صحة الدين وحضرة الرسالة بريئة من مثل هذه الرواية.

وذكر غير واحد أنه يلزم على القول بأن الناطق بذلك النبي ﷺ بسبب إلقاء الشيطان الملبس بالملك أمور.

١ -منها تسلط الشيطان عليه ﷺوهو ﷺ بالإجماع معصوم من الشيطان لا سيما في مثل هذا من أمور الوحي والتبليغ والاعتقاد، وقد قال سبحانه: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ

(١) الظلال ٥/ ٢٠٦.

(٢) تفسيرابن كثير سورة الحج آية: ٥٢

سُلْطَٰنٌ ﴾ (الحجر: ٤٢) وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ (النحل: ٩٩) إلى غير ذلك.

٢-ومنها زيادته ﷺ في القرآن ما ليس منه وذلك مما يستحيل عليه ﷺ لمكان العصمة.

٣-ومنها اعتقاد النبي ﷺ ما ليس بقرآن أنه قرآن مع كونه بعيد الإلتئام متناقضًا ممتزج المدح بالذم وهو خطأ شنيع لا ينبغي أن يتساهل في نسبته إليه ﷺ.

٤-ومنها أنه إما أن يكون ﷺعند نطقه بذلك متعقدًا ما اعتقده المشركون من مدح آلهتهم بتلك الكلمات وهو كفر محال في حقه ﷺ وإما أن يكون معتقدًا معنى آخر مخالفًا لما اعتقدوه ومباينًا لظاهر العبارة ولم يبينه لهم مع فرحهم وادعائهم أنه مدح آلهتهم فيكون مقرًا لهم على الباطل وحاشاهﷺ أن يقر على ذلك.

٥-ومنها كونه ﷺ اشتبه عليه ما يلقيه الشيطان بما يلقيه عليه الملك وهو يقتضي أنه عليه ﷺ على غير بصيرة فيما يوحى إليه، ويقتضي أيضًا جواز تصور الشيطان بصورة الملك ملبسًا على النبي ولا يصح ذلك كما قال في الشفاء لا في أول الرسالة ولا بعدها والاعتماد في ذلك دليل المعجزة.

وقال ابن العربي: تصور الشيطان في صورة الملك ملبسًا على النبي كتصوره في صورة النبي ملبسًا على الخلق وتسليط الله تعالى له على ذلك كتسليطه في هذا فكيف يسوغ في لب سليم استجازة ذلك.

٦-ومنها التقول على الله تعالى إما عمدًا أو خطأ أو سهوًا. وكل ذلك محال في حقه ﷺ، وقد اجتمعت الأمة على ما قال القاضي عياض على عصمته صلى الله عليه وسلم فيما كان طريقه البلاغ من الأقوال عن الأخبار بخلاف الواقع لا قصدًا، ولا سهوًا.

٧-ومنها الإخلال بالوثوق بالقرآن فلا يؤمن فيه التبديل والتغيير، ولا يندفع كما قال البيضاوي بقوله تعالى: ﴿فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته﴾ (الحج: ٥٢) لأنه أيضًا يحتمل إلى غير ذلك. وذهب إلى صحتها الحافظ ابن حجر.

وأجاب عما يلزم على تقدير كون الناطق بذلك النبي ﷺ (بكلام أذكره لبيان ضعفه وتهافته بعد ذكره إن شاء الله تعالى.

١-أما عن الأول فبأن السلطان المنفي عن العباد المخلصين هو الإغواء أعني التلبيس المخل بأمر الدين وهو الذي وقع الإجماع على أن النبي ﷺ معصوم منه وأما غير المخل فلا دليل على نفيه ولا إجماع على العصمة منه وما هنا غير مخل لعدم منافاته للتوحيد كما يبين إن شاء الله تعالى بل فيه تأديب وتصفية وترقية للحبيب الأعظم ﷺ لأنه ﷺ تمنى هدى الكل ولم يكن ذلك مرادًا لله تعالى والأكمل في العبودية فناء إرادته في إرادة الحق سبحانه فليس عليه ﷺ الإلقاء حالة تمني هدى الكل المصادم للقدر والمنافي لما هو الأكمل ليترقى إلى الأكمل، وقد حصل ذلك بهذه المرة، ولذا لم يقع التلبيس مرة أخرى بل كان يرسل بعد من بين يديه ومن خلفه رصد ليعلم أن قد أبلغوا رسالة ربه سبحانه، وفي ترتيب الإلقاء على التمني ما يفهم العتاب عليه!

وأما عن الثاني: فبأن المستحيل المنافي للعصمة أن يزيد ﷺ فيه من تلقاء نفسه أي يزيد فيه ما يعلم أنه ليس منه، وما هنا ليس كذلك لأنه ﷺ إنما تبع فيه الإلقاء الملبس عليه في حالة خاصة فقط تأديبًا أن يعود لمثل تلك الحالة.

وأما عن الثالث: فبأنه يجوز أن يكون النبي ﷺ نطق به على فهم أنه استفهام إنكاري حذف منه الهمزة أو حكاية عنهم بحذف القول، وحينئذٍ لا يكون بعيد الالتئام، ولا متناقضًا، ولا ممتزج المدح بالذم، ولا بد من التزام أحد الأمرين على تقدير صحة الخبر لمكان العصمة، والنكتة في التعبير كذلك إيهام الذين في قلوبهم مرض، والقاسية قلوبهم أنه ﷺ مدح آلهتهم ويحصل ذلك مراد الله تعالى المشار إليه بقوله سبحانه: ﴿لِّيَجۡعَلَ﴾ (الحج: ٥٣) الخ.

وأما عن الرابع: فبأنا نختار الشق الثاني بناءً على أنه استفهام حذف منه الهمزة أو حكاية بحذف القول، وعلى التقديرين يكون ﷺ معتقدًا لمعنى مخالف لما اعتقدوه؛ ولا يلزم منه التقرير على الباطل لأنه بين بطلان معتقدهم بقوله تعالى بعد: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍ﴾ (النجم: ٢٣) فإن ما لم ينزل الله تعالى به

سلطانًا لا ترجى شفاعته إذ لا شفاعة إلا من بعد إذن إلهي لقوله تعالى بعد: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ (النجم: ٢٦).

وأما عن الخامس: فبأن هذا الاشتباه في حالة خاصة للتأديب لا يقتضي أن يكون ﷺ على غيربصيرة فيما يوحى إليه في غير تلك الحالة.

وأما قول القاضي عياض: لا يصح أن يتصور الشيطان بصورة الملك ويلبس عليه ﷺفإن أراد به أنه لا يصح أن يلبس تلبيسًا قادحًا فهو مسلم لكنه لم يقع وإن أراد مطلقًا ولو كان غير مخل فلا دليل عليه، ودليل المعجزة إنما ينفي الاشتباه المخل بأمر النبوة المنافي للتوحيد القادح في العصمة وما ذكر غير مخل بل فيه تأديب بما يتضمن تنقية وترقية إلى الأكمل في العبودية. وأما ما ذكر ابن العربي فقياس مع الفارق لأن تصور الشيطان في صورة النبي مطلقًا منفي بالنص الصحيح وتصوره في صورته ملبسًا على الخلق إغواء يعم وهو سلطان منفي بالنص عن المخلصين، وأما تصوره في صورة الملك في حالة خاصة ملبسًا على النبي بما لا يكون منافيًا للتوحيد لما يريد الله تعالى بذلك تأديبًا ولإيهامه خلاف المراد فتنة لقوم فليس من السلطان المنفي ولا بالتصور الممنوع لعدم إخلاله بمقام النبوة.

وأما عن السادس: فبأن التقول تكلف القول ومن لا يتبع إلا من يلقى إليه من الله تعالى حقيقة أو اعتقادًا ناشئًا من تلبيس غير مخل لا تكلف للقول عنده فلا تقول على الله تعالى أصلًا؛ وما أشبه هذه القصة بما تضمنه حديث ذي اليدين فالتلبيس عليه ﷺ في الإلقاء في حالة التمني تأديبًا كإيقاع السهو عليه ﷺ في الصلاة باعتقاد التمام تشريعًا، والنطق بما ألقاه الشيطان في حالة خاصة مما لا ينافي التوحيد على أنه قرآن بناءً على اعتقاد أن الملقى ملك تلبيسًا للتأديب كالنطق بالسلام ثم بلم أنس معتقدًا أنه مطابق للواقع بناءً على اعتقاد التمام سهوًا، ووقوع البيان على لسان جبريل عليه السلام ثم النسخ والإحكام كوقوع البيان على لسان الصحابي ثم التدارك وسجود السهو فكما أن السهو للتشريع غير قادح في منصب النبوة كذلك الاشتباه في الإلقاء للتأديب غير قادح، وكما أن النطق بلم أنس مع تبين أنه ﷺ قد نسي صدق بناء على اعتقاد التمام سهوًا كذلك النطق بما يلقيه الشيطان في تلك الحالة على أنه قرآن بناءً على اعتقاد

أن الملقى ملك صدق ولا شيء من الصدق بالتقول فلا شيء من النطق بما يلقيه الشيطان في تلك الحالة به، وما ذكر عن القاضي عياض من حكاية الإجماع على عدم جواز دخول السهو في الأقوال التبليغية كما قال الحافظ ابن حجر متعقب.

وأما عن السابع: فبأنه لا إخلال بالوثوق بالقرآن عند الذين أوتوا العلم والذين آمنوا لأن وثوق كل منهما تابع لوثوق متبوعهم الصادق الأمين فإذا جزم بشيء أنه كذا جزموا به وإذا رجع عن شيء بعد الجزم رجعوا كما هو شأنهم في نسخ غير هذا من الآيات التي هي كلام الله تعالى لفظًا ومعنى إذ قبل نسخ ما نسخ لفظه كانوا جازمين بأنهم متعبدون بتلاوته وبعد النسخ جزموا بأنهم ما هم متعبدين بتلاوته، وما نسخ حكمه كانوا جازمين بأنهم مكلفون بحكمه وبعد النسخ جزموا بأنهم ما هم مكلفين به، فقول البيضاوي: إن ذلك لا يندفع بقوله تعالى: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ﴾ (الحج: ٥٢) الخ لأنه أيضًا يحتمله ليس بشيء، وبيانه أنه إن أراد أنه يحتمله عند الفرق الأربع المذكورة في الآيات وهم الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم والذين أوتوا العلم والذين آمنوا فهو ممنوع لدلالة قوله تعالى: ﴿وَلِيَعۡلَمَ﴾ (الحج: ٥٤) على انتفاء الاحتمال عند فريقين من الفرق الأربع بعد النسخ والإحكام، وإن أراد أنه يحتمله في الجملة أي عند بعض دون بعض فهو مسلم وغير مضر لعدم إخلاله بالوثوق بالقرآن عند الذين أوتوا العلم والذين آمنوا، وأما إخلاله بالنسبة إلى الفريقين الآخرين فهو مراد الله ﷻ.

١ -الرد على الجواب الأول

١ -إن التلبيس بحيث يشتبه الأمر على النبي ﷺ فيعتقد أن الشيطان ملك مخل بمقام النبوة، ونقص فيه فإن الولي الذي هو دونه ﷺ بمراتب لا يكاد يخفى عليه الطائع من العاصي فيدرك نور الطاعة وظلمة المعصية فكيف بمن هو سيد الأنبياء ونور عيون قلوب الأولياء يلتبس عليه من هو محض نور بمن محض ديجور، واشتباه جبريل عليه السلام عليه ﷺ في بعض المرات حتى لم يعرفه إلى أن ذهب فقال: « والذي نفسي بيده ما شبه علي منذ أتاني قبل مرتي هذه وما عرفته حتى ولى » إذا صح ليس من قبيل اشتباه الشيطان به عليه السلام إذ يجوز أن يكون من اشتباه ملك بملك وكل منهما نوراني، وقد كان يأتيه ﷺ غير جبريل عليه السلام من الملائكة الكرام.

٢-وأيضًا قال المحققون: إن الأنبياء عليهم السلام ليس لهم خاطر شيطاني، وكون ذلك ليس منه بل كان مجرد إلقاء على اللسان دون القلب ممنوع ألا ترى أنه قال تعالى: ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ (الحج: ٥٢) دون ألقى الشيطان على لسانه، وتسمية القراءة أمنية لما أن القارئ يقدر الحروف في قلبه أولًا ثم يذكرها شيئًا فشيئًا.

٣-وأيضًا حفظه ﷺ لذلك إلى أن أمسى كما جاء في بعض الروايات فنبهه عليه جبريل عليهما السلام يبعد كون الإلقاء على اللسان فقط، على أنا لو سلمنا ذلك وقلنا: إن الشيطان ألقى على لسانه ﷺ ولم يلق في قلبه كما هو شأن الوحي المشار إليه بقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ (الشعراء: ١٩٣، ١٩٤) وقلنا: إن ذلك مما يعقل للزم أن يعلم ﷺ من خلو قلبه واشتغال لسانه أن ذلك ليس من الوحي في شيء ولم يحتج إلى أن يعلمه جبريل عليه السلام.

٤- والقول بأنه لبس الحال عليه ﷺ للتأديب والترقية إلى المقام الأكمل في العبودية وهو فناء إرادته ﷺ في إرادة مولاه عز وجل حيث تمنى إيمان الكل وحرص عليه ولم يكن مراد الله تعالى مما لا ينبغي أن يلتفت إليه لأن القائل به زعم أن التأديب بذلك كان بعد قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ (الأنعام: ٣٥) ولا شك أن التأديب به لم يبق، ولم يذر، ولم يقرن بما فيه تسلية أصلًا فإذا قيل، والعياذ بالله تعالى: إن ذلك لم ينجع فكيف ينجع ما دونه، وأيضًا أية دلالة في الآية على التأديب وهي لم تخرج مخرج العتاب بل مخرج التسلية على أبلغ وجه عما كان يفعل المشركون من السعي في إبطال الآيات، ولا نسلم أن ترتيب الإلقاء على التمني مع ما في السباق والسياق مما يدل على التسلية عن ذلك يجدي نفعًا في هذا الباب كما لا يخفى على ذوي الألباب.

٥-ويرد على قوله: إنه بعد حصول التأديب بما ذكر كان يرسل من بين يديه ومن خلفه رصد يحفظونه من إلقاء الشيطان أنه لم يدل دليل على تخصيص الإرسال بما بعد ذلك بل الظاهر أن ذلك كان في جميع الأوقات فقد أخرج عبد بن حميد. وابن جرير عن الضحاك

بن مزاحم في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ (الجن: ٢٧) قال: كان النبي ﷺ إذا بعث إليه الملك بالوحي بعث معه ملائكة يحرسونه من بين يديه ومن خلفه أن يتشبه الشيطان بالملك، وقد ذكروا أن كان في ذلك للاستمرار.

وأخرج ابن أبي حاتم بسند صحيح عن سعيد بن جبير قال: ما جاء جبريل عليه السلام بالقرآن إلى النبي ﷺ إلا ومعه أربعة من الملائكة حفظة، وهذا صريح في ذلك ولا شك أن هذا الإلقاء عند من يقول به كان عند نزول الوحي، فقد أخرج ابن جرير. وابن مردويه من طريق العوفي عن ابن عباس أن النبي ﷺ بينما هو يصلي إذ نزلت عليه قصة آلهة العرب فجعل يتلوها فسمعه المشركون فقالوا: إنا نسمعه يذكر آلهتنا بخير فدنوا منه فبينما هو يتلوها وهو يقول: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ (النجم: ١٩، ٢٠) ألقى الشيطان تلك الغرانيق العلا منها الشفاعة ترتجى فعلى هذا ونحوه يكون الرصد موجودًا مع عدم ترتب أثره عليه؛ والقول بأن جبريل عليه السلام ومن معه تنحوا عنه حتى ألقى الشيطان ما ألقى بناءً على ما أخرج ابن مردويه عن ابن عباس أنه قال في آية الرصد: كان النبي ﷺ قبل أن يلقي الشيطان في أمنيته يدنون منه فلما ألقى الشيطان في أمنيته أمرهم أن يتنحوا عنه قليلًا فإن المراد من قوله: فيه فلما ألقى فلما أراد أن يلقى في حيز المنع وكذا صحة هذا الخبر، ثم أية فائدة في إنزال الرصد إذا لم يحصل به الحفظ بل كيف يسمى رصدًا.

ومما ذكر في هذا الاعتراض يعلم ما في الجواب الثاني من الاعتراض وهو ظاهر:

٢-وقد يقال: إن إعجاز القرآن معلوم له ﷺ ضرورة كما ذهب إليه أبو الحسن الأشعري، بل قال القاضي: إن كل بليغ أحاط بمذاهب العرب وغرائب الصنعة يعلم ضرورة إعجازه، وذكر أن الإعجاز يتعلق بسورة أو قدرها من الكلام بحيث يتبين فيه تفاضل قوى البلاغة فإذا كانت آية بقدر حروف سورة وإن كانت كسورة الكوثر فهو معجز، وعلى هذا يمتنع أن يأتي الجن والإنس ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا بمقدار أقصر سورة منه تشبهه في البلاغة ومتى أتى أحد بها يزعم فيه ذلك لم تنفق سوقه عند رسول الله ﷺ وكذا عند كل بليغ محيط بما تقدم ولم يخف على الرسول ﷺولا على ذلك البليغ عدم

إعجازه فلا يشتبه عنده بالقرآن أصلًا، ولا شك أن ما ألقى الشيطان على ما في بعض الروايات حروفه بقدر حروف سورة الكوثر بل أزيد إن اعتبر الحرف المشدد بحرفين وهو وإنهن لهن الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لهي التي ترتجي الوراد فيما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق موسى بن عقبة عن ابن شهاب.

وجاء في رواية ابن جريروابن المنذر وابن أبي حاتم بسند قال السيوطي: هو صحيح عن أبي العالية أنه ألقى تلك الغرانيق العلا وشفاعتهن ترتجى وترتضى ومثلهن لا ينسى وحروفه أزيد من حروفها إذا لم يعتبر الحرف المشدد في شيء منهما بحرفين أما إذا اعتبر فحروفها أزيد بواحد فإن كان ما ذكر مما يتعلق به الإعجاز فإن كان معجزًا لزم أن يكون من الله تعالى لا من إلقاء عدوه ضرورة عجزه كسائر الجن والإنس عن الإتيان بذلك، وإن لم يكن مما يتعلق به الإعجاز فهو كلام غير يسير يتنبه البليغ الحاذق إذا سمعه أثناء كلام فوقه بمراتب لكونه ليس منه فيبعد كل البعد أن يخفى عليه ﷺقصور بلاغته عن بلاغة شيء من آيات القرآن سواء قلنا بتفاوتها في البلاغة كما اختاره أبو نصر القشيري وجماعة أم قلنا بعدم التفاوت كما اختاره القاضي فيعتقد أنه قرآن حتى ينبهه جبريل عليه السلاملا سيما وقد تكرر على سمعه الشريف سكر الآيات ومازجت لحمه ودمه، والواحد منا وإن لم يكن من البلاغة بمكان إذا ألف شعر شاعر وتكرر على سمعه يعلم إذا دس بيت أو شطر في قصيدة له أن ذلك ليس له وقد يطالب بالدليل فلا يزيد على قوله: لأن النفس مختلف، وهذا البعد متحقق عندي على تقدير كون الملقى ما في الرواية الشائعة وهو تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهم لترتجى أيضًا لا سيما على قول جماعة: إن الإعجاز يتعلق بقليل القرآن وكثيره من الجمل المفيدة لقوله تعالى ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ ﴾ (الطور: ٣٤).

٣-والقول بأن النبي ﷺ خفي عليه ذلك للتأديب فيه ما فيه، ولا يبعد استحقاق قائله للتأنيب.

ثالثا: وما ذكره في الجواب عن الثالث من أنه لا بد من حمل الكلام على الاستفهام أو حذف القول وهو دون الأول إذا صح الخبر صحيح لكن إثبات صحة الخبر أشد من خرط القتاد فإن الطاعنين فيه من حيث النقل علماء أجلاء عارفون بالغث والسمين من الإخبار وقد بذلوا الوسع في تحقيق الحق فيه فلم يرووه إلا مردودًا وما ألقى الشيطان إلى

أوليائه معدودًا وهم أكثر ممن قال بقبوله ومنهم من هو أعلم منه، ويغلب على الظن أنهم وقفوا على رواته في سائر الطرق فرأوهم مجروحين وفات ذلك القائل بالقبول، ولعمري أن القول بأن هذا الخبر مما ألقاه الشيطان على بعض ألسنة الرواة ثم وفق الله تعالى جمعًا من خاصته لإبطاله أهون من القول بأن حديث الغرانيق مما ألقاه الشيطان على لسان رسول الله ﷺ ثم نسخه سبحانه وتعالى لا سيما وهو مما لم يتوقف على صحته أمر ديني ولا معنى آية ولا ولا سوى أنها يتوقف عليها حصول شبه في قلوب كثير من ضعفاء المؤمنين لا تكاد تدفع إلا بجهد جهيد، ويؤيد عدم الثبوت مخالفته لظواهر الآيات فقد قال سبحانه في وصف القرآن: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ (فصلت: ٤٢)، والمراد بالباطل ما كان باطلًا في نفسه وذلك الملقى كذلك وإن سوغ نطق النبي ﷺ به تأويله بأحد التأويلين، والمراد ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ﴾ استمرار النفي لا نفي الاستمرار.

وقال ﷻ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الحجر: ٩) فجيء بالجملة الاسمية مؤكدة بتأكيدين ونسب فيها الحفظ المحذوف متعلقة إفادة للعموم إلى ضمير العظمة وفي ذلك من الدلالة على الاعتناء بأمر القرآن ما فيه.

وقد استدل بالآية من استدل على حفظ القرآن من الزيادة والنقص وما علينا ما قيل في ذلك، وكون الإلقاء المذكور لا ينافي الحفظ لأنه نسخ ولم يبق إلا زمانًا يسيرًا لا يخلو عن نظر، والظاهر أنه وإن لم يناف الحفظ في الجملة لكنه ينافي الحفظ المشار إليه في الآية على ما يتقضيه ذلك الاعتناء، ثم إن قيل: بما روي عن الضحاك من أن سورة الحج كلها مدنية لزم بقاء ما ألقى الشيطان قرآنًا في اعتقاد رسول الله ﷺ والمؤمنين زمانًا طويلًا والقول بذلك من الشناعة بمكان، وقال ﷻ: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ (النجم: ٤) والظاهر أن الضمير لما ينطق به عليه ﷺ مما يتعلق بالدين، ومن هنا أخرج الدارمي عن يحيى بن أبي كثير أنه قال: كان جبريل عليه السلام ينزل بالسنة كما ينزل بالقرآن.

والمتبادر من لحن الخطاب أن جميع ما ينطق به ﷺ من ذلك ليس عن إلقاء شيطاني كما أنه ليس عن هوى، وبقيت آيات أخر في هذا الباب ظواهرها تدل على المدعي أيضًا،

وتأويل جميع الظواهر الكثيرة لقول قلة قليلة بصحة الخبر المنافي لها مع قول جم غفير بعد الفحص التام بعدم صحته مما لا يميل إليه القلب السليم ولا يرتضيه ذو الطبع المستقيم، ويبعد القول بثبوته أيضًا عدم إخراج أحد من المشايخ الكبار له في شيء من الكتب الست مع أنه مشتمل على قصة غريبة وفي الطباع ميل إلى سماع الغريب وروايته ومع إخراجهم حديث سجود المشركين معه ﷺ حين سجد آخر النجم، فقد روى البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي، وغيرهم عن ابن مسعود ﵁ أن النبي ﷺقرأ ﴿والنجم﴾ (النجم: ١) فسجد فيها وسجد كل من كان معه غير أن شيخًا من قريش أخذ كفًا من حصى أو تراب ورفعه إلى جبهته وقال: يكفيني هذا.

وروى البخاري أيضًا والترمذي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ سجد بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس إلى غير ذلك، وليس لأحد أن يقول: إن سجود المشركين يدل على أنه كان في السورة ما ظاهره مدح آلهتهم وإلا لما سجدوا لأنا نقول: يجوز أن يكونوا سجدوا لدهشة أصابتهم وخوف اعتراهم عند سماع السورة لما فيها من قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾ (النجم: ٥٠-٥٤) إلى آخر الآيات فاستشعروا نزول مثل ذلك بهم، ولعلهم لم يسمعوا قبل ذلك مثلها منه ﷺ وهو قائم بين يدي ربه سبحانه في مقام خطير وجمع كثير وقد ظنوا من ترتيب الأمر بالسجود على ما تقدم أن سجودهم ولو لم يكن عن إيمان كاف في دفع ما توهموه، ولا تستبعد خوفهم من سماع مثل ذلك منه ﷺ.

ويمكن أن يقال على بعد: إن سجودهم كان لاستشعار مدح آلهتهم ولا يلزم منه ثبوت ذلك الخبر لجواز أن يكون ذلك الاستشعار من قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ (النجم: ١٩، ٢٠) بناءً على أن المفعول محذوف وقدروه حسبما يشتهون أو على أن المفعول ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾ (النجم: ٢١) وتوهموا أن مصب الإنكار فيه كون المذكورات إناثًا والحب للشيء يعمي ويصم، وليس هذا بأبعد من حملهم تلك الغرانيق

العلا وإن شفاعتهن لترتجى على المدح حتى سجدوا لذلك آخر السورة مع وقوعه بين ذمين المانع من حمله على المدح في البين كما لا يخفى على من سلمت عين قلبه عن الغين.

رابعًا: واعترض على الجواب الرابع بأن سجودهم كان مع رسول الله ﷺ آخرًا بعد سماع قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ (النجم: ٢٣) فكان ينبغي التنبيه بعد السجود، ولعلهم أرجعوا ضمير ﴿هِيَ﴾ للأسماء وهي قولهم اللات والعزى ومناة كما هو أحد احتمالين فيه ذكرهما الزمخشري، فيكون المعنى ما هذه الأسماء إلا أسماء سميتم بها بهواكم وشهوتكم ليس لكم على صحة التسمية بها برهان تتعلقون به، وحينئذٍ لا يكون فيه دليل على رد ما فهموه مما ألقى الشيطان من مدح آلهتهم بأنها الغرانيق العلا، ويحتمل أنهم أولوه على وجه آخر وباب التأويل واسع.

واعترض على قوله في الجواب الخامس: إن هذا الاشتباه في حالة خاصة للتأديب لا يقتضي أن يكونﷺ على غير بصيرة فيما يوحى إليه في غير تلك الحالة بأن المعترض لم يرد أنه إذا اشتبه الأمر عليه ﷺمرة يلزم أن يكون على غير بصيرة فيما يوحى إليه في غيرها بل أراد أن اللائق بمقام النبي ﷺ أن يكون على بصيرة في جميع ما يوحى إليه وأنه متى اشتبه عليه ﷺ في حالة من الأحوال لم تبق الكلية كلية وهو خلاف المراد.

وفي التنقيح أن الوحي إما ظاهر أو باطن أما الظاهر فثلاثة أقسام، الأول: ما ثبت بلسان الملك فوقع في سمعه ﷺ بعد علمه بالمبلغ بآية قاطعة والمراد بها كما قال ابن مالك: العلم الضروري بأن المبلغ ملك نازل بالوحي من الله تعالى والقرآن من هذا القبيل.

والثاني: ما وضح له ﷺ بإشارة الملك من غير بيان بالكلام كما قال ﷺ: " إن روح القدس نفث في روعي أن نفسًا لن تموت حتى تستكمل رزقها. . . "[1]، وهذا يسمى خاطر الملك.

والثالث: ما تبدى لقلبه الشريف بلا شبهة بإلهام من الله تعالى بأن أراه بنور من عنده كما قال تعالى: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ (النساء: ١٠٥) وكل ذلك حجة مطلقًا بخلاف الإلهام للولي فإنه لا يكون حجة على غيره.

---

(١) أخرجه عبدالرزاق في مصنفه (٢٠١٠٠)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٨٦٦).

وأما الباطن فما ينال بالرأي والاجتهاد وفيه خلاف إلى آخر ما قال، وهو ظاهر في أنه ﷺ على بصيرة في جميع ما يوحى إليه من القرآن لأنه جعله من القسم الأول من أقسام الوحي الظاهر، ويعلم منه عدم ثبوت تكلمه ﷺ بما ألقى الشيطان لأنه عند زاعمه يكون قد اعتقده ﷺ قرآنًا ووحيًا من الله تعالى فيجب على ما سمعت أن يكون ﷺ قد علم ذلك علمًا ضروريًا فحيث أنه ليس كذلك في نفس الأمر يلزم انقلاب العلم جهلًا، واستثناء هذه المادة من العموم مما لا دليل عليه عند الزاعم سوى الخبر الذي زعم صحته وبنى عليه تفسير الآية بما فسرها به وذلك أول المسألة.

ودعوى أن التأديب بذلك على غير التمني مما لا تقتضيه الحكمة فلا يمكن وقوعه مما لم يقم عليه دليل، وقصارى ما تفيده الآية أن الإلقاء مشروط بالتمني أو في وقته بناءً على الخلاف في أن ﴿إِذَا﴾ للشرط أو لمجرد الظرفية وعند انتفاء ذلك الشرط أو عدم تحقق ذلك الوقت يبقى الإلقاء على العدم الأصلي إن لم يكن هناك ما يقوم مقام ذلك الشرط أو ذلك الوقت.

ولا شك أن صدور خلاف الأكمل لا سيما إذا كان كالتمني أو فوقه أو وقت صدوره مما يقوم مقام ذلك فيما يقتضيه فيلزم حينئذ أن يكون ﷺ في كل وحي متوقفًا غير جازم بأن وحي لا تلبيس إلى أن يتضح له ﷺ عدم صدور خلاف الأكمل بالنسبة إليه منه وفي ذلك من البشاعة ما فيه.

واعترض على قوله في الجواب أيضًا: إن ما قاله ابن العربي قياس مع الفارق الخ بأنه غير حاسم للقيل والقال إذ لنا أن نقول: خلاصة ما أشار إليه ابن العربي أنه قد صح بل تواتر قوله ﷺ: « من رآني في المنام فقد رآني حقًا فإن الشيطان لا يتمثل بي » والظاهر أنه لا يتمثل به ﷺ أصلًا لا للمخلصين ولا لغيرهم لعموم من ولزوم مطابقة التعليل المعلل وإذا لم يتمثل منامًا فلأن لا يتمثل يقظة من باب أولى، وعلله الشراح بلزوم اشتباه الحق بالباطل.

والنبي ﷺ خلق للهداية فلو ساغ ظهور إبليس بصورته لزال الاعتماد ﷺ فلذلك عصمت صورته ﷺ عن أن يظهر بها شيطان، ولا شك أن نسبة جبريل عليه السلام إليه ﷺ وكذا إلى سائر إخوانه الأنبياء عليهم السلام نسبة النبي ﷺ إلى الأمة فإذا استحال تمثل الشيطان

بالنبي يقظة أو منامًا لأحد من أمته مخلصًا أو غير مخلص خوف الاشتباه وزوال الاعتماد وكمال التضاد فليقل باستحالة تمثله بجبريل ﷺ لذلك ومن ادعى الفرق فقد كابر.

وتعقب ما ذكره في الجواب السادس بأن كون المتتبع لما يعتقده وحيًا للتلبيس غير منقول صحيح إلا أن القول باعتقاد ما ليس قرآنًا للتلبيس الناشيء عن إرادة التأديب بسبب تمني إيمان الجميع غير المراد له تعالى ليس به، وكون التلبيس للتأديب كالسهو في الصلاة للتشريع لا يخفى ما فيه.

وأورد على قوله في الجواب السابع: إنه لا إخلال بالوثوق بالقرآن عند الذين أوتوا العلم والذي آمنوا لأن وثوق كل منهما تابع لوثوق متبوعهم الصادق الأمين ﷺ أنه إذا فتح باب التلبيس لا يوثق بالوثوق في شيء أصلًا لجواز أن يكون كل وثوق ناشئًا عن تلبيس كالوثوق بأن تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى قرآن فلما تطرق الاحتمال الوثوق جاز أن يتطرق الرجوع ولا يظهر فرق بينهما فلا يعول حينئذ على جزم ولا على رجوع. وقوله فيما ذكره البيضاوي عليه الرحمة: ليس بشيء ليس بشيء لأن منع الاحتمال عند الفرق الأربع بعد القول بجواز التلبيس مكابرة والآية التي ادعى دلالتها على انتفاء الاحتمال عند فريقين بعد النسخ والأحكام فيها أيضًا ذلك الاحتمال، والحق أنه لا يكاد يفتح باب قبول الشرائع ما لم يسد هذا الباب.

ولا يجدي نفعًا كون الحكمة المشار إليها بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ آبية عن بقاء التلبيس فلا أقل من أن يتوقف قبول معظم ما يجيء به النبي ﷺ إلى أن يتبين كونه ليس داخلًا في باب التلبيس مع أنا نرى الصحابة ﷺ يسارعون إلى امتثال الأوامر عند إخباره ﷺ إياهم بوحي الله تعالى إليه بها من من غير انتظار ما يجيء بعد ذلك فيها مما يحقق أنها ليست عن تلبيس فافهم والله تعالى الموفق.

وتوسط جمع في أمر هذه القصة فلم يثبتوها كما أثبتها الكوراني عفا الله تعالى عنه من أنه ﷺ نطق بما نطق عمدًا معتقدًا للتلبيس أنه وحي حاملًا له على خلاف ظاهره ولم ينفوها بالكلية كما فعل أجلة إثبات وإليه أميل بل أثبتوها على وجه غير الوجه الذي أثبته

الكوراني واختلفوا فيه على أوجه تعلم مما أسلفناه من نقل الأقوال في الآية وكلها عندي مما لا ينبغي أن يلتفت إليها.

وأقبح الأقوال التي رأيناها في هذا الباب وأظهرها فسادًا أنه ﷺ أدخل تلك الكلمة من تلقاء نفسه حرصًا على إيمان قومه ثم رجع عنها، ويجب على قائل ذلك التوبة ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ (الكهف: ٥)، وقريب منه ما قيل إنها كانت قرآنًا منزلًا في وصف الملائكة عليهم السلام فلما توهم المشركون أنه يريد ﷺ مدح آلهتهم بها نسخت، وأنت تعلم أن تفسير الآية أعنى قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا﴾ (الحج: ٥٢) الخ لا يتوقف على ثبوت أصل لهذه القصة، وأقرب ما قيل في تفسيرها على القول بعدم الثبوت ما قدمناه، وقيل: هو بعيد صدقوا لكن عن إيهام الإخلال بمقام النبوة ونحو ذلك، واستفت قلبك إن كنت ذا قلب سليم.[(١)]

٣ـ**قال الشوكاني رحمه الله بعد ذكر القصة مجملة**: ولم يصح شيء من هذا، ولا ثبت بوجه من الوجوه، ومع عدم صحته بل بطلانه فقد دفعه المحققون بكتاب الله سبحانه. وقال أيضًا: والحاصل: أن جميع الروايات في هذا الباب إما مرسلة أو منقطعة لا تقوم الحجة بشيء منها.[(٢)]

٤ـ **وقال ابن الجوزي**: قال العلماء المحققون: وهذا لا يصح، لأن رسول الله ﷺ معصوم عن مثل هذا، ولو صح، كان المعنى أن بعض شياطين الإنس قال تلك الكلمات، فإنهم كانوا إذا تلا لغطوا، كما قال الله عز وجل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ (فصِّلت: ٢٦).[(٣)]

٥ـ **وقال الرازي**: هذا رواية عامة المفسرين الظاهريين، أما أهل التحقيق فقد قالوا هذه الرواية باطلة موضوعة واحتجوا عليه بالقرآن والسنة والمعقول.[(٤)]

---

(١) روح المعاني مع تصرف يسير سورة الحج آية ٥٢.

(٢) فتح القدير سورة الحج آية ٥٢.

(٣) زاد المسير سورة الحج آية ٥٢.

(٤) مفاتيح الغيب للرازي سورة الحج آية ٥٢.

٦- **وقال البيضاوي**: وهو مردود عند المحققين، وإن صح فابتلاء يتميز به الثابت على الإيمان عن المتزلزل فيه.[١]

٧- **وقال ابن عاشور**: وهي قصة يجدها السامع ضِغثًا على إبَالة، ولا يلقي إليها النِّحرير بالَه. وما رُويت إلا بأسانيد واهية ومنتهاها إلى ذكر قصة، وليس في أحد أسانيدها سماع صحابي لشيء في مجلس النبي ﷺ وسندها إلى ابن عباس سندٌ مطعون على أنّ ابن عباس يوم نزلت سورة النجم كان لا يحضر مجالس النبي ﷺ وهي أخبار آحاد[٢] تعارض أصول الدين لأنها تخالف أصل عصمة الرسول ﷺ للإلتباس عليه في تلقي الوحي. ويكفي تكذيبًا لها قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ (النجم: ٣) وفي معرفة الملكَ. فلو رووها الثقات لوجب رفضها وتأويلها فكيف وهي ضعيفة واهية. وكيف يروج على ذي مُسكة من عقل أن يجْتمع في كلام واحد تسفيهِ المشركين في عبادتهم الأصنام بقوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾ (النجم: ١٩) إلى قوله: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ (النجم: ٢٣) فيقع في خلال ذلك مدحها بأنها «الغرانيق العلى وأن شفاعتهن لترتجى». وهل هذا إلا كلام يلعنُ بعضُه بعضًا. وقد اتفق الحاكون أن النبي ﷺ قرأ سورة النجم كلها حتى خاتمتِها ﴿ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴾ (النجم: ٦٢) لأنهم إنما سجدوا حين سجد المسلمون، فدلّ على أنهم سمعوا السورة كلها وما بين آية ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾ (النجم: ١٩) وبين آخر السورة آيات كثيرة في إبطال الأصنام وغيرها من معبودات المشركين، وتزييف كثير لعقائد المشركين فكيف يصحّ أن المشركين سجدوا من أجل الثناء على آلهتهم.[٣]

فإن لم تكن تلك الأخبار مكذوبة من أصلها فإن تأويلها: أن بعض المشركين وجدوا ذكر اللات والعُزّى فُرصة للدخَل لاختلاق كلمات في مدحهنّ، وهي هذه الكلمات وروّجُوها بين الناس تأنيسًا لأوليائهم من المشركين وإلقاء للريب في قلوب ضعفاء الإيمان وفي «شرح الطيبي على الكشاف» نقلًا عن بعض المؤرّخين: أن كلمات «الغرانيق. . . » (أي

(١) تفسير البيضاوي سورة الحج آية ٥٢.

(٢) قدمنا أن خبر الآحاد مقبول إن ثبت فيه شروط الصحة، وراجع شبهة (حديث الآحاد).

(٣) التحرير والتنوير سورة الحج آية ٥٢.

هذه الجمل) من مفتريات ابن الزِّبعرى. ويؤيد هذا ما رواه الطبري عن الضحاك: «أن النبي ﷺ أنزل عليه قصةُ آلهة العرب، أي قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ (النجم: ١٩) الخ؛ فجعَل يتلو: ﴿ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾ (أي الآية المشتملة على هذا) فسمع أهل مكة نبي الله يذكر آلهتهم ففرحوا ودنوا يستمعون فألقَى الشيطان تلك الغرانيق العُلَى مِنها الشفاعة ترتجَى» فإن قوله: «دنوا يستمعون فألقى الشيطان» الخ يؤذن بأنهم لم يسمعوا أول السورة ولا آخرها وأن شيطانهم ألقى تلك الكلمات. ولعل ابن الزبعرى كانت له مقدرة على محاكاة الأصوات وهذه مقدرة توجد في بعض الناس. وكنت أعرف فتى من أترابنا ما يحاكي صوت أحد إلا ظنه السامع أنه صوتُ المُحاكَى.

وأما تركيب تلك القصة على الخبر الذي ثبت فيه أنّ المشركين سَجدوا في آخر سورة النجم لما سجد المسلمون، وذلك مروي في الصحيح، فذلك من تخليط المؤلفين.

وكذلك تركيب تلك القصة على آية سورة الحجّ. وكم بين نزول سورة النجم التي هي من أوائل السور النازلة بمكة وبين نزول سورة الحج التي بعضها من أول ما نزل بالمدينة وبعضها من آخر ما نزل بمكة.

وكذلك ربط تلك القصة بقصة رجوع من رَجع من مهاجرة الحبشة. وكم بين مدّة نزول سورة النجم وبين سنة رجوع من رجع من مهاجرة الحبشة.[1]

٩- وقال ابن حزم: (والحديث الذي فيه: وأنهن الغرانيق العلا، وأن شفاعتهن لترجى. فكذب بحت لم يصلح من طريق النقل ولا معنى للاشتغال به، إذ وضع الكذب لا يعجز عنه أحد).[2]

١٠- قال الشريف الجرجاني: ولقد أخطأ المفسرون في إيداعها في تفاسيرهم إلا من عصمه الله تعالى.[3]

---

(١) التحرير والتنوير سورة الحج آية ٥٢.

(٢) نقلًا من الإسلام بين الإنصاف والجحود.

(٣) المختصر في أصول الحديث؛ باب تحمل الحديث.

١١ـ **قال القاضي عياض**: يكفيك أن هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواه ثقة بسند سليم متصل وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم وصدق القاضى بكر بن العلاء المالكي حيث قال لقد بلى الناس ببعض أهل الأهواء والتفسير وتعلق بذلك الملحدون مع ضعف نقلته واضطراب رواياته وانقطاع إسناده واختلاف كلماته فقائل يقول إنه في الصلاة، وآخر يقول قالها في نادى قومه حين أنزلت عليه السورة، وآخر يقول قالها وقد أصابته سنة، وآخر يقول بل حدث نفسه فيها، وآخر يقول إن الشيطان قالها على لسانه وأن النبي ﷺ لما عرضها على جبريل قال ما هكذا أقرأتك، وآخر يقول بل أعلمهم الشيطان أن النبي ﷺ قرأها، فلما بلغ النبي ﷺ ذلك قال والله ما هكذا نزلت، إلى غير ذلك من اختلاف الرواة، ومن حكيت هذه الحكاية عنه من المفسرين والتابعين لم يسندها أحد منهم ولا رفعها إلى صاحب، وأكثر الطرق عنهم فيها ضعيفة واهية، والمرفوع فيه حديث شعبة عن أبى بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال فيما أحسب الشك في الحديث أن النبي ﷺ كان بمكة وذكر القصة.

قال أبو بكر البزار: هذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ بإسناد متصل يجوز ذكره إلا هذا ولم يسنده عن شعبة الا أمية بن خالد وغيره يرسله عن سعيد بن جبير، وإنما يعرف عن الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس رضي الله عنه فقد بين لك أبو بكر رحمه الله أنه لا يعرف من طريق يجوز ذكره سوى هذا، وفيه من الضعف ما نبه عليه مع وقوع الشك فيه كما ذكرناه الذي لا يوثق به ولا حقيقة معه، وأما حديث الكلبي فمما لا تجوز الرواية عنه ولا ذكره لقوة ضعفه وكذبه كما أشار إليه البزار رحمه الله والذي منه في الصحيح أن النبي ﷺقرأ والنجم وهو بمكة فسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس، هذا توهينه من طريق النقل.

فأما من جهة المعنى فقد قامت الحجة وأجمعت الأمة على عصمته ﷺ ونزاهته عن مثل هذه الرذيلة إما من تمنيه أن ينزل عليه مثل هذا من مدح آلهة غير الله وهو كفر أو أن يتسور عليه الشيطان ويشبه عليه القرآن حتى يجعل فيه ما ليس منه ويعتقد النبي ﷺ أن من القرآن ما ليس منه حتى ينبهه جبريل عليه السلام وذلك كله ممتنع في حقه ﷺأو يقول ذلك النبي ﷺ من قبل نفسه عمدًا - وذلك كفر - أو سهوا وهو معصوم من هذا كله وقد قررنا بالبراهين والإجماع

عصمته ﷺ من جريان الكفر على قلبه أو لسانه لا عمدًا ولا سهوًا أو أن يتشبه عليه ما يلقيه الملك مما يلقى الشيطان أو يكون للشيطان عليه سبيل أو أن يتقول على الله لا عمدا ولا سهوا ما لم ينزل عليه وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾ (الحاقة: ٤٤)، وقال تعالى ﴿إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ (الإسراء: ٧٥).

١٢ـ قال ابن العربي: اعلموا أنار الله أفئدتكم بنور هداه، ويسر لكم مقصد التوحيد ومغزاه؛ أن الهدى هدى الله، فسبحان من يتفضل به على من يشاء، ويصرفه عمن يشاء، وقد بينا معنى الآية في فصل تنبيه الغبي على مقدار النبي بما نرجو به عند الله الجزاء الأوفى، في مقام الزلفى، ونحن الآن

نجلو بتلك الفصول الغماء، ونرقيكم بها عن حضيض الدهماء، إلى بقاع العلماء في عشر مقامات:

المقام الأول: أن النبي ﷺ إذا أرسل الله إليه الملك بوحيه، فإنه يخلق له العلم به، حتى يتحقق أنه رسول من عنده، ولولا ذلك ما صحت الرسالة، ولا تبينت النبوة، فإذا خلق الله له العلم به تميز عنده من غيره، وثبت اليقين، واستقام سبيل الدين، ولو كان النبي إذا شافهه الملك بالوحي لا يدري أملك هو أم إنسان، أم صورة مخالفة لهذه الأجناس ألقت عليه كلاما، وبلغت إليه قولا لم يصح له أن يقول: إنه من عند الله، ولا ثبت عندنا أنه أمر الله، فهذه سبيل متيقنة، وحالة متحققة، لا بد منها، ولا خلاف في المنقول ولا في المعقول فيها، ولو جاز للشيطان أن يتمثل فيها، أو يتشبه بها ما أمناه على آية، ولا عرفنا منه باطلًا من حقيقة؛ فارتفع بهذا الفصل اللبس، وصح اليقين في النفس.

المقام الثاني: أن الله قد عصم رسوله من الكفر، وأمَّنه من الشرك، واستقر ذلك من دين المسلمين بإجماعهم فيه، وإطباقهم عليه؛ فمن ادعى أنه يجوز عليه أن يكفر بالله، أو يشك فيه طرفة عين، فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه؛ بل لا تجوز عليه المعاصي في الأفعال، فضلًا عن أن ينسب إلى الكفر في الاعتقاد؛ بل هو المنزه عن ذلك فعلًا واعتقادًا.

المقام الثالث: أن الله قد عرف رسوله بنفسه، وبصره بأدلته، وأراه ملكوت سمواته وأرضه، وعرفه سنن من كان قبله من إخوته، فلم يكن يخفى عليه من أمر الله ما نعرفه اليوم، ونحن حثالة أمته؛ ومن خطر له ذلك فهو ممن يمشي مكبا على وجهه، غير عارف بنبيه ولا بربه.

المقام الرابع: تأملوا فتح الله أغلاق النظر عنكم إلى قول الرواة الذين هم بجهلهم أعداء على الإسلام، ممن صرح بعداوته أن النبي ﷺ لما جلس مع قريش تمنى ألا ينزل عليه من الله وحي، فكيف يجوز لمن معه أدنى مُسكة أن يخطر بباله أن النبي ﷺ آثر وصل قومه على وصل ربه، وأراد ألا يقطع أنسه بهم بما ينزل عليه من عند ربه من الوحي الذي كان حياة جسده وقلبه، وأنس وحشته، وغاية أمنيته.

وكان رسول الله ﷺ أجود الناس؛ فإذا جاءه جبريل كان أجود بالخير من الريح المرسلة فيؤثر على هذا مجالسة الأعداء.

المقام الخامس: أن قول الشيطان تلك الغرانقة العلا، وإن شفاعتها ترتجى للنبي ﷺ قبله منه؛ فالتبس عليه الشيطان بالملك، واختلط عليه التوحيد بالكفر، حتى لم يفرق بينهما.

وأنا من أدنى المؤمنين منزلة، وأقلهم معرفة بما وفقني الله له، وآتاني من علمه، لا يخفى علي وعليكم أن هذا كفر لا يجوز وروده من عند الله.

ولو قاله أحد لكم لتبادر الكل إليه قبل التفكير بالإنكار والردع، والتثريب والتشنيع، فضلا عن أن يجهل النبي ﷺ حال القول، ويخفى عليه قوله، ولا يتفطن لصفة الأصنام بأنها الغرانقة العلا، وأن شفاعتها ترتجى.

وقد علم علمًا ضروريًا أنها جمادات لا تسمع ولا تبصر، ولا تنطق ولا تضر، ولا تنفع ولا تنصر ولا تشفع، بهذا كان يأتيه جبريل الصباح والمساء، وعليه انبنى التوحيد، ولا يجوز نسخه من جهة المعقول ولا من جهة المنقول، فكيف يخفى هذا على الرسول؟ ثم لم يكف هذا حتى قالوا: إن جبريل عليه السلام لما عاد إليه بعد ذلك ليعارضه فيما ألقى إليه الوحي كررها عليه جاهلًا بها تعالى الله عن ذلك فحينئذ أنكرها عليه جبريل، وقال له: ما جئتك بهذه.

فحزن النبي ﷺ لذلك، وأنزل عليه: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ ﴾، فيا لله والمتعلمين والعالمين من شيخ فاسد وسوس هامد، لا يعلم أن هذه الآية نافية لما زعموا، مبطلة لما رووا وتقولوا.

وهوالمقام السادس: وذلك أن كاد يكون كذا: معناه قارب ولم يكن؛ فأخبر الله في هذه.

وهو المقام السابع: ولم يفتر، ولو فتنوك وافتريت لاتخذوك خليلا، فلم تفتتن ولا افتريت، ولا عدوك خليلًا. ولولا أن ثبتناك.

وهو المقام الثامن: ﴿ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾؛ فأخبر الله سبحانه وتعالى أنه ثبته، وقرر التوحيد والمعرفة في قلبه، وضرب عليه سرادق العصمة، وآواه في كنف الحرمة. ولو وكله إلى نفسه، ورفع عنه ظل عصمته لحظة لألممت بها راموه، ولكنا أمرنا عليك بالمحافظة، وأشرقنا بنور الهداية فؤادك، فاستبصر وأزح عنك الباطل، وادحر.

فهذه الآية نص في عصمته من كل ما نسب إليه، فكيف يتأولها أحد؟ عدوا عما نسب من الباطل إليه.

المقام التاسع: قوله: فما زال مهمومًا حتى نزلت عليه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ ﴾ (الحج: ٥٢).

فأما غمه وحزنه فبأن تمكن الشيطان مما تمكن، مما يأتي بيانه؛ وكان ﷺ يعز عليه أن ينال الشيطان منه شيئا وإن قل تأثيره.

المقام العاشر: أن هذه الآية نص في غرضنا، دليل على صحة مذهبنا، أصل في براءة النبي ﷺ مما نسب إليه أنه قاله عندنا، وذلك أنه قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾ فأخبر الله تعالى أن من سنته في رسله وسيرته في أنبيائه أنهم إذا قالوا عن الله قولا زاد الشيطان فيه من قبل نفسه، كما يفعل سائر المعاصي، كما تقول: ألقيت في الدار كذا، وألقيت في الكيس كذا.

فهذا نص في أن الشيطان زاد في الذي قاله النبي ﷺ لا أن النبي قاله؛ وذلك أن النبي ﷺ كان إذا قرأ تلا قرآنًا مقطعًا، وسكت في مقاطع الآي سكوتًا محصلًا، وكذلك كان

حديثه مترسلا متأنيا، فيتبع الشيطان تلك السكتات التي بين قوله: ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ وبين قوله تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾، فقال يحاكي صوت النبي ﷺ: وإنهن الغرانقة العلا، وإن شفاعتهن لترتجى.

فأما المشركون، والذين في قلوبهم مرض لقلة البصيرة وفساد السريرة فتلوها عن النبي ﷺ ونسبوها بجهلهم إليه، حتى سجدوا معه اعتقادا أنه معهم، وعلم الذين أوتوا العلم والإيمان أن القرآن حق من عند الله فيؤمنون به، ويرفضون غيره، وتجيب قلوبهم إلى الحق، وتنفر عن الباطل؛ وكل ذلك ابتلاء من الله ومحنة. فأين هذا من قولهم وليس في القرآن إلا غاية البيان بصيانة النبي ﷺ في الإسرار والإعلان عن الشك والكفران.

وقد أوعدنا إليكم توصية أن تجعلوا القرآن إمامكم، وحروفه أمامكم، فلا تحملوا عليها ما ليس فيها، ولا تربطوا فيها ما ليس منها، وما هدي لهذا إلا الطبري بجلالة قدره، وصفاء فكره، وسعة باعه في العلم، وشدة ساعده وذراعه في النظر؛ وكأنه أشار إلى هذا الغرض، وصوب على هذا المرمى فقرطس بعدما ذكر في ذلك روايات كثيرة كلها باطلة، لا أصل لها، ولو شاء ربك لما رواها أحد ولا سطرها، ولكنه فعال لما يريد، عصمنا الله وإياكم بالتوفيق والتسديد، وجعلنا من أهل التوحيد بفضله ورحمته. (١)

١٢ـ قال الألباني رحمه الله بعد ذكر روايات القصة وردها: بيان بطلان القصة متنًا: تلك هي روايات القصة وهي كلها كما رأيت معلة بالإرسال والضعف والجهالة فليس فيها ما يصلح للاحتجاج به لا سيما في مثل هذا الأمر الخطير. ثم إن مما يؤكد ضعفها بل بطلانها ما فيها من الاختلاف والنكارة مما لا يليق بمقام النبوة والرسالة، وإليك البيان:

أولًا: في الروايات كلها أو جلها أن الشيطان تكلم على لسان النبي ﷺ بتلك الجملة الباطلة التي تمدح أصنام المشركين " تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى.

ثانيًا: وفي بعضها: " والمؤمنون مصدقون نبيهم فيما جاء به عن ربهم ولا يتهمونه على خطأ وهم " ففي هذا أن المؤمنين سمعوا ذلك منه ﷺ ولم يشعروا بأنه من إلقاء الشيطان

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي سورة الحج الآية الرابعة عشرة.

بل اعتقدوا أنه من وحي الرحمن بينما تقول الرواية السادسة: " ولم يكن المسلمون سمعوا الذي ألقى الشيطان " فهذه خلاف تلك

ثالثًا: وفي بعضها كالرواية: أن النبي ﷺ بقي مدة لا يدري أن ذلك من الشيطان حتى قال له جبريل: " معاذ الله لم آتك بهذا هذا من الشيطان "

رابعًا: وفي بعضها أنه ﷺ سها حتى قال ذلك فلو كان كذلك أفلا ينتبه من سهوه؟

خامسًا: وفي بعضها: أن ذلك ألقي عليه وهو يصلي

سادسًا: وفي بعضها أنه ﷺ تمنى أن لا ينزل عليه شيء من الوحي يعيب آلهة المشركين لئلا ينفروا عنه.

سابعًا: وفي الرواية (٤ و٦ و٩) أنه ﷺ قال عندما أنكر جبريل ذلك عليه " افتريت على الله وقلت على الله ما لم يقل وشركني الشيطان في أمر الله "

فهذه طامات يجب تنزيه الرسول منها لا سيما هذا الأخير منها فإنه لوكان صحيحا لصدق فيه ﷺ - وحاشاه - قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦)﴾ (الحاقة٤٦: ٤٤). فثبت مما تقدم بطلان هذه القصة سندا ومتنا. والحمد لله على توفيقه وهدايته. [١]

١٣ـ قال ابن حزم رحمه الله: وأما الحديث الذي فيه وأنهن الغرانيق العلى وأن شفاعتها لترتجى فكذب بحت موضوع لأنه لم يصح قط من طريق النقل ولا معنى للاشتغال به إذ وضع الكذب لا يعجز عنه أحد. [٢]

وهذه الاضطرابات في متنها تدل على ضعفها.

الوجه السادس: الاضطراب في متن الرواية

كما أشار إليه القاضي عياض في كلامه السابق، وكذا الألباني وقد سبق النقل عنهما، وإذا ثبت ضعف الرواية إسنادًا وردها من جهة المتن لعلة الاضطراب فلا حاجة للتأويل.

---

(١) نصب المجانيق (٣٥، ٣٦)

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٤/ ١٨)

الوجه السابع: ولكن أهل العلم أجابوا عنها على فرض صحتها وقد أعاذنا الله من صحتها وهذه أجوبتهم عنها على فرض الصحة

الأول: أن هذه الشائعة التي أشيعت بين المشركين في أول الإسلام، إنما هي من اختلاقات المستهزئين من سفهاء الأحلام بمكة مثل ابن الزبعرى، وأنهم عمدوا إلى آية ذُكرت فيها اللات والعُزّى ومناةَ فركّبوا عليها كلمات أخرى لإلقاء الفتنة في الناس وإنما خَصُّوا سورة النجم بهذه المرجَفة لأنهم حَضروا قراءتها في المسجد الحرام وتعلقت بأذهانهم وتطلبًا لإيجاد المعذرة لهم بين قومهم على سجودهم فيها الذي جعله الله معجزة ﷺ.[1]

الثاني: أنه ﷺ سكت عند قوله ﴿ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ ﴾ فتكلم الشيطان بهذه الكلمات متصلًا بقراءة النبي ﷺ فوقع عند بعضهم أنه ﷺ هو الذي تكلم بها، فيكون هذا إلقاء في قراءة النبي ﷺ وكان الشيطان يتكلم في زمن النبي ﷺ ويسمع كلامه، فقد رُوي أنه نادى يوم أحد ألا إن محمدًا قد قتل، وقال يوم بدر: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ (الأنفال: ٤٨).[2]

وقال عياض: والذى يظهر ويترجح في تأويله عندالمحققين على تسليمه أن النبي ﷺ كان كما أمره ربه يرتل القرآن ترتيلا، ويفصل الآى تفصيلا في قراءته كما رواه الثقات عنه فيمكن ترصد الشيطان لتلك السكتات، ودسه فيها ما اختلقه من تلك الكلمات محاكيا نغمة النبي ﷺ بحيث يسمعه من دنا إليه من الكفار فظنوها من قول النبي ﷺ، وأشاعوها، ولم يقدح ذلك عند المسلمين بحفظ السورة قبل ذلك على ما أنزلها الله، وتحققهم من حال النبي ﷺ في ذم الأوثان، وعيبها عرف منه وقد حكى موسى بن عقبة في مغازيه نحو هذا، وقال إن المسلمين لم يسمعوها، وإنما ألقى الشيطان ذلك في أسماع المشركين، وقلوبهم، ويكون ما روى من حزن النبي ﷺ لهذه الإشاعة، والشبهة، وسبب هذه الفتنة وقد قال الله تعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ الآية فمعنى تمنى:

(١) التحرير والتنوير (٢٧٩٧).

(٢) تفسير النسفي ٣/ ١٠٩.

تلا، قال الله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ أي تلاوة وقوله (﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي يذهبه ويزيل اللبس به ويحكم آياته. (١)

الثالث: أن يكون النبي ﷺ قاله تقريرًا وتوبيخًا للكفار كقول إبراهيم عليه السلام هذا ربى على أحد التأويلات وكقوله بل فعله كبيرهم هذا بعد السكت وبيان الفصل بين الكلامين ثم رجع إلى تلاوته وهذا يمكن مع بيان الفصل وقرينة تدل على المراد وأنه ليس من المتلو. (٢)

الرابع: أن يكون المراد بالغرانقة العلى الملائكة

قال القاضي عياض: وبهذا فسر الكلبي الغرانقة أنها الملائكة وذلك أن الكفار كانوا يعتقدون الأوثان والملائكة بنات الله كما حكى الله عنهم، ورد عليهم في هذه السورة بقوله ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾ فأنكر الله كل هذا من قولهم ورجاء الشفاعة من الملائكة صحيح فلما تأوله المشركون على أن المراد بهذا الذكر آلهتهم وليس عليهم الشيطان ذلك وزينه في قلوبهم، وألقاه إليهم نسخ الله ما ألقى الشيطان، وأحكم آياته ورفع تلاوة تلك اللفظتين اللتين، وجد الشيطان بهما سبيلا للإلباس كما نسخ كثير من القرآن، ورفعت تلاوته، وكان في إنزال الله تعالى لذلك حكمة وفى نسخة حكمة ليضل به من يشاء، ويهدى من يشاء، وما يضل به إلا الفاسقين، و﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. (٣)

الخامس: وقيل إن النبي ﷺ لما قرأ هذه السورة وبلغ ذكرت اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى خاف الكفار أن يأتي بشيء من ذمها فسبقوا إلى مدحها بتلك الكلمتين ليخلطوا في تلاوة النبي ﷺ وبشنعوا عليه على عادتهم وقولهم ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ونسب هذا الفعل إلى الشيطان لحمله لهم عليه وأشاعوا ذلك وأذاعوه وأن النبي ﷺ

---

(١) الشفاء (٢/ ١٣٠)

(٢) نفس المصدر.

(٣) الشفاء (٢/ ١٣١).

قاله فحزن لذلك من كذبهم، وافترائهم عليه فسلاه الله تعالى بقوله ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ ﴾ الآية، وبين للناس الحق من ذلك من الباطل، وحفظ القرآن، وأحكم آياته ودفع ما لبس به العدو كما ضمنه تعالى من قوله ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾.(١)

السادس: أن الذي قال ذلك رجل منهم قلد صوته ﷺ عند التلاوة فظنوها من كلامه ﷺ

وكان ذلك بحضرة الجمع الكثير من قريش في المسجد الحرام فقال سائر الكفار الذين كانوا بالبعد منه إن محمدا قد مدح آلهتنا وظنوا أن ذلك كان في تلاوته فأبطل الله ذلك من قولهم وبين أن النبي ﷺلم يتله وإنما تلاه بعض المشركين وسمى الذي القى ذلك في حال تلاوة النبي ﷺشيطانا لأنه كان من شياطين الإنس كما قال تعالى شياطين الإنس والجن والشيطان اسم لكل متمردعات من الجن والإنس.(٢)

السابع: أن يكون صدور مثل هذا وإتباعه بنسخه مع بيان الكل من النبي ﷺ دليل على صدقه وأمانته لأنه لم يكتم مثل هذا.

قال ابن تيمية رحمه الله: ومن جوز ذلك قال إذا حصل البيان ونسخ ما ألقى الشيطان لم يكن في ذلك محذور وكان ذلك دليلًا على صدقه وأمانته وديانته وأنه غير متبع هواه ولا مصر على غير الحق كفعل طالب الرياسة المصر على خطئه وإذا كان نسخ ما جزم بأن الله أنزله لا محذور فيه فنسخ مثل هذا أولى أن لا يكون فيه محذور(٣)، وعلى هذا فالعصمة المتفق عليها أنه لا يقر على خطأ في التبليغ بالإجماع.(٤)

ومما تقدم يتبين أن روايات قصة الغرانيق ليست صحيحة وأنه ليس للشيطان سلطان أن يلقي على لسان النبي ﷺ شيئا من الباطل فيتلوه أو يتكلم به، وربما ألقى الشيطان قولا أثناء تلاوة النبيﷺيتكلم به الشيطان ويسمعه الحاضرون، أو يوسوس الشيطان وساوس

(١) الشفاء (٢/ ١٣٢).

(٢) أحكام القرآن للجصاص (٥/ ٨٤).

(٣) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٢/ ٣٦).

(٤) منهاج السنة (٢/ ٤١٠)، ومجموع الفتاوى (١٥/ ١٩١).

يلقيها في نفوس الكفار ومرضى القلوب من المنافقين فيحسبها أولئك من الوحي وليست منه فيبطل الله ذلك القول الشيطاني ويزيل الشبه ويحكم آياته.

فإن قيل إذا كان الأمر على ما وصفت فما هو معنى الآية؟ وما هو سبب النزول؟ فالجواب من كلام العلما ء ما يلي:

١ـ**قال الشوكاني**: وإذا تقرّر لك بطلان ذلك عرفت أن معنى ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾: قرأ وتلا، كما قدّمنا من حكاية الواحدي لذلك عن المفسرين. وكذا قال البغوي: إن أكثر المفسرين قالوا معنى ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾: تلا، وقرأ كتاب الله، ومعنى ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ أي في تلاوته وقراءته. قال ابن جرير: هذا القول أشبه بتأويل الكلام، ويؤيد هذا ما تقدّم في تفسير قوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾ (البقرة: ٧٨). وقيل: معنى ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾: حدّث، ومعنى ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ في حديثه، روي هذا عن ابن عباس، وقيل: معنى ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾: قال. فحاصل معنى الآية: أن الشيطان أوقع في مسامع المشركين ذلك من دون أن يتكلم به رسول الله ﷺ، ولا جرى على لسانه، فتكون هذه الآية تسلية لرسول الله ﷺ، أي لا يهولنك ذلك ولا يحزنك، فقد أصاب مثل هذا من قبلك من المرسلين، والأنبياء، وعلى تقدير أن معنى ﴿تَمَنَّىٰ﴾: حدّث نفسه كما حكاه الفرّاء والكسائي فإنهما قالا: تمنى إذا حدّث نفسه، فالمعنى: أنه إذا حدّث نفسه بشيء تكلم به الشيطان وألقاه في مسامع الناس من دون أن يتكلم به رسول الله ﷺ ولا جرى على لسانه. قال ابن عطية: لا خلاف أن إلقاء الشيطان إنما هو لألفاظ مسموعة وقعت بها الفتنة.[١]

٢ـ **وأوضح من هذا ما قاله الطاهر بن عاشور رحمه الله تعالى**: والتمنّي: كلمة مشهورة، وحقيقتها: طلب الشيء العسير حصولُه. والأمنية: الشيء المتمنّى. وإنما يتمنى الرسل والأنبياء أن يكون قومهم كلُّهم صالحين مهتدين، والاستثناءُ من عمومِ أحوال تابعة لعموم أصحابها وهو ﴿مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ﴾، أي ما أرسلناهم في حال من الأحوال

(١) فتح القدير ٣/ ٦٦٠.

إلاّ في حالِ إذا تمنّى أحدُهم أمنية ألقى الشيطان فيها الخ، أي في حال حصول الإلقاء عند حصول التمني لأنّ أماني الأنبياء خيرٌ محض والشيطان دأبُه الإفساد وتعطيل الخير.

والقصر المستفاد من النفي والاستثناء قصر موصوف على صفة، وهو قصر إضافي، أي دون أن نرسل أحدًا منهم في حال الخلو من إلقاء الشيطان، ومكره.

والإلقاء حقيقته: رمي الشيء من اليد. واستعير هنا للوسوسة، وتسويل الفساد تشبيهًا للتسويل بإلقاء شيء من اليد بين الناس، ومنه قوله تعالى: ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ (طه: ٨٧) وقوله: ﴿فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ﴾ (النحل: ٨٦) وكقوله تعالى: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا﴾ (طه: ٩٦) على ما حققناه فيما مضى.

ومفعول ﴿أَلْقَى﴾ محذوف دل عليه المقام لأنّ الشيطان إنما يلقي الشر والفساد، فإسناد التمني إلى الأنبياء دل على أنه تمنّي الهدى والصلاح، وإسناد الإلقاء إلى الشيطان دلّ على أنه إلقاء الضلال، والفساد. فالتقدير: أدخل الشيطان في نفوس الأقوام ضلالات تفسد ما قاله الأنبياء من الإرشاد.

ومعنى إلقاء الشيطان في أمنية النبي والرسول إلقاء ما يضادُّها، كمن يمكر فيلقى السمّ في الدّسم، فإلقاء الشيطان بوسوسته: أن يأمر الناس بالتكذيب، والعصيان، ويلقي في قلوب أئمة الكفر مطاعن يبثونها في قومهم، ويروّج الشبهات بإلقاء الشكوك التي تصرف نظر العقل عن تذكر البُرهان، والله تعالى يُعيد الإرشاد ويكرّر الهدي على لسان النبي، ويفضح وساوس الشيطان وسوءَ فعله بالبيان الواضح كقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ (الأعراف: ٢٧) وقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ (فاطر: ٦). فالله بهديهِ، وبيانه ينسخ ما يُلقِي الشيطان، أي يزيل الشبهات التي يلقيها الشيطان ببيان الله الواضح، ويزيد آيات دعوة رسله بيانًا، وذلك هو إحكام آياته، أي تحقيقها، وتثبيت مدلولها، وتوضيحها بما لا شبهة بعده إلا لمن رِين على قلبه، وقد فسر كثيرٌ من المفسرين ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾ بمعنى قَرَأ، وتبعهم أصحاب كتب اللغة وذكروا بيتًا نسبوه إلى حسّان

بن ثابت وذكروا قصة بروايات ضعيفة سنذكرها. وأيًا ما كان فالقول فيه هو، والقول في تفسير التمني بالمعنى المشهور سواءٌ، أي إذا قرأ على الناس ما أنزل إليه ليهتدوا به ألقَى الشيطان في أمنيته، أي في قراءته، أي وسوس لهم في نفوسهم ما يناقضه وينافيه بوسوسته للناس التكذيب والإعراض عن التدبر. فشبه تسويل الشيطان بوسوسته للكافرين عدمَ امتثال النبي بإلقاء شيء في شيء لخلطه وإفساده.

وعندي في صحة إطلاق لفظ الأمنية على القراءة شك عظيم، فإنه وإن كان قد ورد تمنّى بمعنى قرأ في بيت نسب إلى حسّان بن ثابت إن صحت رواية البيت عن حسان على اختلاف في مصراعه الأخير:

تمنى كتاب الله أولَ ليله   تمنيَ داوود الزبورَ على مَهل

فلا أظن أن القراءة يقال لها أمنية.

وجه آخر في معنى الآية: ويجوز أن يكون المعنى أن النبي إذا تمنّى هدْي قومه أو حرَص على ذلك فلقي منهم العناد، وتمنّى حصول هداهم بكل وسيلة ألقى الشيطان في نفس النبي خاطر اليأس من هداهم عسى أن يُقْصر النبيءُ من حرصه أو أن يضجره، وهي خواطر تلوح في النفس ولكن العصمة تعترضها فلا يلبث ذلك الخاطر أن ينقشع ويرسخ في نفس الرسول ما كلّف به من الدأب على الدعوة والحرص على الرشد. فيكون معنى الآية على هذا الوجه ملوّحًا إلى قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾ (الأنعام: ٣٥).

و﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ للترتيب الرتبي، لأنّ إحكام الآيات وتقريرها أهمّ من نَسخ ما يُلقي الشيطان إذ بالإحكام يتضح الهُدى ويزدادُ ما يلقيه الشيطان نسخًا. وجملة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ معترضة.

ومعنى هذه الآية: أن الأنبياء والرسل يرجون اهتداء قومهم ما استطاعوا فيبلغونهم ما ينزل إليهم من الله ويعظونهم ويدعونهم بالحجة والمجادلة الحسنة حتى يظنوا أن أمنيتهم

قد نجحت ويقترب القوم من الإيمان، كما حكى الله عن المشركين قولهم: ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ (الفرقان: ٤٢) فيأتي الشيطان فلا يزال يوسوس في نفوس الكفار فينكصون على أعقابهم، وتلك الوساوس ضروب شتى من تذكيرهم بحب آلهتهم، ومن تخويفهم بسوء عاقبة نبذ دينهم، ونحو ذلك من ضروب الضلالات التي حُكيت عنهم في تفاصيل القرآن، فيتمسك أهل الضلالة بدينهم ويصدّون عن دعوة رسلهم، وذلك هو الصبر الذي في قوله: ﴿لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ (الفرقان: ٤٢) وقوله: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ (ص: ٦). وكلما أفسد الشيطان دعوة الرّسل أمرَ الله رسلَه فعاودوا الإرشاد وكرروه وهو سبب تكرر مواعظ متماثلة في القرآن، فبتلك المعاودة يُنسخ ما ألقاه الشيطان وتُثبت الآيات السالفة. فالنسخ: الإزالة، والإحكام: التثبيت. وفي كلتا الجملتين حذف مضاف، أي ينسخ آثارَ ما يُلقي الشيطان، ويُحكم آثارَ آياته. [1]

وهناك وجه ثالث أورده صاحب الظلال فقال: إن الرسل عندما يكلفون حمل الرسالة إلى الناس، يكون أحب شيء إلى نفوسهم أن يجتمع الناس على الدعوة، وأن يدركوا الخير الذي جاءوهم به من عند الله فيتبعوه. . ولكن العقبات في طريق الدعوات كثيرة. والرسل بشر محدودو الأجل. وهم يحسون هذا ويعلمونه. فيتمنون لو يجذبون الناس إلى دعوتهم بأسرع طريق. . يودون مثلًا لو هادنوا الناس فيما يعز على الناس أن يتركوه من عادات، وتقاليد، وموروثات، فيسكتوا عنها مؤقتًا لعل الناس أن يفيئوا إلى الهدى، فإذ دخلوا فيه أمكن صرفهم عن تلك الموروثات العزيزة! ، ويودون مثلًا لو جاروهم في شيء يسير من رغبات نفوسهم رجاء استدراجهم إلى العقيدة، على أمل أن تتم فيها بعد تربيتهم الصحيحة التي تطرد هذه الرغبات المألوفة! ، ويودون. من مثل هذه الأماني، والرغبات البشرية المتعلقة بنشر الدعوة وانتصارها. . ذلك على حين يريد الله أن تمضي الدعوة على أصولها الكاملة، وفق موازينها الدقيقة، ثم من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. فالكسب

---

(١) التحرير والتنوير سورة الحج آية (٥٢).

الحقيقي للدعوة في التقدير الإلهي الكامل غير المشوب بضعف البشر، وتقديرهم هو أن تمضي على تلك الأصول وفق تلك الموازين، ولو خسرت الأشخاص في أول الطريق. فالاستقامة الدقيقة الصارمة على أصول الدعوة ومقاييسها كفيل أن يثني هؤلاء الأشخاص أو من هم خير منهم إلى الدعوة في نهاية المطاف، وتبقى مثل الدعوة سليمة لا تخدش، مستقيمة لا عوج فيها، ولا انحناء.

ويجد الشيطان في تلك الرغبات البشرية، وفي بعض ما يترجم عنها من تصرفات أو كلمات، فرصة للكيد للدعوة، وتحويلها عن قواعدها، وإلقاء الشبهات حولها في النفوس. . ولكن الله يحول دون كيد الشيطان، ويبين الحكم الفاصل فيما وقع من تصرفات أو كلمات، ويكلف الرسل أن يكشفوا للناس عن الحكم الفاصل، وعما يكون قد وقع منهم من خطأ في اجتهادهم للدعوة. كما حدث في بعض تصرفات الرسول ﷺ وفي بعض اتجاهاته، مما بين الله فيه بيانًا في القرآن.

بذلك يبطل الله كيد الشيطان، ويحكم الله آياته، فلا تبقى هنالك شبهة في الوجه الصواب والله عليم حكيم. اهـ[1]

* * * *

---

(١) الظلال ٥/ ٢٠٧.

٢ـ شبهة: ادعاؤهم أن الحج شعائره وثنية.

نص الشبهة:

يقولون: إن أعمال الحج التي يفعلها المسلمون هي من الطقوس الوثنية العربية القديمة التي أقرها الإسلام مراعاة لحال العرب، وما هو إلا تعبير عن الحنين إلى أسطورة العود الأبدي، وإعادة إحياء لتلك التجربة الجنسية الدينية المقدسة التي تمت بين آدم وحواء، والحج العربي العاري في الجاهلية يؤكد المشاركة في الجنس بين الألوهية والبشر، وليس من الضروري أن يقام بطقوسه المعروفة إذ يغني عنه الحج العقلي أو الحج الروحي، وهكذا تُمَيَّع كل الشعائر الإسلامية وتعتبر طقوسًا وثنية تحدرت إلى القرآن من البيئات والأمم السابقة والجاهلية.

١- فما هي الحكمة في الاجتماع على تقبيل الحجر الأسود إذا عرفنا أنه حجر لا يضر ولا ينفع ولا يخفى ما في ذلك من المظاهر الوثنية؟

٢- ما الحكمة في رمي الجمار ؟

٣- ما الحكمة في الهرولة بين الصفا والمروة؟

٤- الوقوف في سهل عرفات من أهم مناسك الحج، فالحج بدون الوقوف باطل في الإسلام، وإنما يفسّر هذا الأمر بأنه أثر لفكرة جاهلية، وهناك علاقة بين هذا الوقوف وبين إقامة بني إسرائيل على جبل سينا. فهؤلاء يعدّون أنفسهم لهذه الإقامة بالامتناع عن النساء وبغسل ثيابهم، وبذلك يقفون أمام الرب، وعلى هذا النحو لا يقرب المسلمون النساء ويرتدون ثياب الإحرام ويقفون أمام الخالق في سفح جبل مقدّس.

٥- ما المقصد في ذبح الذبائح على كثرتها، وفي ذلك ما فيه من النتائج الوخيمة التي تصدر من تعفن اللحوم؛ إذ تنتشر الأوبئة منها؟.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: الإسلام جاء ليُحافظ على جناب التوحيد، ويقضي على الشرك خاصةً في الحج.

الوجه الثاني: أن الله ﷻ هو الذي أمر بهذه الأعمال فكيف تكون وثنية؟! !

الوجه الثالث: لا ينبغي دائمًا البحث عن الحكمة من وراء العبادة بل الأصل السمع والطاعة.

الوجه الرابع: توضيح حقيقة العبادة وماهيتها.

الوجه الخامس: الوثنية ليست أمرًا أصليًا عند العرب، بل هي أمر طارئ على العرب والأصل ملة إبراهيم.

الوجه السادس: أعمال الحج عند الأنبياء عليهم السلام.

الوجه السابع: مخالفة النبي ﷺ لأمور الجاهلية في بعض أعمال الحج يدل على أن أعمال الحج محض عبادة.

الوجه الثامن: النبي ﷺ يلغي أمور الجاهلية في حجته ﷺ.

الوجه التاسع: التماس الحكمة من بعض أعمال الحج.

الوجه العاشر: مقارنة بين الحج في اليهودية والنصرانية والإسلام.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: الإسلام جاء ليُحافظ على جناب التوحيد، ويقضي على الشرك خاصةً في الحج.

خلق الله تعالى الثقلين وأمرهم بعبادته، وجعل للعبادة شرطًا لا تقبل بدونه، وهو الإخلاص والتوحيد، فالإسلام بشعائره وفرائضه كلها مرتبط غاية الارتباط بكلمة التوحيد. ومن تلك الشعائر شعيرة الحج، والتي هي من أعظم الشعائر التي تقوي وتحيي في قلب العبد توحيد المعبود سبحانه وتعالى؛ لكثرة الأعمال التي توقف الإنسان مع ربه موحدًا متفكرًا تائبًا من أي تقصير أو زلل.

ويدل على ذلك:

١- قال تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ (البقرة: ١٩٦).

فيها الأمر بإخلاصها لله تعالى، وهذا يدل على أنها ليست من أعمال الوثنية.

٢- قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾﴾ (النمل: ٩١)، وقال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾﴾ (قريش: ٣).

فبين الله ﷻ أن العبادة لرب البيت وهو الله ﷻ وليست للبيت.

والمعنى: إنها أمرت أن أخص الله بالعبادة وحده لا شريك له. [١]

وإضافة الربوبية إلى البلدة على سبيل التشريف لها والاعتناء بها. [٢]

والإشارة إلى البيت في هذا النظم تفيد التعظيم فإنه سبحانه تارة أضاف العبد إلى نفسه فيقول: (يا عبادي) (العنكبوت: ٥٦) وتارة يضيف نفسه إلى العبد فيقول: (وإلهكم) (البقرة: ١٦٣)، كذا في البيت (تارة) يضيف نفسه إلى البيت وهو قوله: ﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾، وتارة يضيف البيت إلى نفسه فيقول: ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ (البقرة: ١٢٥). [٣]

٣- عن قتيلة امرأة من جهينة: (أن يهوديًا أتى النبي ﷺ فقال: إنكم تشركون: تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة. فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة، وأن يقولوا: ما شاء الله ثم شئت). [٤]

فيه النهي عن الحلف بالكعبة، مع أنها بيت الله التي حجها وقصدها بالحج والعمرة.

وهذا يبين أن النهي عن الشرك بالله عام لا يصلح منه شيء لا لملك مقرب، ولا لنبي مرسل، ولا للكعبة التي هي بيت الله في أرضه.

فعَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ دَخَلَ النبي ﷺ مَكَّةَ وَحَوْلَ الْكَعْبَةِ ثَلاَثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ نُصُبًا فَجَعَلَ يَطْعُنُهَا بِعُودٍ كَانَ بِيَدِهِ وَيَقُولُ: (**جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا**) (**جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ**). [٥]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما- أَنَّ النبي ﷺ لَمَّا رَأَى الصُّوَرَ فِي الْبَيْتِ لَمْ يَدْخُلْ، حَتَّى أَمَرَ بِهَا فَمُحِيَتْ، وَرَأَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ - عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ - بِأَيْدِيهِمَا الأَزْلاَمُ فَقَالَ « قَاتَلَهُمُ الله، وَالله إِنِ اسْتَقْسَمَا بِالأَزْلاَمِ قَطُّ ». [١]

---

(١) فتح القدير ٤/ ٢٢٣.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٥٠٣.

(٣) تفسير الرازي ٣٢/ ١٠٨.

(٤) صحيح. أخرجه النسائي في سننه ٧/ ٦ من طريق مسعر، عن معبد بن خالد، عن عبد الله بن يسار، عن قتيلة به، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٣٦).

(٥) أخرجه البخاري (٢٤٧٨)، مسلم (١٧٨١).

الوجه الثاني: أن الله ﷻ هو الذي أمر بهذه الأعمال فكيف تكون وثنية؟.

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ (الحج: ٢٩)، ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ (البقرة: ١٢٥)، وقال أيضًا: ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ١٥٨)، إلى غير ذلك من الآيات التي تبين أن أعمال الحج من عند الله وليست من أعمال الوثنية.

والجاهل الذي لا يعرف حكم الإسلام ولا يعرف كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، قد ينطلي عليه مثل هذا الكلام - أن أعمال الحج من الوثنية -لأن القائل نفسه يعلم أنه باطل، وأن مقصوده به التشويه، وكذلك يقصد به أن ينفر عن الإسلام من لا يعرفه، وإلا فإن أهل الإسلام يعلمون أن الكعبة مبنية من الحجر وغيره ، وأنها لا تضر ولا تنفع أحدًا، وإنما يمتثلون أمر ربهم حيث أمرهم بقصدها والطواف عليها وبالتوجه إليها بالصلاة والدعاء.

فهذا مثلما ذكر الله جل وعلا أنه أمر الملائكة بأن يسجدوا لآدم فسجدوا طاعة لله وليس عبادة لآدم، فكذلك المسلمون يذهبون إلى الكعبة ويطوفون بها طاعة لله جل وعلا، ويعبدون رب الكعبة وليست الكعبة هي المعبودة، وإنما المعبود ربها الذي أمر بتعظيمها وبقصدها وبالطواف عليها.

أما التمسح بالكعبة فليس مشروعًا بل لا يجوز وهو من المحرمات، وإذا وقع فإنما يقع من الجهلة الذين لا يعرفون الحكمة، وإنما الذي يمسح هو الحجر الأسود والركن اليماني فقط، وأما غير ذلك فلا يجوز التمسح كما يقول هؤلاء، وإنما يفعلون ما أمروا تعبدًا لله جل وعلا وتقربًا.

وأما الوقوف بعرفات فهو عبادة أمروا بها تعبدًا لله، وكذلك المبيت بمزدلفة، ورمي الجمار وسائر مواقف الحج والمشاعر، كلها عبودية للقلب وللبدن؛ فالقلب أولًا يخضع لله جل وعلا ممتثلًا أمره وليس لهذه المظاهر التي يزعم الأعداء أنها من بقايا الوثنية، إذ إنهم إما جاهلون بالحكم وبالواقع، أو أنهم عرفوا الحكم فكذبوا على الله وعلى رسوله ﷺ وعلى المسلمين، فعليهم جريمة الكذب وجريمة معاداة الحق.[٢]

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥٢).

(٢) شرح فتح المجيد شرح كتاب التوحيد للغنيمان.

الوجه الثالث: لا ينبغي دائمًا البحث عن الحكمة من وراء العبادة بل الأصل السمع والطاعة.

لا يجب على الإنسان أن يعلم الحكمة في جميع ما شرعه الله ﷻ ورسوله ﷺ، فإن ذلك ليس في قوى البشر، ولا في وسعهم وطاقتهم، وإنما يجب هذا على الأعيان الذين أهَّلهم الله لمعرفة ما أنزله الله، وأطلعهم عليه، وأما من كان عاجزًا عن ذلك، وليس في طاقته ووسعه معرفة ذلك والاطلاع عليه، فالواجب عليه أن يؤمن بما جاء به الرسول ﷺ إيمانًا عامًا مجملًا، وأن يعمل بما أمر الله به رسوله ﷺ، سواء عرف الحكمة في ذلك أو لم يعرفها.

فإذا وعى الإنسان ذلك كان نورًا بين يديه يبصر به حكم سائر مناسك الحج والأمور التي تَعَبَّدَنا الله تعالى بها لتغذية إيماننا بالطاعة والامتثال سواء عرفنا سبب كل عمل منها وحكمته أم لا، وأنها إحياء لدين إبراهيم أبي الأنبياء وإمام الموحدين المخلصين، وتذكير بنشأة الإسلام ومعاهده الأولى، وإن لاستحضار ذلك لتأثيرًا عظيمًا في تغذية الإيمان وتقوية الشعور به، والثقة بأنه دين الله الخالص الذي لا يقبل غيره، فإن جهلنا سبب شرع بعض تلك الأعمال أو حكمتها لا يضرنا ذلك، ولا يثنينا عن إقامتها كما إذا ثبت لنا نفع دواء من الأدوية مركب من عدة أجزاء، وجهلنا سبب كون بعضها أكثر من بعض، فإن ذلك لا يثنينا عن استعمال ذلك الدواء والانتفاع به، ولا يدعونا إلى التوقف وترك استعماله إلى أن نتعلم الطب ونعرف حكمة أوزان تلك الأجزاء ومقاديرها.

قال ابن القيم: إن الحكمة لا يجب أن تكون بأسرها معلومة للبشر، ولا أكثرها بل لا نسبة لما علموه إلى ما جهلوه فيها، لو قيست علوم الخلائق كلهم بوجوه حكمة الله تعالى في خلقه وأمره إلى ما خفي عنهم منها كانت كنقرة عصفور في البحر، وحسب الفطن اللبيب أن يستدل بما عرف منها على ما لم يعرف، ويعلم الحكمة فيما جهله منها مثلها فيما علمه؛ بل أعظم وأدق، وما مثل هؤلاء الحمقى النوكى إلا كمثل رجل لا علم له بدقائق الصنائع والعلوم من البناء والهندسة والطب، بل ولا الحياكة والخياطة والنجارة إذا رام الاعتراض بعقله الفاسد على أربابها في شيء من آلاتهم وصنائعهم وترتيب صناعتهم فخفيت عليه فجعل كل ما خفي عليه منها شيء قال هذا لا فائدة فيه، وأي حكمة تقتضيه هذا مع أن أرباب الصنائع بشر مثله يمكنه أن يشاركهم في صنائعهم، ويفوقهم فيها. فما الظن بمن

بهرت حكمته العقول الذي لا يشاركه مشارك في حكمته، كما لا يشاركه في خلقه، فلا شريك له بوجه، فمن ظن أن يكتال حكمته بمكيال عقله أو يجعل عقله عيارًا عليها فما أدركه أقر به وما لم يدركه نفاه فهو من أجهل الجاهلين ولله في كل ما خفي على الناس وجه الحكمة فيه حكم عديدة لا تدفع ولا تنكر.(١)

فعلّة الأسباب الإيمانية ليست في أن نفهمها أو نعرف الحكمة منها، ولكن علة الأشياء في أن الله سبحانه وتعالى قد أمرنا بها.

فالواجب على المسلم أن يمتثل ما أمر الله ورسوله مما شرعه في أعمال الحج وأن لا يدع ما أمر الله به ورسوله ﷺ لعدم علمه بالحكمة في ذلك لأن ترك العمل بذلك- إلا بعد العلم بالحكمة فيه- من شأن أهل البدع المارقين المتعنتين بالأسئلة والتشكيكات والمعارضة الباطلة لما شرعه الله ورسوله ﷺ - كما نبه على ذلك أهل العلم.

الوجه الرابع: توضيح حقيقة العبادة وماهيتها.

إذا كان هؤلاء يعدّون تقبيل الحجر الأسود والسجود تجاه الكعبة والطواف والسعي بين الصفا والمروة عبادة لهم من دون الله، فلابد إذًا أن نبدأ ببيان حقيقة العبادة وماهيّتها.

إن من يعبد شيئًا مهما كانت طبيعته فإنه يعتقد أن له سلطة غيبية ينعكس تأثيرها على الواقع، وبالتالي فإن العابد يتقرّب إلى معبوده رجاءً للنفع أو دفعًا للضرّ، وهو في الوقت ذاته يعتقد أن التقصير في حق هذا المعبود أو ترك عبادته يترتّب عليه حصول الضرر ووقوعه كنوع من العقاب، ومثل هذا مُشاهدٌ حتى في واقع الناس اليوم من أتباع الديانات الوثنية المنتشرة في أرجاء الأرض، إذ يلاحظ في أتباع تلك الديانات خضوعًا لمعبوداتهم رغبةً في جلب المنافع المختلفة، أو دفع المضارّ من القحط والجفاف ونحوه، مع تعلّق قلوبهم بهذا المعبود خشية منه ورهبة من سلطانه.

وهذه السلطة الغيبية قد تكون في نظرهم سلطة ذاتية، بمعنى أن العابد يرى استقلال معبوده بالنفع والضرّ، وهذا كالذين يعبدون الشمس والكواكب لاعتقادهم بتأثيرها على نواميس الكون وتسييرها للخلائق، أو أن تكون السلطة غير ذاتية بأن يعتقد أن معبوده

---

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ٢٧٢.

يشكّل واسطة بينه وبين قوّة علوية لها قدرة ذاتية مستقلة في النفع والضرّ، فيؤدي ذلك إلى عبادته رجاء شفاعته عند من يقدر على النفع والضرّ، كما هو الحال مع كفار قريش الذين كانوا يعتقدون أن الأصنام والأوثان التي يعبدونها تقربهم إلى الله جلّ وعلا، وتشفع لهم عنده، يقول الله ﷻ مبينا ذلك: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ (الزمر: ٣)، وقال تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٨﴾ (يونس: ١٨).

وبناءً على ما سبق، فإن المسلمين لم يعبدوا الحجر الأسود ولا غيره، لأنهم لا يرون أن أحدًا يملك الضرّ والنفع غير الله تعالى، فهم ينفون وجود أية سلطة ذاتية في المخلوقات مهما كانت، كما أنهم يرون أن علاقة المخلوق بالخالق علاقة مباشرة ليس فيها وسيط، وأن العباد لا يحتاجون إلى شفيعٌ يقصدونه بالتقرّب دون الله ﷻ، بل إنهم يعدّون ذلك من الشرك الأكبر المخرج من ملة الإسلام، لأنهم يرون أن العبادات لا يجوز صرفها لأي مخلوق، سواء أكان ملكًا مقرّبًا أم نبيًّا مرسلًا، فضلًا عن كونه حجرًا لا يضرّ ولا ينفع.

ويقرّر ذلك الصحابيّ الجليل عمر بن الخطاب رضي الله عنه في مقولته الشهيرة: " إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت النبي ﷺ يقبلك ما قبلتك "[1]، فقد أراد أن يبيّن للناس أن هذا الفعل هو محض إتباع للنبي ﷺ، وليس لأن الحجر ينفع أو يضرّ، وعليه فإنه لا قدسية لأحجار الكعبة بذاتها، وإنما اكتسب الحجر الأسود هذه المزية لأمر الله تعالى بتقبيله، ولو لم يرد ذلك الأمر لم يكن لأحد أن يقوم بتقديسه أو تقبيله.

ثم إن رحى العبادة تدور على قضيّتين أساسيّتين: تمام المحبة مع غاية الذلّ والخضوع، فمن أحبّ شيئًا ولم يخضع له فليس بعابد له، ومن خضع لشيء دون أن يحبّه فهو كذلك ليس بعابد له، ومعلوم أن تقبيل الحجر الأسود هو فعلٌ مجردٌ من الخضوع والذلّ لذلك الحجر.

ومن المناسب أن نقول: إن من يعبد شيئًا فلا شكّ أنه يرى في معبوده أنه أعلى منه وأفضل

---

(١) البخاري (١٥٩٧)، مسلم (١٢٧٠).

منه؛ لأن العابد لا يعبد من يرى أنه مثله أو أدنى منه منزلةً وقدرًا، ونحن نعلم أن حرمة المؤمن أعظم من حرمة الكعبة، بل أعظم من حرمة الدنيا بأسرها فعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال: "لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم ". [١]

وَنَظَرَ ابْنُ عُمَرَ يَوْمًا إِلَى الْبَيْتِ أَوْ إِلَى الْكَعْبَةِ فَقَالَ: (مَا أَعْظَمَكِ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكِ وَالْمُؤْمِنُ أَعْظَمُ حُرْمَةً عِنْدَ اللهِ مِنْكِ). [٢]

فما سبق يبيّن لنا نظرة الشرع للمسلم في كونه أعظم حرمةً من الكعبة بما فيها الحجر الأسود، فكيف يصحّ أن يقال إن المسلمين يعبدون هذا الحجر أو يعبدون البيت؟. [٣]

الوجه الخامس: الوثنية ليست أمرًا أصليًا عند العرب ـ ظلوا عليه آلاف السنين منذ نشأتهم ـ حتى يخاف محمد ﷺ خوفًا شديدًا على تغييرها في الحج وغيره، بل هي أمر طارئ على العرب والأصل ملة إبراهيم.

فدخول الوثنية إلى بلاد العرب كانت علي يد عمرو بن لحي الخزاعي، ومحمدﷺجاء ليُرجعهم إلى ما كانوا عليه من التوحيد:

قال الكلبي: وكان عمرو بن لحي كاهنًا وكان يكنى أبا ثمامة، له رئى من الجن فقال: له عجل المسير والظعن من تهامة بالسعد والسلامة ائت صفا جده تجد فيها أصنامًا معدة فأوردها تهامة ولا تهب ثم ادع العرب إلى عبادتها تجب فأتى نهر جدة فاستثارها ثم حملها حتى ورد بها تهامة وحضر الحج فدعا العرب إلى عبادتها قاطبة فأجابه عوف بن عذرة بن زيد اللات فدفع إليه ودًا فحمله فكان بوادي القرى بدومة الجندل وسمي ابنه عبد ود فهو أول من سمى به وجعل عوف ابنه عامرًا سادنًا له فلم يزل بنوه يدينون به حتى جاء الله بالإسلام. [٤]

---

(١) **صحيح**. أخرجه الترمذي في سننه (١٣٩٥)، والنسائي في سننه ٧/ ٨٢، والبيهقي في سننه ٨/ ٢٢، وغيرهم من طرق عن شعبة عن يعلى بن عطاء عن أبيه عن عبد الله بن عمرو به موقوفا ومرفوعا والموقوف صححه الترمذي، والبيهقي. وإن صح موقوفا فله حكم الرفع

(٢) **حسن**. أخرجه الترمذي في سننه (٢٠٣٢) من حديث الحسين بن واقد عن أوفى بن دلهم عن نافع عن ابن عمر به. وقال الألباني: حسن صحيح. صحيح الترغيب (٢٣٣٩)

(٣) نقلًا من المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام.

(٤) تلبيس إبليس ١/ ٦٩.

وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ، قَالَ النبي ﷺ: " رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ عَامِرِ بْنِ لُحَيٍّ الخزاعي يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ "[١]

الوجه السادس: أعمال الحج عند الأنبياء عليهم السلام.

نبين في هذا الوجه أن الله ﷻ علَّم إبراهيم عليه السلام هذه المناسك، وفعلها الأنبياء من بعده والنبي ﷺ قد أمر باتباع ملة إبراهيم عليه السلام، وهذا يدل على أن أعمال الحج ليست من الوثنية بل لها أصل، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: ١٢٧، ١٢٨).

عن قتادة قوله: "وأرنا مناسكنا" فأراهما الله مناسكهما: الطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، والإفاضة من عرفات، والإفاضة من جمع، ورمي الجمار، حتى أكمل الله الدين - أو دينه.[٢]

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ: سِرْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ فَمَرَرْنَا بِوَادٍ فَقَالَ: « أَيُّ وَادٍ هَذَا؟ ». فَقَالُوا: وادي الأَزْرَقِ. فَقَالَ: « كأني أَنْظُرُ إِلَى مُوسَى ﷺ فَذَكَرَ مِنْ لَوْنِهِ وَشَعْرِهِ شَيْئًا لَمْ يَحْفَظْهُ دَاوُدُ وَاضِعًا إِصْبَعَيْهِ فِي أُذُنَيْهِ لَهُ جُؤَارٌ إِلَى الله بِالتَّلْبِيَةِ مَارًّا بِهَذَا الوادي ». قَالَ: « ثُمَّ سِرْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى ثَنِيَّةٍ. فَقَالَ: « أي ثَنِيَّةٍ هَذِهِ؟ ». قَالُوا: هَرْشَى أَوْ لِفْتٌ. فَقَالَ: « كأني أَنْظُرُ إِلَى يُونُسَ عَلَى نَاقَةٍ حَمْرَاءَ عَلَيْهِ جُبَّةُ صُوفٍ خِطَامُ نَاقَتِهِ لِيفٌ خُلْبَةٌ مَارًّا بِهَذَا الوادي مُلَبِّيًا ».[٣]

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: (أَوَّلَ مَا اتَّخَذَ النِّسَاءُ الْمِنْطَقَ مِنْ قِبَلِ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ، اتَّخَذَتْ مِنْطَقًا لَتُعَفِّيَ أَثَرَهَا عَلَى سَارَةَ، ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ، وَبِابْنِهَا إِسْمَاعِيلَ وَهْيَ تُرْضِعُهُ حَتَّى وَضَعَهُمَا عِنْدَ الْبَيْتِ عِنْدَ دَوْحَةٍ، فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى الْمَسْجِدِ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ، وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ، فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ. . . فذكر القصة وفيها: فَانْطَلَقَتْ كَرَاهِيَةَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَوَجَدَتِ الصَّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ فِي الأَرْضِ يَلِيهَا، فَقَامَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ اسْتَقْبَلَتِ الوادي تَنْظُرُ هَلْ تَرَى أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَهَبَطَتْ مِنَ، الصَّفَا حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الوادي رَفَعَتْ طَرَفَ دِرْعِهَا، ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ الإِنْسَانِ الْمَجْهُودِ،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٢١)، ومسلم (٩٠١).

(٢) الطبري في تفسيره (١/ ٦٠٢)، قال: حدثنا بشر بن معاذ قال: حدثنا يزيد قال: حدثنا سعيد عن قتادة به.

(٣) أخرجه مسلم (١٦٦).

حَتَّى جَاوَزَتِ الوادي، ثُمَّ أَتَتِ الْمَرْوَةَ، فَقَامَتْ عَلَيْهَا وَنَظَرَتْ هَلْ تَرَى أَحَدًا، فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَفَعَلَتْ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ - قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النبي ﷺ: " فَذَلِكَ سَعْيُ النَّاسِ بَيْنَهُمَا ". (١)

عن ابن عباس رفعه قال: لما أتى إبراهيم خليل الله المناسك عرض له الشيطان عند جمرة العقبة فرماه بسبع حصيات حتى ساخ في الأرض، ثم عرض له عند الجمرة الثانية فرماه بسبع حصيات حتى ساخ في الأرض، ثم عرض له عند الجمرة الثالثة فرماه بسبع حصيات حتى ساخ في الأرض، قال ابن عباس: الشيطان ترجمون وملة أبيكم تتبعون. (٢)

وعن يزيد بن شيبان قال: كُنَّا في مَوْقِفٍ لنا بِعَرَفَةَ يُبَاعِدُهُ عمرو بن دينارٍ مِنْ مَوْقِفِ الإِمَامِ جدًا فأتانا ابْنُ بزيغ الأَنْصَارِيُّ فقال لنا: إِنِّي رَسُولُ رَسُولِ الله ﷺ إليكُمْ إِنَّ رَسُولَ الله يأْمُرُكُمْ أَنْ تَقِفُوا عَلَى مَشَاعِرِكُم هذه فإِنَّكُمْ على إِرْثٍ مِنْ إِرْثِ أبيكُمْ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام. (٣)

قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ (آل عمران: ٩٦، ٩٧)، وقال تعالى: ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ (الحج: ٢٧).

قال ابن كثير: ثم ذكر أن البيت إنما أسس لمن يعبد الله وحده لا شريك له، إما بطواف أو صلاة، فذكر في سورة الحج أجزاءها الثلاثة: قيامها، وركوعها، وسجودها، ولم يذكر العاكفين لأنه تقدم ﴿ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ﴾ وفي هذه الآية الكريمة ذكر الطائفين والعاكفين، واجتزأ بذكر الركوع والسجود عن القيام؛ لأنه قد علم أنه لا يكون ركوع ولا

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٦٤).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ١/ ٦٣٨، ومن طريقه البيهقي ٥/ ١٥٣ من طريق إبراهيم بن طهمان ثنا الحسن ابن عبد الله، عن سالم بن أبي الجعد، عن ابن عباس به. وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١١٥٦).

(٣) حسن. أخرجه الشافعي في مسنده صـ ٢٤١، والحميدي في مسنده (٥٧٧) وأحمد في مسنده ٤/ ١٣٧، أبو داود (١٩١٩)، ابن أبي شيبة في مصنفه ٣/ ٣٤٥، والنسائي في سننه ٥/ ٢٥٥، والترمذي في سننه (٨٨٣) كلهم من طرق عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن عمرو بن عبد الله بن صفوان عن يزيد بن شيبان به. صححه الألباني في صحيح أبي داود (١٦٨٨).

سجود إلا بعد قيام. وفي ذلك -أيضًا-رَدّ على من لا يحجه من أهل الكتابين: اليهود والنصارى؛ لأنهم يعتقدون فضيلة إبراهيم الخليل وعظمته، ويعلمون أنه بنى هذا البيت للطواف في الحج والعمرة وغير ذلك وللاعتكاف والصلاة عنده وهم لا يفعلون شيئًا من ذلك، فكيف يكونون مقتدين بالخليل، وهم لا يفعلون ما شرع الله له؟ وقد حَجَّ البيتَ موسى بن عمران وغيره من الأنبياء عليهم السلام، كما أخبر بذلك المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ (النجم: ٤). [١]

وجملة القول أن مناسك الحج من شريعة إبراهيم وقد أبطل الإسلام كل ما ابتدعته الجاهلية فيها من وثنيتها وقبيح عملها كطوافهم بالبيت عراة وغير ذلك مما سنبينه. ومبنى العبادات على الاتباع لا على الرأي.

الوجه السابع: مخالفة النبي ﷺ لأمور الجاهلية في بعض أعمال الحج يدل على أن أعمال الحج محض عبادة.

لقد كانت مواقف الجاهلية في الحج مواقف مخزية، إنما هي خليط ممزوج من الأضداد والمتناقضات. . يظهر ذلك جليًا في بعض المواقف المنكرة. والتي خالفها النبي ﷺ ومنها:

التلبية: فكانت تلبيتهم في الحج التي يخلطون معها الشرك، لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلا شريكًا هو لك تملكهُ وما لك.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان المشركون يقولون: لبيك لا شريك لك قال فيقول رسول الله ﷺ: ويلكم قدٍ قدٍ، فيقولون إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك يقولون هذا وهم يطوفون بالبيت. [٢]

فكان النبي ﷺ يقول: "لَبَّيْكَ اللهمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ، لاَ شَرِيكَ لَكَ"[٣].

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٦٩.

(٢) أخرجه مسلم (١١٨٥).

(٣) أخرجه البخاري (١٥٤٩)، مسلم (١١٨٤).

الطواف عرايا: فكان أهل الجاهلية يطوفون عراة ويرمون ثيابهم ويتركونها ملقاة على الأرض ولا يأخذونها أبدا ويتركونها تداس بالأرجل حتى تبلى ويسمى اللقاء حتى جاء الإسلام فأمر الله تعالى بستر العورة ونهى عن الطواف عرايا.

قَالَ عُرْوَةُ: كَانَ النَّاسُ يَطُوفُونَ فِى الْجَاهِلِيَّةِ عُرَاةً إِلاَّ الْحُمْسَ، وَالْحُمْسُ قُرَيْشٌ وَمَا وَلَدَتْ، وَكَانَتِ الْحُمْسُ يَحْتَسِبُونَ عَلَى النَّاسِ يُعْطِى الرَّجُلُ الرَّجُلَ الثِّيَابَ يَطُوفُ فِيهَا، وَتُعْطِى الْمَرْأَةُ الْمَرْأَةَ الثِّيَابَ تَطُوفُ فِيهَا، فَمَنْ لَمْ يُعْطِهِ الْحُمْسُ طَافَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانًا، وَكَانَ يُفِيضُ جَمَاعَةُ النَّاسِ مِنْ عَرَفَاتٍ، وَيُفِيضُ الْحُمْسُ مِنْ جَمْعٍ. قَالَ وَأَخْبَرَنِى أَبِى عَنْ عَائِشَةَ - رضي الله عنها - أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ في الْحُمْسِ ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ﴾، قَالَ: كَانُوا يُفِيضُونَ مِنْ جَمْعٍ فَدُفِعُوا إِلَى عَرَفَاتٍ.[١]

عن ابن عباس قال: كانت المرأة تطوف بالبيت وهي عريانة فتقول من يعيرني تطوافا؟ تجعله على فرجها وتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله … فما بدا منه فلا أحله

فنزلت هذه الآية: ﴿خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ (الأعراف: ٣١).[٢]

فعن حُمَيْد بْن عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ أَخْبَرَهُ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ ﷺبَعَثَهُ في الْحَجَّةِ التي أَمَّرَهُ عَلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ قَبْلَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ يَوْمَ النَّحْرِ في رَهْطٍ يُؤَذِّنُ في النَّاسِ « أَلاَ لاَ يَحُجُّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلاَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ »[٣]

الوقوف بعرفة: ففي حديث جابر الطويل في سياق حجة الوداع أنه قال: (وَكَانَتِ الْعَرَبُ يَدْفَعُ بِهِمْ أَبُو سَيَّارَةَ عَلَى حِمَارٍ عُرْيٍ فَلَمَّا أَجَازَ رَسُولُ الله ﷺ مِنَ الْمُزْدَلِفَةِ بِالْمَشْعَرِ الْحَرَامِ. لَمْ تَشُكَّ قُرَيْشٌ أَنَّهُ سَيَقْتَصِرُ عَلَيْهِ وَيَكُونُ مَنْزِلُهُ ثَمَّ فَأَجَازَ وَلَمْ يَعْرِضْ لَهُ حَتَّى أَتَى عَرَفَاتٍ فَنَزَلَ).[٤]

---

(١) أخرجه البخاري (١٦٦٥)، مسلم (١٢١٩).

(٢) أخرجه مسلم (٣٠٢٨).

(٣) أخرجه البخاري (١٦٢٢)، مسلم (١٣٤٧).

(٤) أخرجه مسلم (٢٣١٦).

معنى الحديث أن قريشًا كانت قبل الإسلام تقف بالمزدلفة وهي من الحرم ولا يقفون بعرفات وكان سائر العرب يقفون بعرفات وكانت قريش تقول نحن أهل الحرم فلا نخرج منه فلما حج النبي ﷺ ووصل المزدلفة اعتقدوا أنه يقف بالمزدلفة على عادة قريش فجاوز إلى عرفات لقول الله ﷻ: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ﴾ (البقرة: ١٩٩).

المكاء، والتصدية: قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ (الأنفال: ٣٥)، أنهم كانوا يطوفون بالبيت ويصفِّقون ويَصْفِرُون ويضعون خدودهم بالأرض، فجاء الإسلام وبين أن الطواف لذكر الله.

فعن عَائِشَةَ رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: "إنما جُعِلَ الطَّوَافُ بِالْبَيْتِ وَبَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ وَرَمْيُ الْجِمَارِ لِإِقَامَةِ ذِكْرِ الله". [1]

قال السعدي: يعني أن الله تعالى إنما جعل بيته الحرام ليقام فيه دينه، وتخلص له فيه العبادة، فالمؤمنون هم الذين قاموا بهذا الأمر، وأما هؤلاء المشركون الذين يصدون عنه، فما كان صلاتهم فيه التي هي أكبر أنواع العبادات ﴿إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾أي: صفيرًا وتصفيقًا، فعل الجهلة الأغبياء، الذين ليس في قلوبهم تعظيم لربهم، ولا معرفة بحقوقه، ولا احترام لأفضل البقاع وأشرفها، فإذا كانت هذه صلاتهم فيه، فكيف ببقية العبادات؟ ، فبأي: شيء كانوا أولى بهذا البيت من المؤمنين الذين هم في صلاتهم خاشعون، والذين هم عن اللغو معرضون، إلى آخر ما وصفهم الله به من الصفات الحميدة، والأفعال السديدة. [2]

ولو فقه المسلمون هذا المعنى العظيم في الحج لما كان في كثير من بلاد المسلمين قبور وأضرحة تعبد من دون الله تعالى؛ فيطاف بها، وينذر لها، ويدعى عندها، ويصرف لها ما لا يجوز صرفه إلا لله تعالى من المحبة والتعظيم والخوف والرجاء، فما أشد غربة التوحيد في

---

(١) **صحيح**. أخرجه أبو داود في سننه (١٨٨٨)، وابن خزيمة في صحيحه (٢٨٨٢)، وابن الجارود في المنتقى (٤٥٧)، والترمذي في سننه (٩٠٢)، وأخرجه الدارمي في سننه (١٨٥٣)، وأخرجه أحمد في مسنده ٦/ ٦٤، والبيهقي في الشعب (٤٠٨١) من طرق عن عبيد الله بن أبي زياد، عن القاسم، عن عائشة به.

(٢) تفسير السعدي صـ٣٢٠.

كثير من بلاد المسلمين؟!

فكيف يكون الحج رمزًا من رموز الجاهلية؟ وقد أبطل النبي ﷺ كل هذه المخالفات التي كانت في الجاهلية والتي تتناقض مع نقاء الإسلام وطُهرِهِ. . ومن المعلوم أن كل العبادات وما جاء فيها من أوامر ونواه كلها أمور توقيفية. . لا دخل للاجتهاد فيها؛ كالصلاة والصوم والزكاة والحج وغيرها من الأمور التي جاء بها الشرع الحكيم. فهذا يدلنا على أن الإسلام أراد بالحج تثبيت التوحيد لا إدخال طقوس الشرك.

الوجه الثامن: النبي ﷺ يلغي أمور الجاهلية في حجته ﷺ.

من أجل ذلك- حفاظًا على الإسلام - ألغى النبي ﷺ كل أمور الجاهلية. . وفي خطبة عرفات قال ﷺ في جزء من الخطبة القيمة: ، فكان مما قال فيها: "أَلاَ كُلُّ شيء مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قدمي مَوْضُوعٌ وَدِمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَضَعُ مِنْ دِمَائِنَا دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ كَانَ مُسْتَرْضِعًا في بني سَعْدٍ فَقَتَلَتْهُ هُذَيْلٌ وَرِبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ وَأَوَّلُ رِبًا أَضَعُ رِبَانَا رِبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ"[(١)].

فكيف يكون الحج رمزًا من رموز الجاهلية؟ وقد أبطل النبي ﷺكل هذه المخالفات التي كانت في الجاهلية والتي تتناقض مع نقاء الإسلام وطُهرِهِ. ومن المعلوم أن كل العبادات وما جاء فيها من أوامر ونواه كلها أمور توقيفية. لا دخل للاجتهاد فيها؛ كالصلاة والصوم والزكاة والحج وغيرها من الأمور التي جاء بها الشرع الحكيم.[(٢)]

الوجه التاسع: التماس بعض الحكم من أعمال الحج.

تقبيل الحجر:

قال السعدي: فمن تبرك بشجر أو حجر ونحوهما فإن ذلك من الشرك، ومن أعمال المشركين فإن العلماء اتفقوا على أنه لا يشرع التبرك بشيء من الأشجار والأحجار والبقع والمشاهد وغيرها. فإن هذا التبرك غلو فيها وذلك يتدرج به إلى دعائها وعبادتها، وهذا هو الشرك الأكبر كما تقدم انطباق الحد عليه، وهذا عام في كل شيء حتى مقام إبراهيم وحجرة النبي ﷺوصخرة بيت المقدس وغيرها من البقع الفاضلة.

---

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨).

(٢) الصواعق السماوية علي منكري آيات الكتاب وصحيح السنة (راشد بن عبد المعطي بن محفوظ) ١/ ٢٤.

وأما استلام الحجر الأسود وتقبيله واستلام الركن اليماني من الكعبة المشرفة فهذا عبودية لله وتعظيم لله وخضوع لعظمته فهو روح التعبد. فهذا تعظيم للخالق وتعبد له، وذلك تعظيم للمخلوق وتأله له.

فالفرق بين الأمرين كالفرق بين الدعاء لله الذي هو إخلاص وتوحيد، والدعاء للمخلوق الذي هو شرك وتنديد. (١)

فقد اتفق العلماء على أنه لا يشرع تقبيل شيء من الأحجار واستلامه إلا الحجر الأسود خاصة، وأجمعوا على حرمة الطواف بالقبور وأنه من وسائل الشرك إلا إن كان يقصد بطوافه التقرب والتعبد للمقبور فهو شرك أكبر، وأجمعوا على حرمة الطواف بالمساجد المبنية بعرفة أو منى. (٢)

ولقد انعقد إجماع الأمة على مشروعية تقبيل الحجر الأسود، وعليه فمن يدعي أن ذلك ينافي دعوة الإسلام لنبذ الأوثان فدعواه باطلة فشتان بين من يأتي ذلك طاعة لله ورسوله معتقدًا أن الحجر لا ينفع ولا يضر وبين من يقدس الأوثان التي نهى الله عن الاقتراب منها، فطواف المسلم بالكعبة المشرفة وصلاته إليها إنما هي عبادة لله لا لها.

الرمي: قال أبوحامد الغزالي رحمه الله تعالى في بيان أسرار الحج من الإحياء: وأما رمي الجمار فليقصد به الانقياد للأمر إظهارًا للرق والعبودية، وانتهاضًا لمجرد الامتثال، من غير حظ للعقل والنفس في ذلك؛ ثم ليقصد به التشبه بإبراهيم عليه السلام حيث عرض له إبليس لعنه الله تعالى في ذلك الموضع ليدخل على حجه شبهة أو يفتنه بمعصية، فأمره الله عز وجل أن يرميه بالحجارة طردًا له وقطعًا لأمله، فإن خطر لك أن الشيطان عرض له وشاهده فلذلك رماه وأما أنا فليس يعرض لي الشيطان، فاعلم أن هذا الخاطر من الشيطان، وأنه الذي ألقاه في قلبك ليفتر عزمك في الرمي، ويخيل إليك أنه فعل لا فائدة فيه، وأنه يضاهي اللعب فلم تشتغل به؟

فاطرده عن نفسك بالجد والتشمير في الرمي، فبذلك ترغم أنف الشيطان. واعلم أنك في الظاهر ترمي الحصى إلى العقبة وفي الحقيقة ترمي به وجه الشيطان وتقصم به ظهره،

---

(١) القول السديد شرح كتاب التوحيد ١/ ١٥.

(٢) الإجماع العقدي ١/ ٧.

إذا لا يحصل إرغام أنفه إلا بامتثالك أمر الله سبحانه وتعالى تعظيمًا له بمجرد الأمر، من غير حظ للنفس والعقل فيه.[1]

القصد بذبح الذبائح أيام منى، وفي عيد الأضحى في سائر الأمصار هو طاعة الله، وامتثال ما أمر به، وما سنه رسول الله ﷺ وشرعه لأمته، وتقوى الله سبحانه وتعالى في هذا كله، لأن ذلك من شعائر الله، وتقوى الله سبحانه وتعالى في هذا كله، لأن ذلك من شعائر الله، فإنها من تقوى القلوب - أي أوامره - فإنها من تقوى القلوب، ومن ذلك تعظيم الهدايا والبدن.

ومن القصد بالذبائح أيام منى إظهار نعمة الله بالتوسعة على فقراء المسلمين، وإحياء سنة الخليل إبراهيم عليه السلام، وإذا كان من المعلوم المستقر عند الخلق أن علامة المحبة الصحيحة بذل الروح والمال في مرضاة المحبوب، فالمحبوب الحق -الذي لا تنبغي المحبة إلا له، وكل محبة سوى محبته فالمحبة له باطلة - أولى بأن يشرع لعباده الجهاد الذي هو غاية ما يتقربون به إلى إلههم وربهم.

وكانت قرابين من قبلهم من الأمم ذبائحهم وقرابينهم تقديم أنفسهم للذبح في الله مولاهم الحق، فأي حسن يزيد على حسن هذه العبادة، ولهذا ادخرها الله لأكمل الأنبياء، وأكمل الأمم، عقلًا وتوحيدًا، ومحبة لله.

وأما الضحايا والهدايا فقربان إلى الخالق سبحانه تقوم مقام الفدية عن النفس المستحقة للتلف فدية وعوضًا وقربانًا إلى الله، وتشبها بإمام الحنفاء، وإحياء لسنته، أن فدى الله ولده بالقربان، فجعل ذلك في ذريته باقيًا أبدًا.

وتأمل حكمة الرب تعالى في أمره إبراهيم خليله ﷺ بذبح ولده، لأن الله اتخذه خليلًا، والخلة منزلة تقتضي إفراد الخليل بالمحبة، وأن لا يكون له فيها منازع أصلًا، بل قد تخللت محبته جميع أجزاء القلب والروح، فلم يبق فيها موضع خال من حبه، فضلًا عن أن يكون محلًا لمحبة غيره.[2]

فلما سأل إبراهيمُ الولدَ وأعطيَه، أخذ شعبةً من قلبه، كما يأخذ الولد شعبة من قلب والده، فغار المحبوب على خليله أن يكون في قلبه موضع لغيره، فأمره بذبح الولد ليخرج حبه من قلبه،

---

(١) مجلة المنار ١٦/ ٦٧٥.

(٢) إقامة الحجة والدليل وإيضاح المحجة والسبيل ١/ ٢٦.

ويكون الله أحب إليه، وآثر عنده، ولا يبقى في القلب سوى محبته، فوطن نفسه على ذلك، وعزم عليه، فخلصت المحبة لوليها ومستحقها، فحصلت مصلحة المأمور به من العزم عليه، وتوطين النفس على الامتثال، فبقي الذبح مفسدة، لحصول المصلحة بدونه، فنسخه في حقه لما صار مفسدة، وأمر به لما كان عزمه عليه، وتوطين نفسه مصلحة لهما، فأي حكمة فوق هذا، وأي لطف وبر وإحسان يزيد على هذا، وأي مصلحة فوق هذه المصلحة بالنسبة إلى هذا الأم ونسخه.

وإذا تأملت الشرائع الناسخة والمنسوخة وجدتها كلها بهذه المنزلة، فمنها ما يكون وجه المصلحة فيه ظاهرًا مكشوفًا، ومنها ما يكون ذلك فيه خفيًا لا يدرك إلا بفضل فطنة وجودة إدراك.

الوجه العاشر: مقارنة بين الحج في اليهودية والنصرانية والإسلام.

الحج في اليهودية:

وقت (أعياد) الحج عندهم.

لو أننا يممنا وجوهنا شطر شعيرة الحج في اليهودية والنصرانية لتبين لنا بوضوح الفروق الجوهرية بين الشعيرة في الرسالات الثلاث، بل لا نغالي إذا قلنا: إن الحج كشعيرة لا وجود له في اليهودية والنصرانية المحرفتين، فليس في اليهودية حج بالمعنى الذي يسبق إلى الذهن، وإنما مجرد أعياد مرتبطة بمواسم الحصاد، وكلمة «أعياد» تقابلها في العبرية كلمة «حَجِّيم» (مفردها «حَج»)، ويقابلها أيضًا «موعيد» أو «يوم طوف». وتُستخدَم كلمة حجيم للإشارة إلى عيد الفصح وعيد الأسابيع وعيد المظال

جاء في سفر (الخروج٢٣/ ١٩: ١٤): ثَلاَثَ مَرَّاتٍ تُعَيِّدُ لِي فِي السَّنَةِ. ١٥ تَحْفَظُ عِيدَ الْفَطِيرِ. تَأْكُلُ فَطِيرًا سَبْعَةَ أَيَّامٍ كَمَا أَمَرْتُكَ فِي وَقْتِ شَهْرِ أَبِيبَ، لأَنَّهُ فِيهِ خَرَجْتَ مِنْ مِصْرَ. وَلاَ يَظْهَرُوا أَمَامِي فَارِغِينَ. ١٦ وَعِيدَ الْحَصَادِ أَبْكَارِ غَلاَّتِكَ الَّتِي تَزْرَعُ فِي الْحَقْلِ. وَعِيدَ الْجَمْعِ فِي نِهَايَةِ السَّنَةِ عِنْدَمَا تَجْمَعُ غَلاَّتِكَ مِنَ الْحَقْلِ. ١٧ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ فِي السَّنَةِ يَظْهَرُ جَمِيعُ ذُكُورِكَ أَمَامَ السَّيِّدِ الرَّبِّ. . . . أَوَّلَ أَبْكَارِ أَرْضِكَ تُحْضِرُهُ إِلَى بَيْتِ الرَّبِّ إِلهِكَ.

وفي سفر (التثنية١٦/ ١٧: ١٦): «ثَلاَثَ مَرَّاتٍ فِي السَّنَةِ يَحْضُرُ جَمِيعُ ذُكُورِكَ أَمَامَ الرَّبِّ إِلهِكَ فِي الْمَكَانِ الَّذِي يَخْتَارُهُ، فِي عِيدِ الْفَطِيرِ وَعِيدِ الأَسَابِيعِ وَعِيدِ الْمَظَالِّ. وَلاَ يَحْضُرُوا أَمَامَ الرَّبِّ فَارِغِينَ. ١٧ كُلُّ وَاحِدٍ حَسْبَمَا تُعْطِي يَدُهُ.

وهذا الحضور أو الظهور أمام الرب ثلاث مرات في السنة هو حج الإسرائيليين، وهو خاص بالذكور دون الإناث.

وقت الحج في الإسلام: الحج في الإسلام مرتبط بالأشهر القمرية، وهو يعني أنه يأتي صيفًا ويأتي شتاءً ويمر داخل السنة الشمسية، فيمر بكل تقلباتها المختلفة، وهو من حكمة الخالق ﷻ، ودقيق صنعه لعباده، وهو ما كان من دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ولكن أهل مكة بدلوا وغيروا، ونعى الله عليهم ذلك في القرآن الكريم (إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا)(التوبة: ٣٧)، وذلك أن العرب كانت تعتقد تعظيم الأشهر الحرم، وكان ذلك مما تمسكت به من ملة إبراهيم عليه السلام، وكانت عامة معايشهم من الصيد والغارة، فكان يشق عليهم الكف عن ذلك ثلاثة أشهر على التوالي، وربما وقعت لهم حرب في بعض الأشهر الحرم فيكرهون تأخير حربهم، فنسؤوا أي: أخَّروا تحريم ذلك الشهر إلى شهر آخر، وكانوا يؤخرون تحريم المحرم إلى صفر، فيحرمون صفر ويستحلون المحرم، فإذا احتاجوا إلى تأخير تحريم صفر أخروه إلى ربيع، هكذا شهرًا بعد شهر.

ويقول الرازي: إن القوم علموا أنهم لو رتبوا حسابهم على السنة القمرية، فإنه يقع حجهم تارة في الصيف وتارة في الشتاء، وكان يشق عليهم الأسفار ولم ينتفعوا بها في المرابحات والتجارات، لأن سائر الناس من سائر البلاد ما كانوا يحضرون إلا في الأوقات اللائقة الموافقة، فعلموا أن بناء الأمر على رعاية السنة القمرية يخل بمصالح الدنيا، فتركوا ذلك واعتبروا السنة الشمسية. (١)

فما فعله المشركون كان خروجًا على ملة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وجاء الإسلام ليصحح الخطأ، وأسواق العرب لم تكن فقط بسبب جني البلح كما اعتقد (فنسنك)، لأنه بحسب أصل الشعيرة كما هي في ملة إبراهيم عليه السلام كان الحج يقع صيفًا وشتاءً.

الأضحية عند اليهودية: إن هوس المستشرقين بنسبة كل شعائر الإسلام إلى اليهودية والنصرانية أو إلى أي مصدر آخر أي أن تكون وحي موحى بها من عند الله جعلهم يقعون في أغلاط تاريخية واضحة، فمسألة الضحية أو التضحية ليست قاصرة على اليهود، بل هي من

---

(١) تفسير الرازي سورة التوبة ٣٧.

الشعائر التي عرفتها الإنسانية حتى قبل الخليل ﷺ، فإن نحر الحيوانات ضحية معروفة في الأديان القديمة، وكان معروفًا عند الكنعانيين قبل أن يروا اليهود، أو على الأصح قبل أن يفد إبراهيم إلى تخوم فلسطين، والإسلام يستعمل ضحايا عيد الضحية للصدقة والبر بالفقراء، وهو عمل يتقرب به إلى الله تعالى، سواء من المذنبين ذوي الخطايا الكبيرة ومن الأطهار الأبرار على السواء، وكان العرب يعرفون القرابين الحيوانية ويذبحونها لأسباب كثيرة، ومشهور أن عبد المطلب جد النبي ﷺ افتدى ابنه عبد الله بمائة من الإبل.

بل وأبعد من ذلك في تاريخ الأديان ما جاء عن شعائر الديانة السومرية أن الأضاحي فيها كانت بالدرجة الأساس أضاحٍ نباتية وحيوانية، أما الأضاحي النباتية فكانت تُقدم بكثرة إلى المعابد لإطعام الآلهة والكهنة، ومنها الفاكهة، والحيوانية كانت تتألف من الثيران والماشية والماعز والغزلان والأسماك والخنازير وأنواع الطيور.

وفي الآرامية: كان القربان يسمى (قرين)وكان يُقدم للآلهة نذرًا أو تقدمة، ولكننا لا نعرف على وجه الدقة ما نوع الحيوانات التي كانت تُقدم كنذور، وما هي الحيوانات المحرم تقديمها، كذلك يصعب علينا معرفة القرابين النباتية والبشرية من عدم وجودها، وكان وعاء الأضاحي يسمى الدورق (أدقور)، وهو وعاء لرش السائل أو الماء، وهناك أيضًا المجامر التي كانت ترافق تقديم القرابين والأضاحي.

وهذه الطقوس هي ما يمارسه اليهود والنصارى اليوم في تقديم الذبائح والقرابين، فليس لليهود فضل في هذه الشعيرة، بل هي التي شوهت شعائر الله، والتاثت عقائدها بعقائد الوثنية، ففهمت أن القرابين والتضحيات ينال منها الله تعالى، ولقد جاء القرآن الكريم يضرب بباطلهم وجوههم، ويرد عن شعائر الله لوثات الوثنية﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ (الحج: ٣٧)، وإنما هي بقايا ما ورث الناس من الدين الحق، وإن أخطأ الناس ممارستها وتقربوا بها إلى غير مستحقها سبحانه وتعالى.

وعلى الرغم من ذلك فإن القربان والتضحية في اليهودية -كما هو ممارَس عندهم- بينه وبين نظيره في الإسلام بون شاسع وفروق كبيرة، فالقربان في اليهودية يكون تارة من بواكير الزرع، وتارة من بواكير الحيوان في مواسم الحصاد أو النتاج، وتكون التضحية أو القربان ثمنًا للغفران من الله أو رشوة لتسكين الغضب واستجلاب الرضى والرعاية، بل يكون القربان الأكبر طعامًا مقدمًا إلى الله لأنه يستسيغه ويشعر بالسرور لاشتمامه، ويكون في كل حال هدية منتقاة من أطايب الذبيحة لكهان الهيكل وخدامه المنتسبين إليه.

ففي سفر (اللاويين١/ ٩: ١): وَدَعَا الرَّبُّ مُوسَى وَكَلَّمَهُ مِنْ خَيْمَةِ الاجْتِمَاعِ قَائِلًا: ٢«كَلِّمْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَقُلْ لَهُمْ: إِذَا قَرَّبَ إِنْسَانٌ مِنْكُمْ قُرْبَانًا لِلرَّبِّ مِنَ الْبَهَائِمِ، فَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ تُقَرِّبُونَ قَرَابِينَكُمْ. ٣ إِنْ كَانَ قُرْبَانُهُ مُحْرَقَةً مِنَ الْبَقَرِ، فَذَكَرًا صَحِيحًا يُقَرِّبْهُ. إِلَى بَابِ خَيْمَةِ الاجْتِمَاعِ يُقَدِّمُهُ لِلرِّضَا عَنْهُ أَمَامَ الرَّبِّ. ٤ وَيَضَعُ يَدَهُ عَلَى رَأْسِ الْمُحْرَقَةِ، فَيُرْضَى عَلَيْهِ لِلتَّكْفِيرِ عَنْهُ. ٥ وَيَذْبَحُ الْعِجْلَ أَمَامَ الرَّبِّ، وَيُقَرِّبُ بَنُو هَارُونَ الْكَهَنَةُ الدَّمَ، وَيَرُشُّونَهُ مُسْتَدِيرًا عَلَى الْمَذْبَحِ الَّذِي لَدَى بَابِ خَيْمَةِ الاجْتِمَاعِ. ٦ وَيَسْلَخُ الْمُحْرَقَةَ وَيُقَطِّعُهَا إِلَى قِطَعِهَا. ٧ وَيَجْعَلُ بَنُو هَارُونَ الْكَاهِنِ نَارًا عَلَى الْمَذْبَحِ، وَيُرَتِّبُونَ حَطَبًا عَلَى النَّارِ. ٨ وَيُرَتِّبُ بَنُو هَارُونَ الْكَهَنَةُ الْقِطَعَ مَعَ الرَّأْسِ وَالشَّحْمِ فَوْقَ الْحَطَبِ الَّذِي عَلَى النَّارِ الَّتِي عَلَى الْمَذْبَحِ. ٩ وَأَمَّا أَحْشَاؤُهُ وَأَكَارِعُهُ فَيَغْسِلُهَا بِمَاءٍ، وَيُوقِدُ الْكَاهِنُ الْجَمِيعَ عَلَى الْمَذْبَحِ مُحْرَقَةً، وَقُودَ رَائِحَةِ سُرُورٍ لِلرَّبِّ.

فهم يتصورون تصورًا باطلًا أن الله تعالى يأكل، ومن ثَمَّ فالقربان له على الحقيقة كما جاء في سفر (التكوين١٨/ ٨: ١): وَظَهَرَ لَهُ الرَّبُّ عِنْدَ بَلُّوطَاتِ مَمْرَا وَهُوَ جَالِسٌ فِي بَابِ الْخَيْمَةِ وَقْتَ حَرِّ النَّهَارِ، ٢ فَرَفَعَ عَيْنَيْهِ وَنَظَرَ وَإِذَا ثَلاَثَةُ رِجَال وَاقِفُونَ لَدَيْهِ. فَلَمَّا نَظَرَ رَكَضَ لاسْتِقْبَالِهِمْ مِنْ بَابِ الْخَيْمَةِ وَسَجَدَ إِلَى الأَرْضِ، ٣ وَقَالَ: «يَا سَيِّدُ، إِنْ كُنْتُ قَدْ وَجَدْتُ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْكَ فَلاَ تَتَجَاوَزْ عَبْدَكَ. ٤ لِيُؤْخَذْ قَلِيلُ مَاءٍ وَاغْسِلُوا أَرْجُلَكُمْ وَاتَّكِئُوا تَحْتَ الشَّجَرَةِ، ٥ فَآخُذَ كِسْرَةَ خُبْزٍ، فَتُسْنِدُونَ قُلُوبَكُمْ ثُمَّ تَجْتَازُونَ، لأَنَّكُمْ قَدْ مَرَرْتُمْ عَلَى عَبْدِكُمْ». فَقَالُوا: «هكَذَا تَفْعَلُ كَمَا تَكَلَّمْتَ». ٦ فَأَسْرَعَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى الْخَيْمَةِ إِلَى سَارَةَ، وَقَالَ: «أَسْرِعِي بِثَلاَثِ كَيْلاَتٍ دَقِيقًا سَمِيذًا. اعْجِنِي وَاصْنَعِي خُبْزَ مَلَّةٍ». ٧ ثُمَّ رَكَضَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى الْبَقَرِ وَأَخَذَ عِجْلًا

رَخْصًا وَجَيِّدًا وَأَعْطَاهُ لِلْغُلاَمِ فَأَسْرَعَ لِيَعْمَلَهُ. ٨ ثُمَّ أَخَذَ زُبْدًا وَلَبَنًا، وَالْعِجْلَ الَّذِي عَمِلَهُ، وَوَضَعَهَا قُدَّامَهُمْ. وَإِذْ كَانَ هُوَ وَاقِفًا لَدَيْهِمْ تَحْتَ الشَّجَرَةِ أَكَلُوا.

هذا المشهد المحرف يعرضه القرآن الكريم في صورة من الجلال والكمال اللائق بقدسية الوحي الإلهي حيث يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ (هود٧٠: ٦٩)، ويقول تعالى: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ (الذاريات٢٨: ٢٤)، فالذين جاءوا ملائكة وليس الله، وهو لم يعرفهم كما جاء في القرآن الكريم، وهم لم يأكلوا وهو الأمر الذي يتناسب مع طبيعتهم كملائكة.

وأما هذه الصورة الكئيبة التي عرضتها التوراة المحرفة فليست إلا من صنع الكهان ورجال الدين الذين أعملوا يد الإثم في وحي الله، والفارق كبير بين المشهدين، ففي التوراة صورة لا تتفق مع نزاهة التوحيد، وفي القرآن نزاهة وبيان لعصمة الملائكة، وأعجب من هذا ما ورد في سفر (اللاويين١٦/ ٨: ٥): وَمِنْ جَمَاعَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَأْخُذُ تَيْسَيْنِ مِنَ الْمَعْزِ وَيَأْخُذُ التَّيْسَيْنِ وَيُوقِفُهُمَا أَمَامَ الرَّبِّ لَدَى بَابِ خَيْمَةِ الاجْتِمَاعِ. ٨ وَيُلْقِي هَارُونُ عَلَى التَّيْسَيْنِ قُرْعَتَيْنِ: قُرْعَةً لِلرَّبِّ وَقُرْعَةً لِعَزَازِيلَ.

جاء في قاموس الكتاب المقدس: عزازيل ورد في سفر اللاويين ويراد به الشيطان، أو الجن في الصحاري والبراري، أو ملاك ساقط بحسب سفر أخنوخ ومعظم المفسرين الحديثيين، ولئن حاول المفسرون المحدثون تفسيره بملاك ساقط من السماء فهو تفسير واه، لأن المقصود به روح الشر المقابلة للإله في اعتقادهم وهو الشيطان، وإنما تقدم التضحية له لتسكن غضبه، وهي شعيرة تبدو فيها الوثنية الطاغية والتأثر بالمذاهب القائلة بآلهة الخير وآلهة الشر.

الأضحية في الإسلام: ونحن لا نعيب الذبح من حيث هو، لأننا نؤمن بالتضحية كشعيرة إلهية يتقرب بها العبد لربه سبحانه وتعالى، وهو لون من ألوان الاستسلام

والامتثال لأمر الله، ولكننا نعيب التحريف والطقوس الوثنية التي شابت هذه الشعيرة، وامتزاجها بأفكار مشوشة في الإله تعالى، وإسقاط صفات المخلوقين عليه، وهو الأمر الذي جاء الإسلام بتصحيحه ورد الشعيرة إلى صورتها اللائقة بجناب الله تعالى، فليس القربان الإسلامي طعامًا للرب ولا طعمًا لأحد الوسطاء بين العبد وربه باسم الدين. . . وليس فيه معنى من معاني التقريب للظواهر الطبيعية في مواسمها المعروفة للحصاد والنتاج، قال تعالى: ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَـٰهَا لَكُم مِّن شَعَـٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَـٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (الحج: ٣٦)، والمعنى: إن اتقيت الله في هذه البُدن، وعملت فيها لله، وطلبت ما قال الله تعظيمًا لشعائر الله ولحرمات الله، فإنه قال: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَـٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾، قال: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَـٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾، قال: وجعلته طيبًا، فذلك الذي يتقبل الله. فأما اللحوم والدماء، فمن أين تنال الله؟.

وذلك أن أهل الجاهلية كانوا إذا نحروا البدن لطخوا الكعبة بدمائها قربة إلى الله، فأنزل الله هذه الآية، قال مجاهد: أراد المسلمون أن يفعلوا فعل المشركين من الذبح وتشريح اللحم ونصبه حول الكعبة ونضحها بالدماء تعظيمًا لها وتقربًا إليه تعالى فنزلت هذه الآية.

هذه الفروق الجوهرية بين صورة التضحية في الإسلام ونظيرتها في اليهودية والمسيحية هي ذات الفروق بين الإسلام كوحي إلهي وبين اليهودية والمسيحية كديانتين محرفين طالتهما أيدي التشويه الآدمي القاصر.

الحج في المسيحية: ما قيل في اليهودية يقال في المسيحية فليس في المسيحية الحالية شعيرة يمكن أن يطلق عليها اسم الحج كما هو الحال في شعيرة الحج في الإسلام في كمالها وشمولها ووضوح معالمها وأبعادها الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والروحية والتربوية، فلم يرد أي نص بالحج في كتبها المقدسة، وما نراه من حج المسيحيين الكاثوليك إلى روما، وما نشاهده من حج المسيحيين على اختلاف طوائفهم وفرقهم إلى القدس لم يرد في الديانة المسيحية وأسفارها المقدسة لدى المسيحيين، وإنما هو تقليد اتبع فيها بعد المسيح بقرون.

والحج المسيحي إلي القدس ليس فريضة من الفرائض المنصوص عليها في المسيحية وإنما نشأ بعد الإمبراطورة هيلانة أم الإمبراطور قسطنطين. وقد زارت القدس سنة ٣٢٤. وعثرت علي الصليب الحقيقي كما تذكر بعض الروايات الضعيفة وصعدت هيلانة إلى مرتبة القداسة فعرفت بالقديسة.

وليس لهذا الحج طقوس أو مناسك، وإنما يقصدها المسيحيون كما يقصدها غيرهم من السائحين فيزورون مولد المسيح وغيره من الأماكن التي تردد عليها كما يزورون الكنائس القائمة في القدس وبيت لحم، والحج بهذه الصورة السابقة في المسيحية عبارة عن سياحة دينية وزيارة لبعض الأماكن التي يعتقدون قدسيتها وقدسية هذه الأماكن ليست بنص في كتبهم، وإنما هي من وضع الرهبان ورجال الدين النصراني، ولا علاقة لها بالمسيح عليه السلام.

مزارات الحج المسيحي: في المسيحية عدة أماكن يقصدها المسيحيون لحجهم:

(١) الحج إلى مدينتي القدس وروما:

وهي من أعظم مزارات الحج المسيحي باعتبار مولد صاحب الديانة والمركزية الدينية لهذه الديانة، وهي أسباب بشرية لا تدعمها نصوص ولا ترجع إلى فعل المسيح عليه السلام، وإذا كان قد سبق معنا أن الحج إلى القدس –وهو الحج الأساس في النصرانية– ليس فريضة ولا مناسك له، فالحج أيضًا إلى روما ليس فريضة مقدسة، ولكن زيارة روما مستحبة، وبدأت منذ القرن الثالث عشر الميلادي، ويظهر أن روما استأثرت بالعدد الأكبر من الحجاج وقطعت الطريق إلى بيت المقدس، وإن لم ينقطع المسيحيون عن الزيارة إليها، وهناك فارق بين روما والقدس في الحج، فروما خاصة بالكاثوليك، والقدس محجة كل المسيحيين.

وسبب ازدحام روما أنها أصبحت معقل المسيحية وبها قبر بطرس وقبر بولس وعشرات من مقابر القديسين والزهاد والنصارى، وكان نصارى غرب أوروبا يخرجون إلى الحج في احتفال عظيم، وكان الرئيس الديني لكل بلد يزود كل حاج بعصا ورداء من الصوف الخشن يرتديه عند تسلمه إياه، وكانت لهم في طريقهم إلى القدس أربطة وتكايا ينزلون بها، وإذا وصلوا اغتسلوا بنهر الأردن وتطهروا لدخول بيت المقدس، فإذا حجوا

رجعوا إلى بلادهم وعرفوا بأنهم حجاج، وهي مجرد عادات واختراعات من رجال الدين ليوظفوا هذا الحدث الارتجالي الذي لا أصل له في دينهم.

(٢)الحج إلى مدينة (تريفس):

وهي مدينة ألمانية يعتقد أن بها قميص المسيح الذي كان يرتديه، وقد جذبت هذه الإشاعة ملايين المسيحيين حتى بلغ عدد حجاجهم إليها سنة ١٨١٤م أكثر من مليون، وما يزالون يقصدونها حتى الآن، فالشائعات تصنع المناسك وهي تضاف إلى الخبرات الوثنية والتجارب الأممية التي أدخلت طقوسها في هذه الأديان.

(٣)الحج إلي كنيسة (لودره) بفرنسا:

والحج إليها ناتج عن إشاعة تقول أن العذراء ظهرت لاثنين من رعاة مدينة لودره، وعلى مقربة من الكنيسة عين ماء يعتقدون أنه ماء مبارك يشفي المرضى وذوي العاهات، فيشربون منه ويرسلونه إلى كل أقطار الأرض ليتبرك به الشاربون ويستشفي به المرضى، وهي تشبه الخرافات التي أشاعها بعض جهلة المسلمين حول بعض مقابر أولياء الله الصالحين، وبناءً عليه أقاموا طقوسًا وعادات يأتكلون منها مستغلين عواطف البسطاء وحبهم الفطري لأهل الله، فإن حب الصالحين وأولياء الله واحترامهم من الدين، ولكن ما يقام لهم من احتفالات هي في أصلها مخالفة جوهرية لدين الإسلام، وهو أمر لا يقبله عقل ولا يسانده نص من دين الله.

مقارنة بين الحج في اليهودية والنصرانية والإسلام:

يحسن بنا أولًا أن نقرر في هذا الصدد مسألة محورية في فهم شعيرة الحج في الإسلام، فالحج في الإسلام شعيرة بدنية ومالية جوهرها الانصياع الكامل لأوامر الله ونواهيه يطوف المسلم حيث أمر الله، ولا يطوف حيث نهى ويقبل حيث أمر ولا يقبل حيث نهى، إن القضية ليست قضية جنس حتى يقال إنها إحياء وثنيات قديمة ولا هي قضية تقليد، فليس عند القوم مثل هذه الشعيرة، إنما هو التجرد الكامل والانصياع التام حيث الفعل حين نؤمر والترك حيث ننهى، وفيما يلي مقارنة بين الحج في الإسلام وما يسمى بالحج في اليهودية والنصرانية:

١- وأول الفوارق التي يتبين منها مدى هذا التطور أن الحج في بني إسرائيل إنما كان وسيلة لتدعيم سلطان الهيكل وكهانه، وإنما كان في أهم مناسكه فرصة لتزويد أولئك

الكهان بالضرائب والإتاوات والقرابين، وقد صرحت بذلك مأثوراتهم كما رووها في العهد القديم، وفيه: وَإِذَا قَرَّبَ أَحَدٌ قُرْبَانَ تَقْدِمَةٍ لِلرَّبِّ، يَكُونُ قُرْبَانُهُ مِنْ دَقِيق. وَيَسْكُبُ عَلَيْهَا زَيْتًا، وَيَجْعَلُ عَلَيْهَا لُبَانًا. ٢وَيَأْتِي بِهَا إِلَى بَنِي هَارُونَ الْكَهَنَةِ، وَيَقْبِضُ مِنْهَا مِلْءَ قَبْضَتِهِ مِنْ دَقِيقِهَا وَزَيْتِهَا مَعَ كُلِّ لُبَانِهَا، وَيُوقِدُ الْكَاهِنُ تَذْكَارَهَا عَلَى الْمَذْبَحِ، وَقُودَ رَائِحَةِ سَرُورٍ لِلرَّبِّ. ٣وَالْبَاقِي مِنَ التَّقْدِمَةِ هُوَ لِهَارُونَ وَبَنِيهِ (اللاويين٢/ ٢: ١).

والحج في الإسلام ليس لجمع الإتاوات ولا لإثراء رجال الدين، إنما هو سياحة روحية وبدنية لبيت الله الحرام وتلبية لنداء الحق على لسان إبراهيم﷤ ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ (الحج: ٢٧)، فهو إحياء للحنيفية الحقة وإقصاء ما علق بها من شوائب الوثنية الجاهلية.

فالحج في الإسلام إحياء الحنيفية الحقة وإحياء لحج الأنبياء من قبل، فلسنا بدعًا في الحج فهو شريعة الله لرسله، ولكن اليهود والنصارى ضيعوا شريعة الله وألبسوها ثوب الزور والبهتان.

٢-ومن أكبر الفوارق بين الحج كما دان به بنو إسرائيل وبين فريضته التي دان بها الإسلام أن مواسم الحج الإسرائيلية كلها مواسم زرع وحصاد. . . وفي جميع هذه الزيارات تؤدى الإتاوة لكهان الهيكل (ولا تظهروا أمامي فارغين).

٣- ومن سخافات المبشرين والمستشرقين أنهم يأخذون على الإسلام رمي الجمرات وينسون أن شعائر الضحية كما يرتبها الكهان الإسرائيليون تتجاوز الاعتراف بوجود الشيطان إلى تقديم القربان إليه، فإذا كان يوم الكفارة جاءوا بجديين وفضلوا أحدهما بالقرعة فتقربوا به إلى الله ثم تقربوا بالآخر إلى عزازيل أي الشيطان، وأبعد من ذلك عن نزاهة التوحيد أنهم يتصورون الذبيحة طعامًا للإله﷯، فيقولون إنه سبحانه يتنسم رائحة الرضى وإنها سرور له ومتاع، ومحال أن يدخل في عقل عاقل أن من التشريع الإسلامي أن يتقرب العبد بقربانين، أحدهما للإله والآخر لروح الشر المناوئة للإله، فإن الإسلام رفض

الذبح لغير الله تعالى، وجعله من المحرمات ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾، فكيف وهم يذبحون لعزازيل وهو الشيطان بزعمهم.

خصوصية الحج في الإسلام:

وهذا يتضح بجلاء من خلال معاينة النقاط التالية:

١-لقد خطا الإسلام بالضمير الإنساني شوطًا بعيدًا في جميع المناسك والعبادات، فالمسلم لا يحج إلى الكعبة ليعزز فيها سلطان الكهان أو ليقدم إليهم القرابين والإتاوات، وإنما هي فريضة للأمة وفي مصلحة الأمة، وعلى شريعة المساواة بين أبناء الأمة، وهي بهذه المثابة فريضة اجتماعية تعلن فيها الأمم الإسلامية وحدتها، والمساواة بين الكبير والصغير أمام الله وعند بيت الله.

أي جاذبية تلك التي تجمع هذا العدد العظيم من الناس على اختلاف ألسنتهم وألوانهم؟ ، وعلى الرغم من هذا يتحد تفكيرهم بعد المجيء إلى مكة، فالكل يسير نحو هدف مشترك حتى إنه ليبدو أن هناك مغناطيسًا ربانيًا يجذب كل هؤلاء إلى نقطة واحدة مشتركة، وهذا التوحد والانصهار إنما يعيد صياغة المسلم بقوة واقتدار، فيريه جنسيته الحقيقية، إنه مسلم، وهذه جنسيته الحقيقية التي منحه إياها الإسلام، وهذا الوطن المعنوي الذي يحتل الأرض كلها والسماء له عليه حقوق، وإخوانه في هذه الجنسية لهم عليه حقوق، وهذا الفهم يحدث اتساعًا في مدارك المسلم بقدر اتساع آفاق الإسلام.

٢-إن هؤلاء اليهود والنصارى يعيبون شعيرة الرجم في الإسلام ويعيبون تقبيل الحجر الأسود ويعتبرون ذلك من بقايا الوثنية، والإسلام بريء من افتراءاتهم، فإن تعظيم المسلم للمناسك وأماكنها تعظيم لله تعالى، وهم على الرغم من ذلك يبعدون النجعة في فهمهم لمعنى الضحية، فيقدمون ضحيتين إحداهما لله والأخرى لروح الشر التي يمثلها عزازيل، فإن التضحية ليست في الإسلام طعامًا للكهان أو طعامًا للإله أو قربانًا لكسب الرضى من عزازيل، ولكنها صدقة أو سخاء من النفس في سبيل العبادة، يشير بها الإنسان إلى واجب الضحية بشيء من الدنيا في سبيل الدين متجشمًا لذلك مشقة الرحلة وتكاليفها جهد المستطيع، وهي في الإسلام تطهير النفس وطعمة للفقراء والمساكين، فإنها تعني إراقة دم الرذيلة بيد اشتد ساعدها في بناء الفضيلة، ورمز للتضحية والفداء على مشهد من جند الله الأطهار الأبرار،

فليست التضحية سلبية تعني اتقاء قوى الشر، ولكنها في الإسلام تتعدى هذا المعنى السلبي إلى معنى أجل وأرفع، وهو مقاومة الشر والرذيلة والتضحية في سبيل ذلك.

٣- والحج في الإسلام شحنة روحية متقدة لا تخبو، تريه ماضي دينه العريق وحاضره الخصب ومستقبله المأمول، وتربطه بمشاعر الحب والأخوة والمسئولية فتملأ جوانحه خشية وتقى لله، وعزمًا على طاعته وندمًا على معصيته، وتغذي فيه عاطفة الحب لله ولرسول الله ﷺ ولمن عزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أُنزل معه، وتوقظ فيه مشاعر الأخوة لأبناء دينه في كل مكان وتوقد صدره شعلة الحماسة لدينه والغيرة على حرماته، وهذه الدلالة الروحية في الإسلام لا ترتبط بموسم الزرع والحصاد، فإنه يتفق في جميع المواسم والمواعيد ويأتي في الشتاء أو الصيف كما يأتي في الربيع، وهو بهذا المعنى علاقة سماوية روحية تناسب مقصدها الأسمى من تحقيق الرابطة بين الأمم التي تدين بعقيدة واحدة في أرجاء الكرة الأرضية على تباعد مواقعها واختلاف أجوائها وفصولها، فهو رابطة من روابط السماء تؤمن بها أمم وحدتها العقيدة السماوية، وإن فرقت بينها شتى المطارح والبقاع.

٤-الحج في الإسلام هو فريضة الله الباقية في صورتها الشاملة الكاملة كما نزل بها الوحي على محمد ﷺ بعد أن ضيع اليهود والنصارى هذه الشعيرة واستبدلوا بها شعائر ما نزَّل الله بها من سلطان، بل وضعها كهنتهم ورجال دينهم، ولقد طال بحث المؤرخين الغربيين عن أصول الحج إلى الكعبة قبل الإسلام وتواترت الأقوال بتعدد الأبنية التي كانت من قبليها في الجزيرة العربية، ومنها كعبة صنعاء التي يقال إنها كانت في موضع مسجد غمدان وكعبة نجران التي كشفها الرحالة المعروف الشيخ عبد الله فلبي سنة١٩٣٦م، وغير هاتين الكعبتين مما ورد في بعض الأخبار الضعاف بغير سند من دلائل الثقات، وأيًا كان القول الفصل في تاريخ الماضي فالحج الإسلامي في عصرنا هذا هو الفريضة الوحيدة الباقية من قبيلها في جميع الأديان الكتابية.

فهيكل بيت المقدس قد تهدم منذ القرن الأول للميلاد، ولم يرد في الأناجيل المسيحية نص على مكان مقدس مفروض على المسيحيين أن يحجوا إليه، وكل ما عرف بعد القرون الأولى فإنما اتبع فيه الخلف سنة الملكة (هيلانة) أم الإمبراطور قسطنطين التي قيل إنها وجدت

الصليب الأصيل في فلسطين عندما توجهت إليها لزيارة آثار السيد المسيح، وهي قصة يكفي للدلالة على قيمتها التاريخية أن رواتها جميعًا نقلوها بعد عصر الملكة (هيلانة)، وأن مؤرخ العصر الأكبر (يوسيبيوس) لم يشر إليها بكثير أو قليل على شدة اهتمامه باستقصاء الأخبار التي لا تُدرك بالقياس إلى هذا الخبر العظيم، أما فريضة الحج الإسلامي قد بقيت لها رسالتها التي لا عبث فيها ولا موضع للمكر والدسيسة من ورائها، وإن رسالتها اليوم في العالم الإسلامي لأعظم وألزم من رسالتها في جميع الأزمنة لأنا العهد المجدد في كل عام بين شعوب الإسلام في عصر هم أحوج ما يكونون فيه إلى الوفاق والوئام.

فنحن الآن أمام فريضة إلهية وتنزلات سماوية، لا تدخُّل فيها لبشر، ولا إضافة ولا حذف، بل هي وحي الله ﷻ لنبيه ﷺ لم تَشُبْه لوثات الجاهلين ولا افتراءات المضللين.[1]

* * *

(١) شبهات المستشرقين حول العبادات في الإسلام د. ناصر السيد صـ٤٠٨-٣٨٣ باختصار.

سورة الفرقان

وفيها:

١- شبهة: أساطير الأولين.

٢- شبهة: إنكار أصحاب الرس.

٣- شبهة: غرفة أم غرفات.

١ـ شبهة: أساطير الأولين.

نص الشبهة:

قال تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٥ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ (الفرقان: ٥ - ٦).

فقالوا: اتهم المشركون محمدًا بأنه يورد أساطير الأولين في القرآن، وأن القرآن لم يرد على هذه الشبهة؟ لكنه فقط ينفي أن تكون هذه الأساطير من عند محمد، واستدلوا على ذلك في زعمهم بتعجب الإمام (الرازي) من رد القرآن، وموافقته لهذه القضية.

والجواب عن هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: إثبات كذب هؤلاء في هذا الزعم من نفس كلامهم في الآية.

الوجه الثاني: أن الضمير في قوله ﴿أَنزَلَهُ﴾ لا يعود على أساطير الأولين، وإنما هو عائد إلى القرآن.

الوجه الثالث: أن الآية جوابًا وإنكارًا، وليست إقرارًا، بل ترد على الشبهة.

الوجه الرابع: بيان كذبهم على الإمام (الرازي)، وأن هذا ليس من الأمانة في نقل الأخبار.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: إثبات كذبهم في هذا الادعاء من نفس كلامهم في الآية.

فإنهم قالوا اكتتبها، ومعلوم أن النبي ﷺ لا يقرأ ولا يكتب، وهذا الكلام لسخافته وكذبه وبهته كل أحد يعلم منهم بطلانه، فإنه قد علم بالتواتر وبالضرورة: أن محمدًا رسول الله ﷺ لم يكن يعاني شيئًا من الكتابة لا في أول عمره ولا في آخره، وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده إلى أن بعثه الله نحوا من أربعين سنة، وهم عرفوا مدخله ومخرجه، وصدقه وبره وأمانته، ونزاهته من الكذب والفجور، وسائر الأخلاق الرذيلة حتى أنهم لم يكونوا يسمونه في صغره إلى أن بعث إلا ب (الأمين) لما يعلمون من صدقه وبره، فلما أكرمه الله بما أكرمه به نصبوا له العداوة والبغضاء، ورموه بهذه الأقوال التي يعلم كل عاقل براءته منها، وحاروا في ماذا يقذفون به، فتارة من إفكهم يقولون: ساحر، وتارة يقولون: شاعر، وتارة يقولون: مجنون،

وتارة يقولون: كذاب، قال الله تعالى: ﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ (الفرقان: ٩)، وقال تعالى ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٨)، وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (الأعراف: ١٥٧: ١٥٨).(١)

الوجه الثاني: الضمير عائد على القرآن، وليس إلى أساطير الأولين حتى نقول أنه أثبت ذلك.

قال تعالى: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٦) ﴾ (الفرقان: ٦). أي أن الله أنزل هذا القرآن المشتمل على أخبار الأولين والآخرين إخبارًا حقًا صدقًا مطابقًا للواقع في الخارج ماضيًا ومستقبلًا.(٢)

الوجه الثالث: أن في الآية جوابًا وإنكارًا، وردًا على هذه الشبهة.

فإن الله سبحانه تكلم في هذه السورة عن التوحيد، لأنه أقدم وأهم، ثم تكلم في النبوة لأنها الواسطة، ثم في المعاد لأنه الخاتمة، فلما فرغ من بيان التوحيد، وتزييف مذاهب المشركين، شرع في ذكر شبهة منكري النبوة، فالشبهة الأولى ما حكاه عنهم بقوله: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (٤) ﴾ (الفرقان: ٤). فرد الله عليهم بقوله: ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾، ثم ذكر الشبهة الثانية فقال: ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٥) ﴾ (الفرقان: ٥)، فأجاب الله سبحانه عن

---

(١) تفسير ابن كثير (١٠/ ٢٨٥-٢٨٦).

(٢) تفسير ابن كثير (١٠/ ٢٨٦)، وزاد المسير (٦/ ٧٣)، والقرطبي (١٣/ ٨).

هذه الشبهة بقوله: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (الفرقان: ٦)، أي: ليس ذلك مما يفترى ويفتعل بإعانة قوم وكتابة آخرين من الأحاديث الملفقة، وأخبار الأولين بل هو أمر سماوي أنزله الذي يعلم كل شيء، لا يغيب عنه شيء من الأشياء، فلهذا عجزتم عن معارضته، ولم تأتوا بسورة منه، وخص السر للإشارة إلى إنطواء ما أنزله سبحانه على أسرار بديعة لا تبلغ إليها عقول البشر.[1]

الوجه الرابع: بيان كذبهم على الإمام الرازي، وأن هذا ليس من الأمانة في نقل الأخبار.

ولا عجب من ذلك فهذا صنيعهم إذا كانوا حرفوا كتاب الله، فمن باب أولى أن يحرفوا كلام البشر، ولو قرؤوا كلام الرازي بتدبر لفهموا كلامه، إذ إن الإمام الرازي بين أولًا أنها جوابًا على الشبهة، ثم ذكر بعض مباحث عن الجواب ورد عليها أيضًا.

وهذا هو كلامه كاملًا: فقال:

(الشبهة الثانية لهم) قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ ﴾ (الفرقان: ٥) **وفيه أبحاث:**

البحث الأول: الأساطير ما سطره المتقدمون كأحاديث رستم واسفنديار، جمع أسطار أو أسطورة كأحدوثة: ﴿ٱكْتَتَبَهَا﴾ انتسخها محمدﷺ من أهل الكتاب يعني عامرًا ويسارًا وجبرًا، ومعنى اكتتب ههنا أمر أن يكتب له كما يقال احتجم وافتصد إذا أمر بذلك: ﴿فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي تقرأ عليه والمعنى أنها كتبت له وهو أمي فهي تلقي عليه من كتابه ليحفظها لأن صورة الإلقاء على الحافظ كصورة الإلقاء على الكاتب.

أما قوله: ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾، قال الضحاك: ما يملى عليه بكرة يقرؤه عليكم عشية، وما يملى عليه عشية يقرؤه عليكم بكرة.

البحث الثاني: قال الحسن قوله: ﴿فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ كلام الله ذكره جوابًا عن قولهم كأنه تعالى قال إن هذه الآيات تملى عليه بالوحي حالًا بعد حال، فكيف

(١) فتح القدير (٤/ ٨٩)، والجامع لأحكام القرآن (١٣/ ٨)، و أضواء البيان (٩/ ٢٨٣، ٢٨٤).

ينسب إلى أنه أساطير الأولين.

وأما جمهور المفسرين فقد اتفقوا على أن ذلك من كلام القوم، وأرادوا به أن أهل الكتاب أملوا عليه في هذه الأوقات هذه الأشياء ولا شك أن هذا القول أقرب لوجوه:

أحدها: شدة تعلق هذا الكلام بما قبله، فكأنهم قالوا اكتتب أساطير الأولين فهي تملى عليه

وثانيها: أن هذا هو المراد بقولهم: ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَ﴾.

وثالثها: أنه تعالى أجاب بعد ذلك عن كلامهم بقوله: ﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ﴾.

قال الزمخشري[1]: وقول الحسن إنما يستقيم أن لو فتحت الهمزة للاستفهام الذي في معنى الإنكار وحق الحسن أن يقف على: ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، وأجاب الله عن هذه الشبهة بقوله: ﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ (الفرقان: ٦) وفيه أبحاث:

البحث الأول: في بيان أن هذا كيف يصلح أن كون جوابًا عن تلك الشبهة؟ ، وتقريره ما قدمنا أنه عليه السلام تحداهم بالمعارضة وظهر عجزهم عنها، ولو كان عليه السلام أتى بالقرآن بأن استعان بأحد، لكان من الواجب عليهم أيضًا أن يستعينوا بأحد، فيأتوا بمثل هذا القرآن، فلما عجزوا عنه ثبت أنه وحي الله وكلامه، فلهذا قال: ﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾، وذلك لأن القادر على تركيب ألفاظ القرآن لابد وأن يكون عالمًا بكل المعلومات ظاهرها وخافيها وليس ذلك إلا الله.

وبيانه من وجوه:

أحدها: أن مثل هذه الفصاحة لا يتأتى إلا من العالم بكل المعلومات.

ثانيها: أن القرآن مشتمل على الإخبار عن الغيوب، وذلك لا يأتي إلا من العالم بكل المعلومات.

ثالثهما: أن القرآن مبرأ عن النقص، وذلك لا يأتي إلا من العالم على ما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾ (النساء: ٨٢).

---

(١) الكشاف للزمخشري (٣/ ٢٦٤).

رابعها: اشتماله على الأحكام التي هي مقتضية لمصالح العالم ونظام العباد، وذلك لا يكون إلا من العالم بكل المعلومات.

خامسها: اشتماله على أنواع العلوم، وذلك لا يتأتى إلا من العالم بكل المعلومات.

فلما دل القرآن من هذه الوجوه على أنه ليس إلا كلام العالم بكل المعلومات لا جرم أكتفي في جواب شبهتهم بقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ ﴾[1].

قلت: وهذا هو الكلام الصحيح الذي لا غبار عليه. فتراه أقر بأن الآية جوابًا في أولها وفي منتصفها وفي خاتمتها، ورد على كل الشبهات المتعلقة، فرحمه الله.

وكان محل كلامنا في عرضه للشبهة الثانية لهم، والرد عليها.

* * * *

(١) التفسير الكبير للرازي (٢٤/ ٥١، ٥٢).

٢ـ شبهة: إنكار أصحاب الرس.

نص الشبهة:

قال تعالى: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَـٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ ﴾ (الفرقان: ٣٨)

قالوا: بعد أن ذكروا اختلاف أهل العلم فيهم ما هذا الرس وفي أي البلاد وفي أي زمن؟! ولماذا لم يوضح القرآن ذلك؟

والجواب عن هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: قصة أصحاب الرس ثابتة بالقرآن.

الوجه الثاني: تحقيق القول في أصحاب الرس.

الوجه الثالث: القصة وبيان أهميتها في القرآن.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: قصة أصحاب الرس ثابتة بالقرآن.

قال تعالى: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَـٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ ﴾ (الفرقان: ٣٨).

وقال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَـٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ (ق ١٢: ١٤).

فهذه من قصص القرآن التي ذكرها الله في كتابه فيجب الإيمان والتصديق بها؛ لأنه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

وقد وصف الله أخباره عن القصص بصفة الحق، كما قال تعالى: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ (الكهف: ١٣)، وقال تعالى: ﴿ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (القصص: ٣).

وإذا كان هذا هو الحق عن ذلك فلا يجوز فيه النسخ أو التبديل أو التحريف.

وإذا كان النبي ﷺ أخبر بذلك فهذا بوحي من الله، كما قال تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ (النجم: ٤).

ثم إن الله ﷻ قد أرسل الرسل فمنهم من ذكر خبره في القرآن، ومنهم من لم يذكر خبره، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ

وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ (غافر: ٧٨)، وكذلك الأمم فمنهم من ذكر خبره ومنهم من لم يذكر، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ (إبراهيم: ٩).

وقصة وأصحاب الرس مما ذكر القرآن أشار إليها فوجب الإيمان والتصديق بها حتى وإن كنا لا نعلم من هو الذي أرسل إليهم؟ وكيف كانت سيرتهم؟!

الوجه الثاني: تحقيق القول في أصحاب الرس.

القول الأول: أنهم في اليمن على آبار.

فعن قتادة قال: (وأصحاب الرس) كانوا بحجر بناحية اليمامة على آبار. [١]

القول الثاني: قرية من ثمود. قال ابن عباس ﷺ: "أنهم قال قرية من ثمود". [٢]

القول الثالث: أنهم أصحاب يس.

فعن عكرمة قال: أصحاب الرس بفلج هم أصحاب يس. [٣]

وعن الضحاك قال: بئر قتل فيه صاحب يس. [٤]

وقد استبعد ابن الجوزي هذا القول. [١]

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢٩٥١) بإسناد صحيح، وأخرجه الطبري في تفسيره (١٩/ ١٤) عن قتادة أنه قال: قرية اليمامة يقال لها الفلج. بإسناد ضعيف فيه جرير بن حازم ثقة لكن في حديثه عن قتادة ضعف. التقريب (١/ ٨٧)، وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٥١٧٦) بإسناد صحيح عن قتادة قال: كانوا أهل فلج، وآبار كانوا عليها.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٩/ ١٣) حدثنا القاسم؛ قال: ثنا الحسين، قال: ثني حجاج، عن ابن جُرَيج، قال: قال: ابن عباس وإسناده ضعيف فيه (ابن جريج) وهو عبد العزيز والد عبد الملك، وهو "لين الحديث"التقريب (١/ ٣٥٧)، والحسين هو ابن داود، والمصيصي (سنيد) ضُعِّف مع أمانته ومعرفته. التقريب (١/ ٢٣٢). وهذا الأثر لا يصح.

(٣) جامع البيان (١٩/ ١٤) بإسناد ضعيف فيه ابن جريج وهو مدلس، و لم يسمع من عكرمة.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٦/ ١٥٤) بإسناد ضعيف. فيه (أبو معاذ) الفضل بن خالد. ذكره ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (٧/ ٦١)، ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلًا، (ومثله مجهول الحال). وفيه إبهام شيخ الطبري؛ حيث قال: حُدثت عن الحسين.

القول الرابع: أصحاب الرس بئر بأزربيجان.

فعن ابن عباس: في قوله: ﴿وَأَصْحَابَ الرَّسِّ﴾ بئر بأزربيجان[٢]

قال ابن عاشور: ولا أحسب أنه المراد في هذه الآية، ولعله من تشابه الأسماء. [٣]

القول الخامس: عن مجاهد قال: "الرس بئر كان عليها قوم". [٤]

القول السادس: عن قتادة أنه قال: "إن أصحاب الأيكة، وأصحاب الرس كانتا أمتين، فبعث الله إليهم نبيًا واحدًا شعيبًا، وعذبها الله بعذابين". [٥]

(١) المنتظم لابن الجوزي (٢/ ٣٢).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٥١٧٣) حدثنا أحمد بم عمرو بن أبي عاصم النبيل، حدثني أبي أنبأ شبيب بن بشير، عن عكرمة عن ابن عباس. . . وإسناده ضعيف فيه:

أ ـ شبيب بن بشير "صدوق يخطئ" التقريب (١/ ٢٤٠) و لا يروي عنه إلا الضحاك بن مخلد.

ب ـ أحمد بن عمرو بن أبي عاصم النبيل قال: حدثني أبي (الضحاك بن مخلد كما بينه ابن كثير في تفسيره).

قلت: الضحاك بن مخلد ولد سنة (١٢٢) هـ، وتوفى سنة (٢١٢) هـ، و أحمد بن عمرو أبي عاصم ولد (٢٠٦) هـ، وتوفى (٢٨٧) هـ، وعلى هذا كان عمر أحمد بن عمرو يوم وفاة جده ست سنوات وهذا يحتمل، لكن قالت عاتكة بنت أحمد بن عمرو: ولد أبي في شوال سنة ست ومئتين، فسمعته يقول: ما كتبت الحديث حتى صار لي سبع عشرة سنة، وذلك أني تعبدت وأنا صبي، فسألني إنسان عن حديث، فلم أحفظه، فقال لي: ابن أبي عاصم لا تحفظ حديثًا؟! ، فاستأذنتُ أبي، فأذن لي، فارتحلت. سير أعلام النبلاء (١٣/ ٤٣١). وهذا في تفسيره يدل على أنه لم يسمع من جده.

(٣) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٨).

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (١٩/ ١٤) من حديث محمد بن عمارة، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٥١٧٤) من حديث أبي سعيد الأشج كلاهما (محمد، أبو سعيد) عن عبيد بن موسى، أخبرنا إسرائيل، عن أبي يحيى، عن مجاهد قال: الرس بئر كان عليها قوم. و الإسناد ضعيف فيه أبو يحيى القتات لين الحديث، وروى عنه إسرائيل أحاديث كثيرة منكرة جدًا. تهذيب الكمال (٣٤/ ٤٠٢).

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٦/ ١٥٤) حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: أخبرنا عمرو بن الحارث، عن سعيد بن أبي هلال، عن عمرو بن عبد الله، عن قتادة أنه قال: وذكره وفيه عمرو بن عبد الله (لم أقف عليه فيمن روى عن قتادة، ولا فيمن روى عنه سعيد بن أبي هلال) فمثل هذا يتوقف فيه.

القول السابع: هم قوم رسوا نبيهم في بئر. فعن عكرمة قال: "كان الرس بئرًا رسَّوا فيها نبيهم ". [١]

القول الثامن: أصحاب الرس هم أصحاب العبد الأسود. فعن محمد بن كعب القرظي قال: قال رسول الله ﷺ: " إن أول الناس يدخل الجنة يوم القيامة العبد الأسود "[٢]

قال ابن كثير: وفيه غرابة ونكارة ولعل فيه إدراجًا. [٣]

قال الطبري: غير أن هؤلاء في هذا الخبر يذكر محمد بن كعب عن النبيّ ﷺ أنهم آمنوا بنبيهم واستخرجوه من حفرته، فلا ينبغي أن يكونوا المعنيين بقوله: ﴿وَأَصْحَابَ الرَّسِّ﴾ لأن الله أخبر عن أصحاب الرّسّ أنه دمرهم تدميرا، إلا أن يكونوا دمروا بأحداث أحدثوها بعد نبيهم الذي استخرجوه من الحفرة وآمنوا به، فيكون ذلك وجهًا. [٤]

هذه هي الأقوال التي ذكرت مسنده في أصحاب الرس.

وقد قيل في ذلك أقوال أخرى غير مسنده منها:

١ـ هم أصحاب البئر المعطلة وقصر مشيد.

٢ـ هم أصحاب حنظله بن صفوان.

٣ـ هم أصحاب الأخدود.

٤ـ قومًا كانوا يعبدون شجرة الصنوبر.

٥ـ أنهم قومًا أرسل إليهم نبيًا فأكلوه! ، وهم أول من عمل نساءهم السحر.

٦ـ قوم كانت لهم قرية على شاطئ النهر يقال له الرس من بلاد المشرق فبعث الله تعالى إليهم نبيًا من ولد يهود ابن يعقوب فكذبوه.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٩/ ١٤)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٥١٧٥).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٩/ ١٤: ١٥)، وهو (مرسل ضعيف) فيه محمد بن كعب (ثقة عالم)، من الثالثة، ولد ستة أربعين على الصحيح التقريب (٢/ ٥٤٩) ومحمد بن إسحاق (مدلس وقد عنعن).

(٣) تفسير القرآن لابن كثير (٦/ ١٢٠).

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (١٩/ ١٥).

٧ـ هن اللواتي كن على عهد (تُبع) يفعلن السحاق. (١)

وملخص أصحاب الرس أنهم قوم أهلكهم الله تعالى بتكذيب من أرسل إليهم، وأن الله أهلكهم بسبب كفرهم. (٢)

وقد اختار ابن جرير الطبري أنهم أصحاب الأخدود حيث قال: والصواب من القول في ذلك، قول من قال: هم قوم كانوا على بئر، وذلك أن الرّسّ في كلام العرب: كلّ محفور مثل البئر والقبر ونحو ذلك، ولا أعلم قومًا كانت لهم قصة بسبب حفرة، ذكرهم الله في كتابه إلا أصحاب الأخدود، فإن يكونوا هم المعنيين بقوله: ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ فإنا سنذكر خبرهم إن شاء الله إذا انتهينا إلى سورة البروج، وإن يكونوا غيرهم فلا نعرف لهم خبرا؛ إلا ما جاء من جملة الخبر عنهم أنهم قوم رَسوا نبيهم في حفرة". (٣)

قال ابن كثير: وقد اختار ابن جرير أنهم أصحاب الأخدود وهو ضعيف؛ وذلك لأن أصحاب الرس في خبرهم ما يدل على أنهم أهلكوا ودمروا وتبروا وهو الهلاك، وأما أصحاب الأخدود حيث توعدهم بالعذاب في الآخرة إن لم يتوبوا ولم يذكر هلاكهم، وقد صرح بهلاك أصحاب الرس. (٤)

الوجه الثالث: القصة في القرآن وأهميتها.

وفي هذا الوجه نذكر صفة القصص في القرآن، وأقسامه، وأهميته.

أولًا: صفة القصص في القرآن:

١ـ أصدق القصص كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ (النساء: ٨٧)، وذلك لتمام مطابقتها للواقع.

٢ـ أحسن القصص كما قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ (يوسف: ٣)، وذلك لاشتمالها على أعلى درجات الكمال في البلاغة وجلال المعنى.

---

(١) النكت والعيون (٤/ ١٤٥ـ١٤٦)، و زاد المسير (٦/ ٩٠)، و الرازي (٢٤/ ٨٢).

(٢) الرازي (٢٤/ ٨٣)، وروح المعاني (١٩/ ٢٠).

(٣) جامع البيان (١٩/ ١٤).

(٤) قصص الأنبياء (١/ ٣٧٥) بتصرف.

٣ـ أنفع القصص كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (يوسف: الآية١١١)، وذلك لقوة تأثيرها في إصلاح القلوب والأعمال والأخلاق.

٤ـ موسوم بوسام الحق: كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ (آل عمران: ٦٢).

وقال تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ (الكهف: ١٣) وهذا معناه أنه لا يتبدل ولا يتغير.

ثانيًا: أقسام القصص في القرآن:

وهي على ثلاثة أنوع:

الأول: قصص الأنبياء:

وقد تضمن دعوتهم إلى قومهم والمعجزات التي أيدهم الله بها، وموقف المعاندين منهم، ومراحل الدعوة وتطورها، وعاقبة المؤمنين والمكذبين.

الثاني: قصص قرآني يتعلق بحوادث غابرة وأفراد وطوائف جرى لهم ما فيه عبرة.

كقصة مريم ولقمان وقصة الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها، وذي القرنين وقارون وأصحاب الكهف وأصحاب الأخدود وأصحاب الفيل وأصحاب السبت ونحو ذلك.

الثالث: قصص يتعلق بالحوادث التي حدثت في زمن رسول الله ﷺ وأقوام على عهده.

كغزوة بدر وأحد والأحزاب وغيرها من الغزوات، وحادث الهجرة والإسراء، وقصة زيد بن حارثة مع زوجته، وأبي لهب وغير ذلك. [1]

ثالثا: أهمية (فوائد) القصص:

١ - تسلية النبي ﷺ عما أصابه من المكذبين به:

قال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ (فاطر ٢٥: ٢٦).

٢ - تثبيت قلب رسول الله ﷺ وقلوب الأمة المحمدية على دين الله:

---

(١) مباحث في علوم القرآن مناع القطان (١-٣) أصول في التفسير محمد بن صالح العثيمين (٥٧).

قال تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (هود: ١٢٠).

٣- دليل على صدق رسالة النبي ﷺ: فإن الأخبار عن الأمم السابقة لا يعلمها إلا الله ﷻ، والنبي ﷺ كان لا يقرأ ولا يكتب، كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٨). وقال تعالى: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (هود: ٤٩).

٤ – العظة والعبرة:

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (يوسف: ١١١).

٥ـ تسلية الشخص المصاب وتعزيته بأهل الفضل والصلاح:

قال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ (الأحقاف: ٣٣).

٦ـ ترغيب المؤمنين في الإيمان بالثبات عليه والازدياد منه، إذا علموا نجاة السابقين المؤمنين وانتصار من أمروا بالجهاد:

قال تعالى: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأنبياء: ٨٨). وكما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الروم: ٤٧)

٧ـ تحذير للكافرين وأصحاب المعاصي من الاستمرار على ذلك: قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴾ (محمد: ١٠).

٨ ـ إيضاح أسس الدعوة إلى الله، وبيان أصول الشرائع التي بعث بها كل نبي، فهي منهج دعوي لأصحاب الدعوة:

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٢٥).

٩ ـ منهج تربوي في جميع المجالات.[1]

* * * *

---

(١) أصول في التفسير لابن عثيمين (٥٧ - ٥٨)، ومباحث في علوم القرآن للقطان (٣٠١ - ٣٠٢).

٣ـ شبهة: غرفة أم غرفات.

نص الشبهة:

قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ (الفرقان: ٧٥)، وقال تعالى: ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ (سبأ: ٣٧)، في الآية الأولى (الغرفة)، وفي الثانية (الغرفات)، فكيف يكون الرد؟

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: هذا ليس بتعارض، فذكر المفرد وإرادة الجمع هذا من أساليب القرآن المعجز.

الوجه الثاني: بيان معاني الغرفة وأنها درجة عالية رفيعة في الجنة.

الوجه الثالث: بيان الحكمة من الإفراد والجمع في الآيتين.

الوجه الرابع: بيان أوجه القراءات في قوله: ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: ذكر المفرد ويراد به الجمع، هذا أسلوب من أساليب القرآن المعجز وهذا منه.

قال الشنقيطي: الذي يظهر لي من استقراء اللغة العربية التي نزل بها القرآن، هو أن من أساليبها أن المفرد إذا كان اسم جنس يكثر إطلاقه مرادًا به الجمع مع تنكيره، وتعريفه بالألف واللام، وبالإضافة فمن أمثلته في القرآن مع التنكير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ﴿٥٤﴾ ﴾ أي: وأنهار بدليل قوله تعالى: ﴿ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ﴾، وقوله: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ أي: أئمة، وقوله تعالى: ﴿فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا﴾ أي: أنفسًا، وقوله تعالى: ﴿ مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرٗا تَهۡجُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ أي سامرين، وقوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾ أي: بينهم، وقوله تعالى: ﴿ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾ أي: رفقاء، وقوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْ ﴾ أي: مجنبين أو أجنابًا، وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ أي: مظاهرون. ومن أمثلة ذلك مع التنكير في كلام العرب قول عقيل بن علفة المري:

وكان بنو فزارة شرّ عم وكنتُ لهم كشر بني الأَخينا

يعني: شر أَعمام.

وقول قعنب ابن أم صاحب:

ما بال قوم صديق ثم ليس لهم دين وليس لهم عقل إذا ائتمنوا

يعني: ما بال قوم أصدقاء.

وقول جرير:

نصبن الهوى ثم ارتمين قلوبنا بأعين أعداء وهن صديق

يعني: صديقات.

وقول الآخر:

لعمري لئن كنتم على النأي والنوى بكم مثل ما بي إنكم لصديق

أي لسن لي بأمراء، ومن أمثلته في القرآن واللفظ مضاف قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ أي أصدقائكم: وقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ أي أوامره: وقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ أي نعم الله، وقوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى﴾ أي أضيافي، ونظير ذلك من كلام العرب قول علقمة بن عبدة التميمي:

بها جيف الحسرى فأما عظامها فبيض وأما جلدها فصليب

أي: وأما جلودها فصليبة، وقول الآخر:

كلوا في بعض بطنكم تعفوا فإن زمانكم زمن خميص

أي: بطونكم. وهذا البيت والذي قبله أنشدهما سيبويه في كتابه مستشهدًا بهما لما ذكرنا.

ومن أمثلة ذلك قول العباس بن مرداس السلمي:

فقلنا أسلموا إنا أخوكم وقد سلمت من الأحسن الصدور

أي: إنا إخوانكم.

وقول جرير:

إذا آباؤنا وأبوك عدوًا أبان المقرفات من العراب

أي: إذا آباؤنا وآباؤك عدوًا

وهذا البيت، والذي قبله يحتمل أن يراد بهما جمع التصحيح للأب وللأخ، فيكون الأصل: أبون وأخون فحذفت النون للإضافة، فصار كلفظ المفرد.

ومن أمثلته جمع التصحيح في جمع الأخ بيت عقيل بن علفة المذكور آنفًا، حيث قال فيه: كشربني الأخينا ومن أمثلة تصحيح جمع الأب قول الآخر:

فلما تبين أصواتنا بكين وفديننا بالأبينا

ومن أمثلة ذلك في القرآن: واللفظ معرف بالألف واللام قوله تعالى: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ أي: بالكتب كلها، بدليل قوله: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ﴾ وقوله: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ أي: الغرف بدليل قوله: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾، وقوله: ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا﴾، أي: الملائكة بدليل قوله ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، وقوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ أي: الأدبار بدليل قوله تعالى: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾، وقوله تعالى: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: الأطفال، وقوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ أي الأعداء، ونحو هذا كثير في القرآن، وفي كلام العرب: وهو في النعت بالمصدر مطرد، كما تقدم مرارًا.

ومن أمثلة ذلك قول زهير:

متى يَشْتَجِر قومٌ يقل سرواتهم هم بيننا هم رضي وهم عدل

أي عدول مرضيون[1].

الوجه الثاني: بيان معاني الغرفة، وأنها درجة عالية في الجنة.

فقد تعددت أقوال أهل العلم في تفسير معني الغرفة، وهاهي:

---

(١) أضواء البيان (٥/ ٣٢: ٢٩).

القول الأول: الغرفة هي الدرجة العالية الرفيعة في الجنة. وهي من أعلى منازل الجنة وأفضلها[١]. وعليه فلا إشكال، فالجنة درجات وكل على حسب عمله فهم في الجنة، والجنة درجات وغرف وكل على حسب رحمة الله وفضله. وكل علي حسب عمله، فكما أن الناس متفاوتون في الدنيا هذا فقير مدقع وهذا غني موسع عليه، فكذلك هم في الآخرة. هذا في الغرفات في أعلي الدرجات وهذا في الغمرات في أسفل الدركات، قال تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ (طـه: ٧٥)، وقد قال ﷺ من حديث أبي هريرة ﷺ: " إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ. . . "[٢]، وفي حديث أبي سعيد الخدري ﷺ قال ﷺ: " إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ فِي الْأُفُقِ. . . "[٣].

القول الثاني: الغرفة هي الجنة، وهذا الأثر قاله الضحاك[٤].

وهو اختيار ابن كثير[٥].

القول الثالث: الغرفة هي غرف الدرر والزبرجد واللؤلؤ والياقوت في الجنة[٦].

أخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن سهل بن سعد عن النبي ﷺ في قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾ قال: هي ياقوتة حمراء أو زبرجدة خضراء أو درة بيضاء ليس فيها فصم ولا وصم[٧].

---

(١) تفسير الطبري (١٩/ ٥٤)، والبغوي (٣/ ٣٧٩)، والمحرر الوجيز (٤/ ٢٢٣)، والرازي (٢٤/ ١١٥)، والقرطبي (١٣/ ٩٠)، والخازن (٣/ ٣٢٠)، وأبو السعود (٦/ ٢٣١)، وفتح القدير (٤/ ١٢٨)، والقاسمي (١٢/ ٢٨٤)، وروح المعاني (١٩/ ٥٣)، وفتح البيان (٩/ ٣٥٦).

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٩٠).

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (٢٨٣١).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (١٥٤٩٥)، وابن أبي شيبة في المصنف (٨/ ٨٠)، فيه جويبر (أبوسعيد الأزدي) ضعيف جدًّا، التقريب (١/ ٩٤).

(٥) تفسير القرآن (١٠/ ٣٣٤).

(٦) الخازن (٣/ ٣٢٠)، والدر المنثور (٦/ ٢٨٥).

(٧) ضعيف. انظر ضعيف الجامع (٣٩٢٥).

وبعد هذا التحقيق تبين أن المراد بالغرفة هي منزلة علية رفيعة في الجنة، وهي من أعلى منازل الجنة وأفضلها، والحكمة من ذلك هي: كما أن الغرفة أكرم شيء فيما اعتاد الناس في البيوت في هذه الأرض فيستقبلون فيها الأضياف، فكذلك لعباد الرحمن أولئك الكرام الذين سبقت صفاتهم وسماتهم يستقبلون في أعلي المنازل وأشرفها.

الوجه الثالث: بيان الحكمة في الجمع والإفراد في الآيتين.

الحكمة في الجمع: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ لأنها رتبت علي الإيمان والعمل الصالح ولا خفاء في تفاوت الناس فيهما وعلى ذلك تتفاوت الأجزية.

الحكمة في الإفراد هنا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾ رتبت على مجموع الأوصاف الكاملة فلذا جيء بالواحد دلالة على أن الغرف لا تتفاوت[١].

الوجه الرابع: بيان أن قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ تقرأ ﴿وَهمْ فِي الغرفة آمِنونَ﴾فلا تعارض.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ (سبأ: ٣٧) قرأها حمزة وحده (الغرفة) على الإفراد والوجه، وأن المراد بالغرفة هنا الجنس والكثرة فهو جمع في المعني وإن كان بلفظ الواحد كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾، وقرأها الباقون بالجمع (في الغرفات)، والوجه أن الغرفات جمع غرفة، وإنما جاءت على لفظ الجمع لأن المعنى على الجمع. وإذا كانت الكلمة في حال الوحدة يراد بها الجمع، كان الأولى بها أن تكون بلفظ الجمع لتوافق المراد لفظًا ومعنىً، قال تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ (الزمر: ٢٠)، وقال تعالى: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ (العنكبوت٥٨)، فجاء بها علي الجمع[٢].

قلت: وعلى قراءة الجمهور بالجمع فيحمل على ماذكرنا من الوجوه المتقدمة.

* * * *

(١) روح المعاني (١٩/ ٥٣).

(٢) الموضح في وجوه القراءات وعللها (٣/ ١٠٥٦)، ويراجع التيسير لأبي عمرو الداني (١٤٧).

سورة النمل

وفيها:

١- شبهة: آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار.

٢- شبهة: سليمان والجن والطير.

٣- شبهة: هل الهدهد أعلم من سليمان النبي.

٤- شبهة: خروج الدابة.

١ـ شبهة آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار.

نص الشبهة:

اختلاف واضح في قوله تعالى: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ (النمل: ٧)، وقوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ (القصص: ٢٩).

ففي الآية الأولى تأكيد بأنه سيأتيهم منها ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا﴾ أما الآية الأخرى نرى أنه غير متأكد ويدلل على هذا بقوله: ﴿لَّعَلِّيٓ﴾.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول.

فإن قلت: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾ و﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾ كالمتدافعين، لأن أحدهما ترجٍ والأخر تيقن.

قلت: قد يقول الراجي إذا قوى رجاؤه: سأفعل كذا، وسيكون كذا مع تجويزه الخيبة.

كيف جاء بسين التسويف؟ قلت: عدة لأهله أنه يأتيهم به وإن أبطأ، أو كانت المسافة بعيدة.

فإن قلت: فلم جاء بـ (أو) دون الواو؟ قلت: بني الرجاء على أنه إن لم يظفر بحاجتيه جميعًا لم يعدم واحدة منهما: إما هداية الطريق، وإما اقتباس النار، ثقة بعادة الله أنه لا يكاد يجمع بين حرمانين على عبده، وما أدراه حين قال ذلك أنه ظافر على النار بحاجتيه الكليتين جميعًا وهما العزَّان: عز الدنيا وعز الآخرة.

زيادة وتوضيح: كان الطريق قد اشتبه على سيدنا موسى والوقت بارد والسير في ليل، فتشوقت نفسه إذ رأى النار إلى زوال ما لحق من إضلال الطريق وشدة البرد، فقال: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾ أي: مِنْ موقدها بخبر يدل على الطريق أو ﴿ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ﴾ أي: إن لم يكن هناك مَنْ يخبر فإني استصحب ما تدفؤون به منها، وهذا الترديد بـ (أو) ظاهر؛ لأنه كان مطلوبه أولًا أن يلقى على النار من يخبره الطريق فإنه مسافر ليس بمقيم، فإن لم يكن

أحد فهو مقيم، فيحتاجون لدفع ضرر البرد وهو أن يأتيهم بما يصطلون، فليس محتاجًا للشيئين معًا بل لأحدهما؛ الخبر إن وجد مَنْ يخبره فيرحل، أو الاصطلاء إن لم يجد وأقام.

فمقصوده إما هداية الطريق وإما اقتباس النار، وهو معنى قوله تعالى: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ (طه: ١٠).

وجاء هنا: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ وهو خبر، وفي سورة طه: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾، وفي القصص: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ (القصص: ٢٩)، وهو ترجٍ؛ ومعنى الترجي مخالف لمعنى الخبر ولكن الرجاء إذا قوى جاز للراجي أن يخبر بذلك وإن كانت الخيبة يجوز أن تقع، وأتى بسين الاستقبال إما لأن المسافة كانت بعيدة، وإما لأنه قد يمكن أن يبطىء لما قد أنه قد يعرض له ما يبطنه[1].

توضيح: قال ابن باشاذ: الغالب على (سوف) استعمالها في الوعيد والتهديد، وعلى السين استعمالها في الوعد، وقد تستعمل سوف في الوعد، والسين في الوعيد[2].

السين للوعد كقوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾[3]، وإذا فهمنا ذلك علمنا أن سيدنا موسى عليه السلام وعد ولم يؤكد.

بعض معاني (لعل) في اللغة العربية:

١-التوقع: وهو ترجي المحبوب والإشفاق من المكروه نحو: لعل الحبيب قادم، ولعل الرقيب حاصل. وتختص بالممكن، وقول فرعون ﴿لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ (غافر: ٣٦- ٣٧) إنما قاله جهلًا أو مخرقة وإفكًا.

٢-التعليل: أثبته جماعة منهم الأخفش والكسائي، وحملوا عليه: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝٤٤﴾ ومن لم يثبت ذلك يحمله على الرجاء ويصرفه للمخاطبين أي: اذهبا على رجائكما.

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان (٧/ ٥٣)، وانظر تفسير الرازي (٢٤/ ١٨١).

(٢) الإتقان في علوم القرآن (٢/ ١٩٨)، وانظر البرهان في علوم القرآن للزركشي (٤/ ٢٨٣).

(٣) دراسات لأسلوب القرآن لمحمد عبد الخالق عضيمة (٢/ ١٧٢).

٣-الاستفهام[1]: نحو: ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ﴾ (الطلاق: ١).
إذن من معاني (لعل) التوقع، وعلى هذا المعنى تندرج الآيه الكريمة.

* * *

---

(١) مغنى اللبيب لابن هشام (١/ ٥٥١).

٢ـ شبهة: سليمان والجن والطير.

نص الشبهة: قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ (النمل: ١٦- ١٩).

(١) لقد خصّ الله الإنسان فقط بالنطق والعقل والبيان، وعليه يكون سليمان كذب على الناس والطيور، أو يكون ما نُسب إليه هو الكذب.

(٢) هل كانت الطيور والحشرات في عصره تعقل وتدرك، ثم جرّدها الله من العقل الآن؟

(٣) لم يكن لسليمان جنود من الجنّ، بل كانت جنوده من بني إسرائيل فقط.

والرد من وجوه:

الوجه الأول: أن الإنجيل والتوراة محرفان.

الوجه الثاني: أقوال المفسرين في الآيات.

الوجه الثالث: منطق الطير، وفيه مسائل:

الوجه الرابع: الجن من جنود سليمان عليه السلام.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: التوراة والإنجيل محرفان.

لا يجوز الاحتجاج بما فيهما، وقدثبت تحريفهما بالأدلة كما سبق[1].

الوجه الثاني: أقوال المفسرين في الآيات.

قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا

---

(١) راجع بحث إثبات تحريف التوراة والإنجيل.

يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ (النمل: ١٦- ١٩).

قوله: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ أي: ورثه في العلم والملك الذي خص الله به داود على سائر قومه[١].

وهو إرث علم ونبوة، ودعوة إلى الله والقيام بدينه، لا إرث مال، ويدل لذلك ماجاء من الأدلة على أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم لا يورث عنهم المال، وإنما يورث عنهم العلم، فمن ذلك حديث أبي بكر الصديق ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: "لَا نُورَثُ مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ"[٢].

وعنْ عَائِشَةَ ﵂ أَنَّ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ تُوُفِّيَ رَسُولُ الله ﷺ أَرَدْنَ أَنْ يَبْعَثْنَ عُثْمَانَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ يَسْأَلْنَهُ مِيرَاثَهُنَّ فَقَالَتْ عَائِشَةُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "لَا نُورَثُ مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ"[٣].

فهذه الأحاديث وأمثالها ظاهرة في أن الأنبياء لا يورث عنهم المال، بل العلم والدين[٤]، وقوله تعالى: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ يعني: فهمنا كلامها، وجعل ذلك من الطير كمنطق الرجل من بني آدم إذ فهمه عنها[٥].

قوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: وجمع لسليمان جنوده من الجنّ والإنس والطير في مسير لهم، ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: يرد أولهم على آخرهم[٦].

وقوله تعالى: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فقولها: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ التفاتة مؤمن؛ أي: من عدل سليمان وفضله وفضل جنوده لا يحطمون نمله فما فوقها إلا

(١) تفسير الطبري (١٩/ ١٤١).
(٢) أخرجه البخاري (١٢/ ٧).
(٣) أخرجه البخاري (١٢/ ٧).
(٤) أضواء البيان (٤/ ٢٢٦).
(٥) تفسير الطبري (١٩/ ١٤١).
(٦) تفسير الطبري (١٩/ ١٤٢: ١٤١).

بألا يشعروا، وقد قيل: إن تبسم سليمان سرور بهذه الكلمة منها، ولذلك أكد التبسم بقوله: ﴿ضَاحِكًا﴾ إذ قد يكون التبسم من غير ضحك ولا رضا، ألا تراهم يقولون: تبسم تبسم الغضبان، وتبسم تبسم المستهزئين، وتبسُّمُ الضحكِ إنما هو عن سرور، ولا يسر نبي بأمر دنيا، وإنما سُر بما كان من أمر الآخرة والدين.

وقولها: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ إشارة إلى الدين والعدل والرأفة، ونظير قول النملة في جند سليمان ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ قول الله تعالى في جند محمد ﷺ: ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ التفاتًا إلى أنهم لا يقصدون هدر مؤمن[1].

الوجه الثالث: منطق الطير.

وفيه مسائل:

أولًا: أقوال المفسرين:

الآية صريحة الدلالة على أن سليمان وأباه عَلِما منطق الطير ﴿وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾، وقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ يعني أنه ﷺ كان يعرف ما يتخاطب به الطيور بلغاتها ويعبر للناس عن مقاصدها وإرادتها[2]، وسمي صوت الطير منطقًا لحصول الفهم منه، كما يفهم من كلام الناس[3].

وسليمان يدعو الناس إلى التصديق بذكر المعجزة التي هي علم منطق الطير، وغير ذلك مما أوتيه من عظائم الأمور. والمنطق: كل ما يصوت به من المفرد والمؤلف، المفيد وغير المفيد. وقد ترجم يعقوب بن السكيت كتابه بـ (إصلاح المنطق) وما أصلح فيه إلا مفردات الكلم، وقالت العرب: نطقت الحمامة، وكل صنف من الطير يتفاهم أصواته، والذي علمه سليمان من منطق الطير: هو ما يفهم بعضه من بعض من معانيه وأغراضه[4].

---

(١) تفسير القرطبي (١٣/ ١٨٠).

(٢) قصص الأنبياء (٢/ ٢٨٦).

(٣) تفسير البغوي (١٩/ ٤٠٩).

(٤) الكشاف للزمخشري (٣/ ٣٥٣).

و﴿مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ استعارة لما يسمع منها من الأصوات، وهو حقيقة في بني آدم، لما كان سليمان يفهم منه ما يفهم من كلام بني آدم، كما يفهم بعض الطير من بعض، أطلق عليه منطق[١]، وكلام الطير كالمنطق إذا فهم[٢]، ولا اختلاف عند العلماء أن الحيوانات كلها لها أفهام وعقول، وقد قال الشافعي: الحمام أعقل الطير.

قال ابن عطية: والنمل حيوان فطن قويّ شمام جدًّا يدخر القِرى، ويشق الحب بقطعتين لئلا ينبت، ويشق الكزبرة بأربع قطع لأنها تنبت إذا قسمت شقين، ويأكل في عامه نصف ما جمع، ويستبقي سائره عُدَّة[٣].

قال ابن العربي: وهذه خواص العلوم عندنا، وقد أدركتها النمل بخلق الله ذلك لها[٤].

ولا يبعد أن تدرك البهائم حدوث العالم وحدوث المخلوقات، ووحدانية الإله، ولكننا لا نفهم عنها ولا تفهم عنا، أما أنا نطلبها وهي تفر منا فبحكم الجنسية[٥].

ثم تأمل الحكمة البالغة في إعطائه سبحانه بهيمة الأنعام: الأسماع والأبصار ليتم تناولها لمصالحها ويكمل انتفاع الإنسان بها، إذ لو كانت عمياء أو صماء لم يتمكن من الانتفاع بها، ثم سلبها العقول على كبر خلقها التي للإنسان ليتم تسخيره إياها فيقودها ويصرفها حيث شاء، ولو أعطيت العقول على كبر خلقها لامتنعت من طاعته واستعصت عليه ولم تكن مسخرة له، فأُعطيت من التمييز والإدراك ما تتم به مصلحتها ومصلحة من ذلك له، وسلبت من الذهن والعقل ما ميز به عليها الإنسان، وليظهر أيضًا فضيلة التمييز والاختصاص، ثم تأمل كيف قادها وذللها على كبر أجسامها، ولم يكن يطيقها لولا تسخيره، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ

---

(١) البحر المحيط (٧/ ٥٨).

(٢) زاد المسير (٦/ ١٥٩).

(٣) المحرر الوجيز (٤/ ٢٥٣).

(٤) أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ١٤٩).

(٥) تفسير القرطبي (١٣/ ١٨٥).

(١٣)﴾ أي: مطيقين ضابطين، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢)﴾، فترى البعير على عظم خلقته يقوده الصبي الصغير ذليلا منقادًا، ولو أرسل عليه لسواه بالأرض ولفصله عضوًا عضوًا، فسل المعطل من الذي ذلَّله وسخره وقاده على قوته لبشر ضعيف من أضعف المخلوقات، وفرغ بذلك التسخير النوع الإنساني لمصالح معاشه ومعاده، فإنه لو كان يزاول من الأعمال والأحمال ما يزاول الحيوان لشغل بذلك عن كثير من الأعمال؛ لأنه كان يحتاج مكان الجمل الواحد إلى عدة أناسي يحملون أثقاله وحمله ويعجزون عن ذلك، وكان ذلك يستفرغ أوقاتهم ويصدهم عن مصالحهم، فأعينوا بهذه الحيوانات مع مالهم فيها من المنافع التي لا يحصيها إلا الله من الغذاء، والشراب، والدواء، واللباس، والأمتعة، والآلات، والأواني، والركوب، والحرث، والمنافع الكثيرة، والجمال[1].

ثانيًا: تنزيه سليمان عليه السلام عن الكذب.

١ـ فضل سليمان عليه السلام في القرآن:

قال تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا . . .﴾ (البقرة: ١٠٢)، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣)﴾ (النساء: ١٦٣)، وقال سبحانه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ ۚ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (الأنعام: ٨٤)، ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۚ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ (الأنبياء: ٧٩)، ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٨١)، ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ۖ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ۖ

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم (٢٧١).

إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (النمل: ١٥ – ١٨)، فشهدت نملة لسليمان بالعدل والرحمة بقولها: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ (النمل: ٣٦)، فانظر إلى تحدثه بنعمة الله.

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ (سبأ: ١٢ – ١٣)، ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾ (ص: ٣٠)، وقوله: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فطلب من الله أن يقيضه للشكر على ما أنعم به عليه وعلى ما خصه به من المزية على غيره، وأن ييسر عليه العمل الصالح، وأن يحشره إذا توفاه مع عباده الصالحين وقد استجاب الله تعالى له[1].

٢ـ فضل سليمان عليه السلام في السنة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: "بَيْنَمَا امْرَأَتَانِ مَعَهُمَا ابْنَاهُمَا جَاءَ الذِّئْبُ فَذَهَبَ بِابْنِ إِحْدَاهُمَا، فَقَالَتْ هَذِهِ لِصَاحِبَتِهَا: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ أَنْتِ، وَقَالَتْ الْأُخْرَى إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ، فَتَحَاكَمَتَا إِلَى دَاوُدَ فَقَضَى بِهِ لِلْكُبْرَى، فَخَرَجَتَا عَلَى سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ – عَلَيْهِمَا السَّلَام- فَأَخْبَرَتَاهُ فَقَالَ: ائْتُونِي بِالسِّكِّينِ أَشُقُّهُ بَيْنَكُمَا فَقَالَتْ الصُّغْرَى: لَا يَرْحَمُكَ اللهُ؛ هُوَ ابْنُهَا فَقَضَى بِهِ لِهَا"[2].

وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: قَدِمَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ أَوْ خَيْبَرَ وَفِي سَهْوَتِهَا سِتْرٌ فَهَبَّتْ رِيحٌ فَكَشَفَتْ نَاحِيَةَ السِّتْرِ عَنْ بَنَاتٍ لِعَائِشَةَ لُعَبٍ فَقَالَ: "مَا هَذَا يَا عَائِشَةُ»؟ قَالَتْ: بَنَاتِي، وَرَأَى بَيْنَهُنَّ فَرَسًا لَهُ جَنَاحَانِ مِنْ رِقَاعٍ فَقَالَ: «مَا هَذَا الَّذِي أَرَى وَسْطَهُنَّ»؟ قَالَتْ:

(١) قصص الأنبياء (٢/ ٢٨٧).

(٢) أخرجه البخاري (٦٧٦٩)، مسلم (٣/ ١٣٤٤).

فَرَسٌ. قَالَ: «وَمَا هَذَا الَّذِي عَلَيْهِ»؟ قَالَتْ: جَنَاحَانِ. قَالَ: «فَرَسٌ لَهُ جَنَاحَانِ»؟ قَالَتْ: أَمَا سَمِعْتَ أَنَّ لِسُلَيْمَانَ خَيْلًا لَهَا أَجْنِحَةٌ؟ قَالَتْ: فَضَحِكَ حَتَّى رَأَيْتُ نَوَاجِذَهُ"[1].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ: "إِنَّ عِفْرِيتًا مِنْ الْجِنِّ تَفَلَّتَ الْبَارِحَةَ لِيَقْطَعَ عَلَيَّ صَلَاتِي، فَأَمْكَنَنِي اللهُ مِنْهُ، فَأَخَذْتُهُ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبُطَهُ عَلَى سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ حَتَّى تَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلُّكُمْ، فَذَكَرْتُ دَعْوَةَ أَخِي سُلَيْمَانَ: رَبِّ ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ فَرَدَدْتُهُ خَاسِئًا"[2].

٣ـ وما العجب في أن يتكلم غير الإنسان؟

فإن الذي أعطى القدرة لقطعة اللحم لا حول لها ولا قوة (وهي اللسان) على التحدث والنطق بأكثر من لغة، قادر على أن يعطي هذه القدرة وهذه الملكة لغير الإنسان، فـ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (الزمر: ٦٢)، وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (الإسراء: ٤٤).

وإن كان كلام الطير مما يتعجب منه أو شئ لا يصدق، فهذا هو حال المعجزات، فهي معجزة لسليمان ﷺ كما حدث لنبينا من ذلك الكثير، كحنين الجزع[3]، وتسبيح الطعام بين يديه ﷺ[4].

ومن الأدلة على ذلك قول الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ (فصلت: ٢٠- ٢١)، ففي هذه الآيات إثبات الكلام مع انعدام الجارحة، فالسمع والبصر والجلود ليس عندهم جارحة الكلام، ومع ذلك عندما أراد الله أن ينطقهم نطقوا وقالوا: ﴿قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ (النور: ٢٤).

٤ـ كل الكائنات تسبح بحمده.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٣٢)، وصححه الألباني في صحيح آداب الزفاف (١٧٠).

(٢) أخرجه البخاري (٣١٧٠)، مسلم (٥٤١)، أحمد (٢/ ٢٩٨).

(٣) حديث حنين الجزع عند البخاري (٣٣١٨).

(٤) كما عند البخاري (٣٣١٤).

قال ابن كثير: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ (الإسراء: ٤٤)، يقول تعالى: تقدسه السموات السبع والأرض ومن فيهن، أي: من المخلوقات، وتنزهه وتعظمه وتجلّه وتكبره، وتشهد له بالوحدانية في ربوبيته وإلهيته.

وقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ أي: وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أي: لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس؛ لأنها بخلاف لغتكم.

وهذا عام في الحيوانات والنبات والجماد، وهذا أشهر القولين، كما ثبت في صحيح البخاري، عن ابن مسعود أنه قال: كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يُؤكل[1][2].

وقال السعدي: قوله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ﴾ من حيوان ناطق وغير ناطق ومن أشجار ونبات وجماد وحي وميت ﴿إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ بلسان الحال ولسان المقال ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أي: تسبيح باقي المخلوقات التي على غير لغتكم، بل يحيط بها علام الغيوب[3].

الوجه الرابع: الجن من جنود سليمان عليه السلام.

أولًا: من القرآن: قال تعالى: ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٢)، وقال سبحانه: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (النمل: ١٧)، وقال سبحانه: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٨٦).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٩: ٥٨).

(٣) تفسير السعدي (١/ ٤٥٨).

عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ﴾ (النمل: ٣٨- ٤٠).

وقال تعالى: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ (سبأ: ١٢- ١٣)، ﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ﴿٣٨﴾﴾ (ص: ٣٦-٣٨).

ثانيًا: من السنة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ: "إِنَّ عِفْرِيتًا مِنْ الْجِنِّ تَفَلَّتَ الْبَارِحَةَ لِيَقْطَعَ عَلَيَّ صَلَاتِي، فَأَمْكَنَنِي اللهُ مِنْهُ، فَأَخَذْتُهُ فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبُطَهُ عَلَى سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ حَتَّى تَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلُّكُمْ، فَذَكَرْتُ دَعْوَةَ أَخِي سُلَيْمَانَ: رَبِّ ﴿وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓ﴾ فَرَدَدْتُهُ خَاسِئًا"[1].

* * * *

(١) أخرجه البخاري (٣١٧٠)، مسلم (٥٤١).

٣ـ شبهة: الهدهد أعلم من سليمان النبي.

نص الشبهة:

كيف أن الهدهد يخبر سليمان عليه السلام ما ليس له به علم مع أنه نبي من عند الله؟

والرد على هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: أن التوراة و الإنجيل محرفان.

الوجه الثاني: تفسير الآيات، وأن ما حدث من الهدهد وملكة سبأ صحيح ثابت.

الوجه الثالث: هل الهدهد أعلم من سليمان عليه السلام؟

الوجه الرابع: بيان مدى علم سليمان عليه السلام.

الوجه الخامس: سليمان عليه السلام في القرآن والسنة، وسليمان عليه السلام في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: أن التوراة و الإنجيل محرفان.

فلا يجوز الاحتجاج بهما، وقد ثبت ذلك بالأدلة كما سبق[1].

الوجه الثاني: تفسير الآيات، وبيان أن ما حدث من الهدهد وملكة سبأ صحيح.

قال تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ

---

(١) راجع بحث إثبات تحريف التوراة و الإنجيل.

تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (النمل: ٢٠-٤٤).

قوله: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾ دلَّ هذا على كمال عزمه وحزمه وحسن تنظيمه لجنوده وتدبيره بنفسه للأمور الصغار والكبار، حتى إنه لم يهمل هذا الأمر وهو تفقد الطيور، والنظر هل هي موجودة كلها أم مفقود منها شيء؟ وهذا هو المعنى للآية.

ولم يصنع شيئًا من قال: إنه تفقد الطير لينظر أين الهدهد منها؟ ليدله على بعد الماء وقربه، كما زعموا عن الهدهد أنه يبصر الماء تحت الأرض الكثيفة، فإن هذا القول لا يدل عليه دليل، بل الدليل العقلي واللفظي دال على بطلانه، أما العقلي فإنه قد عرف بالعادة والتجارب والمشاهدات أن هذه الحيوانات كلها ليس منها شيء يبصر هذا البصر الخارق للعادة، ينظر الماء تحت الأرض الكثيفة؛ ولو كان كذلك لذكره الله؛ لأنه من أكبر الآيات.

وأما الدليل اللفظي فلو أُريد هذا المعنى لقال – في غير القرآن-: وطلب الهدهد لينظر له الماء. فلما فقده قال ما قال، ولم يَقُلْ: فتش عن الهدهد، أو: بحث عنه، ونحو ذلك من العبارات، وإنما تفقد الطير لينظر الحاضر منها والغائب ولزومها للمراكز والمواضع التي عينها لها، وأيضًا فإن سليمان عليه السلام لا يحتاج ولا يضطر إلى الماء بحيث يحتاج لهندسة الهدهد،

فإن عنده من الشياطين والعفاريت ما يحفرون له الماء، ولو بلغ في العمق ما بلغ، وسخر الله له الريح غدوها شهر ورواحها شهر، فكيف - مع ذلك- يحتاج إلى الهدهد؟

وقوله: ﴿فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ أي: هل عدم رؤيتي إياه لقلة فطنتي به، لكونه خفيًا بين هذه الأمم الكثيرة؟ أم على بابها بأن كان غائبًا من غير إذني ولا أمري؟ فحينئذ تغيظ عليه وقال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ دون القتل ﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: حجة واضحة على تخلفه، وهذا من كمال ورعه وإنصافه أنه لم يقسم على مجرد عقوبته بالعذاب أو القتل؛ لأن ذلك لا يكون إلا من ذنب، وغيبته قد تحتمل أنها لعذر واضح، فلذلك استثناه لورعه وفطنته.

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ ثم جاء، وهذا يدل على هيبة جنوده منه، وشدة ائتمارهم لأمره، حتى إن هذا الهدهد الذي خلفه العذر الواضح لم يقدر على التخلف زمنًا كثيرًا، ﴿فَقَالَ﴾ لسليمان: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ أي: عندي العلم علم ما أحطت به على علمك الواسع وعلى درجتك فيه، ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ﴾ القبيلة المعروفة في اليمن ﴿بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ أي: خبر متيقن[1].

الوجه الثالث: هل الهدهد أعلم من سليمان عليه السلام؟

والرد من أوجه:

أولها: قوله: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ ففيه تنبيه لسليمان على أن في أدنى خلق الله تعالى من أحاط علمًا بما لم يحط به، فيكون ذلك لطفًا في ترك الإعجاب، والإحاطة بالشيء علمًا أن يعلم من جميع جهاته[2].

ثانيها: فإن قيل: كيف يجوز أن يُقال إن سليمان لم يعلم به، وكانت أرض سبأ قريبة منه، وهناك ملك لم يعلم به سليمان؟

---

(١) تفسير السعدي (١٩/ ٦٠٣-٦٠٤).

(٢) تفسير الرازي (٢٤/ ١٩٠).

قيل له: علم به سليمان، ولكنه لم يعلم أنهم يسجدون للشمس، ويقال: إنه علم بها، ولكنه لم يعلم أن ملكها قد بلغ هذا المبلغ، وعلم أنهم أهل الضلالة[١].

ويقال أيضًا: وما العجب أن يعلم الهدهد شيئًا لم يعلمه سليمان عليه السلام؟

فإن الأنبياء لا يعلمون الغيب، وهذا غيب عن سليمان عليه السلام، وأيضًا ليس علم الهدهد بهذه المملكة يدل على أنه أعلم من سليمان[٢].

وقد قال موسى للخضر: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ (الكهف: ٦٦) وقد استفاد موسى من الخضر ثلاث مسائل، وهو أفضل منه[٣].

ثالثها: ألهم الله ﷻ الهدهد، فكافح سليمان بهذا الكلام، مع ما أوتي من فضل النبوة والعلوم الجمَّة ابتلاءً له في علمه[٤].

رابعها: أن سليمان عليه السلام لمّا توعد الهدهد بأن يعذبه عذابًا شديدًا أو يذبحه، إنما نجا منه بالعلم وأقدم عليه في خطابه له بقوله: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ خبرًا، وهذا الخطاب إنما جرأه عليه العلم، وإلا فالهدهد مع ضعفه لا يتمكن من خطابه لسليمان مع قوته بمثل هذا الخطاب لولا سلطان العلم[٥].

الوجه الرابع: بيان مدى علم سليمان عليه السلام.

كفي بمقام النبوة علمًا، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ (النساء: ١٦٣)، وقال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ (الأنبياء: ٧٩)، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا

---

(١) بحر العلوم للسمرقندي (تفسير الآية).

(٢) تفسير القرطبي (١٣/ ١٩١).

(٣) منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٨/ ٢٧٤).

(٤) تفسير النسفي (٣/ ٢٠٨).

(٥) مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/ ١٧٣).

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٥ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ (النمل: ١٥-١٦)، وقوله: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (النمل: ١٩)، فكلامه دليل على علمه بالله وورعه ﷺ.

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "بَيْنَمَا امْرَأَتَانِ مَعَهُمَا ابْنَاهَا إذ عدا الذِّئْبُ، فأخذ ابْنِ إِحْدَاهُمَا فتنازعتا في الآخر، فَقَالَتْ الكبرى: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ، وَقَالَتْ الْصغرَى: بل إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ، فَتَحَاكَمَتَا إِلَى دَاوُدَ فَحكم بِهِ لِلْكُبْرَى، فَخَرَجَتَا عَلَى سُلَيْمَانَ ﷺ فَقَالَ: ائْتُونِي بِالسِّكِّينِ أَشُقُّهُ نصفين لكل واحدة منكما نصفه، فَقَالَتْ الصُّغْرَى: يَرْحَمُكَ الله هُوَ ابْنُهَا فَقَضَى بِهِ لها"[1].

قوله: "فَحكم بِهِ لِلْكُبْرَى" كان ذلك على سبيل الفتيا لا الحكم، ولذلك ساغ لسليمان أن ينقضه، والذي ينبغي أن يقال إن داود ﷺ قضى به للكبري لسبب اقتضى به عنده ترجيح قولها، إذ لا بينة لواحدة منهما، وكونه لم يعين في الحديث اختصارًا لا يلزم منه عدم وقوعه، فيحتمل أن يقال: إن الولد الباقي كان في يد الكبرى وعجزت الأخرى عن إقامة البينة، قال: وهذا تأويل حسن جار على القواعد الشرعية

وليس في السياق ما يأباه ولا يمنعه، فإن قيل فكيف ساغ لسليمان نقض حكمه؟

فالجواب أنه لم يعمد إلى نقض الحكم، وإنما احتال بحيلة لطيفة أظهرت ما في نفس الأمر، وذلك أنهما لما أخبرتا سليمان ﷺ بالقصة، فدعا بالسكين ليشقه بينهما، ولم يعزم على ذلك في الباطن وإنما أراد استكشاف الأمر فحصل مقصوده لذلك لجزع الصغرى الدال على عظيم الشفقة، ويحتمل أن يكون سليمان ممن يسوغ له أن يحكم بعلمه.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٧٦٩)، مسلم (١٧٢٠).

ودلت هذه القصة على أن الفطنة والفهم موهبة من الله لا تتعلق بكبر سن ولا صغره، وفيها استعمال الحيل في الأحكام لاستخراج الحقوق، ولا يتأتى ذلك إلا بالمزيد الفطنة وممارسة الأحوال(١).

الوجه الخامس: سليمان ﵇ في القرآن والسنة، وسليمان ﵇ في الكتاب المقدس.

أما سليمان ﵇ في القرآن والسنة فقد سبق بيان ذلك(٢).

وأما سليمان في الكتاب المقدس: فيقولون أنه كفر، وهو ابن زنا: فَغَضِبَ الرَّبُّ عَلَى سُلَيْمَانَ لأَنَّ قَلْبَهُ مَالَ عَنِ الرَّبِّ إِلهِ إِسْرَائِيلَ الَّذِي تَرَاءَى لَهُ مَرَّتَيْنِ، "وَأَوْصَاهُ فِي هذَا الأَمْرِ أَنْ لاَ يَتَّبعَ آلِهَةً أُخْرَى، فَلَمْ يَحْفَظْ مَا أَوْصَى بِهِ الرَّبُّ. " فَقَالَ الرَّبُّ لِسُلَيْمَانَ: «مِنْ أَجْلِ أَنَّ ذلِكَ عِنْدَكَ، وَلَمْ تَحْفَظْ عَهْدِي وَفَرَائِضِيَ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ بِهَا، ف إِنِّي أُمَزِّقُ الْمَمْلَكَةَ عَنْكَ تَمْزِيقًا وَأُعْطِيهَا لِعَبْدِكَ. (الملوك١١/ ٩-١١).

وَعَزَّى دَاوُدُ بَثْشَبَعَ امْرَأَتَهُ، وَدَخَلَ إِلَيْهَا وَاضْطَجَعَ مَعَهَا فَوَلَدَتِ ابْنًا، فَدَعَا اسْمَهُ سُلَيْمَانَ، وَالرَّبُّ أَحَبَّهُ (صمويل ٢٤: ١٢).

فَقَالَتْ لَهُ: «أَنْتَ يَا سَيِّدِي حَلَفْتَ بِالرَّبِّ إِلهِكَ لأَمَتِكَ قَائِلًا: إِنَّ سُلَيْمَانَ ابْنَكِ يَمْلِكُ بَعْدِي وَهُوَ يَجْلِسُ عَلَى كُرْسِيِّ. (الملوك١٧: ١).

ولا حول ولا قوة إلا بالله، كيف يُفترى هذا الكلام على أنبياء الله ﷻ؟

* * * *

(١) فتح الباري (٦/ ٥٣٥-٥٣٦).

(٢) انظر شبهة آية ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَنَ ﴾.

٤ـ شبهة: خروج الدابة.

نص الشبهة:

كيف تخرج دابة تكلم الناس؟ وكيف تكون تلك الدابة بهذه الأوصاف؟

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: أن الإنجيل والتوراة محرفان.

الوجه الثاني: إثبات خروج الدابة من القرآن.

الوجه الثالث: إثبات خروج الدابة من السنة.

الوجه الرابع: ما ورد في صفة الدابة.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: التوراة والإنجيل محرفان. فكيف يحتج بهما!.

الوجه الثاني: أن الدابة ستخرج وتكون من علامات الساعة بنص القرآن

قال تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ أي: إذا وقع على الناس القول الذي حتمه الله وفرض وقته ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً﴾ خارجة ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ أو دابة من دواب الأرض ليست من السماء، وهذه الدابة ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ أي: تكلم العباد أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون، أي: لأجل أن الناس ضعف علمهم ويقينهم بآيات الله، فإظهار الله هذه الدابة من آيات الله العجيبة ليبين للناس ما كانوا فيه يمترون، وهذه الدابة هي الدابة المشهورة التي تخرج في آخر الزمان وتكون من أشراط الساعة كما تكاثرت بذلك الأحاديث، ولم يأتِ دليل يدل على كيفيتها ولا من أي: نوع هي، وإنما دلت الآية الكريمة على أن الله يخرجها للناس، وأن هذا التكليم منها خارق للعوائد المألوفة، وأنه من الأدلة على صدق ما أخبر الله به في كتابه والله أعلم[1].

وقيل في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أقوال كلها متقاربة، فمن ذلك: إذا وجب الغضب عليهم، وقيل: إذا لم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر وجب السخط عليهم، وقيل: ﴿

---

(١) تفسير السعدي (٦١٠).

وَقَعَ ٱلْقَوْلُ﴾ موت العلماء وذهاب العلم ورفع القرآن[١]، وقيل: حين فساد الناس، وتركهم أوامره وتبديلهم دينه الحق قرب مجئ الساعة[٢]، وقيل: المراد مشارفة الساعة وظهور أشراطها[٣].

أما ما جاء في وصف الدابة والمبالغة في طولها وعرضها وزمان خروجها ومكانه مما لا يركن إليه، فإن أمور الغيب لا يجب التصديق بها إلا إذا ثبتت بالدليل القاطع عن الرسول المعصوم ﷺ[٤].

وقال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ (الأنعام: ١٥٨).

وجاء في تفسير هذه الآية حديثٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسولُ الله ﷺ: "ثَلَاثٌ إِذَا خَرَجْنَ ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالدَّجَّالُ، وَدَابَّةُ الْأَرْضِ"[٥].

الوجه الثالث: إثبات خروج الدابة من السنة.

١ - فعن عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو قَالَ حَفِظْتُ مِنْ رَسولِ الله ﷺ حَدِيثًا لَمْ أَنْسَهُ بَعْدُ، سَمِعْتُه يَقُولُ: "إِنَّ أَوَّلَ الْآيَاتِ خُرُوجًا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَخرُوجُ الدَّابَّةِ عَلَى النَّاسِ ضُحًى، وَأَيُّهُمَا مَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتِهَا فَالْأُخْرَى عَلَى إِثْرِهَا قَرِيبًا"[٦].

وَأَمَّا الدَّابَّة الْمَذْكُورَة فِي هَذَا الْحَدِيث وغيره فَهِيَ الْمَذْكُورَة فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾، وَعَنْ اِبْن عَمْرو بْن الْعَاصِ أَنَّهَا الْجَسَّاسَة الْمَذْكُورَة فِي حَدِيث الدَّجَّال[٧].

---

(١) تفسير القرطبي (١٣/ ٢٤٣).

(٢) تفسير المراغي (٢٠/ ٢٢).

(٣) تفسير الرازي (٢٤/ ٢١٨).

(٤) تفسير المراغي (٢٠/ ٢٢).

(٥) أخرجه مسلم (١٥٨).

(٦) أخرجه مسلم (٢٩٤١).

(٧) شرح النووي (٩/ ٢٥٦)، عون المعبود (٦/ ٢٨٧)، تحفة الأحوذي (٦/ ٣٤٤).

٢- وعن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: "بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سِتًّا: طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، أَوْ الدُّخَانَ، أَوْ الدَّجَّالَ، أَوْ الدَّابَّةَ، أَوْ خَاصَّةَ أَحَدِكُمْ، أَوْ أَمْرَ الْعَامَّةِ"(١).

٣- عن أنس بن مالك ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: "بادروا بالأعمال ستًّا: طلوع الشمس من مغربها، و الدجال، و الدخان، و دابة الأرض، وخويصة أحدكم، و أمر العامة"(٢).

٤- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسولُ الله ﷺ: "ثَلَاثٌ إِذَا خَرَجْنَ ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالدَّجَّالُ، وَدَابَّةُ الْأَرْضِ"(٣).

٥- عن حذيفة بن أسيد ﷺقال: كنا نتحدث في ظل غرفة لرسول الله ﷺ فارتفعت أصواتنا، فأشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفته فقال: "عم يتساءلون، أو عم يتحدثون؟ » قلنا: ذكر الساعة، فقال رسول الله ﷺ: «إن الساعة لن تكون أو لن تقوم حتى يكون قبلها عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، والدجال، وعيسى ابن مريم، والدخان، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من قعر عدن فتسوق الناس إلى المحشر"(٤).

الوجه الرابع: ما ورد في صفة الدابة.

ما جاء في وصف الدابة والمبالغة في طولها وعرضها وزمان خروجها، ومكانه مما لا يركن إليه، فإن أمور الغيب لا يجب التصديق بها إلا إذا ثبتت بالدليل القاطع عن الرسول المعصوم ﷺ(٥).

وقد وردت آثار في ذلك منها: ما جاء عن ابن عمرﷺ قال: تخرج الدابة من صدع في الصفا كجري الفرس ثلاثة أيام وما خرج ثلثها(١).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٤٧).

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (٤٠٥٦)، وقال الألباني في الصحيحة (٧٥٩): حسن صحيح.

(٣) أخرجه مسلم (١٥٨).

(٤) أخرجه مسلم (٢٩٠١)، السنن الكبرى للنسائي (٦/ ٤٢٤).

(٥) تفسير المراغي (٢٠/ ٢٢).

وعن حُذيفة بن أسيد الغفاري قال: إن الدابة حين تخرج يراها بعض الناس فيقولون: والله لقد رأينا الدابة، حتى يبلغ ذلك الإمام، فيطلب فلا يقدر على شيء، قال: ثم تخرج فيراها الناس، فيقولون: والله لقد رأيناها، فيبلغ ذلك الإمام فيطلب فلا يرى شيئًا، فيقول: أما إني إذا حدث الذي يذكرها قال: حتى يعدّ فيها القتل، قال: فتخرج، فإذا رآها الناس دخلوا المسجد يصلون، فتجيء إليهم فتقول: الآن تصلون، فتخطم الكافر، وتمسح على جبين المسلم غرّة، قال: فيعيش الناس زمانًا يقول هذا: يا مؤمن، وهذا: يا كافر[٢].

عن حُذيفة بن أسيد، في قوله: ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ قال: للدابة ثلاث خرجات: خرجة في بعض البوادي ثم تكمن، وخرجة في بعض القُرى حين يهرَيق فيها الأمراء الدماء، ثم تكمن، فبينا الناس عند أشرف المساجد وأعظمها وأفضلها، إذ ارتفعت بهم الأرض، فانطلق الناس هرابا، وتبقى طائفة من المؤمنين، ويقولون: إنه لا ينجينا من الله شيء، فتخرج عليهم الدابة تجلو وجوههم مثل الكوكب الدرّيّ، ثم تنطلق فلا يدركها طالب ولا يفوتها هارب، وتأتي الرجل يصلي، فتقول: والله ما كنت من أهل الصلاة، فيلتفت إليها فتخطمه. قال: تجلو وجه المؤمن، وتخطم الكافر، قلنا: فما الناس يومئذٍ؟ قال: جيران في الرباع، وشركاء في الأموال، وأصحاب في الأسفار[٣].

وعن حُذيفة بن اليمان يقول: قال رسول الله ﷺ يقول: وذكر الدابة، فقال حُذيفة: قلت: يا رسول الله، من أين تخرج؟ قال: "مِنْ أَعْظَمِ المَساجِدِ حُرْمَةً عَلى الله، بَيْنَما عِيسَى يَطُوفُ بالبَيْتِ وَمَعَهُ المُسْلِمُونَ، إذْ تَضْطَرِبُ الأرْضُ تحْتَهُمْ، تُحَرُّكَ القِنْديلِ، وَيَنْشَق الصَّفا ممَّا يَلِي المَسْعَى، وَتَخْرُجُ الدَّابَّةُ مِنَ الصَّفا، أوَّلُ ما يَبْدُو رأْسُها، مُلَمَّعَةٌ ذَاتُ وَبَرٍ وَرِيشٍ، لَمْ يُدْرِكْها طالبٌ، وَلَنْ يَفُوتَها هاربٌ، تَسِمُ النَّاسَ مُؤْمِنٌ وكافِرٌ، أَمَّا المُؤْمِنُ فَتَتْرُكُ وَجْهَهُ كأنَّهُ

---

(١) تفسير الطبري (٢٠/ ١٤)، وهذا أثر ضعيف إلى ابن عمر، فقد أخرجه عن ابن عمر عطية العوفي، قال عنه في التقريب: صدوق يخطئ كثيرًا، وكان شيعيًا مدلسًا، وقال الذهبي: ضعفوه.

(٢) إسناده ضعيف. أخرجه الطبري في تفسيره (٢٠/ ١٤).

(٣) تفسير الطبري (٢٠/ ١٤)، وإسناده ضعيف، فيه عثمان بن مطر؛ قال في التقريب: ضعيف. وقال الذهبي: ضعيف، ضعفوه.

كَوْكَبٌ دُرّيّ، وتَكْتُبُ بينَ عَيْنَيْهِ مُؤْمِنٌ، وأمَّا الكافِر فتَنْكُتُ بينَ عَيْنَيْهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاء كافِرٌ"[1].

فمن ذلك يتضح أنه لم يثبت في وصف الدابة شيء، فعلينا السكوت عما سكت عنه الشرع، ونؤمن أن من علامات الساعة دابة تخرج تكلم الناس أنهم كانوا بآيات الله لا يوقنون.

* * *

(١) تفسير الطبري (٢٠/ ١٥)، وإسناده ضعيف،؛ فيه رواد بن الجراح ضعيف، كما قال في لسان الميزان، لينه الحاكم.

سورة القصص

وفيها:

١- شبهة: قتل الصبيان واستحياء النساء.

٢- شبهة: فرعون و هامان.

٣- شبهة: من التي التقطت موسى من اليم.

٤- شبهة: وجود امرأتين عند البئر.

٥- شبهة: قارون.

١ـ شبهة: قتل الصبيان واستحياء النساء.

نص الشبهة:

قال تعالي: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ (القصص: ٤).

فاعترضوا على ذلك بقولهم: هنا يأمر فرعون بقتل الصبيان واستحياء البنات الذين آمنوا مع موسي عندما جاءهم بالحق. وفي التوراة أن فرعون أمر بقتل الصبيان قبل ولادة موسي؟

والجواب علي هذه الشبهة من وجهين:

الوجه الأول: كتابكم محرف فلا يجوز الاعتراض به علي القرآن.

الوجه الثاني: القرآن أثبت أن القتل كان مرتين، وبيان الحكمة من ذلك.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: أن كتابكم محرف فلا يجوز الاعتراض به علي القرآن.

ومن ذلك أن التاريخ يأتي في موضع ويأتي في نفس الموضع أو غيره ما يناقضه، هذا من ناحية. ومن ناحية أخري أن عندهم في كتابهم أن فرعون كان يأمر بقتل الأولاد (الذكور) من بني إسرائيل لتضعف شوكة بني إسرائيل فلا يقاومونهم إذا غالبوهم أو قاتلوهم، أو أنهم ينضمون إلي أعداء فرعون إذا حدث حرب سفر الخروج (١/ ١١: ٩). وكل هذا عنهم كان قبل ولادة موسي عليه السلام.

وهذا كما قال ابن كثير: فيه نظر بل هو باطل[1]. وذلك لأن هذا القتل إنما كان بعد بعثة موسي عليه السلام. وأيضًا فما الدافع من قتل الولدان إلا إذا كان خوفًا من ظهور موسي الغلام الذي يزول ملك فرعون علي يده، وهو موسي عليه السلام.

وكيف يخاف فرعون من بني إسرائيل وهو أيضًا قد سخرهم في أعماله وليست لهم شوكة.

الوجه الثاني: القرآن أثبت أن القتل كان مرتين وبيان الحكمة من ذلك.

(١) قصص الأنبياء (٢/ ٦).

الموضع الأول: فكان قبل ولادة موسي عليه السلام كما قال تعالي: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ (القصص: ٤). وكان هذا الأمر لأجل الاحتراز من وجود موسي أو لإذلال هذا الشعب وتقليل عدوهم أو لمجموع الأمرين.

الموضع الثاني: فكان بعد ما وقع من الأمر العظيم وهو الغلب الذي غلبته القبط في ذلك الموقف الهائل وأسلم السحرة الذي استنصروا بهم، كما قال تعالي: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ (الأعراف: ١٢٧). وكما قال تعالي: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾﴾ (غافر: ٢٥). وكان الغرض من هذا الأمر لإهانة هذا الشعب والتقليل لملأ بني إسرائيل لئلا يكون لهم شوكة يمتنعون بها ويصولون على القبط بسببها وليتشاءموا بموسي عليه السلام.

وهذا هو قول جمهور المفسرين[١]. وممن قال بهذا القول قتادة رضي الله عنه حيث قال في تفسير هذه الآية: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾﴾ (غافر ٢٥).

قال ـ رحمه الله ـ: هذا بعد القتل الأول. وفي لفظ هذا قتل غير القتل الأول الذي كان[٢].

* * *

---

(١) جامع البيان للطبري (١٤/ ٥٦)، والرازي (٢٧/ ٥٤)، والقرطبي (١٥/ ٢٩٢)، وابن كثير (١٢/ ١٨٤)، وفتح القدير (٤/ ٦٨٥)، وروح المعاني (٢٤/ ٦٢)، والتحرير والتنوير (٢٤/ ١٢٣).

(٢) عبد الرزاق في تفسيره (٢٦٧٠) من حديث معمر عن قتادة وإسناده صحيح، وأخرجه الطبري في تفسيره (٢٤/ ٥٦) من حديث سعيد بن أبي عروبة عنه.

٢ـ شبهة: فرعون وهامان.

نص الشبهة:

قال تعالي: ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ (القصص: ٦) فقالوا: القرآن يقول إن هامان كان وزيرًا لفرعون في مصر، مع أن التوراة تثبت أن هامان كان وزيرًا لأحشويرش ملك الفرس كما في سفر إستير. وذكروا أن الإمام الرازي أقر ذلك في تفسير سورة غافر.

والجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: الكتاب الذي بأيديكم محرف فلا يجوز الاعتراض به علي القرآن المعجز.

الوجه الثاني: الإمام الرازي لم يقر هذا الكلام وإنما هو سوء فهم وتلبيس على الناس.

الوجه الثالث: هامان كان في زمن فرعون بالقرائن الواضحة من القرآن والسنة.

الوجه الرابع: هامان لقب وليس اسمًا لشخص.

الوجه الخامس: الرموز الهيروغلوفية تثبت أن هامان كان في زمن فرعون.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: الكتاب الذي بأيديكم محرف فلا يجوز الاعتراض به علي القرآن المعجز المتواتر.

وذلك أن التاريخ يأتي في موضع ويأتي في نفس الموضع أو في غيره ما يناقضه. وهذا ليس بغريب عليهم؛ فإن الله عز وجل أثبت التحريف عليهم. وقد يطعن بعض اليهود بل كلهم في الآية بأن تواريخ بني إسرائيل تدل على أن هامان لم يكن موجودًا في زمان موسي وفرعون، وإنما ولد بعدهما بزمان طويل. ولو كان مثل هذا الشخص موجودًا في عصرهما لتوفرت الدواعي علي نقله.

والجواب: أن الطعن بتاريخ اليهود المنقطع الوسط لكثرة زمان الفترة أولي من الطعن في القرآن المعجز المتواتر أولًا ووسطًا و آخرًا. [1]

(١) روح المعاني (٢٤/ ٦١).

الوجه الثاني: الإمام الرازي لم يقر هذا الكلام كما زعموا.

ولكنه ذكره من ضمن شبه اليهود. وقد رد علي هذه الشبهة ولم يقرها. وإليك كلامه بتمامه:

قال الرازي: قالت اليهود: أطبق الباحثون عن تواريخ بني إسرائيل وفرعون أن هامان ما كان موجودًا البتة في زمان موسى وفرعون وإنما جاء بعدهما بزمان مديد ودهر داهر، فالقول بأن هامان كان موجودًا في زمان فرعون خطأ في التاريخ، وليس لقائل أن يقول إن وجود شخص يسمى بهامان بعد زمان فرعون لا يمنع من وجود شخص آخر يسمى بهذا الاسم في زمانه، قالوا لأن هذا الشخص المسمى بهامان الذي كان موجودًا في زمان فرعون ما كان شخصًا خسيسًا في حضرة فرعون بل كان كالوزير له، ومثل هذا الشخص لا يكون مجهول الوصف والحلية فلو كان موجودًا لعرف حاله، وحيث أطبق الباحثون عن أحوال فرعون وموسى أن الشخص المسمى بهامان ما كان موجودًا في زمان فرعون؛ وإنما جاء بعده بأدوار- علم أن غلطًا وقع في التواريخ، قالوا ونظير هذا أنا نعرف في دين الإسلام أن أبا حنيفة إنما جاء بعد محمد ﷺ فلو أن قائلًا ادعى أن أبا حنيفة كان موجودًا في زمان محمد ﷺ وزعم أنه شخص آخر سوى الأول وهو يسمى بأبي حنيفة، فإن أصحاب التواريخ يقطعون بخطئه فكذا ههنا.

والجواب: أن تواريخ موسى وفرعون قد طال العهد بها واضطربت الأحوال والأدوار فلم يبق على كلام أهل التواريخ اعتماد في هذا الباب، فكان الأخذ بقول الله تعالى أولى بخلاف حال رسولنا مع أبي حنيفة فإن هذه التواريخ قريبة غير مضطربة بل هي مضبوطة فظهر الفرق بين البابين. [1]

الوجه الثالث: هامان كان في زمن فرعون بالقرائن الواضحة البالغة من القرآن والسنة.

قلت وذلك للأدلة الآتية:

أولًا: لفظ هامان لا يذكر في القرآن إلا مقرونًا بفرعون وفي قصة موسي عليه السلام مع فرعون. وقد ذكر هذا اللفظ في القرآن في ستة مواضع هي:

---

(١) تفسير الرازي (٢٧/ ٦٦).

١ - ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ (القصص: ٦).

٢ - ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ (القصص: ٨).

٣ - ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾ (القصص: ٣٨).

٤ - ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (٣٩)﴾ (العنكبوت: ٣٩).

٥ - ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤)﴾ (غافر: ٢٤-٢٣).

٦ - ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦)﴾ (غافر: ٣٦).

ثانيًا: هو قول جمهور أهل العلم بالتفسير والتاريخ.

ثالثًا: أن الآيات تليت على اليهود في زمن النبي ﷺ فيهم العلماء والأحبار فلم ينكر أحد منهم هذا الأمر. ومنهم من أسلم ودخل في دين الله ولم يتكلموا بشيء من ذلك.

رابعًا: لفظ هامان أيضًا ذكر في السنة مقرونًا بفرعون وقارون كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه ذكر الصلاة يومًا فقال: "**مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا وَبُرْهَانًا وَنَجَاةً مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا لَمْ تَكُنْ لَهُ نُورًا وَلاَ نَجَاةً وَلاَ بُرْهَانًا، وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ قَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَأُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ**"[1].

الوجه الرابع: هامان لقب وليس اسمًا لشخص.

---

(١) أخرجه عبد بن حميد (٣٥٣)، والدارمي (٢٧٢١)، وأحمد (٢/ ١٦٩)، وابن حبان (١٤٦٧)، والمروزي (تعظيم قدر الصلاة٥٨)، و الإبانة الكبرى لابن بطة (٨٩٥)، والبيهقي في الشعب (٢٨٢٣)، والطحاوي في مشكل الآثار (٤/ ٢٢٩). والحديث قال فيه الذهبي: سنده جيد (تنقيح التحقيق١٠٦٦)، وقال ابن عبدالهادي: جيد (تنقيح التحقيق: ٩١٥)، و البوصيري، و أخرجه أحمد بإسناد جيد (إتحاف٢/ ٢٧).

فمعلوم أن لقب الملك كان لرئيس المصريين في زمن يوسفعليه السلام. وأن لقب فرعون كان لرئيس المصريين في زمن موسيعليه السلام وهامان لقب لكل نائب عن الملك لا اسم شخص. فإنه يصح أن يطلق علي النائب عن فرعون أو عن أي ملك من الملوك.

قال ابن عاشور: (هامان) قال المفسرون: هو وزير فرعون. وظاهر آيات هذه السورة يقتضي أنه وزير فرعون وأحسب أن هامان ليس باسم علم ولكنه لقب خطة مثل فرعون وكسرى وقيصر ونجاشي. فالظاهر أن هامان لقب وزير الملك في مصر في ذلك العصر. وجاء في كتاب «أستير» من كتب اليهود الملحقة بالتوراة تسمية وزير (أحشويروش) ملك الفرس (هامان) فظنوه علمًا فزعموا أنه لم يكن لفرعون وزير اسمه هامان واتخذوا هذا الظن مطعنًا في هذه الآية. وهذا اشتباه منهم فإن الأعلام لا تنحصر وكذلك ألقاب الولايات قد تشترك بين أمم وخاصة الأمم المتجاورة، فيجوز أن يكون (هامان) علمًا من الأمان فإن الأعلام تتكرر في الأمم والعصور، ويجوز أن يكون لقب خطة في مصر فنقل اليهود هذا اللقب إلى بلاد الفرس في مدة أسرهم.[1]

وعلى القول بأنه لقب أو اسم شخص فإن الألقاب والأسماء تتكرر ومشتركة، فلا وجه للاعتراض.

الوجه الخامس: الرموز الهيروغلوفية تثبت أن هامان كان في زمن فرعون.

جاء في كتاب (اليهود بين القرآن والتوراة ومعطيات العلم الحديث) للأستاذ عبد الرحمن غنيم، تحت عنوان -هامان وفرعون تحت قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ (القصص: ٣٨). قال: تدل هذه الآية علي عدة إعجازات غيبية.

وذكر منها: أما الإعجاز الثالث هو الإشارة إلى أحد أعوان فرعون باسمه -هامان- فقد وجد علماء الآثار هذا الاسم مكتوبًا على نصب أحد فراعنة مصرالقديمة و هذا

(١) التحرير والتنوير (٢٠/ ٧٢).

النصب موجود في متحف (هوف بفينا) كما يؤكد هذا النص أن هامان كان مقربًا من فرعون و قد ورد أيضًا اسم هامان في (قاموس أسماء الأشخاص في المملكة الجديدة)

(Dictionary of Personal names of the New Kingdom)

وهو القاموس المستند على مجموعة المعلومات المستقاة من الكتابات المصرية القديمة ووردت الإشارة إلى هامان على أنه رئيس البناءين في معامل نحت الحجارة، و هذا يتوافق مع القرآن الذي يشير إلى هامان على أنه المسؤول عن تشييد الصروح في مملكة فرعون.

* * *

٣ـ شبهة: من التي التقطت موسى من اليم.

نص الشبهة:

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾ (القصص: ٩).

فاعترض على ذلك بقوله:

ويعلمنا الكتاب المقدس أن ابنة فرعون هي التي نزلت إلى نهر النيل لتغتسل لأنهم كانوا يعتبرونه إلهًا يطهرهم من النجاسة فرأت فسطاطًا من البردي بين الحلفاء ففتحته وإذا هو صبي يبكي فأخذته ابنة فرعون ابنًا لها، ولكنها لم تكن زوجة فرعون.

ووجه الاعتراض: أنه قال القرآن يقول إن امرأة فرعون هي التي التقطت موسى عليه السلام، وأن التوراة تقول أن الملتقطة له هي ابنة فرعون وليست امرأته.

والرد على هذا من وجوه:

الوجه الأول: التوراة التي بين أيديكم محرفة فلا يجوز الاحتجاج بها.

الوجه الثاني: القرآن لم يثبت أن امرأة فرعون هي التي التقطته كما زعم.

الوجه الثالث: تحقيق القول فيمن التقطه من البحر.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: التوراة التي بين أيديكم محرفة فلا يجوز الاحتجاج بها.

وذلك إن كلمات التوراة مشكوك فيها والدليل على ذلك أن اسم الرجل في موضع يأتي في موضع آخر باسم غيره. وكذلك المرأة وهذا يتكرر كثيرًا. وعلى سبيل المثال:

الشيخ الكبير في أرض مدين مختلف في اسمه.

في سفر الخروج اسمه رعوئيل. (سفر الخروج ٢/ ١٨).

وفي سفر الخروج نفسه اسمه يترو. (سفر الخروج ٤/ ١٨، ١٨/ ١).

رئيس جيش هدد عازر مختلف في اسمه.

في سفر صموئيل الثاني اسمه شوباك. (سفر صموئيل الثاني ١٠/ ١٦).

وفي سفر الأخبار الأول اسمه شوفاك. (سفر الأخبار الأول ١٩/ ١٦).

وهذا على سبيل المثال لا الحصر فكيف يحتج علينا بما هو محرف.

الوجه الثاني: القرآن لم يثبت أن امرأة فرعون هي التي أخذته من البحر.

فقد اعترض علينا بفهم خاطئ للآية فالله ﷻ قال: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾ (القصص: ٩).

فالآية لا تتحدث عن الذي أخذه من البحر؛ وإنما هي في موقف آخر لما أراد فرعون أن يقتله. كذلك القرآن لم يثبت صراحة أن امرأة فرعون هي التي أخذته كما ادعى وإنما الله عز وجل يقول: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾﴾ (القصص: ٨).

فمن هم آل فرعون كما في الآية، والجواب عليه في الوجه الثالث.

الوجه الثالث: من الذي التقطه من آل فرعون؟

وقد اختلف أهل العلم في ذلك على ثلاثة أقوال:

القول الأول جواري امرأة فرعون:

الدليل:

١-كما في حديث الفتون الطويل وهو حديث ابن عباس رضي الله عنهما وفيه " فانتهى الماء به حتى أوفي به عند فرضه مستقى جواري امرأة فرعون فلما رأينه أخذنه. . . . . "[1].

قال ابن كثير: هكذا رواه الإمام النسائي في السنن الكبرى، وأخرجه أبو جعفر بن جرير، وابن أبي حاتم في تفسيريهما كلهم من حديث يزيد بن هارون به، وهو موقوف من كلام ابن عباس، وليس فيه مرفوع إلا قليل منه، وكأنه تلقاه (ابن عباس رضي الله عنهما) مما أبيح نقله من الإسرائيليات عن كعب الأحبار أو غيره، والله أعلم. وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي يقول ذلك أيضًا. [1]

(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (١١٣٢٦)، وأبو يعلى في مسنده (٢٦١٠)، والطبري في تفسيره (١٦/ ١٦٤)، كلهم من حديث يزيد بن هارون أنبأنا أصبغ بن يزيد حدثنا القاسم بن أبي أيوب أخبرني سعيد بن جبير قال سألت ابن عباس. . . . . . الحديث. وهو حديث حسن، فيه أصبغ بن يزيد صدوق يغرب.

٢- **قال السدي:** أقبل الموج بالتابوت يرفعه مرة ويخفضه أخرى حتى أدخله بين أشجار عند بيت فرعون فخرج جواري آسية امرأة فرعون يغتسلن فوجدن التابوت فأدخلنه إلى آسية وظنن أن فيه مالًا فلما نظرت إليه آسية وقعت عليها رحمته فأحبته فلما أخبرت به فرعون أراد أن يذبحه فلم تزل آسية تكلمه حتى تركه لها قال: إني أخاف أن يكون هذا من بني إسرائيل وأن يكون هذا الذي على يديه هلاكنا فذلك قول الله: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا﴾[2].

القول الثاني: بنت فرعون.

محمد بن قيس قال: كانت بنت فرعون برصاء فجاءت إلى النيل فإذا التابوت في النيل تخفقه الأمواج فأخذته بنت فرعون فلما فتحت التابوت فإذا هي بصبي فلما اطلعت في وجهه برأت من البرص فجاءت به إلى أمها فقالت: إن هذا الصبي مبارك لما نظرت إليه برئت فقال فرعون: هذا من صبيان بني إسرائيل هلم حتى أقتله فقالت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ﴾. [3]

القول الثالث: أعوان فرعون.

عن ابن إسحاق قال: لما ولدت موسى أمه أرضعته حتى إذا أمر فرعون بقتل الولدان من سنته تلك عمدت إليه فصنعت به ما أمرها الله تعالى جعلته في تابوت صغير ومهدت له فيه ثم عمدت إلى النيل فقذفته فيه، وأصبح فرعون في مجلس له كان يجلسه على شفير النيل كل غداة فبينا هو جالس إذ مر النيل بالتابوت فقذف به وآسية ابنة مزاحم امرأته جالسة إلى جنبه فقال: إن هذا لشيء في البحر فأتوني به فخرج إليه أعوانه حتى جاءوا به

---

(١) تفسير ابن كثير (٩/ ٣٣٧) والحديث أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير مختصرًا كما أشار (١٦٧٣٥).

(٢) الطبري في تفسيره (٢٠/ ٣١ - ٣٢) فيه أسباط: صدوق كثير الخطأ يغرب.

(٣) ضعيف. أخرجه الطبري في التفسير (٢٠/ ٣٢) فيه محمد بن قيس ضعيف أبو معشر نجيح ضعيف وقال البخاري: منكر الحديث.

ففتح التابوت فإذا فيه صبي في مهده فألقى الله عليه محبته وعطف عليه نفسه قالت امرأته آسية: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾. [(١)]

وبعد هذا العرض تبين أن الراجح هو القول الأول أن الذي أخذه من البحر جواري امرأة فرعون.

الوجه الرابع: التوراة لم تثبت أن ابنة فرعون هي التي التقطته وإنما أثبت أن الجواري هن اللواتي أخذنه.

فقد ادعو أن الكتاب عندهم يثبت أن ابنة فرعون هي التي أخذته من النهر وهذا خطأ ولكن الذي في الكتاب عندهم هو: **فَنَزَلَتِ ابْنَةُ فِرْعَوْنَ إِلَى النَّهْرِ لِتَغْتَسِلَ، وَكَانَتْ جَوَارِيهَا مَاشِيَاتٍ عَلَى جَانِبِ النَّهْرِ. فَرَأَتِ السَّفَطَ بَيْنَ الْحَلْفَاءِ، فَأَرْسَلَتْ أَمَتَهَا وَأَخَذَتْهُ** (سفر الخروج ٢/ ٥).

قال ابن كثير: وعند أهل الكتاب أن التي التقطت موسى -دربتة- ابنة فرعون، وليس لامرأته ذكر بالكلية، وهذا من غلطهم على كتاب الله ﷻ. [(٢)]

* * * *

(١) الطبري في تفسيره (٢٠/ ٣٢) من حديث ابن حميد، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٧٠٠) من حديث عبد الرحمن بن سلمة كلاهما (ابن حميد وعبد الرحمن) ثنا سلمة عن محمد بن إسحاق. وهو ضعيف جدًّا.

(٢) قصص الأنبياء (٢٧٩).

٤ـ شبهة: وجود امرأتين عند البئر.

نص الشبهة:

إنكار وجود امرأتين عند البئر وصفة صداق موسى ﷺ كما قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾ (القصص: ٢٧).

قالوا: وتعلمنا التوراة أنه لما فعل موسى عملًا جميلًا مع بنات كاهن مديان وكن سبعًا- لا اثنتين- أعطاه إحداهن زوجة بدون أن يخدمه ثماني سنوات لا عشرًا والذي خدم حماه على امرأته يعقوب خدمه سبع سنين.

والجواب على هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: الكتاب الذي بين أيديكم محرف فلا يجوز الاحتجاج به.

الوجه الثاني: القرآن أثبت أنهما امرأتين والعبرة بما في القرآن دون غيره.

الوجه الثالث: الآثار الواردة في الباب تدل على أنهما امرأتين.

الوجه الرابع: قد يكون له أكثر من بنت، ولكن اثنتان منهما هما اللتان كانتا تسقيان.

الوجه الخامس: القرآن الكريم أثبت صفة الصداق فالعبرة به لا بغيره.

الوجه السادس: السنة النبوية دلت على ما دل عليه القرآن الكريم من صفة الصداق.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: الكتاب الذي بين أيديكم محرف فلا يجوز الاحتجاج به.

وهذا مما لا يخفى؛ فالكلمات مشكوك فيها، والدليل على ذلك أن العدد يكون في موضع ويأتي في موضع آخر ويأتي في نفس المصدر أو غيره ما ينقضه، وهذا يتكرر كثيرًا.

وعلى سبيل المثال: عدد بني إسرائيل:

في سفر صموئيل الثاني (٢٤/ ٩) (وكان عدد بني إسرائيل ثمانمائة ألف رجل بطل يضرب بالسيف ورجال يهوذا عدتهم خمسمائة ألف رجل مقاتلة).

وفي السفر الأول من أخبار الأيام (٢١/ ٥) (وكان عدد كل إسرائيل ألف ألف ومائة ألف رجل جاذب سيف ويهوذا أربعمائة وسبعون ألف رجل مقاتله).

عمر يوياكين:

وفي سفر الملوك الثاني (٢٤/ ٨) (وكان يوم ملك ابن ثمانية عشر سنة).

وفي السفر الثاني من أخبار اليوم (٣٦/ ٩) (ابن ثمانية سنين كان يوياكين حين ملك) وهذا على سبيل المثال وللمزيد يراجع كتاب إظهار الحق[1].

الوجه الثاني: القرآن أثبت أنهما امرأتان، والعبرة بما في القرآن، ولا عبرة بالمحرف الذي وقع في التوراة.

قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ (القصص ٢٣: ٢٧).

وهنا نلاحظ الآتي:

١- التصريح بذكر العدد في قوله امرأتين وهذا من أوضح الأدلة.

٢- الخطاب بضمير المثنى سواء كان ما بين موسى والمرأتين أو موسى وصاحب مدين كما في قوله: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ ﴿قَالَتَا﴾ ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴾ ﴿إِحْدَىٰهُمَا﴾ ﴿إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ﴾.

٣- جمهور أهل العلم بالتفسير على أنهما اثنتين.

الوجه الثالث: الآثار الواردة في الباب تدل على أنهما امرأتان.

أثر ابن عباس رضي الله عنه: في قوله: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ ﴾ أن موسى ﷺ لما ورد ماء مدين ووجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان فقالتا له: ماء. "[2]

---

(١) انظر بحث (تحريف الكتاب المقدس).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (١٦٨٢٤)، وفيه عطاء بن السائب وقد اختلط لكن يشهد له حديث الفتون عن ابن عباس أيضًا، والشاهد منه " فقال لهما: ما خطبكما معتزلتين لا تسقيان مع الناس؟ فقالتا:. . . " بخطاب المثني، والحديث أخرجه النسائي في السنن الكبرى (١١٣٢٦) بسند حسن.

أثر عمر بن الخطاب ﷺ: أن موسى ﷺلما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر ولا يطيق رفعها إلا عشرة رجال فإذا هو بامرأتين تذودان قال ما خطبكما؟. . . . . "[(١)]

الوجه الرابع: قد يكون له أكثر من بنت، ولكن اثنتان منهماهمااللتان كانتا تسقيان.

قال ابن كثير: وعند أهل الكتاب أنهن كن سبع بنات، وهذا أيضا من الغلط، ولعلهن كن سبعًا، ولكن إنما كان تسقى اثنتان منهن، وهذا الجمع ممكن إن كان ذاك محفوظًا، وإلا فالظاهر أنه لم يكن له سوى بنتين[(٢)].

الوجه الخامس: القرآن الكريم أثبت صفة الصداق فالعبرة بما في القرآن

قال تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٢٨﴾ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ (القصص: ٢٧ -٢٩)

وهذه الصفة: وهي أن صاحب مدين طلب من موسى أن يرعى له ثمان سنوات على أن يزوجه إحدى ابنتيه، فإن تبرع بزيادة سنتين فهو لموسى ﷺ وإلا ففي ثمانية كفاية، وقد رعى موسى ﷺ أتم الأجلين وأوفاهما وأبرهما. وهذا ما عليه جمهور أهل العلم بالتفسير[(٣)].

الوجه السادس: السنة النبوية دلت على ما دل عليه القرآن الكريم من صفة الصداق.

ابن عباس ﷺ:

---

(١)أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٤٥٤)، ومن طريقه أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (١٦٨٢٧) وفيه عنعنة أبي إسحاق السبيعي، وصحح إسناده ابن كثير في التفسير (١٠/ ٤٥٠).

(٢) قصص الأنبياء (٢٨٤).

(٣) أخرجه الطبري (٢٠/ ٦٥)، القرطبي (١٣/ ٢٧٧: ٢٩١)، فتح القدير (٤/ ٢٣٦: ٢٤٢).

سألني يهودي من أهل الحيرة أي الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله، فقدمت فسألت ابن عباس فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما إن رسول الله ﷺ إذا قال فعل. (١)

قال ابن حجر: وهو في حكم المرفوع لأن ابن عباس كان لا يعتمد على أهل الكتاب. (٢)

* * * *

(١) أخرجه البخاري (٢٦٨٤) من رواية سالم الأفطس عن سعيد، وأخرجه الطبري في تفسيره (٢٠/ ٦٨) من رواية عطاء بن السائب كلاهما موقوفًا. ويشهد له حديث الفتون كما عند النسائي في السنن الكبرى بسند حسن (١١٣٢٦).

(٢) فتح الباري (٥/ ٣٤٣)، قلت: ويؤيده ما جاء في رواية عكرمة عن ابن عباس في نفس الحديث السابق لكنها مرفوعة عند الحميدي في المسند (٥٣٥)، والطبري في التفسير (٢٠/ ٦٨)، والبزار كشف الأستار (٢٢٤٥) وقد صححها الألباني بطرقها كما في السلسلة الصحيحة (١٨٨٠).

٥- شبهة: حول قارون.

نص الشبهة:

إنكار أن يكون قارون هو الذي خسف به وإنما هو قورح، وأن قارون لم يكن في زمن موسى عليه السلام، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ (القصص: ٧٦).

والرد عليه من هذه الوجوه:

الوجه الأول: الكتاب الذي بأيديكم محرف فلا يجوز الاعتراض به.

الوجه الثاني: قورح واحد أم اثنان؟

الوجه الثالث: القرآن الكريم أثبت أنه قارون، فالعبرة بما في القرآن.

الوجه الرابع: لا فرق بين قارون وقورح.

الوجه الخامس: من هو قارون؟.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: الكتاب الذي بأيديكم محرف فلا يجوز الاعتراض به على القرآن.

وذلك أن الأسماء تكون في موضع ويأتي في موضع نفسه أو غيره ما يناقضه، وكذلك التاريخ في موضع ويأتي في الموضع نفسه أو غيره ما ينقضه، وعلى سبيل المثال لا الحصر:

أولًا في الأسماء:

١-ففي سفر صموئيل الثاني (٢٣: ٨): هذِهِ أَسْمَاءُ الأَبْطَالِ الَّذِينَ لِدَاوُدَ: يُشَيْبَ بَشَّبَثُ التَّحْكَمُونِيُّ رَئِيسُ الثَّلاَثَةِ. هُوَ هَزَّ رُمْحَهُ عَلَى ثَمَانِ مِئَةٍ قَتَلَهُمْ دَفْعَةً وَاحِدَةً.

ولكن في سفر أخبار الأيام الأول (١١: ١١): **وَهذَا هُوَ عَدَدُ الأَبْطَالِ الَّذِينَ لِدَاوُدَ: يَشُبْعَامُ بْنُ حَكْمُونِي رَئِيسُ الثَّوَالِثِ. هُوَ هَزَّ رُمْحَهُ عَلَى ثَلاَثِ مِئَةٍ قَتَلَهُمْ دُفْعَةً وَاحِدَةً.**

٢-سفر صمويل الثاني ٨/ ٣: ١٧: " هدد عزر ": " توعي الملك. . . . هدد عزر "يورام" " وأخيمالك. . . . وسرايا الكاتب ".

سفر أخبار الأيام الأول ١٨/ ١٧: ٣: " هدر عزر " " توعو ملك. . . . . هدر عزر " " هدورام "، " وأبيمالك. . . . وشوشا كاتب ".

ثانيًا في التاريخ:

١-ففي سفر الملوك الأول (١٥ : ٣٣): **فِي السَّنَةِ الثَّالِثَةِ لآسَا مَلِكِ يَهُوذَا، مَلَكَ بَعْشَا بْنُ أَخِيَّا عَلَى جَمِيعِ إِسْرَائِيلَ فِي تِرْصَةَ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ سَنَةً.**

ولكن سفر أخبار اليوم الثاني (١٦ : ١): **فِي السَّنَةِ السَّادِسَةِ وَالثَّلاَثِينَ لِمُلْكِ آسَا صَعِدَ بَعْشَا مَلِكُ إِسْرَائِيلَ عَلَى يَهُوذَا، وَبَنَى الرَّامَةَ لِكَيْلاَ يَدَعَ أَحَدًا يَخْرُجُ أَوْ يَدْخُلُ إِلَى آسَا مَلِكِ يَهُوذَا.**

٢-وفي إنجيل متى: (٨/ ١ : ١٤): (أولًا شفاء الأبرص بعد وعظ الجبل ثم شفاء عبد قائد المائة بعدما دخل عيسى عليه السلام كفر ناحوم ثم شفاء حماه بطرس).

ولكن في إنجيل لوقا (أولًا شفاء حماه بطرس ثم في باب الخامس شفاء الأبرص ثم في الباب السابع شفاء عبد قائد المئة) (٤/ ٣٨، ٥/ ١٢ : ١٤، ٧/ ١ : ١٠).

وعلى هذا فقد تبين أن الأسماء عندهم وكذلك التاريخ فيهما تناقض عجيب وظاهر بين في الدلالة، وقصة قارون عندهم من هذا القبيل فقد يكون قارون هو قورح على ما يأتي أو يكون هو قارون لكنهم حرفوا الاسم وليس هذا ببعيد عنهم. ثم اعتراضهم على تاريخ وجوده مع موسى فقد تبين أن التاريخ عندهم متناقض وعلى فرض صحته، فأي قورح يكون هل الذي في زمن يعقوب أم الذي في زمن موسى؟ ؟ ؟! والعبرة بما في القصة من دروس وعبر لا في اسمه.

الوجه الثاني: قورح واحد أم اثنان؟

وجوابًا على هذا السؤال نجد أن الكتاب عندهم يخبر بأن قورح عندهم اثنان.

الأول: كان هو قورح بن عيسو بن إسحاق بن إبراهيم. (سفر التكوين ٣٦/ ١ : ٤٣)

الثاني: قورح بن يصهار بن قهات بن لاوي. (سفر العدد ١٦/ ١ : ٥٠)

فإن كان الأول فهذا مستحيل لأنه كان قبل موسى بزمان، وإن كان الثاني فالقرآن أثبت أنه قارون وهذا هو المعلوم يقينا والعبرة في أحداث القصة لا في الاسم كما سنبين.

الوجه الثالث: القرآن أثبت أنه قارون فالعبرة بما في القرآن.

فقد أثبت القرآن الكريم قصة قارون مع نبي الله موسى عليه السلام في غير موضع، ومع ذلك لم يتغير الاسم فبين القرآن أنه من قوم موسى.

فقال تعالى: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ (القصص: ٧٦)، وبين القرآن الكريم أن موسى عليه السلام أُرسل إليه وأنه كذب بالرسالة، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾ (غافر٢٣ -٢٤). وبين القرآن الكريم عاقبة تكذيبه وعناده واستكباره في الأرض ففي سورة القصص قال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ (القصص: ٨١).

وقال تعالى: ﴿وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَـٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ (العنكبوت: ٣٩ -٤٠)

الوجه الرابع: لا فرق بين قارون وقورح هما واحد.

(قارون) اسم معرب أصله في العبرانية (قورح) بضم القاف مشبعة وفتح الراء، وقع في تعريبه تغيير بعض حروفه للتخفيف، وأجري وزنه على متعارف الأوزان العربية مثل طالوت، وجالوت، فليست حروفه حروف اشتقاق من مادة قرن. (١)

الوجه الخامس: من هو قارون؟

والإجابة عن هذا السؤال في مبحثين:

المبحث الأول: نبذة عنه.

قارون على وزن فاعول، اسم أعجمي يمتنع من الصرف للعجمية والعلمية وليس بعربي، مشتق من قرنت قال الزجاج لو كان قارون من قرنت الشيء لا نصرف.

وهو بالإجماع كان رجل من بني إسرائيل كان ممن آمن بموسى وحفظ التوراة وكان من أقرأ الناس لها، ثم إنه لحقه الزهو و الإعجاب فبغى على قومه بأنواع من البغي فنافق

---

(١) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٧٥).

كما نافق السامري وخرج عن طاعة موسى عليه السلام فكانت النتيجة أن خسف الله به وبداره الأرض وأصبح من الهالكين. [١]

المبحث الثاني: درجة قرابته من موسى عليه السلام.

واختلف في قرابته من موسى عليه السلام على ثلاثة أقوال:

القول الأول: أنه ابن عم موسى عليه السلام.

قال قتادة: كنا نتحدث أنه كان ابن عمة أخي أبيه، وكان يسمى المنور من حسن صوته بالتوراة ولكن عدو الله نافق كما نافق السامري فأهلكه البغي. [٢]

قال إبراهيم النخعي: كان قارون ابن عم موسى عليه السلام. [٣]

القول الثاني: أنه عم موسى عليه السلام.

قاله ابن إسحاق. [٤]

القول الثالث أنه ابن خالة موسى عليه السلام.

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما. [٥] والراجح القول الأول.

قال ابن جرير الطبري: وأما أهل العلم من سلف أمتنا ومن أهل الكتابين على أنه ابن عم موسى عليه السلام[٦].

وهذا ما ذهب إليه ابن حجر[٧].

* * *

(١) المحرر الوجيز (٤/ ٢٩٨)، و البحر المحيط (٧/ ١٢٦)، وفتح البيان (١٠/ ١٤٧).

(٢) **حسن**. أخرجه الطبري في التاريخ (١/ ٢٦٢) وفي التفسير (٢٠/ ١٠٦) وابن أبي حاتم في التفسير (١٧٠٧٥).

(٣) حسن. أخرجه الطبري في التاريخ (١/ ٢٦٢) وفي التفسير (٢٠/ ١٠٦).

(٤) **ضعيف جدًا**. أخرجه الطبري في التفسير (٢٠/ ١٠٥)، والتاريخ (١/ ٢٦٢)، وفيه محمد بن حميد الرازي أجمع أهل الري على أنه ضعيف جدًّا.

(٥) زاد المسير (٦/ ٢٣٩)، وتفسير الرازي (٢٥/ ١٣)، وروح المعاني (٢٠/ ١١٠).

(٦) الطبري في التاريخ (١/ ٢٦٢).

(٧) فتح الباري (٦/ ٥١٦).

سورة العنكبوت

شبهة: قَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وهَامَانَ

نص الشبهة:

جاء في سورة العنكبوت (٣٩) ﴿وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَـٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾، وجاء في سورة غافر (٢٥: ٢٣) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٢٥﴾﴾

يتبادر إلى الذهن من هذه الآيات أن قارون وهامان مصريان من قوم فرعون وأنهما مع فرعون قاوموا موسى في مصر ولكن هذا خطأ لأن قَارون إسرائيلي لا مصري، ومن قوم موسى لا من قوم فرعون كما جاء في سورة القصص ٧٦: ٢٨ ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: إثبات أن قارون من قوم موسى.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ (القصص: ٧٦)، يقول الله تعالى ذكره (إن قارون) وهو قارون بن يصهر بن قامث بن لاوي بن يعقوب ﴿كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ يقول: كان من عشرة موسى بن عمران النبي ﷺ وهو ابن عمه لأبيه وأمه وذلك أن قارون هو قارون بن يصهر بن قامث، وموسى: موسى بن عمران بن قامث.[1]

(١) جامع البيان لابن جرير الطبري (٢٠/ ١٠٥)، وانظر ابن كثير (١٠/ ٤٨).

الوجه الثاني:أن الله سبحانه وتعالى بيّن لنا ووضح في علة الجمع بينهم هو الاستكبار في الأرض فقال الله تعالى: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾، أي: فاستكبروا في الأرض عن التصديق بالبينات من الآيات، وغي اتباع موسى ﷺ.[1]

الوجه الثالث

أن الله ﷻقبل هذه الآية ذكر قوم عاد وثمود وجمع بينهم اختلاف البلاد فقال ﷻ: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَٰتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ يخبر تعالى عن هؤلاء الأمم المكذبة للرسل كيف أبادهم الله وتنوع في عذابهم فأخذهم بالانتقام منهم، فعاد قوم هود، وكانوا يسكنون الأحقاف وهي قرية قريبة من حضر موت ببلاد اليمن وثمود قوم صالح وكانوا يسكنون الحجر قريبًا من وادي القرى وكانت العرب تعرف مساكنها جيدًا وتمر عليها كثيرًا، وقارون صاحب الأموال ومفاتيح الكنوز الثقيلة، وفرعون ملك مصر في زمان موسى ووزير هامان القبطيان الكافران بالله ورسوله، ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ﴾: أي كانت عقوبته بما يناسبه ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ وهم: عاد ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ وهم ثمود ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ وهو قارون ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ وهم فرعون ووزيره هامان.

وهذا الذي ذكرناه ظاهر لسياق الآية، وهو من باب اللف والنشر وهو أنه ذكر الأمم المكذبة، ثم قال ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ﴾ أي من هؤلاء المذكورين[2].

الوجه الرابع.

---

(١) جامع البيان لابن جرير الطبري (٢٠/ ١٥٠).

(٢) تفسير ابن كثير (١٠/ ٥١١).

أن الله ﷻ حين جمع في الآية الكريمة بين قارون وهامان فرعون جمع بينهم من جهة أن الرسول الذي أرسل إليهم هو رسول الله ﷺ واحد منهم وهو نبينا موسى ﵇، فالجمع إذًا من جهة أن الرسول واحد.

فائدة مهمة:

معنى العطف: الاشتراك في تأثير العامل. [١]

ومعنى العطف: مطلق الجمع، فتعطف الشيء على مصاحبه نحو ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ (العنكبوت: ١٥).

وعلى سابقة نحو ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ وعلى لاحقه نحو ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ (الشورى: ٣).

ويجوز أن يكون بين متعاطفيها تقارب أو تراخ، نحو ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فإن الرد بعيد إلقائه والإرسال على أربعين سنة، وتنفرد الواو عن سائر أحرف العطف بأمور منها:

احتمال معطوفها للمعاني الثلاثة السابقة. [٢]

فأعطف بواو لاحقًا أو سابقًا ... في الحكم أو مصاحبًا موافقًا[٣]

* * *

(١) شرح المفصل لابن يعيش (٣/ ٧٤).

(٢) مغني اللبيب لابن هشام (١/ ٢٢٦).

(٣) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك (٣/ ٢٢٦).

سورة لقمان

شبهة: إنكار شخصية لقمان الذي ذكر في القرآن.

نص الشبهة:

يقولون: إن محمدًا اتخذ شخصية خيالية من الجاهلية ليجعل منها نبيًا حكيمًا يعظ ابنه.

وقد قال البيضاوي: إن اسمه لقمان بن عوراء من أولاد أزر ابن أخت أيوب أو خالته، وعاش حتى أدرك داود عليه السلام وأخذ منه العلم وكان يفتي قبل مبعثه.

والسؤال: فكيف يكون لقمان هذا نبيًا؟ وكيف يعتبره البيضاوي يعاصر أيوب ويعاصر داود؛ وبين أيوب وداود ما يقرب من ٩٠٠ سنة؟ وأين بلاد عوص حيث عاش أيوب من بلاد فلسطين حيث عاش داود؟

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: القرآن أثبت قصة لقمان فوجب الإيمان بها.

الوجه الثاني: لا يجوز الاحتجاج بالتوراة والإنجيل وقد ثبت تحريفهما.

الوجه الثالث: الصحيح أن لقمان كان حكيمًا وليس نبيًا، ولم يثبت عن حاله أو حياته أو تاريخه شيء سوى ما قصه علينا القرآن.

الوجه الرابع: وماذا عن لقمان الذي في الإنجيل واسمه (لوكيوس).

وإليك التفصيل

الوجه الأول: القرآن أثبت قصة لقمان فوجب الإيمان بها.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ

فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ (لقمان: ١٢ - ١٩).

فهذه قصة من القصص التي ذكرها القرآن لنأخذ منها الدروس والعبر التي يسير عليها المسلم في حياته، فالقصة دعت إلى توحيد الله وإلى طاعة الله تبارك وتعالى وإلى جملة من المواعظ والآداب التي إذا ما تحلى بها المسلم سعد في دنياه وأخراه.

الوجه الثاني: لا يجوز الاحتجاج بالتوراة و الإنجيل وقد ثبت تحريفهما.

١ - ثبت بالأدلة القاطعة أن الكتاب المقدس محرف، ومن ثم لا يجوز الاحتجاج به.

٢- ولو سلمنا بعدم التحريف فالقرآن قد أتى بزيادة لم تأتِ بها الكتب الأخرى فوجب الإيمان بها.

٣- هل معنى أن التوراة والإنجيل لم تذكر القصة أنها ليست حقيقية؟ وهل استوعب الكتاب المقدس جميع أحداث التاريخ والقصص؟ والجواب: أن هذا محال.

الوجه الثالث: الصحيح أن لقمان كان حكيمًا وليس نبيًا، ولم يثبت عن حاله أو حياته أو تاريخه شيء سوى ما قصه علينا القرآن.

قال ابن كثير: اختلف السلف في لقمان عليه السلام هل كان نبيًا أو عبدًا صالحًا من غير نبوة؟ على قولين الأكثرون على الثاني[١].

قال الشوكاني: اختُلف في لقمان هل هو عجمي أم عربي مشتق من اللقم؟ فمن قال إنه عجمي منعه للتعريف والعجمة، ومن قال إنه عربي منعه للتعريف ولزيادة الألف والنون، واختلفوا أيضًا هو نبي أم رجل صالح؟ فذهب أكثر أهل العلم إلى أنه ليس بنبي، وحكا الواحدي عن عكرمة والسدي والشعبي أنه كان نبيًا والأول أرجح[٢].

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٤١٥).

(٢) فتح القدير للشوكاني (٤/ ٣٣٢).

ثم قال: وقد ذكر جماعة من أهل الحديث روايات عن جماعة من الصحابة والتابعين تتضمن كلمات من مواعظ لقمان وحكمه، ولم يصح عن رسول الله ﷺ من ذلك شيء، ولا ثبت إسناد صحيح إلى لقمان بشيء منها حتى نقبله، وقد حكا الله سبحانه من مواعظه لابنه ما حكاه في هذا الوضع وفيه كفاية، وما عدا ذلك مما لم يصح فليس في ذكره إلا شغلة للحيز وقطيعة للوقت، ولم يكن نبيًا حتى يكون ما نقل عنه من شرع من قبلنا، ولا صح إسناد ما رُوي عنه من الكلمات حتى يكون ذكر ذلك من تدوين كلمات الحكمة التي هي ضالة المؤمن[1].

الوجه الرابع: وماذا عن لقمان الذي في الإنجيل واسمه (لوكيوس).

لقد جاء في القرآن: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ. . . ﴾ (لقمان: ١٢) ونقل عن البيضاوي المفسر أنه كان معاصرًا لداود ﵇، وحرَّف المشكك قول البيضاوي وهو أنه من أولاد أزر بن أخت أيوب إلى أن لقمان كان معاصرًا لأيوب، ووجه نقده على هذا بقوله: كيف يكون معاصرًا لأيوب وداود؛ وبين أيوب وداود ما يقرب من ٩٠٠ سنة؟

وها هو كلام البيضاوي بنصه: "لقمان بن باعوراء أولاد آزر ابن أخت أيوب أو خالته، وعاش حتى أدرك داود ﵇، وأخذ منه العلم وكان يفتي قبل مبعثه، والجمهور على أنه كان حكيمًا ولم يكن نبيًا".

قلت: وليس هناك ما يدل على هذا النسب وهذه المعاصرة، وما يهمنا هو إثبات هذه الشخصية كما قررها القرآن الكريم.

والبيضاوي لا يقصد معاصرته وإنما يقصد نسبه، ولم يقل البيضاوي: كان نبيًا، ولم يقل القرآن ذلك؛ وإنما قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ ولكن صاحب الشبهة وجه الإشكال على النبوة؛ **فقال: كيف يكون لقمان نبيًا؟** إنه قال: كيف يكون لقمان نبيًا؟ وليس في القرآن أنه كان نبيًا ـ كما بينا ـ وإنما كان حكيمًا، واسمه "لوكيوس" في اليوناني، و"لقمان" في العبرانية، وفي سفر أعمال الرسل (١٣/ ١): "وَكَانَ فِي أَنْطَاكِيَةَ فِي الْكَنِيسَةِ هُنَاكَ أَنْبِيَاءُ

(١) فتح القدير للشوكاني (٤/ ٣٣٧).

وَمُعَلِّمُونَ: بَرْنَابَا، وَسِمْعَانُ الَّذِي يُدْعَى نِيجَرَ، وَلُوكِيُوسُ الْقَيْرَوَانِيُّ، وَمَنَايِنُ الَّذِي تَرَبَّى مَعَ هِيرُودُسَ رَئِيسِ الرُّبْعِ، وَشَاوُلُ.

وفي سفر الرسالة إلى أهل روما: أنه كان معاصرًا لبولس، وصديقًا له: **يُسَلِّمُ عَلَيْكُمْ تِيمُوثَاوُسُ الْعَامِلُ مَعِي، وَلُوكِيُوسُ وَيَاسُونُ وَسُوسِيبَاتْرُسُ أَنْسِبَائِي** (رومية ١٦/ ٢١)

واللغة اليونانية تضيف حرف السين في آخر الاسم مثل يوسيفوس ـ هيرودس ـ أغسطس قيصر، بير كلينوس وهو اسم أحمد رسول الله في إنجيل يوحنا. وفي العبرانية "يونان" بالألف والنون، وفي اليونانية "يونس". أما قولهم: إن بين أيوب وداود ما يقرب من ٩٠٠ سنة.

فهذا كلام ليس عليه دليل من كتب التاريخ. [١]

ولو سلمنا بصحته فإن كلام البيضاوي ليس فيه أنه عاصر أيوب، وما قال أحد بذلك وإنما قيل إنه عاصر داود عليه السلام[٢].

* * * *

(١) انظر كتاب (مروج الذهب ١/ ١٨)، والمفصل في تاريخ العرب (١/ ٣٣٩).

(٢) انظر المراجع السابقة.

سورة الأحزاب

وفيها:

١- شبهة: مخاطبة الله عز وجل لنساء النبي ﷺ في القرآن.

٢- شبهة: النهي عن دخول بيوت النبي ﷺ.

٣- شبهة: كيف يضع الرسول ﷺ نفسه مع الله عز وجل.

١ـ شبهة: مخاطبة الله ﷻ لنساء النبي ﷺ في القرآن.

نص الشبهة:

قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِ﴾ (الأحزاب: ٣٠) فيه اتهام لهن أنهن وقعن في الفاحشة، ولماذا يخاطبهن بهذا الكلام؟!

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: تفسير الآيات.

الوجه الثاني: لماذا يطلب الله ﷻ من نساء النبي ﷺ مثل هذه الأمور.

الوجه الثالث: فضل نساء النبي ﷺ على سائر النساء، فهذه الأوامر في حقهن من باب أولى.

الوجه الرابع: أن الله ﷻ خصهن بهذه الأوامر زيادة في حجابهن وحيائهن.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: تفسير الآيات.

قال تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾﴾ (الأحزاب: ٣٠، ٣١).

قال ابن كثير: يقول تعالى واعظًا نساء النبي ﷺ اللاتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، واستقر أمرهن تحت رسول الله ﷺ أن يخبرهن بحكمهن [وتخصيصهن] دون سائر النساء، بأن مَنْ يأت منهن بفاحشة مبينة، قال ابن عباس: وهي النشوز وسوء الخلق، وعلى كل تقدير فهو شرط، والشرط لا يقتضي الوقوع[1].

قال الطبري: يقول تعالى ذكره: ومن يطع الله ورسوله منكن، وتعمل بما أمر الله به ﴿نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ﴾ يقول: يعطها الله ثواب عملها، مثلي ثواب عمل غيرهن من سائر نساء الناس، ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا﴾ يقول: وأعتدنا لها في الآخرة عيشًا هنيًا في الجنة[2].

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٦٥١).

(٢) تفسير الطبري (٢٢/ ١).

وقال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ (الأحزاب: ٣٣) أي: اِلْزَمْنَ بيوتكن، فلا تخرجن لغير الحاجة، ومن الحوائج الشرعية: الصلاة في المسجد بشرطه، كما قال رسول الله ﷺ: "لاَ تَمْنَعُوا إِمَاءَ الله مَسَاجِدَ الله[1]، وَلَكِنْ لِيَخْرُجْنَ وَهُنَّ تَفِلاَتٌ[2]"، وفي رواية: "وبيوتهن خير لهن"[3].

وفيه دليل على أنه لا يجوز للمرأة أن تتطيب في غير بيتها بطيب على حال من الأحوال، وإذا تطيبت في بيتها فلا تخرج، ولما كان الأصل ألا تخرج امرأة إلا تفلة، وكان الوقت المعروف لتطيب النساء للرجال، إنما هو بالليل؛ لأن الليل يجمع بين الرجل وامرأته لإقباله من مصرفه إلى بيته ليسكن إلى أهله في ليله فتطيب امرأته، قيل لهن: من تطيب منكن قبل شهود العشاء فلا تشهد العشاء[4].

والتفلة: هي غير المتطيبة؛ لأن التفل نتن الريح، يقال: امرأة تفلة إذا كانت متغيرة الريح بنتن أو ريح غير طيبة[5].

أما قَوْله تَعَالَى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ (الأحزاب: ٣١) بَيَّنَ الله تَعَالَى أَنَّهُ كَمَا يُضَاعَفُ بِهَتْكِ الْحُرُمَاتِ الْعَذَابُ كَذَلِكَ يُضَاعَفُ بِصِيَانَتِهَا الثَّوَابُ، وَقَوْلُهُ: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ﴾ (الأحزاب: ٣٢)، يَعْنِي: فِي الْفَضْلِ وَالشَّرَفِ فَإِنَّهُنَّ وَإِنْ كُنَّ مِنَ الْآدَمِيَّاتِ فَلَسْنَ كَإِحْدَاهُنَّ، كَمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ- وَإِنْ كَانَ مِنْ الْبَشَرِ جِبِلَّةً - فَلَيْسَ مِنْهُمْ فَضِيلَةً وَمَنْزِلَةً، وَشَرَفُ الْمَنْزِلَةِ لَا يَحْتَمِلُ الْعَثَرَاتِ، فَإِنَّ مَنْ يُقْتَدَى بِهِ وَتُرْفَعُ مَنْزِلَتُهُ عَلَى الْمَنَازِلِ جَدِيرٌ بِأَنْ يَرْتَفِعَ فِعْلُهُ عَلَى الْأَفْعَالِ، وَيَرْبُو حَالُهُ عَلَى

---

(١) أخرجه البخاري مع الفتح (٢/ ٩٠٠).

(٢) أبو داود (٥٦٥)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٥٢٩).

(٣) المستدرك للحاكم (١/ ٢٠٩).

(٤) الاستذكار (٧/ ٢٤٩).

(٥) التمهيد (٢٤/ ١٧٤).

الْأَحْوَالِ. قَوْله تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ أَمَرَهُنَّ الله تَعَالَى أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُنَّ جَزْلًا، وَكَلَامُهُنَّ فَصْلًا، وَلَا يَكُونُ عَلَى وَجْهٍ يُحْدِثُ فِي الْقَلْبِ عَلَاقَةً بِمَا يَظْهَرُ عَلَيْهِ مِنْ اللِّينِ الْمُطْمِعِ لِلسَّامِعِ، وَأَخَذَ عَلَيْهِنَّ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُنَّ مَعْرُوفًا.

وقَوْله تَعَالَى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ (الأحزاب: ٣٣) قَالَ الْقَاضِي: الَّذِي عِنْدِي أَنَّهَا جَاهِلِيَّةٌ وَاحِدَةٌ؛ وَهِيَ قَبْلَ الْإِسْلَامِ، وَإِنَّمَا وُصِفَتْ بِالْأُولَى؛ لِأَنَّهَا صِفَتُهَا الَّتِي لَيْسَ لَهَا نَعْتُ غَيْرِهَا، وَهَذَا كَقَوْلِهِ: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ وَهَذِهِ حَقِيقَتُهُ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ يَحْكُمُ إلَّا بِالْحَقِّ[1].

وعن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ جَاءَهَا حِينَ أَمَرَهُ الله أَنْ يُخَيِّرَ أَزْوَاجَهُ، فَبَدَأَ بِي رَسُولُ الله ﷺفَقَالَ: " إِنِّي ذَاكِرٌ لَكِ أَمْرًا فَلَا عَلَيْكِ أَنْ لَا تَسْتَعْجِلِي حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبَوَيْكِ. وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ أَبَوَيَّ لَمْ يَكُونَا يَأْمُرَانِي بِفِرَاقِهِ، قَالَتْ: ثُمَّ قَالَ: إِنَّ الله قَالَ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ إِلَى تَمَامِ الْآيَتَيْنِ. فَقُلْتُ لَهُ: فَفِي أَيِّ هَذَا أَسْتَأْمِرُ أَبَوَيَّ، فَإِنِّي أُرِيدُ الله وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ"[2].

وفي الحديث الذي بعده قالت عائشة رضي الله عنها ثُمَّ فَعَلَ أَزْوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ مِثْلَ مَا فَعَلْتُ[3].

وفي الحديث ملاطفة النبي ﷺ لأزواجه وحلمه عنهن، وصبره على ما كان يصدر منهن من إدلال وغيره مما يبثه عليهن الغيرة.

الوجه الثاني: لماذا يأمر الله زوجات النبي ﷺ بهذه الأمور؟

أولا: الشرط لا يقتضي وقوع الفعل.

قال تعالى: ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَـٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ. .﴾ (الأحزاب: ٣٠)، وهذا أسلوب شرط، والشرط لا يقتضي وقوع الفعل، كقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ (الزمر: ٦٥)، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠

(١) أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ١٥٣٤، ١٥٣٨).

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٨٥)، مسلم (١٤٧٥).

(٣) أخرجه البخاري (٤٧٨٦).

أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ (الزخرف: ٨١)، وقوله: ﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ . . . ﴾ (الزمر: ٤)، وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ﴾ (الإسراء: ٧٤، ٧٥)، وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ ﴾ (الحاقة: ٤٤).

فهذه الصيغة التي وردت بها الآيات قضية شرطية والقضية الشرطية لا يلزم من صدقها صدق جزأيها، ألا ترى أن قولك: لو كانت الخمسة زوجًا لكانت منقسمة بمتساويين. قضية صادقة مع أن كل واحد من جزأيها غير صادق، قال الله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (الأنبياء: ٢٢)، ولم يلزم من هذا صدق القول بأن فيهما آلهة وبأنهما فسدتا[١].

ثانيًا: أن هذا على سبيل الفرض والمحالات يصح فرضها[٢].

ثالثًا: هذا خطاب لهن والمراد به غيرهن[٣].

أي: أن هذا من باب التعريض لغير نساء النبي ﷺ، أي: أنه خطاب لنساء الأمة[٤].

رابعًا: هذا الخطاب للتحذير والإنذار، والتحذير ليس معناه أَنْ وقع المخاطب في المحذور.

خامسًا: أن هذا الكلام من الله ﷻ أدب لهن، وتهديد لغيرهن من نساء الأمة[٥].

سادسًا: خاطبهن الله ﷻ بذلك ليعرف من دونهن أن هذه الأعمال فيها مضاعفة للعذاب حتى لو وقعت من نساء النبي ﷺ.

سابعًا: أنه كما أن طاعتهن أفضل من طاعات غيرهن، فكذلك القبائح التي تصدر عنهن، فإنها بتقدير الصدور تكون أقبح لقوله: ﴿ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ . . . ﴾.

---

(١) تفسير الرازي (٢٧/ ١٣).

(٢) تفسير البغوي (٤/ ٦٥).

(٣) البحر المحيط (٧/ ٤٢١).

(٤) فتح القدير (٤/ ٦٦٥).

(٥) تفسير البغوي (٤/ ٦٥).

واعلم أن الله لما قدم هذه المقدمات ذكر ما هو المقصود فقال: ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1].

ثامنًا: أراد الله أن ينبه الأمة أن من فعل ذلك عذب وضوعف لها العذاب حتى ولو كان كريمًا عند الله[2].

الوجه الثالث: فضل نساء النبي ﷺ على سائر النساء.

١- قال تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾﴾ يَعْنِي: فِي الْفَضْلِ وَالشَّرَفِ، فَإِنَّهُنَّ وَإِنْ كُنَّ مِنْ الْآدَمِيَّاتِ فَلَسْنَ كَإِحْدَاهُنَّ، كَمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَإِنْ كَانَ مِنْ الْبَشَرِ جِبِلَّةً، فَلَيْسَ مِنْهُمْ فَضِيلَةً وَمَنْزِلَةً، وَشَرَفُ الْمَنْزِلَةِ لَا يَحْتَمِلُ الْعَثَرَاتِ، فَإِنَّ مَنْ يُقْتَدَى بِهِ، وَتُرْفَعُ مَنْزِلَتُهُ عَلَى الْمَنَازِلِ جَدِيرٌ بِأَنْ يَرْتَفِعَ فِعْلُهُ عَلَى الْأَفْعَالِ، وَيَرْبُو حَالُهُ عَلَى الْأَحْوَالِ[3].

قال ابن كثير: وقوله: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ أي: في الحرمة، والاحترام، والإكرام، والتوقير، والإعظام، ولكن لا تجوز الخلوة بهن، ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع، وإن سَمَّى بعضُ العلماء بناتهن أخوات المؤمنين، كما هو منصوص الشافعي في المختصر، وهو من باب إطلاق العبارة لا إثبات الحكم[4].

٢- وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، والله ﷻ قال هذا بعد الأوامر التي أمرهن بها والنواهي التي نهاهن عنها، وكأنه يقول: أنا ما آمركم ولا أنهاكم عن هذه الأمور إلا لأطهركن وأذهب عنكم الرجس.

---

(١) تفسير الرازي (٢٧/ ١٣).

(٢) بحر العلوم للسمرقندي في تفسير قوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ . . .﴾.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ١٥٣٤).

(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٦٣٤).

وقال أيضًا: وهذا نص في دخول أزواج النبي ﷺ في أهل البيت هاهنا؛ لأنهن سبب نزول هذه الآية، وسبب النزول داخل فيه قولًا واحدًا[(١)].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب: ٣٥).

وعن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت: (يغزو الرجال، ولا يغزو النساء، وإنما لنا نصف الميراث، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ . . .﴾.

قال مجاهد: فأنزل فيها: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ . . .﴾، وكانت أم سلمة أول ظعينة قدمت المدينة مهاجرة)[(٢)].

وعن أم عمارة الأنصارية رضي الله عنها أنها أتت النبي ﷺ فقالت: ما أرى كل شيء إلا للرجال، وما أرى النساء يذكرن بشيء؟ فنزلت[(٣)].

ومن فضائل زوجات النبي ﷺ أنهن كن يؤثرن على أنفسهن، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: "كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا أَرَادَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ نِسَائِهِ فَأَيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا مَعَهُ، وَكَانَ يَقْسِمُ لِكُلِّ امْرَأَةٍ مِنْهُنَّ يَوْمَهَا وَلَيْلَتَهَا، غَيْرَ أَنَّ سَوْدَةَ بِنْتَ زَمْعَةَ وَهَبَتْ يَوْمَهَا وَلَيْلَتَهَا لِعَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ تَبْتَغِي بِذَلِكَ رِضَا رَسُولِ الله"[(٤)].

الوجه الرابع: لماذا لم تخاطب زوجات الأنبياء من قبل بمثل هذه الأمور؟

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٦٥٣).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٠٢٢) قال أبو عيسى: هذا حديث مرسل، وأخرجه عن بعضهم عن أبي نجيح عن مجاهد مرسل؛ أن أم سلمة قالت. . . وهو عند أحمد (٦/ ٣٠٥، ٣٠١)، وقال الألباني: صحيح الإسناد (صحيح الترمذي٣٠٢٢).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٢١١) قال أبو عيسى: هذا حديث صحيح، وإنما يعرف هذا الحديث من هذا الوجه. وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٥٦٥).

(٤) أخرجه البخاري (٢٥٩٣)، مسلم (١٤٦٣).

فنقول: أولًا إن الأمر للتشريف لا للإهانة، فعندما يأمرهن الله ﷻ وينهاهن عن أشياء فهذا تشريف لهن ورفعة لمكانتهن، ثم إنه مَنْ قال: إن الله لم يخاطب النساء قبل ذلك بمثل هذه الأشياء؟ أليس قد قال لمريم: ﴿ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ (آل عمران: ٤٣)، أليس قد ذم امرأة نوح وامرأة لوط لعدم استجابتهما لشرع الله فقال: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾ (التحريم: ١٠).

فانظر لصنيع سودة ﵂ وابتغائها رضا رسول الله ﷺ، وإيثاره على نفسها وعلى ما فيه سعادتها. وعن عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: في (حديث الإفك): "من يعذرنا في رجل بلغني أذاه في أهل بيتي، فوالله ما علمت من أهل بيتي إلا خيرًا"[1].

وبعدُ، فأي امرأة في الكتاب المقدس تشرفت بهذا الذكر بما تشرفت به نساء النبي ﷺ، ونساء المؤمنين عامةً، ولكنك حينما تنظر في هذا الكتاب - المحرف- تجد فيه إهانةً للمرأة، وإذلالًا، واحتقارًا، وغير ذلك للأهمية[2].

انظر كيف كان عيسى يخاطب أمه في أكثر كلامه، كان يقول لأمه: (يا امرأة)، كما في إنجيل يوحنا (٢/ ٥: ٣): (وَلَمَّا فَرَغَتِ الْخَمْرُ، قَالَتْ أُمُّ يَسُوعَ لَهُ: لَيْسَ لَهُمْ خَمْرٌ. ٤قَالَ لَهَا يَسُوعُ: مَا لِي وَلَكِ يَا امْرَأَةُ؟ لَمْ تَأْتِ سَاعَتِي بَعْدُ. ٥قَالَتْ أُمُّهُ لِلْخُدَّامِ: مَهْمَا قَالَ لَكُمْ فَافْعَلُوهُ).

* * * *

(١) أخرجه البخاري (٢٦٣٧).

(٢) راجع (شبهات حول المرأة) في هذه الموسوعة، وما ذُكِرَ عن المرأة في الكتاب المقدس.

٢ـ شبهة: النهي عن دخول بيوت النبي ﷺ.

نص الشبهة:

أمر الله ﷻ الصحابة بعدم دخول بيت النبي ﷺ بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ. . . ﴾ (الأحزاب: ٥٣) والآية تدل على ما يلي:

١- تصرفات زوجاته مع الرجال.

٢- النبي ﷺ لا يستطيع أن يهتم بزوجاته.

٣- الصحابة كانوا يستغيبون النبي ﷺ و يدخلون بيوت نسائه.

٤- أن الوحي يشتغل بمثل هذه الأمور، وهل هذا كان في اللوح المحفوظ؟

و الرد من ذلك وجوه:

الوجه الأول: التفسير الصحيح للآية.

الوجه الثاني: ١- سبب نزول آية الحجاب (السبب الصحيح).

٢- سبب نزول: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ وأن السبب المذكور باطل سندًا ومتنًا.

الوجه الثالث: الرد على دعواهم كما في نص الشبهة.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: التفسير الصحيح للآية.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٥٣).

يقول تعالى ذكره لأصحاب رسول الله ﷺ: يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله، لا تدخلوا بيوت نبي الله ﷺ، إلا أن تدعوا إلى طعام تطعمونه ﴿غَيۡرَ نَٰظِرِينَ﴾ يعني: غير منتظرين إدراكه وبلوغه، ولكن إذا دعاكم رسول الله ﷺ فادخلوا البيت الذي أذن لكم بدخوله، فإذا أكلتم

الطعام الذي دعيتم لأكله فانتشروا؛ يعني: فتفرقوا واخرجوا من منزله، ولا متحدثين بعد فراغكم من أكل الطعام إيناسًا من بعضكم لبعض به؛ لأن دخولكم بيوت النبي من غير أن يؤذن لكم وجلوسكم فيها مستأنسين للحديث بعد فراغكم من أكل الطعام الذي دعيتم له - كان يؤذي النبي فيستحي منكم أن يخرجكم منها إذا قعدتم فيها للحديث بعد الفراغ من الطعام، أو يمنعكم من الدخول إذا دخلتم بغير إذن مع كراهيته لذلك منكم ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أن يبيّن لكم وإن استحيا نبيكم فلم يبين لكم كراهية ذلك حياءً منكم، وإذا سألتم أزواج رسول الله ﷺ ونساء المؤمنين اللواتي لسن لكم بأزواج متاعًا ﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ يقول: من وراء ستر بينكم وبينهن، ولا تدخلوا عليهن بيوتهن ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ يقول: وما ينبغي لكم أن تؤذوا رسول الله، وما يصلح ذلك لكم، وما ينبغي لكم أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدًا، فإن أذاكم رسول الله ﷺ ونكاحكم أزواجه من بعده عند الله عظيم من الإثم[1].

قال ابن كثير: هذه آية الحجاب، وفيها أحكام وآداب شرعية، وهي مما وافق تنزيلها قول عمر بن الخطاب ﷺ كما ثبت ذلك في الصحيحين عنه أنه قال: وافقت ربي في ثلاث: فقلت: يا رسول الله، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى؟ فأنزل الله: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ (البقرة: ١٢٥). وقلت: يا رسول الله، إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر، فلو حجبتهن؟ فأنزل الله آية الحجاب. وقلت لأزواج النبي ﷺ: لما تمالئن عليه في الغيرة: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ (التحريم: ٥) فنزلت كذلك[2].

فقوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ﴾ حَظَر على المؤمنين أن يدخلوا منازل رسول الله ﷺ بغير إذن، كما كانوا قبل ذلك يصنعون في بيوتهم في الجاهلية وابتداء الإسلام، حتى غار الله

(١) الطبري (٢٢/ ٣٤-٤٠).

(٢) أخرجه البخاري (٤٠٢)، مسلم (٢٣٩٩).

لهذه الأمة فأمرهم بذلك، وذلك من إكرامه تعالى هذه الأمة؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: "إياكم والدخول على النساء"[١].

ثم قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾، وفي صحيح مسلم عن ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا دعا أحدكم أخاه فَلْيجب، عُرسًا كان أو غيره"[٢]، وقال النبي ﷺ: "لو دُعيت إلى ذراع لأجبت، ولو أهدي إليَّ كُراع لقبلت، فإذا فَرَغتم من الذي دُعيتم إليه فخففوا عن أهل المنزل، وانتشروا في الأرض"[٣].

والمراد أن دخولكم منزله بغير إذنه كان يشق عليه ويتأذى به، لكن كان يكره أن ينهاهم عن ذلك من شدة حيائه ﷺ حتى أنزل الله عليه النهي عن ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ أي: ولهذا نهاكم عن ذلك وزجركم عنه.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ أي: وكما نهيتكم عن الدخول عليهن، كذلك لا تنظروا إليهن بالكلية، ولو كان لأحدكم حاجة يريد تناولها منهن فلا ينظر إليهن، ولا يسألهن حاجة إلا من وراء حجاب.

وقوله: ﴿ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ أي: هذا الذي أمرتكم به وشرعته لكم من الحجاب أطهر وأطيب[٤].

وقال الرازي: إن حال الأمة مع النبي على وجهين أحدهما: في حال الخلوة والواجب هناك عدم إزعاجه وبيّن ذلك بقوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾ وثانيهما: في الملأ والواجب هناك إظهار التعظيم كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب: ٥٦)، و لما بيّن الله من حال النبي أنه داع إلى الله بقوله: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ﴾ قال ههنا: لا تدخلوا إلا إذا دعيتم يعني كما أنكم ما دخلتم الدين إلا بدعائه.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢٣٢)، مسلم (٢١٧٢).

(٢) أخرجه مسلم (١٤٢٩).

(٣) أخرجه البخاري (٢٥٦٨).

(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٦٨٣).

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟﴾ فيه لطيفة وهي أن العادة إذا قيل لمن كان يعتاد دخول دار من غير إذن: لا تدخلها إلا بإذن! يتأذى وينقطع بحيث لا يدخلها أصلًا لا بالدعاء ولا بغير الدعاء، فقال: لا تفعلوا مثل ما يفعله المستنكفون بل كونوا طائعين سامعين إذا قيل لكم: لا تدخلوا! لا تدخلوا، وإذا قيل: لكم ادخلوا! فادخلوا، ثم إن الله تعالى بين كون ذلك أدبًا، وكون النبي حليمًا بقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ إشارة إلى أن ذلك حق وأدب، وقوله كان إشارة إلى تحمل النبي ﷺ.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ يعني العين روزنة القلب، فإذا لم ترَ العين لا يشتهي القلب، أما إن رأت العين فقد يشتهي القلب وقد لا يشتهي، فالقلب عند عدم الرؤية أطهر، وعدم الفتنة حينئذ أظهر، ثم إن الله – تعالى- لما عَلَّمَ المؤمنين الأدب أكده بما يحملهم على محافظته، فقال: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ وكل ما منعتم عنه مؤذ فامتنعوا عنه[1].

وقال السعدي: في قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ فالأمر الشرعي ولو كان يتوهم أن في تركه أدبًا وحياءً فإن الحزم كل الحزم اتباع الأمر الشرعي، وأن يجزم أن ما خالفه، ليس من الأدب في شيء، والله تعالى لا يستحي أن يأمركم بما فيه الخير لكم والرفق لرسوله كائنًا ما كان، فهذا أدبُهم في الدخول في بيوته، وأما أدبُهم معه في خطاب زوجاته فإنه إما أن يحتاج إلى ذلك أو لا يحتاج إليه، فإن لم يحتج إليه فلا حاجة إليه؛ والأدب تركه، وإن احتيج إليه، كأن يسألن متاعًا أو غيره من أواني البيت أو نحوها فإنهن يُسألن ﴿مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾[2].

الوجه الثاني: سبب نزول هذه الآية.

الأمر الأول: سبب نزول الحجاب:

السبب الأول: روي عن أنس ﷺ في الصحيح وغيره قال: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا مَرَّ بِجَنَبَاتِ أُمِّ سُلَيْمٍ دَخَلَ عَلَيْهَا فَسَلَّمَ عَلَيْهَا، ثُمَّ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ عَرُوسًا بِزَيْنَبَ. فَقَالَتْ لِي أُمُّ سُلَيْمٍ: لَوْ أَهْدَيْنَا لِرَسُولِ الله ﷺ هَدِيَّةً! فَقُلْتُ لَهَا: افْعَلِي. فَعَمَدَتْ إِلَى تَمْرٍ وَسَمْنٍ وَأَقِطٍ، فَاتَّخَذَتْ حَيْسَةً

(١) تفسير الرازي (٢٥/ ٢٢٤).

(٢) تفسير السعدي (٦٧٠).

فِي بُرْمَةٍ، فَأَرْسَلَتْ بِهَا مَعِي إِلَيْهِ، فَانْطَلَقْتُ بِهَا إِلَيْهِ. فَقَالَ لِي: "ضَعْهَا" ثُمَّ أَمَرَنِي فَقَالَ: "ادْعُ لِي رِجَالًا" سَمَّاهُمْ "وَادْعُ لِي مَنْ لَقِيتَ" قَالَ: فَفَعَلْتُ الَّذِي أَمَرَنِي، فَرَجَعْتُ فَإِذَا الْبَيْتُ غَاصٌّ بِأَهْلِهِ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَضَعَ يَدَيْهِ عَلَى تِلْكَ الْحَيْسَةِ، وَتَكَلَّمَ بِهَا مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ جَعَلَ يَدْعُو عَشَرَةً عَشَرَةً يَأْكُلُونَ مِنْهُ، وَيَقُولُ لَهُمْ: "اذْكُرُوا اسْمَ اللهِ وَلْيَأْكُلْ كُلُّ رَجُلٍ مِمَّا يَلِيهِ" قَالَ: حَتَّى تَصَدَّعُوا كُلُّهُمْ عَنْهَا فَخَرَجَ مِنْهُمْ مَنْ خَرَجَ، وَبَقِيَ نَفَرٌ يَتَحَدَّثُونَ، قَالَ: وَجَعَلْتُ أَغْتَمُّ، ثُمَّ خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ نَحْوَ الْحُجُرَاتِ وَخَرَجْتُ فِي إِثْرِهِ، فَقُلْتُ: إِنَّهُمْ قَدْ ذَهَبُوا، فَرَجَعَ فَدَخَلَ الْبَيْتَ، وَأَرْخَى السِّتْرَ وَإِنِّي لَفِي الْحُجْرَةِ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ . . .﴾ قَالَ أَنَسٌ إِنَّهُ خَدَمَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ[1].

قال ابن حجر: وَفِي الْحَدِيث مِنْ الْفَوَائِد: مَشْرُوعِيَّة الْحِجَاب لِأُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ عِيَاض: فَرْض الْحِجَاب مِمَّا اِخْتَصَصْنَ بِهِ، فَهُوَ فُرِضَ عَلَيْهِنَّ بِلَا خِلَاف فِي الْوَجْه وَالْكَفَّيْنِ، فَلَا يَجُوز لَهُنَّ كَشْف ذَلِكَ فِي شَهَادَة وَلَا غَيْرهَا، وَلَا إِظْهَار شُخُوصهنَّ وَإِنْ كُنَّ مُسْتَتِرَات؛ إِلَّا مَا دَعَتْ إِلَيْهِ ضَرُورَة مِنْ بِرَاز. ثُمَّ اِسْتَدَلَّ بِمَا فِي "الْمُوَطَّأ" أَنَّ حَفْصَة لَمَّا تُوُفِّيَ عُمَر سَتَرَهَا النِّسَاء عَنْ أَنْ يُرَى شَخْصهَا، وَأَنَّ زَيْنَب بِنْت جَحْش جَعَلَتْ لَهَا الْقُبَّة فَوْق نَعْشهَا لِيَسْتُر شَخْصهَا. وَلَيْسَ فِيمَا ذَكَرَهُ دَلِيل عَلَى مَا ادَّعَاهُ مِنْ فَرْض ذَلِكَ عَلَيْهِنَّ، وَقَدْ كُنَّ بَعْدَ النَّبِيّ ﷺ يَحْجُجْنَ وَيَطُفْنَ، وَكَانَ الصَّحَابَة وَمَنْ بَعْدَهُمْ يَسْمَعُونَ مِنْهُنَّ الْحَدِيث وَهُنَّ مُسْتَتِرَات الْأَبْدَانِ لَا الْأَشْخَاص[2].

السبب الثاني: ما روي عن عروة عن عائشة: أن أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ كُنَّ يَخْرُجْنَ بِاللَّيْلِ إِذَا تَبَرَّزْنَ إِلَى الْمَنَاصِعِ؛ وَهُوَ صَعِيدٌ أَفْيَحُ. فَكَانَ عُمَرُ يَقُولُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: احْجُبْ نِسَاءَكَ، فَلَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَفْعَلُ، فَخَرَجَتْ سَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَةَ زَوْجُ النَّبِيِّ ﷺ لَيْلَةً مِنْ اللَّيَالِي عِشَاءً؛ وَكَانَتْ امْرَأَةً طَوِيلَةً، فَنَادَاهَا عُمَرُ: أَلَا قَدْ عَرَفْنَاكِ يَا سَوْدَةُ، حِرْصًا عَلَى أَنْ يَنْزِلَ الْحِجَابُ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَجَّلَ الْحِجَابَ[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٥١٦٣)، مسلم (١٤٢٨) وهذه لفظ البخاري، وقد ذكر ابن العربي لفظ الترمذي، وانظر البخاري أيضًا (٤٧٩١-٤٧٩٢-٤٧٩٣-٤٧٩٤).

(٢) فتح الباري (٨/ ٦٢١).

قال ابن حجر: قَوْله: (أُحْجُبْ) أَيْ: اِمْنَعْهُنَّ مِنْ الْخُرُوج مِنْ بُيُوتهنَّ؛ بِدَلِيلِ أَنَّ عُمَر بَعْد نُزُول آيَة الْحِجَاب قَالَ لِسَوْدَةَ مَا قَالَ كَمَا سَيَأْتِي قَرِيبًا. وَيَحْتَمِل أَنْ يَكُون أَرَادَ أَوَّلًا الْأَمْر بِسَتْرِ وُجُوههنَّ، فَلَمَّا وَقَعَ الْأَمْر بِوَفْقِ مَا أَرَادَ أَحَبَّ أَيْضًا أَنْ يَحْجُب أَشْخَاصهنَّ مُبَالَغَة فِي التَّسَتُّر، فَلَمْ يُجَبْ لِأَجْلِ الضَّرُورَة. وَهَذَا أَظْهَر الِاحْتِمَالَيْنِ. وَقَدْ كَانَ عُمَر يَعُدّ نُزُول آيَة الْحِجَاب مِنْ مُوَافَقَاته، وَعَلَى هَذَا فَقَدْ كَانَ لَهُنَّ فِي التَّسَتُّر عِنْد قَضَاء الْحَاجَة حَالَات: أَوَّلهَا بِالظُّلْمَةِ لِأَنَّهُنَّ كُنَّ يَخْرُجْنَ بِاللَّيْلِ دُون النَّهَار كَمَا قَالَتْ عَائِشَة فِي هَذَا الْحَدِيث: "كُنَّ يَخْرُجْنَ بِاللَّيْلِ"، ثُمَّ نَزَلَ الْحِجَاب فَتَسَتَّرْنَ بِالثِّيَابِ، لَكِنْ كَانَتْ أَشْخَاصهنَّ رُبَّمَا تَتَمَيَّز؛ وَلِهَذَا قَالَ عُمَر لِسَوْدَةَ فِي الْمَرَّة الثَّانِيَة بَعْد نُزُول الْحِجَاب: أَمَا وَالله مَا تَخْفَيْنَ عَلَيْنَا، ثم قال: وسبب نزول هذا الحديث قصة زينب بنت جحش[٢].

ثم أورد البخاري حديثًا ليبين أنه يجوز لهن الخروج لقضاء حوائجهن، عن عائشة عن النبيﷺ: "قد أذن أن تخرجن في حاجتكن"[٣].

السبب الثالث: روى أنس أن عُمَرُ ﷺ قال: يَا رَسُولَ الله، يَدْخُلُ عَلَيْكَ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ؛ فَلَوْ أَمَرْتَ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْحِجَابِ. فَأَنْزَلَ الله آيَةَ الْحِجَابِ.[٤]

قلت: وفي المسألة أقوال وروايات أخرى فيها ضعف، واكتفينا بما ثبت.

الأمر الثاني: سبب نزول قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ . . .﴾.

عن ابن عباسﷺ قال: قال رجل من أصحاب النبي ﷺ: لو قد مات رسول الله ﷺ لتزوجت عائشة أو أم سلمة. فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا . . .﴾[٥].

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٦)، مسلم (٢١٧) واللفظ لمسلم.

(٢) فتح الباري (١/ ٣٠٠-٣٠١).

(٣) أخرجه البخاري (١٤٧).

(٤) أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ١٥٧٣).

(٥) السنن الكبرى للبيهقي (٧/ ٦٩) (١٣١٩٦) وهذا حديث باطل فيه محمد بن حميد الرازي وهو ضعيف، وفيه مهران بن أبي عمر قال في التقريب: صدوق له أوهام سيء الحفظ.

وما كان لأحد من أصحاب النبي ﷺ أن يتلفظ بمثل هذا، وإلا ما عد من أصحابه، وأنّى لهذا الذي ترغب فيه واحدة من أزواج النبي بعد النبي ﷺ.

فالحديث باطل متنًا و سندًا.

الوجه الثالث: الرد على مزعوماتهم الباطلة.

أولًا: يقولون: لماذا هذا الكلام؟ أليس يدل على تصرفات زوجاته مع الرجال بأمور لا تليق؟

ونقول: ألا لعنة الله على الظالمين، ألمجرد توجيه وَجَّهَهُ الله ﷻ للأمة كي يتأدبوا مع النبي ﷺ عندما يكون في خلوته يؤول بهذا التأويل وتقولون أن هذا يدل تصرفات غير سليمة بين زوجاته الطاهرات العفيفات و بين أصحابه المؤمنين الصادقين؟! ! ! فلاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

أما النهي من الله فلأمور:

١- الله ﷻ نهي الصحابة عن ذلك لعلمه أن نبيه ﷺ كان أشد الناس حياءً، وعن أبي سعيد الخدري قال: "كان النبي ﷺ أشد حيًاء من العذراء في خدرها"، فالنبي ﷺ يستحي أن ينهاهم عن ذلك بنفسه، لكن عندما يكون من الله ﷻ، فالله لا يستحي من الحق.

٢- أنه لابد أن يعامل القدوة باحترام و توقير، على غير معاملة العوام فهو له الفضل على الجميع، فما بالكم لو كان ذلك رسول الله ﷺ ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾، فأهل الفضل لابد أن يميزوا في المعاملة كما خص زوجاته – رضي الله عنهن- بألا يتزوجهن أحد بعد النبي ﷺ ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾.

٣- هذا أدب من الله ﷻ للصحابة؛ ليبين لهم كيف يتعاملون مع نبيهم في الخلوة؟ كما بين لهم كيف يتعاملون معه في الملأ؟ فقال: ﴿ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ (الحجرات ٢).

٤- أراد الله أن يبين لهم أن الذي يتوهم أن الأمر الشرعي تركه أدبًا وحياء، فإن الحزم كل الحزم اتباع الأمر الشرعي، وأن يجزم أن ما خالفه، ليس من الأدب الشرعي، والله

تعالى لا يستحي أن يأمركم، بما فيه الخير لكم، والرفق لرسوله كائنًا ما كان[١].

٥- وأراد سبحانه وتعالى أن يبين لهم أدبهم مع زوجاته ﷺ فقال: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾.

٦- ليس أمرُ الله لنساء النبي بالحجاب عن الصحابة و غيرهم من الرجال اتهام لهن أنهن قبل الحجاب كُنَّ يتصرفن بما لا يليق كما زعم الملحدون، بل هذا الأمر عصمة لهن و عصمة للصحابة وحفاظًا من الله ﷻ لحياء هذه الأمة.

٧- هذا الأمر من الله لهن بالحجاب ليفعلنه و تفعلنه باقي نساء الأمة، فلو كانت الفتنة مأمونة بين نساء النبي وبين صحابته فهي ليست مأمونة مع غيرهن، فلكي لا يحتجَّ محتجٌ أن نساء النبي لم يكن متحجبات أمرهن الله ﷻ بالحجاب سدًا للذريعة، وحفظًا من خدش حياء هذه الأمة.

٨- إن من أسباب الحجاب أن عمر قال لسودة زوج النبي ﷺ: انظري ياسودة كيف تخرجين، فوالله لا تخفين علينا[٢].

وقد قال للنبي ﷺ: "لو أمرت نساءك بالحجاب؟ فنزلت آية الحجاب"[٣]، وكذلك حرصًا من عمر على نزول الحجاب، فكيف تقولون بعد ذلك أن هناك تصرفات لا تليق بين زوجات النبي ﷺ وأصحابه؟ ألا سحقًا لكم وبعدًا.

٩- لا يخفى على أحد خطورة التبرج، وأن التحجب أطهر لقلوب الرجال والنساء، وأبعد عن الفاحشة وأسبابها، وأشار سبحانه إلى أن السفور وعدم التحجب خبث و نجاسة، وأن التحجب طهارة وسلامة، ولا شك أن من الناس البر والفاجر، والطاهر والعاهر؛ فالحجاب يمنع بإذن الله من الفتنة، ويحجز دواعيها، ولما علم الله ﷻ المفاسد التي تترتب على اختلاط النساء بالرجال حرم ذلك، وأمر أن يكون هناك حجاب أو ساتر حين يريد رجل مقابلة امرأة أجنبية لطلب متاع أو سؤال حاجة، والعلة من فرض الحجاب طهارة قلوب

---

(١) تفسير السعدي (٦٧٠).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٦)، مسلم (٢١٧٠)

(٣) أخرجه البخاري (٤٧٩٠).

الرجال والنساء، فصار الحجاب على نساء المؤمنين من باب أولي من فرضه على أمهات المؤمنين وهن الطاهرات المبرآت من كل عيب و نقيصة.

ثانيًا: يقولون: إن النبي ﷺ لا يستطيع أن يقوم بالاهتمام بزوجاته جميعًا في آن واحد؛ فلا بد أن يحصل ما لا يحمد عقباه.

ونقول: إن هذا الادِّعاء و الافتراء مبني على الادعاء السابق؛ وهو أن هذا الكلام من الله ﷻ لصحابته وزوجات النبي ﷺ يدل على تصرفات لا تليق– زعموا- وقد أبطلنا هذا الادعاء، و الحمد لله، وما بُني على باطل فهو باطل، فنرد على هذه الفرية بما رددنا به على الفرية الأولى، و نزيد الأمر وضوحًا بأن نبين اهتمام النبي ﷺ بزوجاته، وكيف كان يعيش معهن و يشاورهن في الأمور العضال؟ وكيف كان في خدمة أهله ﷺ؟ إن نبينا ﷺ مثال للزوج الذي يقوم على شئون أكثر من زوجة في آنٍ واحد، وحسبه أنه مؤيد من عند ربه ﷻ.

فعن عائشة سُئلت: مَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَصْنَعُ فِي بَيْتِهِ؟ قَالَتْ: كَانَ يَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ – تَعْنِي: خِدْمَةَ أَهْلِهِ– فَإِذَا حَضَرَتْ الصَّلَاةُ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ[(١)].

قال ابن حجر: وفيه الترغيب في التواضع، وترك التكبر، وخدمة الرجلِ أهلَه[(٢)].

وعن عائشة أنها سُئلت: ماكَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَعْمَلُ فِي بَيْتِهِ؟ قَالَتْ: كَانَ يَخِيطُ ثَوْبَهُ، ويَخْصِفُ نَعْلَهُ، وَيَعْمَلُ فِي بَيْتِهِ ما يَعْمَلُ الرجال في بيوتهم[(٣)].

قَالَ اِبْن بَطَّال: مِنْ أَخْلَاق الْأَنْبِيَاء التَّوَاضُع، وَالْبُعْد عَنْ التَّنَعُّم، وَامْتِهَان النَّفْس لِيُسْتَنَّ بِهِمْ، وَلِئَلَّا يَخْلُدُوا إِلَى الرَّفَاهِيَة الْمَذْمُومَة، وَقَدْ أُشِيرَ إِلَى ذَمّهَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾[(٤)].

ولا يخفى حديث أم زرع الذي أورده البخاري تحت [باب حسن المعاشرة مع الأهل[(١)]]، والذي قصت فيه حديث عائشة على النبي ﷺ قصة إحدى عشرة امرأة مع

---

(١) أخرجه البخاري (٦٧٦).

(٢) فتح الباري (٢/ ١٩١).

(٣) مسند أحمد (٦/ ١٢١).

(٤) فتح الباري (١٠/ ٥٢٠)، وإسناده صحيح إلى عائشة.

أزواجهن، وهو حديث طويل، فانظر كيف جلس النبي ﷺ مع عائشة ولم يتأذ من سردها هذه القصة الطويلة، مع ما هو فيه من حمل هَمِّ الرسالة وهَمِّ الدعوة ﷺ، ثم بعد ذلك يُقال: إنه لا يستطيع أن يقوم بشئون أهله ويحافظ عليهن.

وقال النووي: فيه استحباب حسن المعاشرة للأهل(٢).

وعن عائشة أيضًا قالت: كَانَ الْحَبَشُ يَلْعَبُونَ بِحِرَابِهِمْ فَسَتَرَنِي رَسُولُ الله ﷺ وَأَنَا أَنْظُرُ، فَمَا زِلْتُ أَنْظُرُ حَتَّى كُنْتُ أَنَا أَنْصَرِفُ، فَاقْدُرُوا قَدْرَ الْجَارِيَةِ الْحَدِيثَةِ السِّنِّ تَسْمَعُ اللهوَ(٣).

قال النووي رحمه الله: وَفِيهِ جَوَاز نَظَر النِّسَاء إِلَى لَعِب الرِّجَال مِنْ غَيْر نَظَر إِلَى نَفْس الْبَدَن. وَأَمَّا نَظَر الْمَرْأَة إِلَى وَجْه الرَّجُل الْأَجْنَبِيّ فَإِنْ كَانَ بِشَهْوَةٍ فَحَرَام بِالِاتِّفَاقِ، وَإِنْ كَانَ بِغَيْرِ شَهْوَة وَلَا مَخَافَة فِتْنَة فَفِي جَوَازه وَجْهَانِ لِأَصْحَابِنَا: تَحْرِيمه لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ وَلِقَوْلِهِ ﷺ: لِأُمِّ سَلَمَة وَأُمّ حَبِيبَة: "اِحْتَجِبَا عَنْهُ"(٤).

وعن أنس بن مالك ﷺ حدثهم: "أن نبي الله ﷺ كان يطوف على نسائه في الليلة الواحد، وله يومئذ تسع نسوة"(٥)، وفي رواية عند البخاري: قال قتادة لأنس: أو كان يطيقه؟ قال: كنا نحدث أنه أعطي قوة ثلاثين(٦).

فكيف من له قوة مثل هذه أن تكون نساؤه كما قلتم، أو أنه لا يستطيع أن يهتم بهن؟!

ثالثا: يقولون: إن أصحاب النبي ﷺ كانوا يستغيبون النبي و يدخلون بيوت نسائه.

وسبحان الله أهؤلاء الأطهار يفعلون ذلك؟! و إن فعلوا هل تسمح لهم زوجات النبي ﷺ؟ والناظر إلى فعلهم ﷺ فإنهم ما كانوا يدخلون بدون إذن حتي بعد موت النبي ﷺ وليس هذا مع بيوت النبي فقط، بل مع كل البيوت.

---

(١) أخرجه البخاري (٥١٨٩)، مسلم (٢٤٤٨).

(٢) شرح النووي (٨/ ٢٣٨).

(٣) أخرجه البخاري (٥١٩٠)، مسلم (٨٩٢).

(٤) شرح النووي (٣/ ٢٨٨).

(٥) أخرجه البخاري (٩٢١٥).

(٦) أخرجه البخاري (٢٦٨).

فعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: "كُنْتُ فِي مَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ الْأَنْصَارِ إِذْ جَاءَ أَبُو مُوسَى كَأَنَّهُ مَذْعُورٌ فَقَالَ: اسْتَأْذَنْتُ عَلَى عُمَرَ ثَلَاثًا فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي فَرَجَعْتُ، فَقَالَ: مَا مَنَعَكَ؟ قُلْتُ: اسْتَأْذَنْتُ ثَلَاثًا فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي فَرَجَعْتُ؛ وَقَالَ رَسولُ الله ﷺ: "إِذَا اسْتَأْذَنَ أَحَدُكُمْ ثَلَاثًا فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ فَلْيَرْجِعْ" فَقَالَ: وَالله، لَتُقِيمَنَّ عَلَيْهِ بِبَيِّنَةٍ، أَمِنْكُمْ أَحَدٌ سَمِعَهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ؟ فَقَالَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ: وَالله، لَا يَقُومُ مَعَكَ إِلَّا أَصْغَرُ الْقَوْمِ. فَكُنْتُ أَصْغَرَ الْقَوْمِ، فَقُمْتُ مَعَهُ، فَأَخْبَرْتُ عُمَرَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ ذَلِكَ"(١).

وعن أبي هريرة ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: "لَا يَحِلُّ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تَصُومَ وَزَوْجُهَا شَاهِدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَلَا تَأْذَنَ فِي بَيْتِهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَمَا أَنْفَقَتْ مِنْ نَفَقَةٍ عَنْ غَيْرِ أَمْرِهِ فَإِنَّهُ يُؤَدَّى إِلَيْهِ شَطْرُهُ"(٢).

وكانوا يستأذنون حتى بعد موته ﷺ، والدليل على ذلك أن عائشة حُدِّثَتْ أَنَّ عَبْدَ الله ابْنَ الزُّبَيْرِ قَالَ فِي بَيْعٍ أَوْ عَطَاءٍ أَعْطَتْهُ عَائِشَةُ: وَالله، لَتَنْتَهِيَنَّ عَائِشَةُ أَوْ لَأَحْجُرَنَّ عَلَيْهَا! فَقَالَتْ: أَهُوَ قَالَ هَذَا؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَتْ: هُوَ للهِ عَلَيَّ نَذْرٌ أَنْ لَا أُكَلِّمَ ابْنَ الزُّبَيْرِ أَبَدًا. فَاسْتَشْفَعَ ابْنُ الزُّبَيْرِ إِلَيْهَا حِينَ طَالَتِ الْهِجْرَةُ. فَقَالَتْ: لَا وَالله، لَا أُشَفِّعُ فِيهِ أَبَدًا، وَلَا أَتَحَنَّثُ إِلَى نَذْرِي. فَلَمَّا طَالَ ذَلِكَ عَلَى ابْنِ الزُّبَيْرِ كَلَّمَ الْمِسْوَرَ بْنَ مَخْرَمَةَ وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الْأَسْوَدِ بْنِ عَبْدِ يَغُوثَ - وَهُمَا مِنْ بَنِي زُهْرَةَ- وَقَالَ لَهُمَا: أَنْشُدُكُمَا بِالله لَمَّا أَدْخَلْتُمَانِي عَلَى عَائِشَةَ؛ فَإِنَّهَا لَا يَحِلُّ لَهَا أَنْ تَنْذِرَ قَطِيعَتِي. فَأَقْبَلَ بِهِ الْمِسْوَرُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ مُشْتَمِلَيْنِ بِأَرْدِيَتِهِمَا حَتَّى اسْتَأْذَنَا عَلَى عَائِشَةَ فَقَالَا: السَّلَامُ عَلَيْكِ وَرَحْمَةُ الله وَبَرَكَاتُهُ؛ أَنَدْخُلُ؟ قَالَتْ عَائِشَةُ: ادْخُلُوا. قَالُوا: كُلُّنَا؟ قَالَتْ: نَعَم، ادْخُلُوا كُلُّكُمْ - وَلَا تَعْلَمُ أَنَّ مَعَهُمَا ابْنَ الزُّبَيْرِ-. فَلَمَّا دَخَلُوا دَخَلَ ابْنُ الزُّبَيْرِ الْحِجَابَ، فَاعْتَنَقَ عَائِشَةَ، وَطَفِقَ يُنَاشِدُهَا وَيَبْكِي، وَطَفِقَ الْمِسْوَرُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ يُنَاشِدَانِهَا إِلَّا مَا كَلَّمَتْهُ، وَقَبِلَتْ مِنْهُ، وَيَقُولَانِ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَمَّا قَدْ عَلِمْتِ مِنَ الْهِجْرَةِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ، فَلَمَّا أَكْثَرُوا عَلَى عَائِشَةَ مِنَ التَّذْكِرَةِ وَالتَّحْرِيجِ طَفِقَتْ تُذَكِّرُهُمَا نَذْرَهَا وَتَبْكِي وَتَقُولُ: إِنِّي نَذَرْتُ؛ وَالنَّذْرُ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٤٥)، مسلم (٢١٥٣).

(٢) أخرجه البخاري (٥١٩٥)، مسلم (١٠٢٦).

شَدِيدٌ، فَلَمْ يَزَالَا بِهَا حَتَّى كَلَّمَتْ ابْنَ الزُّبَيْرِ، وَأَعْتَقَتْ فِي نَذْرِهَا ذَلِكَ أَرْبَعِينَ رَقَبَةً، وَكَانَتْ تَذْكُرُ نَذْرَهَا بَعْدَ ذَلِكَ فَتَبْكِي حَتَّى تَبُلَّ دُمُوعُهَا خِمَارَهَا[1].

رابعًا: يقولون: إنه لا يجوز للوحي أن يشتغل بمثل هذه الأمور، وهل هذا كان في اللوح المحفوظ؟

إن الوحي: هو كلمة الله ﷻ إلى عباده ليخرجهم من الظلمات إلى النور، وهو أصل الدين؛ إذ يتعلق بكتاب الله ﷻ وسنة نبيه ﷺ، والوحي في الإسلام ثابت محفوظ بحفظ الله تعالى.

وغاية الوحي والرسالة هي تحقيق مصالح الخلق جميعًا في الدنيا والآخرة، فهي شريعة ربانية عالمية متوازنة واقعية صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان، وإن من أهم وظائفها تطهير الأمة من الأدران ورواسب الجاهلية؛ وذلك لأن الله هو خالق البشر، وهو وحده يعلم ما ينفعهم وما يضـرهم، فأنزل إليهم شرعه ليتحاكموا به بينهم.

* * * *

(١) أخرجه البخاري (٦٠٧٥: ٦٠٧٣).

٣ـ شبهة: كيف يضع الرسول ﷺ نفسه مع الله ﷻ.

نص الشبهة:

ذكروا قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ (الأحزاب: ٥٧)، وقالوا: كيف يضع نفسه مع الله؟! وقالوا: إن المسيح كان يعفو عن المسيئين له ولم يلعنهم.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: التفسير الصحيح للآية، ومعنى الأذى.

الوجه الثاني: ذكر بعض الأمثلة من أذى المشركين للنبي وذكر عقوبتهم.

الوجه الثالث: رحمة النبي ﷺ بأعدائه وبأمته، ورحمته في دعوته، وأنه ﷺ كان يتحمل الأذى إلا أن تنتهك حرمة من حرمات الله ﷻ.

الوجه الرابع: المسيح والمهتدون في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: التفسير الصحيح للآية، ومعنى الأذى.

قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ (الأحزاب: ٥٧).

أولًا: قال قتادة: يا سبحان الله، ما زال أناس من جهلة بني آدم حتى تعاطوا أذى ربهم، وأما أذاهم رسول الله ﷺ فهو طعنهم عليه، وقوله: ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: أبعدهم الله من رحمته في الدنيا، وأعد لهم في الآخرة عذابًا يهينهم فيه بالخلود فيه[(١)].

وقال قتادة في قوله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ (الأحزاب: ٥٨)، فإياكم وأذى المؤمنين فإن الله ﷻ يحوطه ويغضب له ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ زورًا وكذبًا وفرية شنيعة[(٢)].

---

(١) تفسير الطبري (٢٢/ ٤٥).

(٢) تفسير الطبري (٢٢/ ٤٥).

ومما روي في أذية الله ﷻ: عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "يقول الله ﷻ: يؤذيني ابن آدم؛ يسب الدهر، وأنا الدهر، أقلب ليله ونهاره"(١).

قَوْله: (وَأنا الدَّهْر)

قَالَ الْخَطَّابِيُّ: مَعْنَاهُ: أَنَا صَاحِب الدَّهْر، وَمُدَبِّر الْأُمُور الَّتِي يَنْسُبُونَهَا إِلَى الدَّهْر، فَمَنْ سَبَّ الدَّهْر مِنْ أَجْل أَنَّهُ فَاعِل هَذِهِ الْأُمُور عَادَ سَبّه إِلَى رَبّه الَّذِي هُوَ فَاعِلها، وَإِنَّمَا الدَّهْر زَمَان جُعِلَ ظَرْفًا لِمَوَاقِع الْأُمُور. وَكَانَتْ عَادَتهمْ إِذَا أَصَابَهُمْ مَكْرُوه أَضَافُوهُ إِلَى الدَّهْر فَقَالُوا: بُؤْسًا لِلدَّهْرِ، وَتَبًّا لِلدَّهْرِ(٢).

وقال ابن كثير: ومعنى هذا: أن الجاهلية كانوا يقولون: يا خيبة الدهر، فعل بنا كذا وكذا. فيسندون أفعال الله تعالى إلى الدهر، ويسبونه، وإنما الفاعل لذلك هو الله ﷻ فنهى عن ذلك. هكذا قرره الشافعي، وأبو عبيد، وغيرهما من العلماء، رحمهم الله.

والظاهر أن الآية عامة في كل من آذاه بشيء، ومن آذاه فقد آذى الله، ومن أطاعه فقد أطاع الله(٣).

وعن أبي هريرة ﷺ أنه سمع النبي ﷺ يقول: "قال الله تعالى: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرة أو ليخلقوا حبة أو شعيرة"(٤).

وقال ابن حجر: وَقَوْله: «وَمَنْ ذَهَبَ» أَيْ: قَصَدَ، وَقَوْله: «يَخْلُق كَخَلْقِي» نَسَبَ الْخَلْق إِلَيْهِمْ عَلَى سَبِيل الِاسْتِهْزَاء أَوْ التَّشْبِيه فِي الصُّورَة فَقَطْ، وَقَوْله: «فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّة أَوْ شَعِيرَة» أَمْر بِمَعْنَى: التَّعْجِيز؛ وَهُوَ عَلَى سَبِيل التَّرَقِّي فِي الْحَقَارَة أَوْ التَّنَزُّل فِي الْإِلْزَام، وَالْمُرَاد بِالذَّرَّةِ إِنْ كَانَ النَّمْلَة فَهُوَ مِنْ تَعْذِيبهمْ وَتَعْجِيزهمْ بِخَلْقِ الْحَيَوَان تَارَة، وَبِخَلْقِ الْجَمَاد أُخْرَى، وَإِنْ كَانَ بِمَعْنَى: الْهَبَاء فَهُوَ بِخَلْقِ مَا لَيْسَ لَهُ جِرْم مَحْسُوس تَارَة، وَبِمَا لَهُ جِرْم أُخْرَى(٥).

ثانيًا: وقال بعضهم: ﴿يُؤْذُونَ ٱللَّهَ﴾ أي: يؤذون أولياء الله كقوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلِ

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٢٦)، ومسلم (٢٢٤٦).

(٢) فتح الباري (٨/ ٦٧٤)، وانظر النووي (٨/ ٦).

(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٧٠٠).

(٤) أخرجه البخاري (٧٥٥٩)، ومسلم (٢١١١).

(٥) فتح الباري (١٣/ ٦٠٦).

ﵟٱلۡقَرۡيَةَﵞ أي: أهل القرية.

وقد قال رسول الله ﷺ: "قال الله تعالى: من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب". [(١)]

قال البغوي: ومعنى الأذى: هو مخالفة أمر الله تعالى وارتكاب معاصيه، ذكره على ما يتعارفه الناس بينهم، والله ﷻ منزه عن أن يلحقه أذى من أحد. و (إيذاء الرسول) قال ابن عباس: هو أنه شج في وجهه وكسرت رباعيته، وقيل: شاعر، ساحر، معلَّم، مجنون.

ومعنى اللعنة: الطرد والإبعاد من رحمته، وجعل ذلك في الدنيا والآخرة لتشملهم فيهما بحيث لا يبقى وقت من الأوقات مماتهم ومحياهم إلا واللعنة واقعة عليهم ومصاحبة لهم، ﵟوَأَعَدَّ لَهُمۡﵞ مع ذلك اللعن ﵟعَذَابٗا مُّهِينٗاﵞ يصيرون به في الإهانة في الدار الآخرة لما يفيده معنى: الإعداد من كونه في الدار الآخرة[(٢)].

وقال الرازي: وقوله: ﵟفِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِﵞ إشارة إلى بعدٍ لا رجاءَ للقربِ معه؛ لأن المبعد في الدنيا يرجو القربة في الآخرة، فإذا أبعد في الآخرة فقد خاب وخسر؛ لأن الله إذا أبعده وطرده فمن الذي يقربه يوم القيامة، ثم إنه تعالى لم يحصر جزاءه في الإبعاد؛ بل أوعده بالعذاب بقوله: ﵟوَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗاﵞ فاللعن جزاء الله؛ لأن من آذى الملك يبعده عن بابه إذا كان لا يأمر بعذابه، والتعذيب جزاء إيذاء الرسول؛ لأن الملك إذا آذى بعض عبيده كبير يستوفي منه قصاصه، لا يقال: فعلى هذا من يؤذي الله ولا يؤذي الرسول لا يعذب؛ لأنا نقول: انفكاك أحدهما على هذا الوجه عن الآخر محال؛ لأن من آذى الله فقد آذى الرسول. وأما على الوجه الآخر وهو أن من يؤذي النبي ﷺ ولا يؤذي الله كمن عصى من غير إشراك، كمن فسق أو فجر من غير ارتداد وكفر، فقد آذى النبي ﷺ غير أن الله تعالى صبور غفور رحيم فيجزيه بالعذاب ولا يلعنه بكونه يبعده عن الباب[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢).

(٢) تفسير البغوي (٣/ ٥٤٣).

(٣) تفسير الرازي (٢٥/ ٢٢٨).

لما كان الله تعالى مصليًا على نبيه لم ينفك إيذاء الله عن إيذائه، فإن من آذى الله فقد آذى الرسول، فبين الله للمؤمنين أنكم إن أتيتم بما أمرتكم وصليتم على النبي كما صليت عليه لا ينفك إيذاؤكم عن إيذاء الرسول، فيأثم من يؤذيكم لكون إيذائكم إيذاء الرسول، كما أن إيذائي إيذاؤه، وبالجملة لما حصلت الصلاة من الله والملائكة والرسول والمؤمنين صار لا يكاد ينفك إيذاء أحد منهم عن إيذاء الآخر؛ كما يكون حال الأصدقاء الصادقين في الصداقة[1].

وقال أحمد بن يوسف: في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ ﴾ (الأحزاب: ٥٧) أي: يقولون فيه ما صورته أذى، وإن كان سبحانه وتعالى لا يلحقه ضرر ذلك حيث وصفوه بما لا يليق بجلاله: من اتخاذ الأنداد، ونسبة الولد، والزوجة إليه، وأن يكون على حذف مضاف أي: أولياء الله، وقيل: أتى بالحالة تعظيمًا، والمراد: يؤذون رسولي[2].

والله ﷻ أثبت الأذية في القرآن، ونفى الضر عن نفسه سبحانه. نفى الله ﷻ عن نفسه أن يضره شيء، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ (آل عمران: ١٧٦)، وفي الحديث القدسي: "يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني"[3][4].

وهذا ممكن، ألا ترى الرجل يتأذى برائحة البصل ونحوه، و لا يتضرر بها[5].

ومعنى: ﴿أذى الله﴾ أن الله سبحانه وتعالى يبغض ذلك ويكرهه؛ لأنه تنقص لله سبحانه وتعالى، والله سبحانه وتعالى يتأذى ببعض أفعال عباده وأقوالهم التي فيها إساءة في حقه، ولكنه لا يتضرر بذلك، ولأن الله لا يضره شيء.

وكذلك من الأحاديث: عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "من لكعب بن الأشرف؟ فإنه آذى الله ورسوله"[6].

---

(١) تفسير الرازي (٢٥/ ٢٢٩).

(٢) الدر المصون في علم الكتاب المكنون لأحمد يوسف المعروف بـ (السمين الحلبي) (الآية).

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

(٤) القول المفيد.

(٥) انظر شرح الواسطية لابن عثيمين.

(٦) أخرجه البخاري (٢٥١٠)، ومسلم (١٨٠١).

الوجه الثاني: ذكر بعض الأمثلة من أذية المشركين للنبي ﷺ، وذكر عقوبتهم.

تقولون: كيف يضع النبي ﷺ نفسه مع الله في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ . . .﴾؟.

١- هذا القرآن هو كلام الله سبحانه وتعالى، والذي وضع النبي ﷺ في هذه المنزلة إنما هو الله سبحانه وتعالى، والله ﷻ لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

٢- ثم إن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ هم حاملوا رسالة ربهم رسالة التوحيد، فالله ﷻ هو الذي استأمنهم على ذلك، وكيف بعد ذلك لا يدافع عنهم؟! وكيف لا تكون أذيتهم من أذية الله ﷻ، أليسوا يبلغون دعوته؟!

٣- ثم إن الله ﷻ أخبرنا أنه يدافع عن كل من يدعو إليه، وكل من سار على نهج أنبيائه والمؤمنين، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾ (الحج: ٣٨)، ثم إن الله تبارك وتعالى بعد ذكره عقوبة من آذاه وآذى رسوله ﷺ ثنى بذكر عقوبة من آذى المؤمنين فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ (الأحزاب: ٥٨).

ومن قبل هذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ (المجادلة: ٢٢)، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾ (التوبة: ٦٣).

٤- ثم إن النبي ﷺ أشرف الخلق وأفضل الأنبياء، فكيف لا تكون أذيته من أذية الله ﷻ[1]؟

فالاجتراء على نبي من أنبياء الله ﷻ اجتراء على الله، وإيذاء النبي هو إيذاء لله ﷻ، يُنزل الله به غضبه ولعناته، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ (النساء: ١١٥)، وقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن

(١) انظر بحث: الصلاة على النبي ﷺ في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾.

﴿يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴿٣٢﴾﴾ (محمد: ٣٢)، وقال ﷻ: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ (الحجر: ٩٤)، وقال ﷻ: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ (الكوثر: ٣).

ثم إن هذه الآية تخص الذين يؤذون النبي ﷺ بالكفر به أو بسبه أو بضربه من المشركين، والكافرين، ومع ذلك فإن من فعل ذلك ثم آمن وتاب وعمل صالحًا فإن الله ﷻ يعفو عنه ويسامحه النبي ﷺ، كما سنبين إن شاء الله.

ومن أمثلة أذى المشركين للنبي ﷺ:

١ - عن عَبْدَ الله بْنَ مَسْعُودٍ ﵁ قَالَ: "بينما النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُصَلِّي عِنْدَ الْبَيْتِ وَأَبُو جَهْلٍ وَأَصْحَابٌ لَهُ جُلُوسٌ إِذْ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْض: أَيُّكُمْ يَجِيءُ بِسَلَى جَزُورِ بَنِي فُلَانٍ فَيَضَعُهُ عَلَى ظَهْرِ مُحَمَّدٍ إِذَا سَجَدَ، فَانْبَعَثَ أَشْقَى الْقَوْمِ فَجَاءَ بِهِ فَنَظَرَ حَتَّى سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ وَضَعَهُ عَلَى ظَهْرِهِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، وَأَنَا أَنْظُرُ لَا أُغْنِي شَيْئًا، لَوْ كَانَ لِي مَنَعَةٌ، قَالَ: فَجَعَلُوا يَضْحَكُونَ وَيُحِيلُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَرَسُولُ الله ﷺ سَاجِدٌ لَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ حَتَّى جَاءَتْهُ فَاطِمَةُ فَطَرَحَتْ عَنْ ظَهْرِهِ، فَرَفَع رَأْسَهُ ثُمَّ قَالَ: «اللهمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ. فَشَقَّ عَلَيْهِمْ إِذْ دَعَا عَلَيْهِمْ، قَالَ: وَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ الدَّعْوَةَ فِي ذَلِكَ الْبَلَدِ مُسْتَجَابَةٌ، ثُمَّ سَمَّى: «اللهمَّ، عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ، وَعَلَيْكَ بِعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَالْوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ، وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ، وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ»، وَعَدَّ السَّابِعَ فَلَمْ يَحْفَظْ، قَالَ: فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ رَأَيْتُ الَّذِينَ عَدَّ رَسُولُ الله ﷺ صَرْعَى فِي الْقَلِيبِ قَلِيبِ بَدْرٍ"[(١)].

وقال ابن حجر: وقوله: "عليك بقريش" أي: بإهلاك قريش، والمراد الكفار منهم أو من سمى منهم، فهو عام أريد به الخصوص[(٢)].

وقوله: "صرعى في القليب" وَهَذَا يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ تَمَام الدُّعَاءِ الْمَاضِي فَيَكُونُ فِيهِ عَلَمٌ عَظِيم مِنْ أَعْلَام النُّبُوَّة، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ قَالَهُ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَ أَنْ أُلْقُوا فِي الْقَلِيبِ وَزَاد شُعْبَةُ فِي رِوَايَتِهِ: (إِلَّا أُمَيَّة فَإِنَّهُ تَقَطَّعَتْ أَوْصَالُهُ) زَادَ: (لِأَنَّهُ كَانَ بَادِنًا). قَالَ الْعُلَمَاء: وَإِنَّمَا

(١) أخرجه البخاري (٢٩٣٤)، ومسلم (١٧٩٤).

(٢) فتح الباري (١/ ٤١٦).

أَمَرَ بِإِلْقَائِهِمْ فِيهِ لِئَلَّا يَتَأَذَّى النَّاس بِرِيحِهِمْ وَإِلَّا فَالْحَرْبِيّ لَا يَجِبُ دَفْنه، وَالظَّاهِر أَنَّ الْبِئْرَ لَمْ يَكُنْ فِيهَا مَاءٌ مَعِينٌ.

وَفِي الْحَدِيثِ: تَعْظِيم الدُّعَاء بِمَكَّةَ عِنْدَ الْكُفَّارِ، وَمَا ازْدَادَتْ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا تَعْظِيمًا.

وَفِيهِ مَعْرِفَة الْكُفَّار بِصِدْقِهِ ﷺ؛ لِخَوْفِهِمْ مِنْ دُعَائِهِ، وَلَكِنْ حَمَلَهُمْ الْحَسَد عَلَى تَرْك الِانْقِيَاد لَهُ.

وَفِيهِ حِلْمُهُ ﷺ عَمَّنْ آذَاهُ؛ فَفِي رِوَايَةِ الطَّيَالِسِيّ، عَنْ شُعْبَةَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ: أَنَّ ابْن مَسْعُود قَالَ: (لَمْ أَرَهُ دَعَا عَلَيْهِمْ إِلَّا يَوْمَئِذٍ) وَإِنَّمَا اِسْتَحَقُّوا الدُّعَاءَ حِينَئِذٍ لِمَا أَقْدَمُوا عَلَيْهِ مِنْ الِاسْتِخْفَافِ بِهِ ﷺ حَالَ عِبَادَة رَبِّه.

وَفِيهِ اِسْتِحْبَابُ الدُّعَاءِ ثَلَاثًا وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْعِلْمِ اِسْتِحْبَاب السَّلَام ثَلَاثًا وَغَيْر ذَلِكَ.

وَفِيهِ جَوَازُ الدُّعَاءِ عَلَى الظَّالِمِ لَكِنْ قَالَ بَعْضهمْ: مَحَلُّهُ مَا إِذَا كَانَ كَافِرًا، فَأَمَّا الْمُسْلِمُ فَيُسْتَحَبُّ الِاسْتِغْفَارُ لَهُ وَالدُّعَاءُ بِالتَّوْبَةِ[(١)].

٢- عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: "كان رجل نصرانيًا فأسلم وقرأ البقرة وآل عمران، فكان يكتب للنبيﷺ فعاد نصرانيًا، فكان يقول: ما يدري محمد إلا ما كتبت له فأماته الله فدفنوه، فأصبح وقد لفظته الأرض، فقالوا: هذا فعل محمد وأصحابه لما هرب منهم نبشوا عن صاحبنا فألقوه، فحفروا له فأعمقوا، فأصبح وقد لفظته الأرض، فقالوا: هذا فعل محمد وأصحابه نبشوا عن صاحبنا لما هرب منهم فألقوه، فحفروا له وأعمقوا له في الأرض ما استطاعوا، فأصبح وقد لفظته الأرض فعلموا أنه ليس من الناس فألقوه"[(٢)].

٣- عن عُرْوَةُ أَنَّ عَائِشَةَ ﵂ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ حَدَّثَتْهُ أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ قَالَ: "لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ. فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ

---

(١) فتح الباري (١/ ٤١٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦١٧).

ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ: ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ؛ إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبَيْنِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا"[(١)].

فانظر لقول النبي ﷺ: "لقد لقيت من قومك" كلمة تحمل الكثير مما عاناه النبي ﷺ وكابده مع هؤلاء المشركين.

٤- عن عروة بن الزبير ﵄ قال: سألت عبد الله بن عمرو عن أشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ؟ قال رأيت عقبة بن أبي معيط جاء إلى النبي ﷺ وهو يصلي فوضع رداءه في عنقه فخنقه به خنقًا شديدًا، فجاء أبو بكر حتى دفعه عنه، فقال: أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم[(٢)].

فمما ذكرنا تبين أنه قد اشتد الأذى بالنبي ﷺ، وسُبَّ، وخُنق، وسال الدم منه ﷺ، وأوذي أشد الإيذاء، أفلا يكون من المعقول أن يدافع الله ﷻ عنه ويهدد الذين يؤذونه، ويجعل سبحانه أذية رسوله ﷺ من أذيته ﷻ؟.

بلى، إن الله يدافع عن الذين آمنوا، لذلك قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ (الأحزاب: ٥٧).

الوجه الثالث: رحمة النبي ﷺ بأعدائه وبأمته ورحمته في دعوته وأنه ﷺ كان يتحمل الأذى إلا أن تنتهك حرمة من حرمات الله ﷻ.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ (الأنبياء: ١٠٧)، فهو رحمته المهداة لعباده، فالمؤمنون به قبلوا هذه الرحمة وشكروها، وقاموا بها، وغيرهم كفرها، وبدلوا نعمة الله كفرًا، وأبوا رحمة الله ونعمته.

وشملت رحمة النبي ﷺ العالمين، والعالمين تشمل الكافر والمؤمن؛ فهو رحمة للبر والفاجر، فمن آمن به أمن من عذاب الله في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن به أمن من عذاب الله في الدنيا وأجلت له العقوبة في الآخرة، مصدقًا لقول الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ

(١) أخرجه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٧٨).

ﭐللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡ﴾ (الأنفال: ٣٣)، وسنبين بإذن الله ﷻ الآن رحمته ﷺ بأعدائه، ثم رحمته بأمته، ثم رحمته ﷺ في دعوته.

١ـ رحمته ﷺ بأعدائه:

عن أبي هريرة ﷺ قال: (قيل يا رسول الله: ادع على المشركين قال: "إني لم أبعث لعانًا وإنما بعثت رحمة"[(١)].

وفي حديث عائشة ﵂ السابق لما جاءه ملك الجبال وقال له: "إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين. فقال: «لا، بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئًا»"[(٢)].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: "بَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ خَيْلًا قِبَلَ نَجْدٍ فَجَاءَتْ بِرَجُلٍ مِنْ بني حَنِيفَةَ يُقَالُ لَهُ: ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ سَيِّدُ أَهْلِ الْيَمَامَةِ، فَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سواري الْمَسْجِدِ فَخَرَجَ إِلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ: «مَاذَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ»؟ فَقَالَ: عندي يَا مُحَمَّدُ خَيْرٌ، إِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ. فَتَرَكَهُ رَسُولُ الله ﷺ حَتَّى كَانَ بَعْدَ الْغَدِ فَقَالَ: «مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ»؟ قَالَ: مَا قُلْتُ لَكَ، إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ وَإِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ. فَتَرَكَهُ رَسُولُ الله ﷺ حَتَّى كَانَ مِنَ الْغَدِ فَقَالَ: «مَاذَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ»؟ فَقَالَ: عِنْدِي مَا قُلْتُ لَكَ، إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ». فَانْطَلَقَ إِلَى نَخْلٍ قَرِيبٍ مِنَ الْمَسْجِدِ فَاغْتَسَلَ، ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، يَا مُحَمَّدُ: وَالله، مَا كَانَ عَلَى الأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ كُلِّهَا إِلَيَّ، وَالله مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ كُلِّهِ إِلَيَّ، وَالله مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلاَدِ كُلِّهَا إِلَيَّ، وَإِنَّ خَيْلَكَ أخذتني وَأَنَا أُرِيدُ الْعُمْرَةَ فَمَاذَا تَرَى؟ فَبَشَّرَهُ رَسُولُ الله ﷺ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْتَمِرَ فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٩٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥).

قَالَ لَهُ قَائِلٌ: أَصَبَوْتَ؟ فَقَالَ: لاَ، وَلَكِنِّي أَسْلَمْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ، وَلاَ وَالله لاَ يَأْتِيكُمْ مِنَ الْيَمَامَةِ حَبَّةُ حِنْطَةٍ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا رَسُولُ الله "ﷺ[1].

وقوله: (تقتل ذا دم) أي: صَاحِب دَم؛ لِدَمِهِ مَوْقِعٌ يَشْتَفِي بِقَتْلِهِ قَاتِله، وَيُدْرِك قَاتِله بِهِ ثَأْره، أَيْ: لِرِيَاسَتِهِ وَفَضِيلَته. (وهذا تهديد واضح كما ترى).

قال النووي: وَكَرَّرَ ذَلِكَ ثَلَاثَة أَيَّام؛ هَذَا مِنْ تَأْلِيف الْقُلُوب وَمُلَاطَفَة لِمَنْ يُرْجَى إِسْلَامه مِنْ الْأَشْرَاف الَّذِينَ يَتْبَعهُمْ عَلَى إِسْلَامهمْ خَلْق كَثِير[2].

وقال ابن حجر: تَعْظِيم أَمْر الْعَفْو عَنْ الْمُسِيء؛ لِأَنَّ ثُمَامَة أَقْسَمَ أَنَّ بُغْضه اِنْقَلَبَ حُبًّا فِي سَاعَة وَاحِدَة لِمَا أَسْدَاهُ النَّبِيّ ﷺ إِلَيْهِ مِنْ الْعَفْو وَالْمَنّ بِغَيْرِ مُقَابِل، وفيه أَنَّ الْإِحْسَان يُزِيل الْبُغْض وَيُثْبِت الْحُبّ[3].

٢ـ رحمته ﷺ بأمته:

قال ـ تعالى ـ: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ (التوبة: ١٢٨).

قال السعدي: يمتن ـ تعالى ـ على عباده المؤمنين بما بعث فيهم النبي الأمي الذي من أنفسهم، يعرفون حاله، ويتمكنون من الأخذ عنه، ولا يأنفون عن الانقياد له، وهو ﷺ في غاية النصح لهم، والسعي في مصالحهم.

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: يشق عليه الأمر الذي يشق عليكم ويعنتكم.

﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُم ﴾ فيحب لكم الخير، ويسعى جهده في إيصاله إليكم، ويحرص على هدايتكم إلى الإيمان، ويكره لكم الشر، ويسعى جهده في تنفيركم عنه.

﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: شديد الرأفة والرحمة بهم، أرحم بهم من والديهم[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٢، ٤٣٧٢)، ومسلم (١٧٦٤) واللفظ له.

(٢) شرح النووي (٦/ ٣٣٢).

(٣) فتح الباري (٨/ ١٠٣، ١٠٤).

وعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ﷺ أَنَّ النبي ﷺ تلاَ قَوْلَ الله ﷻ في إِبْرَاهِيمَ ﷺ: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ﴾ الآيَةَ.

وَقَالَ عِيسَى ﷺ: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (١١٨) ﴾ فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: "اللهمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي وَبَكَى. فَقَالَ الله ﷻ: يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ - وَرَبُّكَ أَعْلَمُ- فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ؟ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ ﷺ فَسَأَلَهُ؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ الله ﷺ بِمَا قَالَ - وَهُوَ أَعْلَمُ- . فَقَالَ الله: يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلاَ نَسُوءُكَ"[٢].

وقال النووي: وفيه كمال شَفَقَة النَّبِيّ ﷺ عَلَى أُمَّته وَاعْتِنَائِهِ بِمَصَالِحِهِمْ، وَاهْتِمامه بِأَمْرِهِمْ، عِظَم مَنْزِلَة النَّبِيّ ﷺ عِنْد الله ﷻ[٣].

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَكَبَّرْنَا. فَقَالَ: «أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَكَبَّرْنَا. فَقَالَ: «أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَكَبَّرْنَا. فَقَالَ: «مَا أَنْتُمْ فِي النَّاسِ إِلَّا كَالشَّعَرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَبْيَضَ أَوْ كَشَعَرَةٍ بَيْضَاءَ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَسْوَدَ"[٤].

٣ ـ رحمة النبي ﷺ في دعوته:

قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

قال السعدي: أي: برحمة الله لك ولأصحابك مَنَّ الله عليك أن ألنت لهم جانبك، وخفضت لهم جناحك، وترفقت عليهم، وحسنت لهم خلقك، فاجتمعوا عليك وأحبوك، وامتثلوا أمرك، ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا﴾ أي: سيئ الخلق ﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾ أي: قاسيه

(١) تفسير السعدي (٣٥٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٠٢).

(٣) شرح النووي (٢/ ٨٠).

(٤) أخرجه البخاري (٣٣٤٨)، مسلم (٢٢١).

﴿لَانفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ لأن هذا ينفرهم ويبغضهم لمن قام به هذا الخلق السيئ[١].

وقال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ (النحل: ١٢٥).

وعن أبي هريرة ﷺ: أن أعرابيًا بال في المسجد، فثار إليه الناس ليقعوا به فقال لهم رسول الله ﷺ: "دعوه وأهريقوا على بوله ذنوبًا من ماء أو سجلًا من ماء فإنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين"[٢].

فانظر إلى رحمته ﷺ بهذا الأعرابي حتى علمه وبين له خطأ ما فعل، بعدما انتهى من بوله، وبين له المساجد لا تصلح لهذا.

وعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السلمي ﷺ قَالَ: "بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ الله ﷺ إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ الله، فرماني الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَاثُكْلَ أُمِّيَاهْ! مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ؟ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي لَكِنِّي سَكَتُّ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ الله ﷺ فبأبي هُوَ وأمي؛ مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلاَ بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ؟ فَوَالله، مَا كَهَرَنِي، وَلاَ ضربني، وَلاَ شتمني؛ قَالَ: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلاَةَ لاَ يَصْلُحُ فِيهَا شيء مِنْ كَلاَمِ النَّاسِ؛ إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ»[٣] أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ الله ﷺ ".

قال النووي: فِيهِ: بَيَان مَا كَانَ عَلَيْهِ رَسُول الله ﷺ مِنْ عَظِيم الْخُلُق الَّذِي شَهِدَ الله تَعَالَى لَهُ بِهِ، وَرِفْقه بِالْجَاهِلِ، وَرَأْفته بِأُمَّتِهِ، وَشَفَقَته عَلَيْهِمْ[٤].

وعن معاذ بن جبل وأبي بردة ﷺ قال لهما رسول الله ﷺ: لما بعثهما إلى اليمن: "يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا"[٥].

وعن عائشة ﵂ أنها قالت: "ما خُير رسول الله ﷺ بين أمرين قط إلا أخذ أيسرهما؛ ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه في شيء

---

(١) تفسير السعدي (١٥٤).

(٢) أخرجه البخاري (٦١٢٨).

(٣) أخرجه مسلم (٥٣٧).

(٤) شرح النووي (٣/ ٢٧).

(٥) أخرجه البخاري (٦١٢٤)، ومسلم (١٧٣٣).

قط إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم بها لله"[١].

قال ابن حجر: قَوْله: (بَيْن أَمْرَيْنِ) أَيْ: مِنْ أُمُور الدُّنْيَا، يَدُلّ عَلَيْهِ قَوْله: (مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا)؛ لِأَنَّ أُمُور الدِّين لَا إِثْم فِيهَا، وَقَوْله: (مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا) أَيْ: مَا لَمْ يَكُنْ الْأَسْهَل مُقْتَضِيًا لِلْإِثْمِ؛ فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ يَخْتَار الْأَشَدّ، وقَوْله: (وَمَا اِنْتَقَمَ لِنَفْسِهِ) أَيْ: خَاصَّة، فَلَا يَرِد أَمْره بِقَتْلِ عُقْبَة بْن أَبِي مُعَيْط وَعَبْد الله بْن خَطَل وَغَيْرهمَا مِمَّنْ كَانَ يُؤْذِيه؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا مَعَ ذَلِكَ يَنْتَهِكُونَ حُرُمَات الله، وَقِيلَ: أَرَادَتْ أَنَّهُ لَا يَنْتَقِم إِذَا أُوذِيَ فِي غَيْر السَّبَب الَّذِي يُخْرِج إِلَى الْكُفْر، كَمَا عَفَا عَنْ الْأَعْرَابِيّ الَّذِي جَفَا فِي رَفْع صَوْته عَلَيْهِ، وَعَنْ الْآخَر الَّذِي جَبَذَ بِرِدَائِهِ حَتَّى أَثَّرَ فِي كَتِفه[٢].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: "كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَذَبَهُ جَذْبَةً شَدِيدَةً حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ أَثَّرَتْ بِهِ حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَذْبَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: مُرْ لِي مِنْ مَالِ الله الَّذِي عِنْدَكَ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ فَضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ"[٣].

وقال النووي: فِيهِ اِحْتِمَال الْجَاهِلِينَ وَالْإِعْرَاض عَنْ مُقَابَلَتهمْ، وَدَفْع السَّيِّئَة بِالْحَسَنَةِ، وَإِعْطَاء مَنْ يُتَأَلَّف قَلْبُهُ، وَالْعَفْو عَنْ مُرْتَكِب كَبِيرَة لَا حَدّ فِيهَا بِجَهْلِهِ، وَإِبَاحَة الضَّحِك عِنْد الْأُمُور الَّتِي يُتَعَجَّب مِنْهَا فِي الْعَادَة، وَفِيهِ كَمَالُ خُلُق رَسُول الله ﷺ وَحِلْمه وَصَفْحه الْجَمِيل[٤].

فبذلك نكون قد بينا رحمة النبي ﷺ، وبينا أذية المشركين له ﷺ، وذكرنا عقوبات من آذاه ﷺ، وأنه ﷺ ما كان ينتقم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمة من حرمات الله ﷻ فينتقم لله.

وأما قولهم: إن المسيح عليه السلام حصل معه إهانات، وإساءات كان يقابلها بالعفو والغفران فنحن قد بينا حلم النبي ﷺ، وعفوه لمن آذاه؛ طالما أن هذا الأذى بعيد عن حرمات الله ﷻ.

ولم يخلق من لدن آدم إلى قيام الساعة مَنْ هو أرحم من النبي ﷺ، ولا أحلم منه صلوات ربي وسلامه عليه.

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٢٦)، ومسلم (٢٣٢٧).

(٢) فتح الباري (٦/ ٦٦٥/ ٦٦٦).

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٨٨)، ومسلم (١٠٥٧).

(٤) شرح النووي (٤/ ١٥٩).

الوجه الرابع: المسيح ﷺ والمهتدون في الكتاب المقدس.

يقولون: المسيح ملعون، والناموس لعنة، وكل من لا يعمل بجميع الناموس فهو ملعون، لذلك فالجميع ملعونون: ((اَلْمَسِيحُ افْتَدَانَا مِنْ لَعْنَةِ النَّامُوسِ، إِذْ صَارَ لَعْنَةً لأَجْلِنَا، لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: (مَلْعُونٌ كُلُّ مَنْ عُلِّقَ عَلَى خَشَبَةٍ)) (رسالة بولس إلى أهل غلاطية٣/ ١٣).

((لأَنَّ جَمِيعَ الَّذِينَ هُمْ مِنْ أَعْمَالِ النَّامُوسِ هُمْ تَحْتَ لَعْنَةٍ، لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: (مَلْعُونٌ كُلُّ مَنْ لاَ يَثْبُتُ فِي جَمِيعِ مَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِي كِتَابِ النَّامُوسِ لِيَعْمَلَ بِهِ)) (رسالة بولس إلى أهل غلاطية٣/ ١٠).

((كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: (أَنَّهُ لَيْسَ بَارٌّ وَلاَ وَاحِدٌ، لَيْسَ مَنْ يَفْهَمُ، لَيْسَ مَنْ يَطْلُبُ اللهَ، الْجَمِيعُ زَاغُوا وَفَسَدُوا مَعًا، لَيْسَ مَنْ يَعْمَلُ صَلاَحًا لَيْسَ وَلاَ وَاحِدٌ)) (رسالة بولس إلى أهل رومية٣/ ١٢: ١٠).

ونجد أيضًا أن الكتاب المقدس به سب صريح لمن يريد أن يدعوهم للهداية: (أَيُّهَا الْغَلاَطِيُّونَ الأَغْبِيَاءُ. . .) (رسالة بولس إلى أهل غلاطية٣/ ١)

ونجد أيضًا أن المسيح يضع نفسه مع الله كهيكلٍ واحد للمدينة: (وَلَمْ أَرَ فِيهَا هَيْكَلًا، لأَنَّ الرَّبَّ اللهَ الْقَادِرَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، هُوَ وَالْخَرُوفُ هَيْكَلُهَا) (رؤيا يوحنااللاهوتي١/ ٢٢).

(لأَنَّ الْخَرُوفَ الَّذِي فِي وَسَطِ الْعَرْشِ يَرْعَاهُمْ، وَيَقْتَادُهُمْ إِلَى يَنَابِيعِ مَاءٍ حَيَّةٍ، وَيَمْسَحُ اللهُ كُلَّ دَمْعَةٍ مِنْ عُيُونِهِمْ) (رؤيا يوحنا اللاهوتي٧/ ١٧).

(وَكُلُّ خَلِيقَةٍ مِمَّا فِي السَّمَاءِ وَعَلَى الأَرْضِ وَتَحْتَ الأَرْضِ، وَمَا عَلَى الْبَحْرِ، كُلُّ مَا فِيهَا، سَمِعْتُهَا قَائِلَةً: (لِلْجَالِسِ عَلَى الْعَرْشِ وَلِلْخَرُوفِ الْبَرَكَةُ وَالْكَرَامَةُ، وَالْمَجْدُ وَالسُّلْطَانُ إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ)) (يوحنا اللاهوتي٥/ ١٣).

ثم من العجب إنكارهم وضع النبي محمد ﷺ بجوار رب العالمين في الآية، وهم في المقابل يقولون بأن عيسى هو الله، وقد حلّ الإله فيه، والتحم الناسوت باللاهوت، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ (المائدة: ١١٦).

* * *

سورة ص

وفيها:

١- شبهة: قصة الخصم مع داود عليه السلام.

٢- شبهة: فتنة سليمان عليه السلام.

٣- شبهة: ملك سليمان.

٤- شبهة: أيوب عليه السلام **في الآية:** ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا ﴾ .

١ـ شبهة: قصة الخصم مع داود عليه السلام.

نص الشبهة:

اتهام نبي الله داود عليه السلام بالوقوع في الفاحشة.

والرد من وجوه:

الوجه الأول: ذكر هذه الروايات وبيان ضعفها.

الوجه الثاني: تفسير الآيات، وبيان ضعف القصة التي تثبت أنه زنى وقتل.

الوجه الثالث: داود عليه السلام في القرآن والسنة.

الوجه الرابع: داود عليه السلام في الكتاب المقدس.

واليك التفصيل

الوجه الأول: ذكر هذه الروايات وبيان ضعفها.

١ـ عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول ﷺ يقول: "إن داود النبي عليه السلام حين نظر إلى المرأة فهمَّ أن يُجمع على بني إسرائيل وأوصى صاحب البعث، فقال: إذا حضر العدو فقرب فلانًا بين يدي التابوت، وكان التابوت في ذلك الزمان يستنصر به وبمن قدم بين يدي التابوت، فلم يرجع حتى يقتل أو ينهزم عنه الجيش فقتل زوج المرأة، ونزل الملكان يقصان عليه قصته، ففطن داود فسجد ومكث أربعين ليلة ساجدًّا حتى نبت الزرع من دموعه على رأسه وأكلت الأرض من جبينه وهو يقول في سجوده: «رب زل داود زلة أبعد مما بين المشرق والمغرب، رب إن لم ترحم ضعف داود، ولم تغفر ذنبه جعلت ذنبه حديثًا في الخلق من بعده، فجاءه جبريل من بعد أربعين ليلة فقال: يا داود إنه قد غفر لك الهم الذي هممت به، فقال داود: «إن الرب قادر على أن يغفر لي الهم الذي هممت به، وقد عرفت إن عدل لا يميل، فكيف بفلان إذا جاء يوم القيامة، فقال: يا رب دمي الذي عند داود، فقال جبريل: ما سألت ربك عن ذلك وإن شئت لأفعلن، فقال: نعم، فعرج جبريل وسجد داود، فمكث ما شاء ثم نزل جبريل، فقال: سألت يا داود عن الذي أرسلتني فيه،

فقال: قل لداود إن يجمعكما يوم القيامة، فيقول له: هب لي دمك الذي عند داود، فيقول: هو لك يا رب، فيقول: إن لك في الجنة ما شئت وما اشتهيت عوضًا عنه"[(١)].

٢ـ عن الأحنف بن قيس: «أن داود حدث نفسه إن ابتُلي أن يعتصم فقيل له: إنك ستبتلى وتعلم اليوم الذي تبتلى فيه فخذ حذرك فقيل له: هذا اليوم الذي تبتلى فيه فأخذ الزبور فوضعه في حجره، وأغلق باب المحراب، وأقعد منصفًا على الباب، وقال: «لا تأذن لأحد علي اليوم» فبينما هو يقرأ الزبور؛ إذ جاء طائر مذهّب كأحسن ما يكون الطير، فيه من كل لون، فجعل يدرج بين يديه، فدنا منه، فأمكن أن يأخذه، فتناوله بيده ليأخذه فاستوفزه من خلفه، فأطبق الزبور وقام إليه ليأخذه، فطار فوقع على كوة من المحراب فدنا منه أيضًا ليأخذه، فوقع على حصن فأشرف عليه لينظر أين وقع؟ فإذا هو بالمرأة عند بركتها تغتسل من المحيض فلما رأت ظله حركت رأسها فغطت جسدها بشعرها فقال داود للمنصف: «اذهب فقل لفلانة تجيء» فأتاها فقال: إن نبي الله يدعوك فقالت: مالي ولنبي الله إن كانت له حاجة فليأتني أما أنا فلا آتيه، فأتاه المنصف فأخبره بقولها، فأتاها وأغلقت الباب دونه فقالت: مالك يا داود! أما تعلم أنه من فعل هذا رجمتموها ووعظته فرجع، وكان زوجها غازيًا في سبيل فكتب داود عليه السلام إلى أمير المغزي انظر أوريا فاجعله في حملة التابوت، فقتل فلما انقضت عدتها خطبها فاشترطت

---

(١) **إسناده ضعيف جدًا.** أخرجها ابن جرير في « تفسيره»٢٣/ ١٥٠، ١٥١، وفي «تاريخه» ١/ ٢٨٥، ومن طريقه الثعالبي في «الكشف والبيان» ١١/ ٣٧٣، ومن طريقه البغوي في « تفسيره» ٤/ ٥٥، ٥٦ عن يونس بن عبد الأعلى الصيرفي، أخبرنا ابن وهب، أخبرني ابن لهيعة، عن أبي صخر، عن يزيد الرقاشي به.

وفيه: يزيد بن أبان الرقاشي، وهو ضعيف. قال ابن كثير: «روى ابن أبي حاتم حديثًا لا يصح سنده؛ لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس رضي الله عنه ويزيد وإن كان من الصالحين؛ لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة، فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة وأن يرد علمها إلى الله عز وجل؛ فإن القرآن حق، وما تضمن فهو حق أيضًا» تفسيره١٢/ ٨٢.

وفيه أيضًا أبو صخر: وهو حميد بن زياد، أبى المخارق المدني. قال أحمد: ليس به بأس؛ الجامع في العلل ٢/ ٩٨. وقال الذهبي: مختلف فيه؛ الكاشف ١/ ٢٥٦. وقال ابن حجر: صدوق يهم؛ التقريب ١/ ١٤١. قال القرطبي: «ذكره الماوردي وغيره، ولا يصح. قال ابن العربي: «وهو أمثل ما روي في ذلك» تفسيره ١٥/ ١٦٠. وقال السيوطي: «سند ضعيف» الدر المنثور ٧/ ١٥٦و١٥٧، وذكرها ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٢٣٩، ٣٢٤٠ بدون إسناد.

عليه إن ولدت غلامًا أن يجعله الخليفة من بعده، وأشهدت عليه خمسين من بني إسرائيل وكتبت عليه بذلك كتابًا، فما شعر بفتنته أنه فتن حتى ولدت سليمان وشب، فتسور المكان عليه المحراب فكان من شأنهما ما قص، وخر داود ساجدًا، فغفر له وأناب وتاب عليه فطلقها وجفا سليمان وأبعده، فبينما هو في مسير له وهو في ناحية القوم إذ أتى على غلمان له يلعبون فجعلوا يقولون: يا لا دين يا لادين، فوقف داود فقال: « ما شأن هذا يسمى لادين» فقال سليمان وهو في ناحية القوم: «أما أنه لو سألني عن هذه لأخبرته بأمره» فقيل لداود: إن سليمان قال كذا وكذا فدعاه وقال: «ما شأن هذا الغلام سمي لادين»؟ فقال: «سأعلم لك علم ذلك» فسأل سليمان عن أبيه: كيف كان أمره؟ فقيل: إن أباه كان في سفر له مع أصحاب له وكان كثير المال، فأرادوا قتله، فأوصاهم فقال: إني تركت امرأتي حبلى فإن ولدت غلامًا فقولوا لها تسميه لادين، فبعث سليمان إلى أصحابه فجاؤا فخلا بأحدهم فلم يزل حتى أقر وخلا بالآخرين فلم يزل بهم حتى أقروا كلهم، فرفعهم إلى داود فقتلهم فعطف عليه بعض العطف.

وكانت امرأة عابدة من بني إسرائيل وكانت تبتلت، وكانت لها جاريتان جميلتان، وقد تبتلت المرأة لا تريد الرجال، فقالت إحدى الجاريتين للأخرى: قد طال علينا هذا البلاء أما هذه فلا تريد الرجال ولا نزال بشر ما كنا لها، فلو أنا فضحناها فرجمت فصرنا إلى الرجال، فأخذتا ماء البيض، فأتتاها وهي ساجدة فكشفتا عنها ثوبها ونضحتا في دبرها ماء البيض، وصرختا إنها قد بغت، وكان من زنا منهم حده الرجم، فرفعت إلى داود عليه السلام وماء البيض في ثيابها فأراد رجمها فقال سليمان: «أما أنه لو سألني لأنبأته» فقيل لداود: إن سليمان قال كذا وكذا فدعاه فقال: « ما شأن هذه ما أمرها فقال ائتوني بنار؛ فإنه إن كان ماء الرجال تفرق وإن كان ماء البيض اجتمع، فأتي بنار فوضعها عليه فاجتمع، فدرأ عنها الرجم، وعطف عليه بعض العطف وأحبه.

ثم كان بعد ذلك أصحاب الحرث وأصحاب الشياه فقضى داود عليه السلام لأصحاب الحرث بالغنم فخرجوا وخرجت الرعاء معهم الكلاب فقال سليمان: « كيف قضى بينكم»؟ فأخبروه فقال: « لو وُليت أمرهم لقضيت بينهم بغير هذا القضاء» فقيل لداود: إن سليمان يقول كذا وكذا، فدعاه فقال: «كيف تقضي»؟ فقال: «ادفع الغنم إلى أصحاب الحرث هذا العام فيكون

لهم أولادها وسلاها وألبانها ومنافعها ويبذر هؤلاء مثل حرثهم فإذا بلغ الحرث الذي كان عليه أخذ هؤلاء الحرث ودفع هؤلاء إلى هؤلاء الغنم، قال: فعطف عليه.

قال حماد: وسمعت ثابتًا يقول: هو أوريا[1].

٣ـ عن ليث عن مجاهد قال: «لما أصاب داود الخطيئة خر لله ساجدًا أربعين يومًا حتى نبت من دموع عينيه من البقل ما غطى رأسه ثم نادى: «رب قرح الجبين، وجمدت العين، وداود لم يرجع إليه في خطيئته شيء فنودي: أجائع فتطعم؟ أم مريض فتشفى؟ أم مظلوم فينتصر لك؟ قال: فنحب نحبة هاج كل شيء كان نبت، فعند ذلك غفر له، وكانت خطيئته مكتوبة بكفه يقرؤها، وكان يؤتى بالإناء ليشرب فلا يشرب إلا ثلثه أو نصفه، وكان يذكر خطيئته فينحب النحبة تكاد مفاصله تزول بعضها من بعض، ثم ما يتم شرابه حتى يملأه من دموعه، وكان يقال: إن دمعة داود تعدل دمعة الخلائق ودمعة آدم تعدل دمعة داود ودمعة الخلائق قال: فهو يجيء يوم القيامة خطيئته مكتوبة بكفه فيقول: « رب ذنبي ذنبي قدمني» قال: فيقدم فلا يأمن فيقول: « رب أخرني فيؤخر فلا يأمن»[2].

٤ـ عن ابن عباس قوله: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ﴾ قال إن داود قال: «يا رب قد أعطيت إبراهيم وإسحاق ويعقوب من الذكر ما لوددت أنك أعطيتني مثله قال: «إني ابتليتهم بما لم أبتلك به، فإن شئت ابتليتك بمثل ما ابتليتهم به، وأعطيتك ما أعطيتهم» قال: «نعم» قال له: «فاعمل حتى أرى بلاءك، فكان ما شاء أن يكون، وطال ذلك عليه فكاد أن

---

(١) منكر. أخرجه ابن أبي شيبه في «المصنف» (٧/ ٤٦٥، ٤٦٦) قال: حدثنا عفان قال: ثنا حماد بن سلمة قال: ثنا علي بن زيد به قلت: إسناده ضعيف.

وفيه: علي بن زيد بن جدعان، قال الدارقطني: لا يزال عندي فيه لين. العلل٥/ ٣٤٦، وقال الذهبي: أحد الحفاظ، و ليس بالثبت. الكاشف ٢/ ٢٨٥، وقال ابن حجر: ضعيف. التقريب ١/ ٤١٣.

(٢) ضعيف، ومتنه منكر. أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٧/ ٤٦٥، وابن جرير في «تفسيره» ٢٣/ ١٥٠ و«تاريخه»١/ ٢٨٤و٢٨٥ وهناد بن السري في «الزهد »١/ ٢٦٢ من طرق عن الليث به.

والليث: هو ابن أبي سليم، قال الذهبي: فيه ضعف يسير من سوء حفظه، وبعضهم احتج به. الكاشف٣/ ١٤.

وقال الحافظ: صدوق اختلط جدًا، ولم يتميز حديثه فترك. التقريب ٢/ ٤٩٧، وأخرجه ابن المنذر كما في« الدر» للسيوطي ٧/ ١٥٧.

ينساه، فبينا هو في محرابه إذ وقعت عليه حمامة من ذهب، فأراد أن يأخذها فطارت إلى كوة المحراب، فذهب ليأخذها فطارت، فاطلع من الكوة فرأى امرأة تغتسل؛ فنزل نبي ﷺ من المحراب فأرسل إليها، فجاءته، فسألها عن زوجها وعن شأنها، فأخبرته أن زوجها غائب، فكتب إلى أمير تلك السرية أن يؤمره على السرايا ليهلك زوجها، ففعل، فكان يصاب أصحابه وينجو وربما نصروا، وإن ﷻ لما رأى الذي وقع فيه داود أراد أن يستنقذه فبينما داود ذات يوم في محرابه إذ تسور عليه الخصمان من قبل وجهه، فلما رآهما وهو يقرأ فزع وسكت، وقال: لقد استضفت في ملكي حتى إن الناس يتسورون علي محرابي! قالا له: لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض، ولم يكن لنا بد من أن نأتيك فاسمع منا، قال أحدهما: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً﴾ أنثى ﴿وَلِىَ نَعۡجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا﴾ يريد أن يتمم بها مئة، ويتركني ليس لي شيء ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلۡخِطَابِ﴾ قال: إن دعوت ودعا كان أكثر، وإن بطشت وبطش كان أشد مني، فذلك قوله: ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلۡخِطَابِ﴾ قال له داود: أنت كنت أحوج إلى نعجتك منه ﴿قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ إلى قوله: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمۡ﴾ ونسي نفسه ﷺ، فنظر الملكان أحدهما إلى الآخر حين قال ذلك فتبسم أحدهما إلى الآخر فرآه داود وظن أنما فتن ﴿فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ أربعين ليلة حتى نبت الخضرة من دموع عينيه ثم شدد له ملكه»[1].

٥ـ عن أسباط عن السدي في قوله: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ﴿٢١﴾﴾ قال: كان داود قد قسم الدهر ثلاثة أيام: يوم يقضي فيه بين الناس، ويوم يخلو فيه لعبادة ربه، ويوم يخلو فيه لنسائه، وكان له تسع وتسعون امرأة، وكان فيما يُقرأ من الكتب أنه كان يجد فيه فضل إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، فلما وجد ذلك فيما يُقرأ من الكتب قال: يا رب، إن الخير كله قد ذهب به آبائي الذين كانوا قبلي فأعطني مثل ما أعطيتهم، وافعل بي مثل ما فعلت بهم، قال: فأوحى إليه: إن آباءك ابتلوا ببلايا لم تبتلَ بها، ابتُلي إبراهيم بذبح

---

(١) **إسناده ضعيف جدًا.** قال ابن جرير تفسيره ٢٣/ ١٤٦، ١٤٧: «حدثني محمد بن سعد قال: ثني أبي قال: ثني عمي قال: ثني أبي عن أبيه. وسنده مسلسل بالمجاهيل والضعفاء كما تقدم.

ابنه، وابتلي إسحاق بذهاب بصره، وابتلي يعقوب بحزنه على يوسف، وإنك لم تبتل من ذلك بشيء، قال: يا رب، ابتلني بمثل ما ابتليتهم به، وأعطني مثل ما أعطيتهم، قال: فأوحي إليه: إنك مبتلى فاحترس، قال: فمكث بعد ذلك ما شاء أن يمكث إذ جاءه الشيطان قد تمثل في صورة حمامة من ذهب حتى وقع عند رجليه وهو قائم يصلي فمد يده ليأخذه فتنحى، فتبعه فتباعد، حتى وقع في كوة، فذهب ليأخذه فطار من الكوة فنظر أين يطير فيبعث في أثره قال: فأبصر امرأة تغتسل على سطح لها فرأى امرأة من أجمل الناس خلقًا، فحانت منها التفاتة فأبصرته فألقت شعرها فاستترت به قال: فزاده ذلك فيها رغبة قال: فسأل عنها فأخبر أن لها زوجًا، وأن زوجها غائب بمسلحة كذا وكذا قال: فبعث إلى صاحب المسلحة أن يبعث أوريا إلى عدو كذا وكذا، قال: فبعثه ففتح له، قال: وكتب إليه بذلك، قال: فكتب إليه أيضًا: أن ابعثه إلى عدو كذا وكذا؛ أشد منهم بأسًا، قال: فبعثه ففتح له أيضا قال: فكتب إلى داود بذلك قال: فكتب إليه أن ابعثه إلى عدو كذا وكذا، فبعثه فقتل المرة الثالثة، قال: وتزوج امرأته، قال: فلما دخلت عليه قال: لم تلبث عنده إلا يسيرًا حتى بعث ملكين في صورة إنسيين، فطلبا أن يدخلا عليه، فوجداه في يوم عبادته فمنعهما الحرس أن يدخلا، فتسوروا عليه المحراب، قال: فما شعر وهو يصلي إذ هو بهما بين يديه جالسين، قال: ففزع منهما فقالا: ﴿لَا تَخَفْ﴾ إنما نحن ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ يقول: لا تخف، ﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ إلى عدل القضاء، قال: فقال: قصا عليّ قصتكما، فقال أحدهما: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ فهو يريد أن يأخذ نعجتي فيكمل بها نعاجه مائةً، قال: فقال للآخر: ما تقول؟ فقال: إن لي تسعًا وتسعين نعجة، ولأخي هذا نعجة واحدة، فأنا أريد أن آخذها منه فأكمل بها نعاجي مائة، قال: وهو كاره؟ قال: وهو كاره، قال إذن لا ندعك وذاك، قال: ما أنت على ذلك بقادر، قال: فإن ذهبت تروم ذلك أو تريد ضربنا منك هذا وهذا وهذا. وفسر أسباط طرف الأنف وأصل الأنف والجبهة، قال: يا داود أنت أحق أن يضرب منك هذا وهذا وهذا، حيث لك تسع وتسعون نعجة (امرأة)، ولم يكن لأوريا إلا امرأة واحدة، فلم تزل

به تعرضه للقتل حتى قتلته، وتزوجت امرأته، قال: فنظر فلم يرَ شيئًا فعرف ما قد وقع فيه، وما قد ابتلي به، قال: فخر ساجدًا، قال: فبكى، قال: فمكث يبكي ساجدًا أربعين يومًا لا يرفع رأسه إلا لحاجة منها، ثم يقع ساجدًا يبكي، ثم يدعو حتى نبت العشب من دموع عينيه، قال: فأوحى إليه بعد أربعين يومًا: يا داود، ارفع رأسك فقد غفرت لك، فقال: يا رب كيف أعلم أنك قد غفرت لي وأنت حكم عدل لا تحيف في القضاء إذا جاءك أوريا يوم القيامة آخذا رأسه بيمينه أو بشماله تشخب أوداجه دمًا في قبل عرشك يقول: يا رب، سل هذا فيم قتلني؟ قال: فأوحى إليه: إذا كان ذلك دعوت أهريا فاستوهبك منه فيهبك لي فأثيبه بذلك الجنة قال: رب الآن علمت أنك قد غفرت لي» قال: فما استطاع أن يملأ عينيه من السماء حياءً من ربه حتى قُبض ﷺ»(١).

٦ـ عن الحسن: «أن داود جزَّأ الدهر أربعة أجزاء: يومًا لنسائه، ويومًا لعبادته، ويومًا لقضاء بني إسرائيل، ويومًا لبني إسرائيل يذاكرهم ويذاكرونه ويبكيهم ويبكونه، فلما كان يوم بني إسرائيل قال: ذاكروا فقالوا: هل يأتي على الإنسان يوم لا يصيب فيه ذنبًا؟ فأضمر داود في نفسه أنه سيطيق ذلك، فلما كان يوم عبادته أغلق أبوابه، وأمر أن لا يدخل عليه أحد، وأكب على التوراة، فبينما هو يقرؤها فإذا حمامة من ذهب فيها من كل لون حسن، قد وقعت بين يديه فأهوى إليها ليأخذها، قال: فطارت فوقعت غير بعيد من غير أن تؤيسه من نفسها، قال: فما زال يتبعها حتى أشرف على امرأة تغتسل، فأعجبه خلقها وحسنها، قال: فلما رأت ظله في الأرض جللت نفسها بشعرها، فزاده ذلك أيضا إعجابًا بها، وكان قد بعث زوجها على بعض جيوشه، فكتب إليه أن يسير إلى مكان كذا وكذا، مكان إذا سار

---

(١) **إسناده ضعيف**. من طريق السدي، وهو مرسل من مراسيله، ومراسيله واهية، وقد أخرجه ابن جرير في تفسيره ٢٣/ ١٤٧، وفي تاريخه ١/ ٢٨٣، والحاكم في المستدرك ٣/ ٤٩٥ من طريق أسباط عن السدي.

وفيه: ١ـ السدي: هو إسماعيل بن عبد الرحمن. سئل أبو زرعة عن إسماعيل السدي فقال: لين. الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٢/ ١٨٥. قال الذهبي: حسن الحديث. . قال أبو حاتم: لا يحتج به. . الكاشف ١/ ١٢٥. وقال ابن حجر: صدوق يهم، و رمى بالتشيع. التقريب ١/ ٥٢.

٢ـ أسباط: هوا بن نصر الهمداني. قال ابن حجر: صدوق، كثير الخطأ، يغرب. التقريب١/ ٤٠.

إليه لم يرجع، قال: ففعل فأصيب فخطبها فزوجها - قال: وقال قتادة: بلغنا أنها أم سليمان- قال: فبينما هو في المحراب إذ تسور الملكان عليه، وكان الخصمان إذا أتوه يأتونه من باب المحراب، ففزع منهم حين تسوروا المحراب، فقالوا: ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ حتى بلغ: ﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾ أي: لا تمل، ﴿وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ أي: أعدله وخيره، ﴿إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ -وكان لداود تسع وتسعون إمرأة- ﴿وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ - قال: وإنما كان للرجل امرأة واحدة- ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ أي: ظلمني وقهرني، فقال: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُودُ﴾ فعلم داود أنما صمد له؛ أي: عني به ذلك، ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾، قال: وكان في حديث مطر أنه سجد أربعين ليلة، حتى أوحى إليه: إني قد غفرت لك، قال: رب وكيف تغفر لي وأنت حكم عدل لا تظلم أحدًا؟ قال: إني أقضيك له، ثم أستوهبه دمك أو ذنبك، ثم أثيبه حتى يرضى، قال: الآن طابت نفسي وعلمت أنك قد غفرت لي»[1].

٨ـ قال الحاكم: أخبرنا إسماعيل بن محمد الفقيه بالري، ثنا أبو حاتم محمد بن إدريس، أنبأ سليمان بن داود الهاشمي، ثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن موسى بن عقبة، عن كريب، عن ابن عباس - رضي عنهما- قال: « ما أصاب داود ما أصابه بعد القدر إلا من عجبٍ عجب به من نفسه، وذلك أنه قال: يا رب ما من ساعة من ليل ولا نهار إلا وعابد من آل داود يعبدك يصلي لك، أو يسبح، أو يكبر وذكر أشياء، فكره ذلك، فقال: «يا داود

---

(١) أخرجها ابن جرير في تفسيره ٢٣/ ١٤٧، ١٤٨، وتاريخه ١/ ٢٨٣. والثعالبي في تفسيره ١١/ ٣٦٦ من طريق سعيد عن مطر به.

وفيه: ١- مطر الوراق: صدوق كثير الخطأ؛ قاله الحافظ في التقريب ٢/ ٥٨٧.

٢- سعيد: هو ابن أبي عروبة؛ قال الذهبي: قال أبو حاتم: هو قبل أن يختلط ثقة؛ الكاشف ١/ ٣٦٨. وقال الحافظ: كثير التدليس، و اختلط؛ التقريب١/ ٢١٠، وأخرجه عبد الرزاق (في تفسيره٣/ ١١٤) عن معمر، عن عمرو بن عبيد به. وإسناده ضعيف جدًا. عمرو متروك الحديث. وأخرجه ابن المبارك (في الزهد ٤٧٢) عن جرير بن حازم به، وجرير قال عنه الذهبي: ثقة، لما اختلط حجبه ولده؛ الكاشف ١/ ١٨١.

وقال الحافظ: له أوهام إذا حدث مِنْ حفظه؛ التقريب ١/ ٨٧.

إن ذلك لم يكن إلا بي فلولا عوني ما قويت عليه، وجلالي لأكلنك إلى نفسك يومًا، قال: « يا رب فأخبرني به»، فأصابته الفتنة ذلك اليوم»[١].

٩ـ عن محمد بن إسحاق، عن بعض أهل العلم، عن وهب بن منبه اليماني قال: لما اجتمعت بنو إسرائيل على داود أنزل عليه الزبور وعلمه صنعة الحديد فألانه له، وأمر الجبال والطير أن يسبحن معه إذا سبح، ولم يعط فيما يذكرون أحدًا من خلقه مثل صوته، كان إذا قرأ الزبور فيما يذكرون تدنو له الوحوش حتى يأخذ بأعناقها، وإنها لمصيخة تسمع لصوته، وما صنعت الشياطين المزامير والبرابط والصنوج إلا على أصناف صوته، وكان شديد الاجتهاد دائب العبادة، فأقام في بني إسرائيل يحكم فيهم بأمر مستخلفًا، وكان شديد الاجتهاد من الأنبياء كثير البكاء، ثم عرض من فتنة تلك المرأة ما عرض له، وكان له محراب يتوحد فيه لتلاوة الزبور ولصلاته إذا صلى، وكان أسفل منه جنينة لرجل من بني إسرائيل، كان عند ذلك الرجل المرأة التي أصاب داود فيها ما أصابه»[٢].

---

(١) **اسناده ضعيف**. المستدرك ٢/ ٤٣٣، ومن طريقة البيهقي في شعب الايمان٥/ ٤٥٣.

وفيه: ١ - موسى بن عقبة، أبو محمد المدنى. وصفه الدارقطني بالتدليس أشار إلى ذلك الاسماعيلي.

٢- عبد الرحمن بن أبى الزناد. قال الذهبي: قال أبو حاتم و غيره: لا يحتج به؛ الكاشف ١/ ١٦٤. وقال ابن حجر: صدوق تغير حفظه لما قدم بغداد، و كان فقيهًا؛ التقريب ١/ ٣٣٥. وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

وقال شيخ الاسلام: «وَمَعْلُومٌ أَنَّ فِي " كُتُبِ التَّفْسِيرِ" مِنْ النَّقْلِ عَنْ ابْنِ أبي الزناد شَيْئًا كَثِيرًا مِنْ رِوَايَةِ الْكَلْبِيِّ عَنْ أَبِي صَالِحٍ وَغَيْرِهِ، فَلَا بُدَّ مِنْ تَصْحِيحِ النَّقْلِ لِتَقُومَ الْحُجَّةُ؛ فَلْيُرَاجَعْ " كُتُبُ التَّفْسِيرِ " الَّتِي يُحَرَّرُ فِيهَا النَّقْلُ مِثْلُ: تَفْسِيرِ مُحَمَّدِ بْنِ جَرِيرٍ الطبري الَّذِي يَنْقُلُ فِيهِ كَلَامَ السَّلَفِ بِالْإِسْنَادِ، وَلْيُعْرَضْ عَنْ تَفْسِيرِ مُقَاتِلٍ وَالْكَلْبِيِّ، وَقَبْلَهُ تَفْسِيرُ بقي بْنِ مخلد الْأَنْدَلُسِيِّ، وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ إبْرَاهِيمَ دحيم الشَّامِيِّ، وَعَبْدِ بْنِ حميد الكشي وَغَيْرِهِمْ، إنْ لَمْ يَصْعَدْ إلَى تَفْسِيرِ الْإِمَامِ إسْحَاقَ بْنِ راهويه، وَتَفْسِيرِ الْإِمَامِ أَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ، وَغَيْرِهِمَا مِنْ الْأَئِمَّةِ الَّذِينَ هُمْ أَعْلَمُ أَهْلِ الْأَرْضِ بِالتَّفَاسِيرِ الصَّحِيحَةِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ وَآثَارِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، كَمَا هُمْ أَعْلَمُ النَّاسِ بِحَدِيثِ النَّبِيِّ ﷺ وَآثَارِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ فِي الْأُصُولِ وَالْفُرُوعِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْعُلُومِ. مجموع الفتاوي٢/ ٥٢.

(٢) **إسناده ضعيف**. أخرجه ابن جرير (في تفسيره ٢٣/ ١٤٩، ١٥٠) حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، قال: ثني محمد بن إسحاق به. الراوي عن وهب بن منبه مجهول، ومحمد بن إسحاق مدلس وقد عنعن.

١٠- حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة، عن محمد بن إسحاق، عن بعض أهل العلم، عن وهب بن منبه: أن داود حين دخل محرابه ذلك اليوم قال: لا يدخلن علي محرابي اليوم أحد حتى الليل، ولا يشغلني شيء عما خلوت له، حتى أمسـي، ودخل محرابه ونشر زبوره يقرؤه، وفي المحراب كوة تطلعه على تلك الجنينة، فبينا هو جالس يقرأ زبوره إذ أقبلت حمامة من ذهب حتى وقعت في الكوة، فرفع رأسه فرآها فأعجبته، ثم ذكر ما كان، قال: لا يشغله شيء عما دخل له فنكس رأسه، وأقبل على زبوره، فتصوبت الحمامة للبلاء والاختبار من الكوه، فوقعت بين يديه فتناولها بيده، فاستأخرت غير بعيد فاتبعها فنهضت إلى الكوة، فتناولها في الكوة فتصوبت إلى الجنينة، فأتبعها بصره أين تقع؟ فإذا المرأة جالسة تغتسل بهيئة أعلم بها في الجمال والحسن والخلق، فيزعمون أنها لما وأته نقضت رأسها فوارت به جسدها منه، واختطفت قلبه ورجع إلى زبوره ومجلسه، وهي من شأنه لا يفارق قلبه ذكرها، وتمادى به البلاء حتى أغزى زوجها، ثم أمر صاحب جيشه فيما يزعم أهل الكتاب أن يقدم زوجها للمهالك، حتى أصابه بعض ما أراد به من الهلاك ولداود تسع وتسعون إمرأة، فلما أصيب زوجها خطبها داود فنكحها، فبعث إليه وهو في محرابه ملكين يختصمان إليه مثلًا يضربه له ولصاحبه، فلم يَرُعْ داود إلا بهما واقفين على رأسه في محرابه، فقال: ما أدخلكما عليّ؟ قالا: لا تخف، لم ندخل لبأس ولا لريبة، ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، فجئناك لتقضي بيننا ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ أي: احملنا على الحق ولا تخالف بنا إلى غيره، قال الملك الذي يتكلم عن أوريا بن حنانيا زوج المرأة: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى﴾ أي: على ديني ﴿لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ أي: احملني عليها ثم ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ أي: قهرني في الخطاب وكان أقوى مني هو وأعز؛ فحاز نعجتي إلى نعاجه وتركني لا شيء لي فغضب داود فنظر إلى خصمه الذي لم يتكلم فقال: لئن كان صدقني ما يقول لأضربن بين عينيك بالفأس، ثم ارعوى داود فعرف أنه هو الذي يراد بما صنع في امرأة أوريا، فوقع ساجدًا تائبًا منيبًا باكيًا فسجد أربعين صباحًا صائمًا لا يأكل فيها ولا يشرب حتى أنبت دمعه الخضر تحت وجهه وحتى أندب السجود في لحم

وجهه، فتاب عليه وقبل منه، ويزعمون أنه قال: أي رب هذا غفرت ما جنيت في شأن المرأة، فكيف بدم القتيل المظلوم؟ قيل: يا داود - فيما زعم أهل الكتاب- إن ربك لم يظلمه بدمه ولكنه سيسأله فيعطيه فيضعه عنك فلما فرج عن داود ما كان فيه رسم خطيئته في كفه اليمنى بطن راحته فما رفع إلى فيه طعاما ولا شرابا قط إلا بكى إذا رآها، وما قام خطيبًا في الناس قط إلا نشر راحته فاستقبل بها الناس ليروا رسم خطيئته في يده». (١)

الوجه الثاني: تفسير الآيات.

قال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ (٢٥) يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ (ص: ٢١- ٢٦).

قال كثير من المفسرين إن الخصم كانوا ملكين وفزع منهم لدخولهما عليه من غير الباب الذي كان المدخل عليه، وقيل لأنهما دخلا ليلًا في غير وقت نظره بين الناس(٢).

وحديث أنس هذا أخرجه الطبري أن النبي ﷺ قال: **"إِنَّ دَاوُدَ النَّبِيَّ ﷺ حِينَ نَظَرَ إِلَى المَرْأَةِ فَأَهَمَّ قَطَعَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَأَوْصَى صَاحِبَ البَعْثِ، فَقَالَ: إِذَا حَضَرَ العَدُوُّ، فَقَرِّبْ فُلَانًا بَيْنَ**

---

(١) **ضعيف جدًا.** أخرجه ابن جرير في تفسيره ٢٣/ ١٥١، ١٥٠.

حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة، عن محمد بن إسحاق به. الراوي عن وهب بن منبه مجهول، ومحمد بن إسحاق مدلس وقد عنعن وابن حميد ضعيف.

وقال شيخ الإسلام: «وَهَذِهِ الْكُتُبُ الَّتِي يُسَمِّيهَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ " كُتُبَ التَّفْسِيرِ " فِيهَا كَثِيرٌ مِنْ التَّفْسِيرِ مَنْقُولَاتٌ عَنْ السَّلَفِ مَكْذُوبَةٌ عَلَيْهِمْ، وَقَوْلٌ عَلَى وَرَسُولِهِ بِالرَّأْيِ الْمُجَرَّدِ». مجموع الفتاوي٢/ ٥٢. وانظر: بحث (الإسرائيليات في التفسير) لمعرفة مدى الحكم على هذه الروايات.

(٢) تفسير الطبري (٢٣/ ١٤١).

يَدَيِ التَّابُوتِ، وَكَانَ التَّابُوتُ فِي ذَلِكَ الزَّمانِ يُسْتَنْصَرُ بِهِ، وَمَنْ قُدِّمَ بَيْنَ يَدَيِ التَّابُوتِ لَمْ يَرْجِعْ حَتَّى يُقْتَلَ أَوْ يُهْزَمَ عَنْهُ الجَيْشُ، فَقُتِلَ زَوْجُ المَرْأَةِ، وَنزلَ المَلَكَانِ عَلى دَاوُدَ يَقُصَّانِ عَلَيْهِ قِصَّتَهُ، فَفَطِنَ دَاوُدُ فَسَجَدَ، فَمَكَثَ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً سَاجِدًا حَتَّى نَبَتَ الزَّرْعُ مِنْ دُمُوعِهِ... "[1].

وهذا لا يصح من طريق النقل، ولا يجوز من حيث المعنى؛ لأن الأنبياء منزَّهون، وهم لا يأتون المعاصي مع العلم[2].

وقال في البحر المحيط: وذكر المفسرون في هذه القصة أشياء لا تناسب مناصب الأنبياء ضربنا عن ذكرها صفحًا[3].

وقال البقاعي: تلك القصة وأمثالها من كذب اليهود، وأخبرني بعض من أسلم منهم أنهم يتعمدون ذلك في حق داود عليه السلام؛ لأن عيسى عليه السلام من ذريته ليجدوا السبيل إلى الطعن فيه[4].

وقال ابن عاشور: واعلم أن سوق هذا النبأ عقب التنويه بداود عليه السلام ليس إلا تتميمًا للتنويه به لدفع مَا قد يُتوهم أنه ينقض ما ذكر من فضائله مما جاء في كتاب «صمويل الثاني» من كتب اليهود في ذكر هذه القصة من أغلاط باطلة تنافي مقام النبوءة فأريد بيان المقدار الصادق منها وتذييله بأن ما صدر عن داود عليه السلام يستوجب العتاب ولا يقتضي العقاب ولذلك ختمت بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ۝٤٠﴾ (ص: ٤٠)[5].

وقال السعدي: وهذا الذنب الذي صدر من داود عليه السلام لم يذكره الله لعدم الحاجة إلى ذكره، فالتعرض له من باب التكلف، وإنما الفائدة ما قصه الله علينا من لطفه به وتوبته وإنابته، وأنه ارتفع محله، فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها[6].

---

(١) تفسير الطبري (٢٣/ ١٥٠)، وقد سبق الحكم عليه

(٢) زاد المسير (٧/ ١١٥)، راجع بحث عصمة الأنبياء.

(٣) البحر المحيط (٧/ ٣٧٥).

(٤) تفسير البقاعي (٦/ ٣٧٦).

(٥) تفسير ابن عاشور (٢٣/ ٢٣٧).

(٦) تفسير السعدي (٧١٢).

وقال الشنقيطي: واعلم أن ما يذكره كثير من المفسرين في تفسير هذه الآية الكريمة مما لا يليق بمنصب داود - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- كله راجع إلى الإسرائيليات، فلا ثقة به، ولا معوّل عليه[١].

قال الرازي: وأقول للناس في هذه القصة ثلاثة أقوال أحدها: ذكر هذه القصة على وجه يدل على صدور الكبيرة عنه. وثانيها: دلالتها على الصغيرة. وثالثها: بحيث لا تدل على الكبيرة ولا على الصغيرة.

فأما القول الأول: فحاصل كلامهم فيها أن داود عشق امرأة أوريا، فاحتال بالوجوه الكثيرة حتى قتل زوجها ثم تزوج بها فأرسل الله إليه ملكين في صورة المتخاصمين في واقعة شبيهة بواقعته، وعرضا تلك الواقعة عليه، فحكم داود بحكم لزم منه اعترافه بكونه مذنبًا، ثم تنبه لذلك فاشتغل بالتوبة[٢].

والذي أدين به وأذهب إليه أن ذلك باطل ويدل عليه وجوه:

الأول: أن هذه الحكاية لو نسبت إلى أفسق الناس وأشدهم فجورًا لاستنكف منها، والرجل الذي يقرر تلك القصة لو نسب إلى مثل هذا العمل لبالغ في تنزيه نفسه، وربما لعن من ينسبه إليها، وإذا كان الأمر كذلك فكيف يليق بالعاقل نسبة المعصوم إليه؟

الثاني: أن حاصل القصة يرجع إلى أمرين إلى السعي في قتل رجل مسلم بغير حق وإلى الطمع في زوجته؛ أما الأول: فأمر منكر، قال ﷺ: "من سعى في دم مسلم ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوبًا بين عينيه: آيسٌ من رحمة الله"[٣].

وأما الثاني: فمنكر عظيم قال ﷺ: "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده"[٤]، وإن أوريا لم يسلم من داود لا في روحه ولا في منكوحه.

---

(١) أضواء البيان (٧/ ٢٤).

(٢) وقد نسب مثل هذا الكلام الكتابُ المقدسُ لنبي الله داود كما ستعرف في الوجه الأخير.

(٣) **ضعيف**. أخرجه ابن ماجه (٢٦٢٠)، الضعفاء للعقيلي (٤/ ١٤٩٠)، البيهقي في الكبرى (٨/ ٢٢)، وضعّف الحديث: أبو حاتم وأحمد وابن حبان، وغيرهم، انظر الضعيفة للألباني (٥٠٣).

(٤) أخرجه البخاري (١١، ١٠)، مسلم (٤٢، ٤١، ٤٠).

والثالث: أن الله تعالى وصف داود ﷺ قبل ذكر هذه القصة بالصفات العشرة المذكورة، ووصفه أيضًا بصفات كثيرة بعد ذكر هذه القصة، وكل هذه الصفات تنافي كونه ﷺ موصوفًا بهذا الفعل المنكر والعمل القبيح، ولا بأس بإعادة هذه الصفات لأجل المبالغة في البيان.

فنقول أما **الصفات الأولى**: فهي أنه تعالى أمر محمدًا ﷺ بأن يقتدي بداود في المصابرة مع المكابدة، ولو قلنا إن داود لم يصبر على مخالفة النفس بل سعى في إراقة دم امرىء مسلم لغرض شهوته فكيف يليق بأحكم الحاكمين أن يأمر محمدًا أفضل الرسل بأن يقتدي بداود في الصبر على طاعة الله.

وأما الصفة الثانية: فهي أن وصفه بكونه عبدًا له، وقد بينا أن المقصود من هذا الوصف بيان كون ذلك الموصوف كاملًا في موقف العبودية تامًا في القيام بأداء الطاعات والاحتراز عن المحظورات، ولو قلنا إن داود ﷺ اشتغل بتلك الأعمال الباطلة، فحينئذٍ ما كان داود كاملًا في عبوديته لله تعالى بل كان كاملًا في طاعة الهوى والشهوة.

الصفة الثالثة: هو قوله: ﴿ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ (ص: ١٧) أي: ذا القوة، ولا شك أن المراد منه القوة في الدين، لأن القوة في غير الدين كانت موجودة في ملوك الكفار، ولا معنى للقوة في الدين إلا القوة الكاملة على أداء الواجبات، والاجتناب عن المحظورات، وأي قوة لمن لم يملك نفسه عن القتل والرغبة في زوجة المسلم؟

الصفة الرابعة: كونه أوابًا كثير الرجوع إلى الله تعالى، وكيف يليق هذا بمن يكون قلبه مشغوفًا بالقتل والفجور؟

الصفة الخامسة: قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ﴾ (ص: ١٨) أَفَتُرَى أنه سُخرت له الجبال ليتخذها وسيلة إلى القتل والفجور؟!

الصفة السادسة: قوله: ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ (ص: ١٩)، وقيل إنه كان مُحرمًا عليه صيد شيء من الطير وكيف يعقل أن يكون الطير آمنًا منه ولا ينجو منه الرجل المسلم على روحه ومنكوحه؟

الصفة السابعة: قوله: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ ومحال أن يكون المراد أنه تعالى شدد ملكه بأسباب الدنيا، بل المراد أنه تعالى شد ملكه بما يقوي الدين وأسباب سعادة الآخرة، والمراد تشديد ملكه في الدين والدنيا ومن لا يملك نفسه عن القتل والفجور كيف يليق به ذلك؟.

الصفة الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ (ص: ٢٠) والحكمة اسم جامع لكل ما ينبغي علمًا وعملًا، فكيف يجوز أن يقول الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ مع إصراره على ما يستنكف عنه الخبيث الشيطان من مزاحمة أخلص أصحابه في الروح والمنكوح، فهذه الصفات المذكورة قبل شرح تلك القصة دالة على براءة ساحته عن تلك الأكاذيب.

وأما الصفات المذكورة بعد ذكر القصة فهي عشر:

الأولى: قوله: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ وذكر هذا الكلام إنما يناسب لو دلت القصة المتقدمة على قوته في طاعة الله، أما لو كانت القصة المتقدمة دالة على سعيه في القتل والفجور لم يكن قوله: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ لائقًا به.

الثانية: قوله تعالى: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وهذا يدل على كذب تلك القصة من وجوه: أحدها: أن الملك الكبير إذا حكى عن بعض عبيده أنه قصد دماء الناس وأموالهم وأزواجهم فبعد فراغه من شرح القصة على ملأ من الناس يقبح منه أن يقول عقيبه: أيها العبد إني فوضت إليك خلافتي ونيابتي، وذلك لأن ذكر تلك القبائح والأفعال المنكرة يناسب الزجر والحجر.

الثالثة: وهو أنه لما كانت مقدمة الآية دالة على مدح داود عليه السلام وتعظيمه ومؤخرتها أيضًا دالة على ذلك، فلو كانت الواسطة دالة على القبائح والمعائب لجرى مجرى أن يقال: فلان عظيم الدرجة عالي المرتبة في طاعة الله يقتل ويزني ويسرق وقد جعله الله خليفة في أرضه وصوب أحكامه، وكما أن هذا الكلام مما لا يليق بالعاقل فكذا ههنا، ومن المعلوم أن ذكر العشق والسعي في القتل من أعظم أبواب العيوب.

والرابعة: وهو أن القائلين بهذا القول ذكروا في هذه الرواية أن داود عليه السلام تمنى أن يحصل له في الدين كما حصل للأنبياء المتقدمين من المنازل العالية مثل ما حصل للخليل من الإلقاء في

النار، وحصل للذبيح من الذبح، وحصل ليعقوب من الشدائد الموجبة لكثرة الثواب، فأوحى الله إليه أنهم إنما وجدوا تلك الدرجات لأنهم لما ابتلوا صبروا فعند ذلك سأل داود عليه السلام الابتلاء، فأوحى الله إليه أنك ستبلى في يوم كذا فبالغ في الاحتزاز ثم وقعت الواقعة.

فنقول: أول حكايتهم يدل على أن الله تعالى يبتليه بالبلاء الذي يزيد في منقبته ويكمل مراتب إخلاصه فالسعي في قتل أول حكايتهم يدل على أن الله تعالى يبتليه بالبلاء الذي يزيد في منقبته ويكمل مراتب إخلاصه فالسعي في قتل النفس بغير الحق والإفراط في العشق كيف يليق بهذه الحالة، ويثبت أن الحكاية التي ذكروها يناقض أولها آخرها.

الخامسة: أن داود عليه السلام قال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ استثنى الذين آمنوا عن البغي، فلو قلنا إنه كان موصوفًا بالبغي لزم أن يقال إنه حكم بعدم الإيمان على نفسه وذلك باطل.

السادسة: حضرت في بعض المجالس وحضر فيه بعض أكابر الملوك، وكان يريد أن يتعصب لتقرير ذلك القول الفاسد والقصة الخبيثة لسبب اقتضى ذلك، فقلت له: لا شك أن داود عليه السلام كان من أكابر الأنبياء والرسل، ولقد قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ (الأنعام: ١٢٤) ومن مدحه الله تعالى بمثل هذا المدح العظيم لم يجز لنا أن نبالغ الطعن فيه، وأيضًا فبتقدير أنه ما كان نبيًا فلا شك أنه كان مسلمًا، ثم على تقدير أنا لا نلتفت إلى شيء من هذه الدلائل إلا أنا نقول: إن من المعلوم بالضرورة أن بتقدير أن تكون القصة التي ذكرتموها حقيقية صحيحة فإن روايتها وذكرها لا يوجب شيئًا من الثواب؛ لأن إشاعة الفاحشة إن لم توجب العقاب فلا أقل من أن لا توجب الثواب، وأما بتقدير أن تكون هذه القصة باطلة فاسدة فإن ذاكرها يستحق أعظم العقاب والواقعة التي هذا شأنها وصفتها، فإن صريح العقل يوجب السكوت عنها فثبت أن الحق ما ذهبنا إليه، وأن شرح تلك القصة محرم محظور فلما سمع ذلك الملك هذا الكلام سكت، ولم يذكر شيئًا.

السابعة: أن ذكر هذه القصة وذكر قصة يوسف عليه السلام يقتضي إشاعة الفاحشة فوجب أن يكون محرمًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ (النور: ١٩).

الثامنة: لو سعى داود في قتل ذلك الرجل لدخل تحت قوله: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

أما الاحتمال الثاني -على تقدير حدوثه -: وهو أن تحمل هذه القصة على وجه يوجب حصول الصغيرة ولا يوجب حصول الكبيرة، فنقول في كيفية هذه القصة على هذا التقدير وجوه: الأول: أن هذه المرأة خطبها أوريا فأجابوه ثم خطبها داود فآثره أهلها، فكان ذنبه أن خطب على خطبة أخيه المؤمن مع كثرة نسائه.

الثاني: قالوا إنه وقع بصره عليها فمال قلبه إليها وليس له في هذا ذنب ألبتة، أما وقوع بصره عليها من غير قصد فذلك ليس بذنب، وأما حصول الميل عقيب النظر فليس أيضًا ذنبًا لأن هذا الميل ليس في وسعه، فلا يكون مكلفًا به بل لما اتفق أن قتل زوجها لم يتأذ تأذيًا عظيمًا بسبب قتله لأجل أنه طمع أن يتزوج بتلك المرأة فحصلت الزلة بسبب هذا المعنى وهو أنه لم يشق عليه قتل ذلك الرجل.

والثالث: أنه كان أهل زمان داود ﷺ يسأل بعضهم بعضًا أن يطلق امرأته حتى يتزوجها وكانت عادتهم في هذا المعنى مألوفة معروفة، أو أن الأنصار كانوا يساوون المهاجرين بهذا المعنى، فاتفق أن عين داود ﷺ وقعت على تلك المرأة فأحبها فسأله النزول عنها فاستحيا أن يرده ففعل وهي أم سليمان، فقيل له: هذا وإن كان جائزًا في ظاهر الشريعة، إلا أنه لا يليق بك، فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين، فهذه وجوه ثلاثة لو حملنا هذه القصة على واحد منها لم يلزم في حق داود ﷺ إلا ترك الأفضل والأولى.

فأما جعله نائبًا وخليفة لنفسه فذلك البتة مما لا يليق، وثانيها: أنه ثبت في أصول الفقه أن ذكر الحكم عقيب الوصف يدل على كون ذلك الحكم معللًا بذلك الوصف، فلما حكى الله تعالى عنه تلك الواقعة القبيحة، ثم قال بعده: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أشعر هذا بأن الموجب لتفويض هذه الخلافة هو إتيانه بتلك الأفعال المنكرة؛ ومعلوم أن هذا فاسد، أما لو ذكر تلك القصة على وجوه تدل على براءة ساحته عن المعاصي والذنوب وعلى شدة مصابرته على طاعة الله تعالى فحينئذٍ يناسب أن يذكر عقيبه ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ (ص: ٢٦) فثبت أن هذا الذي نختاره أولى.

والثالث: وهو أنه لما كانت مقدمة الآية دالة على مدح داود ﷺ وتعظيمه ومؤخرتها أيضًا دالة على ذلك، فلو كانت الواسطة دالة على القبائح والمعائب لجرى مجرى أن يقال فلان عظيم الدرجة عالي المرتبة في طاعة الله يقتل ويزني ويسرق وقد جعله الله خليفة في أرضه وصوب أحكامه، وكما أن هذا الكلام مما لا يليق بالعاقل فكذا ههنا، ومن المعلوم أن ذكر العشق والسعي في القتل من أعظم أبواب العيوب[1].

الوجه الثالث: فضل داود ﷺ في القرآن والسنة.

أولًا: في القرآن: قال تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ...﴾ (البقرة: ٢٥١)، وقال سبحانه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾ (الأنعام: ٨٤)، وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ (الإسراء: ٥٥).

وقال عز من قائل: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ (الأنبياء: ٧٩- ٨٠)، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (النمل: ١٥)، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾ (سبأ١١: ١٠)، وقال ﷻ: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ (ص: ١٧- ٢٠)، وقال سبحانه في آخر الآيات: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ (ص: ٢٥- ٢٦).

---

(١) تفسير الرازي (٢٦/ ١٩٣: ١٨٩) بتصرف.

وقد قال ابن كثير رحمه الله في قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ أعانه الله على عمل الدروع من الحديد ليحصن المقاتلة من الأعداء وأرشده إلى صنعتها وكيفيتها، فقال: ﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾ أي: لا تدق المسمار فيفلق ولا تغلظه فيفصم.

قال الحسن البصري وقتادة والأعمش: كان الله قد ألان له الحديد حتى كان يفتله بيده لا يحتاج إلى نار ولا مطرقة[(١)].

وقال ابن كثير: يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله داود - صلوات الله وسلامه عليه- مما آتاه من الفضل المبين، وجمع له بين النبوة والملك المتمكن، والجنود ذوي العَدَد والعُدَد، وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم، الذي كان إذا سبح به تسبح معه الجبال الراسيات، الصم الشامخات، وتقف له الطيور السارحات، والغاديات والرائحات، وتجاوبه بأنواع اللغات.

وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ سمع صوت أبي موسى الأشعري يقرأ من الليل، فوقف فاستمع لقراءته، ثم قال: "لقد أوتي هذا مِزْمَارًا من مزامير آل داود"[(٢)(٣)].

فضل داود عليه السلام في السنة.

١- عن عَبْدَ الله بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ لَهُ: **"أَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى الله صَلَاةُ دَاوُدَ عليه السلام، وَأَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى الله صِيَامُ دَاوُدَ، وَكَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَيَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا"**[(٤)].

٢- وعن عَبْدُ الله بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه قَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ: "يَا عَبْدَ الله، أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ النَّهَارَ وَتَقُومُ اللَّيْلَ؟ فَقُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ الله، قَالَ: فَلَا تَفْعَلْ صُمْ وَأَفْطِرْ، وَقُمْ وَنَمْ؛ فَإِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ بِحَسْبِكَ أَنْ تَصُومَ كُلَّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ؛ فَإِنَّ لَكَ بِكُلِّ حَسَنَةٍ عَشْرَ أَمْثَالِهَا، فَإِنَّ ذَلِكَ صِيَامُ الدَّهْرِ كُلِّهِ. فَشَدَّدْتُ فَشُدِّدَ عَلَيَّ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، إِنِّي أَجِدُ قُوَّةً،

---

(١) قصص الأنبياء (٢/ ٢٦٦).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٤٨)، مسلم (٧٩٣).

(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٧١٢).

(٤) أخرجه البخاري (١١٣١).

قَالَ: فَصُمْ صِيَامَ نَبِيِّ اللهِ دَاوُدَ عليه السلام وَلَا تَزِدْ عَلَيْهِ. قُلْتُ: وَمَا كَانَ صِيَامُ نَبِيِّ اللهِ دَاوُدَ عليه السلام؟ قَالَ: نِصْفَ الدَّهْرِ. فَكَانَ عَبْدُ اللهِ يَقُولُ بَعْدَ مَا كَبِرَ: يَا لَيْتَنِي قَبِلْتُ رُخْصَةَ النَّبِيِّ ﷺ"[(١)].

٣- عَنْ الْمِقْدَامِ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: **" مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ وَإِنَّ نَبِيَّ اللهِ دَاوُدَ عليه السلام كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ"**[(٢)].

٤- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "خُفِّفَ عَلَى دَاوُدَ ﷺ الْقُرْآنُ فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَوَابِّهِ فَتُسْرَجُ فَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ قَبْلَ أَنْ تُسْرَجَ دَوَابُّهُ وَلَا يَأْكُلُ إِلَّا مِنْ عَمَلِ يَدِهِ"[(٣)].

وقال ابن حجر: وَفِي الْحَدِيث فَضْل الْعَمَل بِالْيَدِ، وَتَقْدِيم مَا يُبَاشِرهُ الشَّخْص بِنَفْسِهِ عَلَى مَا يُبَاشِرهُ بِغَيْرِهِ، وَالْحِكْمَةُ فِي تَخْصِيصِ دَاوُدَ بِالذِّكْرِ أَنَّ اقْتِصَاره فِي أَكْلِهِ عَلَى مَا يَعْمَلُهُ بِيَدِهِ لَمْ يَكُنْ مِنْ الْحَاجَةِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى، وَإِنَّمَا ابْتَغَى الْأَكْلَ مِنْ طَرِيقِ الْأَفْضَلِ، وَلِهَذَا أَوْرَدَ النَّبِيُّ ﷺ قِصَّتَهُ فِي مَقَام الِاحْتِجَاج بِهَا عَلَى مَا قَدَّمَهُ مِنْ أَنَّ خَيْرَ الْكَسْبِ عَمَلُ الْيَدِ، وَهَذَا بَعْدَ تَقْرِيرِ أَنَّ شَرْعَ مَنْ قَبْلَنَا شَرْعٌ لَنَا، وَلَا سِيَّمَا إِذَا وَرَدَ فِي شَرْعِنَا مَدْحُهُ وَتَحْسِينُهُ مَعَ عُمُوم قَوْله تَعَالَى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ اقْتَدِهْ﴾[(٤)].

الوجه الرابع: داود وسليمان في التوراة والإنجيل.

داود يزني ويقتل، وينجب من الزنا.

جاء في سفر صموئيل الثاني (١١/ ١٧: ٢): وَكَانَ فِي وَقْتِ الْمَسَاءِ أَنَّ دَاوُدَ قَامَ عَنْ سَرِيرِهِ وَتَمَشَّى عَلَى سَطْحِ بَيْتِ الْمَلِكِ، فَرَأَى مِنْ عَلَى السَّطْحِ امْرَأَةً تَسْتَحِمُّ. وَكَانَتِ الْمَرْأَةُ جَمِيلَةَ الْمَنْظَرِ جِدًّا. ٣ فَأَرْسَلَ دَاوُدُ وَسَأَلَ عَنِ الْمَرْأَةِ، فَقَالَ وَاحِدٌ: «أَلَيْسَتْ هذِهِ بَثْشَبَعَ بِنْتَ أَلِيعَامَ امْرَأَةَ أُورِيَّا الْحِثِّيِّ؟ ». ٤ فَأَرْسَلَ دَاوُدُ رُسُلًا وَأَخَذَهَا، فَدَخَلَتْ إِلَيْهِ، فَاضْطَجَعَ مَعَهَا وَهِيَ مُطَهَّرَةٌ مِنْ طَمْثِهَا. ثُمَّ رَجَعَتْ إِلَى بَيْتِهَا. ٥ وَحَبِلَتِ الْمَرْأَةُ، فَأَرْسَلَتْ وَأَخْبَرَتْ دَاوُدَ وَقَالَتْ: «إِنِّي حُبْلَى». ٦ فَأَرْسَلَ دَاوُدُ إِلَى يُوآبَ يَقُولُ: «أَرْسِلْ إِلَيَّ أُورِيَّا الْحِثِّيَّ». فَأَرْسَلَ

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٧٥)، مسلم (١١٥٩).

(٢) أخرجه البخاري (٢٠٧٢).

(٣) أخرجه البخاري (٣٤١٧).

(٤) فتح الباري (٤/ ٣٥٨).

يُوآبُ أُورِيَّا إِلَى دَاوُدَ. ٧ فَأَتَى أُورِيَّا إِلَيْهِ، فَسَأَلَ دَاوُدُ عَنْ سَلاَمَةِ يُوآبَ وَسَلاَمَةِ الشَّعْبِ وَنَجَاحِ الْحَرْبِ. ٨ وَقَالَ دَاوُدُ لأُورِيَّا: «انْزِلْ إِلَى بَيْتِكَ وَاغْسِلْ رِجْلَيْكَ». فَخَرَجَ أُورِيَّا مِنْ بَيْتِ الْمَلِكِ، وَخَرَجَتْ وَرَاءَهُ حِصَّةٌ مِنْ عِنْدِ الْمَلِكِ. ٩ وَنَامَ أُورِيَّا عَلَى بَابِ بَيْتِ الْمَلِكِ مَعَ جَمِيعِ عَبِيدِ سَيِّدِهِ، وَلَمْ يَنْزِلْ إِلَى بَيْتِهِ. ١٠ فَأَخْبَرُوا دَاوُدَ قَائِلِينَ: «لَمْ يَنْزِلْ أُورِيَّا إِلَى بَيْتِهِ». فَقَالَ دَاوُدُ لأُورِيَّا: «أَمَا جِئْتَ مِنَ السَّفَرِ؟ فَلِمَاذَا لَمْ تَنْزِلْ إِلَى بَيْتِكَ؟ » ١١ فَقَالَ أُورِيَّا لِدَاوُدَ: «إِنَّ التَّابُوتَ وَإِسْرَائِيلَ وَيَهُوذَا سَاكِنُونَ فِي الْخِيَامِ، وَسَيِّدِي يُوآبُ وَعَبِيدُ سَيِّدِي نَازِلُونَ عَلَى وَجْهِ الصَّحْرَاءِ، وَأَنَا آتِي إِلَى بَيْتِي لآكُلَ وَأَشْرَبَ وَأَضْطَجِعَ مَعَ امْرَأَتِي؟ وَحَيَاتِكَ وَحَيَاةِ نَفْسِكَ، لاَ أَفْعَلُ هذَا الأَمْرَ». ١٢ فَقَالَ دَاوُدُ لأُورِيَّا: «أَقِمْ هُنَا الْيَوْمَ أَيْضًا، وَغَدًا أُطْلِقُكَ». فَأَقَامَ أُورِيَّا فِي أُورُشَلِيمَ ذلِكَ الْيَوْمَ وَغَدَهُ. ١٣ وَدَعَاهُ دَاوُدُ فَأَكَلَ أَمَامَهُ وَشَرِبَ وَأَسْكَرَهُ. وَخَرَجَ عِنْدَ الْمَسَاءِ لِيَضْطَجِعَ فِي مَضْجَعِهِ مَعَ عَبِيدِ سَيِّدِهِ، وَإِلَى بَيْتِهِ لَمْ يَنْزِلْ. وَفِي الصَّبَاحِ كَتَبَ دَاوُدُ مَكْتُوبًا إِلَى يُوآبَ وَأَرْسَلَهُ بِيَدِ أُورِيَّا. ١٥ وَكَتَبَ فِي الْمَكْتُوبِ يَقُولُ: «اجْعَلُوا أُورِيَّا فِي وَجْهِ الْحَرْبِ الشَّدِيدَةِ، وَارْجِعُوا مِنْ وَرَائِهِ فَيُضْرَبَ وَيَمُوتَ». ١٦ وَكَانَ فِي مُحَاصَرَةِ يُوآبَ الْمَدِينَةَ أَنَّهُ جَعَلَ أُورِيَّا فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي عَلِمَ أَنَّ رِجَالَ الْبَأْسِ فِيهِ. ١٧ فَخَرَجَ رِجَالُ الْمَدِينَةِ وَحَارَبُوا يُوآبَ، فَسَقَطَ بَعْضُ الشَّعْبِ مِنْ عَبِيدِ دَاوُدَ، وَمَاتَ أُورِيَّا الْحِثِّيُّ أَيْضًا.

وفي صموئيل الثاني (١٢/ ١١: ٩): لِمَاذَا احْتَقَرْتَ كَلاَمَ الرَّبِّ لِتَعْمَلَ الشَّرَّ فِي عَيْنَيْهِ؟ قَدْ قَتَلْتَ أُورِيَّا الْحِثِّيَّ بِالسَّيْفِ، وَأَخَذْتَ امْرَأَتَهُ لَكَ امْرَأَةً، وَإِيَّاهُ قَتَلْتَ بِسَيْفِ بَنِي عَمُّونَ. ١٠ وَالآنَ لاَ يُفَارِقُ السَّيْفُ بَيْتَكَ إِلَى الأَبَدِ، لأَنَّكَ احْتَقَرْتَنِي وَأَخَذْتَ امْرَأَةَ أُورِيَّا الْحِثِّيِّ لِتَكُونَ لَكَ امْرَأَةً. ١١ هكَذَا قَالَ الرَّبُّ: هأَنَذَا أُقِيمُ عَلَيْكَ الشَّرَّ مِنْ بَيْتِكَ، وَآخُذُ نِسَاءَكَ أَمَامَ عَيْنَيْكَ وَأُعْطِيهِنَّ لِقَرِيبِكَ، فَيَضْطَجِعُ مَعَ نِسَائِكَ فِي عَيْنِ هذِهِ الشَّمْسِ.

* * * *

٢ـ شبهة: فتنة سليمان عليه السلام.

نص الشبهة:

ما قولكم في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ ﴾ (ص: ٣٤).

و الجواب من وجوه:

الوجه الأول: أن التوراة الإنجيل محرفان.

الوجه الثاني: لا يجوز احتجاجكم بالقرآن.

الوجه الثالث: أقوال المفسرين في معنى الآيات.

الوجه الرابع: بيان مكانة سليمان عليه السلام في الكتاب والسنة، وفي الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: لا ينبغي أن يحتج بما هو محرف و مبدل.

فالتوراة و الإنجيل لا يحتويان على كلام الله، فلا يجوز الاحتجاج بهما.

الوجه الثاني: لا يجوز للإنسان أن يحتج بما لا يعتقده.

أنتم لا تعتقدون ثبوت القرآن، فكيف تحتجون به؟ [١]

الوجه الثالث: أقوال المفسرين في معنى الآيات.

المسألة الأولى: قال تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣) ﴾ (ص: ٣٠- ٣٣).

وقوله: ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١) ﴾ يقول تعالى ذكره: إنه تواب إلى الله من خطيئته التي أخطأها إذ عرض عليه بالعشـي الصافنات الجياد، والصافنات: جمع الصافن من الخيل، والأنثى: صافنة، والصافن منها عند بعض العرب: الذي يجمع بين يديه، ويثني طرف سنبك إحدى رجليه، وعند آخرين: الذي يجمع يديه[٢].

---

(١) انظر بحث احتجاج النصارى بالقرآن.

(٢) تفسير الطبري (٢٣/ ١٥٤)، وانظر تفسير القرطبي (١٥/ ١٨٤: ١٨٥).

وقوله: ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾ وعنى بالخير في هذا الموضع الخيل، والعرب تسمي الخيل: الخير، والمال أيضًا يسمونه الخير[١].

وقوله: ﴿عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ أي: إني أحببت حب الخير حتى سهوت عن ذكر ربي وأداء فريضته، وقيل: إن ذلك كان صلاة العصر[٢].

وقوله: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾ يقول: حتى توارت الشمس بالحجاب، يعني: تغيبت في مغيبها، وقوله: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ أي: الخيل التي عرضت عليَّ فشغلتني عن الصلاة[٣].

﴿فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ أي: أقبل يمسح سوقها وأعناقها بيده إكرامًا منه لها، وليرى أن الجليل لا يقبح أن يفعل مثل هذا بخيله[٤]. والذي عليه أكثر السلف الأول فقالوا: اشتغل بعرض تلك الخيول حتى خرج وقت العصر وغربت الشمس، والذي يقطع به أنه لم يترك الصلاة عمدًا من غير عذر، اللهم إلا أن يقال: إنه كان سائغًا في شريعتهم فأخر الصلاة لأجل أسباب الجهاد وعرض الخيل من ذلك[٥].

وعلى ما حدث لنبيناﷺ يوم الخندق يُحْمَلُ فعلُ سليمان عليه السلام:

فعن جابرؓ قال: جَاءَ عمرؓ يَوْمَ الْخَنْدَقِ بَعْدَمَا غَرَبَتْ الشَّمْسُ فَجَعَلَ يَسُبُّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ، قَالَ: يَا رَسُولَ الله، مَا كِدْتُ أُصَلِّي الْعَصْرَ حَتَّى كَادَتْ الشَّمْسُ تَغْرُبُ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "والله مَا صَلَّيْتُهَا، فَقُمْنَا إِلَى بُطْحَانَ فَتَوَضَّأَ لِلصَّلَاةِ وَتَوَضَّأْنَا لَهَا، فَصَلَّى الْعَصْرَ بَعْدَ مَا غَرَبَتْ الشَّمْسُ، ثُمَّ صَلَّى بَعْدَهَا الْمَغْرِبَ"[٦].

المسألة الثانية: (ولقد فتنا سليمان).

---

(١) تفسير الطبري (٢٣/ ١٥٤).

(٢) تفسير الطبري (٢٣/ ١٥٥)، وقد جاء في كيفية إشغال الخيل سليمان عليه السلام أخبارٌ كلها متلقاة من الإسرائيليات.

(٣) تفسير الطبري (٢٣/ ١٥٥)، و انظر تفسير القرطبي (١٥/ ١٨٧).

(٤) تفسير القرطبي (١٥/ ١٨٧)، وانظر تفسير البغوي (٢٣/ ٦١)، وقد جاء في هذا أنه قتلها والراجح ماذكرنا عن ابن عباس بإسناد مقبول.

(٥) البداية والنهاية لابن كثير (٢/ ٢٥).

(٦) أخرجه البخاري (٥٩٦)، مسلم (٦٣١).

أولًا: بيان معنى: الفتنة وإطلاقاتها.

الفتنة لغةً: قال الأزهري وغيرُه: جِماعُ معنى الفِتْنة الابتلاء والامْتِحانُ والاختبار، وأَصلها مأْخوذ من قولك: فتَنْتُ الفضة والذهب إِذا أَذبتهما بالنار لتميز الرديء من الجيِّدِ، والفَتْنُ الإِحْراقُ، ومن هذا قوله ﷻ: ﴿ يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ أَي: يُحْرَقون بالنار، ويسمى الصائغ الفَتَّان، وكذلك الشيطان، ومن هذا قيل للحجارة السُّود التي كأَنها أُحْرِقَتْ بالنار: الفَتِينُ، قال ابن الأَعرابي الفِتْنة الاختبار، والفِتْنة المِحْنة والكُفْرُ واختلافُ الناس بالآراء، و الإِحراق بالنار[1].

الفتنة اصطلاحًا: الفتنة ما يتبين به حال الإنسان من الخير و الشر، يقال: فتنت الذهب بالنار إذا أحرقته بها لتعلم أنه خالص أو مشوب، ومنه الفتان: وهو الحجر الذي يجرب به الذهب والفضة[2].

والفتنة ما ينشأ عن الاختلاف في طلب الملك، حيث لا يعلم المحق من المبطل[3].

وهى البَلِيَّة: وهي معاملة تظهر الأمور الباطنة[4].

والفتنة التي وقع فيها سليمان ﷺ هي التي بمعنى الابتلاء و الاختبار قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ ﴾.

ثانيًا: تفسير الآية: أورد الرازي في تفسيره أقوالًا لهذه الآية فقال:

للناس فيه قول، ولأهل العلم والتحقيق قول آخر، أما قول أهل الحشو فذكروا فيه حكايات:

الأولى: قالوا: إن سليمان بلغه خبر مدينة في البحر فخرج إليها بجنوده تحمله الريح فأخذها وقتل ملكها، وأخذ بنتًا له اسمها جرادة من أحسن الناس وجهًا فاصطفاها لنفسه.

والرواية الثانية: أن تلك المرأة لما أقدمت على عبادة تلك الصورة افتتن سليمان وكاد يسقط الخاتم من يده ولا يتماسك فيها، فقال له آصف: إنك لمفتون بذنبك فتب إلى الله.

---

(١) لسان العرب (٥/ ٣٣٤٤).

(٢) التعريفات للجرجاني (٢١٢).

(٣) ابن حجر فتح الباري (١٣/ ٣٤).

(٤) في التوقيف على مهمات التعريف للمناوي (٢٥٧).

والرواية الثالثة (لهم): قالوا: إن سليمان قال لبعض الشياطين كيف تفتنون الناس؟ فقال: أرني خاتمك أخبرك فلما أعطاه إياه نبذه في البحر فذهب ملكه، وقعد هذا الشيطان على كرسيه، ثم ذكر الحكاية إلى آخرها.

إذا عرفت هذه الروايات فهؤلاء قالوا المراد من قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾ أن الله تعالى ابتلاه وقوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ هو جلوس ذلك الشيطان على كرسيه.

والرواية الرابعة: أنه كان سبب فتنته احتجابه عن الناس ثلاثة أيام فسلب ملكه وأُلقي على سريره شيطانٌ عقوبة له.

واعلم أن أهل التحقيق استبعدوا هذا الكلام من وجوه:

الأول: أن الشيطان لو قدر على أن يتشبه بالصورة والخلقة بالأنبياء، فحينئذ لا يبقى اعتماد على شيء من الشرائع، فلعل هؤلاء الذين رآهم الناس في صورة محمد، وعيسى، وموسى - عليهم السلام- ما كانوا أولئك بل كانوا شياطين تشبهوا بهم في الصورة لأجل الإغواء والإضلال، ومعلوم أن ذلك يبطل الدين بالكلية.

والثاني: أن الشيطان لو قدر على أن يعامل نبي الله سليمان بمثل هذه المعاملة لوجب أن يقدر على مثلها مع جميع العلماء والزهاد، وحينئذ وجب أن يقتلهم وأن يمزق تصانيفهم وأن يخرب ديارهم، ولما بطل ذلك في حق آحاد العلماء فلأن يبطل مثله في حق أكابر الأنبياء أولى.

والثالث: كيف يليق بحكمة الله وإحسانه أن يسلط الشيطان على أزواج سليمان؟ ولا شك أنه قبيح.

والرابع: لو قلنا: إن سليمان أذن لتلك المرأة في عبادة تلك الصورة فهذا كفر منه، وإن لم يأذن فيه البتة فالذنب على تلك المرأة، فكيف يؤاخذ الله سليمان بفعل لم يصدر عنه؟

فأما الوجوه التي ذكرها أهل التحقيق في هذا الباب فأشياء:

الأول: أن فتنة سليمان أنه ولد له ابن فقالت الشياطين: إن عاش صار مسلطًا علينا مثل أبيه، فسبيلنا أن نقتله، فعلم سليمان ذلك فكان يربيه في السحاب فبينما هو مشتغل بمهماته إذ ألقى ذلك الولد ميتًا على كرسيه، فتنبه على خطيئته في أنه لم يتوكل فيه على الله، فاستغفر ربه وأناب.

الثاني: روي عن النبي ﷺ أنه قال: "قال سليمان: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة كل واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، ولم يقل: إن شاء الله، فطاف عليهن، فلم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل فجيء به على كرسيه فوضع في حجره، فوالذي نفسي بيده، لو قال: إن شاء الله لجاهدوا كلهم في سبيل الله فرسانًا أجمعون، فذلك قوله: ﴿فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾".

الثالث: قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾ بسبب مرض شديد ألقاه الله عليه، ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ﴾ منه ﴿جَسَدًا﴾ وذلك لشدة المرض، والعرب تقول في الضعيف: إنه لحم على وضم وجسم بلا روح، ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ أي: رجع إلى حال الصحة، فاللفظ محتمل لهذه الوجوه، ولا حاجة البتة إلى حمله على تلك الوجوه الركيكة.

الرابع: أقول لا يبعد أيضًا أن يقال: إنه ابتلاه الله تعالى بتسليط خوف أو توقع بلاء من بعض الجهات عليه، وصار بسبب قوة ذلك الخوف كالجسد الضعيف الملقى على ذلك الكرسي، ثم إنه أزال الله عنه ذلك الخوف، وأعاد إلى ما كان عليه من القوة وطيب القلب[1].

وقال الآلوسي: أظهر ما قيل في فتنته عليه السلام أنه قال: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تأتي كل واحدة بفارس يجاهد في سبيل الله تعالى؛ ولم يقل: إن شاء الله، فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة، وجاءت بشق رجل، وقد روى ذلك الشيخان وغيرُهما عن أبي هريرة مرفوعًا وفيه: «فوالذي نفس محمد بيده لو قال: إن شاء الله لجاهدوا فراسنًا». لكن الذي في «صحيح البخاري» أربعين بدل سبعين، وأن الملك قال له: قل: إن شاء الله، فلم يقل، وغايته ترك الأولى فليس بذنب، وإن عده هو عليه السلام ذنبًا، فالمراد بالجسد ذلك الشق الذي ولد له[2].

قال الشنقيطي: أخرج الشيخان في صحيحهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النَّبي ﷺ قال: "قال سليمان بن داود – عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام-: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة- (وفي رواية تسعين امرأة، وفي رواية مائة امرأة) تلد كل امرأة منهن غلامًا يقاتل في سبيل الله»، فقيل له – وفي رواية قال له الملك-: «إن شاء الله» فلم يقل، فطاف بهن فلم تلد

(١) تفسير الرازي (٢٦/ ٢٠٩: ٢٠٧).

(٢) روح المعاني (٢٣/ ١٩٨)، وانظر محاسن التأويل للقاسمي (٨/ ١٧١).

منهم إلا امرأة واحدة نصف إنسان. فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو قال: إن شاء الله لم يحنث وكان دركًا لحاجته»، وفي رواية: «ولقاتلوا في سبيل الله فرسانا أجمعون".

فإذا علمت هذا فاعلم أن هذا الحديث الصحيح بيَّنَ معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ﴾ (ص: ٣٤)، وأن فتنة سليمان كانت بسبب تركه قوله: «إن شاء الله»، وأنه لم يلد من تلك النساء خلا واحدة نصف إنسان، وأن ذلك الجسد الذي هو نصف إنسان هو الذي أُلقي على كرسيه بعد موته في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ ﴾ الآية، فما يذكره المفسرون في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ الآية، من قصة الشيطان الذي أخذ الخاتم وجلس على كرسي سليمان، وطرد سليمان عن ملكه حتى وجد الخاتم في بطن السمكة التي أعطاها له من كان يعمل عنده بأجر مطرودًا عن ملكه إلى آخر القصة - لا يخفى أنه باطل لا أصل له، وأنه لا يليق بمقام النبوة، فهي من الإسرائيليات التي لا يخفى أنها باطلة[1].

قال أبو بكر الجزائري: ذكر المفسرون لهذه الفتنة عدة أمور، وهي قصص أشبه بالخرافات الإسرائيلية، أمثلها ما رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس: اختصم إلى سليمان فريقان أحدهما من أهل جرادة امرأة سليمان، وكان يحبها فهوى أن يقع القضاء لهم، ثم قضى بينهما بالحق، فأصابه الذي أصابه عقوبة لذلك الهوى، وما في التفسير أصح وأقرب إلى تفسير الآيات[2].

الوجه الرابع: مكانة سليمان عليه السلام في الكتاب والسنة، مقارنة بما جاء عنه في الكتاب المقدس.

سليمان عليه السلام في القرآن:

قال تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ . . . ﴾ (البقرة: ١٠٢)، وقال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ

(١) أضواء البيان (٤/ ٨٥: ٨٤)، أيسر التفاسير (تفسير الآية).

(٢) أيسر التفاسير (تفسير الآية).

وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ (النساء: ١٦٣)، وقال عز من قائل: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (الأنعام: ٨٤)، وقال: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ (الأنبياء: ٧٩).

وقال تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴾ (الأنبياء: ٨١)، وقال: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (النمل: ١٥ – ١٨) فشهدت النملة لسليمان بالعدل والرحمة بقولها: ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، ﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم . ﴾ (النمل: ٣٦)، فانظر إلى تحدثه بنعمة الله، وتنزهه عما في أيدي الناس.

وقال تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ﴾ (سبأ: ١٢– ١٣)، ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ (ص: ٣٠)، وقوله: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (النمل: ١٩)، فطلب من الله أن يقيضه للشكر على ما أنعم به عليه، وعلى ما خصه به من المزية على غيره، وأن ييسر عليه العمل الصالح، وأن يحشره إذا توفاه مع عباده الصالحين، وقد استجاب الله تعالى له[1].

سليمان عليه السلام في السنة:

---

(١) قصص الأنبياء (٢/ ٢٨٧).

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " بَيْنَمَا امْرَأَتَانِ مَعَهُمَا ابْنَاهُمَا إذ عدا الذِّئْبُ، فأخذ ابْنَ إِحْدَاهُمَا فتنازعتا في الآخر، فَقَالَتْ الكبرى: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ، وَقَالَتْ الصغرى: بل إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ، فَتَحَاكَمَتَا إِلَى دَاوُدَ فَحكم بِهِ لِلْكُبْرَى، فَخَرَجَتَا عَلَى سليمان عليه السلام فقال: ائْتُونِي بِالسِّكِّينِ أَشُقُّهُ نصفين لكل واحدة منكما نصفه، فَقَالَتْ الصُّغْرَى: يَرْحَمُكَ اللهُ هُوَ ابْنُهَا فَقَضَى بِهِ لها"(١).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قَدِمَ رَسولُ الله ﷺ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ أَوْ خَيْبَرَ وَفِي سَهْوَتِهَا سِتْرٌ فَهَبَّتْ رِيحٌ فَكَشَفَتْ نَاحِيَةَ السِّتْرِ عَنْ بَنَاتٍ لِعَائِشَةَ لُعَبٍ، فَقَالَ: " مَا هَذَا يَا عَائِشَةُ؟ قَالَتْ: بَنَاتِي، وَرَأَى بَيْنَهُنَّ فَرَسًا لَهُ جَنَاحَانِ مِنْ رِقَاعٍ، فَقَالَ: مَا هَذَا الَّذِي أَرَى وَسْطَهُنَّ؟ قَالَتْ: فَرَسٌ، قَالَ: وَمَا هَذَا الَّذِي عَلَيْهِ؟ قَالَتْ: جَنَاحَانِ، قَالَ: فَرَسٌ لَهُ جَنَاحَانِ؟ قَالَتْ: أَمَا سَمِعْتَ أَنَّ لِسليمان خَيْلًا لَهَا أَجْنِحَةٌ؟ قَالَتْ: فَضَحِكَ حَتَّى رَأَيْتُ نَوَاجِذَهُ"(٢).

وعن أبي هريرة ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ: "إِنَّ عِفْرِيتًا مِنْ الْجِنِّ تَفَلَّتَ الْبَارِحَةَ لِيَقْطَعَ عَلَيَّ صَلَاتِي، فَأَمْكَنَنِي اللهُ مِنْهُ، فَأَخَذْتُهُ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبُطَهُ إلى سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ حَتَّى تَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلُّكُمْ، فَذَكَرْتُ دَعْوَةَ أَخِي سليمان: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ فَرَدَدْتُهُ خَاسِئًا"(٣).

أما سليمان عليه السلام في الكتاب المقدس:

فانظر بحث: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ . . .﴾.

* * *

---

(١) أخرجه البخاري (٦٧٦٩)، مسلم (١٧٢٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩٣٢)، صححه الألباني في صحيح آداب الزفاف (١٧٠).

(٣) أخرجه البخاري (٤٤١-٣١٧٠-٤٤٣٤)، مسلم (٥٤١)، مسند أحمد (٢/ ٢٩٨).

٣ـ شبهة: ملك سليمان.

نص الشبهة:

يقول الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾ (ص: ٣٥) هذه الآية تتحدث عن طلب سليمان عليه السلام للملك فكيف ذلك؟!

و الجواب من وجوه:

الوجه الأول: أن التوراة والإنجيل محرفان.

الوجه الثاني: لا يجوز احتجاجكم بالقرآن.

الوجه الثالث: التفسير الصحيح للآية.

الوجه الرابع: إثبات الملك لسليمان عليه السلام.

الوجه الخامس: لاغرو أن يأتي القرآن بشيء لم يذكره الكتاب المقدس.

الوجه السادس: سليمان عليه السلام في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: أن التوراة و الإنجيل محرفان.

فلا يجوز الاحتجاج بهما وقد ثبت ذلك بالأدلة كما سبق.

الوجه الثاني: لا يجوز احتجاجكم بالقرآن.

فأنتم لا تؤمنون بالقرآن، فكيف تحتجون به علينا.

الوجه الثالث: التفسير الصحيح للآية.

قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ (ص: ٣٥، ٣٨).

قوله: ﴿لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ أي: لا يسلبنيه أحد من بعدي، وقيل: أي لا يكون لأحد من بعدي[1].

---

(١) تفسير الطبري (٢٣/ ١٥٩)، وانظر أقوال المفسرين جميعًا في هذه الآية.

فإن قلت: أما يشبه الحسد والحرص على الاستبداد بالنعمة أن يستعطي الله ما لا يعطيه غيره؟ قلت: كان سليمان عليه السلام ناشئًا في بيت الملك والنبوّة ووارثًا لهما، فأراد أن يطلب من ربه معجزة، فطلب على حسب ألفه ملكًا زائدًا على الممالك زيادة خارقة للعادة بالغة حدّ الإعجاز، ليكون ذلك دليلًا على نبوّته قاهرًا للمبعوث إليهم، وأن يكون معجزة حتى يخرق العادات، فذلك معنى قوله: ﴿لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ وقيل: كان ملكًا عظيمًا، فخاف أن يعطى مثله أحد فلا يحافظ على حدود الله فيه، كما قالت الملائكة: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ . . . ﴾ (البقرة: ٣٠).

وقيل: يجوز أن يقال: علم الله فيما اختصه به من ذلك الملك العظيم مصالح في الدين، وعلم أنه لا يضطلع بأعبائه غيره، وأوجبت الحكمة استيهابه، فأمره أن يستوهبه إياه، فاستوهبه بأمر من الله على الصفة الذي علم الله أنه لا يضبطه عليها إلا هو وحده دون سائر عباده[1].

وقيل: سأل ذلك ليكون علمًا وآية لنبوته، ومعجزة دالة على رسالته ودلالة قبول توبته[2].

الوجه الرابع: إثبات الملك لسليمان عليه السلام من القرآن والسنة.

أولًا: من القرآن:

قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾ (الأنبياء: ٨١، ٨٢).

قوله: ﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ﴾ مكان الخيل التي شغلته عن الصلاة ﴿تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً﴾ يعني: رِخوة لينة، وهي من الرخاوة، وقيل: يعني مطيعة لسليمان، وقيل: ليست بعاصفة ولا بطيئة، وقوله: ﴿حَيۡثُ أَصَابَ﴾ حيث أراد، من قولهم: أصاب الله بك خيرًا، أي: أراد الله بك خيرًا[3].

---

(١) الكشاف للزمخشري (٤/ ٩٥).

(٢) تفسير الخازن (٤/ ٣٤).

(٣) تفسير الطبري (٢٣/ ١٦١: ١٦٠).

وقوله: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ﴿٣٧﴾﴾ أي: وسخرنا له الشياطين سلطناه عليها مكان ما ابتُليناه بالذي ألقينا على كرسيّه منها يستعملها فيما يشاء من أعماله من بنَّاء وغوَّاص، فالبُناة منها يصنعون محاريب وتماثيل، والغاصة يستخرجون له الحُلِيّ من البحار، وآخرون ينحتون له جِفانًا وقدورًا، والمَردَة في الأغلال مُقَرَّنون[1].

وقال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ (النمل: ١٦)، وقال تعالى: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ . . .﴾ (سبأ: ١٢، ١٣).

ثانيًا: من السنة:

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ أَوْ خَيْبَرَ وَفِي سَهْوَتِهَا سِتْرٌ، فَهَبَّتْ رِيحٌ فَكَشَفَتْ نَاحِيَةَ السِّتْرِ عَنْ بَنَاتٍ لِعَائِشَةَ لُعَبٍ، فَقَالَ: مَا هَذَا يَا عَائِشَةُ؟ قَالَتْ: بَنَاتِي، وَرَأَى بَيْنَهُنَّ فَرَسًا لَهُ جَنَاحَانِ مِنْ رِقَاعٍ، فَقَالَ: مَا هَذَا الَّذِي أَرَى وَسْطَهُنَّ؟ قَالَتْ: فَرَسٌ، قَالَ: وَمَا هَذَا الَّذِي عَلَيْهِ قَالَتْ: جَنَاحَانِ قَالَ: فَرَسٌ لَهُ جَنَاحَانِ؟ قَالَتْ: أَمَا سَمِعْتَ أَنَّ لِسُلَيْمَانَ خَيْلًا لَهَا أَجْنِحَةٌ، قَالَتْ: فَضَحِكَ حَتَّى رَأَيْتُ نَوَاجِذَهُ[2].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ ﷺ: إِنَّ عِفْرِيتًا مِنْ الْجِنِّ تَفَلَّتَ الْبَارِحَةَ لِيَقْطَعَ عَلَيَّ صَلَاتِي، فَأَمْكَنَنِي اللهُ مِنْهُ، فَأَخَذْتُهُ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبُطَهُ عَلَى سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ حَتَّى تَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلُّكُمْ، فَذَكَرْتُ دَعْوَةَ أَخِي سُلَيْمَانَ: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ ﴿رَبِّ هَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ فَرَدَدْتُهُ خَاسِئًا.[3]

الوجه الخامس: لاغرو أن يأتي القرآن بشيء لم يذكره الكتاب المقدس

إن القارئ للكتاب المقدس يجد أنه أخلَّ بأمور كثيرة ما تحدّث عنها يحتاجها قارئه،

---

(١) تفسير الطبري (٢٣/ ١٦٢).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩٣٢)، وصححه الألباني في صحيح آداب الزفاف (١١٠).

(٣) أخرجه البخاري (٤٤٣٤)، مسلم (٥٤١)، مسند أحمد (٢/ ٢٩٨).

فانظر على سبيل المثال لا الحصر مسائل العبادات وتفصيلاتها، والمعاملات في البيع والشراء، وغير ذلك.

والسؤال: أين القواعد التي وضعها الكتاب المقدس لأصحابه ليكون لهم منهجًا يسيروا عليه؟

والجواب: هذا ما يفتقده هذا الكتاب بخلاف القرآن الذي فصّل المنهج وبينه ووضّحه وأحكمه، فسبحان مَنْ جعل القرآن للناس يتعبدون به ويسيرون عليه.

الوجه السادس: سليمان عليه السلام في الكتاب المقدس.

ولكن انظر ماذا يقول الكتاب المقدس عن نبي الله سليمان عليه السلام كما في سفر (الملوك الأول١١/ ١٣: ١) ١: وَأَحَبَّ الْمَلِكُ سُلَيْمَانُ نِسَاءً غَرِيبَةً كَثِيرَةً مَعَ بِنْتِ فِرْعَوْنَ: مُوآبِيَّاتٍ وَعَمُّونِيَّاتٍ وَأَدُومِيَّاتٍ وَصِيدُونِيَّاتٍ وَحِثِّيَّاتٍ ٢ مِنَ الأُمَمِ الَّذِينَ قَالَ عَنْهُمُ الرَّبُّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: «لاَ تَدْخُلُونَ إِلَيْهِمْ وَهُمْ لاَ يَدْخُلُونَ إِلَيْكُمْ، لأَنَّهُمْ يُمِيلُونَ قُلُوبَكُمْ وَرَاءَ آلِهَتِهِمْ». فَالْتَصَقَ سُلَيْمَانُ بِهؤُلاَءِ بِالْمَحَبَّةِ. ٣ وَكَانَتْ لَهُ سَبْعُ مِئَةٍ مِنَ النِّسَاءِ السَّيِّدَاتِ، وَثَلاَثُ مِئَةٍ مِنَ السَّرَارِيِّ، فَأَمَالَتْ نِسَاؤُهُ قَلْبَهُ. ٤ وَكَانَ فِي زَمَانِ شَيْخُوخَةِ سُلَيْمَانَ أَنَّ نِسَاءَهُ أَمَلْنَ قَلْبَهُ وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَى، وَلَمْ يَكُنْ قَلْبُهُ كَامِلاً مَعَ الرَّبِّ إِلهِهِ كَقَلْبِ دَاوُدَ أَبِيهِ. ٥ فَذَهَبَ سُلَيْمَانُ وَرَاءَ عَشْتُورَثَ إِلهَةِ الصِّيدُونِيِّينَ، وَمَلْكُومَ رِجْسِ الْعَمُّونِيِّينَ. ٦ وَعَمِلَ سُلَيْمَانُ الشَّرَّ فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ، وَلَمْ يَتْبَعِ الرَّبَّ تَمَامًا كَدَاوُدَ أَبِيهِ. ٧ حِينَئِذٍ بَنَى سُلَيْمَانُ مُرْتَفَعَةً لِكَمُوشَ رِجْسِ الْمُوآبِيِّينَ عَلَى الْجَبَلِ الَّذِي تُجَاهَ أُورُشَلِيمَ، وَلِمُولَكَ رِجْسِ بَنِي عَمُّونَ. ٨ وَهكَذَا فَعَلَ لِجَمِيعِ نِسَائِهِ الْغَرِيبَاتِ اللَّوَاتِي كُنَّ يُوقِدْنَ وَيَذْبَحْنَ لآلِهَتِهِنَّ. ٩ فَغَضِبَ الرَّبُّ عَلَى سُلَيْمَانَ لأَنَّ قَلْبَهُ مَالَ عَنِ الرَّبِّ إِلهِ إِسْرَائِيلَ الَّذِي تَرَاءَى لَهُ مَرَّتَيْنِ، ١٠ وَأَوْصَاهُ فِي هذَا الأَمْرِ أَنْ لاَ يَتَّبِعَ آلِهَةً أُخْرَى، فَلَمْ يَحْفَظْ مَا أَوْصَى بِهِ الرَّبُّ. ١١ فَقَالَ الرَّبُّ لِسُلَيْمَانَ: «مِنْ أَجْلِ أَنَّ ذلِكَ عِنْدَكَ، وَلَمْ تَحْفَظْ عَهْدِي وَفَرَائِضِيَ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ بِهَا، فَإِنِّي أُمَزِّقُ الْمَمْلَكَةَ عَنْكَ تَمْزِيقًا وَأُعْطِيهَا لِعَبْدِكَ. ١٢ إِلاَّ إِنِّي لاَ أَفْعَلُ ذلِكَ فِي أَيَّامِكَ، مِنْ أَجْلِ دَاوُدَ أَبِيكَ، بَلْ مِنْ يَدِ ابْنِكَ أُمَزِّقُهَا. ١٣ عَلَى أَنِّي لاَ أُمَزِّقُ مِنْكَ الْمَمْلَكَةَ كُلَّهَا، بَلْ أُعْطِي سِبْطًا وَاحِدًا لابْنِكَ، لأَجْلِ دَاوُدَ عَبْدِي، وَلأَجْلِ أُورُشَلِيمَ الَّتِي اخْتَرْتُهَا».

* * * *

٤ـ شبهة: أيوب عليه السلام حول الآية: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا ﴾ .

نص الشبهة:

قال تعالى: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ (ص: ٤٤)، يعني أن امرأة أيوب ذهبت لحاجةٍ وأبطأت، فحلف إنْ بَرِيءَ ليضربنَّها مائة سوط، فحلّل الله يمينه بأن أخذ ضِغْثًا، وهي حزمةٌ صغيرة من الحشيش بها مائة عود ليضربها بها ضربة واحدة فلا تقع يمينه، وهذه القصة من خرافات اليهود، ثَمّ أمر آخر وهو: كيف يصل الغضب إلى هذا الحد مع هذا النبي؟

و الرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: أن التوراة و الإنجيل محرفان.

الوجه الثاني: لا يجوز احتجاجكم بالقرآن.

الوجه الثالث: فضل أيوب عليه السلام في القرآن و السنة.

الوجه الرابع: أقوال المفسرين في آيات سورة (ص)

الوجه الخامس: بيان معنى الغضب، وأنواعه، وأن أيوب عليه السلام بشر مثلنا، يغضب كغضبنا ولا يخرجه غضبه عن الصفة الغالبة عليه وهي الحلم و الصبر.

الوجه السادس: أيوب عليه السلام في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: التوراة والإنجيل محرفان.

الوجه الثاني: لا يجوز احتجاجكم بالقرآن.

الوجه الثالث: أيوب عليه السلام في القرآن والسنة.

أولًا: أيوب عليه السلام في القرآن.

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ (النساء: ١٦٣)، وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا

هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾ (الأنعام: ٨٤).

فأخبر الله أنه هداه واجتباه، وجعله من المحسنين، وقال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ (الأنبياء: ٨٣، ٨٤).

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ (ص: ٤١- ٤٤) فسماه الله ﷻ عبدًا كما يخبر جميع أنبيائه، لأن مقام العبودية هو أشرف المقامات على الإطلاق، ثم إنه في هذه الآيات قال (مسني الشيطان)، وفي الأنبياء قال: (مسني الضر) فلم ينسب الضر إلى الله سبحانه وتعالى أدبًا مع الله ﷻ.

وقال المفسرون: هذا ليس شكاية، إنما هو دعاء؛ بدليل قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ على أن الجزع إنما هو في الشكوى إلى الخلق، فأما الشكوى إلى الله ﷻ فلا يكون جزعًا ولا ترك صبر كما قال يعقوب: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ (يوسف: ٨٦)، وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ أي: رد الله ﷻ إليه أهله وأولاده بأعيانهم أحياهم الله له وأعطاه مثلهم معهم، وهو ظاهر القرآن(١).

ثانيًا: فضل أيوب عليه السلام في السنة:

قال رسول الله ﷺ قال: "أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى الرجل على قدر دينه، فإن كان في دينه صلابة زِيْدَ في بلائه، وإن كان في دينه رقة خفف عنه، ولا يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشـي على الأرض وليس عليه خطيئة"(٢).

---

(١) تفسير البغوي (٤/ ٤٣).

(٢) صحيح. أخرجه النسائي (٧٤٨٢)، وصححه الألباني في صحيح السيرة النبوية (١/ ٤٨).

وكان أيوب عليه السلام من أشد الناس بلاءً، ولم يزد هذا البلاء كله أيوب عليه السلام إلا صبرًا واحتسابًا وحمدًا وشكرًا، حتى إن المثل ليضرب بصبره عليه السلام[(١)].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن نبي الله أيوب عليه السلام لبث به بلاؤه ثمان عشرة سنة فرفضه القريب و البعيد إلا رجلين من إخوانه كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه ذات يوم: تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنبًا ما أذنبه أحد من العالمين. فقال له صاحبه: و ما ذاك؟ قال: منذ ثمان عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به فلما راحا إلى أيوب لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له، فقال أيوب: لا أدري ما تقولان غير أن الله تعالى يعلم أني كنت أَمُرُّ بالرجلين يتنازعان، فيذكران الله فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله إلا في حق، قال: و كان يخرج إلى حاجته فإذا قضى حاجته أمسكته امرأته بيده حتى يبلغ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها و أوحي إلى أيوب أن: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾ (ص: ٤٢)، فاستبطأته فتلقته تنظر و قد أقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء و هو أحسن ما كان فلما رأته قالت: أي بارك الله فيك هل رأيت نبي الله هذا المبتلى، والله على ذلك ما رأيت أشبه منك إذ كان صحيحًا، فقال: فإني أنا هو، و كان له أندران: أندر للقمح و أندر للشعير، فبعث الله سحابتين، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض و أفرغت الأخرى في أندر الشعير الورق حتى فاض"[(٢)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بَيْنَا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ عُرْيَانًا خَرَّ عَلَيْهِ رِجْلُ جَرَادٍ مِنْ ذَهَبٍ فَجَعَلَ يَحْثِي فِي ثَوْبِهِ فَنَادَى رَبُّهُ يَا أَيُّوبُ أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتُكَ عَمَّا تَرَى؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، ولَكِنْ لَا غِنَى بِي عَنْ بَرَكَتِكَ"[(٣)].

وقَوْلُهُ: (خَرَّ عَلَيْهِ) أَيْ سَقَطَ عَلَيْهِ، وَقَوْلُهُ: (رِجْلُ جَرَادٍ) أَيْ: جَمَاعَةُ جَرَادٍ، والْجَرَادُ اِسْمُ جَمْعٍ وَاحِدُهُ جَرَادَةٌ كَتَمْرٍ وَتَمْرَةٍ، و قَوْلُهُ: (فَنَادَاهُ رَبُّهُ) يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ بِوَاسِطَةٍ أَوْ بِإِلْهَامٍ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ[(١)].

---

(١) قصص الأنبياء (١/ ٣٥٩).

(٢) صحيح. تفسير الطبري ٢٣/ ١٦٧، السلسلة الصحيحة للألباني (١٧).

(٣) أخرجه البخاري (٢٧٩).

فأكرمه الله ﷻ بأن أفاض عليه بركاته وأغناه، ورد عليه ولده وأهله جزاءً له على صبره على البلاء طيلة هذه المدة، وفي الحديث أن الله ﷻ ناداه وكلمه سواءً بواسطة أو بغير واسطة إكرامًا له ﵇، وانظر إلى حسن ظنه بالله تعالى وطمعه في رحمة الله حينما قال: (لا غنى لي عن بركتك)، وبهذا القول يصدق قول الله فيه وفي إخوانه من الأنبياء والصالحين ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ (الأنبياء: ٩٠).

الوجه الرابع: أقوال المفسرين في هذه الآية.

قال تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٤)﴾ (ص: ٤٤)، الضغث: هو ما يجمع من شيء مثل حزمة الرُّطْبة، وكملء الكفّ من الشجر أو الحشيش والشماريخ ونحو ذلك مما قام على ساق (فَاضْرِبْ بِهِ): فاضرب زوجتك بالضِّغْث، لتَبرّ في يمينك التي حلفت بها عليها أن تضربها (وَلا تَحْنَثْ) يقول: ولا تحنَثْ في يمينك[٢].

وفي ذلك أقوال:

١- وذلك أن أيوب ﵇ كان قد غضب على زوجته ووجد عليها في أمر فعلته. قيل: باعت ضفيرتها بخبز فأطعمته إياه فلامها على ذلك وحلف إن شفاه الله ليضربنها مائة جلدة، وقيل: لغير ذلك من الأسباب، فلما شفاه الله وعافاه ما كان جزاؤها مع هذه الخدمة التامة والرحمة والشفقة والإحسان أن تقابل بالضرب فأفتاه الله ﷻ أن يأخذ ضغثًا فيه مائة قضيب فيضربها به ضربة واحدة وقد بَرّت يمينه وخرج من حنثه ووفى بنذره، وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأناب إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[٣].

٢- ولعل الكفارة لم تكن فيهم وخصنا الله بها مع شرعه فينا ما أرخصه له تشريفًا لنا، وكل هذا إعلامًا بأن الله تعالى ابتلاه ﵇ في بدنه وولده وماله، ولم يبق له إلا زوجة فوسوس لها الشيطان طمعًا في إيذائها كما آذى آدم وحواء عليهما السلام، إلى أن قارب

---

(١) فتح الباري (١/ ٤٦١).

(٢) تفسير الطبري (٢٣/ ١٦٨- ١٦٩).

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٣) وقيل غير ذلك من أقوال ليس لها سند صحيح.

منها بعض ما يريد[١].

قلت: قوله: (إلى أن قارب منها بعض ما يريد) فسره بعض المفسرين أن الشيطان قابلها ودلها على شفاء زوجها، فلما رجعت وأخبرت زوجها غضب عليها وحلف عليها أن يضربها مائة ضربة، فخلصها الله ﷻ بهذه الرخصة[٢].

الوجه الخامس: بيان معنى الغضب ودرجاته، وما يذم منه وملا يذم.

معنى الغضب: الغَضَبُ: نَقِيضُ الرِّضَا وقد غَضِبَ عليه غَضَبًا ومَغْضَبَةً وأَغْضَبْتُه أَنا فَتَغَضَّبَ، وغَضِبَ له غَضِبَ على غيره من أَجله، وذلك إِذا كان حَيًّا فإِن كان ميتًا قلت: غَضِبَ به قال دُرَيْدُ بنُ الصِّمَّة يَرْثِي أَخاه عَبْدَالله:

فإِن تُعْقِب الأَيامُ والدَّهْرُ فاعْلَمُوا بني قَارِبٍ أَنَّا غِضَابٌ بمَعْبَدِ

قال ابن عرفة: الغَضَبُ من المخلوقين شيءٌ يُداخِل قُلُوبَهم ومنه محمود ومذموم؛ فالمذموم ما كان في غير الحق، والمحمود ما كان في جانب الدين والحق[٣].

درجات الغضب: يتفاوت الناس في قوة الغضب على درجات ثلاث وهي: التفريط والإفراط والاعتدال:

أولًا: التفريط: ويكون إما بفقد قوة الغضب بالكلية أو بضعفها، وحينئذ يقال للإنسان: إنه لا حمية له، ويذم جدًّا، ولذلك قال الشافعي - رحمه الله- من استغضب فلم يغضب فهو حمار، وهذا يثمر ثمرات مرة كقلة الأنفة مما يؤنف منه من التعرض للحرم والزوجة والأمة واحتمال الذل من الأخساء وصغر النفس.

ثانيًا: الإفراط: ويكون بغلبة هذه الصفة حتى تخرج عن سياسة العقل والدين وطاعته، ولا يبقى للمرء معها بصيرة ونظر وفكرة ولا اختيار، بل يصير في صورة المضطر، وسبب غلبته أمور غريزية وأمور اعتيادية: فرب إنسان هو بالفطرة مستعد لسرعة الغضب حتى كأن صورته في الفطرة صورة غضبان، ويعين على ذلك حرارة مزاج

(١) تفسير البقاعي (٦/ ٣٩٠).

(٢) تفسير الطبري (٢٣/ ١٦٨).

(٣) لسان العرب (٥/ ٣٢٦٢).

القلب، وأما الأسباب الاعتيادية: فهو أن يخالط قومًا يتبجحون بتشفي الغيظ وطاعة الغضب ويسمون ذلك شجاعة ورجولية.

ثالثًا: الاعتدال: وهو المحمود وذلك بأن ينتظر إشارة العقل والدين، فينبعث حيث تجب الحمية وينطفئ حيث يحسن الحلم، وحفظه على حد الاعتدال هو الاستقامة التي كلف الله بها عباده وهو الوسط، فمن مال غضبه إلى الفتور حتى أحس من نفسه بضعف الغيرة وخسة النفس في احتمال الذل والضيم في غير محله فينبغي أن يعالج نفسه حتى يقوى غضبه، ومن مال غضبه إلى الإفراط حتى جره إلى التهور، واقتحام الفواحش فينبغي أن يعالج نفسه لينقص من سَوْرة الغضب، ويقف على الوسط الحق بين الطرفين؛ وهذا هو الصراط المستقيم وهو أرق من الشعرة وأحد من السيف؛ فإن عجز عنه فليطلب القرب منه[(١)].

ومن الغضب ما يكون محمود، وذلك إذا صدر الغضب من الله ﷻ ومن ذلك غضبه تعالى على أعدائه من اليهود، ومن كان على شاكلتهم من الكفار والمنافقين والطغاة والمتجبرين، قال تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ (الفاتحة: ٧)، وقوله تعالى: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، وقال: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ٦١)، كما يكون الغضب محمودًا إذا كان لله ﷻ عندما تنتهك حرماته، وقد أثبت القرآن ذلك للرسل الكرام في مواضع عديدة، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ (الأنبياء: ٨٧).

وكان النبي ﷺ يغضب لله لا لنفسه، فعن عائشة أنها قالت: رَخَّصَ رَسولُ الله ﷺ فِي أَمْرٍ فَتَنَزَّهَ عَنْهُ نَاسٌ مِنْ النَّاسِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَغَضِبَ حَتَّى بَانَ الْغَضَبُ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ قَالَ: " مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَرْغَبُونَ عَمَّا رُخِّصَ لِي فِيهِ فَوَ الله لَأَنَا أَعْلَمُهُمْ بِالله وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً"[(٢)].

وعن ابن مسعود ﷺ قال: " قَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ الله، إِنِّي لَأَتَأَخَّرُ عَنْ الصَّلَاةِ فِي الْفَجْرِ مِمَّا يُطِيلُ بِنَا فُلَانٌ فِيهَا فَغَضِبَ رَسُولُ الله ﷺ مَا رَأَيْتُهُ غَضِبَ فِي مَوْضِعٍ كَانَ أَشَدَّ غَضَبًا مِنْهُ يَوْمَئِذٍ ثُمَّ قَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ، فَمَنْ أَمَّ النَّاسَ فَلْيَتَجَوَّزْ فَإِنَّ خَلْفَهُ الضَّعِيفَ وَالْكَبِيرَ وَذَا الْحَاجَةِ"[(١)].

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٢٦١).

(٢) أخرجه البخاري (٦١٠١)، مسلم (٢٣٥٦) واللفظ له.

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: "قَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ لِأَرْبَعٍ مَضَيْنَ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ أَوْ خَمْسٍ، فَدَخَلَ عَلَيَّ وَهُوَ غَضْبَانُ فَقُلْتُ: مَنْ أَغْضَبَكَ يَا رَسُولَ الله أَدْخَلَهُ الله النَّارَ؟ قَالَ: أَوَمَا شَعَرْتِ أَنِّي أَمَرْتُ النَّاسَ بِأَمْرٍ فَإِذَا هُمْ يَتَرَدَّدُونَ - قَالَ الْحَكَمُ: كَأَنَّهُمْ يَتَرَدَّدُونَ، أَحْسِبُ- وَلَوْ أَنِّي اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ مَا سُقْتُ الْهَدْيَ مَعِي حَتَّى أَشْتَرِيَهُ ثُمَّ أَحِلُّ كَمَا حَلُّوا"(٢).

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال: كَانَتْ بَيْنَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ مُحَاوَرَةٌ، فَأَغْضَبَ أَبُو بَكْرٍ عُمَرَ فَانْصَرَفَ عَنْهُ عُمَرُ مُغْضَبًا فَاتَّبَعَهُ أَبُو بَكْرٍ يَسْأَلُهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُ فَلَمْ يَفْعَلْ، حَتَّى أَغْلَقَ بَابَهُ فِي وَجْهِهِ فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ وَنَحْنُ عِنْدَهُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "أَمَّا صَاحِبُكُمْ هَذَا فَقَدْ غَامَرَ قَالَ وَنَدِمَ عُمَرُ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ فَأَقْبَلَ، حَتَّى سَلَّمَ وَجَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَقَصَّ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ الْخَبَرَ قَالَ أَبو الدَّرْدَاءِ: وَغَضِبَ رَسُولُ الله ﷺ وَجَعَلَ أَبُو بَكْرٍ يَقُولُ: وَالله يَا رَسُولَ الله، لَأَنَا كُنْتُ أَظْلَمَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُونَ لِي صَاحِبِي؟ هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُونَ لِي صَاحِبِي؟ إِنِّي قُلْتُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ جَمِيعًا، فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبو بَكْرٍ صَدَقْتَ"(٣).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه قال: "كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا خَطَبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ وَعَلَا صَوْتُهُ وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ حَتَّى كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ؛ يَقُولُ: صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ، وَيَقُولُ: بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ، وَيَقْرُنُ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى، وَيَقُولُ أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ الله، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا أَوْلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ مَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِأَهْلِهِ وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا فَإِلَيَّ وَعَلَيَّ"(٤).

الوجه السادس: أيوب عليه السلام في الكتاب المقدس.

(١) أخرجه البخاري (٧٠٤)، ومسلم (٤٦٦).

(٢) أخرجه البخاري (١٧٥٧ـ١٧٥٨ـ ١٧٧٢)، ومسلم (١٢١١) واللفظ له.

(٣) أخرجه البخاري (٤٦٤٠).

(٤) أخرجه مسلم (٨٦٧).

كما هو معروف أن اليهود والنصارى في كتابهم المقدس وصفوا أنبياءهم بأقبح الصفات وأسفل الكلمات واتهموهم بأقبح الجرائم، ووضعوهم في أسوأ الصور، سواء في كلامهم وتصرفاتهم مع الله أو مع غيره، ومن ذلك ما وصفوا به أيوب عليه السلام وفيه:

الشيطان يطلب من الرب أن يمحق البركة من أيوب ويبتليه:

فَأَجَابَ الشَّيْطَانُ الرَّبَّ وَقَالَ: «هَلْ مَجَّانًا يَتَّقِي أَيُّوبُ اللهَ؟ أَلَيْسَ أَنَّكَ سَيَّجْتَ حَوْلَهُ وَحَوْلَ بَيْتِهِ وَحَوْلَ كُلِّ مَا لَهُ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ؟ بَارَكْتَ أَعْمَالَ يَدَيْهِ فَانْتَشَرَتْ مَوَاشِيهِ فِي الأَرْضِ. ١١ وَلكِنِ ابْسِطْ يَدَكَ الآنَ وَمَسَّ كُلَّ مَا لَهُ، فَإِنَّهُ فِي وَجْهِكَ يُجَدِّفُ عَلَيْكَ». ١٢ فَقَالَ الرَّبُّ لِلشَّيْطَانِ: «هُوَذَا كُلُّ مَا لَهُ فِي يَدِكَ، وَإِنَّمَا إِلَيْهِ لاَ تَمُدَّ يَدَكَ». ثُمَّ خَرَجَ الشَّيْطَانُ مِنْ أَمَامِ وَجْهِ الرَّبِّ (أيوب١/ ١٢: ٩).

أيوب يضجر ويسب اليوم الذي وُلد فيه:

بَعْدَ هذَا فَتَحَ أَيُّوبُ فَاهُ وَسَبَّ يَوْمَهُ، ٢ وَأَخَذَ أَيُّوبُ يَتَكَلَّمُ فَقَالَ:. . . لِيَلْعَنْهُ لاَعِنُو الْيَوْمِ الْمُسْتَعِدُّونَ لإِيقَاظِ التِّنِّينِ. ٩ لِتُظْلِمْ نُجُومُ عِشَائِهِ. لِيَنْتَظِرِ النُّورَ وَلاَ يَكُنْ، وَلاَ يَرَ هُدُبَ الصُّبْحِ، ١٠ لأَنَّهُ لَمْ يُغْلِقْ أَبْوَابَ بَطْنِ أُمِّي، وَلَمْ يَسْتُرِ الشَّقَاوَةَ عَنْ عَيْنَيَّ. ١١ لِمَ لَمْ أَمُتْ مِنَ الرَّحِمِ؟ عِنْدَمَا خَرَجْتُ مِنَ الْبَطْنِ، لِمَ لَمْ أُسْلِمِ الرُّوحَ؟ ١٢ لِمَاذَا أَعَانَتْنِي الرُّكَبُ، وَلِمَ الثُّدِيُّ حَتَّى أَرْضَعَ؟ ١٣ لأَنِّي قَدْ كُنْتُ الآنَ مُضْطَجِعًا سَاكِنًا. حِينَئِذٍ كُنْتُ نِمْتُ مُسْتَرِيحًا (أيوب٣/ ١٣: ١).

أيوب يسخر من الرب ويسبه:

قَدْ كَرِهَتْ نَفْسِي حَيَاتِي. أُسَيِّبُ شَكْوَايَ. أَتَكَلَّمُ فِي مَرَارَةِ نَفْسِي ٢ قَائِلًا لله: لاَ تَسْتَذْنِبْنِي. فَهِّمْنِي لِمَاذَا تُخَاصِمُنِي! ٣ أَحَسَنٌ عِنْدَكَ أَنْ تَظْلِمَ، أَنْ تُرْذِلَ عَمَلَ يَدَيْكَ، وَتُشْرِقَ عَلَى مَشُورَةِ الأَشْرَارِ؟ ٤ أَلَكَ عَيْنَا بَشَرٍ، أَمْ كَنَظَرِ الإِنْسَانِ تَنْظُرُ؟ ٥ أَأَيَّامُكَ كَأَيَّامِ الإِنْسَانِ، أَمْ سِنُوكَ كَأَيَّامِ الرَّجُلِ، ٦ حَتَّى تَبْحَثَ عَنْ إِثْمِي وَتُفَتِّشَ عَلَى خَطِيَّتِي؟ ٧ فِي عِلْمِكَ أَنِّي لَسْتُ مُذْنِبًا، وَلاَ مُنْقِذَ مِنْ يَدِكَ (أيوب ١٠/ ٦: ١).

* * *

سورة غافر

شبهة: قتل الصبيان واستحياء النساء.

نص الشبهة:

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ (غافر: ٢٣- ٢٥).

فالظاهر من هذا الكلام أن فرعون لم يأمر بقتل أبناء اليهود إلا بعد ما جاءه موسى بالحق ولكنه يقول: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ. . .﴾ (طه: ٣٨، ٣٩).

وهذا يعني أن فرعون أمر بقتل أبناء اليهود وموسى طفل ولم يكن الحق قد جاء بعد من عند ربه.

والرد من وجوه:

الوجه الأول:

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٢٥)﴾ (غافر: ٢٥)، فإن قال قائل: وكيف قيل: ﴿اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ وإنما كان قتل فرعون الولدان من بني إسرائيل حذار المولود الذي كان أخبر أنه على رأسه ذهاب ملكه وهلاك قومه، وذلك كان فيما يقال قبل أن يبعث الله موسى نبيًا؟ قيل: إن هذا الأمر بقتل أبناء الذين آمنوا مع موسى واستحياء نسائهم، كان أمرًا من فرعون وملئه من بعد الأمر الذي كان من فرعون قبل مولد موسى.

وعن قتادة قال: هذا قتل غير القتل الأول الذي كان حيًا. [1]

(١) جامع البيان لابن جرير الطبري (٢٤/ ٥٦).

توضيح: قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا ﴾ أي: بالبرهان القاطع الدال على أن الله تعالى أرسله إليهم ﴿قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ . . . ﴾ وهذا أمر ثانٍ من فرعون بقتل ذكور بني إسرائيل.

أما الأول: فكان لأجل الاحتراز من وجود موسى، أو لإذلال هذا الشعب وتقليل عددهم، أو لمجموع الأمرين.

وأما الأمر الثاني: فالعلة الثانية، لإهانة هذا الشعب ولكي يتشاءموا بموسى عليه السلام ولهذا قالوا: ﴿ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ (الأعراف: ١٢٩).

قال قتادة: هذا أمر بعد أمر[1].

* * *

(١) تفسير ابن كثير (١٢/ ١٨٤)، الكشاف للزمخشري (٤/ ١٦٠).

سورة فصلت

وفيها:

١- شبهة: بأي شيء أُهلكت ثمود.

٢- شبهة اختلاف الشرائع.

١ـ شبهة: بأي شيء أهلكت ثمود.

نص الشبهة:

يقول القرآن عن قوم ثمود أهلكم الطاغية: ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ ﴾ (الحاقة: ٥) ثم يقول: إن ثمود أخذتهم صاعقة العذاب: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ (فصلت: ١٧)، ثم يؤكد أن ثمود أهلكوا بصاعقة مثل عاد: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ﴾ (فصلت: ١٣).

فهل هلك قوم ثمود بالطاغية أم بالصاعقة؟ ، وهل هلك قوم عاد وقوم ثمود بنفس الطريقة أم بطريقتين مختلفين.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: في قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ ﴾ بالصيحة.

الوجه الثاني: (الطاغية) عاقر الناقة، والتاء فيه للمبالغة.

الوجه الثالث: ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ ﴾ أي: بطغيانهم.

الوجه الرابع: قوله: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ أي: صاعقة.

الوجه الخامس: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ أي أنذرتكم وقيعة.

الوجه السادس: الصعقة: الهلاك يكون معها في الأحيان قطعة نار.

وإليك التفصيل

بداية: لا تعارض في المعنى بين اللفظين، وهذا معنى الطاغية في لغة العرب.

الطغيان، والطغوان لغة فيه، والفعل طغوت وطغيت، والاسم الطغوي، وكل شيء جاوز القدر فقد طغى كما طغى الماء على قوم نوح، وكما طغت الصيحة على ثمود، والريح على قوم عاد، وتقول سمعت طغى فلان: أي صوته.

والطاغية: الأحمق المستكبر الظالم. وطغا البحر إذا علا كل شيء فاجترفه[١]، والطاغية الجبار العنيد[٢] وكذلك معنى -الصاعقة - في لغة العرب.

الصاعقة والصعقة: الصيحة يغشي منها على من يسمعها أو يموت، الصعق: شدة النهيق والصوت، ويقال: أصعقته الصيحة: قتلته، والصواعق: صوت الرعد[٣].

الصاعقة: العذاب، والصعقة الغشية[٤].

(الصاعقة والصعق) في القرآن الكريم:

الصعق: الموت، قال تعالى: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ (الزمر: ٦٨).

والصاعقة: العذاب كقوله تعالى: ﴿أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ (فصلت: ١٣).

والصاعقة: نار من السحاب، قال تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ (الرعد: ١٣). وأراها سميت صاعقة، لأنها إذا أصابت قتلت، يقال: صعقتهم: أي قتلتهم[٥].

الوجه الأول: في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥﴾

أي: أهلكوا بالصيحة الطاغية، لأن الله تعالى إنما أخبر عن ثمود بالمعنى الذي أهلكها به، فقال: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦﴾. ولو كان الخبر أيضًا عن عاد كذلك إذ كان ذلك في سياق واحد، وفي إتباعه ذلك بخبره عن عاد بأن هلاكها كان بالريح الدليل الواضح على أن إخباره عن ثمود إنما هو ما بينت[٦].

زيادة توضيح: قال قتادة: أي: بالصيحة الطاغية، أي المجاوزة للحد؛ أي لحد

---

(١) تهذيب اللغة للأزهري (٨/ ١٦٧)، وانظر لسان العرب لابن منظور (١٥/ ٧).

(٢) لسان العرب (١٥/ ٩).

(٣) تهذين اللغة (١/ ١٧٧).

(٤) لسان العرب (١٠/ ١٩٨).

(٥) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (٤٥٥).

(٦) جامع البيان لابن جرير الطبري (٢٩/ ٤٩).

الصيحات من الهول كما قال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ (القمر: ٣١)، والطغيان: هو مجاوزة الحد، ومنه ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ (الحاقة: ١١) أي: جاوز الحد[1].

فعلى هذا القول الطاغية نعت محذوف، واختلفوا في ذلك المحذوف فقال: بعضهم: إنها الصيحة المجاوزة في القوة والشدة للصيحات، وقال بعضهم: إنها الرجفة، وقال آخرون: إنها الصاعقة[2].

الوجه الثاني: (الطاغية) عاقر الناقة، والتاء فيه للمبالغة كرجل راوية وأهلكوا كلهم لرضاهم بفعله. [3]

والمعنى: أن الطاغية: الفرقة التي طغت من جملة ثمود فتآمروا بعقر الناقة فعقروها، أي: أهلكوا بشؤم فرقتهم الطاغية، ذلك الرجل الواحد الذي أقدم على عقر ناقة وأهلك الجميع لأنهم رضوا بفعله، وقيل: له طاغية كما يقول: فلان راوية الشعر وداهية وعلامة[4].

الوجه الثالث: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥﴾.

أي: بطغيانهم وكفرهم[5]، أ ي: فأهلكوا بالطغيان، فهي مصدر كالكاذبة والعاقبة والعافية: أي أهلكوا بطغيانهم وكفرهم. [6]

الوجه الرابع: قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۝١٣﴾

أي: قل لهم: أنذرتكم أيها الناس صاعقة تهلككم مثل صاعقة عاد وثمود وقد بينا فيما مضى أن معنى الصاعقة: كل ما أفسد الشيء وغيره عن هيئته. . [7]

فيكون المعنى: أي: هلاكًا مثل هلاكهم، والصاعقة المهلكة من كل شيء. [1]

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٨ – ٢٤٧).

(٢) التفسير الكبير للرازي (٣٠/ ١٠٣)، وانظر معاني القرآن للزجاج (٥/ ٢١٣).

(٣) البحر المحيط لأبي حيان (٨/ ٣١٦).

(٤) التفسير الكبير للرازي (٣٠/ ١٠٣)، و تهذيب اللغة (الأزهري) (٨/ ١٦٧)، ومعالم التنزيل للبغوي (٤/ ٣٨٦)، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٨/ ٢٤٧).

(٥) معالم التنزيل (٤/ ٣٨٦).

(٦) الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ٢١٣)، وانظر التفسير الكبير (٣٠/ ١٠٣)، ومعاني القرآن للزجاج (٥/ ٢١٣).

(٧) تفسير الطبري (٢٤/ ١٠٩)، تفسير القرطبي (١٥/ ٣٣١)، والبحر المحيط (٧/ ٤٦٨).

الوجه الخامس: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾.

أي أنذرتكم وقيعة مثل وقيعة عاد وثمود، قال: عذاب مثل عذاب عاد وثمود[٢]، أي: عذاب شديد الواقع كأنه صاعقة[٣].

الوجه السادس: الصعقة: الهلاك يكون معها في الأحيان قطعة نار

فشبهت هنا وقعة العذاب بها، لأن عادًا لم تعذب إلا بريح، وإنما هذا تشبيه واستعارة[٤].

زيادة وتوضيح: لما أضيفت صاعقة إلى عاد وثمود، وعادًا لم تهلكهم الصاعقة، وإنا أهلكهم الريح، وثمود أهلكوا بالصاعقة، فقد استعمل الصاعقة هنا في حقيقتة ومجازه، أو هو من عموم المجاز والمقتضى لذلك على الاعتبارين قصد الإيجاز[٥].

خلاصة القول: اعلم أن الله ﷻ تكلم عن الهلاك الذي أهلك به ثمود، بعبارات مختلفة، فذكره هنا باسم الصاعقة في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ (فصلت: ١٧). وقوله: ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ (فصلت: ١٣) وعبر عنه أيضًا بالصاعقة في قوله تعالى: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ (الذاريات: ٤٣ - ٤٤).

وعبر عنه بالصيحة في آيات من كتابه، كقوله تعالى في إهلاكه ثمود: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۗ أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ (هود: ٦٨)، **وقوله تعالى:** ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ (الحجر: ٨٢- ٨٣).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ (القمر: ٣١)، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ (العنكبوت: ٤٠)، يعني به ثمود المذكورين في قوله تعالى:

---

(١) تفسير البغوي (٤/ ١٠٩)، وانظر زاد المسير (٧/ ٢٤٧).

(٢) جامع البيان للطبري (٢٤/ ١٠٠)، والمحرر الوجيز لابن عطية (٥/ ٨).

(٣) الكشاف للزمخشري (٤/ ١٩١).

(٤) المحرر الوجيز (٥/ ٨).

(٥) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٥٣).

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ﴾ (العنكبوت: ٣٨)، وعبر بالرجفة في قوله تعالى: ﴿ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾ (الأعراف: ٧٧)، وعبر عنه بالتدمير في سورة النمل في قوله تعالى: ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (النمل: ٥١).

وعبر عنه بالطاغية في قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴾ وعبر عنه بالدمدمة في قوله تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴾ (الشمس: ١٤).

وعبر عنه بالعذاب في قوله تعالى: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ (الشعراء: ١٥٧-١٥٨).

ومعنى هذه العبارات كلها راجع إلى شيء واحد، وهو أن الله أرسل عليهم صيحة أهلكتهم، والصيحة الصوت المزعج المهلك وعلى النار المحرقة، وعليهما معًا، ولشدة عظم الصيحة وهولها من فوقهم رجفت أنها صيحة وصاعقة ورجفة، وكون ذلك تدميرًا واضحًا، وقيل لها طاغية: لأنها واقعة مجاوزة الحد.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ أي جاوز الحدود التي يبلغها الماء عادة. [1]

ملخص ما سبق:

﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ ﴾ أي فأما ثمود فأهلكهم الله بصيحة جاوزت الحد في الشدة كما جاء في سورة هود: ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ وهي الصاعقة التي جاءت في حم السجدة، والرجفة والزلزلة التي جاءت في سورة الأعراف، فلا تعارض بين الآيات، لأن الهلاك في بعضها نسب إلى السبب القريب، وفي بعضها نسب إلى السبب البعيد. [2]

* * *

(١) أضواء البيان للشنقيطي (٧/ ٢٢).

(٢) تفسير المراغي (٢٩/ ٥١).

٢ـ شبهة اختلاف الشرائع.

نص الشبهة:

قال تعالى: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ (فصلت: ٤٣).

قالوا: إذا كان ما قيل للنبي ﷺ هو نفس ما قيل للرسل من قبله، فما هي فائدة القرآن؟ وهل الله يريد التكرار؟.

والجواب علي ذلك من وجوه:

الوجه الأول: بيان التفسير الصحيح للآية.

الوجه الثاني: أصل الدين واحد، والدليل علي اختلاف الشرائع في مباحث:

المبحث الأول: إن الدين عند الله الإسلام.

المبحث الثاني: أهداف الرسالات السماوية.

المبحث الثالث: لكل أمة شرعةً ومنهاجًا.

الوجه الثالث: بعض خصائص القرآن الكريم والإسلام.

الوجه الرابع: بيان بعض أوجه الاتفاق و الاختلاف في الشرائع.

الوجه الخامس: ما هي فائدة الإنجيل بعد التوراة؟ وما هي فائدة تكرار الأناجيل.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: التفسير الصحيح للآية.

بعد النظر في كتب التفسير وجد تفسيرين للآية، وهما أيضًا غير متضادين أستطيع أن أقول: هما وجهان لعملة واحدة وكلٌّ قيل للرسل جميعًا.

القول الأول: الذي قيل له هو الأذية من قومه هو نفس الذي قيل للرسل سابقًا.

وهو قول الجمهور، قال تعالى: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ (فصلت: ٤٣).

والمعني: ما يقال لك من التكذيب والأذى إلا كما قد قيل للرسل من قبلك، فكما قد كذبت فقد كذبوا، وكما صبروا على أذى قومهم لهم، فاصبر أنت على أذى قومك لك، وهو قول الجمهور[1]. وممن قال به من أئمة التفسير:

قتادة: حيث قال (يعزيه قال: يقول: قد قيل للأنبياء: ساحر وشبه ذلك)[2].

السدي: حيث قال (مايقولون إلا ماقد قال المشركون للرسل من قبلك)[3].

وهو قول الحسن[4].

ويدل علي ذلك قول الله تعالي: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢﴾ (الذاريات: ٥٢).

فكما قيل له: ساحر فقد قيل لموسى عليه السلام ساحر كما قال سبحانه على لسان قومه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ (الشعراء: ٣٤). وكما قيل له مجنون فقد قيل لنوح عليه السلام مجنون كما قال سبحانه علي لسان قومه: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ (المؤمنون: ٢٥). وكما قيل له كاذب فقد قيل لصالح عليه السلام كذاب كما قال سبحانه على لسان قومه: ﴿أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ۝٢٥﴾ (القمر: ٢٥). وهكذا إذا تتبعنا سيرة الأنبياء مع قومهم.

القول الثاني: الذي قيل له: هو إخلاص العبادة لله وهذا أصل في كل شريعة.

والمعنى: أي ما يقال لك من إخلاص العبادة لله إلا ما قد أوحى إلى من قبلك، ولا خلاف بين الشرائع فيما يتعلق بالتوحيد وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن

---

(١) الطبري (٢٤/ ١٢٥-١٢٦)، والنكت والعيون (٥/ ١٨٦)، والبغوي (٤/ ١١٦) والكشاف (٤/ ٢٠٢)، والمحرر الوجيز (٥/ ١٩)، وزاد المسير (٧/ ٢٦٣)، والرازي (٢٧/ ١٢٣).

(٢) أخرجه عبدالرزاق (٢٧٢٠) من طريق معمر عنه، وأخرجه الطبري (١٢/ ١٢٦) من طريق سعيد، وذكره ابن أبي حاتم (١٨٤٦١)، وهو صحيح الإسناد إلي عبد الرزاق.

(٣) الطبري (١٢/ ١٢٦) من طريق أسباط عنه.

(٤) قاله ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٢٦٣).

قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ . . . ﴾ (الزمر: ٦٥)، أي: لم تدعهم إلا إلى ما تدعو إليه جميع الأنبياء فلا معنى لإنكارهم عليك[1].

قلت ذلك: لأن مامن نبي أرسله الله تعالى إلا دعاهم بإخلاص العبادة لله- عز وجل- وهذا هو أصل الدين، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ (الأنبياء: ٢٥). وكانت هي على لسان كل نبي إلى قومه كما قال تعالى: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ (هود: ٥٠). فهذا هو الأصل الذي جاء به كل نبي الذي جاء به كل رسول ولكن التفصيل وبيان المنهج في الدعوة والتشريع فهذا لكل نبي مع قومه.

الوجه الثاني: بيان أن أصل الدين واحد والدليل على اختلاف الشرائع.

وهذا يكون في ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: إن الدين عند الله الإسلام.

الرسالات التي جاء بها الأنبياء جميعًا منزلة من عند الله العليم الحكيم الخبير، ولذلك فإنها تمثل صراطًا واحدًا يسلكه السابق واللاحق، ولذا فإننا نجد الإسلام هو الدين الذي دعت إليه الرسل جميعًا من لدن آدم حتى تقوم الساعة قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ (آل عمران: ١٩).

فهو دين نوح عليه السلام حيث قال الله تعالى على لسان نبيه نوح عليه السلام: ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ (يونس: ٧٢). وهو دين إبراهيم عليه السلام قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ (البقرة: ١٣١). وقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ (آل عمران: ٦٧). وقال تعالى على لسان نبيه إبراهيم: ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ (البقرة: ١٢٨). ووصي بها قبل موته حيث قال الله تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٥/ ٣٥١)، وفتح القدير (٤/ ٧٢)، وفتح البيان (١٢/ ٢٦٠)، والمحرر الوجيز (٥/ ٢٠).

مُّسۡلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ (البقرة: ١٣٢)، وهو دين يعقوب عليه السلام حيث وصي به قبل موته، قال تعالى: ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ (البقرة: ١٣٣)، وهو دين يوسف عليه السلام حيث قال الله تعالى على لسان نبيه يوسف: ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ (يوسف: ١٠١).

وهو دين سليمان عليه السلام حيث قالت ملكة سبأ كما قال تعالى: ﴿وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ (النمل: ٤٤) وقد كتب لها كتابًا من قبل فيه كما أخبر سبحانه: ﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ (النمل: ٣١). وهو دين موسى عليه السلام حيث قال الله تعالى علي لسان نبيه موسي: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ (يونس: ٨٤). وهو دين عيسى عليه السلام قال الحواريون لعيسى: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٥٢)، وهو دين الجن المؤمنين حيث قال الله تعالى على لسانهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَۖ فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدٗا﴾ (الجن: ١٤).

وهو دين نبينا محمد ﷺ حيث قال الله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ (المائدة: ٣).

وعلى هذا فالدين الوحيد الذي ارتضاه الله لأهل السماء والأرض لا للعرب فحسب بل للبشرية جميعًا إنما هو دين الإسلام، لذا قال سبحانه: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ (آل عمران: ٨٥)[1].

المبحث الثاني: أهداف الرسالات السماوية.

(١) انظر الجواب الصحيح لابن تيمية ١/ ١٨ بتصرف.

إن الناظر بإمعان إلى كتاب الله يستطيع أن يخرج منه بالركائز الأساسية التي ارتكزت عليها دعوة الأنبياء السابقين. وتلك الركائز يسميها علماء الإسلام بالعناصر أو الأركان الأساسية للرسالات السماوية، وهذه العناصر وتلك الأهداف هي:

١-الدعوة إلى الإيمان بالله وحده لاشريك له.

٢-الإيمان بالبعث والجزاء.

٣-الدعوة إلى العمل الصالح.

أولًا: الدعوة إلى الإيمان بالله وحده لا شريك له، وهو توحيد الله.

ولنبدأ بسيدنا نوح عليه السلام: قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ (الأعراف: ٥٩)، وهود عليه السلام: قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ (الأعراف: ٦٥)، وصالح عليه السلام: قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ (هود: ٦١). شعيب عليه السلام قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ (الأعراف: ٨٥).

إبراهيم عليه السلام وهو يجادل أباه وقومه ويدعوهم إلى ترك ما كانوا عليه من عبادة الأصنام والتماثيل إلى عبادة فاطر السموات والأرض. قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾ (مريم: ٤٢). وقال تعالى: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ (الأنعام: ٧٩).

يوسف عليه السلام كان داعيًا إلى التوحيد حتى وهو في السجن. قال تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ (يوسف: ٣٩-٤٠)، موسى عليه السلام عندما سأله فرعون عن ربه كانت إجابته بإقرار التوحيد لله. قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ (الشعراء: ٢٣ - ٢٤).

عيسى عليه السلام أعلنها صراحة كما قال الله تعالى على لسان عيسى: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ (مريم: ٣٦). وقد قال الله جل في علاه موضحًا لمن اعتقدوا في عيسي أنه دعا إلى غير التوحيد المطلق كذب ادعائهم وبطلان مانسبوه إلي الله تعالى، وأنه قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾ (المائدة: ١١٦-١١٧)، ولذلك قال الله تعالى موضحًا الصورة بأوضح عبارة: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ (النحل: ٣٦).

ثانيًا: الإيمان بالبعث والجزاء، وهو الهدف الثاني في دعوة الأنبياء والرسل.

سيدنا نوح عليه السلام: ربط الدعوة إلى التوحيد بالتخويف من عذاب الله يوم القيامة. وهذا دليل علي الإيمان بالبعث والجزاء. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ (هود: ٢٥-٢٦)، وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ (نوح: ١٥-١٨).

موسى عليه السلام: وأن الله سبحانه وتعالي يربط بين نعمه على بني إسرائيل واليوم الآخر قال تعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (البقرة: ٤٧-٤٨)، وخير مثال على ذلك ما حدث عيانًا بيانًا على مرأى ومسمع في قصة البقرة التي ساقها الله سبحانه دليلًا عليهم كما في سورة البقرة.

عيسي عليه السلام فالله سبحانه يربط كذلك ربطًا وثيقًا حيث قال: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ . . . ﴾ (آل عمران: ٥٥).

ثالثًا: الدعوة إلي العمل الصالح.

وهذا هو الهدف الثالث في دعوة الأنبياء والرسل. لأن كل نبي كان يأتي لقومه ليعالج مشكلة معينة، ومن خلال معالجته لتلك المشكلة يدعو قومه إلى العمل الصالح.

سيدنا نوح عليه السلام: حيث قال الله تعالى على لسان سيدنا نوح عليه السلام: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣﴾ (نوح: ٣). والتقوى هي: جماع خصال البر.

سيدنا لوط عليه السلام وهو ينفر قومه من ارتكاب جريمة اللواط، حيث قال الله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ۝٨١﴾ (الأعراف: ٨٥-٨٦).

ثم يبين لهم الأفضل من ذلك في معرض الكلام: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ (الشعراء: ١٦٦). سيدنا شعيب عليه السلام ينهي قومه عما فشا فيهم من التطفيف في الكيل والميزان وبخس الناس أشياءهم والسعي بالفساد بين الناس وصدهم عن سبيل الله. قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ ......﴾ (الأعراف: ٨٥). وسيدنا موسى عليه السلام: قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٢٨﴾ (الأعراف: ١٢٨).

سيدنا عيسى عليه السلام حيث قال الله تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ۝٣٠﴾ (مريم: ٣٠).

سيدنا محمد ﷺ التي جمعت شريعته هذه الخصال حيث قال الله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ .....﴾ (الأنعام: ١٥١-١٥٣).

ومن هنا يتضح لنا أن الدين واحد وهو الإسلام كما أن أصول الرسالات السماوية واحدة، إلا أن كل نبي يبعث إلى أمة معينة لأهداف معينة استلزمت اختلاف الشرائع التي شرعها الله لكل أمة.

المبحث الثالث: لكل أمة شرعةً ومنهاجًا.

قد قدمنا في المبحثين الأولين أن أصل الدين واحد وهو دين الإسلام، وأن الأهداف التي جاءت بها الرسالات واحدة. فهذا لا يمنع أن تختلف الشرائع وذلك حسب الظروف والأوضاع التي كانت سائدة بها بما يكفل صلاحها ويزيل ما ران في قلوبها من ظلمات. والقرآن الكريم يخبرنا أن الرسل جميعًا حملوا ميزان العدل والقسط، قال تعالي: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (الحديد: ٢٥). وأنهم أمروا بأن يكسبوا رزقهم بالحلال، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ (المؤمنون: ٥١)، ولذلك قال الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (المائدة: ٤٨).

فهذا إخبار عن الأمم المختلفة باعتبار مابعث الله به رسله الكرام من الشرائع المختلفة في الأحكام المتفقة في التوحيد. فالشرائع مختلفة في الأوامر والنواهي، فقد يكون الشيء في هذه الشريعة حرامًا، ثم يحل في الشريعة الأخرى وبالعكس، وخفيفًا فيزداد في الشدة في هذه دون هذه، وذلك لما له تعالى في ذلك من الحكمة البالغة والحجة الدامغة. وهذا خطاب لجميع الأمم وإخبار عن قدرته تعالي العظيمة التي لو شاء لجمع الناس كلهم على دين واحد وشريعة واحدة لا ينسخ منها شيئًا. ولكنه تعالي شرع لكل رسول شرعة علي حدة ثم نسخها أو بعضها برسالة الآخر الذي بعده حتى نسخ الجميع بما بعث به عبده ورسوله محمدﷺ الذي ابتعثه إلي أهل الأرض قاطبة وجعله خاتم الأنبياء كلهم. ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ (المائدة: ٤٨). أي أنه تعالى شرع لنا الشرائع مختلفة ليختبر عباده فيما شرع لهم. ويثيبهم أو يعاقبهم على طاعته ومعصيته بما فعلوه أو عزموا عليه من ذلك كله[1].

وممن قال به علي ﷺ قال: الإيمان منذُ بَعث الله تعالى ذكره آدمﷺ: شهادةُ أن لا إله إلا الله، والإقرار بما جاء من عند الله، لكلّ قوم ما جاءَهم من شرعة أو منهاج، فلا يكون المقرُّ

(١) تفسير الطبري (٦/ ٢٧٠)، والمحرر الوجيز (٢/ ٢٠٠)، والقرطبي (٦/ ٢٠١- ٢٠٢)، وابن كثير (٥/ ٤٤٨-٤٤٩)، وفتح البيان (٣/ ٤٤٣-٤٤٥).

تاركًا، ولكنه مُطِيع[١].

قال قتادة ﷺ: فإن الدين واحد والشريعة مختلفة.[٢]

وقال أيضًا في تفسيرها: سبيلًا وسُنّة. والسنن مختلفة: للتوراة شريعة، وللإنجيل شريعة، وللقرآن شريعة، يحلُّ الله فيها ما يشاء، ويحرِّم ما يشاء بلاءً، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه. ولكن الدين الواحد الذي لا يقبل غيره: التوحيدُ والإخلاصُ لله، الذي جاءت به الرسل.[٣]

والدليل على ذلك من السنة:

حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **"أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَالْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ"**.[٤]

والعلات: بفتح المهملة الضرائر. وأولاد العلات الأخوة من الأب وأمهاتهم شتي.

ومعني الحديث أن أصل دينهم واحد وهو التوحيد وإن اختلفت فروع الشرائع[٥].

الوجه الثالث: ذكر بعض خصائص القرآن الكريم والإسلام.

١ـ الخلود: بمعنى أن دين الإسلام لا يزاحمه دين أبدًا، لأنه دين الفطرة، دين الخلود إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. قال الله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ (آل عمران: ١٩).

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (آل عمران: ٨٥)، وقال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ (المائدة: ٣).

---

(١) تفسير الطبري (٦/ ٢٧٠) وهو ضعيف، فيه سيف بن عمر التميمي ضعيف الحديث.

(٢) أخرجه عبدالرزاق (٧٢٠) وعنه الطبري (٦/ ٢٧٠) وابن أبي حاتم (٦٤٨٧) من طريق معمر عن قتادة، وهذا إسناد صحيح.

(٣) الطبري (٦/ ٢٦٩) وابن أبي حاتم (٦٤٨٨) من طريق يزيد بن زريع عن سعيد عن قتادة. وزاد نسبته السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٩٦) إلي عبد بن حميد وأبي الشيخ.

(٤) أخرجه البخاري (٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥).

(٥) فتح الباري (٦/ ٥٦٤)، وشرح النووي (٨/ ١٣٢).

أما الرسالات السماوية السابقة فهي موقوتة ومحلية وليست عالمية، ولا أدل على ذلك مما ورد على لسان المسيح نفسه حين قال: **مَتَى جَلَسَ ابْنُ الإِنْسَانِ عَلَى كُرْسِيِّ مَجْدِهِ، تَجْلِسُونَ أَنْتُمْ أَيْضًا عَلَى اثْنَيْ عَشَرَ كُرْسِيًّا تَدِينُونَ أَسْبَاطَ إِسْرَائِيلَ الاثْنَيْ عَشَرَ**. متى (١٩/ ٢٨).

٢- العموم: فرسالات الأنبياء السابقين جميعًا كانت تخاطب أقوامًا بأعينهم وتخصهم بنداء ﴿يَٰقَوْمِ﴾ فهي رسالات قومية محلية ترتبط بزمان ومكان وقوم.

أما رسالة سيدنا محمد ﷺ عامة. قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الأعراف: ١٥٨)، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ (سبأ: ٢٨)، ولذا قال النبي ﷺ: "أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ". (أي إلى الخلق كافة)[1].

وراجع المقدمة ففيها مزيد على ذلك.

فرسالة سيدنا محمد ﷺ غير محدودة بعصر ولا جيل ولا مكان ولا زمان ولا بشعب أو بطبقة بعينها بل هي رسالة الناس جميعًا ومن ثم نستطيع القول بأن رسالة الإسلام رسالة عامة للناس جميعًا وتشريعاتها متناسقة متكاملة توائم الفطرة الإنسانية.

أما الرسالات السابقة فهي خاصة بأقوام بدليل أن كل نبي كان يخاطب قومه ويخصهم بالذكر دون غيرهم. قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ . . .﴾ (نوح: ١)، ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ . . .﴾ (الأعراف: ٦٥)، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ﴾ (الأعراف: ٧٣). ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ . . .﴾ (الأعراف: ٨٥)، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ (إبراهيم: ٥).

ورسالة عيسى عليه السلام خاصة لبني إسرائيل. قال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ (آل عمران: ٤٩). وقال: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ (الصف: ٦).

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥)، مسلم (٥٢١) واللفظ له.

٣ـ الوضوح: مما تتميز به رسالة الإسلام في أصولها وقواعدها ومصادرها ومنابعها وأهدافها وغاياتها ومناهجها ووسائلها. وأول ما يبدو لنا واضحًا في أصول الإسلام وقواعده عقيدة التوحيد التي لا مكان فيها لتأليه بشر أو حجر. ولذلك كان نداء الإسلام الأول لأهل الكتاب قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ (آل عمران: ٦٤).

٤ـ حفظ الله للقرآن الكريم: إذا نظرنا نظرة واقعية إلى نصوص الكتب المقدسة قبل نزول القرآن الكريم يتضح أنها متضاربة تختلف في الأمر الواحد وذلك للأسباب الآتية:

١- ضياع النص الأصلي المنزل علي الأنبياء.

٢- فقدان السند.

٣- تعدد الروايات في القضية الواحدة وتضاربها.

٤- تدخل أيدي البشر بالتحريف والتبديل بالزيادة تارة والنقصان تارة أخرى وليس أدل علي تحريفها وتدخلهم في تبديلها وتغييرها من شهادة الله تعالي عليهم وهو خير الشاهدين، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾ (آل عمران: ٧١)، وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ (البقرة: ٧٩)، وغير ذلك من الآيات.

أما القرآن الكريم فاختص الله بحفظه، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ (الحجر: ٩)، فضلًا عن أن القرآن الكريم كتاب معجز. (١)

الوجه الرابع: بيان بعض أوجه الاتفاق والاختلاف في الشرائع.

---

(١) المجلة العلمية لكلية أصول الدين العدد٦ (٢٩٩: ٢٨٧) ملخصًا.

وليس معنى ذلك أن الشرائع تختلف اختلافًا كليًا، فالناظر في الشرائع يجد أنها متفقة في المسائل الأساسية، وقد سبق ذكر ذلك في الأهداف العامة للرسالات وإنما الاختلاف يكون في بعض التفاصيل (الفروع) فأعداد الصلوات وشروطها وأركانها ومقادير الزكاة ومواضع النسك ونحو ذلك قد تختلف من شريعة إلي شريعة وقد يحل الله أمرًا في شريعة لحكمة ويحرمه في شريعة أخري لحكمة، وهذه بعض الأمثلة:

أولًا: الصلاة

فكانت معروفة عند الرسل السابقين وأتباعهم كما قال الله تعالى بعد ذكر الحديث عن إبراهيم عليه السلام، وأن الله وهب له إسحاق ويعقوب، قال سبحانه: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ (الأنبياء: ٧٣)، ولذا قال إبراهيم عليه السلام كما قال الله تعالى: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾﴾ (إبراهيم: ٤٠). وفي حق شعيب عليه السلام حيث قال له قومه كما قال سبحانه: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ (هود: ٨٧). وفي حق إسماعيل عليه السلام حيث قال سبحانه: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ (مريم: ٥٥). وموسي عليه السلام حيث قال الله تعالي: ﴿فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ (طه: ١٤). وعيسي عليه السلام حيث قال الله سبحانه علي لسان عيسى عليه السلام: ﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ (مريم: ٣١). وفي حق زكريا عليه السلام قال الله سبحانه: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ﴾ (آل عمران: ٣٩).

فالصلاة كانت معروفة عند إبراهيم عليه السلام: (**فَصَلَّى إِبْرَاهِيمُ إِلَى اللهِ، فَشَفَى اللهُ أَبِيمَالِكَ وَامْرَأَتَهُ وَجَوَارِيَهُ فَوَلَدْنَ.**) تكوين (٢٠/ ١٧).

وإسحاق عليه السلام: (**وَصَلَّى إِسْحَاقُ إِلَى الرَّبِّ لأَجْلِ امْرَأَتِهِ لأَنَّهَا كَانَتْ عَاقِرًا، فَاسْتَجَابَ لَهُ الرَّبُّ، فَحَبِلَتْ**) تكوين (٢٥/ ٢١).

موسى عليه السلام: (**فَخَرَجَ مُوسَى مِنْ لَدُنْ فِرْعَوْنَ وَصَلَّى إِلَى الرَّبِّ**) خروج (١٠/ ١٨).

سليمان عليه السلام: (وَكَانَ لَمَّا انْتَهَى سُلَيْمَانُ مِنَ الصَّلاَةِ إِلَى الرَّبِّ بِكُلِّ هذِهِ الصَّلاَةِ وَالتَّضَرُّعِ) الملوك الأول (٨/ ٥٤)

وفي شريعة عيسى عليه السلام: (وَكُلُّ مَا تَطْلُبُونَهُ فِي الصَّلاَةِ مُؤْمِنِينَ تَنَالُونَهُ) متى (٢١/ ٢٢). (وَفِي تِلْكَ الأَيَّامِ خَرَجَ إِلَى الْجَبَلِ لِيُصَلِّيَ. وَقَضَى اللَّيْلَ كُلَّهُ فِي الصَّلاَةِ لله) لوقا (٦/ ١٢).

(هؤُلاَءِ كُلُّهُمْ كَانُوا يُواظِبُونَ بِنَفْسٍ وَاحِدَةٍ عَلَى الصَّلاَةِ وَالطِّلْبَةِ، مَعَ النِّسَاءِ، وَمَرْيَمَ أُمِّ يَسُوعَ، وَمَعَ إِخْوَتِهِ.) أعمال الرسل (١/ ١٤).

(وَصَعِدَ بُطْرُسُ وَيُوحَنَّا مَعًا إِلَى الْهَيْكَلِ فِي سَاعَةِ الصَّلاَةِ التَّاسِعَةِ) أعمال الرسل (٣/ ١).

١- الصلاة في الشريعة الإسلامية:

ومن هنا نلاحظ أن الصلاة كانت مفروضة على من قبلنا كما فرضت على النبي ﷺ. لكن الاختلاف في الهيئة والصفة فعندنا في شريعتنا وهي شريعة النبي ﷺ. التعبد لله تعالى بأقوال وأفعال معلومة مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم مع النية بشرائط مخصوصة.

وقد ثبت فرضية الصلاة بالقرآن والسنة والإجماع، قال سبحانه: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، وقال ﷺ كما في حديث ابن عمر: "بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَصَوْمِ رَمَضَانَ"(١). وهي محددة بمواقيت قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ (النساء: ١٠٣).

وهي خمس صلوات كما عند الجمهور كما جاء في الحديث الأعرابي: أخبرني ما فرض الله علي من الصلوات؟ فقال: "خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ فَقَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قَالَ لَا إِلَّا أَنْ تَطَّوَّعَ"(٢).

وإنها محددة بعدد ركعات علي ما فيها من سجود وركوع وقيام.

---

(١) أخرجه البخاري (٨)، ومسلم (١٦).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦)، ومسلم (١١).

قال ابن المنذر: أجمع أهل العلم على أن صلاة الظهر أربع ركعات يخافت فيها بالقراءة، ويجلس فيها جلستين في كل مثنى جلسة للتشهد، وأن عدد صلاة العصر أربع كصلاة الظهر لا يجهر فيها بالقراءة، ويجلس فيها جلستين في كل مثنى جلسة للتشهد، وأن عدد صلاة المغرب ثلاث يجهر في الركعتين الأولتين منها بالقراءة ويخافت في الثالثة، ويجلس في الركعتين الأولتين جلسة للتشهد وفي الآخرة جلسة، وأن عدد صلاة العشاء أربع، يجهر في الركعتين الأولتين منها بالقراءة، ويخافت في الأخريين ويجلس فيها جلستين كل مثنى جلسة للتشهد، وأن عدد صلاة الصبح ركعتان يجهر فيهما بالقراءة ويجلس فيها جلسة واحدة للتشهد هذا فرض المقيم، فأما المسافر ففرضه ركعتان إلا صلاة المغرب؛ فإن فرض المسافر في صلاة المغرب كفرض المقيم[١].

ومن هنا نلاحظ أن الشريعة الإسلامية حددت عدد الصلوات ومواقيت الصلوات وكيفية كل صلاة. هذا بخلاف ما فعله اليهود والنصارى في دينهم فقد بدلوا وغيروا وأضافوا ونقصوا. وإليك بعض الحديث عن ذلك.

الصلاة في المسيحية منها ما هو فردي يقوم به المسيحي وحده ومنها جماعي.

العبادة الفردية: هي العبادة الخاصة التي يكملها شخص أو أكثر في الكنيسة أو في أي مكان ولا تخضع لأي نظام فيكون للمسيحي أن يصلي في البيت أو الشارع أو ساحة المدرسة.

وأما العبادة الجماعية: فهى العبادة العامة التي تكملها الجماعة في الكنيسة على الغالب بقيادة كاهن وحسب ترتيب معين.

التسابيح السبع: تتضمن الخدمة التسبيحية سبع خدم إلهية تقام كل يوم. . . فهي صلاة نصف الليل، صلاة السحر والساعة الأولي، صلاة الساعة الثالثة، السادسة، التاسعة، الغروب، النوم

يقول الدكتور أحمد شلبي: وليس للصلاة المسيحية ترتيب خاص وإنما هي أدعية تختلف من مكان إلي مكان. وغاية ما يلزم أن تحويه أن تكون على نسق الصلاة الربانية.

(١) الأوسط لابن المنذر (٢/ ٣١٨).

يقول المستشار الطهطاوي: لا يوجد لدي المسيحيين نص عن عدد معين من الصلوات كل يوم أو مواقيت لها إلا أنهم يتشبهون ويقتبسون من اليهود العدد والوقت للصلاة. لذا قرروا لهم صلاتين إحداهما في الصباح والأخرى في المساء. (١)

وعلى هذا فهم يكثرون من الصلاة ويستندون في ذلك علي ماجاء في لوقا (**وَقَالَ لَهُمْ أَيْضًا مَثَلًا فِي أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يُصَلَّى كُلَّ حِينٍ وَلاَ يُمَلَّ**) لوقا (١٨/ ١).

وكما جاء في آخر رسالة بولس إلى أهل تسالونيكي (صلوا بلا انقطاع). رسالة بولس إلى تسالونيكي (٥/ ١٧).

لذا ازدادوا فيها سبع صلوات في اليوم والليلة وهي كالآتي: صلاة البكور، صلاة الساعة الثالثة، صلاة الساعة السادسة، صلاة الساعة التاسعة، صلاة الساعة الحادية عشر، صلاة الساعة الثانية عشر، صلاة منتصف الليل. (٢)

ثانيًا: الصوم.

١ـ الصوم في الشريعة الإسلامية:

هو الإمساك عن الطعام والشراب وسائر المفطرات من طلوع الشمس إلي غروب الشمس مع نية التعبد لله تعالي. وصيام رمضان فرض على كل مسلم بالغ عاقل صحيح مقيم وهو ركن من أركان الإسلام دل علي وجوبه الكتاب والسنة والإجماع.

أما من الكتاب قوله تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣** ﴾ (البقرة: ١٨٣).

ومن السنة حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: "قَالَ رَسُولُ الله ﷺ بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَصَوْمِ رَمَضَانَ"(٣).

---

(١) شبهات المستشرقين د. ناصر محمد السيد (١٢٩: ١٢٦).

(٢) النصرانية والإسلام محمد عزت الطهطاوي (٨٧: ٨٥).

(٣) أخرجه البخاري (٨)، ومسلم (١٦).

وأما الإجماع فقد أجمع المسلمون على أن الصوم ركن من أركان الإسلام المعلومة من الدين بالضرورة بحيث يكفر منكره، وأنه لا يسقط علي المكلف إلا بعذر من الأعذار الشرعية المعتبرة(١).

وعلي هذا فقد أصبح الفرض هو شهر رمضان، وأما غيره من الأيام فهو من المستحبات. والصوم كان مفروضًا على من قبلنا كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ. . . ﴾ (البقرة ١٨٣).

كما قال قتادة في تفسيرها: كتب شهرُ رمضان على الناس، كما كُتب على الذين من قبلهم. قال: وقد كتب الله على الناس قبل أن ينزل رمضانُ صَوْمَ ثلاثة أيام من كل شهر(٢).

هذا وقد كان النبي ﷺ يصوم يوم عاشوراء؛ فلما ذهب إلي المدينة فَرَأَى الْيَهُودَ تَصُومُ يَوْمَ عَاشُورَاءَ فَقَالَ: "مَا هَذَا؟ قَالُوا: هَذَا يَوْمٌ صَالِحٌ هَذَا يَوْمٌ نَجَّى الله بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ عَدُوِّهِمْ فَصَامَهُ مُوسَى قَالَ: فَأَنَا أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْكُمْ فَصَامَهُ وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ"(٣).

فلما فرض رمضان ترك النبي ﷺ الأمر في صيام عاشوراء ولم يأمر الصحابة بذلك وبقي الأمر على الاستحباب(٤).

وكان معروفًا في زمن داود عليه السلام: حيث قال ﷺ: "أَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى الله صِيَامُ دَاوُدَ كان يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا"(٥).

والصوم كان معروفًا قبل النبي ﷺ، وجاء النبي ﷺ ليضع له المعالم ويضبطه بالضوابط وهكذا كما هو معلوم في كتب السنة.

وأما اليهود والنصارى فحرفوا وبدلوا وجعلوه أعيادًا حسب مايراه الأحبار والرهبان وقد ينقلونه إلي أيام أخر إذا تعارض مع المصلحة ويزيدون وينقصون كذلك.

---

(١) المغني (٣/ ٣)، والمجموع (٦/ ٢٥٢).

(٢) أخرجه عبد الرزاق (١٧٨) من طريق معمر عن قتادة بإسناد صحيح، والطبري (٢/ ١٣٠) من طريق سعيد عن قتادة.

(٣) أخرجه البخاري (٤٧٣٧)، ومسلم (١١٣٠).

(٤) أخرجه البخاري (٢٠٠٢)، ومسلم (١١٢٥).

(٥) أخرجه البخاري (١٩٧٦)، ومسلم (١١٥٩).

ثالثا: الحج

١ـ الحج في الشريعة الإسلامية:

هو قصد بيت الله الحرام لأداء عبادة مخصوصة في زمن مخصوص بكيفية مخصوصة.

والحج فرض عين علي كل مكلف مستطيع في العمر مرة. وهو ركن من أركان الإسلام وقد ثبت فرضيته بالكتاب والسنة والإجماع.

أما الكتاب: فقد قال سبحانه وتعالي: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ (آل عمران: ٩٧).

وأما من السنة: فقد وردت أحاديث كثيرة جدًّا بلغت حد التواتر تفيد اليقين والعلم القطعي الجازم بثبوت هذه الفريضة. ومن ذلك حديث ابن عمرأن النبيﷺ قال: "بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَصَوْمِ رَمَضَانَ"[١].

وأما الإجماع: فقد أجمعت الأمة علي وجوب الحج (على المستطيع) مرة واحدة في العمر وهو المعلوم بالدين بالضرورة يكفر جاحده[٢]

والحج له مواقيت: إما زمانية أو مكانية:

والزمانية: هي كما قال سبحانه: ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ﴾ (البقرة: ١٩٧)، أي: لايصح شيءمن أعمال الحج إلا فيها.

والمكانية: فهي كما في حديث ابن عباس قال: "وقت رسول الله ﷺ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ ذَا الْحُلَيْفَةِ وَلِأَهْلِ الشَّأْمِ الْجُحْفَةَ وَلِأَهْلِ نَجْدٍ قَرْنَ وَلِأَهْلِ الْيَمَنِ يَلَمْلَمَ. . . "[٣]، وفي حديث عائشة رضي الله عنها "أن رسول اللهﷺ وقت لأهل العراق ذات عرق"[٤].

هذا وللحج أركان لا يصح إلا بها، وهي عند الجمهور أربعة: الإحرام، والوقوف

---

(١) أخرجه البخاري (٨)، ومسلم (١٦).

(٢) المغني (٣/ ١٥٩)، والمجموع (٧/ ٧).

(٣) أخرجه البخاري (١٥٦٢)، ومسلم (١١٨١).

(٤) أخرجه أبو داود (١٧٣٩)، والنسائي (٥/ ١٢٣)، وصححه الألباني في الإرواء (٩٩٩).

بعرفة، وطواف الإفاضة، والسعي بين الصفا والمروة.

وله واجبات وسنن ومحظورات وضحت كتب السنة كل ذلك.

وقد حج النبي ﷺ حجة الوداع، ورواها لنا مسلم في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

هذا والحج كان قديمًا قبل بعثة النبي ﷺ فهي دعوة إبراهيم عليه السلام حيث أمره الله بالآذان بالحج، قال سبحانه: ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ (الحج: ٢٧)، فكان في شريعة إبراهيم عليه السلام، هذا وكانت مناسك الحج معروفة قديمًا علي عهد الأنبياء قبل نبينا ﷺ. ففي حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ مَرَّ بِوَادِي الْأَزْرَقِ، فَقَالَ: "أَيُّ وَادٍ هَذَا؟ فَقَالُوا هَذَا وَادِي الْأَزْرَقِ. قَالَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى مُوسَى عليه السلام هَابِطًا مِنْ الثَّنِيَّةِ وَلَهُ جُؤَارٌ إِلَى اللهِ بِالتَّلْبِيَةِ، ثُمَّ أَتَى عَلَى ثَنِيَّةِ هَرْشَى فَقَالَ: أَيُّ ثَنِيَّةٍ هَذِهِ؟ قَالُوا ثَنِيَّةُ هَرْشَى قَالَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى يُونُسَ بْنِ مَتَّى عليه السلام عَلَى نَاقَةٍ حَمْرَاءَ جَعْدَةٍ عَلَيْهِ جُبَّةٌ مِنْ صُوفٍ خِطَامُ نَاقَتِهِ خُلْبَةٌ وَهُوَ يُلَبِّي"[(١)].

وأهل قريش كانوا يحجون استنادًا إلي ملة إبراهيم غير أنهم كانوا يشركون فكانوا يطوفون عراة يصفقون ويصفرون كما قال سبحانه: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾ (الأنفال: ٣٥)، ولذلك أرسل رسول الله ﷺ أبا بكر في الحجة التي أمّره عليها قبل حجة الوداع أن يؤذن في الناس يوم النحر "لَا يَحُجُّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ وَلَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ"[(٢)]. وكانوا يلبون لكن كانوا يشركون بالله في التلبية كما عند مسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنه قال: "كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَقُولُونَ لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ قَالَ: فَيَقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَيْلَكُمْ قَدْ قَدْ فَيَقُولُونَ إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ يَقُولُونَ هَذَا وَهُمْ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ"[(٣)].

إلى غير ذلك مما يحدث من أمور الشرك، فجاء النبي ﷺ ليوضح لهم شريعة الله في الحج فتعلم الصحابة ونقلوا هذه الشعيرة إلينا كما تعلموها وهكذا ينقلها الخالف عن

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٦).

(٢) أخرجه البخاري (١٦٢٢)، ومسلم (١٣٤٧).

(٣) أخرجه مسلم (١١٨٥).

السالف، وهاأنا أوضح كيف بدل وحرف اليهود والنصارى في هذه الشعيرة التي لم تصبح عبادة؛ وإنما صارت عادة نظمها لهم أحبارهم ورهبانهم على حسب الأهواء لنعلم أن الشريعة الإسلامية هي المنهج الأسمى للبشر.

٢ ـ الحج عند اليهودية (العهد القديم):

لو أننا يممنا وجوهنا شطر شعيرة الحج في اليهودية والنصرانية لتبين لنا بوضوح الفروق الجوهرية بين الشعيرة في الرسالات الثلاث بل لا نغالي إذا قلنا: إن الحج كشعيرة لا وجود له في اليهودية والنصرانية المحرفتين، فليس في اليهودية حج بالمعني الذي يسبق إلى الذهن، وإنما هو مجرد أعياد مرتبطة بمواسم الحصاد. فيتعين على كل يهودي أن يحج ثلاث مرات في العام إلى القدس (عيد الفصح، وعيد الأسابيع، وعيد المظال) ولذا تسمي الأعياد (أعياد الحج)، وهذا ماجاء في سفر الخروج، (**ثَلاَثَ مَرَّاتٍ تُعَيِّدُ لِي فِي السَّنَةِ. ١٥ تَحْفَظُ عِيدَ الْفَطِيرِ. تَأْكُلُ فَطِيرًا سَبْعَةَ أَيَّامٍ كَمَا أَمَرْتُكَ فِي وَقْتِ شَهْرِ أَبِيبَ، لأَنَّهُ فِيهِ خَرَجْتَ مِنْ مِصْرَ. وَلاَ يَظْهَرُوا أَمَامِي فَارِغِينَ. ١٦ وَعِيدَ الْحَصَادِ أَبْكَارِ غَلاَّتِكَ الَّتِي تَزْرَعُ فِي الْحَقْلِ. وَعِيدَ الْجَمْعِ فِي نِهَايَةِ السَّنَةِ عِنْدَمَا تَجْمَعُ غَلاَّتِكَ مِنَ الْحَقْلِ. ١٧ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ فِي السَّنَةِ يَظْهَرُ جَمِيعُ ذُكُورِكَ أَمَامَ السَّيِّدِ الرَّبِّ**).
خروج (٢٣/ ١٧: ١٤)، ويراجع سفر التثنية (١٦/ ١٧: ١).

وكان اليهود يقدمون في حجهم قربانًا مشويًا للهيكل (الشواء) حيث كان يحرق تمامًا، فلا يبقي منه شيء للكهنة، وكان اليهود يحجون إلى مكان غير القدس يسمى (شيلوه)، وحين دخل داود القدس أصبحت مكانًا للعبادة الإسرائيلية والمكان الذي إليه أعضاء جماعة إسرائيل، وقد أسس ملوك المملكة الشمالية هيكلًا حتى لا يحج أحد منها إلى القدس في المملكة الجنوبية، وبعد هد الهيكل توقف الحج وبخاصة في عيد المظال[1].

٣ـ الحج في المسيحية (العهد الجديد):

ما قيل في اليهودية يقال في المسيحية فليس في المسيحية الحالية شعيرة يمكن أن يطلق عليها اسم الحج كما هو الحال في شعيرة الحج في الإسلام في كمالها وشمولها ووضوحها.

---

(١) موسوعة اليهود واليهودية د/ عبد الوهاب المسيري (١/ ٤١٢: ٤١١). شبهات المستشرقين/ ناصر محمد السيد (٣٩٣: ٣٨٣).

فلم يرو ولم تشر الأناجيل إلى ذلك ولم تظهر هذه العبارة في الكتابات المسيحية الأولي وكبقية العبادات خضعت هذه العبادة أو الشعيرة لاختراعات وابتداعات من قبل اللاهوتيين المسيحيين وخاصة البابا. والحج المسيحي إلي القدس ليس فريضة من الفرائض المنصوص عليها في المسيحية وإنما نشأ بعد الإمبراطورة هيلانة أم الإمبراطور قسطنطين. وقد زارت القدس سنة ٣٢٤. وعثرت علي الصليب الحقيقي كما تذكر بعض الروايات الضعيفة وصعدت هيلانة إلي مرتبة القداسة فعرفت بالقديسة.

وليس لهذا الحج طقوس أو مناسك، وباعتبار أن المسيح عليه السلام قد ولد في فلسطين ورفع إلى السماء منها فقد أنشئت كنيسة في الناصرة وكنيسة القيامة في مدينة القدس وكذلك كنيسة أخرى في بيت لحم. واعتبر المسيحيون كل بقعة تجول فيها المسيح مكانًا مقدسًا. وراح اللاهوتيون مع مرور السنين يفلسفون مفهوم الحج بأنه زيارة واجبة على كل مسيحي إلى تلك الأماكن المقدسة.

وأما مزارات الحج المسيحي: ففي المسيحية عدة أماكن يقصدها المسيحيون لحجهم:

١- الحج إلى مدينتي القدس وروما: وهي من أعظم مزارات الحج المسيحي باعتبار مولد صاحب الديانة والمركزية الدينية لهذه الديانة.

٢- الحج إلى مدينة (تريفس): وهي مدينة ألمانية يعتقد أن بها قميص المسيح الذي كان يرتديه.

٣- الحج إلي كنيسة (لودره) بفرنسا: والحج إليها ناتج عن إشاعة تقول: إن العذراء ظهرت لاثنين من رعاة مدينة لودره، وعلي مقربة من الكنيسة عين ماء يعتقدون أنه ماء مبارك يشفي المرضى.[1]

الوجه الخامس: ما هي فائدة الإنجيل بعد التوراة؟ وما هي فائدة تكرار الأناجيل؟

هذا سؤال يطرح نفسه الآن إذا كنتم تقولون بأن الذي قيل للنبي ﷺ هو نفس الذي قيل للأنبياء من قبله، فما هي فائدة القرآن؟

والجواب: زيادة ما تقدم أقول من نفس سؤالكم: فما هي فائدة الإنجيل بعد التوراة؟

---

(١) العقيدة النصرانية بين القرآن والأناجيل (٢/ ١٨٧: ١٨٢)، شبهات المستشرقين حول العبادات د. ناصر محمد السيد (٣٩٨: ٣٩٤).

مع أن يسوع قال: **لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأَنْقُضَ النَّامُوسَ أَوِ الأَنْبِيَاءَ. مَا جِئْتُ لأَنْقُضَ بَلْ لأُكَمِّلَ. ١٨فَإِنِّي الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِلَى أَنْ تَزُولَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ لاَ يَزُولُ حَرْفٌ وَاحِدٌ أَوْ نُقْطَةٌ وَاحِدَةٌ مِنَ النَّامُوسِ حَتَّى يَكُونَ الْكُلُّ. ١٩فَمَنْ نَقَضَ إِحْدَى هذِهِ الْوَصَايَا الصُّغْرَى وَعَلَّمَ النَّاسَ هكَذَا، يُدْعَى أَصْغَرَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ. وَأَمَّا مَنْ عَمِلَ وَعَلَّمَ، فَهذَا يُدْعَى عَظِيمًا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ**) متى (٥/ ١٩: ١٧).

ودقق في هذا اللفظ الذي ذكر عليك. ومع هذا الذي أنقله أيضًا عن يسوع حيث قال: (قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تقتل. . . . وأما أنا فأقول لكم. . . . . . قد سمعتم أنه قيل للقدماء لاتزن. . . . . . . وأما أنا فأقول لكم. . . . . . . وقد قيل من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق وأما أنا فأقول لكم. . . . . .). متى (٥/ ٤٨: ٢١).

أظنك لاحظت الفرق، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فما هي فائدة تكرار الأناجيل وبعضها مقتبس من بعض بالحرف والتركيب. . . . . . ؟

ولا أرى مثلًا إلا كما قال سبحانه: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ (البقرة: ٤٤).

* * *

سورة الشورى

وفيها:

١- شبهة: استغفار الملائكة للبشر.

٢- شبهة: هل سيُبصر العصاة والظالمون يوم القيامة أم لا؟.

١- شبهة: استغفار الملائكة للبشر.

نص الشبهة:

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ . . . ﴾ (غافر: ٧)، وقال تعالى: ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (الشورى: ٥).

قالوا: كيف يستغفرون لمن في الأرض وفيهم الكفار والمنافقين. ثم قالوا وأنكروا استغفار الملائكة أو شفاعتهم لهم، وإذا صح ذلك فلماذا أرسل الرسل؟ وماهي منافعهم؟

والجواب من هذه الوجوه:

الوجه الأول: أهمية إرسال الأنبياء والرسل.

الوجه الثاني: علاقة الملائكة بالصالحين من بني آدم.

الوجه الثالث: آية الشورى خصصت بآية غافر فلا تعارض.

الوجه الرابع: الملائكة في سورة الشورى أعم من الملائكة في سورة غافر.

الوجه الخامس: الاستغفار بمعنى طلب الهداية لهم، وليس لمغفرة ذنوبهم.

الوجه السادس: بيان أنه لا يجوز الاستغفار للمشركين إذا ماتوا على الشرك.

الوجه السابع: علاقة الملائكة بالبشر عندهم في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: أهمية إرسال الأنبياء والرسل.

ونتحدث في هذا الوجه على أهمية الأنبياء والحاجة إليهم وهذا في مباحث:

المبحث الأول: حاجة الناس للأنبياء والرسل:

أولًا: لقد خلق الله تعالى الإنسان وزوده بوسائل المعرفة؛ ليكون خليفة في الأرض حتى يعمرها ويسخر ما فيها لمعيشته ومن ثم يتخذها مقرا لعبادة الله تعالى.

ثانيًا: إن الإنسان رغم ما زوده الله تعالى به من وسائل معرفية إلا أنه لا يستطيع

الإحاطة في معرفته إلا بالقدر اليسير من كثير مما حوله في هذا الكون الفسيح المحسوس المرتبط ارتباطا وثيقا بحياته ذلك أن أكثر ما في هذا الكون يدخل في عالم الغيب النسبي أو المطلق بالنسبة للإنسان مما يجعله في حاجة إلى مصدر عليم بأمر الكون حتى يزوده بمعلومات تزيح عنه الستر وتكشف عنه بعض الغيب.

ثالثا: لما كان الإنسان مفطورًا على عبادة الله تعالى، كما أنه مأمور بذلك وجوبًا لزم أن تكون تلك العبادة على علم بالمعبود وهو الله تعالى وهذا العلم لا يمكن الوصول إليه مفصلًا بالعقول المجردة، كما أن العبادة لا يمكن معرفة كيفيتها بالعقول المجردة، وبذلك يكون الإنسان بحاجة دائمة إلى خبر من مصدر موثوق يمكنه من معرفة الله تعالى وكيفية عبادته.

رابعًا: إن الإنسان كائن اجتماعي لا يمكنه العيش منعزلًا عما حوله من كائنات وموجودات، فهو كذلك بحاجة إلى قواعد ونظم لترتيب حياته الفردية والاجتماعية والأسرية وبدون هذه النظم تصبح هذه العلاقات قائمة على الفوضى والتنازع، وارتباط هذه القوانين والنظم بالتشريع الإلهي يضمن لها الثبات والاستقرار؛ لأنها تصدر عن عليم بخلقه مدرك لمصالحهم إدراكًا كاملًا مطلقًا، أضف إلى ذلك أن الإنسان قد استقر في وجدانه أنه لا بد من حياة أخرى يجازى فيها الناس على أعمالهم في هذه الحياة الدنيا فكان مقتضى الحكمة أن يبين الله تعالى ذلك لخلقه.

خامسًا: الاتصال بين الله تعالى والإنسان يكون بواسطة الملائكة، ولكن لما كانت طبيعة الملائكة تختلف اختلافًا كاملًا عن البشر كان لا بد من وجود خصوصية في الصلة بين الملائكة وبين البشر؛ لذا قضى الله تعالى بحكمته البالغة أن يصطفي من البشر أفرادًا ذوي طبيعة خاصة ويعدهم إعدادًا خاصًا للتكيف مع طبيعة الاتصال بالملائكة حتى تتنزل هذه الملائكة عليهم بأحكام الله تعالى عليهم.

قال ابن تيمية: والرسالة ضرورية للعباد لابد لهم منها وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شيء والرسالة روح العالم ونوره وحياته فأي صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور والدنيا مظلمة ملعونة إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة، وكذلك العبد ما لم تشرق في قلبه شمس الرسالة ويناله من حياتها وروحها فهو في ظلمة، وهو من الأموات، قال الله تعالى: ﴿

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ (الأنعام: ١٢٢)، فهذا وصف المؤمن كان ميتًا في ظلمة الجهل فأحياه الله بروح الرسالة ونور الإيمان، وجعل له نورًا يمشى به في الناس، وأما الكافر فميت القلب في الظلمات، وسمى الله تعالى رسالته روحًا والروح إذا عدم فقد فقدت الحياة، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الشورى: ٥٢).

فذكر هنا الأصلين وهما الروح والنور فالروح الحياة والنور النور. وحاجة العبد إلى الرسالة أعظم بكثير من حاجة المريض إلى الطب فإن آخر ما يقدر بعدم الطبيب موت الأبدان وأما إذا لم يحصل للعبد نور الرسالة وحياتها مات قلبه موتًا لا ترجى الحياة معه أبدًا أو شقي شقاوة لا سعادة معها أبدًا فلا فلاح إلا بإتباع الرسول فان الله خص بالفلاح إتباعه المؤمنين وأنصاره كما قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٧)، أي: لا مفلح إلا هم كما قال تعالى، ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ (آل عمران: ١٠٤).

فخص هؤلاء بالفلاح كما خص المتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وينفقون مما رزقهم ويؤمنون بما أنزل إلى رسوله، وما أنزل من قبله، ويوقنون بالآخرة وبالهدى والفلاح، فعلم بذلك أن الهدى والفلاح دائر حول ربع الرسالة وجودًا وعدمًا، وهذا مما اتفقت عليه الكتب المنزلة من السماء وبعث به جميع الرسل ولهذا قص الله علينا أخبار الأمم المكذبة للرسل وما صارت إليه عاقبتهم وأبقى آثارهم وديارهم عبرة لمن بعدهم وموعظة وكذلك مسخ من مسخ قرده وخنازير لمخالفتهم لأنبيائهم وكذلك من خسف به وأرسل عليه الحجارة من السماء وأغرقه في اليم وأرسل عليه الصيحة وأخذه بأنواع

العقوبات وإنما ذلك بسبب مخالفتهم للرسل وإعراضهم عما جاءوا به واتخاذهم أولياء من دونه وهذه سنته سبحانه فيمن خالف رسله وأعرض عما جاؤوا به واتبع غير سبيلهم(١).

قال ابن القيم: ومن هاهنا تعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول وما جاء به وتصديقه فيما أخبر به، وطاعته فيما أمر، فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم، ولا يُنال رضى الله البتة إلا على أيديهم، فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم وما جاؤوا به فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم توزن الأقوال والأخلاق والأعمال، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه، والعين إلى نورها، والروح إلى حياتها، فأي ضرورة وحاجة فُرضت فضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير وما ظنك بمن إذا غاب عنك هديه وما جاء به طرفة عين فسد قلبك وصار كالحوت إذا فارق الماء ووضع في المقلاة فحال العبد عند مفارقة قلبه لما جاء به الرسل كهذه الحال بل أعظم ولكن لا يحس بهذا إلا قلب حي وما لجرح بميت إيلام.

وإذا كانت سعادة العبد في الدارين معلقة بهدي النبي ﷺ، فيجب على كل من نصح نفسه وأحب نجاتها وسعادتها أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه ما يخرج به عن الجاهلين به ويدخل به في عداد أتباعه وشيعته وحزبه، والناس في هذا بين مستقل ومستكثر ومحروم، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم(٢).

وهذه الوجوه السابقة مجتمعة تؤكد الحاجة الأساسية لإرسال الرسل حتى يقوموا بتحقيق هذه الغايات.

المبحث الثاني: لماذا كان الرسل من البشر؟.

١- إن البشر أقدر على القيادة والتوجيه، وهم الذين يصلحون قدوة وأسوة، وهذه الحكمة تظهر حين التأمل في رسالة أي رسول منهم.

---

(١) مجموع الفتاوى (٩٨/ ٩٣١٩).

(٢) زاد المعاد (١/ ٦٨: ٦٧).

٢- صعوبة رؤية الملائكة نسبة لاختلاف طبيعة الملائكة وطبيعة البشر؛ إذ الاتصال بالملائكة فيه عناء وجهد شديدين لا يحتمله جميع البشر، فقد جاء في الحديث إن الرسولﷺ كان يعاني من التنزيل شدة، وكان إذا نزل عليه الوحي تغير لونه، وتصبب عرقه، وارتعدت فرائصه، وكان من حوله يرون ذلك فيه، فكان إرسال الرسل من البشر ضروريًا كي يتمكنوا من مخاطبتهم، والفقه عنهم والاختلاط بهم، ولو أرسل الله ملائكة لما أمكنهم ذلك.

٣- إن الرسالة تقوم على تكليف المرسل إليهم ودعوتهم لامتثال ما يأمرهم به الرسول، فلو كان الرسول من الملائكة لأمكن الناس أن يحتجوا بعدم قدرتهم على هذه التكاليف نسبة لاختلاف طبيعة الملك المرسل؛ إذ يرون أنهم لا يستطيعون تحمل تلك التكاليف؛ لأنها لا تناسب طبيعتهم، لذا قال الله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾ (الإسراء٩٥: ٩٤).

المبحث الثالث: وظائف الرسل:

لقد اصطفى الله تعالى رسله للقيام بوظائف محددة باعتبارهم سفراء الله تعالى إلى عباده وحملة وحيه وتتمثل هذه الوظائف في الآتي:

أولًا: البلاغ المبين: وهذه الوظيفة بالضرورة هي المهمة الأساسية للرسل إذ ما بعثهم الله تعالى إلا لإبلاغ الناس ما نزل إليهم من ربهم وقد جاء في القرآن الكريم ثلاث عشرة آية تنص على أن مهمة الرسول إنما هي (البلاغ) وقال الله تعالى آمرا رسوله ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ (المائدة: ٦٧)، والبلاغ يحتاج إلى الشجاعة وعدم الخوف من الناس، لأن الرسول يأتي بما يخالف أهواء الناس ويهدد مركز قادتهم وكبراءهم المسيطرين على الناس بالباطل ويأمرهم بما يستنكرون ويكرهون لأنه خلاف ما اعتادوه، لذلك امتدح الله تعالى رسله قائلًا: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ (الأحزاب: ٣٩).

والرسول في بلاغه لرسالات الله تعالى مؤتمن في أدائه فلا يزيد فيها ولا ينقص منها ولو كان الأمر متعلقًا به شخصيًا وأوضح مثال على ذلك ما تكرر في القرآن الكريم من عتاب للنبي ﷺ في أكثر من موقف من ذلك حين أعرض عن عبد الله ابن أم مكتوم الأعمى الذي جاءه يسأله في أمور دينه فأعرض عنه النبي ﷺ منشغلًا بدعوة بعض كبراء قريش فعاتبه الله تعالى في ذلك بقوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾ (عبس٢: ١).

ثانيًا: دعوة الناس إلى الدين الحق ببيان ما يجب عليهم: وهذه الوظيفة تعد من كمال البلاغ لذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ (النور: ٥٤) لأنه الذي يبين للناس الحق من الباطل ويدعوهم لإتباع الحق. وأعظم الحقائق التي دعت إليها الرسل جميعًا: توحيد الله تعالى وإفراده بالخلق والملك والتدبير والعبادة قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ (النحل٣٧)، وقال الله تعالى ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ (الأنبياء: ٢٥)، وقد ذكر الله تعالى أن الرسل قالوا لأقوامهم: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ (هود٥٠)، كما أن الرسل عليهم السلام يقومون بتعريف الناس بإلههم الواحد الأحد وصفاته وقد جاء ذلك في القرآن الكريم بأوجز عبارة في سورة الإخلاص قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾.

ويقوم الرسل بتصحيح كل ما يخالف هذا الاعتقاد في الله تعالى، مثل جعل شريك له في ملكه أو خلقه أو عبادته، أو جعل صاحبة له أو جعل ولد له، أو نسبة البنات إليه، فقد قال المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام لقومه: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ (المائدة: ٧٢)، ولما طلب قوم موسى منه أن يجعل لهم إلها مثل الآلهة الصنمية التي رأوها عند المشركين قال الله تعالى حكاية عنه في ذلك: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾

إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ (الأعراف ١٤٠: ١٣٨).

وإضافة إلى ذلك فإن الرسل يقومون بتعليم الناس شئون عباداتهم وشعائرهم من صلاة وصيام وحج وزكاة وأحكام هذه العبادات مع التطبيق العملي النموذجي من الرسول كما قال الرسول ﷺ: "صلوا كما رأيتموني أصلي"، وقال ﷺفي حجة الوداع التي مات بعدها: "يا أيها الناس خذوا عني مناسككم فلعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا "[1].

ولا يقتصر الأمر على تطبيق الشعائر فقط بل يدعوهم إلى إتباعه وتطبيق جميع ما أنزل الله تعالى إليهم دون أن يجعلوا شيئا من تشريعاتهم لغير الله تعالى قال الله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ (الأعراف: ٣)، ثم إن الرسل في جميع ما يدعون الناس إليه يمثلون القدوة الحسنة والمثال المحتذى فهم يلتزمون بكل ما يأمرون الناس به ويجعلونه سلوكًا عامًا لهم في حياتهم لذلك قال الله تعالى بعد أن سرد سيرة كثير من الأنبياء في القرآن الكريم قال مخاطبا رسوله الكريم محمدﷺ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ وقال مخاطبا أمة محمد صلى الله عليه وسلم والناس أجمعين: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأٓخِرَ﴾ (الأحزاب: ٢١).

ثالثا: إقامة الحجة: لا أحد أحب إليه العذر من الله فلذلك أنزل الكتب وأرسل الرسل كي لا يبقى للناس حجة يوم القيامة قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ (النساء: ١٦٥)، وفى يوم القيامة عندما يجمع الله الأولين والآخرين يأتي الله لكل أمة برسولها ليشهد عليها بأنه بلغها رسالة ربها وأقام عليها الحجة قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ (النساء: ٤١)، ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾﴾ (النحل: ٨٩)، ولذلك فإن الذين يرفضون إتباع

(١) أخرجه مسلم (١٢٩٧).

الرسل لا يملكون إلا الاعتراف بظلمهم، قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾ (الأنبياء١٥: ١٢).

رابعًا: التبشير والإنذار: إن الحياة الدنيا دار عمل ومزرعة للآخرة، وقد أرسل الله تعالى رسله وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وقد بين الله تعالى أنه ما خلق الجن والإنس إلا لعبادته قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ ولما أنزل الله تعالى آدم عليه السلام إلى الأرض هو وإبليس قال الله تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ (طه١٢٤: ١٢٣)، فلما كانت الغاية الأساسية من وجود الإنسان في حياته الدنيا هي طاعة أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه وكانت رسل الله تعالى هي المبينة لتلك الأحكام والمبلغة عن الله تعالى لزم أن تكون من مهام الرسل الكرام عليهم السلام مهمة التبشير لمن اتبع أوامر الله تعالى بالفوز الكبير في الدنيا والآخرة، والإنذار لمن خالف أوامره بالوعيد الشديد والعذاب الأليم في الآخرة حتى تقوم الحجة على الناس كما قال الله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ (النساء: ١٦٥)، قال الله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ (الكهف: ٥٦).

وهذه الوظيفة تقتضيها حكمة الله تعالى وكمال عدله ولطفه بعباده؛ إذ إنه لا يتركهم سدى حتى يبين لهم ما يتقون فلا يؤخذون على حين غرة وغفلة بل كما قال الله تعالى: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ (الأنفال: ٤٢)، ومن كمال رحمته وعدله أنه تكفل ببيان صنوف النعيم وألوان المتع التي أعدها لعباده المؤمنين كما بين أنواع العذاب المهلك التي أعدها للمجرمين الكافرين.

خامسًا: تقويم الفكر المنحرف والعقائد الزائفة: لقد خلق الله تعالى عباده حنفاء ولكن جاءتهم الشياطين فاجتالتهم وانحرفوا عن الفطرة السليمة التي كانوا عليها، ولا تزال شياطين الجن والإنس يزينون لهم الباطل ويثيرون فيهم الشبه والضلالات ولأجل ذلك يرسل الله تعالى رحمة منه رسله كلما زاغ الناس عن الطريق المستقيم قال الله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أي: كان الناس أمة واحدة على التوحيد والإيمان وعبادة الله تعالى وحده فاختلفوا فأرسل الله تعالى النبيين مبشرين ومنذرين. ودعوة الرسل جميعا تقوم على التوحيد الخالص لله تعالى إلا أن كل رسول يختص بتقويم الانحراف الحادث في عصره وموطنه ذلك أن الانحراف على الصراط المستقيم يختلف باختلاف ظروف الزمان والمكان فنوح عليه السلام أنكر على قومه عبادة الأصنام التي كانت عامة فيهم وكذلك إبراهيم عليه السلام إضافة إلى أنه أنكر على قومه الاستعلاء في الأرض والتجبر فيها. وصالح عليه السلام أنكر على قومه الفساد في الأرض وإتباع المفسدين. ولوط عليه السلام حارب الشذوذ الجنسي المتفشي في قومه وشعيب عليه السلام قاوم جريمة الإفساد الاقتصادي المتمثل في تطفيف المكيال والميزان، وموسى عليه السلام وقف في وجه النزعة المادية التي انحرف إليها بنو إسرائيل، ولما كان محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين فقد جاءت رسالته عامة شاملة لكل أسس التقويم والهداية التي جاءت في الكتب السماوية وزائدة عليها حتى تكون صالحة لكل زمان ومكان كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾.

وقد جاءت رسالة الإسلام - حتى تناسب ختم الرسالات - جاءت مرنة تصلح لكل زمان ومكان وبيان ذلك أن العقائد والعبادات في الإسلام جاءت بها نصوص قطعية مفصلة ثابتة لا تقبل التبديل ولا التعديل؛ لأن العقائد والعبادات في ذاتها لا تتبدل بتبدل الزمان ولا تختلف باختلاف الأعراف كما أن هيئات العبادات مناسبة لكل البشر في جميع العصور. أما الأوضاع الدستورية والمعاملات المادية والأحوال الإرادية التي يؤثر فيها تبدل الزمان والمكان واختلاف الأعراف فقد جاءت بها نصوص عامة كأسس ودعائم،

بينما ترك لاجتهاد الناس أن يضعوا فيما يتعلق بها أحكاما لكل زمان ما يصلح له ويناسبه بشرط المحافظة على هذه القواعد. وسبب آخر لختم الرسالات بالإسلام هو أن الأمم على عهد الرسل الأولين تعيش في عزلة لا تقارب بينهما ولا اتصال إلا على الوسائل البدائية، لكن الوضع تغير كثيرا بعد رسالة محمد ﷺ، فأصبحت المسافات مطوية والاتصال الأممي واقع - لا سيما في العهود المتأخرة- مما جعل حمل الرسالة إلى جميع من في الأرض متاحا فاقتضت حكمة الله تعالى ختم الرسالات بالإسلام كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾، وقال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾.

سادسًا: تدبير شئون الأمة عامة وسياسة أمرها: إن المؤمنين بالرسل يكونون جماعة وأمة والجماعة لا يستقيم لها أمر إلا أن تكون تحت إمرة زعيم تدين له بالطاعة وتوكل إليه تدبير شئونها ورعاية مصالحها وتحقيق غاياتها وأهدافها ولما كان الرسول هو رمز الأمة وهاديها في شئون دينها إلى ربها لزم أن يكون قائدها في شئون دنياها حتى لا تنفصم عراها وتهن قواها بالصراع الموهوم بين السلطة الدينية والسلطة السياسية فالرسول يؤسس شئون الأمة جميعًا بهدى من الكتاب منير كما قال الله تعالى لداود عليه السلام: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ﴾ **وقال الله تعالى** ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ ﴾ وقال رسول الله ﷺ: "كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي قام نبي "، وقال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾.

والأنبياء في سياستهم هذه يمتازون بالآتي:

١- أنهم لا يعبرون بمواقفهم وسياستهم عن أهوائهم وتصوراتهم الخاصة بل هم في ذلك منقادون لوحي الله تعالى العليم الخبير بشئون عباده قال الله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ ﴾ ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾، وقال الله تعالى ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ

ﭐللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ فما يدعون الناس إليه من مثل وقيم ومبادئ وسلوك عملي ليسوا متأثرين برؤيتهم الشخصية كالزعماء والمصلحين العاديين ولا بالقصور البشري الذي يعتري أفهام البشر وسلوكهم.

٢- أنهم لا يتعاملون مع الحلول الجزئية والمشكلات الجزئية وإنما يتعاملون مع الجذور الأصلية العميقة ويبحثون عن مكان الداء لاجتثاثه من أصله فلا يعالجون المشاكل بمعزل عن مثيلاتها ومسبباتها بل ينظرون إلى الأمور نظرة كلية شاملة واضعين في اعتبارهم طبائع النفوس البشرية.

٣- إن الحلول التي يقدمها الرسل ليست حلولًا نظرية أو تصورات عقلية مجردة كما تفعل الفلاسفة وإنما هي مناهج عملية منزَّلة من لدن حكيم خبير عليم بأحوال البشر والمجتمعات البشرية كما قال الله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ ولذلك قدم الرسل نماذج راقية في قيادة المجتمعات إلى ما فيه صلاح الدنيا والآخرة، وهذا النجاح مكفول لكل من سلك سبيل الأنبياء في هديهم وقيادتهم للأمم قال الله تعالى ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ (النور: ٥٥).

٤- إن الأنبياء في سياستهم يمثلون القدوة الصالحة لأممهم حيث تتمثل مبادئهم وقيمهم في سلوكهم وسياستهم فهم يرتفعون عن النقائص والعيوب الشائنة التي تشوب المصلحين العاديين بما فيهم من بذور حب التزعم والسيطرة والاستغلال والتسخير للمصالح الشخصية وغير ذلك من النقائص وقد وصف الله رسوله ﷺ مثنيا عليه وعلى المؤمنين بقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

٥- إن الأنبياء وهم يسوسون شعوبهم لا يجعلون حياتهم منصرفة لمتاع الدنيا أو الالتباس الشديد بالماديات غافلين عن النواحي الروحية، بل هم في غمرة السياسة يذكّرونهم بالله تعالى ويربطون قلوب العباد بخالقهم فتسمو نفوسهم وتصفو قلوبهم وترقى غاياتهم كما قال الله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ

﴿أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (القصص: ٧٧)، وقد ترسخت هذه القيم العالية والأهداف السامية حتى إن صحابة رسول الله ﷺ جعلوها ضمن أهدافهم عند دعوة عباد الله تعالى في الأرض إلى دين الله تعالى، فهذا ربعي بن عامر حين دخل على كسرى عظيم الروم عندما سأله كسرى: من أنتم؟ فأجابه: لقد بعثنا الله تعالى لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة ومن ظلم الحكام إلى عدل الإسلام، ثم إن خلفاء الرسل يخلفونهم في تولي شئون العباد فيحكمون بمنهج الرسل ويسوسون الناس على سنن من هديهم كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾، وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ وأولو الأمر هم العلماء والحكام.

ولكن الذين يتولون الأمر من بعد الرسول يجب عليهم الالتزام بقواعد الشرع في سياساتهم وأن يتبعوا سنة الرسول ﷺ في ذلك كما قال رسول الله ﷺ "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ " فطاعة أولي الأمر ليست طاعة مستقلة، بل هي تبع لطاعة الرسول ﷺ ومقيدة بها كما قال رسول الله ﷺ: "على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب أو كره ما لم يؤمر بمعصية فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة"، وقال ﷺ: " لا طاعة لمن عصى الله"، فهذه القيادة ليست حكما يقوم على مفهوم (الدولة الدينية) المستقرة في أذهان الغرب نتيجة لترسبات تاريخية سابقة عن فترة كنسية مرتبطة بظروفها التاريخية والموضوعية وإنما الدولة في مفهوم الإسلام تقوم على أسس ومبادئ وقيم يلتزم بها كل من الحاكم والمحكوم وليس لحاكم عصمة في أن يفعل مايشاء أو أن يتفرد بسلطة التشريع باسم النيابة عن الله تعالى ولا يتحكم في رقاب العباد باسم الوصاية والولاية على الشعب، بل هو مأمور بالمشاورة وأخذ الرأي في القضايا التي تمس جموع الأمة ويلتزم فيها برأي الجماعة ولو كان رأيهم خلافا لرأيه هو كما قال الله تعالى آمرا رسوله ﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[1].

(١) الرسل والرسالات لعمر الأشقر (٥٤: ٢٩).

الوجه الثاني: علاقة الملائكة مع الصالحين من بني آدم.

فإن علاقة الملائكة بذرية آدم عليه السلام علاقة وثيقة فهم يقومون عليه عند خلقه ويكلفون بحفظه بعد خروجه إلى الحياة ويأتونه بالوحي من الله ويراقبون أعماله وتصرفاته وينزعون روحه إذا جاء أجله. لكن أريد أن أوضح في هذه الوجه علاقة الملائكة مع صالحي بني آدم خصوصًا لأن العلاقة تختلف مع الصالحين وغير الصالحين (العاصين والمنافقين) إلي الكفار. فلا شك أن العلاقة مع الصالحين الموحدين علاقة حب ورحمة. وأما مع غيرهم فهي علاقة بغض وشدة.

وإليك بعض هذه الصور الطيبة للعلاقة الصالحة:

١- استغفارهم للصالحين: قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ (غافر: ٧)، وقال تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ (الشورى: ٥)، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "صَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَمَاعَةٍ تَزِيدُ عَلَى صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ وَصَلَاتِهِ فِي سوقِهِ بِضْعًا وَعِشْرِينَ دَرَجَةً. . . . . "، وفيه"وَالْمَلَائِكَةُ يُصَلُّونَ عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مَجْلِسِهِ الَّذِي صَلَّى فِيهِ يَقُولُونَ اللهمَّ ارْحَمْهُ اللهمَّ اغْفِرْ لَهُ اللهمَّ تُبْ عليهِ مَا لَمْ يُؤْذِ فِيهِ مَا لَمْ يُحْدِثْ فِيهِ"[1].

قلت: فهذا أقوى الأدلة على استغفار الملائكة لصالحي البشر. وفي الباب أيضًا حديث علي رضي الله عنه قال: "ما من رجل يعود مريضًا ممسيًا إلا خرج معه سبعون ألف ملك يستغفرون له حتى يصبح، وكان له خريف في الجنة، ومن أتاه مصبحًا خرج معه سبعون ألف ملك يستغفرون له حتى يمسي، وكان له خريف في الجنة"[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٧)، مسلم (٦٤٩) واللفظ له.

(٢) حسن وهو في حكم المرفوع. أخرجه أحمد١/ ١٢٢، وأبوداود٣٠٩٨، والحاكم في المستدرك١/ ٣٥٠، والبيهقي٣/ ١٨١، أحمد١/ ١٢٠جميعًا من حديث شعبة، وأخرجه أبوداود (٣١٠٠) من حديث منصور، وفي العلل للدارقطني٢/ ٢٦٩من حديث أبي مريم عبد الغفار بن القاسم كلهم (شعبة ومنصور وعبد الغفار) عن الحكم بن عتيبة عن عبد الله بن نافع عن علي موقوفًا. . . . عبد الله بن نافع صدوق.

٢-شفاعتهم للموحدين عند الله: قال تعالى: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾ (النجم: ٢٦)، وفي حديث أبي سعيد الخدري عن النبيﷺ وهو حديث الرؤية الطويل وفيه". . . فيشفع النبيون والملائكة والمؤمنون"[(١)].

٣-محبتهم للمؤمنين: كما في الصحيحين من حديث أبي هريرةؓعن النبيﷺقال: **"إذَا أَحَبَّ الله الْعَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ إِنَّ الله يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبْهُ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ الله يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ"**[(٢)].

٤-تسديد المؤمن: فقد دعا النبيﷺلحسان بن ثابت وهو يدافع عن النبيﷺ: "اللهمَّ أَيِّدْهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ"[(٣)].

٥-يصلون على المؤمنين: قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ ﴾ (الأحزاب: ٤٣).

وهم يصلون على النبي ﷺكما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ (الأحزاب: ٥٦).

وفي حديث البراء بن عازبؓقال: سمعت رسول اللهﷺيقول: "إِنَّ الله وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى الصَّفِّ الْأَوَّلِ"[(٤)].

٦-التأمين على دعاء المؤمنين: وبهذا يكون الدعاء أقرب إلي الله تعالى. لأنهم لا

وأخرجه أبو داود (٣٠٩٩)، ابن ماجه (١٤٤٢)، أحمد١/ ٨١، الحاكم ١/ ٣٤٩، البيهقي٣/ ٣٨٠ كلهم (أبو معاوية وأبو بكر وأبو شهاب الحناط) عن الأعمش عن الحكم بن عتيبة عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن على. . . مرفوعًا. غير أن أبا شهاب أوقفه. قال أبو داود: أسند هذا عن على عن النبي ﷺ من غير وجه صحيح.
وقد تكلم الدار قطني عليه بكلام نفيس في العلل٣/ ٢٧٠: ٢٦٧، ورجح الطريق الموقوف.
قلت: وهو في حكم المرفوع خاصة وأن عليًّاؓلا يروي الإسرائيليات.

(١) أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، مسلم (١٨٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٠٩)، مسلم (٢٦٣٧).

(٣) أخرجه البخاري (٣٢١٢).

(٤) أخرجه ابن ماجه (٩٩٧)، أحمد٤/ ٢٨٥، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٨١٦).

يعصون الله ما أمرهم. ففي حديث أبي الدرداء أن رسول الله ﷺ قال: "مَنْ دَعَا لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ قَالَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ آمِينَ وَلَكَ بِمِثْلٍ"[(١)].

٧- شهودهم مجالس العلم وحلق الذكر وحفهم أهلها بأجنحتهم: ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: "**إِنَّ للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَلَائِكَةً سَيَّارَةً فُضُلًا يَتَتَبَّعُونَ مَجَالِسَ الذِّكْرِ فَإِذَا وَجَدُوا مَجْلِسًا فِيهِ ذِكْرٌ قَعَدُوا مَعَهُمْ وَحَفَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِأَجْنِحَتِهِمْ حَتَّى يَمْلَئُوا مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا. . .**"[(٢)].

٨- تسجيل الملائكة الذين يحضرون الجمعة: كما في الصحيحين من حديث أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: "يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلاَئِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلاَئِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِى صَلاَةِ الْفَجْرِ وَصَلاَةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ وَهْوَ أَعْلَمُ بِهِمْ كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِى فَيَقُولُونَ تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ". [(٣)]

قلت: فهذا قليل من كثير من أعمال الملائكة وخصوصًا مع المؤمنين وإلا فالأعمال كثيرة. ولذا فإن واجب المؤمن تجاه الملائكة هو عدم إيذاء الملائكة والبعد عن كل ما يؤذي الملائكة من الذنوب والمعاصي وموالاة الملائكة كلهم[(٤)].

الوجه الثالث: آية الشورى خصصت بآية بغافر فلا تعارض.

والمعني ويستغفرون للمؤمنين لمن في الأرض قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ (الشورى: ٥) هي خاصة بمن آمن من أهل الأرض. وممن قال به قتادة: حيث قال في تفسيرها(للمؤمنين منهم) [(٥)].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٣٣، ٢٧٣٢).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٠٨)، مسلم (٢٦٨٩) واللفظ له.

(٣) أخرجه البخاري (٣٢١١)، مسلم (٨٥٠).

(٤) للمزيد من الحديث حول الملائكة انظر صحيح البخاري كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة. وكتاب الحبائك في أخبار الملائك للسيوطي ورسالة عالم الملائكة الأبرار عمر سليمان الأشقر.

(٥) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢٧٢٨) عن معمر عن قتادة بإسناد صحيح، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٣٣٧) إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

والسدي: حيث قال في تفسيرها (للمؤمنين) [(١)]. والضحاك[(٢)]، وبهذا القول أكثر أهل العلم بالتفسير على أن الآية خاصة لأهل الإيمان من أهل الأرض[(٣)].

الوجه الرابع: الملائكة في سورة الشورى أعم من الملائكة في سورة غافر

أي أن حملة العرش هم المخصصون في الاستغفار للمؤمنين خاصة كما في سورة غافر، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ (غافر: ٧).

وأما في سورة الشوري فهي تتحدث عن صنف آخر وملائكة الله كثيرون، ولله ملائكة أخر يستغفرون لمن في الأرض على العموم[(٤)].

الوجه الخامس: الاستغفار بمعنى طلب الهداية لهم، وليس لمغفرة ذنوبهم

وهو أن الاستغفار من الملائكة ليس بطلب غفران الله تعالى للكفرة على أن يبقوا كفرة. وإنما استغفارهم لهم بمعني طلب الهداية التي تؤدي إلي الغفران لهم. أي السعي فيما يستدعي المغفرة لهم وتأخير عقوبتهم طمعًا في إيمان الكافر وتوبة الفاسق. فهي في حق الكفار بواسطة طلب الإيمان لهم. وأما في حق المؤمنين فبالتجاوز عن سيئاتهم[(٥)].

الوجه السادس: لا يجوز الاستغفار للمشركين إذا ماتوا على الشرك.

والأدلة على ذلك: من القرآن:

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ﴾ (التوبة ١١٤: ١١٣).

فهذه الآية متضمنة لقطع الموالاة للكفار وتحريم الاستغفار لهم والدعاء بما لا يجوز لمن كان كافرًا من بعد ما ماتوا على الشرك وعبادة الأوثان لأن الله قضي أن لا يغفر لمشرك. فإن

---

(١) تفسير الطبري ٢٥/ ٨.

(٢) القرطبي في تفسيره١٦/ ٨.

(٣) تفسير الطبري في جامعه٢٥/ ٨، الكشاف٤/ ٢٠٩.

(٤) النكت والعيون٥/ ١٩٣، قال: وهو الظاهر من قول الكلبي.

(٥) المحرر الوجيز٤/ ٥٤٨، ٥/ ٢٦.

قالوا: إن إبراهيم قد استغفر لأبيه وهو مشرك فلم يكن استغفار إبراهيم لأبيه إلا لموعدة وعدها إياه. فلما تبين له وعلم أنه لله عدو خلاه وتركه وترك الاستغفار(١).

الأدلة من السنة:

حديث وفاة أبي طالب عم النبيﷺلما أبى أن يقول: لا إله إلا الله، كما دعاه إلي ذلك رسول اللهﷺوقال آخر ما قال (بل عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ) فقال رسول اللهﷺ: "أَمَا وَاللهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ" فَأَنْزَلَ الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ (التوبة: ١١٣)، وأنزل الله في أبي طالب فقال لرسول اللهﷺ ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ (القصص: ٥٦)(٢).

قال العيني: فرض على جميع الأمة أن لايدعوا لمشرك ولا يستغفروا له إذا مات على الشرك(٣).

قال ابن تيمية: والاستغفار لا يجوز بالكتاب والسنة والإجماع(٤).

واتفق الفقهاء على أن الاستغفار للكافر محظور بل بالغ بعضهم فقال أن الاستغفار للكافر يقتضي كفر من فعله لأن فيه تكذيبًا للنصوص الواردة التي تدل على أن الله تعالى لا يغفر أن يشرك به، وأن من مات على كفره فهو من أهل النار(٥).

الوجه السابع: إثبات علاقة الملائكة بالبشر عندهم من الكتاب المقدس

في هذا الوجه نبين علاقة الملائكة بالبشر عندهم وبيان أن العلاقة قائمة على الحفظ والرعاية والدعاء بالسلامة وغير ذلك، وهذا من خير البراهين على بطلان هذه الدعوي في إنكارهم لعلاقة الملائكة بالبشر على هذه الصورة. وإليك بعض الأدلة:

---

(١) جامع البيان١١/ ٤١: ٤٠، فتح البيان٥/ ٤١١

(٢) أخرجه البخاري (١٣٦٠)، مسلم (٢٤)، واللفظ له.

(٣) عمدة القاري٨/ ١٩٣

(٤) مجموع الفتاوي١٢/ ٤٨٩

(٥) الموسوعة الفقهية٤/ ٤٣

١-البشرى والدعاء بالسلامة لمن في الأرض: وَإِذَا مَلاَكُ الرَّبِّ وَقَفَ بِهِمْ، وَمَجْدُ الرَّبِّ أَضَاءَ حَوْلَهُمْ، فَخَافُوا خَوْفًا عَظِيمًا. ١٠فَقَالَ لَهُمُ الْمَلاَكُ: «لاَ تَخَافُوا! فَهَا أَنَا أُبَشِّرُكُمْ بِفَرَحٍ عَظِيمٍ يَكُونُ لِجَمِيعِ الشَّعْبِ: ١١أَنَّهُ وُلِدَ لَكُمُ الْيَوْمَ فِي مَدِينَةِ دَاوُدَ مُخَلِّصٌ هُوَ الْمَسِيحُ الرَّبُّ. ١٢وَهذِهِ لَكُمُ الْعَلاَمَةُ: تَجِدُونَ طِفْلًا مُقَمَّطًا مُضْجَعًا فِي مِذْوَدٍ». ١٣وَظَهَرَ بَغْتَةً مَعَ الْمَلاَكِ جُمْهُورٌ مِنَ الْجُنْدِ السَّمَاوِيِّ مُسَبِّحِينَ الله وَقَائِلِينَ: ١٤«الْمَجْدُ لله فِي الأَعَالِي، وَعَلَى الأَرْضِ السَّلاَمُ، وَبِالنَّاسِ الْمَسَرَّةُ (لوقا ٢/ ١٤: ٩).

٢-يشجعون في وقت الخطر: لأَنَّهُ وَقَفَ بِي هذِهِ اللَّيْلَةَ مَلاَكُ الإِلهِ الَّذِي أَنَا لَهُ وَالَّذِي أَعْبُدُهُ، ٢٤قَائِلًا: لاَ تَخَفْ يَا بُولُسُ. يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَقِفَ أَمَامَ قَيْصَرَ. وَهُوَذَا قَدْ وَهَبَكَ الله جَمِيعَ الْمُسَافِرِينَ مَعَكَ. ٢٥لِذلِكَ سُرُّوا أَيُّهَا الرِّجَالُ، لأَنِّي أُومِنُ بِالله أَنَّهُ يَكُونُ هكَذَا كَمَا قِيلَ لِي (أعمال الرسل١٧/ ٢٥: ٢٣).

٣-يقولون الصالحين عند الممات: فَمَاتَ الْمِسْكِينُ وَحَمَلَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ إِلَى حِضْنِ إِبْرَاهِيمَ. (لوقا١٦/ ٢٢).

٤-الحفظ والرعاية: لأَنَّهُ يُوصِي مَلاَئِكَتَهُ بِكَ لِكَيْ يَحْفَظُوكَ فِي كُلِّ طُرُقِكَ. ١٢عَلَى الأَيْدِي يَحْمِلُونَكَ لِئَلاَّ تَصْدِمَ بِحَجَرٍ رِجْلَكَ. سفر المزامير٩١/ ١٢: ١١).

* * *

٢ـ شبهة: هل سيبصر العصاة والظالمون يوم القيامة أم لا؟.

نص الشبهة:

هناك تعارض في النظر للعصاة والظالمين في هذه الآيات: قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ (الشورى: ٤٥)، وقال تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ (قّ: ٢٢)، وقال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ (الإسراء: ٩٧)، والسؤال: ينظرون، أو لا ينظرون؟.

والجواب عن هذا من وجوه:

الوجه الأول: الجمع بين قوله في سورة الشورى: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ وبين سورة ق: ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ وبيان أن كل آية في موقف آخر.

الوجه الثاني: الجمع في قوله في سورة الشورى ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ وبين قوله في سورة الإسراء ﴿وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ من هذه الوجوه:

الأول: بيان معنى عميًا وبكمًا وصمًا.

الثاني: بيان معنى من طرف خفي.

الثالث: أن أحوال ومواقف الناس تختلف يوم القيامة.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: الجمع بين قوله تعالى: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ وبين قوله تعالى: ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾.

هو أن آية سورة الشورى ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ في أحوال الآخرة، وأما سورة ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ في أحوال الدنيا عند الموت وعلى هذا فلا تعارض.

قلت: والدليل على ذلك سياق الآيات: ففي سورة الشورى، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ (الشورى: ٤٤)، هذه الآية تقدمت عن الآية التي قال فيها سبحانه: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾، وهذا في مشهد يوم القيامة.

وأما عن آية سورة (ق) ﴿فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾ فقد تقدم هذه الآية قوله سبحانه: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ١٩﴾ (ق: ١٩)[١].

الوجه الثاني: الجمع بين قوله: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗا﴾، وبين قوله سبحانه: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖ﴾ وما في الباب من آيات

أولًا: بيان معنى قوله تعالى: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗا﴾ (الإسراء: ٩٧)، وهذا على قولين:

الأول: عميًا، لا يرون شيئًا يسرهم بكمًا لا ينطقون بحجة صمًا لا يسمعون شيئًا يسرهم[٢]، وهذا قول ابن عباس[٣].

الثاني: عميًا عن النظر إلى ما جعله الله لأوليائه، بكمًا عن مخاطبة الله، ومخاطبة الملائكة المقربين، صمًا عن ثناء الله على أوليائه.[٤]

وعلى كلا المعنيين للآية فُهم المراد وبعد ما ذكر ابن الجوزي هذا القول قال: وهو قول الأكثرين.

ثانيًا: بيان معنى قوله سبحانه: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖ﴾

المعنى الأول: ذليل.

عن ابن عباس قوله: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖ﴾ ذليل.[٥]

عن مجاهد في قوله: ﴿مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖ﴾ قال: ذليل.[٦]

---

(١) الطبري ٢٥/ ٤١، القرطبي ١٦/ ٤٤، الخازن ٤/ ١٠٣، ابن كثير ١٢/ ٢٩١.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٢٧٥، زاد المسير ٥/ ٩٠، الرازي ٢١/ ٦١، القرطبي ١٠/ ٣٣٩.

(٣) الطبري ١٥/ ١٦٧ بإسناده. وفيه علي بن أبي طلحة صدوق قد يخطئ، قال أبو حاتم: لم يسمع من ابن عباس التفسير. وقال يعقوب بن إسحاق بن محمود: وسئل يعني: صالح بن محمد عن علي ممن سمع التفسير قال: من لا أحد. تهذيب الكمال، التقريب.

(٤) زاد المسير ٥/ ٩٠، الرازي ٢١/ ٦١.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (١٨٤٩٠)، قال حدثنا أبي حدثنا أبو صالح حدثني معاوية عن علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس به. . . وقد تقدم الكلام في علي بن أبي طلحة في الوجه الأول.

(٦) الطبري ٢٥/ ٤٢ من طريق ابن أبي نجيح عن كمجاهد به. . . وابن أبي نجيح مدلس.

وممن قال بهذا ابن جرير الطبري.[١]

المعنى الثاني: يسارقون النظر إلى النار:

عن قتادة في قوله: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ قال يسارقون النظر[٢].

وعن السدي قال: يسارقون النظر[٣].

محمد بن كعب القرظي قال: يسارقون النظر إلى النار.[٤]

المعنى الثالث: أنهم ينظرون إلى النار بقلوبهم لأنهم يحشرون عميًا.[٥]

ونُقل هذا عن مجاهد.

الوجه الثالث: أن أحوال ومواقف الناس تختلف يوم القيامة

وهذا قول ابن عباس لما سأله رجلٌ فقال رأيت قوله ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ (طه: ١٠٢)، وأخرى (عميًا)، قال: أن يوم القيامة فيه حالات يكونون في حال زرقًا وفي حال عميً[٦].

قال الشوكاني: وقد جمع بين الآيات المختلفة في مثل هذا وغيره بأن المواقف يوم القيامة مختلفة فقد يكون في بعض المواقف ما لا يكون في الآخر[٧].

وأخرج ابن مردويه[٨] عن عبد الله بن الصامت قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص أرأيت قول الله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ (المرسلات٣٦:

قال ابن حجر أكثر عن مجاهد وكان يدلس عنه وقد ذكره ابن حجر في الطبقة الثالثة، ويعني ذلك أنه لابد أن يصرح بالسماع. وقد عنن في هذه الرواية. طبقات المدلسين، ثم هو لم يسمع التفسير من مجاهد نص عليه القطان كما في التاريخ الكبير ٥/ ٢٣٣، والثقات ٧/ ٥.

(١) جامع البيان ٢٥/ ٤٢.

(٢) ابن جرير الطبري ٢٥/ ٤٢ بإسناد صحيح.

(٣) إسناده ضعيف. الطبري٢٥/ ٤٢ فيه: أسباط صدوق كثير الخطأ. أحمد بن المفضل صدوق سيئ الحفظ.

(٤) الدر المنثور للسيوطي ٧/ ٣٦١، وعزاه إلى سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر

(٥) الطبري ٢٥/ ٤٢، القرطبي ١٦/ ٤٥، فتح القدير ٤/ ٧٦١، فتح البيان ١٢/ ٣١٧.

(٦) تفسير ابن أبي حاتم (١٣٥٢٢).

(٧) الفتح القدير ٢/ ٦٤٩.

(٨) الدر المنثور للسيوطي (٨/ ٣٨٦).

٣٥)، قال: إن يوم القيامة يوم له حالات وتارات في حال لا ينطقون، وفي حال ينطقون، وفي حال يعتذرون، لا أحدثكم إلا ما حدثنا رسول الله ﷺ قال: "إذا كان يوم القيامة ينزل الجبار في ظلل من الغمام، وكل أمة جاثية في ثلاثة حجب مسيرة كل حجاب خمسون ألف سنة، حجاب من نور، وحجاب بن ظلمة، وحجاب من ماء، لا يرى لذلك فيأمر بذلك الماء فيعود في تلك الظلمة، ولا تسمع نفس ذلك القول إلا ذهبت فعند ذلك لا ينطقون".

قلت: وقد جمع الإمام القرطبي صاحب التذكرة في هذا الوجه كلامًا جيدًا فقال تحت باب بعنوان الجمع بين آيات وردت في الكتاب في الحشر ظاهرها التعارض.

منها قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ (يونس: ٤٥)، وقال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ (الإسراء: ٩٧)، وفي آية ثالثة إنهم يقولون: ﴿يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ (يس: ٥٢)، وهذا كلام و هو مضاد للبكم و التعارف تخاطب و هو مضاد للصم و البكم معًا، وقال الله تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾ (الأعراف: ٦)، والسؤال لا يكون إلا بالاسماع و إلا لناطق يتسع للجواب، وقال: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ (طه: ١٠٢)، وقال: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ (يس: ٥١)، وقال: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝٤٣﴾ (المعارج: ٤٣)، والنسلان والإسراع مخالفان للحشر على الوجوه.

و الجواب: لمن سأل عن هذا الباب أن يقال له إن الناس إذا أحيوا و بعثوا من قبورهم فليست حالهم حالة واحدة و لا موقفهم و لا مقامهم واحدا و لكن لهم مواقف و أحوال و اختلفت الأخبار عنهم لاختلاف مواقفهم و أحوالهم و جملة ذلك أنها خمسة أحوال: **الأولى**: حال البعث من القبور. **والثانية**: حال السوق إلى مواضع الحساب. **والثالثة**: حال المحاسبة. **والرابعة**: حال السوق إلى دار الجزاء. **والخامسة**: حال مقامهم في الدار التي يستقرون فيها.

فأما حال البعث من القبور: فإن الكفار يكونون كاملي الحواس و الجوارح لقول الله تعالى: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ (يونس: ٤٥)، وقوله: ﴿يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا

﴿١٠٣﴾ (طه: ١٠٢)، وقوله: ﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ (الزمر: ٦٨)، وقوله: ﴿ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ إلى قوله: ﴿تُرْجَعُونَ ﴾ (المؤمنون ١١٢: ١١٥).

والحالة الثانية: حال السوق إلى موضع الحساب و هم أيضًا في هذه الحال بحواس تامة لقولهﷻ: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ (الصافات ٢٤: ٢٢)، ومعنى ﴿فَٱهْدُوهُمْ﴾ أي: دلوهم، ولا دلالة لأعمى أصم ولا سؤال لأبكم فثبت بهذا أنهم يكونون بأبصار وأسماع و ألسنة ناطقة.

والحالة الثالثة: و هي حالة المحاسبة و هم يكونون فيها أيضا كاملي الحواس ليسمعوا ما يقال لهم و يقرأوا كتبهم الناطقة بأعمالهم و تشهد عليهم جوارحهم بسيئاتهم فيسمعونها وقد أخبر الله تعالى أنهم يقولون: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ (الكهف: ٤٩)، وأنهم يقولون لجلودهم: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ (فصلت: ٢١)، وليشاهدوا أحوال القيامة، وما كانوا مكذبين في الدنيا به من شدتها وتصرف الأحوال بالناس فيها.

وأما الحالة الرابعة: وهي السوق إلى جهنم فإنهم يسلبون فيها أسماعهم و أبصارهم وألسنتهم لقوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ (الإسراء: ٩٧)، ويحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾﴾ (الرحمن: ٤١) إشارة إلى ما يشعرون به من سلب الأبصار والأسماع والمنطق.

والحالة الخامسة: حال الإقامة في النار و هذه الحالة تنقسم إلى بدو و مآل: فبدوها: أنهم إذا قطعوا المسافة التي بين موقف الحساب و شفير جهنم عميا وبكما و صما إذلالا لهم تمييزا عن غيرهم ثم ردت الحواس إليهم ليشاهدوا النار و ما أعد الله لهم فيها من العذاب و يعاينوا ملائكة العذاب و كل ما كانوا به مكذبين فيستقرون في النار ناطقين سامعين مبصرين و لهذا قال الله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ﴾ (الشورى: ٤٥)، وقال: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ (الأنعام: ٢٧)، وقال: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا

قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ ﴾ إلى قوله ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ﴾ (الأعراف٣٧: ٣٨)، وقال: ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ (الملك٩: ٨)، وأخبر تعالى أنهم ينادون أهل الجنة فيقولون: ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ (الأعراف: ٥٠)، و أن أهل الجنة ينادونهم: ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾ (الأعراف: ٤٤)، وأنهم يقولون: ﴿يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾، فيقول لهم: ﴿إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ (الزخرف: ٧١)، وأنهم يقولون لخزنة جهنم: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾، فيقولون لهم: ﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ (غافر: ٥٠).

وأما العقبى و المآل: فإنهم إذا قالوا: ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ (المؤمنون: ١٠٧)، فقال الله تعالى: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ (المؤمنون: ١٠٨)، و كتب عليهم الخلود بالمثل الذي يضرب لهم و هو أن يؤتى بكبش أملح و يسمى الموت ثم يذبح على الصراط بين الجنة و النار و ينادوا يا أهل الجنة خلود فلا موت و يا أهل النار خلود فلا موت سلبوا في ذلك الوقت أسماعهم و قد يجوز أن يسلبوا الأبصار و الكلام لكن سلب السمع يقين لأن الله تعالى يقول: ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ (الأنبياء: ١٠٠)، فإذا سلبوا الأسماع صاروا إلى الزفير و الشهيق و يحتمل أن تكون الحكمة في سلب الأسماع من قبل أنهم سمعوا نداء الرب سبحانه على ألسنة رسله فلم يجيبوه بل جحدوه و كذبوا به بعد قيام الحجة عليهم بصحته فلما كانت حجة الله عليهم في الدنيا الاستماع عاقبهم على كفرهم في الأخرى بسلب الأسماع يبين ذلك أنهم كانوا يقولون للنبي ﷺ: ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ (فصلت: ٥)، وقالوا ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ (فصلت: ٢٦)، وإن قوم نوح عليه السلام كانوا يستغشون ثيابهم تسترًا منه لئلا يروه و لا يسمعوا كلامه و قد أخبر الله تعالى عن الكفار في وقت نبينا محمد ﷺ مثله فقال: ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ (هود: ٥)،

و إن سلبت أبصارهم فلأنهم أبصروا الغير فلم يعتبروا و النطق فلأنهم أوتوه فكفروا فهذا وجه الجمع بين الآيات على ما قاله علماؤنا، والله أعلم[1].

* * *

(١) التذكرة (١٩٠: ١٨٨)، ويُراجع تفسير الطبري (١٥/ ١٦٧)، النكت والعيون (٥/ ٢٧٥)، وللمزيد من اختلاف أحوال الناس يوم القيامة يُراجع الموسوعة في تفسير سورة حول شبهة (يتساءلون ولا يتساءلون).

سورة النجم

شبهة: حول قول الله ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾.

نص الشبهة:

يقول القرآن ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾، واللمم كما قال المفسرون هو: القبلة و الغمزة و المباشرة وكل عمل سوى الإيلاج فكيف يبيح الله هذا مع تواتر الروايات عليه؟.

و الجواب على هذه الشبهة من عدة وجوه:

الوجه الأول: معنى اللمم.

الوجه الثاني: تفسير الآية.

الوجه الثالث: ليس في الآية دليل على الإباحة.

الوجه الرابع: تحذير النبي ﷺ من التهاون في اللمم.

الوجه الخامس: اللمم هي الصغائر دون الإصرار عليها.

الوجه السادس: معنى الآية متكامل.

الوجه السابع: الفواحش واللمم في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: معنى اللمم.

قال ابن منظور: واللَّمَمُ مُقارَبَةُ الذنب وقيل اللّمَم ما دون الكبائر من الذنوب، وأَلَمَّ الرجلُ من اللَّمَمِ وهو صغار الذنوب، ويقال هو مقارَبة المعصية من غير مواقعة، وقال الأَخفش: اللَّمَمُ المُقارَبُ من الذنوب، و قال أَبو إسحق: قيل اللّمَمُ نحو القُبْلة والنظْرة وما أَشبهها، وقيل إلاّ اللَّمَمَ إلاّ أَن يكونَ العبدُ أَلَمَّ بفاحِشةٍ ثم تاب قال ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ غير أَن اللَّمَم أَن يكونَ الإنسان قد أَلَمَّ بالمعصية ولم يُصِرَّ عليه، وقال الفراء في قوله إلاّ اللّمَم يقول إلاّ المُتقارَبَ من الذنوب الصغيرة[1].

(١) لسان العرب (١٢/ ٥٤٩).

وقال أيضًا: أن يفعل الإنسان الشئ في الحين لا يكون له عادة. [١]، ويقال أيضًا: أصابت فلانًا من الجن لمة، وهو المس والشئ القليل[٢].

الوجه الثاني: تفسير الآية.

قال الله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ أي: يفعلون ما أمرهم الله به من الواجبات، التي يكون تركها من كبائر الذنوب، ويتركون المحرمات الكبار، كالزنا، وشرب الخمر، وأكل الربا، والقتل، ونحو ذلك من الذنوب العظيمة، ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ وهي الذنوب الصغار، التي لا يصر صاحبها عليها، أو التي يلم بها العبد، المرة بعد المرة، على وجه الندرة والقلة، فهذه ليس مجرد الإقدام عليها مخرجًا للعبد من أن يكون من المحسنين، فإن هذه مع الإتيان بالواجبات وترك المحرمات، تدخل تحت مغفرة الله التي وسعت كل شيء، ولهذا قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾. [٣]

﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ يعني ما كبر الوعيد عليه من المناهي، والفواحش يعني ما فحش منها، وقد فسر اللمم بقول النبي ﷺ: " كتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنْ الزِّنَا، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَشْبَهَ بِاللَّمَمِ مِمَّا قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ: إِنَّ الله كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنْ الزِّنَا أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فَزِنَا الْعَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنَا اللِّسَانِ الْمَنْطِقُ، وَالنَّفْسُ تَمَنَّى وَتَشْتَهِي، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ كُلَّهُ وَيُكَذِّبُهُ"[٤].

قال الماوردي: وأما اللمم المستثنى ففيه ثمانية أقاويل:

١- إلا اللمم الذي ألموا به في الجاهلية من الإثم والفواحش فإنه معفو عنه في الإسلام، قاله زيد بن ثابت.

٢- هو أن يلم بها ويفعلها ثم يتوب منها، قاله الحسن ومجاهد.

---

(١) إعراب القرآن و بيانه (٩/ ٣٥٩).

(٢) مختار الصحاح (٤/ ١٦٤٤)، والقاموس المحيط (٢/ ١٥٢٥)، والمعجم الوسيط (٢/ ٨٧٣).

(٣) تفسير السعدي (٨٢١)، وأيسر التفاسير (٥/ ١٩٧).

(٤) أخرجه البخاري (٦٢٤٣)، مسلم (٢٦٥٧).

٣- هو أن يعزم على المواقعة ثم يرجع عنها مقلعًا وقد روى عمرو بن دينار عن عطاء عن ابن عباس أن النبي ﷺقال: إِنْ تَغْفِرِ اللهمْ تغفر جَمًّا. . . وَأَي عَبْدٍ لَّكَ لاَ أَلَمَّا. [(١)]

٤- أن اللمم ما دون الوطء من القبلة والغمزة والنظرة والمضاجعة، قاله ابن مسعود.

٥- أن اللمم الصغائر من الذنوب.

٦- أن اللمم ما لم يجب عليه حد في الدنيا ولم يستحق عليه في الآخرة عذاب، قاله ابن عباس، وقتادة.

٧- أن اللمم النظرة الأولى فإن عاد فليس بلمم، قاله بعض التابعين.

٨- أن اللمم النكاح، قاله أبو هريرة. [(٢)]

الوجه الثالث: ليس في الآية دليل على الإباحة.

ليس معنى الآية أيها المؤمنون لا تفعلوا الكبائر، وافعلوا اللمم الذي هو المباشرة والقبلة والغمزة، إنما هي بمعنى الاستثناء المنقطع، فعلى هذا يكون معنى الكلام: الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم الذي ألموا به من الإثم والفواحش في الجاهلية قبل الإسلام، فإن الله قد عفا لهم عنه فلا يؤاخذهم به.

وهذا ما اختاره ابن جرير: ووجّه معنى الكلام إلى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾ بما دون كبائر الإثم، ودون الفواحش الموجبة للحدود في الدنيا، والعذاب في الآخرة، فإن ذلك معفوّ لهم عنه، وذلك عندي نظير قوله تعالى: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ٣١﴾ (النساء٣١)، فهذا استثناء منقطع لأن اللمم من صغائر الذنوب ومحقرات الأعمال، وعد جلّ ثناؤه باجتناب الكبائر، العفو عما دونها من السيئات، وذلك هو اللمم، والله جل ثناؤه أكرم من أن يعود فيما قد عفا عنه[(١)].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٨٤) وقال: حديث حسن صحيح غريب، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٦١٨)، ومشكاة المصابيح (٢٣٤٩).

(٢) تفسير الماوردي (٥/ ٤٠٠-٤٠١).

الوجه الرابع: أن النبي ﷺ حذر من التهاون في اللمم وصغار الذنوب، وسماها (محقرات الذنوب).

عن عائشة رضي الله عنها قال: قال لي رسول الله ﷺ: يا عائشة إياك ومحقرات الأعمال، فإن لها من الله طالبًا.[2]

قال السندي: قوله: "فإن لها من الله طالبًا" أي: فإن لها ملكًا يسألك مجيء من الله تعالى، كالمنكر والنكير في القبر مثلًا[3].

وعن عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: "**إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ، وَإِنَّ رَسُولَ الله ﷺ ضَرَبَ لَهُنَّ مَثَلًا كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا أَرْضَ فَلَاةٍ فَحَضَرَ صَنِيعُ الْقَوْمِ فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْطَلِقُ فَيَجِيءُ بِالْعُودِ وَالرَّجُلُ يَجِيءُ بِالْعُودِ حَتَّى جَمَعُوا سَوَادًا فَأَجَّجُوا نَارًا وَأَنْضَجُوا مَا قَذَفُوا فِيهَا**[4].

قال السندي: قوله: "ومحقرات الذنوب"بفتح القاف المشددة أي: صغائرها، "يهلكنه": إما لأن اعتيادها يؤدي إلى ارتكاب الكبائر من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه فيكون الهلاك بالكبائر التي تؤدي إليها الصغائر، وإما لأن تكفير الصغائر عند ارتكاب الكبائر جائز لا واجب كما ذكر كثير من أهل العلم، إما لأن اعتيادها يؤدي إلى قلة المبالاة بها، أو يوجب الهلاك، وإما الإصرار على الصغيرة كبيرة وهو محمل الحديث، والأقرب أن الحديث يدل على أن الإصرار على نوع الصغيرة أيضًا كبيرة وإن لم يصر على صغيرة واحدة

(١) تفسير الطبري (١٣/ ٦٨)، وابن كثير (٢٧٢).

(٢) **صحيح**. أخرجه ابن ماجه (٤٢٤٣)، وقال البوصيري: هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات، و ابن حبان في الصحيح (٥٥٦٨)، والطبراني في الأوسط (٢٣٧٧-٣٨٧٦)، وقال محققه: تفرد به، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ١٦٨)، ومسند الشهاب (٩٥٥)، وأخرجه أحمد في المسند (٦/ ٧٠)، و الدارمي (٢٧٢٦)، و صححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٤٢١)، و السلسلة الصحيحة (٥١٣-٢٧٣١).

(٣) أخرجه أحمد (٤٠/ ٤٧٨).

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٤٠٢)، و الطيالسي (٤٠٠)، والبيهقي في الشعب (٢٨٥)، والطبراني في الكبير (١٠٥٠٠)، والحميدي (٩٨)، وعبد الرازق في المصنف (٢٠٢٧٨)، والحديث صححه الألباني وقال: صحيح لغيره، صحيح الترغيب والترهيب (٢٤٧٠).

بعينها، وهذا هو ظاهر المثل المذكور[١].

وعن أنس ﷺ قال: **إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالًا هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنْ الشَّعَرِ إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ الْمُوبِقَاتِ. قَالَ أَبُو عَبْد الله يَعْنِي بِذَلِكَ الْمُهْلِكَاتِ**[٢].

قال الحافظ ابن حجر: أي تعملون أعمالًا تحسبونها هينة وهي عظيمة، أو تؤول إلى العظم، وقال ابن بطال: المحقرات إذا كثرت صارت كبارًا مع الإصرار[٣].

وكان الصحابة ﷺ يعدون الصغائر من الموبقات لشدة خشيتهم لله ﷻ ولم تكن لهم كبائر[٤].

الوجه الخامس: أن اللمم هي الصغائر دون الإصرار عليها.

لقد وصف الله ﷻ عباده المؤمنين في كتابه العزيز فقال ﷻ: ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴿١٣٥﴾ ﴾ (آل عمران١٣٥)، أي: إذا صدر منهم ذنب أتبعوه بالتوبة والاستغفار، وتابوا من ذنوبهم ورجعوا إلى الله من قريب، ولم يستمروا على المعصية، ولو تكرر منهم الذنب تابوا منه[٥].

وقال ابن تيمية: وأما اللمم الذي يقترن به التوبة والاستغفار مما يعظم به الإنسان عند أولي الأبصار، وهذا عمر بن الخطاب ﷺ قد علم تعظيم رعيته له، وطاعتهم مع كونه دائما كان يعترف بما يرجع عنه من خطأ وكان إذا اعترف بذلك وعاد إلى الصواب زاد في أعينهم وازدادوا له محبة وتعظيمًا[٦].

---

(١) حاشية مسند أحمد (٦/ ٣٦٩).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٩٢).

(٣) فتح الباري (١١/ ٣٣٧).

(٤) عمدة القاري (٢٣/ ٨١).

(٥) تفسير ابن كثير (٣/ ١٩٥).

(٦) منهاج السنة النبوية (٢/ ٤٠٧-٤٠٨).

وقال العلماء: رحمهم والإصرار على الصغيرة يجعلها كبيرة[١]، كما ورد عن ابن عباس رضي الله عنه، قال سعيد بن جبير: قال رجل لابن عباس: الكبائر سبع؟ قال: هي إلى السبعمائة أقرب منها إلى السبع غير أنه لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع إصرار[٢].

وقال ابن تيمية: فإن الزنا من الكبائر وأما النظر والمباشرة فاللمم منها مغفور باجتناب الكبائر فإن أصر على النظر أو على المباشرة صار كبيرة وقد يكون الإصرار على ذلك أعظم من قليل الفواحش فإن دوام النظر بالشهوة وما يتصل به من العشق والمعاشرة والمباشرة قد يكون أعظم بكثير من فساد زنا لا إصرار عليه ولهذا قال الفقهاء في الشاهد العدل أن لا يأتي كبيرة ولا يصر على صغيرة[٣].

الوجه السادس: معنى الآية متكامل.

إن الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإن وقع منهم لمم خطأ وليس إصرارًا فإنه يغفر لهم، نقول للذين أحسنوا الحسنى وزيادة، فالذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ووقع منهم بعض الصغائر أو لمم خطأ أو سهو أو نسيان فإنه يغفر لهم هذا اللمم، ومصداق ذلك قول الله ﷻ في كتابه: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ أي: إن تجتنبوا كبائر الذنوب التي نهاكم الله عنها: ﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أي: ذنوبكم التي هي صغائر، وحمل السيئات على الصغائر هنا متعين لذكر الكبائر قبلها، وجعل اجتنابها شرطًا لتكفير السيئات، ﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا﴾ أي: مكان دخول، وهو الجنة[٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (الأحزاب٥)، أي: وإنما الإثم على مَنْ تعمد الباطل كما قال

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (١/ ٣٦٤).

(٢) عمدة القاري (٢٢/ ٨٤).

(٣) فتاوى ابن تيمية (١٥/ ٢٩٣).

(٤) فتح القدير (١/ ٦٨٤)، ابن كثير (٣/ ٤٤٨)، الطبري (٤/ ٤٤).

تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ (البقرة٢٢٥) (١).

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ ﷺقَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " **إِنَّ الله تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ**"(٢).

وعن أبي هريرة ﷺقال: قال رسول الله ﷺ: ما أخشى عليكم الفقر ولكني أخشى عليكم التكاثر، وما أخشى عليكم الخطأ، ولكني أخشى عليكم التعمد(٣).

وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺعَنْ النَّبِيِّ ﷺفِ يمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ ﷻقَالَ: **إِنَّ الله كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا الله لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا الله لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا الله لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا الله لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً**(٤).

قال ابن بطال: فِي هَذَا الْحَدِيث بَيَان فَضْل الله الْعَظِيم عَلَى هَذِهِ الْأُمَّة لِأَنَّهُ لَوْلَا ذَلِكَ كَادَ لَا يَدْخُل أَحَدٌ الْجَنَّة، لِأَنَّ عَمَلَ الْعِبَادِ لِلسَّيِّئَاتِ أَكْثَر مِنْ عَمَلِهِمْ الْحَسَنَاتِ؛ وَيُؤَيِّد مَا دَلَّ عَلَيْهِ حَدِيث الْبَاب مِنْ الْإِثَابَةِ عَلَى الْهَمِّ بِالْحَسَنَةِ وَعَدَمِ الْمُؤَاخَذَةِ عَلَى الْهَمِّ بِالسَّيِّئَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ (البقرة٢٨٦)(٥).

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺقَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّ الله تَجَاوَزَ لِي عَنْ أُمَّتِي مَا وَسْوَسَتْ بِهِ صُدُورُهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَكَلَّمْ(٦).

الوجه السابع: الفواحش في الكتاب المقدس.

---

(١) تفسير ابن كثير (١١/ ١١٧).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٠٤٣)، وصححه الشيخ الألباني في صحيح ابن ماجه (١٦٦٢)، و مشكاة المصابيح (٦٢٩٣)، وإرواء الغليل (٨٢).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٣٤) وقال صحيح على شرط مسلم لم يخرجه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في السلسة الصحيحة (٢٢١٦)، والمناوي في القدير (٧٨٠١)، والبيهقي في الشعب (١٠٣١٤).

(٤) أخرجه البخاري (٦٤٩١)، مسلم (١٣١).

(٥) فتح الباري (١١/ ٣٣٦).

(٦) أخرجه البخاري (٢٥٢٨-٥٢٦٩)، مسلم (١٢٧).

في (حزقيال٢٣/ ١١: ١): وَكَانَ إِلَيَّ كَلاَمُ الرَّبِّ قَائِلًا: ٢ «يَا ابْنَ آدَمَ، كَانَ امْرَأَتَانِ ابْنَتَا أُمٍّ وَاحِدَةٍ، ٣ وَزَنَتَا بِمِصْرَ. فِي صِبَاهُمَا زَنَتَا. هُنَاكَ دُغْدِغَتْ ثُدِيُّهُمَا، وَهُنَاكَ تَزَغْزَغَتْ تَرَائِبُ عُذْرَتِهِمَا. ٤ وَاسْمُهُمَا: أُهُولَةُ الْكَبِيرَةُ، وَأُهُولِيبَةُ أُخْتُهَا. وَكَانَتَا لِي، وَوَلَدَتَا بَنِينَ وَبَنَاتٍ. وَاسْمَاهُمَا: السَّامِرَةُ «أُهُولَةُ»، وَأُورُشَلِيمُ «أُهُولِيبَةُ». ٥ وَزَنَتْ أُهُولَةُ مِنْ تَحْتِي وَعَشِقَتْ مُحِبِّيهَا، أَشُّورَ الأَبْطَالَ ٦ اللاَّبِسِينَ الأَسْمَانْجُونِيَّ وُلاَةً وَشِحَنًا، كُلُّهُمْ شُبَّانُ شَهْوَةٍ، فُرْسَانٌ رَاكِبُونَ الْخَيْلَ. ٧ فَدَفَعَتْ لَهُمْ عُقْرَهَا لِمُخْتَارِي بَنِي أَشُّورَ كُلِّهِمْ، وَتَنَجَّسَتْ بِكُلِّ مَنْ عَشِقَتْهُمْ بِكُلِّ أَصْنَامِهِمْ. ٨ وَلَمْ تَتْرُكْ زِنَاهَا مِنْ مِصْرَ أَيْضًا، لأَنَّهُمْ ضَاجَعُوهَا فِي صِبَاهَا، وَزَغْزَغُوا تَرَائِبَ عِذْرَتِهَا وَسَكَبُوا عَلَيْهَا زِنَاهُمْ. ٩ لِذلِكَ سَلَّمْتُهَا لِيَدِ عُشَّاقِهَا، لِيَدِ بَنِي أَشُّورَ الَّذِينَ عَشِقَتْهُمْ. ١٠ هُمْ كَشَفُوا عَوْرَتَهَا. أَخَذُوا بَنِيهَا وَبَنَاتِهَا، وَذَبَحُوهَا بِالسَّيْفِ، فَصَارَتْ عِبْرَةً لِلنِّسَاءِ. وَأَجْرَوْا عَلَيْهَا حُكْمًا. ١١ «فَلَمَّا رَأَتْ أُخْتُهَا أُهُولِيبَةُ ذلِكَ أَفْسَدَتْ فِي عِشْقِهَا أَكْثَرَ مِنْهَا، وَفِي زِنَاهَا أَكْثَرَ مِنْ زِنَا أُخْتِهَا.

وفي (إشعياء٢٣/ ١٨: ١٧): وَيَكُونُ مِنْ بَعْدِ سَبْعِينَ سَنَةً أَنَّ الرَّبَّ يَتَعَهَّدُ صُورَ فَتَعُودُ إِلَى أُجْرَتِهَا، وَتَزْنِي مَعَ كُلِّ مَمَالِكِ الْبِلاَدِ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ. ١٨ وَتَكُونُ تِجَارَتُهَا وَأُجْرَتُهَا قُدْسًا لِلرَّبِّ. لاَ تُخْزَنُ وَلاَ تُكْنَزُ، بَلْ تَكُونُ تِجَارَتُهَا لِلْمُقِيمِينَ أَمَامَ الرَّبِّ، لأَكْلٍ إِلَى الشِّبَعِ وَلِلِبَاسٍ فَاخِرٍ.

* * * *

سورة القمر

وفيها:

١- شبهة: إنكار معجزة انشقاق القمر.

٢- شبهة: كيف كان هلاك عاد؟

١ـ شبهة: إنكار معجزة انشقاق القمر.

نص الشبهة:

إنكار وقوع معجزة انشقاق القمر لهذه الأدلة:

١- أن معنى آية: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ أي سينشق يوم القيامة كما قال بعض المفسرين.

٢- أن في روايات ابن مسعود تَعارُض مع روايات الذين لم يعاصروا هذه المعجزة، فكيف تقبل روايتهم؟.

٣- تعارض هذه المعجزة مع آية: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ (الإسراء ٥٩).

٤- لو وقعت ما أهملها تاريخ الأمم الأخرى.

٥-أن هذا مغاير لطبيعة الأفلاك السماوية.

والجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: القرآن أثبت وقوع معجزة انشقاق القمر في عهد النبيﷺ.

الوجه الثاني: قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ دليل على وقوع هذه المعجزة.

الوجه الثالث: تواتر هذه المعجزة عن النبي ﷺ.

الوجه الرابع: الإجماع على وقوع هذه المعجزة.

الوجه الخامس: ذكر المعجزة في القرآن دليل على ثبوتها.

الوجه السادس: ذكر الكتاب المقدس لأحداث لم يذكرها التاريخ.

الوجه السابع: ماذا عن المعجزات ومعجزات يسوع كما فى الكتاب المقدس؟.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: القرآن أثبت وقوع معجزة انشقاق القمر في عهد النبي ﷺ.

قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ (القمر: ١ -٢).

قال الطبري: وقوله: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ يقول جلّ ثناؤه: وانفلق القمر، وكان ذلك فيما ذُكر على عهد رسول الله ﷺ وهو بمكة، قبل هجرته إلى المدينة، وذلك أن كفار أهل مكة سألوه آية، فأراهم ﷺ انشقاق القمر، آية حجة على صدق قوله، وحقيقة نبوّته؛ فلما أراهم أعرضوا وكذبوا، وقالوا: هذا سحر مستمرّ، سحرنا محمد، فقال الله جلّ ثناؤه: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾﴾.

الوجه الثاني: **قوله**: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ **دليل على وقوع هذه المعجزة**.

قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟﴾ هذا يدل على أنهم رأوا انشقاق القمر. [١]

الوجه الثالث: **تواتر هذه المعجزة عن النبي ﷺ**.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقين فقال النبي ﷺ: "اشهدوا". [٢]

وفي لفظ آخر للبخاري عن عبد الله رضي الله عنه قال: انشق القمر ونحن مع النبي ﷺ بمنى فقال: " اشهدوا "، وذهبت فرقة نحو الجبل. [٣]

وقال أبو الضحى عن مسروق عن عبد الله انشق بمكة وتابعه محمد بن مسلم عن ابن نجيح عن مجاهد عن أبي معمر عن عبد الله- عن ابن عمر قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فلقتين فستر الجبل فلقة وكانت فلقة فوق الجبل فقال رسول الله: ﷺ "اللهم اشهد". [٤]

عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر. [٥]

عن ابن عباس: أن القمر انشق في زمان النبي ﷺ. [٦]

---

(١) تفسير القرطبي (١٧/ ١١١).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٣٦)، ومسلم (٢٨٠٠).

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٥٦).

(٤) أخرجه مسلم (٢٨٠١).

(٥) أخرجه البخاري (٣٦٣٧)، ومسلم (٢٨٠٢).

(٦) أخرجه البخاري (٣٦٣٨)، ومسلم (٢٨٠٢).

قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: قَدْ رَوَى هَذَا الْحَدِيث جَمَاعَة كَثِيرَة مِنْ الصَّحَابَة، وَرَوَى ذَلِكَ عَنْهُمْ أَمْثَالهمْ مِنْ التَّابِعِينَ، ثُمَّ نَقَلَهُ عَنْهُمْ الْجَمّ الْغَفِير إِلَى أَنْ اِنْتَهَى إِلَيْنَا.(١)

قال القاضي عياض: بعد ما ذكر أن كثيرًا من الآيات المأثورة عنه -معلومة بالقطع- ما نصه: أما انشقاق القمر؛ فالقرآن نص بوقوعه، وأخبر بوجوده، ولا يعدل عن ظاهر إلا بدليل، وجاء برفع احتماله صحيح الأخبار من طرق كثيرة، فلا يوهن عزمنا خلاف أخرق منحل عرى الدين، ولا يلتفت إلى سخافة مبتدع يلقي الشك في قلوب ضعفاء المؤمنين، بل نرغم بهذا أنفه، وننبذ بالعراء سخفه.(٢)

الوجه الرابع: الإجماع على وقوع هذه المعجزة.

وقد روى حديث الانشقاق جماعةٌ، منهم: عبد الله بن عمر، وحذيفة، وجبير بن مطعم، وابن عباس، وأنس بن مالك، وعلى هذا جميع المفسرين، إلاّ أن قومًا شذُّوا فقالوا: سيَنْشَقُّ يوم القيامة، وهذا القول الشاذ لا يقاوم الإجماع.(٣)

وقال ابن حجر: أجمع المفسرون وأهل السير على وقوعه.(٤)

الوجه الخامس: ذكر المعجزة في القرآن دليل على ثبوتها.

فلو أن القرآن سجل شيئًا لم يقع، أي: لو أن القمر لم ينشق لكانت الفرصة لكفار قريش ليقولوا: محمد يزعم أن القمر قد انشق وأننا رأيناه، وأننا قد قلنا هذا سحر وما وقع من ذلك شيء، أما المسلمون فكان منهم من سيرتد عن الإسلام إذ كيف يكذب عليهم ويقول وقع انشقاق ولم يقع؟.

ولكن ما الذي حدث؟ الذي حدث أن ثبت المسلمون على إسلامهم واستمروا على إيمانهم وازدادوا إيمانًا، وتحول الكفار من الكفر إلى الإسلام وأصبحوا بعد ذلك من جيش الإسلام.

أما عن قولهم أن المراد بقوله: ﴿وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ أي: سينشق يوم القيامة:

---

(١) نقلًا عن فتح الباري (٧/ ١٨٦).

(٢) الشفا للقاضي عياض (٢٥٥).

(٣) زاد المسير لابن الجوزى (٨/ ٨٨).

(٤) فتح الباري (٧/ ١٨٥).

قال ابن كثير: وقوله: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾: قد كان هذا في زمان رسول الله ﷺ، كما ثبت ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة. وقد ثبت في الصحيح عن ابن مسعودﷺ أنه قال: خمس قد مضين: الروم، والدخان، واللزام، والبطشة، والقمر[(١)].

وهذا أمر متفق عليه بين العلماء- أي انشقاق القمر- قد وقع في زمان النبي ﷺوأنه كان إحدى المعجزات الباهرات[(٢)].

قال ابن الجوزى: وعلى هذا جميع المفسرين- أي انشقاق القمر-، إلاّ أن قومًا شذُّوا فقالوا: سَيَنْشَقُّ يوم القيامة. وقد روى عثمان بن عطاء عن أبيه نحو ذلك، وهذا القول الشاذ لا يقاوم الإجماع، ولأن قوله: ﴿وَٱنشَقَّ﴾ لفظ ماض، وحَمْلُ لفظ الماضي على المستقبل يفتقر إلى قرينة تنقله ودليل، وليس ذلك موجودًا. وفي قوله: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةً يُعۡرِضُواْ﴾ دليل على أنه قد كان ذلك.[(٣)]

قال الشوكانى: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ أي: وقد انشقّ القمر، وكذا قرأ حذيفة بزيادة ﴿قد﴾، والمراد الانشقاق الواقع في أيام النبوّة معجزة لرسول اللهﷺ، وإلى هذا ذهب الجمهور من السلف والخلف. قال الواحدى: وجماعة المفسرين على هذا إلاّ ما روى عثمان بن عطاء عن أبيه أنه قال: المعنى: سينشقّ القمر، والعلماء كلهم على خلافه. قال: وإنما ذكر اقتراب الساعة مع انشقاق القمر؛ لأن انشقاقه من علامات نبوّة محمد ﷺ، ونبوّته وزمانه من أشراط اقتراب الساعة. . . . ثم قال- أى الشوكانى- قال الزجاج: زعم قوم عندوا عن القصد وما عليه أهل العلم أن تأويله (أن القمر ينشق يوم القيامة)، والأمر بين في الغلط وإجماع أهل العلم علي قوله: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةً يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾ يدل على أن هذا كان في الدنيا لا في القيامة، ولم يأت من خالف الجمهور وقال إن الانشقاق سيكون يوم القيامة إلا بمجرد استبعاد فقال: لأنه لو انشق في زمن النبوة لم يبق أحد إلا رآه لأنه آية والناس في الآيات سواء.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٢٥).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٣٣).

(٣) زاد المسيرلابن الجوزى (٨/ ٨٨).

ويجاب عنه: بأنه لا يلزم أن يراه كل أحد لا عقلًا ولا شرعًا ولا عادة، ومع هذا فقد نقل إلينا بطريق التواتر وهذا بمجرده يدفع الاستبعاد ويضرب به في وجه قائله.

والحاصل: أنا إذا نظرنا إلى كتاب الله فقد أخبرنا بأنه انشق ولم يخبرنا بأنه سينشق وإن نظرنا إلى سنة رسول الله ﷺ فقد ثبت في الصحيح وغيره من طرق متواترة أنه قد كان ذلك في أيام النبوة، وإن نظرنا إلى أقوال أهل العلم فقد اتفقوا على هذا ولا يلتفت إلى شذوذ من شذ واستبعاد من استبعد. (١)

أما عن ادعائهم التعارض فى روايتي ابن مسعود رضي الله عنه بقوله انشق القمر ونحن بمنى والأخرى قال فيها بمكة، أومع غيرها من الروايات الأخرى وباقى الصحابة لم يعاصروا هذه المعجزة! أما عن الأولى فأجاب ابن حجر عن ذلك قائلًا: والجمع بين قول ابن مسعود (تارة بمنى وتارة بمكة) إما باعتبار التعدد إن ثبت، وإما بالحمل على أنه كان بمنى، ومن قال: كان بمكة لا ينافيه؛ لأن من كان بمنى كان بمكة من غير عكس، ويؤيده أن الرواية التي فيها بمنى قال فيها: (ونحن بمنى)، والرواية التي فيها بمكة لم يقل فيها (ونحن)، وإنما قال: (انشق القمر بمكة) يعني أن الإنشقاق كان وهم بمكة قبل أن يهاجروا إلى المدينة، وبهذا تندفع دعوى الداوودي أن بين الخبرين تضادا، والله أعلم.

وقال: وقد وقع عند ابن مردويه بيان المراد فأخرجه من وجه آخر عن ابن مسعود قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ ونحن بمكة قبل أن نصير إلى المدينة فوضح أن مراده بذكر مكة الإشارة إلى أن ذلك وقع قبل الهجرة، ويجوز أن ذلك وقع وهم ليلتئذ بمنى.

ورواية (رأيت القمر على الجبل وقد انشق، فأبصرت الجبل بين فرجتي القمر) ورواية (فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما)، لا تعارض بينهما البتة، وكذا رواية (انشق القمر فرقتين، فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه) فإنها قريبة من معناهما.

فلم يبق إلا ما ظاهره التعارض بين هاتين الروايتين (رأيت القمر منشقًا شقتين؛ شقة على أبي قبيس، وشقة على السويداء)، ورواية (فانشق القمر نصفين؛ نصفًا على الصفا، ونصفًاعلي المروة، وهذا ليس فيه إشكال؛ فإن نظر الإنسان يختلف بحسب الزاوية التي

---

(١) فتح القدير للشوكاني (٥/ ١٦٩-١٧٠).

ينظر منها، فمرة يرى القمر فوق أبي قبيس، ثم إذا تحرك رآه على الصفا وهكذا، أو هو بحسب اختلاف جهة الناظرين، فبعضهم يراه من زاوية والآخرين من زواية أخرى.

وقال ابن حجر: (رَأَيْت الْقَمَر مُنْشَقًّا شقَّتَيْنِ): شقَّة عَلَى أَبِي قُبَيْس، وَشُقَّة عَلَى السُّوَيْدَاء - وَالسُّوَيْدَاء بِالْمُهْمَلَةِ وَالتَّصْغِير نَاحِيَة خَارِجَة مَكَّة عِنْدهَا جَبَل-، وقَوْل اِبْن مَسْعُود: عَلَى أَبِي قُبَيْس. يَحْتَمِل أَنْ يَكُون رَآهُ كَذَلِكَ وَهُوَ بِمِنًى، كَأَنْ يَكُون عَلَى مَكَان مُرْتَفِع بِحَيْثُ رَأَى طَرَف جَبَل أَبِي قُبَيْس، ويَحْتَمِل أَنْ يَكُون الْقَمَر اِسْتَمَرَّ مُنْشَقًّا حَتَّى رَجَعَ اِبْن مَسْعُود مِنْ مِنًى إِلَى مَكَّة، فَرَآهُ كَذَلِكَ وَفِيهِ بُعْد، وَالَّذِي يَقْتَضِيه غَالِب الرِّوَايَات أَنَّ الِانْشِقَاق كَانَ قُرْب غُرُوبه، وَيُؤَيِّد ذَلِكَ إِسْنَادهمْ الرُّؤْيَة إِلَى جِهَة الْجَبَل، وَيَحْتَمِل أَنْ يَكُون الِانْشِقَاق وَقَعَ أَوَّل طُلُوعه؛ فَإِنَّ فِي بَعْض الرِّوَايَات أَنَّ ذَلِكَ كَانَ لَيْلَة الْبَدْر، أَوْ التَّعْبِير بِأَبِي قُبَيْس مِنْ تَغْيِير بَعْض الرُّوَاة؛ لِأَنَّ الْغَرَض ثُبُوت رُؤْيَته مُنْشَقًّا، إِحْدَى الشِّقَّتَيْنِ عَلَى جَبَل، وَالْأُخْرَى عَلَى جَبَل آخَر، وَلَا يُغَايِر ذَلِكَ قَوْل الرَّاوِي الْآخَر: رَأَيْت الْجَبَل بَيْنهمَا. أَيْ بَيْن الْفِرْقَتَيْنِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا ذَهَبَتْ فِرْقَة عَنْ يَمِين الْجَبَل، وَفِرْقَة عَنْ يَسَاره مِثْلًا صَدَقَ أَنَّهُ بَيْنهمَا، وأَيّ جَبَل آخَر كَانَ مِنْ جِهَة يَمِينه أَوْ يَسَاره صَدَقَ أَنَّهَا عَلَيْهِ أَيْضًا.[1]

ولو سلمنا التعارض التام بين هاتين اللفظتين من كل جهة، فهذا لا يضر في أصل الحديث، وأقصى ما فيه أن ابن مسعودﷺ، أو أحد الرواة عنه كان يهم في اسم الجبلين، فتارة يقول: (شقة على أبي قبيس وشقة على السويداء)، وتارة (فانشق القمر نصفين، نصفًا على الصفا، ونصفًا المروة)، وأما أصل الحديث وهو الشاهد منه، أن القمر انشق فليس فيها أي اضطراب أو نسيان أو وهم.[2]

أما عن قولهم إن باقى الصحابة لم يعاصروا وقوع هذه المعجزة وهذه من المراسيل.

قال ابن الصلاح: ثم إنا لم نعد في أنواع المرسل ما يسمى في أصول الفقه مرسل الصحابي، مثل ما يرويه ابن عباس وغيره من أحداث الصحابة عن رسول الله – ولم

(١) فتح الباري لابن حجر (٧/ ١٨٥، ١٨٤).

(٢) الطعن في القرآن الكريم والرد على الطاعنين في القرن الرابع عشر الهجري لعبد المحسن المطيري (١٩).

يسمعوه منه-؛ لأن ذلك في حكم الموصول المسند.[١]

قال ابن كثير: وقد حكى بعضهم الإجماع على قبول مراسيل الصحابة.[٢]

ثم لو سلمنا بعدم قبول رواية مرسل الصحابي، فقد رواه ابن مسعود مشاهدة، وهو ليس بمرسل في حقه، وكذلك رواه ورآه علي بن أبي طالب، وحذيفة، وجبير بن مطعم، وابن عمر.[٣]

أما عن قولهم إن حدوث هذه المعجزة يتعارض مع آية:

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾ (الإسراء: ٥٩).

والجواب على ذلك بما يلي:

١ـ لقد طلبت قريش من النبي محمد ﷺ آية بعينها فلم تنزل حتى لا يقع العذاب عليهم:

قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ في الكلام حذف والتقدير: وما منعنا أن نرسل بالآيات التي اقترحوها إلا أن يكذبوا بها فيهلكوا كما فعل بمن كان قبلهم قال معناه قتادة و ابن جريج وغيرهما فأخر الله تعالى العذاب عن كفار قريش لعلمه أن فيهم من يؤمن وفيهم من يولد مؤمنًا، وقد تقدم في الأنعام وغيرها أنهم طلبوا أن يحول الله لهم الصفا ذهبًا وتتنحى الجبال عنهم فنزل جبريل وقال: إن شئت كان ما سأل قومك ولكنهم إن لم يؤمنوا لم يمهلوا وإن شئت استأنيت بهم فقال: "لا بل استأن بهم"، وأن الأولى في محل نصب بوقوع المنع عليهم، وأن الثانية في محل رفع، والباء في بالآيات زائدة ومجاز الكلام: وما منعنا إرسال الآيات إلا تكذيب الأولين، والله تعالى لا يكون ممنوعًا عن شيء فالمعنى: المبالغة في أنه لا يفعل؛ فكأنه قد منع عنه ثم بين ما فعل بمن سأل الآيات فلم يؤمن بها.[٤]

٢ـ أنزل الله الآيات كانشقاق القمر، وطلبوا آيات أخرى فلما لم يؤمنوا منع الله إرسال الآيات.

---

(١) علوم الحديث للحافظ أبي عمرو بن الصلاح (٧٥).

(٢) الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث (١/ ٦).

(٣) فتح الباري (٧/ ١٨٢).

(٤) تفسير القرطبي (١٠/ ٢٤٤).

لما أنزل الله الآيات كانشقاق القمر، اجتمع إليه المشركون بعد مدة فسألوه أن يأتي إليهم بالله والملائكة قبيلًا، وسألوه أن يرد لهم أجدادهم الماضين، ويكون فيهم قصي بن كلاب ليسألوه أحق ماأتي به أم لا؟.

وطلبوا منه أن يزحزح عنهم جبال مكة، ويفجر لهم في بطحائها أنهارًا، وسألوه أن يسقط عليهم من السماء كسفًا، وأن يكون له بيت من زخرف ويرقي في السماء، ويأتيهم بكتاب مع الملائكة يشهدون، وهذا كله منصوص في السورة السابعة عشر من القرآن فقال: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ (الإسراء: ٩٣)، وقال تعالي: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْآيَٰتِ﴾ يعني هذه الآيات التي طلبوها منه، ثم قال: ﴿إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ (الإسراء: ٥٩) يشير إلي تكذيبهم بانشقاق القمر قبل ذلك. وتكذيب الأنبياء من قبله. [1]

وأما انشقاق القمر فإنه آية لم يطلبها المشركون بعينها؛ وإنما طلبوا آية دون تحديد فانشق القمر، كما في صحيح البخاري عن أنس ﷺقال: سأل أهل مكة أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر.

وبهذا يتبين أنه لا تعارض يبن انشقاق القمر ومضمون الآية الكريمة ولله الحمد والمنة.

أما عن قولهم لو وقع ذلك لرآها كثير من الناس وما أهمله أهل التاريخ وتواتر عندهم:

والرد على هذا من وجوه:

الوجه الأول: يكفينا ثبوتها فى القرآن وتواترها في سنة النبي محمد ﷺ وقد سبق بيان ذلك فى أول البحث.

الوجه الثاني: **قال الحافظ ابن حجر**: إنَّ ذَلِكَ وَقَعَ لَيْلًا وَأَكْثَر النَّاس نِيَام وَالْأَبْوَاب مُغَلَّقَة، وقَلَّ مَنْ يُرَاصِد السَّمَاء إِلَّا النَّادِر، وَقَدْ يَقَع بِالْمُشَاهَدَةِ فِي الْعَادَة أَنْ يَنْكَسِف الْقَمَر، وَتَبْدُو الْكَوَاكِب الْعِظَام وَغَيْر ذَلِكَ فِي اللَّيْل وَلَا يُشَاهِدهَا إِلَّا الْآحَاد، فَكَذَلِكَ الِانْشِقَاق كَانَ آيَة وَقَعَتْ فِي اللَّيْل لِقَوْمٍ سَأَلُوا وَاقْتَرَحُوا فَلَمْ يَتَأَهَّب غَيْرهمْ لَهَا، وَيَحْتَمِل أَنْ يَكُون الْقَمَر لَيْلَتئِذٍ كَانَ فِي بَعْض الْمَنَازِل الَّتِي تَظْهَر لِبَعْضِ أَهْل الْآفَاق دُون بَعْض كَمَا يَظْهَر

---

(١) بين الإسلام والمسيحية لأبي عبيدة الخزرجي (٢٠٠).

الْكُسُوف لِقَوْمٍ دُون قَوْم. وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ: اِنْشِقَاق الْقَمَر آيَة عَظِيمَة لَا يَكَاد يَعْدِلهَا شَيْء مِنْ آيَات الْأَنْبِيَاء، وَذَلِكَ أَنَّهُ ظَهَرَ فِي مَلَكُوت السَّمَاء خَارِجًا مِنْ جُمْلَة طِبَاع مَا فِي هَذَا الْعَالَم الْمُرَكَّب مِنْ الطَّبَائِع، فَلَيْسَ مِمَّا يُطْمَع فِي الْوُصُول إِلَيْهِ بِحِيلَةٍ، فَلِذَلِكَ صَارَ الْبُرْهَان بِهِ أَظْهَر، وَقَدْ أَنْكَرَ ذَلِكَ بَعْضهمْ فَقَالَ: لَوْ وَقَعَ ذَلِكَ لَمْ يَجُز أَنْ يَخْفَى أَمْره عَلَى عَوَامّ النَّاس لِأَنَّهُ أَمْر صَدَرَ عَنْ حِسّ وَمُشَاهَدَة فَالنَّاس فِيهِ شُرَكَاء وَالدَّوَاعِي مُتَوَفِّرَة عَلَى رُؤْيَة كُلّ غَرِيب وَنَقْل مَا لَمْ يُعْهَد، فَلَوْ كَانَ لِذَلِكَ أَصْل لَخُلِّدَ فِي كُتُب أَهْل التَّسْيِير وَالتَّنْجِيم، إِذْ لَا يَجُوز إِطْبَاقهمْ عَلَى تَرْكه وَإِغْفَاله مَعَ جَلَالَة شَأْنه وَوُضُوح أَمْره. وَالْجَوَاب عَنْ ذَلِكَ: أَنَّ هَذِهِ الْقِصَّة خَرَجَتْ عَنْ بَقِيَّة الْأُمُور الَّتِي ذَكَرُوهَا لِأَنَّهُ شَيْء طَلَبه خَاصَّة مِنْ النَّاس فَوَقَعَ لَيْلًا لِأَنَّ الْقَمَر لَا سُلْطَان لَهُ بِالنَّهَارِ وَمِنْ شَأْن اللَّيْل أَنْ يَكُون أَكْثَر النَّاس فِيهِ نِيَامًا وَمُسْتَكِنِّينَ بِالْأَبْنِيَةِ، وَالْبَارِز بِالصَّحْرَاءِ مِنْهُمْ إِذَا كَانَ يَقْظَان يَحْتَمِل أَنَّهُ كَانَ فِي ذَلِكَ الْوَقْت مَشْغُولًا بِمَا يُلْهِيه مِنْ سَمَر وَغَيْره، وَمِنْ الْمُسْتَبْعَد أَنْ يَقْصِدُوا إِلَى مَرَاصِد مَرْكَز الْقَمَر نَاظِرِينَ إِلَيْهِ لَا يَغْفُلُونَ عَنْهُ، فَقَدْ يَجُوز أَنَّهُ وَقَعَ وَلَمْ يَشْعُر بِهِ أَكْثَر النَّاس، وَإِنَّمَا رَآهُ مَنْ تَصَدَّى لِرُؤْيَتِهِ مِمَّنْ اِقْتَرَحَ وُقُوعه، وَلَعَلَّ ذَلِكَ إِنَّمَا كَانَ فِي قَدْر اللَّحْظَة الَّتِي هِيَ مَدْرَك الْبَصَر.[1]

الوجه الثالث: جائز أن يستره الله عنهم بغيم أو يشغلهم عن رؤيته ببعض الأمور لضرب من التدبير ولئلا يدعيه بعض المتنبئين في الآفاق لنفسه فأظهره للحاضرين عند دعاء رسول الله ﷺ إياهم واحتجاجه عليهم[2].

الوجه الرابع: أَنَّهُ لَمْ يُنْقَل عَنْ أَحَد مِنْهُمْ أَنَّهُ نَفَاهُ، وَهَذَا كَافٍ، فَإِنَّ الْحُجَّة فِيمَنْ أَثْبَتَ لَا فِيمَنْ يُوجَد عَنْهُ صَرِيح النَّفْي، حَتَّى إِنَّ مَنْ وُجِدَ عَنْهُ صَرِيح النَّفْي يُقَدَّم عَلَيْهِ مَنْ وُجِدَ مِنْهُ صَرِيح الْإِثْبَات.

الوجه الخامس: إِنَّ زَمَن الِانْشِقَاق لَمْ يَطُلْ وَلَمْ تَتَوَفَّر الدَّوَاعِي عَلَى الِاعْتِنَاء بِالنَّظَرِ إِلَيْهِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ بَعَثَ أَهْل مَكَّة إِلَى آفَاق مَكَّة يَسْأَلُونَ عَنْ ذَلِكَ فَجَاءَتْ السُّفَّار وَأَخْبَرُوا بِأَنَّهُمْ عَايَنُوا ذَلِكَ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمُسَافِرِينَ فِي اللَّيْل غَالِبًا يَكُونُونَ سَائِرِينَ فِي ضَوْء الْقَمَر وَلَا

(١) فتح الباري (٧/ ١٨٥)، وانظر إظهار الحق (٢/ ١٨٧).

(٢) أحكام القران للجصاص (٥/ ٢٩٨)

يَخْفَى عَلَيْهِمْ ذَلِكَ.[١]

الوجه السادس: أنها لم تكن متوقع الحصول لأهل العلم لينظروها في وقتها ويروها كما أنهم يرون هلال رمضان والعيدين والكسوف والخسوف في أوقاتها غالبًا لأجل كونها متوقع الحصول، ولا يكون نظر كل واحد إلى السماء في كل جزء من أجزاء النهار أيضًا فضلًا عن الليل. فلذلك رأى الذين كانوا طالبين لهذه المعجزة وكذلك من وقع نظره في هذا الوقت إلى السماء كما جاء في الأحاديث الصحيحة أن الكفار لما رأوها قالوا: سحركم ابن أبي كبشة فقال أبو جهل: هذا سحر فابعثوا إلى أهل الآفاق حتى تنظروا رأوا ذلك أم لا؟ فأخبر أهل آفاق مكة أنهم رأوه منشقًا، وذلك لأن العرب يسافرون في الليل غالبًا ويقيمون بالنهار فقالوا: هذا سحر مستمر. وفي المقالة الحادية عشر من تاريخ "فرشته" أن أهل مليبار من إقليم الهند رأوه أيضًا، وأسلم والي تلك الديار التي كانت من مجوس الهند بعد ما تحقق له هذا الأمر.

وقد نقل الحافظ المزى عن ابن تيمية أن بعض المسافرين ذكر أنه وجد في بلاد الهند بناءً قديمًا مكتوبًا عليه: (بني ليلة انشق القمر).[٢]

الوجه السابع: أنه قد يحول في بعض الأمكنة وفي بعض الأوقات بين الرائي والقمر، سحاب غليظ أو جبل، ويوجد التفاوت الفاحش في بعض الأوقات في الديار التي ينزل فيها المطر كثيرًا، بأنه يكون في بعض الأمكنة سحاب غليظ ونزول المطر بحيث لا يرى الناظر في النهار الشمس ولا هذا اللون الأزرق إلى ساعات متعددة، وكذا لا يرى في الليل القمر والكواكب ولا اللون المذكور. وفي بعض أمكنة أخرى لا أثر للسحاب ولا للمطر وتكون المسافة بين تلك الأمكنة والأمكنة الأولى قليلة، وأهل البلاد الشمالية كالروم والفرنج في موسم نزول الثلج والمطر لا يرون الشمس إلى أيام، فضلًا عن القمر.[٣]

---

(١) نقله ابن حجر عن ابن عبد البر، انظر فتح الباري (٧/ ١٨٦)، وإظهار الحق (٢/ ٢٨٨).

(٢) فتح الباري (٧/ ١٨٦)، وإظهار الحق (٢/ ١٨٨).

(٣) الفتح (٧/ ١٨٦)، و إظهار الحق (٢/ ١٨٨).

الوجه الثامن: أن القمر لاختلاف مطالعه ليس في حد واحد لجميع أهل الأرض، فقد يطلع على قوم قبل أن يطلع على آخرين، فيظهر في بعض الآفاق وبعض المنازل على أهل بعض البلاد دون بعض، ولذلك نجد الخسوف في بعض البلاد دون بعض، ونجده في بعض البلاد باعتبار بعض أجزاء القمر، وفي بعضها مستوفيًا أطرافه كلها، وفي بعضها لا يعرفها إلا الحاذقون في علم النجوم، وكثيرًا ما يحدث الثقات من العلماء بالهيئة الفلكية بعجائب يشاهدونها من أنوار ظاهرة ونجوم طالعة عظيمة تظهر في بعض الأوقات أو الساعات من الليل، ولا علم لأحد بها من غيرهم. (١)

الوجه التاسع: أنه قلما يقع أن يبلغ عدد ناظري أمثال هذه الحوادث النادرة الوقوع إلى حد يفيد اليقين، وأخبار بعض العوام لا يكون معتبرًا عند المؤرخين في الوقائع العظيمة، نعم يعتبر أخبارهم أيضًا في الحوادث التي يبقى أثرها بعد وقوعها، كالريح الشديد، ونزول الثلج الكثير، والبرد. فيجوز أن مؤرخي بعض الديار لم يعتبروا أخبار بعض العوام في هذه الحادثة، وحملوه على تخطئة أبصار المخبرين العوام، وظنوا أنها تكون نحوًا من الخسوف. (٢)

الوجه العاشر: أن المؤرخين كثيرًا ما يكتبون الحوادث الأرضية ولا يتعرضون للحوادث السماوية إلا قليلًا، لاسيما مؤرخي السلف، وكان في زمان النبي ﷺ في ديار إنكلترة وفرانس شيوع الجهل، واشتهارها بالصنائع والعلوم إنما هو بعد زمانه ﷺ بمدة طويلة. (٣)

الوجه الحادي عشر: أن المنكر إذا علم أن الأمر الفلاني معجزة أو كرامة للشخص الذي ينكره تصدى لإخفائها، ولا يرضى بذكرها وكتابتها غالبًا. (٤)

الوجه السادس: **ذكر الكتاب المقدس لأحداث لم يذكرها التاريخ.**

وأخيرًا: سلمنا جدلًا أن التاريخ قد أهمل ذكر معجزة انشقاق القمرفلماذا أهمل التاريخ ذكر هذه الحوادث المزعومة فى الكتاب المقدس. (١)

---

(١) إظهار الحق (٢/ ١٨٩).

(٢) المصدر السابق.

(٣) إظهار الحق (٢/ ١٨٩).

(٤) المصدر السابق.

أ - أن حادثة طوفان نوح عليه السلام كانت ممتدة إلى سنة، وفنى فيه كل ذي حياة من الطيور والبهائم والحشرات والإنسان غير أهل السفينة، وما نجا من الإنسان غير ثمانية أشخاص على ما هو مصرح به في الباب السابع والثامن من سفر التكوين.

وفي الآية العشرين من الباب الثالث من الرسالة الأولى لبطرس هكذا: (**إِذْ كَانَ الْفُلْكُ يُبْنَى، الَّذِي فِيهِ خَلَصَ قَلِيلُونَ، أَيْ ثَمَانِي أَنْفُسٍ بِالْمَاءِ**).

والآية الخامسة من الباب الثاني من رسالته الثانية هكذا: (**وَلَمْ يُشْفِقْ عَلَى الْعَالَمِ الْقَدِيمِ، بَلْ إِنَّمَا حَفِظَ نُوحًا ثَامِنًا كَارِزًا لِلْبِرِّ، إِذْ جَلَبَ طُوفَانًا عَلَى عَالَمِ الْفُجَّارِ**). وما مضت على هذه الحادثة مدة إلى هذا اليوم على زعم أهل الكتاب إلا مقدار أربعة آلاف ومائتين واثنتي عشرة سنة شمسية ولا يوجد هذا الحال في تواريخ مشركي الهند وكتبهم. وهم ينكرون هذا الأمر إنكارًا بليغًا ويستهزئ به علماؤهم كافة ويقولون: لو قطع النظر عن الزمان السالف ونظر إلى زمان كرشن الأوتار، الذي كان قبل هذا اليوم بمقدار أربعة آلاف وتسعمائة وستين سنة على شهادة كتبهم، لا مجال لصحة هذه الحادثة العامة لأن الأمصار العظيمة الكثيرة من ذلك العهد إلى هذا الحين مغمورة وثبت بشهادة تواريخهم أنه يوجد من ذلك العهد إلى هذا الحين في إقليم الهند مليونات كثيرة في كل زمان من الأزمنة، ويدعون أن حال زمان كرشن لوجود كثرة التواريخ كحال أمس.

وقال ابن خلدون في المجلد الثاني من تاريخه: واعلم أن الفرس والهند لا يعرفون الطوفان وبعض الفرس يقولون كان ببابل فقط. انتهى كلامه بلفظه. وقال العلامة تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد المعروف بالمقريزي في المجلد الأول من كتابه المسمى بكتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار: (الفرس وسائر المجوس والكلدانيون أهل بابل والهند وأهل الصين وأصناف الأمم المشرقية ينكرون الطوفان، وأقر به بعض الفرس لكنهم قالوا لم يكن الطوفان بسوى الشام والمغرب ولم يعم العمران كله ولا غرق إلا بعض الناس ولم يجاوز عقبة حلوان ولا بلغ إلى ممالك المشرق) انتهى كلامه بلفظه.

---

(١) باختصار من إظهار الحق (٢/ ١٨١-١٨٧).

وأبناء صنف القسيسين ينكرون هذا الطوفان ويستهزئون به. وأنقل كلام جان كلارك الملحد عن رسالته الثالثة المندرجة في كتابه المطبوع سنة ١٨٣٩ في ليدس فقال في الصفحة ٥٤: (هذا) يعني الطوفان، غير صحيح على شهادة علم الفلسفة وأنا أتعجب! أمات الحيتان في ماء هذا الطوفان؟.

ولما كان بحكم الآية الخامسة من الباب السادس من سفر التكوين أفكار قلوب الإنسان ذميمة فلماذا أبقى الله ثمانية أشخاص. لِمَ لَمْ يخلق الإنسان مرة أخرى بعد إهلاك الكل؟ ولماذا أبقى بضاعته القديمة التي بقيت الأفكار الذميمة باقية بسببها؟ لأن الشجرة الرديئة لا تثمر ثمرة جيدة كما قال متى في الآية السادسة عشر من الباب السابع، هل يجتنون من الشوك عنبًا أو من الحسك تينًا؟. ونوح كان شارب الخمر وبهيمة وظالمًا (والعياذ بالله). كما يفهم من الآية ٢١ و ٢٥ من الباب التاسع من سفر التكوين فكيف يرجى منه أن يكون نسله صالحًا.

وانظروا أنه لم يكن صالحًا كما يظهر من الآية الثانية من الباب الثاني من رسالة بولس إلى أهل أفسيس والآية الثالثة من الباب الثالث من رسالته إلى تيطس والآية الثالثة من الباب الرابع من الرسالة الأولى لبطرس والآية (ص ١٩٠) الخامسة من الزبور الحادي والخمسين) انتهى كلامه. ثم استهزأ في هذه الصفحة ٩٣ استهزاءً بليغًا جاوز الحد في إساءة الأدب، فلا أرضى بنقل كلامه القبيح.

ب - أن حادثة وقوف الشمس يومًا كاملًا ليوشع (يشوع بن نون) مذكورة في سفر يشوع ١٠/١٢-١٣، وذكر مؤرخو أهل الكتاب ومفسروهم بأنها دامت إلى أربع وعشرين ساعة، فهذه الحادثة العظيمة التي وقعت سنة ١٤٥٠ق. م يجب أن يراها سكان الأرض كلهم؛ لأن السحاب الغليظ لا يمنع العلم بها في المناطق التي كان عليها النهار، وأما سكان المناطق التي كان عليها الليل فلابد أن يعلموا بهذه الحادثة لامتداد ليلهم بمقدار أربع وعشرين ساعة، ومع ذلك فإن مشركي الهند والفرس وأهل الصين ينكرونها ولم تذكر في تواريخهم، وملاحدة أوروبا يستهزئون بها ويوردون عليها اعتراضات، فهل يقبل القسيسون بإنكار الأمم المشرقية لهذه الحادثة وباعتراضات أبنائهم الملاحدة؟!

ج - أن متى روي في إنجيله ٢٧/ ٥١-٥٣ عدة حوادث عظيمة وقعت بعد حادثة الصلب مباشرة، وهي: انشقاق حجاب الهيكل من فوق إلى أسفل، وتزلزل الأرض، وتشقق الصخور، وتفتح القبور، وقيام كثير من أجساد القديسين الموتى، وخروجهم من القبور، ودخولهم القدس، وظهورهم لكثيرين، وهذه الحوادث كاذبة يقينًا لكن نقول: إن هذه الحوادث العظيمة غير مذكورة في كتب الرومان ولا في كتب اليهود، بل لم يذكرها إنجيل يوحنا، وإما إنجيل مرقس وإنجيل لوقا فذكرا انشقاق حجاب الهيكل فقط ولم يذكرا باقي الأمور العظيمة، علمًا أن ذكرها أولى من ذكر صراخ المصلوب وأمور أخرى لا قيمة لها اتفقا على ذكرها، وعلمًا أن بعض الأمور يبقى أثرها بعد الوقوع كتشقق الصخور وتفتح القبور، والعجب من متى أنه لم يذكر أن هؤلاء القديسين بعد خروجهم من قبورهم أحياء أين ذهبوا؟! هل بقوا على قيد الحياة أم رجعوا إلى قبورهم؟! ولذلك استهزأ بعضهم بهذه المبالغات الشنيعة فقال: لعل متى رآها في المنام. ويفهم من عبارة إنجيل لوقا أن انشقاق حجاب الهيكل كان قبل وفاة المصلوب، بينما يفهم من عبارتي متى ومرقس أنه بعد وفاة المصلوب. فكيف يعالج القسيسون هذه المعضلات؟!

د-أنه ورد في إنجيل متى (٣/ ١٦ -١٧) وإنجيل مرقس (١/ ١٠-١١) وإنجيل لوقا (٣/ ٢١-٢٢) أن يحيى عمد عيسى عليه السلام في نهر الأردن، وفي وقت صعود عيسى من الماء، انشقت السماوات وانفتحت ونزل عليه الروح القدس بهيئة جسيمة في شكل حمامة، وقال صوت من السماوات: هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت.

فانشقاق السماوات لم كان في النهار فلابد أن يراه أكثر أهل العالم، وكذا رؤية الحمامة المجسمة وسماع الصوت لا يختص بواحد دون غيره من الحاضرين، ومع ذلك لم يكتب أحد من مؤرخي ذلك الزمان هذه الحادثة غير الإنجيليين الثلاثة، ولذلك صارت سببًا لاستهزاء ملاحدة أوروبا فقالوا: لماذا أبقانا متى محرومين من معرفة الأبواب التي انفتحت في السماوات هل هي أبوابها الكبيرة أم المتوسطة أم الصغيرة؟! وفي أي جانب منها كانت هذه الأبواب؟!

وقساوستنا يضربون رؤوسهم متحيرين في تعيين ذلك. ولماذا لم يخبرنا متى عن الحمامة هل أخذها أحد وحبسها في القفص أم رأوها راجعة إلى السماوات؟!

وإذا رجعت إلى السماوات فهل بقيت أبوابها مفتوحة كل هذه المدة؟! وهل رأوا باطن السماوات بوجه حسن؟! فماذا يقول القسيسون في هذه التساؤلات؟! إذن فالاعتراض على معجزة انشقاق القمر لمحمد ﷺ اعتراض باطل ولا قيمة له.

أما عن قولهم بأن ذلك مغاير للأفلاك،

إضافة إلى ماسبق بيانه من إثبات وقوع هذه المعجزة نقول:

الله أكبر، مَن الذي خلق الأفلاك السماوية أليس الله؟ بلى، إذن هو قادر على أن يغيرها ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾، فانشقاق القمر انشقاق حسي، انفلق فرقتين، ورآه الناس وشاهدوه، ولكن المكابر المعاند لا يقبل شيئًا، ولهذا قال: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟﴾ ﴿ءَايَةً﴾ نكرة في سياق الشرط، أي آية يرونها يعرضون عنها ولا يقبلونها.

ونحن نؤمن بأن القادر على أن يطوي السماوات بيمينه كطي السجل للكتب، قادر على أن يفرق القمر فرقتين، ولا شيء يعجزه ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ (فاطر: ٤٤)، ولهذا لا وجه لإنكار من أنكر ذلك.[١]

وأخيرًا: إليكم هذا النبأ الهام من وكالة ناسا الفضائية

أما في عصرنا الراهن فنجد في موقع وكالة ناسا الفضائية الأمريكية على شبكة (الإنترنت) صورة لصدع طولي رهيب على سطح القمر يظهر بوضوح من الصورة في أعلى المقال يمتد لمئات الكيلومترات، عبارة عن حزام من الصخور المتحولة، وكاتب المقال يتساءل:

What could cause along crack on the moon?

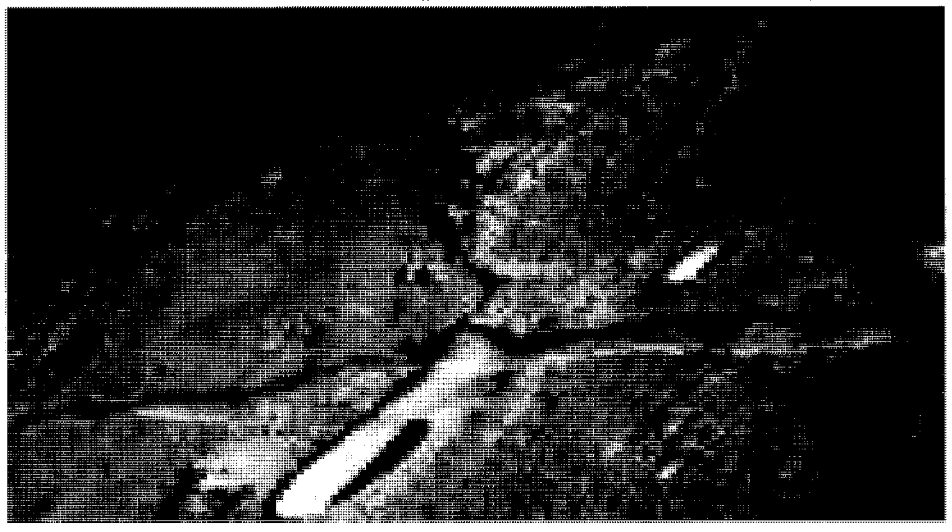
أي ما الذي يمكن أن يحدث شقًا بهذا الطول في القمر؟

والكيفية التي طرح بها السؤال تبين بجلاء حيرة العلماء في تفسير تكون هذا الشق، وهو ما ينم عن حدث عظيم تعرض له القمر ترك هذا الأثر المحيّر، ولو كان سببه زلزالًا عاديًا أو بركانًا لما استغلق على العلماء فهمه كل هذه المدة إذ إنه اكتشف منذ أكثر من ٢٠٠ عام كما يذكر موقع وكالة ناسا.

(١) تفسير القرآن للعثيمين (١٢/ ٢).

والطريف في الأمر أن هؤلاء العلماء ليسوا مسلمين ولا علم لهم بنسبة هذه المعجزة لنبينا ﷺ؛ فصدق الله العظيم القائل في كتابه الكريم: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ ﴾ (سبأ: ٦).


واليكم صورة انشقاق القمر كما نقلت إلينا:



الوجه السابع: ماذا عن المعجزات ومعجزات يسوع كما فى الكتاب المقدس؟ [1]

المعجزات ليست دليل ألوهية:

(متى٢٤/ ٢٤): لأَنَّهُ سَيَقُومُ مُسَحَاءُ كَذَبَةٌ وَأَنْبِيَاءُ كَذَبَةٌ وَيُعْطُونَ آيَاتٍ عَظِيمَةً وَعَجَائِبَ، حَتَّى يُضِلُّوا لَوْ أَمْكَنَ الْمُخْتَارِينَ أَيْضًا.

المسيح لم يقدر ان يصنع معجزات:

(مرقس٥/ ٥): وَلَمْ يَقْدِرْ أَنْ يَصْنَعَ هُنَاكَ وَلاَ قُوَّةً وَاحِدَةً، غَيْرَ أَنَّهُ وَضَعَ يَدَيْهِ عَلَى مَرْضَى قَلِيلِينَ فَشَفَاهُمْ.

يسوع ينكر معجزاته:

(١) راجع في هذه المسألة ما كتب في شبهة محمد ﷺ لا يستطيع عمل المعجزات.

(متى١٢/ ٣٩): وَقَالَ لَهُمْ: «جِيلٌ شِرِّيرٌ وَفَاسِقٌ يَطْلُبُ آيَةً، وَلاَ تُعْطَى لَهُ آيَةٌ إِلاَّ آيَةَ يُونَانَ النَّبِيِّ.

(متى١١/ ٢٧): كُلُّ شَيْءٍ قَدْ دُفِعَ إِلَيَّ مِنْ أَبِي، وَلَيْسَ أَحَدٌ يَعْرِفُ الابْنَ إِلاَّ الآبُ، وَلاَ أَحَدٌ يَعْرِفُ الآبَ إِلاَّ الابْنُ وَمَنْ أَرَادَ الابْنُ أَنْ يُعْلِنَ لَهُ.

(يوحنا٣/ ٣٥): اَلآبُ يُحِبُّ الابْنَ وَقَدْ دَفَعَ كُلَّ شَيْءٍ فِي يَدِهِ.

(يوحنا٥/ ٣٠): أَنَا لاَ أَقْدِرُ أَنْ أَفْعَلَ مِنْ نَفْسِي شَيْئًا. كَمَا أَسْمَعُ أَدِينُ، وَدَيْنُونَتِي عَادِلَةٌ، لأَنِّي لاَ أَطْلُبُ مَشِيئَتِي بَلْ مَشِيئَةَ الآبِ الَّذِي أَرْسَلَنِي.

(يوحنا٧/ ٢٨): فَنَادَى يَسُوعُ وَهُوَ يُعَلِّمُ فِي الْهَيْكَلِ قِائِلًا: «تَعْرِفُونَنِي وَتَعْرِفُونَ مِنْ أَيْنَ أَنَا، وَمِنْ نَفْسِي لَمْ آتِ، بَلِ الَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ حَق، الَّذِي أَنْتُمْ لَسْتُمْ تَعْرِفُونَهُ.

(يوحنا٨/ ٢٨): فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: مَتَى رَفَعْتُمُ ابْنَ الإِنْسَانِ، فَحِينَئِذٍ تَفْهَمُونَ أَنِّي أَنَا هُوَ، وَلَسْتُ أَفْعَلُ شَيْئًا مِنْ نَفْسِي، بَلْ أَتَكَلَّمُ بِهذَا كَمَا عَلَّمَنِي أَبِي.

(يوحنا٨/ ٤٢): فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «لَوْ كَانَ الله أَبَاكُمْ لَكُنْتُمْ تُحِبُّونَنِي، لأَنِّي خَرَجْتُ مِنْ قِبَلِ الله وَأَتَيْتُ. لأَنِّي لَمْ آتِ مِنْ نَفْسِي، بَلْ ذَاكَ أَرْسَلَنِي.

معجزات المسيح من الله:

(متى١١/ ٢٧): كُلُّ شَيْءٍ قَدْ دُفِعَ إِلَيَّ مِنْ أَبِي، وَلَيْسَ أَحَدٌ يَعْرِفُ الابْنَ إِلاَّ الآبُ، وَلاَ أَحَدٌ يَعْرِفُ الآبَ إِلاَّ الابْنُ وَمَنْ أَرَادَ الابْنُ أَنْ يُعْلِنَ لَهُ.

(متى٨/ ٩): فَلَمَّا رَأَى الْجُمُوعُ تَعَجَّبُوا وَمَجَّدُوا الله الَّذِي أَعْطَى النَّاسَ سُلْطَانًا مِثْلَ هذَا.

(يوحنا١٠/ ٢٩): بِي الَّذِي أَعْطَانِي إِيَّاهَا هُوَ أَعْظَمُ مِنَ الْكُلِّ، وَلاَ يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَخْطَفَ مِنْ يَدِ أَبِي.

* * * *

٢ـ شبهة: كيف كان هلاك عاد؟

نص الشبهة:

هل كان قوم عاد صرعى (واقعون على الأرض) أم مثل أعجاز نخل خاوية (واقفة) قال الله تعالى: ﴿تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾ (القمر: ٢٠)، وقال في موضع آخر ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ (الحاقة: ١٧).

والجواب من وجوه:

الوجه الأول: لا تعارض بين اللفظين في اللغة (منقعر)، (خاوية) وما تعود عليهما:

الوجه الثاني: لم يقل الله ﷻ (منقعرة).

الوجه الثالث: في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ إنما ذكر رعاية للفواصل.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: لا تعارض بين اللفظين في اللغة (منقعر)، (خاوية) وما تعود عليهما.

معنى المنقعر في اللغة:

قال الله تعالى ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ (القمر ٢٠)، معنى المنقعر المنقلع من أصله، وقال ابن السكيت: يقال قعرت النخلة إذا قلعتها من أصلها حتى تسقط وقد انقعرت هي. وقال لبيد يرثي أخاه:

وأربَدُ فارسُ الهيجا إذا ما تقعّرت المَشاجر بالفئامِ

أي: انقلبت فانصرعت، وذلك في شدة القتال عند الانهزام.

وعن ابن الأعرابي أنه قال: ضربته فانقعر. . . ، وعن الكسائي: وقَعَرتُ شجرة من أرومتها فانقعرت[1].

وفي الحديث: أَن رجلًا تَقَعَّر عن مال له وفي رواية انْقَعَر عن ماله أَي انْقَلَع من أَصله يقال قَعَرَه إِذا قَلَعَه يعني أَنه مات عن مال له، وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه: أَن عمر رضي الله عنه لقي شيطانًا فصارَعَه فقَعَره أَي قَلَعه، وقيل: كلُّ ما انْصَرَع فقد انْقَعَر وتَقَعَّر. [1]

(١) تهذيب اللغة للأزهري (١/ ٢٢٩)، وانظر لسان العرب لابن منظور (٥/ ١٠٨).

معنى خاوية في اللغة: خوت الدار تهدمت وسقطت. . . ، وخوى البيت إذا انهدم. . . ، وفي حديث سهل: فإذا هم بدار خاوية على عروشها، خوى إذا سقط وخلا عروشها سقوفها ومنه قوله: ﴿أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ﴾. أعجاز النخل أصولها، وقيل خاوية نعت للنخل لأن النخل يذكر ويؤنث.

وقال ﷻ في موضع آخر ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾ المنقعر: المنقلع عن منبته، وكذلك الخاوية معناها معنى المنقلع، وقيل لها إذا انقلعت خاوية لأنها خوت من منبتها الذي كانت تنبت فيه وخوى منبتها منها، ومعنى خوت أي: خلت كما تخوى الدار خويًا إذا خلت من أهلها.[٢]

قلت: من هنا يظهر أن كلمة منقعر وخاوية بنفس المعنى وهو معنى المنقلع المنخلع من أصله، وذلك تشبيهًا بالنخل المنقعر الخاوي من أصوله لبيان شدة الأخذ والعذاب، وأنهم بعد ما خلعوا وانقلعوا أصبحت ديارهم منهم خواء.

شبهة أخرى: هل النخل مذكر أم مؤنث؟

تذكير النخل وتأنيثه: وأهل الحجاز يؤنثون النخل، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ﴾، وأهل نجد يذكرون، قال الشاعر في تذكيره:

كنخل من الأعراض غير مُنَبَّقِ[٣].

﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾ أسافل نخل منقلع من أصله يقال: من النخل وهو النخل فمجازها هنا: لغة من ذكّر وفي آية أخرى: ﴿أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ﴾، في لغة من أنث.[٤]

قوله تعالى: ﴿مُّنقَعِرٖ﴾ النخل يذكر ويؤنث، ويقال: هذا نخل، وهذه نخل فمنقعر على من قال: هذا نخل، ومن قال هذه نخل فمثل قوله: ﴿أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ﴾.[٥]

(١) لسان العرب لابن منظور (٥/ ١٠٩).

(٢) لسان العرب لابن منظور (١٤/ ٢٤٥).

(٣) المصدر السابق.

(٤) مجاز القرآن لأبي عبيدة (٢/ ٢٤١)، وانظر تفسير القرآن لابن أبي زمنين (٤/ ٣١٩).

(٥) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٥/ ٨٩، ٢١٤).

الوجه الثاني: لم يقل الله ﷻ (منقعرة).

إنما ذكر الصفة لأن الموصوف – وهو النخل – مذكر اللفظ، وليس فيه علامة تأنيث؛ فاعتبروا المعنى وهو كونه جمعًا فقال: أعجاز نخل خاوية.

ويمكن أن يقال النخل لفظه لفظ الواحد كالبقل والنمل ومعناه معنى الجمع فيجوز أن يقال فيه نخل منقعر ومنقعرة ومنقعرات، ونخل: خاوية وخاويات، ونخل خاو وخاوية وخاويات ونخل باسق وباسقة وباسقات فإذا قال قائل منقعر أو خاو أو باسق جرد النظر إلى اللفظ ولم يراع جانب المعنى.

وإذا قال: منقعرة أو خاوية أوباسقة جمع بين الاعتبارين من حيث وحدة اللفظ، وربما قال منقعرة على الافراد من حيث اللفظ وألحق به تاء التأنيث التي في الجماعة إذا عرفت هذا فنقول: ذكر الله- تعالى- لفظ النخل في مواضع ثلاثة ووصفها على الوجوه الثلاثة فقال: ﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ﴾ فإنها حال منها وهي كالوصف، وقال: ﴿نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ﴾ وقال: ﴿نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾ فحيث قال: ﴿مُّنقَعِرٖ﴾ كان المختار ذلك؛ لأن المنقعر في حقيقة الأمر كالمفعول؛ لأنه الذي ورد عليه القعر فهو مقعور، والخاوي والباسق فاعل ومعناه: إخلاء ما هو مفعول من علامة التأنيث أولًا، كما نقول: امرأة كفيل وامرأة كفيلة، وامرأة كبير وامرأة كبيرة، وأما الباسقات فهي فاعلات حقيقة؛ لأن السوق قام بها، وأما الخاوية فهي من باب حسن الوجه؛ لأن الخاوي موضعها فكأنه قال: نخل خاوية المواضع، وهذا غاية الإعجاز حيث أتى بلفظ مناسب للألفاظ السابقة واللاحقة من حيث اللفظ فكان الدليل يقتضي ذلك بخلاف الشاعر الذي يختار اللفظ على المذهب الضعيف لأجل الوزن والقافية.[1]

قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾ فيه وجوه:

أحدها: نزعتهم فصرعتهم: ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ﴾، كما قال: ﴿صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ﴾.

ثانيها: نزعتهم فهم بعد النزع: كأنهم أعجاز نخل وهذا أقرب؛ لأن الانقعار قبل الوقوع، فكأن الريح تنزع الواحد وتقعر فينقعر فيقع فيكون صريعًا، فيخلو الموضع عنه فيخوى، وقوله في الحاقة: ﴿فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ﴾ إشارة إلى حالة بعد الانقعار الذي هو

---

(١) تفسير الرازي (٤٨٩)، الكشاف للزمخشري (٤/ ٤٣)، وروح المعاني (٢٧/ ١٩٤)

بعد النزع، وهذا يفيد أن الحكاية ههنا مختصرة حيث لم يشر إلى صرعهم وخلو منازلهم عنهم بالكلية، فإن حال الانقعار لا يحصل الخلو التام إذ هو مثل الشروع في الخروج والأخذ فيه.

ثالثها: تنزعهم نزعًا بعنف كأنهم أعجاز نخل تقعرهم فينقعروا إشارة إلى قوتهم وثباتهم على الأرض، وفي المعنى وجوه: أحدها: أنه ذكر ذلك إشارة إلى عظمة أجسادهم وطول أقدادهم، ثانيها: ذكره إشارة إلى ثباتهم في الأرض، فكأنهم كانوا يعملون أرجلهم في الأرض ويقصدون المنع به على الريح، وثالثها: ذكره إشارة إلى يبسهم وجفافهم بالريح، فكانت تقتلهم وتحرقهم ببردها المفرط فيقعون كأنهم أخشاب يابسة. [(١)]

قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ أي كأنهم أصول نخل خالية الأجواف لا شيء فيها، ثم يحتمل أنهم شبهوا بالنخيل التي قلعت من أصلها، وهو إخبار عن عظيم خلقهم وأجسامهم ويحتمل أن يكون المراد به الأصول دون الجذوع، أي أن الريح قد قطعتهم حتى صاروا قطعًا ضخامًا كأصول النخل. وأما وصف النخل بالخواء، فيحتمل أن يكون وصفًا للقوم؛ فإن الريح كانت تدخل أجوافهم فتصرعهم كالنخل الخاوية الجوف، ويحتمل أن تكون الخالية بمعنى البالية لأنها إذا بليت خلت أجوافها، فشبهوا بعد أن أهلكوا بالنخيل البالية. [(٢)]

الوجه الثالث: في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ إنما ذكر رعاية للفواصل. [(٣)]

قال ههنا: منقعر فذكر النخل، وقال في سورة الحاقة ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ فأنثها، قال المفسرون في تلك السورة كانت أواخر الآيات تقتضي ذلك لقوله ﷻ ﴿مُّسْتَمِرٌّ﴾، ومنهم ومنتشر، وجواب حسن؛ فإن الكلام كما يزين بحسن المعنى يزين بحسن اللفظ. [(٤)]

* * * *

(١) التفسير الكبير للرازي (٢٩/ ٤٧).

(٢) السابق (٣٠/ ١٠٥).

(٣) تفسير الرازي (٤٨٩)، وانظر البحر المحيط لأبي حيان (٨/ ١٧٨).

(٤) تفسير الرازي (٢٩/ ٤٧).

سورة الرحمن

شبهة: تكرار ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.

نص الشبهة:

في سورة الرحمن تكررت آية بعينها أكثر من مرة، وأن ذلك غير مفيد، وأنه قد يُختصر.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: التكرار في لغة العرب.

الوجه الثاني: التكرار في القرآن.

الوجه الثالث: التكرار في سورة الرحمن.

الوجه الرابع: النظر إلى التكرار في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: التكرار في لغة العرب.

يقول ابن منظور:

كرر الشئ: أعاده مرة بعد أخري، والكرة: المرة.

والتكرار أو الإطناب، وضده الحذف أو الإيجاز من مباحث المعاني في البلاغة العربية، فمن فوائد التكرار: التأكيد، التحريض، وتنبيه الأنفس، وهذا موجود في تكرار الكلام، مثل قول النبيﷺ: "ألا هل بلغت، ألا هل بلغت، . . . "، فقد قال ابن عمرؓ: قال النبي: ﷺ"هل بلغت ثلاثًا"، كما قال النبيﷺ: "ألا وقول الزور، فما زال يكررها)، وعَنْ أَنسٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ "أَنَّهُ كَانَ إِذَا تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَعَادَهَا ثَلَاثًا؛ حَتَّى تُفْهَمَ عَنْهُ، وَإِذَا أَتَى عَلَى قَوْمٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ؛ سَلَّمَ عَلَيْهِمْ ثَلَاثًا"(١).

فهذا هو النبيﷺ أبلغ العرب، وكان يخاطبهم، وهذه سنتهم، وتلك طريقتهم. وكلام العرب وأشعارهم كثيرة جدًّا في هذا الباب، ومن ذلك قول مهلهل يرثي كليبا:

---

(١) فتح الباري (١/ ٢٢٧).

على أن ليس عدلًا من كليب إذا ماضيم جيران المجير
على أن ليس عدلًا من كليب إذا رجف العضاة من الدبور
على أن ليس عدلًا من كليب إذا خرجت مخبأة الخدور
على أن ليس عدلًا من كليب إذا ما أعلنت نجوى الأمور
على أن ليس عدلًا من كليب إذا خيف المخوف من الثغور
على أن ليس عدلًا من كليب غداة تأثل الأمر الكبير
على أن ليس عدلًا من كليب إذا ما خار جاش المستجير

وقال الفراء: إن القرآن نزل بلغة العرب، ومن عادتهم تكرار الكلام للتأكيد والإفهام، فيقول المجيب: بلى بلى، والممتنع: لالا، وعليه قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾ (التكاثر: ٣، ٤) وأنشد قوله:

كائن وكم عندي لهم من صنيعة أيادي سنوها على وأوجبوا

وقوله: نعق الغراب ببين ليلى غدوة كم كم وكم بفراق ليلى ينعق

وقوله: هلا سألت جموع كن دة يوم ولوا أين أينا

وهو كثير نظمًا ونثرًا[1].

الوجه الثاني: التكرار في القرآن.

لقد جاء التكرار في القرآن الكريم محكمًا، وقد ورد فيه كثيرًا، فليس فيه موضع قد أخذ عليه، دَعْ دعاوى المغالين، فإن بينهم وبين القرآن تارات، فهم له أعداء وإذا أحسنا الفهم لكتاب الله؛ فإن التكرار فيه- مع سلامته من المآخذ والعيوب- يؤدى وظيفتين:

أولاهما: من الناحيةالدينية.

ثانيهما: من الناحية الأدبية.

فالناحية الدينية: باعتبار أن القرآن كتاب هداية وإرشاد وتشريع، لا يخلو منها فن من

---

(١) روح المعاني (٣٠/ ٢٥١).

فنونه، وأهم ما يؤديه التكرار من الناحية الدينية هو: تقرير المكرر وتوكيده، وإظهار العناية به؛ ليكون فى السلوك أمثل، وللاعتقاد أبين.

أما الناحية الأدبية: فإن دور التكرار فيها متعدد، وإن كان الهدف منه فى جميع مواضعه يؤدى إلى تأكيد المعانى، وإبرازها فى معرض الوضوح والبيان[1].

الوجه الثالث: التكرار في سورة الرحمن.

وفي الدرر والغرر لعلم الهدى سيد المرتضي: التكرار في سورة الرحمن إنما حسن؛ للتقرير بالنعم المختلفة المعددة، فكلما ذكر سبحانه نعمة أنعم بها؛ وبخ على التكذيب بها، كما يقول الرجل لغيره: ألم أحسن إليك بأن خولتك في الأموال؟ ألم أحسن إليك بأن فعلت بك كذا وكذا؟ فيحسن فيه التكرير؛ لاختلاف ما يقرر به[2].

قوله تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾، فإنها تكررت نيفًا وثلاثين مرة، كل واحدة تتعلق ربما قبلها، ولذلك زادت على ثلاثة، ولو كان عائدًا على شيء واحد لماذا زاد على ثلاثة؟ لأن التأكيد لا يزيد عليها، قاله ابن عبد السلام و غيره، و إن كان بعضها ليس بنعمة فذكر النعمة للتحذير نعمة، وقد سئل أي نعمة في قوله: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾؟ فأجاب بأجوبة أحسنها: النقلة من دار الهموم إلى دار السرور، و إراحة المؤمن من الكافر، و البار من الفاجر، فالتكرير- وهو أبلغ من التأكيد- وهو من محاسن الفصاحة، خلافًا لبعض من غلط.

وله فوائد منها: التقرير، وقد قيل: إن الكلام إذا تكرر تقرر، ومنها: التأكيد، ومنها: التنبيه، ومنها: إذا طال الكلام و حش؛ تناسى الأول، أعيد ثانيًا؛ نظرية له وتجديدًا لعهده، ومنها: التعظيم والتهويل، ومنه ما وقع فيه الفصل بين المكررين فيقع التكرير للطول، ومنه ما كان لتعدد المتعلق، بأن يكون المكرر ثانيًا متعلقًا بغير ما تعلق به الأول، وهذا القسم يسمى بالترديد[3]، ومن مثاله ما وقع بسورة الرحمن.

---

(١) حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين (٧٧) (المجلس الأعلى للشئون الإسلامية)، أيضًا مقدمة التكرار في القرآن ضمن هذه الموسوعة.

(٢) روح المعاني للآلوسي (٢٧/ ٩٧).

(٣) معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي (١/ ٣٤١) وما بعدها.

وكرر سبحانه هذه الآية فى هذه السورة فى أحد وثلاثين موضعًا؛ تقريرًا للنعمة، وتأكيدًا للتذكير بها، على عادة العرب فى الاتساع ثمانية منها: ذكرت عقب آيات فيها تعداد عجائب خلق الله، و بدائع صنعه، و مبدأ الخلق ومعادهم، ثم سبعة منها عقب آيات فيها ذكر النار و شدائدها، بعدد أبواب جهنم، وحسن ذكر الآلاء عقبها؛ لأن من جملة الآلاء: رفع البلاء، و تأخير العقاب، و بعد هذه السبعة ثمانية فى وصف الجنيتن وأهلها، بعدد أبواب الجنة، وثمانية أخرى بعدها في الجنتين اللتين هما دون الجنيتن الأولين، أخذًا من قوله: ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ ﴾ فمن اعتقد الثمانية الأولى و عمل بموجبها؛ استحق هاتين الثمانيتين من الله ووقاه السبعة السابقة، أفاده شيخ الإسلام في متشابه القرآن.

قال القتيبي: إن الله عدد في هذه السورة نعماءه، وذكر خلقه آلاءه، ثم أتبع كل خلة وضعها بهذه الآية، وجعلها فاصلة بين كل نعمتين؛ لينبههم على النعم، و يقررهم بها، كما تقول لمن تتابع له إحسانك وهو يكفره: ألم تكن فقيرًا فأغنيتك؟ أفتنكر هذا؟ ألم تكن خاملًا فعززتك؟ أفتنكر هذا؟ ألم تكن راجلًا فحملتك؟ أفتنكر هذا؟ ألم تكن عريانًا فكسوتك أفتنكرهذا؟ والتكرير حسن في مثل هذا، ومنه قول الشاعر:

لا تقتلي رجلًا إن كنت مسلمة ... إياك من دمه إياك إياك

ومثل هذا الكلام شائع في كلام العرب، و ذلك لأن الله تعالى ذكر في هذه السورة ما يدل على وحدانيته: من خلق الإنسان، وتعليمه البيان، وخلق الشمس والقمر، والسماء والأرض، إلى غير ذلك مما أنعم به على خلقه، وخاطب الجن والإنس بالأشياء المذكورة؛ لأنها كلها منعم بها عليهم.

قال الحسين بن فضيل: التكرير طرد للغفلة، وتأكيد للحجة، وذهب جماعة منهم ابن قتيبة إلى أن التكرير لإختلاف النعم، فلذلك كررالتوقيف مع كل واحدة[1].

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن (١٣/ ٣١٨) وما بعدها.

* نقل هذا أبو هلال في الصناعتين (ص ١٤٤)، و انظر أمالي المرتضى (١/ ٨٦)، وقد قال المرتضى في (ص٨٨)، فإن قيل: إذا كان الذى حسن التكرار في سورة الرحمن ما عدده من الآيات ومن نعمه، فقد عدد

يقول ابن قتيبة: وأما تكرار: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾، فإنه عدد في هذه السورة نعمائه، و أذكر عباده آلاءه، ونبههم على قدرته ولطفه بخلقه، ثم أتبع ذكر لكل خلة وصفها بهذه الآية، و جعلها فاصلة بين كل نعمتين؛ ليفهمهم النعم، ويقررهم بها[1].

فكما سبق توضيحه لا بد للتكرار من هدف وغرض جاء له، وإلا كان ضربًا لغو الحديث.

وإلى صاحب الشبهة أقول: إن القرآن نزل على العرب، وقرأه النبي ﷺ عليهم، فما استطاع أحد منهم أن يعيب حرفًا واحدًا منه، والعرب بلا شك أعلم الناس بكلامهم وصوره التي يأتي عليها، سواءً كان تكرارًا وإطنابًا وتأكيدًا، أو إيجازًا وحذفًا واختصارًا، ولو كان في القرآن مأخذ؛ لكان بلغائهم هم أول الناس طعنًا فيه وأخذًا عليه، فقد روي أن قيس بن عاصم المنقري قال للنبي ﷺ: اتل علي مما أنزل عليك، فقرأ عليه سورة (الرحمن) فقال: أعدها، فأعادها ثلاثًا، فقال: والله إن له لطلاوة، وإن عليه لحلاوة، وأسفله لمغدق، وأعلاه مثمر، وما يقول هذا بشر، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله[2].

ففي الحديث دلالة على إعجاب هذا العربي بالآيات، وهو الخبير بالكلام وصنوفه شعره ونثره، وما عاب تكرارًا أو غيره في السورة، بل طلب إعادتها عليه، كذلك أن ابن مسعود رضي الله عنه جهر بقرائتها في المسجد؛ حتى قامت إليه أندية قريش فضربوه[3]، ولم يتخذ أحدهم ذلك فرصة للطعن والعيب في القرآن.

في جملة ذلك ما ليس بنعمة، وهو قوله: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ (الرحمن ٣٥)، وقوله: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ (الرحمن ٤٣-٤٤)، فكيف يحسن أن يقول هذا: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، وليس هذا من الآلاء والنعم؟ قلنا: الوجه في ذلك أن فعل العقاب- و إن لم يكن نعمة- فذكره ووصفه والإنذار به، من أكبر النعم؛ لأن في ذلك زجرًا عما يستحق به العقاب، وبعثًا على ما يستحق به الثواب، فإنما أشار تعالى بقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ بعد ذكر جهنم والعذاب فيها إلى نعمة بوصفها، والإنذار بعقابها، وهذا مما لا شبهة في كونه نعمة.

(١) تأويل مشكل القرآن (٢٥٣).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ١٤٧).

(٣) انظر تفسير القرطبي لسورة الرحمن، وكذلك فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل (عبدالله بن مسعود ١٥٣٥).

الوجه الرابع: النظر إلى التكرار في الكتاب المقدس.

إن تكرار القرآن جاء محكمًا مؤديًا غرضه في أبلغ صورة على الإطلاق، لكن عندما ننظر إلى التكرار في الكتاب المقدس نجد شيئًا مغايرًا تمامًا.

لنبدأ بسفر الجامعة تتكرر فيه كلمة " تحت الشمس " ثلاثون مرة فى السفر و بطريقة لا تمت الى البلاغة بصلة و إليك أمثلة:

"مَا الْفَائِدَةُ لِلإِنْسَانِ مِنْ كُلِّ تَعَبِهِ الَّذِي يَتْعَبُهُ تَحْتَ الشَّمْسِ ١٤ رَأَيْتُ كُلَّ الأَعْمَالِ الَّتِي عُمِلَتْ تَحْتَ الشَّمْسِ وَلاَ مَنْفَعَةَ تَحْتَ الشَّمْسِ و لا جديد تحت الشمس"، و هكذا أكثر من ثلاثين مرة وهنا لنا كلمة عن سفر الجامعة هذا: فهو من الكتب الغريبة فى العهد القديم، ويختلف فى موضوعه وفى روحه الدينية عن بقية الأسفار، و يقدم رؤية فكرية مختلفة، بل مضادة للدين و يعكس موقفًا سلبيًا من الحياة الإنسانية، و يفسر هذه الحياة فى ضوء نظرية عبثية ترى كل الأشياء باطلة، ولا معنى للأشياء سوى التكرار الممل للأحداث، فلا جديد تحت الشمس التي تتكرر بطريقة سمجة ثلاثون مرة.

و هذه كلمة: (سلاه) تكررت أكثر من ٧٠ مرة فى المزامير، والكارثة هنا: أن هذه الكلمة ليس لها معنى على الإطلاق، أو كما يقول القاموس معناها مشكوك فيه، و (البابا شنودة) يقر بذلك ويقول فى كتابه: سنوات مع أسئلة الناس صفحة ٢٦ أن عبارة سلاه وردت ٧١ مرة فى المزامير، ويرجح أنها وقفة لتغيير اللحن إلى طبقة موسيقية مختلفة (يعنى حاجة لزوم الاوركسترا السيمفونى! ! !)، وهذا معناها فى قاموس الكتاب المقدس.

Selah a word frequently found in the Book of Psalms ،and also in Hab. ٣: ٩ ،١٣ ،about seventy-four times in all in Scripture. Its meaning is doubtful. Some interpret it as meaning "silence" or "pause;" others ،"end ،" "a louder strain ،" "piano ،" etc.

و بصرف النظر عن معرفة المعنى الصحيح، ما يهمنا هنا هو: التكرار الذي لا يعجبهم في القرآن الكريم، فما رأيهم فى هذه الكلمة المجهولة المعنى التي تكررت ٧١ مرة؟!

ولم ننتهي بعد لنأخذ (إنجيل لوقا): نجده يحتوى على ١١ فقرة مكررة فيه نفسه في موضعين مختلفين، بل و لعشرة منها نظيرها في (إنجيل مرقص)، وإليك البيان:

أولًا: لوقا (٨: ١٦): وَلَيْسَ أَحَدٌ يُوقِدُ سِرَاجًا وَيُغَطِّيهِ بِإِنَاءٍ أَوْ يَضَعُهُ تَحْتَ سَرِيرٍ، بَلْ يَضَعُهُ عَلَى مَنَارَةٍ، لِيَنْظُرَ الدَّاخِلُونَ النُّورَ.

مثل لوقا (١١: ٣٣): لَيْسَ أَحَدٌ يُوقِدُ سِرَاجًا وَيَضَعُهُ فِي خِفْيَةٍ، وَلاَ تَحْتَ الْمِكْيَالِ، بَلْ عَلَى الْمَنَارَةِ، لِكَيْ يَنْظُرَ الدَّاخِلُونَ النُّورَ.

مثل مرقص (٤: ٢١): ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: «هَلْ يُؤْتَى بِسِرَاجٍ لِيُوضَعَ تَحْتَ الْمِكْيَالِ أَوْ تَحْتَ السَّرِيرِ؟ أَلَيْسَ لِيُوضَعَ عَلَى الْمَنَارَةِ؟.

ثانيًا: لوقا (٨: ١٧): لأَنَّهُ لَيْسَ خَفِيٌّ لاَ يُظْهَرُ، وَلاَ مَكْتُومٌ لاَ يُعْلَمُ وَيُعْلَنُ.

مثل لوقا (١٢: ٢): لأَنْ لَيْسَ مَكْتُومٌ لَنْ يُسْتَعْلَنَ، وَلاَ خَفِيٌّ لَنْ يُعْرَفَ.

مثل مرقص (٤: ٢٢): لأَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ خَفِيٌّ لاَ يُظْهَرُ، وَلاَ صَارَ مَكْتُومًا إِلاَّ لِيُعْلَنَ.

ثالثًا: لوقا (٨: ١٨): فَانْظُرُوا كَيْفَ تَسْمَعُونَ، لأَنَّ مَنْ لَهُ سَيُعْطَى، وَمَنْ لَيْسَ لَهُ فَالَّذِي يَظُنُّهُ لَهُ يُؤْخَذُ مِنْهُ.

مثل لوقا (١٩: ٢٦): لأَنِّي أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كُلَّ مَنْ لَهُ يُعْطَى، وَمَنْ لَيْسَ لَهُ فَالَّذِي عِنْدَهُ يُؤْخَذُ مِنْهُ.

مثل مرقص (٤: ٢٥): وَقَالَ لَهُمْ: «لاَ تَحْمِلُوا شَيْئًا لِلطَّرِيقِ: لاَ عَصًا وَلاَ مِزْوَدًا وَلاَ خُبْزًا وَلاَ فِضَّةً، وَلاَ يَكُونُ لِلْوَاحِدِ ثَوْبَانِ. ٤وَأَيُّ بَيْتٍ دَخَلْتُمُوهُ فَهُنَاكَ أَقِيمُوا، وَمِنْ هُنَاكَ اخْرُجُوا. ٥وَكُلُّ مَنْ لاَ يَقْبَلُكُمْ فَاخْرُجُوا مِنْ تِلْكَ الْمَدِينَةِ، وَانْفُضُوا الْغُبَارَ أَيْضًا عَنْ أَرْجُلِكُمْ شَهَادَةً عَلَيْهِمْ».

مثل لوقا (١٠: ٣ — ١٢): لاَ تَحْمِلُوا كِيسًا وَلاَ مِزْوَدًا وَلاَ أَحْذِيَةً، وَلاَ تُسَلِّمُوا عَلَى أَحَدٍ فِي الطَّرِيقِ. ٥وَأَيُّ بَيْتٍ دَخَلْتُمُوهُ فَقُولُوا أَوَّلًا: سَلاَمٌ لِهذَا الْبَيْتِ. . . وَأَيَّةُ مَدِينَةٍ دَخَلْتُمُوهَا وَلَمْ يَقْبَلُوكُمْ، فَاخْرُجُوا إِلَى شَوَارِعِهَا وَقُولُوا: ١١حَتَّى الْغُبَارَ الَّذِي لَصِقَ بِنَا مِنْ مَدِينَتِكُمْ نَنْفُضُهُ لَكُمْ. وَلكِنِ اعْلَمُوا هذَا إِنَّهُ قَدِ اقْتَرَبَ مِنْكُمْ مَلَكُوتُ اللهِ.

مثل مرقص (٦/ ١١: ٨) وَأَوْصَاهُمْ أَنْ لاَ يَحْمِلُوا شَيْئًا لِلطَّرِيقِ غَيْرَ عَصًا فَقَطْ، لاَ مِزْوَدًا وَلاَ خُبْزًا وَلاَ نُحَاسًا فِي الْمِنْطَقَةِ ...وَقَالَ لَهُمْ: «حَيْثُمَا دَخَلْتُمْ بَيْتًا فَأَقِيمُوا فِيهِ حَتَّى تَخْرُجُوا مِنْ هُنَاكَ. ١١وَكُلُّ مَنْ لاَ يَقْبَلُكُمْ وَلاَ يَسْمَعُ لَكُمْ، فَاخْرُجُوا مِنْ هُنَاكَ وَانْفُضُوا التُّرَابَ الَّذِي تَحْتَ أَرْجُلِكُمْ شَهَادَةً عَلَيْهِمْ. اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: سَتَكُونُ لأَرْضِ سَدُومَ وَعَمُورَةَ.

خامسًا: لوقا (٩: ٢٣)وَقَالَ لِلْجَمِيعِ: إِنْ أَرَادَ أَحَدٌ أَنْ يَأْتِيَ وَرَائِي فَلْيُنْكِرْ نَفْسَهُ وَيَحْمِلْ صَلِيبَهُ وَيَتْبَعْنِي.

مثل لوقا (١٤ : ٢٧): وَمَنْ لاَ يَحْمِلُ صَلِيبَهُ وَيَأْتِي وَرَائِي فَلاَ يَقْدِرُ أَنْ يَكُونَ لِي تِلْمِيذًا.

مثل مرقص (٨: ٣٤): وَدَعَا الْجَمْعَ مَعَ تَلاَمِيذِهِ وَقَالَ لَهُمْ: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ وَرَائِي فَلْيُنْكِرْ نَفْسَهُ وَيَحْمِلْ صَلِيبَهُ وَيَتْبَعْنِي.

سادسًا: لوقا (٩: ٢٤): فإن من أراد أن يخلّص نفسه يهلكها. ومن يهلك نفسه من أجلي فهذا يخلّصها.

مثل لوقا (١٧ : ٣٣): مَنْ طَلَبَ أَنْ يُخَلِّصَ نَفْسَهُ يُهْلِكُهَا، وَمَنْ أَهْلَكَهَا يُحْيِيهَا.

مثل مرقص (٣٥ :٨): فَإِنَّ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُخَلِّصَ نَفْسَهُ يُهْلِكُهَا، وَمَنْ يُهْلِكُ نَفْسَهُ مِنْ أَجْلِي وَمِنْ أَجْلِ الإِنْجِيلِ فَهُوَ يُخَلِّصُهَا.

والآن قاصمة الظهر يتحدثون عن التكرار انظر الملوك الثاني الإصحاح ١٩ من بدايته اَلإِصْحَاحُ التَّاسِعُ عَشَرَ

١ فَلَمَّا سَمِعَ الْمَلِكُ حَزَقِيَّا ذلِكَ مَزَّقَ ثِيَابَهُ وَتَغَطَّى بِمِسْحٍ وَدَخَلَ بَيْتَ الرَّبِّ. ٢وَأَرْسَلَ أَلِيَاقِيمَ الَّذِي عَلَى الْبَيْتِ وَشِبْنَةَ الْكَاتِبَ وَشُيُوخَ الْكَهَنَةِ مُتَغَطِّينَ بِمِسْحٍ إِلَى إِشَعْيَاءَ النَّبِيِّ ابْنِ آمُوصَ. ٣فَقَالُوا لَهُ: [هكَذَا يَقُولُ حَزَقِيَّا: هذَا الْيَوْمُ يَوْمُ شِدَّةٍ وَتَأْدِيبٍ وَإِهَانَةٍ، لأَنَّ الأَجِنَّةَ قَدْ دَنَتْ إِلَى الْمَوْلِدِ وَلاَ قُوَّةَ لِلْوِلاَدَةِ! ٤لَعَلَّ الرَّبَّ إِلهَكَ يَسْمَعُ جَمِيعَ كَلاَمِ رَبْشَاقَى الَّذِي أَرْسَلَهُ مَلِكُ أَشُّورَ سَيِّدُهُ لِيُعَيِّرَ الإِلهَ الْحَيَّ، فَيُوَبِّخَ عَلَى الْكَلاَمِ الَّذِي سَمِعَهُ الرَّبُّ إِلهُكَ. فَارْفَعْ صَلاَةً مِنْ أَجْلِ الْبَقِيَّةِ الْمَوْجُودَةِ٥ .[فَجَاءَ عَبِيدُ الْمَلِكِ حَزَقِيَّا إِلَى إِشَعْيَاءَ، ٦فَقَالَ لَهُمْ إِشَعْيَاءُ: [هكَذَا تَقُولُونَ لِسَيِّدِكُمْ: هكَذَا قَالَ الرَّبُّ: لاَ تَخَفْ بِسَبَبِ. . .

وقارن مع إشعيا الإصحاح ٣٧ من أوله: اَلإِصْحَاحُ السَّابعُ وَالثَّلاَثُونَ:

١ فَلَمَّا سَمِعَ الْمَلِكُ حَزَقِيَّا ذلِكَ مَزَّقَ ثِيَابَهُ وَتَغَطَّى بِمِسْحٍ وَدَخَلَ بَيْتَ الرَّبِّ. ٢وَأَرْسَلَ أَلِيَاقِيمَ الَّذِي عَلَى الْبَيْتِ وَشِبْنَةَ الْكَاتِبَ وَشُيُوخَ الْكَهَنَةِ مُتَغَطِّينَ بِمُسُوحٍ إِلَى إِشَعْيَاءَ بْنِ آمُوصَ النَّبِيِّ. ٣فَقَالُوا لَهُ: «هكَذَا يَقُولُ حَزَقِيَّا: هذَا الْيَوْمُ يَوْمُ شِدَّةٍ وَتَأْدِيبٍ وَإِهَانَةٍ لأَنَّ الأَجِنَّةَ دَنَتْ إِلَى الْمَوْلِدِ وَلاَ قُوَّةَ عَلَى الْوِلاَدَةِ. ٤لَعَلَّ الرَّبَّ إِلهَكَ يَسْمَعُ كَلاَمَ رَبْشَاقَى الَّذِي

أَرْسَلَهُ مَلِكُ أَشُّورَ سَيِّدُهُ لِيُعَيِّرَ الإِلهَ الْحَيَّ فَيُوَبِّخَ عَلَى الْكَلاَمِ الَّذِي سَمِعَهُ الرَّبُّ إِلهُكَ. فَارْفَعْ صَلاَةً لأَجْلِ الْبَقِيَّةِ الْمَوْجُودَةِ٥ .«فَجَاءَ عَبِيدُ الْمَلِكِ حَزَقِيَّا إِلَى إِشَعْيَاءَ. ٦فَقَالَ لَهُمْ إِشَعْيَاءُ: «هكَذَا تَقُولُونَ لِسَيِّدِكُمْ: هكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ: لاَ تَخَفْ.

بماذا يفسر النصارى تطابق السفرين هذا التطابق كلمة بكلمة و حرف بحرف هل نسى كاتب سفر إشعيا أن كاتبًا آخر كان قد سبقه إلى تدوين نفس الكلام فى سفر الملوك وإليك أيضًا الكلام المتكرر فقد تكررت الكلمات "لأن إلى الأبد رحمته" في مزمور ١٣٦ الذي يحوي ٢٦ عدد ٢٦ مرة (١٣٦/ ٢٦: ١):

احْمَدُوا الرَّبَّ لأَنَّهُ صَالِحٌ لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. احْمَدُوا إِلهَ الآلِهَةِ لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ.
احْمَدُوا رَبَّ الأَرْبَابِ لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. الصَّانِعَ الْعَجَائِبَ الْعِظَامَ وَحْدَهُ لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ.
الصَّانِعَ السَّمَاوَاتِ بِفَهْمٍ لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. الْبَاسِطَ الأَرْضَ عَلَى الْمِيَاهِ لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ.
الصَّانِعَ أَنْوَارًا عَظِيمَةً لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. الشَّمْسَ لِحُكْمِ النَّهَارِ لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ.
الْقَمَرَ وَالْكَوَاكِبَ لِحُكْمِ اللَّيْلِ لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. الَّذِي ضَرَبَ مِصْرَ مَعَ أَبْكَارِهَا لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ.
وَأَخْرَجَ إِسْرَائِيلَ مِنْ وَسَطِهِمْ لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. بِيَدٍ شَدِيدَةٍ وَذِرَاعٍ مَمْدُودَةٍ لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ.
الَّذِي شَقَّ بَحْرَ سُوفٍ إِلَى شُقَقٍ لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. وَعَبَّرَ إِسْرَائِيلَ فِي وَسَطِهِ لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ.
وَدَفَعَ فِرْعَوْنَ وَقُوَّتَهُ فِي بَحْرِ سُوفٍ لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. الَّذِي سَارَ بِشَعْبِهِ فِي الْبَرِّيَّةِ لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ.
الَّذِي ضَرَبَ مُلُوكًا عُظَمَاءَ لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. وَقَتَلَ مُلُوكًا أَعِزَّاءَ لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ.
سِيحُونَ مَلِكَ الأَمُورِيِّينَ لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. وَعُوجَ مَلِكَ بَاشَانَ لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ.
وَأَعْطَى أَرْضَهُمْ مِيرَاثًا لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. مِيرَاثًا لإِسْرَائِيلَ عَبْدِهِ لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ.
الَّذِي فِي مَذَلَّتِنَا ذَكَرَنَا لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. وَنَجَّانَا مِنْ أَعْدَائِنَا لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ.
الَّذِي يُعْطِي خُبْزًا لِكُلِّ بَشَرٍ لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. احْمَدُوا إِلهَ السَّمَاوَاتِ لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ.

* * *

سورة الواقعة

شبهة: ثلة من الأولين و ثلة من الآخرين.

نص الشبهة:

هناك اختلاف بين قوله تعالى: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ (١٤) ﴾ وبين قوله: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ (٤٠) ﴾.

والرد من وجوه:

الوجه الأول: تفسير الآيات.

الوجه الثاني: إبطال هذه الشبهة، وإثبات أنهم أخطأوا في فهمها.

الوجه الثالث: إثبات الفضل والأفضلية للأولين على الآخرين.

الوجه الرابع: التناقض في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: تفسير الآيات.

أولًا: قوله تعالى في الحديث عن السابقين: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ (١٤) ﴾:

١ - ثلة: أي جماعة.

٢ - وقوله تعالى: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣) ﴾ وهم جماعة كثيرة من الذين سبقوا لرسوخ إيمانهم وظهور أثره في أعمالهم من العمل الصالح والدعوة إلى الله والصبر على الجهاد في سبيله، إلى غير ذلك من المناقب التي كانت ملكات لهم، سواء كان ثلة من الأولين السابقين المقصود بهم أنهم من الأمم السابقة أو من القرون الأولى لأمة محمد ﷺ.

٣-وقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ (١٤)﴾: أ- فإذا كان ثلة من الأولين السابقين المقصود بهم أنهم من الأمم السابقة كان قوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ (١٤)﴾أي: من أمة محمد ﷺ؛ وهذا رواية عن مجاهد والحسن البصري رواها عنهما ابن أبي حاتم، وهو اختيار ابن جرير[1].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٣٦٣).

قال الشوكاني: والمراد بالأولين هم الأمم السابقة من لدن آدم إلى نبينا ﷺ ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ (١٤)﴾ أي: من هذه الأمة وسموا قليلًا بالنسبة إلى من كان قبلهم وهم كثيرون لكثرة الأنبياء فيهم وكثرة من أجابهم. قال الحسن: سابقو من مضى أكثر من سابقينا، قال الزجاج: الذين عاينوا جميع الأنبياء وصدقوا بهم أكثر ممن عاين النبي ﷺ، ولا يخالف هذا ما ثبت في الصحيح من قوله ﷺ "إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة ثم قال: ثلث أهل الجنة ثم قال: "نصف أهل الجنة" لأن قوله: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ (١٤)﴾ إنما هو تفضيل للسابقين فقط كما سيأتي في ذكر أصحاب اليمين أنهم ثلة من الأولين وثلة من الآخرين، فلا يمتنع أن يكون في أصحاب اليمين من هذه الأمة من هو أكثر من أصحاب اليمين من غيرهم، فيجتمع من قليل سابقي هذه الأمة ومن ثلة أصحاب اليمين منها من يكون نصف أهل الجنة، والمقابلة بين الثلتين في أصحاب اليمين لا تستلزم استواءهما لجواز أن يقال: هذه الثلة أكثر من هذه الثلة كما يقال: هذه الجماعة أكثر من هذه الجماعة، وهذه الفرقة أكثر من هذه الفرقة، وهذه القطعة أكثر من هذه القطعة[1].

وإطلاق قوله: ﴿ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ على أمة محمد ﷺ لأنهم آخر الأمم[2].

قال الآلوسي: وحاصل ذلك غلبة مجموع هذه الأمة كثرة على من سواها كقرية فيها عشرة من العلماء ومائة من العوام وأخرى فيها خمسة من العلماء وألف من العوام فخواص الأولى أكثر من خواص الثانية؛ وعوام الثانية ومجموع أهلها أضعاف أولئك، لا يقال يأبى أكثرية تابعي هؤلاء قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ (٤٠)﴾ (الواقعة: ٣٩-٤٠) فإنه في حق أصحاب اليمين وهم التابعون، وقد عبر عن كل بالثلة أي: الجماعة الكثيرة؛ لأنا نقول لأدلة في الآية على أكثر من وصف كل من الفريقين بالكثرة؛ وذلك لا ينافي أكثرية أحدهما فتحصل أن سابقي الأمم السوالف أكثر من سابقي أمتنا، وتابعي أمتنا أكثر من تابعي الأمم، والمراد بالأمم ما يدخل فيه الأنبياء، وحينئذ لا

(١) فتح القدير (٥/ ٢١١).

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن (١١/ ٦٢٦).

يبعد أن يقال: إن كثرة سابقي الأولين ليس إلا بأنبيائهم فما على سابقي هذه الأمة بأس إذ أكثرهم سابقو الأمم بضم الأنبياء عليهم السلام[١].

ب- وإذا كان ثلة من الأولين السابقين المقصود بهم أنهم من القرون الأولى لأمة محمد ﷺ كان قوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ أي: من القرون المتأخرة من أمة محمد ﷺ أيضًا، فالذين جاءوا في الأزمنة التي حدثت فيها الغير، و تبرجت الدنيا لخطابها، ونسي معها سر البعثة، وحكمة الدعوة فما أقل الماشين على قدم النبي ﷺ وأصحابه؛ لاجرم أنهم وقتئذ الغرباء لقلتهم[٢].

ورجح ابن كثير هذا القول ودلل على ذلك بقوله: لأن هذه الأمة هي خير الأمم بنص القرآن؛ فيبعد أن يكون المقربون في غيرها أكثر منها اللهم إلا أن يقابل مجموع الأمم بهذه الأمة، والظاهر أن المقربين من هؤلاء أكثر من سائر الأمم والله أعلم[٣].

والدين كما هو محتاج إلى أول الأمة في إبلاغه إلى من بعدهم، كذلك هو محتاج إلى القائمين به في أواخرها، وتثبيت الناس على السنة وروايتها وإظهارها والفضل للمتقدم، وكذلك الزرع إليه آكد، فإنه لولاه ما نبت في الأرض ولا تعلق أساسه فيها، ولهذا قال ﷺ: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم إلى قيام الساعة[٤]"[٥].

ثانيًا: قوله تعالى في الحديث عن أصحاب اليمين: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾ (الواقعة٣٩-٤٠) أي: جماعة وأمة من المتقدمين في الإيمان سواء من الأمم السابقة أو من القرن الأول من أمة محمد ﷺ وممن جاء بعدهم من التابعين بإحسان، والكثرة ظاهرة لوفرة أصحاب اليمين في أواخرهم دون السابقين كما بينا أولًا[٦].

(١) روح المعاني (٢٠/ ٢٠٧).

(٢) تفسير القاسمي (١٦/ ٧، ٨)، وقيل في ذلك أقوال كثيرة هذا أرجحها إن شاء الله، و انظر ابن كثير (٤/ ٣٧١)، والقرطبي (١٧/ ١٩٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٣٦٣).

(٤) أخرجه مسلم (١٩٢٠، ١٩٢٥).

(٥) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٧٣).

(٦) تفسير القاسمي (١٦/ ١٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: خَرَجَ عَلَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا فَقَالَ: "عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ فَجَعَلَ يَمُرُّ النَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلُ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، وَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الْأُفُقَ فَرَجَوْتُ أَنْ تَكُونَ أُمَّتِي؛ فَقِيلَ: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ، ثُمَّ قِيلَ لِي: انْظُرْ فَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الْأُفُقَ، فَقِيلَ لِي: انْظُرْ هَكَذَا وَهَكَذَا، فَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الْأُفُقَ فَقِيلَ: هَؤُلَاءِ أُمَّتُكَ، وَمَعَ هَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ"، فَتَفَرَّقَ النَّاسُ وَلَمْ يُبَيَّنْ لَهُمْ، فَتَذَاكَرَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: أَمَّا نَحْنُ فَوُلِدْنَا فِي الشِّرْكِ وَلَكِنَّا آمَنَّا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَلَكِنْ هَؤُلَاءِ هُمْ أَبْنَاؤُنَا فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: "هُمُ الَّذِينَ لَا يَتَطَيَّرُونَ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ، فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ فَقَالَ: أَمِنْهُمْ أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَقَامَ آخَرُ فَقَالَ: أَمِنْهُمْ أَنَا؟ فَقَالَ سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ[1].

الوجه الثاني: الرد على القول المزعوم.

فأما من قال: كيف قيل في موضع: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ (١٤)﴾ وقيل في موضع آخر: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ (٤٠)﴾؟

والرد من وجوه:

الأول: أن الموضع الأول كان في الحديث عن السابقين، فالسابقون من أمة النبي ﷺ من الصحابة (أي أول الأمة) خير وأكثر من الذين جاءوا من بعدهم؛ لرسوخ إيمانهم، وظهور أثره في أعمالهم من العمل الصالح، و الدعوة إلى الله، و الصبر على الجهاد في سبيله، إلى غير ذلك من المناقب التي كانت ملكات لهم.

وأما الموضع الذي قال فيه: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ (٤٠)﴾ فهذا في الكلام عن أصحاب اليمين، والكثرة فيهم ظاهرة لوفرة أصحاب اليمين في أواخرهم دون السابقين؛ فلذلك فرق بين الثلتين في السابقين، وسوى بينهما في أصحاب اليمين.

الثاني: قد وصف الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠)﴾ والذين لهم أعلى المنازل في الجنة أنهم ثلة من الأولين أي: كثيرون؛ لأن الأولين قد عاصروا

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٥٢)، مسلم (٢٢٠).

النبي ﷺ و كانت درجات إيمانهم من أقوى الدرجات، و قوله تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ لأن الأجيال المتأخرة لا يمكن مقارنة إيمانهم بمن عاصروا الرسول ﷺ، ثم و إن اجتهد بعض المتأخرين اجتهاد الأولين، فإنهم عدد قليل، وأما في أصحاب اليمين فكثير من يجتهد ليصل لهذه الدرجة لذلك قال: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

الوجه الثالث: إثبات الأفضلية للأولين على الآخرين.

فعن عَبِيدَةَ عَنْ عَبْدِ الله بن مسعود ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **"خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ أَقْوَامٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ"**.

قَالَ إِبْرَاهِيمُ (الراوي عن عبيدة): وَكَانُوا يَضْرِبُونَنَا عَلَى الشَّهَادَةِ وَالْعَهْدِ[١].

قال ابن حجر: وَقَالَ أَبُو عُمَر بْن عَبْد الْبَرّ: مَعْنَاهُ عِنْدَهُمْ النَّهْيُ عَنْ مُبَادَرَةِ الرَّجُلِ بِقَوْلِهِ: أَشْهَدُ بِالله وَعَلَى عَهْدِ الله لَقَدْ كَانَ كَذَا وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا كَانُوا يَضْرِبونَهُمْ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى لَا يَصِيرَ لَهُمْ بِهِ عَادَةٌ فَيَحْلِفُوا فِي كُلِّ مَا يَصْلُحُ وَمَا لَا يَصْلُحُ[٢].

قَوْله: "تَسْبِق شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ" قَالَ الطَّحَاوِيُّ: أَيْ يُكْثِرُونَ الْأَيْمَانَ فِي كُلِّ شَيْء حَتَّى يَصِير لَهُمْ عَادَة، فَيَحْلِف أَحَدهمْ حَيْثُ لَا يُرَاد مِنْهُ الْيَمِين وَمِنْ قَبْلِ أَنْ يُسْتَحْلَف.

وَقَالَ غَيْره: الْمُرَاد يَحْلِف عَلَى تَصْدِيق شَهَادَته قَبْل أَدَائِهَا أَوْ بَعْده، وَهَذَا إِذَا صَدَرَ مِنْ الشَّاهِد قَبْلَ الْحُكْم سَقَطَتْ شَهَادَتُهُ، وَقِيلَ: الْمُرَاد التَّسَرُّعُ إِلَى الشَّهَادَةِ، وَالْيَمِين، وَالْحِرْص عَلَى ذَلِكَ حَتَّى لَا يَدْرِي بِأَيِّهِمَا يَبْدَأ لِقِلَّةِ مُبَالَاتِهِ[٣].

وهذا فيه دليل على أفضلية الأولين على الآخرين، وأن الورع يقل كلما مرت هذه القرون الأول، فلذلك ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ في هؤلاء الأخيار ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ فيمن يكونون من السابقين.

واتَّفَقَ الْعُلَمَاء عَلَى أَنَّ خَيْرَ الْقُرُون قَرْنه صَلَّى ﷺ، وَالْمُرَاد أَصْحَابه، وقوله: "خَيْر النَّاس"

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥٢)، مسلم (٢٥٣٣).

(٢) فتح الباري (٥/ ٣٠٩).

(٣) فتح الباري (١١/ ٥٥٢).

عَلَى عُمُومهَا، وَالْمُرَاد مِنْهُ جُمْلَة الْقَرْن، وَلَا يَلْزَم مِنْهُ تَفْضِيل الصَّحَابِيّ عَلَى الْأَنْبِيَاء صَلَوَات الله وَسَلَامه عَلَيْهِمْ، وَلَا أَفْرَاد النِّسَاء عَلَى مَرْيَم وَآسِيَة وَغَيْرهمَا، بَلْ الْمُرَاد جُمْلَة الْقَرْن بِالنِّسْبَةِ إِلَى كُلّ قَرْن بِجُمْلَتِهِ، والصحيح أن قرنه ﷺ الصحابة، والثاني: التابعون، والثالث: تابعوهم[1].

وعن عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ "خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ" قَالَ عِمْرَانُ: لَا أَدْرِي أَذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدُ قَرْنَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ، وَيَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَنْذِرُونَ وَلَا يَفُونَ، وَيَظْهَرُ فِيهِمْ السِّمَنُ"[2].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ "خَيْرُ أُمَّتِي الْقَرْنُ الَّذِينَ بُعِثْتُ فِيهِمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ - وَاللهُ أَعْلَمُ أَذَكَرَ الثَّالِثَ أَمْ لَا- قَالَ: "ثُمَّ يَخْلُفُ قَوْمٌ يُحِبُّونَ السَّمَانَةَ، يَشْهَدُونَ قَبْلَ أَنْ يُسْتَشْهَدُوا[3].

قَوْلُهُ: " وَلَا يُؤْتَمَنُونَ "أَيْ: لَا يَثِقُ اَلنَّاسُ بِهِمْ وَلَا يَعْتَقِدُونَهُمْ أُمَنَاءَ بِأَنْ تَكُونَ خِيَانَتُهُمْ ظَاهِرَةً بِحَيْثُ لَا يَبْقَى لِلنَّاسِ اِعْتِمَادٌ عَلَيْهِمْ، قَوْلهُ: "وَيَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ" يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ اَلْمُرَاد اَلتَّحَمُّلَ بِدُونِ اَلتَّحْمِيلِ، أَوْ اَلْأَدَاءَ بِدُونِ طَلَبٍ، وَيُعَارِضُهُ مَا رَوَاهُ مُسْلِم مِنْ حَدِيثِ زَيْد بْن خَالِد مَرْفُوعًا: "أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ اَلشُّهَدَاءِ؟ اَلَّذِي يَأْتِي بِالشَّهَادَةِ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَهَا[4]"

وحاصل الحديثين أَنَّ حديث اِبْن مَسْعُود (اَلشَّهَادَة فِي حُقُوقِ اَلْآدَمِيِّينَ)، وَالْمُرَادُ بِحَدِيثِ زَيْدِ بْن خَالِد اَلشَّهَادَةُ فِي حُقُوقِ الله[5].

وَقَوْلُهُ: "وَيَظْهَرُ فِيهِمْ اَلسِّمَنُ" أَيْ: يُحِبُّونَ اَلتَّوَسُّعَ فِي اَلْمَآكِل وَالْمَشَارِب وَهِيَ أَسْبَابُ اَلسِّمَنِ بِالتَّشْدِيدِ. قَالَ اِبْن اَلتِّينِ: اَلْمُرَادُ ذَمّ مَحَبَّتِهِ وَتَعَاطِيه لَا مِنْ تَخَلَّقَ بِذَلِكَ وَقِيلَ: اَلْمُرَادُ يَظْهَرُ فِيهِمْ كَثْرَة اَلْمَالِ. وَقِيلَ: اَلْمُرَاد أَنَّهُمْ يَتَسَمَّنُونَ أَيْ: يَتَكَثَّرُونَ بِمَا لَيْسَ فِيهِمْ، وَيَدَّعُونَ مَا لَيْسَ لَهُمْ مِنْ اَلشَّرَفِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ جَمِيعُ ذَلِكَ مرادًا، وَإِنَّمَا كَانَ مَذْمُومًا؛ لِأَنَّ اَلسَّمِينَ

---

(١) شرح النووي (٨/ ٣٢٧، ٣٢٨).

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٥١)

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٣٤)

(٤) أخرجه مسلم (١٧١٩).

(٥) فتح الباري (٥/ ٣٠٧).

غَالِبًا بَلِيد اَلْفَهْم ثَقِيل عَنْ اَلْعِبَادَةِ كَمَا هُوَ مَشْهُور[١].

وقوله في حديث مسلم: "ثُمَّ يَخْلُف قَوْم يُحِبُّونَ السَّمَانَة" وَفِي رِوَايَة: "وَيَظْهَر قَوْم فِيهِمْ السِّمَن" قَالَ جُمْهُور الْعُلَمَاء فِي مَعْنَى هَذَا الْحَدِيث: الْمُرَاد بِالسِّمَنِ هُنَا: كَثْرَة اللَّحْم، وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ يَكْثُر ذَلِكَ فِيهِمْ، قَالُوا: وَالْمَذْمُوم مِنْهُ مَنْ يَسْتَكْسِبهُ، وَأَمَّا مَنْ هُوَ فِيهِ خِلْقَة فَلَا يَدْخُل فِي هَذَا، وَالْمُتَكَسِّب لَهُ هُوَ الْمُتَوَسِّع فِي الْمَأْكُول وَالْمَشْرُوب زَائِدًا عَلَى الْمُعْتَاد، وَقِيلَ: الْمُرَاد بِالسِّمَنِ هُنَا أَنَّهُمْ يَتَكَثَّرُونَ بِمَا لَيْسَ فِيهِمْ، وَيَدَّعُونَ مَا لَيْسَ لَهُمْ مِنْ الشَّرَف وَغَيْره[٢].

فمما سبق يتبين الخير في الأولين، و البلادة و السمنة و عدم الورع و الزهد و الإقبال على ما ليس من حق في الآخرين أو في معظمهم إلا من رحم الله سبحانه و تعالى؛ لذلك كان السابقون لدرجة السابقين كثر في الأولين وقليل في الآخرين، فقال تعالى عن السابقين: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ أما أصحاب اليمين فهي منزلة أقل من منزلة السابقين، فكان السابقون لها في الأولين و الآخرين كثير؛ فلذلك قال: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾.

الوجه الرابع: التناقض في الكتاب المقدس.

هل أنجبت ميكال أم لا؟

(وَلَمْ تُنْجِبْ مِيكَالُ بِنْتُ شَاوُلَ وَلَدًا إِلَى يَوْمِ مَوْتِهَا ((صموئيل الثاني ٦/ ٢٣).

(فَأَخَذَ الْمَلِكُ، أَرْمُونِيَ وَمَفِيبُوشَثَ ابْنَيْ رِصْفَةَ ابْنَةِ أَيَّةَ اللَّذَيْنِ وَلَدَتْهُمَا لِشَاوُلَ، وَأَبْنَاءَ مِيكَالَ ابْنَةِ شَاوُلَ الْخَمْسَةَ الَّذِينَ أَنْجَبَتْهُمْ لِعَدْرِيئِيلَ ابْنِ بَرْزِلاَيَ الْمَحُولِيِّ) (صموئيل الثاني ٢١/ ٨)[٣].

* * *

---

(١) فتح الباري (٥/ ٣٠٨).

(٢) شرح النووي (٨/ ٣٢٨).

(٣) وانظر تفصيل ذلك في بحث (تحريف الكتاب المقدس).

سورة الجمعة

شبهة: لماذا يجتمع المسلمون يوم الجمعة؟

نص الشبهة:

أن اليهود يجتمعون لذكر خلق الله العالم في ستة أيام واستراح في اليوم السابع، والنصارى يجتمعون الأحد لذكرى قيام المسيح فيه.

والسؤال: لماذا جعل المسلمون يوم الجمعة ليجتمعوا فيه؟

والجواب:

لأن يوم الجمعة كان يسمى في الجاهلية عروبة فسماه كعب بن لؤي بن غالب يوم الجمعة وكان يخطب فيه على قريش وكانت قريش تجتمع إليه في كل جمعة ليسمعوا خطبة (من كتاب بلوغ الأرب في حال العرب) فيوم الجمعة مصدره عرب الجاهلية ومن وضع كعب بن لؤي وليس من وحي السماء.

فلما أراد المسلمون أن يختاروا يومًا كاليهود والنصارى اختاروا يوم الجمعة الذي وضعته عرب الجاهلية.

والجواب على ذلك من وجوه كما يلي،

الوجه الأول:

يوم الجمعة أفضل أيام الأسبوع فهدى الله المسلمين هذا اليوم فكان رزقًا من الله للمسلمين.

وإليك هذه الأحاديث التي بين فيها النبيﷺ فضل يوم الجمعة:

١- عن أبي هريرةﷺ قال: قال رسول الله: ﷺ "نحن الآخرون ونحن السابقون يوم القيامة بيد أن كل أمة أوتيت الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم ثم هذا اليوم الذي كتبه الله علينا هدانا الله له فالناس لنا فيه تبع اليهود غدا والنصارى بعد غد". [١]

٢- عن أبي هريرة، وعن ربعي بن حراش ﷺعن حذيفة قالا: قال رسول اللهﷺ: "أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا فكان لليهود يوم السبت وكان للنصارى يوم الأحد فجاء الله بنا

(١) أخرجه البخاري (٨٧٦)، ومسلم (٨٥٥) واللفظ له.

فهدانا الله ليوم الجمعة فجعل الجمعة والسبت والأحد، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة نحن الآخرون من أهل الدنيا والأولون يوم القيامة المقضى لهم قبل الخلائق". [١]

٣-عن أبى هريرةﷺ أن النبيﷺ قال: "خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة". [٢]

٤-عن أوس بن أوس قال: قال رسول اللهﷺ: "من أفضل أيامكم يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه قبض وفيه النفخة وفيه الصعقة فأكثروا على من الصلاة فيه فإن صلاتكم معروضة علي ". فقالوا: يا رسول الله، وكيف تعرض عليك صلاتنا وقد أرمت -يعنى وقد بليت-؟ قال: "إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء -صلوات الله عليهم-"[٣].

٥- وعن أبي هريرة أيضًا عن النبيﷺ قال: "خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أهبط من الجنة وفيه تيب عليه وفيه مات وفيه تقوم الساعة وما من دابة إلا وهى مسيخة يوم الجمعة من حين تصبح حتى تطلع الشمس شفقا من الساعة إلا الجن والإنس وفيه ساعة لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلى يسأل الله شيئا إلا أعطاه إياه". قال كعب: ذلك في كل سنة يوم. فقلت بل في كل جمعة. فقرأ كعب التوراة فقال صدق رسول اللهﷺ قال أبو هريرة: ثم لقيت عبد الله بن سلام فحدثته بمجلسي مع كعب، قال: قد علمت أية ساعة هي؟ قلت: فأخبِرني بها، قال: هي آخر ساعة في يوم الجمعة. قال أبو هريرة: فقلت: وكيف تكون آخر ساعة في يوم الجمعة وقد قال رسول اللهﷺ: "لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلي". وتلك الساعة ساعة لا يصلَّى فيها، فقال عبد الله بن سلام ألم يقل رسول اللهﷺ: "من

---

(١) أخرجه مسلم (٨٥٦).

(٢) أخرجه مسلم (٨٥٤).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٨)، وأبو داود (١٠٤٧)، والنسائي (١٣٧٤)، وابن ماجه (١٠٨٥)، والحاكم في المستدرك (١/ ٢٧٨) وصححه، وقال: على شرط البخاري ومسلم، وحسنه ابن حجر، وصححه النووي في الأذكار، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٥٢٧).

جلس مجلسا ينتظر الصلاة فهو في صلاة حتى يصلى". [١]

فهذه بعض فضائل يوم الجمعة التي جعلها الله للمسلمين والتي ذكرها نبينا محمد ﷺ وهي كما بينا لتعرف الفضل الذي هو عند أهل الفضل:

١. أفضل يوم طلعت عليه الشمس.

٢. فيه خُلق آدم عليه السلام.

٣. فيه أدخل الجنة وأخرج منها وفيه تيب عليه وفيه مات.

٤. فيه تقوم الساعة.

٥. فيه ساعة إجابة.

٦. فيه النفخة وفيه الصعقة.

٧. فيه فضل الصلاة على النبي ﷺ في هذا اليوم. . . . وغيرها كثير من فضائل هذا اليوم الذي اختصت به هذه الأمة.

أول من سمى يوم الجمعة وسبب تسميته.

قال البغوي: واختلفوا في تسمية هذا اليوم جمعة، منهم من قال: لأن الله تعالى جمع فيه خلق آدم عليه السلام. وقيل: لأن الله تعالى فرغ من خلق الأشياء فاجتمعت فيه المخلوقات، وقيل: لاجتماع الجماعات فيه، وقيل: لاجتماع الناس فيها للصلاة.

وقيل: أول من سماها جمعة كعب بن لؤي قال أبو سلمة: أول من قال: (أما بعد) كعب بن لؤي وكان أول من سمى الجمعة جمعة، وكان يقال له يوم العروبة.

وعن ابن سيرين قال: جمع أهل المدينة قبل أن يقدم النبي ﷺ المدينة. وقبل أن ينزل الجمعة وهم الذين سموها الجمعة. [٢]

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ (٢٤١)، والترمذي (٤٩١) وقال: حديث حسن صحيح، أبو داود (١٠٤٦) والنسائي (١٤٣٠)، وأحمد (٢/ ٤٨٦) والحاكم (١/ ٢٧٨)، وصحيح ابن حبان (٢٧٧٢)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (١٣٥٩).

(٢) تفسير البغوي (٨/ ١١٦).

وقيل: كان كعب عظيم القدر عند العرب، ولهذا أرَّخوا لموته إلى عام الفيل، ثم أرخوا بالفيل. وهو أول من جمع يوم العروبة، وقيل: هو أول من سماها الجمعة، فكانت قريش تجتمع عليه في هذا اليوم فيخطبهم، ويذكرهم بمبعث النبي ﷺ، ويعلمهم أنه من ولده ويأمرهم باتباعه والإيمان به وينشد فيه هذا:

يا ليتني شاهدًا فحواء دعوته   إذا قريش تبتغي الحق خذلانا. [(١)]

أما عن قولهم: إن المسلمين اختاروا يومًا لمحاكاة اليهود والنصارى أفعالهم.

والجواب:

إن هذا ليس من دأب المسلمين بل وليس ذلك من الشرع فإن الشرع يأمر بمخالفة اليهود والنصارى. حيث كان يذكر دائمًا " خالفوا المشركين. . . . . " الحديث. [(٢)]

وكان النبي ﷺ يحب مخالفة اليهود والنصارى في كل شيء.

الوجه الثاني: لماذا اختار اليهود يوم السبت والنصارى يوم الأحد؟

يذكر اليهود أن يوم السبت هو اليوم الذي استراح فيه الله بعد خلق العالم.

وتذكر النصارى أن يوم الأحد هو اليوم الذي يحفظونه لذكرى قيامة المسيح من قبره.

وكلا الأمرين باطل لا جدال في ذلك.

حيث إن الله تعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام، وما أتعبه ذلك، وما مسه من لغوب كما ذكر القرآن ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ (ق: ٣٨).

وهل يليق بالله ﷻ أن يتصف بصفة مذمومة كصفة التعب! ! فهذا محال على الله.

---

(١) من كتاب بلوغ الأرب في معرفة أنساب العرب للقلقشندي (١/ ١٣٣).

فانظر أخي القارئ، هذا هو تمام الكلام الذي نقلوه ليحتج به صاحب الشبهة علينا وهذا هو دأب الحاقدين الذين ليست لهم أدلة يعترضون بها علينا سوى تحريف الكلام عن مواضعه، فيأخذ الكلام ليجعل لنفسه حجة يستند إليها، ويقوم عليها، ولكن هيهات هيهات؛ فالحق واضح جلي لمن أراد أن يعرف الحق، فانتبه أخي القارئ حتى لا تقع في مثل هذه الأمور.

(٢) أخرجه البخاري (٥٥٥٣)، ومسلم (٢٥٩).

والنصارى يدعون أن يوم الأحد يوم قيامة المسيح، وهذا أيضًا معتقد خاطئ؛ فالمسيح لم يصلب، ولم يدفن ولم يقم من قبره في اليوم الثالث كما يزعمون، ولو سلمنا جدلًا بهذه المسألة لوجدنا أن قيامة المسيح لم تكن بعد ثلاثة أيام حيث يعتمد المسيحيون على بيان أن المسيح مكث في قبره ثلاثة أيام على ما ورد في الأناجيل على لسان المسيح وهو بين تلاميذه.

وذلك حين طلب الكتبة و الفريسيون من المسيح ﷺ: " **حِينَئِذٍ أَجَابَ قَوْمٌ مِنَ الْكَتَبَةِ وَالْفَرِّيسِيِّينَ قَائِلِينَ: «يَا مُعَلِّمُ، نُرِيدُ أَنْ نَرَى مِنْكَ آيَةً». ٣٩فَأَجابَ وَقَالَ لَهُمْ: «جِيلٌ شِرِّيرٌ وَفَاسِقٌ يَطْلُبُ آيَةً، وَلاَ تُعْطَى لَهُ آيَةٌ إِلاَّ آيَةَ يُونَانَ النَّبِيِّ. ٤٠لأَنَّهُ كَمَا كَانَ يُونَانُ فِي بَطْنِ الْحُوتِ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ وَثَلاَثَ لَيَال، هكَذَا يَكُونُ ابْنُ الإِنْسَانِ فِي قَلْبِ الأَرْضِ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ وَثَلاَثَ لَيَال.** " (متى ١٢/ ٣٨: ٤٠).

يقول المسيحيون إن هذا إخبار من المسيح بأنه سيمكث في قبره هذه المدة المذكورة. ولكننا إذا رجعنا إلى الأناجيل ورواياتها عن الصلب والقيامة لوجدنا استحالة هذه النبوءة لأنه لكي يتحقق يجب أن يبقى المصلوب في بطن الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ، ولكن إذا رجعنا إلى روايات الأناجيل لوجدنا أن المصلوب أُنزل من على الصليب مساء الجمعة. (مرقس ١٥/ ٤٢: ٤٦).

ولقد اكتشف التلاميذ قيامته فجر الأحد. (متى٢٨/ ١: ٦).

وبعملية حسابية بسيطة نجد أن عدد الأيام التي قضاها الميت في بطن الأرض (في القبر) تساوي يومًا واحدًا (يوم السبت)، وعدد الليالي التي قضاها تساوي ليلتين على أحسن الفروض. [١]

وعلى هذا نقول كيف يعتقد النصارى أن المصلوب قام من قيامته بعد ثلاث أيام فيكون ذلك يوم الأحد ليسمونه يوم القيامة؟.

* * *

(١) المسيح في مصادر العقائد المسيحية (١٠١).

سورة المنافقون

شبهة: ﴿لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾.

نص الشبهة:

أن قول الله: ﴿لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ ينافي الرحمة والشفقة.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: أن التوراة والإنجيل محرفان.

الوجه الثاني: احتجاجكم بالقرآن لا يجوز.

الوجه الثالث: تفسير الآيات، ومن خلالها الرد على هذه الشبهة المزعومة، وإثبات أنهم يستحقون غضب الله عليهم.

الوجه الرابع: من أسباب غضب الله عهليهم.

الوجه الخامس: أن الله لا يظلم الناس شيئًا، ولكن الناس أنفسهم يظلمون.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: التوراة والإنجيل محرفان.

الوجه الثاني: لا يجوز احتجاجكم بالقرآن.

الوجه الثالث: تفسير الآيات، ومن خلالها الرد على هذه الشبهة.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ (المنافقون: ٥-٨).

يقول تعالى ذكره: وإذا قيل لهؤلاء المنافقين تعالوا إلى رسول الله يستغفر لكم لووا رءوسهم، يقول حرّكوها وهزّوها استهزاء برسول الله ﷺوباستغفاره، ورأيتهم يُعْرضون

عما دُعوا إليه بوجوههم ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ يقول وهم مستكبرون عن المصير إلى رسول الله ﷺ ليستغفر لهم، وإنما عُنِي بهذه الآيات كلها فيما ذُكر، عبدُ الله بن أُبيّ ابن سَلُول، وذلك أنه قال لأصحابه: ﴿لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾، وقال: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ فسمع بذلك زيد بن أرقم، فأخبر به رسول الله ﷺ، فدعاه رسول الله ﷺ، فسأله عما أخبر به عنه، فحلف أنه ما قاله، وقيل له: لو أتيت رسول الله ﷺ، فسألته أن يستغفر لك، فجعل يلوي رأسه ويحرّكه استهزاء، ويعني ذلك أنه غير فاعل ما أشاروا به عليه، فأنزل الله ﷻ فيه هذه السورة من أوّلها إلى آخرها[١].

وعن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ الله ﷺ قال: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَزَاةٍ فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا لَلْأَنْصَارِ! وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ:

يَا لَلْمُهَاجِرِينَ! ؛ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ؟ قَالُوا يَا رَسُولَ الله: كَسَعَ رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ؛ فَقَالَ: " دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ، فَسَمِعَهَا عَبْدُ الله بْنُ أُبَيٍّ، فَقَالَ: قَدْ فَعَلُوهَا! وَالله لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ. قَالَ عُمَرُ: دَعْنِي أَضْرِب عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ: دَعْهُ لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ. "[٢]

وعن زيد بن أرقم ﷺ قال: كنت مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فقال عبد الله بن أُبيّ ابن سلول: لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ ليخرجن الأعز منها الأذل، قال: فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته، قال: فحلف عبد الله بن أبي أنه لم يكن شئ من ذلك، قال: فلامني قومي وقالوا: ما أردت إلى هذا؟ ، فانطلقت فنمت كئيبًا حزينًا، قال: فأرسل إلي رسول الله ﷺ فقال: "إنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَدْ عَذَرَكَ وصَدَّقَكَ " قال: فنزلت الآية ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ حتى بلغ ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾.[٣]

---

(١) تفسير الطبري (١٤/ ١٠٨)، وابن كثير (٤/ ٤٨٧).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٠٧)، ومسلم (٢٥٨٤).

(٣) أخرجه البخاري (٤٩٠١).

فبعد كل هذا بعد سبهم لرسول الله ﷺ وكذبهم عليه، وإعراض عبد الله بن أبي بن سلول عن استغفار رسول الله ﷺ قال تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿سَوَآءٌ﴾ يا محمّد على هؤلاء المنافقين الذين قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله ﴿أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ﴾ ذنوبهم ﴿أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ يقول: لن يصفح الله لهم عن ذنوبهم، بل يعاقبهم عليها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ يقول: إن الله لا يوفِّق للإيمان القوم الكاذبين عليه، الكافرين به الخارجين عن طاعته.[1]

وقال تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ (التوبة: ٨٠).

يخبر تعالى نبيه ﷺ بأن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلًا للاستغفار، وأنه لو استغفر لهم، ولو سبعين مرة فإن الله لا يغفر لهم، وقد قيل: إن السبعين إنما ذكرت حسمًا لمادة الاستغفار لهم؛ لأن العرب في أساليب كلامها تذكر السبعين في مبالغة كلامها، ولا تريد التحديد بها، ولا أن يكون ما زاد عليها بخلافها، وقيل: بل لها مفهوم، كما روى العوفي عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لما نزلت هذه الآية: "أسمع ربي قد رخص لي فيهم، فوالله لأستغفرن أكثر من سبعين مرة، لعل الله أن يغفر لهم! فقال الله من شدة غضبه عليهم: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾.[2]

ثم تتابع الآيات في ذكر نفاقهم وإبطانهم الكفر والكره للمسلمين، فقال تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ يعني المنافقين الذين يقولون لأصحابهم ﴿لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ من أصحابه المهاجرين ﴿حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ يقول: حتى يتفرّقوا عنه، لله جميع ما في السموات والأرض من شيء وبيده مفاتيح خزائن ذلك، لا يقدر أحد أن يعطي أحدًا

---

(١) تفسير الطبري (١٤/ ١١١: ١١٠).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٥١١)، والطبري (٦/ ١٩٨).

شيئًا إلا بمشيئته، ويقول هؤلاء المنافقون الذين وَصف صفتهم قبل: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ فيها، ويعني بالأعزّ: الأشدّ والأقوى[1].

الوجه الرابع: أسباب غضب الله على هؤلاء المنافقين.

١- أنهم منافقون يبطنون الكفر ويظهرون الإيمان، والله ورسوله أعلم بذلك، ولكن رسول الله ﷺ قبل منهم علانيتهم ووكل سرائرهم إلى الله، وكان لهم مثل حقوق المسلمين الصادقين من حرمة المال والدم والعرض، ومع ذلك هم أعرضوا ولووا رؤوسهم وتكبروا عن توحيد الله ﷻ، ومما يؤيد هذا المعنى ما جاء في حديث كعب بن مالك ﷺ عندما تخلف عن غزوة تبوك، وفيه أن المنافقين الذين تخلفوا عن الغزوة جاءوا يعتذرون إلى رسول الله ﷺ، فقال كعب ﷺ: فقبل علانيتهم ووكل سرائرهم إلى الله. [2]

٢- أنهم لما أشير عليهم بأن يذهبوا لرسول الله ﷺ ليستغفر لهم أعرضوا ولووا رؤوسهم كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥﴾ (المنافقون: ٥)، فهم رفضوا أن يغفر الله لهم، فما بالك بمن يرفض مغفرة الله سبحانه وتعالى؟.

٣- أنهم سبوا النبي ﷺ وقالوا عنه أنه الأذل، ووصفوا أنفسهم بالعزة، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين.

٤-أنهم أرادوا أن يتحكموا في رزق الله سبحانه، فقالوا لا تنفقوا على المسلمين حتى يتفرقوا عن رسول الله ﷺ: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (المنافقون: ٧).

٥- من صفاتهم أن في قلوبهم مرض، قال تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال: ٤٩).

٦-استهزاؤهم بالدين، وادعاؤهم أنهم يخوضوا ويلعبوا، قال تعالى: ﴿ يَحْذَرُ

---

(١) المصدر السابق (٦/ ١١٢).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٤/ ٢١٢٠).

ﭐﻟْﻤُﻨَٰﻔِﻘُﻮﻥَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ (التوبة: ٦٤-٦٦).

٧- أنهم يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف، قال تعالى: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ ﴾ (التوبة: ٦٧).

٨-أنهم يشكون في وعد الله ورسولهﷺ، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ (الأحزاب: ١٢).

الوجه الخامس: أن الله لا يظلم الناس شيئًا.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ (يونس: ٤٤)، وقال تعالى رحمةً منه: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (الأنفال: ٣٣)، وقال تعالى عدلًا منه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (الإسراء: ١٥)، وقال تعالى في شأن النصارى واليهود الذين نسبوا له الولد وسبوه وهانوه ﷻ وتنزه عن ذلك: ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ (المائدة: ٧٤).

والآيات في ذلك كثيرة والتي تدل على أن الله لا يظلم أحدًا، ولكن الإنسان هو الذي يجر الشر إلى نفسه، وقال تعالى في شأن المنافقين: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ . . . ﴾ (التوبة: ٧٤)، فدعاهم إلى التوبة بعد كل ما فعلوه.

* * *

سورة التغابن

شبهة: التقوى.

نص الشبهة:

جاء في سورة التغابن: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ (التغابن: ١٦).

السؤال: كيف يطلب من الناس تقوى الله قدر الاستطاعة؟ وإذا لم تستطع ماذا يحدث؟ كيف أن الله يوحي بكلام يناقض طبيعته، فالله يطلب تقوى كاملة؟

والجواب على هذه الشبهة من عدة أوجه:

الوجه الأول: تفسير قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾.

الوجه الثاني: أن الآية الأولى ناسخة للثانية.

الوجه الثالث: آية التغابن بمعزل عن آية آل عمران.

الوجه الرابع: أن قوله تعالى: ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ محمولة على التوحيد، وقوله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ محمولة على الأعمال.

الوجه الخامس: الإسلام دين يسر وسعة.

الوجه السادس: التكليف بالمستحيل ممنوع شرعًا.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: تفسير الآيتين.

الآية الأولى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ (آل عمران: ١٠٢)، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ أن يطاع فلا

يُعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر. (١)

فمعناها أي حق الله وتقواه وذلك بدوام خشيته ظاهرًا وباطنًا والعمل بموجبها. (٢)

وقال مجاهد: أن تُجاهدوا في سبيل الله حق جهاده ولا تأخذكم في الله لَوْمَةُ لائمٍ وتقوموا لله بالقسط ولو على أنفسكم وآبائكم وأبنائكم. (٣)

وحق التقوى أيضًا: استفراغُ الوُسعِ في القيام بالموجبات واجتنابِ المحارم. (٤)

وذكر الماوردي في تفسيره هذه الآية أربعة أقاويل:

الأول: هو أن يُطَاع فلا يُعْصى، ويُشْكَر فلا يكفر ويُذْكَر فلا يُنْسي، قاله ابن مسعود، والحسن، وقتادة.

الثاني: اتقاء جميع المعاصي.

والثالث: هو أن يعترفوا بالحق في الأمن والخوف.

والرابع: هو أن يُطَاع، ولا يُتَّقى في ترك طاعته أحدٌ سواه(٥).

أما عن الآية الثانية وهي قوله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ ﴾ (التغابن: ١٦) أي ما أطقتم وبلغ إليه جهدكم. (٦)

كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرةﷺ قال: قال رسول اللهﷺ: "إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وما نَهَيْتُكُمْ عَنْه فَاجْتَنِبُوهُ". (٧)

---

(١) **إسناده صحيح**. أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٧٩)، وعبد الرزاق في التفسير (١/ ١٢٩)، والطبري في التفسير (٧٥٣٧)، والطبراني في الكبير (١/ ١٢٩)، والحاكم (٢/ ٢٩٤) عن ابن مسعود مرفوعا ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه كذا، والأظهر أنه موقوف. قاله ابن كثير في تفسيره (٣/ ١٣٠).

(٢) تفسير القاسمي (٤/ ١٦٨).

(٣) تفسير البغوي (١/ ١٣٣).

(٤) تفسير أبو السعود (٢/ ٦٥)، والكشاف (١/ ٣٩٤)، والبقاعي (٢/ ١٣٠)، والبحر المحيط (٣/ ١٩).

(٥) النكت والعيون (١/ ٤١٣).

(٦) تفسير القنوجي (١٤/ ١٧٢)، والشوكاني في فتح القدير (٥/ ٣٣٩)، و تفسير ابن كثير (١٤/ ٢٤)، والفخر الرازي (٣٠/ ٢٧)، والمراغي في تفسيره (٢٨/ ١٣١).

(٧) أخرجه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).

أي: ابذلوا في تقواه جهدكم وطاقتكم. يقول تعالى ذكره: واحذروا الله أيها المؤمنون وخافوا عقابه وتجنبوا عذابه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه والعمل بما يقرب إليه ما أطقتم وبلغه وسعكم. (١)

ويُفهم من الآية أن التكليف في حدود الاستطاعة، ويبينه قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ (البقرة: ٢٨٦)، وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٨٦). (٢)

وفي هذا القيد ﴿مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ يتجلى لطف الله بعباده وعلمه بمدى طاقتهم في تقواه وطاعته. (٣)

هذا أيضًا من إحسان الله تعالى إلى عباده المؤمنين، إنه لما علمهم أن أموالهم وأولادهم فتنة وحذرهم أن يؤثروهم على طاعة الله ورسوله علم أن بعض المؤمنين سوف يزهدون في المال والولد، والبعض الآخر سوف يعاني مشقة شديدة في التوفيق بين خدمة المصلحتين، فأمرهم أن يتقوه في حدود ما يطيقون فقط، وخير الأمور الوسط فلا يفرط في ولده وماله، ولا يفرط في غاية خلقه وهي عبادة الله تعالى التي خلق لأجلها و عليها مدار نجاته من النار ودخوله الجنة. (٤)

فهذه الآية تدل على أن كل واجب عجز عنه العبد أنه يسقط عنه، وأنه إذا قدر على بعض المأمور وعجز عن بعضه فإنه يأتي بما يقدر عليه ويسقط عنه ما يعجز عنه، كما قال النبيﷺ: "إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم". (٥)

الوجه الثاني: قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ ناسخة لقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾.

---

(١) تفسير الطبري (٢٨/ ١٢٧).

(٢) أضواء البيان (٨/ ٣٤٥).

(٣) في ظلال القرآن (٦/ ٣٥٩).

(٤) أيسر التفاسير (٥/ ٣٧٠).

(٥) تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٨٦٨).

وهذا ما ذهب إليه سعيد بن جبير وأبو العالية والربيع بن أنس وقتادة ومقاتل بن حيان وابن زيد والسدي. (١)

عن قتادة في قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ قال: يطاع فلا يعصى ثم أنزل الله ﷻ التخفيف ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ فنسخت هذه الآية التي في آل عمران(٢).

قال ابن المنير: الظاهر أن قوله: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ إنما نسخ حكمه لا فضله وأجره، وقد فسر النبي ﷺ حق تقاته بأن قال: "هو أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر" فقالوا: أينا يطيق ذلك فنزلت: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾، وكان التكليف أولا باستيعاب العمر بالعبادة بلا فترة ولا نعاس كما كانت الصلاة خمسين ثم صارت بحسب الاستطاعة خمسًا، والاقتدار منزل على هذا الاعتبار ولم ينحط من درجاته.

وبتعقب هذا الحديث نجد أنه لم يثبت مرفوعًا، بل هو من كلام ابن مسعود رواه النسائي وليس فيه قول الصحابة: (أينا يطيق ذلك)، ونزول قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾(٣).

وقال آخرون بأن الآية: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ ليست منسوخة بل هي محكمة، وأن آية ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ مبينة لها ومفسرة لها.

عن ابن عباس ﷺ قال: وقوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾، قال: لم تنسخ ولكن حق تقاته أن تجاهدوا في الله حق جهاده ولا تأخذكم في الله لومة لائم وتقوموا بالقسط ولو على آبائكم وأبنائكم(٤).

وعن طاوس ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ إن لم تفعلوا ولم تستطيعوا ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾. (١)

(١) دفع إيهام الاضطراب (٥١)، ابن كثير (٢/ ١٠٠)، ونواسخ القرآن لابن الجوزي (٢٤٢).

(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس (٣٠٠)، وفي إسناده محمد بن جعفر الأنباري، ذكره الخطيب ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلًا، وبقية رجاله ثقات فيهم الحسين بن محمد المروزي له أوهام.

(٣) البرهان للزركشي (٢/ ٥٨: ٥٧).

(٤) الناسخ والمنسوخ للنحاس (٣٠٢)، والطبري (٣/ ٢٩).

قال أبو جعفر: محال أن يقع في هذا ناسخ ولا منسوخ إلا على حيلة وذلك أن معنى نسخ الشيء إزالته والمجيء بضده، فمحال أن يقال: اتقوا الله منسوخ ولا سيما مع قول الرسولﷺ.

فعن معاذ بن جبل، قال: قال لي رسول اللهﷺ: "يا معاذ أتدري ما حق الله ﷻ على العباد؟ قلت: الله ورسوله أعلم قال: أن يعبدوه فلا يشركوا به شيئًا"[٢]، أفلا ترى أنه محال أن يقع في هذا نسخ؟ والذي قلناه قول ابن عباس في الحديث السابق فهل ما ذكر في الآية واجب على المسلمين أن يستعملوه ولا يقع فيه نسخ.[٣]

فالآية محكمة وهذا مذهب طاووس وهو الصحيح لأن التقوى هي اجتناب ما نهى الله عنه ولم ينه عن شيء ولا أمر به إلا وهو داخل تحت الطاقة كم قالﷻ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، فالآيتان متوافقتان والتقدير اتقوا الله حق تقاته ما استطعتم.[٤]

فالتعارض الحقيقي بين الآيتين غير مسلَّم به، فإن تقوى الله حق تقاته المأمور بها في الآية هي الإتيان بما يستطيعه المكلفون من عبادة الله ﷻ دون ماخرج عن استطاعتهم، إذًا فلا تعارض بينها وبين قوله: ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾، وحيث لا تعارض فلا نسخ، والتحديد بالاستطاعة ليس بيانًا للتقوى الحقيقية المطلوبة[٥]، فلا مجال للنسخ؛ لأن النسخ إنما يكون عند عدم الجمع، والجمع ممكن فهو أولى[٦]، فمن أتى ما يستطيعه من عبادته تعالى وأناب لجلاله وأخلص في أعماله وكان مشفقًا في طاعته فقد اتقى الله حق تقاته.

(١) تفسير الطبري (٣/ ٢٩).

(٢) أخرجه البخاري (٧٣٧٣)، مسلم (٣٠).

(٣) الناسخ والمنسوخ للنحاس (٢/ ١٣٠).

(٤) نواسخ القرآن لابن الجوزي (٢٤٤).

(٥) فتح المنان علي حسن العريض (٢٩٠).

(٦) محاسن التأويل (٢/ ١٦٩).

قال ابن تيمية: قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ وهذه مفسرة له ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾، ومن قال من السلف هي ناسخة لها، فمعناه أنها رافعة لما يظن من أن المراد من حق تقاته ما يعجز البشر عنه؛ فإن الله لم يأمر بهذا قط ومن قال إن الله أمر به فقد غلط. (١)

وقال الشيخ كمال الدين الزملكاني: وفي كون ذلك منسوخًا نظر، وقوله: ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ هو ﴿حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ إذ به أمر فإن حق تقاته الوقوف على ماأمره ودينه وقد قال بذلك كثير من العلماء. (٢)

الوجه الثالث: أن قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ بمعزل مما دل عليه قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾.

قال بعض المفسرين: إنما عنى بقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ فاتقوا الله أيها الناس وراقبوه فيما جعل فتنة لكم من أموالكم وأولادكم أن تغلبكم فتنتهم، وتصدكم عن الواجب لله عليكم من الهجرة من أرض الكفر إلى أرض الإسلام، فتتركوا الهجرة ما استطعتم، بمعنى وأنتم للهجرة مستطيعين، ومما يدل على صحة هذا أن قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ عقيب قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ ولا خلاف بين السلف من أهل العلم بتأويل القرآن أن هذه الآيات نزلت بسبب قوم كفار تأخروا عن الهجرة من دار الشرك إلى دار الإسلام بتثبيط أولادهم إياهم عن ذلك. (٣)

أما قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ ذكر غير واحد من أهل التفسير أن الخطاب بهذه الآية يعم جميع المؤمنين، والمقصود به

(١) منهاج السنة النبوية (٥/ ٢٩٠).

(٢) الناسخ والمنسوخ لقتادة (١/ ٣٨).

(٣) الجامع لعلوم القرآن (١٨/ ١٤١-١٤٠)، وأيسر التفاسير (٥/ ١٦٩)، والطبري (١٤/ ١٢٥).

وقت نزولها الأوس والخزرج الذين شجر بينهم بسعاية شاس بن قيس ما شجر.(١)

قال عكرمة: نزلت في الأوس والخزرج حين اقتتلوا وأصلح النبي ﷺ بينهم.(٢)

قال مقاتل بن حيان: كان بين الأوس والخزرج عداوة في الجاهلية وقتال حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، فأصلح بينهم فافتخر بعده منهم رجلان: ثعلبة بن غنم من الأوس وأسعد بن زرارة من الخزرج، فقال الأوسي: منّا خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين، ومنّا حنظلة غسيل الملائكة، ومنا عاصم بن ثابت بن أفلح حميُّ الدبر، ومنّا سعد بن معاذ الذي اهتز له عرش الرحمن ورضي الله بحكمه في بني قريظة. وقال الخزرجي: منّا أربعة أحكموا القرآن: أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد، ومنّا سعد بن عبادة خطيب الأنصار ورئيسهم، فجرى الحديث بينهما فغضبا وأنشدا الأشعار وتفاخرا، فجاء الأوس والخزرج ومعهم السلاح فأتاهم النبي ﷺ فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾.(٣)

الوجه الرابع: قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ محمول على التوحيد، وقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ محمول على الأعمال.

ذكر السيوطي رحمه الله في الإتقان والزركشي في البرهان: أن الآية الأولى وهي قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ محمولة على التوحيد ونفي الشرك بدليل قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.(٤)

فلا يقبل الله ﷻ عذر ترك التوحيد، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ (النساء: ١١٦).

---

(١) المحرر الوجيز لابن عطية (١/ ٤٨٢).

(٢) زاد المسير (١/ ٤٣١)، وابن أبي حاتم (٣/ ٧٤١).

(٣) تفسير البغوي (١/ ٣٣٢)، وتفسير الخازن (١/ ٢٧٦)، وتفسير ابن أبي حاتم (٣/ ٧٢١)، وتفسير الواحدي (١٠٠)، والدر المنثور (٢/ ٢٨٣)، وابن حجر في بيان الأسباب (٢/ ٧٢٦).

(٤) الإتقان٣/ ٨٥، البرهان٢/ ٥٧.

وقال تعالى حكاية عن لقمان الحكيم لابنه وهو يعظه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان: ١٣)، وعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ "يا مُعَاذُ أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ؟" قَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: "أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، أَتَدْرِي مَا حَقُّهُمْ عليه؟" قَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: "أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ".[١]

وعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: (كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: "أَسْلِمْ" فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ: أَطِعْ أَبَا الْقَاسِمِ، فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: "الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنْ النَّارِ"[٢]، فالآية الأول محمولة على التوحيد.

أما الآية الثانية فمحمولة على الأعمال؛ فمن لم يستطع الوضوء أتى بالتيمم بدلًا منه كما بين ذلك رب العالمين حيث قال في كتابه الحكيم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٦﴾ (المائدة: ٦)، فعلى ذلك تكون الآية الأولى خاصة بالمحسنين، والثانية خاصة بالمؤمنين.

الوجه الخامس: الإسلام دين يسر و سعة.

إن الدين الإسلامي دين يسر وسعة وليس في شريعة الإسلام شدة وضيق أو حرج، وهذا من محاسن الإسلام، وقد أشارت آيات كثيرة إلى يسر الإسلام وسعته، ومن هذه الآيات: قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة: ٢٨٦).

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٧٣).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٥٦) و (٥٦٥٧).

وعن أبي هريرةﷺ قال: "لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللهِﷺ: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٢٨٤﴾ (البقرة: ٢٨٤) قَالَ: فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِﷺ فَأَتَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرُّكَبِ فَقَالُوا: أَيْ رَسُولَ اللهِ، كُلِّفْنَا مِنْ الْأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ الصَّلَاةَ وَالصِّيَامَ وَالْجِهَادَ وَالصَّدَقَةَ وَقَدْ أُنْزِلَتْ عليكَ هَذِهِ الْآيَةُ وَلَا نُطِيقُهَا قَالَ رَسُولُ اللهِﷺ: "أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟ بَلْ قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ"، قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ، فَلَمَّا اقْتَرَأَهَا الْقَوْمُ ذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ فِي إِثْرِهَا ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ۝٢٨٥﴾ فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللهُ تَعَالَى فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَا﴾ قَالَ: نَعَمْ، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَا﴾ قَالَ: نَعَمْ ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ قَالَ: نَعَمْ، ﴿وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ قَالَ: نَعَمْ". [(١)]

قال المراغي: وقد قال الصحابةﷺ ذلك لأنهم قد دخلوا في الإسلام وكثير منهم تربوا في حجر الجاهلية وانطبعت في نفوسهم أخلاقها وأثرت في قلوبهم عاداتها، وكانوا يتطهرون منها بالتدريج بهدي الرسولﷺونور القرآن، فلما نزلت هذه الآية خافوا أن يؤاخذوا على ما كان باقيًا في أنفسهم من العادات الأولي، وكانوا يحاسبون أنفسهم لاعتقادهم النقص وخوفهم من اللهﷻ، فأخبرهم الله تعالى أنه لا يكلف نفسًا إلا وسعها، ولا يؤاخذها إلا على ما كلفها وهم مكلفون بتزكية أنفسهم ومجاهدتها بقدر الطاقة وطلب العفو عما لا طاقة لهم به. [(٢)]

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٤٥-٤٥٤٦)، ومسلم (١٩٩).

(٢) تفسير المراغي (٣/ ٨١).

وهذه الآية نص عَلَى أَنَّ الله تَعَالَى لَا يُكَلِّفُ أَحَدًا مَا لَا يَقْدِرُ عليه وَلَا يُطِيقُهُ، وَلَوْ كَلَّفَ أَحَدًا مَا لَا يَقْدِرُ عليه وَلَا يَسْتَطِيعُهُ لَكَانَ مُكَلِّفًا لَهُ مَا لَيْسَ فِي وُسْعِهِ(١).

وقال الله ﷻ أيضًا: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج: ٧٨)، وقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ (الطلاق: ٧)، وقال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ (البقرة: ١٨٥)، وكثير من الآيات التي تدل على يسر الشريعة الاسلامية ونفي الحرج عن المؤمنين ونفي التكليف بما لا يطاق، وقد وردت أيضًا أحاديث كثيرة في سنة نبينا محمدﷺ تبين هذا الأمر العظيم من أمور الدين الإسلامي منها: عن ابن عباس في قوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ قال: هم المؤمنون وسع الله عليهم أمر دينهم فقال الله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ وقال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾، وقال: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾. (٢)

ولقد بوب البخاري رحمه الله في كتابه الصحيح بابًا بعنوان: (الدين يسر وقول النبيﷺ: أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة)، وأخرج عن أبي هريرةؓ عن النبيﷺقال: **"إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنْ الدُّلْجَةِ"**. (٣)

وقد وردت السنة عن رسول اللهﷺ أن من لم يستطع الصلاة قائمًا فغير مكلف للقيام بها وهذا من يسر الشريعة الإسلامية، فعن عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍؓ قَالَ: (كَانَتْ بِي بَوَاسِيرُ فَسَأَلْتُ النَّبِيَّﷺ عَنْ الصَّلَاةِ فَقَالَ: "صَلِّ قَائِمًا فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ". (٤)

هكذا تتجلى الشريعة الإسلامية في يسرها وسماحتها ورفع الحرج عن المكلفين.

---

(١) أحكام القرآن للجصاص (١/ ٥٣٧).

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٣٠٨٠)، وتفسير الطبري (٦/ ١٣٠).

(٣) أخرجه البخاري (٣٩).

(٤) أخرجه البخاري (١١١٧).

عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: "كَانَ رَسُولُ الله ﷺ فِي سَفَرٍ فَرَأَى زِحَامًا وَرَجُلًا قَدْ ظُلِّلَ عليهِ فَقَالَ: " مَا هَذَا؟ " فَقَالُوا: صَائِمٌ، فَقَالَ: "لَيْسَ مِنْ الْبِرِّ الصَّوْمُ فِي السَّفَرِ". [١]

وقال الله ﷻ في كتابه المبين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖ﴾ (البقرة: ١٨٣-١٨٤).

قال ابن حجر: وَقَالَ عَطَاء: يُفْطِر مِنْ الْمَرَض كُلّه كَمَا قَالَ الله تَعَالَى... وَقَالَ الْحَسَن وَإِبْرَاهِيم فِي الْمُرْضِع وَالْحَامِل إِذَا خَافَتَا عَلَى أَنْفُسهمَا أَوْ وَلَدهمَا: تُفْطِرَانِ ثُمَّ تَقْضِيَانِ، وَأَمَّا الشَّيْخ الْكَبِير إِذَا لَمْ يُطِقْ الصِّيَام فَقَدْ أَطْعَمَ أَنَس بْن مَالِك بَعْدَمَا كَبِرَ عَامًا أَوْ عَامَيْنِ كُلّ يَوْم مِسْكِينًا خُبْزًا وَلَحْمًا وَأَفْطَرَ. [٢]

الوجه السادس: التكليف بالمستحيل ممنوع شرعًا.

إن شرط الفعل الذي وقع التكليف به أن يكون ممكنًا ومقدورًا عليه لأن المطلوب شرعًا حصول الفعل ولا يمكن حصوله إلا بأن يكون متصور الوقوع، وعلى هذا فلا يجوز التكليف بالمستحيل عند الجمهور وهو الحق وسواء كان مستحيلا بالنظر إلى ذاته أو بالنظر إلى امتناع تعلق قدرة المكلف به. [٣]

وقال ابن تيمية: وَالشَّرِيعَةُ طَافِحَةٌ بِأَنَّ الْأَفْعَالَ الْمَأْمُورَ بِهَا مَشْرُوطَةٌ بِالِاسْتِطَاعَةِ وَالْقُدْرَةِ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ: "صَلِّ قَائِمًا فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ". [٤]

وَقَدْ اتَّفَقَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّ الْمُصَلِّيَ إذَا عَجَزَ عَنْ بَعْضِ وَاجِبَاتِهَا: كَالْقِيَامِ أَوْ الْقِرَاءَةِ أَوْ الرُّكُوعِ أَوْ السُّجُودِ أَوْ سَتْرِ الْعَوْرَةِ أَوْ اسْتِقْبَالِ الْقِبْلَةِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ سَقَطَ عَنْهُ مَا عَجَزَ عَنْهُ، وَإِنَّمَا يَجِبُ عليهِ مَا إذَا أَرَادَ فِعْلَهُ إرَادَةً جَازِمَةً أَمْكَنَهُ فِعْلُهُ وَكَذَلِكَ الصِّيَامُ اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّهُ

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٤٦).

(٢) فتح الباري (٨/ ٢٨).

(٣) إرشاد الفحول للشوكاني (٩)، والمستصفى لأبي حامد الغزالي (٧٠).

(٤) أخرجه البخاري (١١١٧).

يَسْقُطُ بِالْعَجْزِ عَنْ مِثْلِ الشَّيْخِ الْكَبِيرِ وَالْعَجُوزِ الْكَبِيرَةِ الَّذِينَ يَعْجِزُونَ عَنْهُ أَدَاءً وَقَضَاءً. وَكَذَلِكَ الْحَجُّ فَإِنَّهُمْ أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّهُ لَا يَجِبُ عَلَى الْعَاجِزِ عَنْهُ وَقَدْ قَالَ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ (آل عمران: ٩٧)، بَلْ مِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ أَنَّ الاِسْتِطَاعَةَ الشَّرْعِيَّةَ الْمَشْرُوطَةَ فِي الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ لَمْ يَكْتَفِ الشَّارِعُ فِيهَا بِمُجَرَّدِ الْمُكْنَةِ وَلَوْ مَعَ الضَّرَرِ بَلْ مَتَى كَانَ الْعَبْدُ قَادِرًا عَلَى الْفِعْلِ مَعَ ضَرَرٍ يَلْحَقُهُ جُعِلَ كَالْعَاجِزِ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنْ الشَّرِيعَةِ: كَالتَّطَهُّرِ بِالْمَاءِ وَالصِّيَامِ فِي الْمَرَضِ وَالْقِيَامِ فِي الصَّلَاةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ تَحْقِيقًا لِقَوْلِهِ تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ (البقرة: ١٨٥)، وهو في الصحيحين عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ، أَنَّ الْأَعْرَابِيَّ لَمَّا بَالَ فِي الْمَسْجِدِ قَالَ: "لَا تزرموه" - أَيْ لَا تَقْطَعُوا عليهِ بَوْلَهُ - "فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ"[1].

وقال أيضًا: وَاتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ الْعِبَادَاتِ لَا تَجِبُ إلَّا عَلَى مُسْتَطِيعٍ وَأَنَّ الْمُسْتَطِيعَ يَكُونُ مُسْتَطِيعًا مَعَ مَعْصِيَتِهِ وَعَدَمِ فِعْلِهِ كَمَنْ اسْتَطَاعَ مَا أُمِرَ بِهِ مِنْ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ وَالْحَجِّ وَلَمْ يَفْعَلْهُ فَإِنَّهُ مُسْتَطِيعٌ بِاتِّفَاقِ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا وَهُوَ مُسْتَحِقٌّ لِلْعِقَابِ عَلَى تَرْكِ الْمَأْمُورِ الَّذِي اسْتَطَاعَهُ وَلَمْ يَفْعَلْهُ لَا عَلَى تَرْكِ مَا لَمْ يَسْتَطِعْهُ.[2]

وقال أبو الحسين البصري: لا يصح شرعًا التكليف بالمستحيل الذي لا يجد المكلف سبيلًا ممكنًا لفعله.[3]

* * *

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٨/ ٤٣٩ : ٤٣٨)، والبخاري (٢٢٠)، ومسلم (٢٨٤).

(٢) مجموع الفتاوى (٨/ ٤٨٠ : ٤٧٩ .)

(٣) المعتمد في أصول الفقه (١/ ٩٨).

سورة التحريم

وفيها:

١- شبهة: آية التحريم.

٢- شبهة: إسرار النبي ﷺ لبعض أزواجه.

٣- شبهة: مصير امرأة نوح عليه السلام.

١ـ شبهة: آية التحريم.

نص الشبهة:

في قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١﴾ (التحريم: ١).

قال البغوي: قال المفسرون: وكان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فلما كان يوم حفصة استأذنت رسول الله ﷺ في زيارة أبيها فأذن لها، فلما خرجت أرسل رسول الله ﷺ إلى جاريته مارية القبطية فأدخلها بيت حفصة، فوقع عليها فلما رجعت حفصة وجدت الباب مغلقًا فجلست عند الباب فخرج رسول الله ﷺ ووجهه يقطر عرقًا، وحفصة تبكي فقال: " ما يبكيك؟ فقالت: إنما أذنت لي من أجل هذا أدخلت أَمَتَكَ بيتي، ثم وقعت عليها في يومي وعلى فراشي، أما رأيت لي حرمة وحقًا؟ ما كنت تصنع هذا بامرأةٍ منهنَّ. فقال رسول الله ﷺ: أليست هي جاريتي أحلها الله لي؟ اسكتي فهي حرام عليّ ألتمس بذاك رضاك، فلا تخبري بهذا امرأة منهن. فلما خرج رسول الله ﷺ قرعت حفصة الجدار الذي بينها وبين عائشة فقالت: ألا أبشرك أن رسول الله ﷺ قد حرم عليه أمته مارية، وإن الله قد أراحنا منها وأخبرت عائشة بما رأت، وكانتا متصافيتين متظاهرتين على سائر أزواج النبي ﷺ، فغضبت عائشة فلم تزل بنبي الله ﷺ حتى حلف أن لا يقربها فأنزل الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ يعني العسل ومارية: ﴿تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾". [1]

وفي ذلك مسائل:

١ - أن محمداﷺ يحرم ما أحل الله وذلك يؤدى إلى عدم عصمته.

٢ - في القصة أن محمدًا غدر بحفصة.

والجواب على ذلك من وجوه كما يلي:

الوجه الأول: سياق ما ثبت في هذا.

الوجه الثاني: سبب نزول الآية وتعدد السبب.

---

(١) تفسير البغوي (٤/ ٣٦٣).

الوجه الثالث: القصة المذكورة ليس فيها غدر بحفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

الوجه الرابع: للرجل حق في أن يجامع زوجته في غير يومها.

الوجه الخامس: خصوصية النبي ﷺ في عدم القسمة بين النساء.

الوجه السادس: عدل النبي ﷺ مع زوجاته

الوجه السابع: الحكمة من عتاب النبي ﷺ وبيان أنه كرامة وقربة وليس ذمًا

وإليك التفصيل

الوجه الأول: **سياق ما ثبت في هذا.**

عن أنس: أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرمها على نفسه فأنزل الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ (التحريم: ١) إلى آخر الآية. [١]

وعن عمر قال: قال النبي ﷺ لحفصة: "لا تخبري أحدًا وإن أم إبراهيم علي حرام فقالت: أتحرم ما أحل الله لك؟ قال: فو الله لا أقربها قال: فلم يقربها حتى أخبرت عائشة قال: فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾"[٢].

الوجه الثاني: **سبب نزول الآية وتعدد السبب**

للآية أكثر من سبب نزول وهذا لا مانع فيه مطلقًا

١ - تحريم النبي ﷺ مارية على نفسه وقد سبق بيان ذلك.

٢ - تحريم النبي ﷺ على نفسه العسل.

وقد حدث ذلك في أكثر من واقعة:

١ - عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ: كان يمكث عند زينب بنت جحش ويشرب عندها

---

(١) صحيح. أخرجه النسائي في الكبرى (٨٩٠٧)، وفي الصغرى (٣٩٥٩)، والحاكم في المستدرك وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وقال الذهبي صحيح على شرط مسلم، وصححه ابن حجر في الفتح (٩/ ٢٨٨)، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (٣٩٥٩).

(٢) أورده ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤٩٥) بإسناده للهيثم بن كليب وقال: وهذا إسناد صحيح ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة، وقد اختاره الحافظ الضياء المقدسي في كتابه المستخرج.

عسلًا فتواصيت أنا وحفصة أن أيتنا دخل عليها النبي ﷺ فلتقل إني أجد فيك ريح مغافير[١] أكلت مغافير فدخل على إحداهما فقلت له ذلك فقال: "بل شربت عسلًا عند زينب بنت جحش ولن أعود له فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ إلى ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ لعائشة وحفصة إذ أسر النبي إلى بعض أزواجه. لقوله بل شربت عسلًا". [٢]

٢- عن عائشة رضي الله عنها قالت: "كان رسول الله ﷺ يحب العسل والحلواء وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه فيدنو من إحداهن فدخل على حفصة بنت عمر فاحتبس أكثر ما كان يحتبس فغرت فسألت عن ذلك؛ فقيل أهدت لها امرأة من قومها عكة من عسل فسقت النبي ﷺمنه شربة؛ فقلت: أما والله لنحتالن له فقلت لسودة بنت زمعة: إنه سيدنو منك فإذا دنا منك فقولي أكلت مغافير فإنه سيقول لك لا فقولي له ما هذه الريح التي أجد منك؛ فإنه سيقول لك: سقتني حفصة شربة عسل فقولي له جرست نحلة العرفط وسأقول ذلك وقولي أنت يا صفية ذاك. قالت: تقول سودة: فو الله ما هو إلا أن أقام على الباب فأردت أن أباديه بما أمرتني به فرقا منك فلما دنا منها قالت له سودة يا رسول الله أكلت مغافير؟ قال: لا. قالت فما هذه الريح التي أجد منك؟ قال: سقتني حفصة شربة عسل. فقالت: جرست نحلة العرفط فلما دار إلي قلت له نحو ذلك، فلما دار إلى صفية قالت له مثل ذلك، فلما دار إلى حفصة قالت: يا رسول الله ألا أسقيك منه؟ قال لا حاجة لي فيه. قالت: تقول سودة: والله لقد حرمناه قلت لها: اسكتي"[٣].

---

(١) قال النووي في شرح مسلم (٥/ ٣٣٣) (مغافير) هو جمع مغفور وهو صمغ حلو كالناطف وله رائحة كريهة ينضحه الشجر يقال له العرفط يكون بالحجاز، وقيل: إن العرفط نبات له ورقة عريضة تفترش على الأرض له شوكة حجناء وثمرة بيضاء كالقطن مثل زر القميص خبيث الرائحة قال أهل اللغة: العرفط من شجر العضاة وهو شجر له شوك، وقيل: رائحته كرائحة النبيذ وكان النبي ﷺ يكره أن توجد منه رائحة كريهة.

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٦٦)، ومسلم (١٤٧٤).

(٣) أخرجه البخاري (٤٩٦٧)، ومسلم (١٤٧٤).

قال ابن حجر: وطريق الجمع بين هذا الاختلاف الحمل على التعدد فلا يمتنع تعدد السبب للأمر الواحد.[١]

الوجه الثالث: القصة المذكورة ليس فيها غدر بحفصة

هل معاشرة رسول الله (ﷺ) لسريته و أم ولده تعتبر خيانة زوجية والعياذ بالله؟

بالطبع لا فهي من نسائه اللاتي أحل الله له، و هذا أمر معروف و لا حرج فيه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ﴾ (الأحزاب: ٥٠).

قال ابن كثير: وقوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ﴾ أي: وأباح لك التسري مما أخذت من المغانم، وقد ملك صفية وجويرية فأعتقهما وتزوجهما. وملك ريحانة بنت شمعون النضرية، ومارية القبطية أم ابنه إبراهيم عليه السلام، وكانتا من السراري، رضي الله عنهما[٢].

الوجه الرابع: للرجل حق في أن يجامع زوجته في غير يومها.

والدليل على ذلك:

١ـ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّهَا قَالَتْ: " كُنْتُ أُطَيِّبُ رَسُولَ الله ﷺ ثُمَّ يَطُوفُ عَلَى نِسَائِهِ ثُمَّ يُصْبِحُ مُحْرِمًا يَنْضَخُ طِيبًا ".[٣]

قال ابن حجر: (فيطوف) كناية عن الجماع.[٤]

٢- عَنْ أَنَسٍ أَنَّ النبي ﷺ كَانَ يَطُوفُ عَلَى نِسَائِهِ بِغُسْلٍ وَاحِدٍ.[٥]

٣ـ عنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النبي ﷺ قَالَ: " قَالَ سلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ: لأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى سَبْعِينَ امْرَأَةً تَحْمِلُ كُلُّ امْرَأَةٍ فَارِسًا يُجَاهِدُ في سَبِيلِ الله، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ إِنْ شَاءَ الله. فَلَمْ

---

(١) فتح الباري (٩/ ٢٨٩).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٢٤).

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٧)، ومسلم (١١٩٢).

(٤) فتح الباري (١/ ٤٤٩)، وانظر شرح صحيح مسلم للنووي (٤/ ٣٦٠).

(٥) أخرجه البخاري (٢٨٤)، مسلم (٣٠٩) واللفظ له.

يَقُلْ، وَلَمْ تَحْمِلْ شَيْئًا إِلاَّ وَاحِدًا سَاقِطًا إِحْدَى شِقَّيْهِ » فَقَالَ النبي ﷺ: « لَوْ قَالَهَا لَجَاهَدُوا في سَبِيلِ الله". قَالَ شُعَيْبٌ وَابْنُ أَبِى الزِّنَادِ: تِسْعِينَ. وَهْوَ أَصَحُّ. [١]

الوجه الخامس: خصوصية النبي ﷺ في عدم القسمة بين النساء.

قال ابن كثير: في قول آخر لمعنى الآية: المراد بقوله: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ أي: من أزواجك، لا حرج عليك أن تترك القَسْم لهن، فتقدم من شئت، وتؤخر من شئت، وتجامع من شئت، وتترك من شئت.

هكذا يروى عن ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة، وأبي رَزين، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهم، ومع هذا كانﷺ يقسم لهن؛ ولهذا ذهب طائفة من الفقهاء من الشافعية وغيرهم إلى أنه لم يكن القسم واجبًا عليهﷺ، واحتجوا بهذه الآية الكريمة.

عن عائشة؛ أن رسول الله ﷺ كان يستأذن في يوم المرأة منا بعد أن نزلت هذه الآية: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾، فقلت لها: ما كنت تقولين؟ فقالت: كنت أقول: إن كان ذاك إليَّ فإني لا أريد يا رسول الله أن أؤثر عليك أحدًا. [٢]

فهذا الحديث عنها يدل على أن المراد من ذلك عدم وجوب القسم.

الوجه السادس: عدل النبي ﷺمع زوجاته

عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ، لا يفضل بعضنا على بعض في القسم من مكثه عندنا، وكان قل يوم يأتي إلا وهو يطوف علينا جميعًا فيدنوا من كل امرأة من غير مسيس حتى يبلغ التي هو يومها فيبيت عندها[٣] فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: "خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي"، وهذه الأقوال منه ﷺ تأكيد وبيان لقول رب العزة: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وهى كلمة جامعة تعنى: التحلي

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٢٤)، مسلم (١٦٥٤).

(٢) أخرجه البخاري (٤٥١١)، ومسلم (١٤٧٦).

(٣) أخرجه أبو داود (٢١٣٥)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٢٠٣)، وقال: صحيح ولم يخرجاه (٢٠٣)، والمعجم الأوسط للطبراني (٥٢٥٤)، والبيهقي في الكبرى (٧/ ٧٤)، وحسنه الألباني في الصحيحة (١٤٧٩).

بمكارم الأخلاق في معاملة الزوجات، من صبر على ما قد يبدر منهن، أو تقصير في أداء واجباتهن، ومن حلم عن إيذائهن في القول أو الفعل، وعفو وصفح عن ذلك، ومن كرم في القول والبذل، ولين في الجانب، ورحمة في المعاملة، إلى غير ذلك مما تعنيه المكارم الأخلاقية التعاملية الأسرية.

الوجه السابع: الحكمة من عتاب النبي ﷺ وبيان أنه كرامة وقربة وليس ذمًا.

أولًا: إن عتاب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الوارد في القرآن الكريم، هو في الظاهر عتاب، وفي الحقيقة كرامة وقربة لله عز وجل، وتنبيه لغيرهم ممن ليس في درجتهم من البشر، بمؤاخذتهم بذلك، فيستشعروا الحذر، ويلتزموا الشكر على النعم، والصبر على المحن، والتوبة عند الزلة.

ثانيًا: أن الله تعالى أن يعتب أنبياءه وأصفياءه، ويؤدبهم، ويطلبهم بالنقير والقطمير من غير أن يلحقهم في ذلك نقص من كمالهم، ولا غض من أقدارهم، حتى يتمحصوا للعبودية لله ﷺ.

ثالثًا: أن غاية أقوال الأنبياء وأفعالهم التي وقع فيها العتاب من الله عز وجل لمن عاتبه منهم، أن تكون على فعل مباح، كان غيره من المباحات أولى منه في حق مناصبهم السنية.

رابعًا: المباحات جائز وقوعها من الأنبياء، وليس فيها قدح في عصمتهم ومنزلتهم، فهم لا يأخذون من المباحات إلا الضرورات، مما يتقون به على صلاح دينهم، وضرورة دنياهم، وما أخذ على هذه السبيل التحق طاعة، وصار قربة.

خامسًا: أنه ليس كل من أتى ما يلام عليه يقع لومة، فاللوم قد يكون عتابًا، وقد يكون ذمًا، فإن صح وقوع لومه، كان من الله عتابًا له لا ذمًا، إذ المعاتب محبور (أي مظنة للحبور، وهو السرور) والمذموم مدحور، فاعلم – رحمك الله – صحة التفرقة بين اللوم والذم قال الشاعر:

لعل عتبك محمود عواقبه ... فربما صحت الأجسام بالعلل

إذا ذهب العتاب فليس ود ... ويبقى الود ما بقى العتاب

سادسًا: أن العتاب فيما قيل أنه عوتب عليه رسول الله ﷺ، إنما كان على ما حَكَمَ فيه رسول الله ﷺ بالاجتهاد، والاجتهاد محتمل الخطأ، فكان تصحيح الخطأ في اجتهاده من

الله ﷻ، بتوجيهه ﷺ إلى الأخذ بالصواب فعاد الحكم بذلك إلى الوحي.

سابعًا: عدم ورود نهى عما عوتب فيه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، حتى يكون عتابهم ثمَّ ذم.

ثامنًا: إنه ما من آية ظاهرها عتاب رسول الله ﷺ إلا وهى واردة في مقام المنَّة على رسول الله ﷺ، وبيان عظيم فضله ومكانته عند ربه عز وجل بأعظم ما يكون البيان(١).

الرد على قولهم أن النبي ﷺ حرم ما أحل الله.

وقد أخذوا هذا الكلام من الزمخشري، حيث قال في تفسيره: كان هذا ما حرمه الرسول على نفسه من ملك اليمين أو العسل زلة منه، لأنه ليس لأحد أن يحرم ما أحل الله، لأن الله عز وجل، إنما أحل ما أحل لحكمة ومصلحة عرفها في إحلاله، فإذا حرم كان ذلك قلب المصلحة مفسدة. (٢)

فإن ما أطلقه الزمخشري، وتابعه فيه خصوم السنة النبوية، والسيرة العطرة، في حق النبي ﷺ تقول وافتراء، والنبي ﷺ مما أطلقوه براء؛ وذلك أن تحريم ما أحله الله على وجهين:

الوجه الأول: اعتقاد ثبوت حكم التحريم فيه، فهذا بمثابة اعتقاد حكم التحليل فيما حرمه الله ﷻ، وكلاهما محظور لا يصدر من المتسمين بسمة الإيمان، وإن صدر! سلب المؤمن حكم الإيمان.

والزمخشري كلامه محمول على هذا المحمل، ومعاذ الله أن يعتقد رسول الله ﷺ تحريم ما أحله الله له، وما هذه من الزمخشري إلا جراءة على الله ورسوله؛ تابعه فيها بعض الجهلاء. (٣)

الوجه الثاني: الامتناع عما أحله الله عز وجل، وهو المعنى الأصلي لمادة حرم في اللغة. (٤)

---

(١) رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ (١/ ٢٢٨).

(٢) الكشاف (٤/ ٥٦٤).

(٣) انظر: رد الشبهات حول عصمة النبي ﷺ لعماد الشربيني.

(٤) فحرمه، وتحريمه، وحرمانًا، وأحرمه، أي منعه. والمحروم: الممنوع عن الخير، ومن لا ينمى له مال، ومنه الصيام إحرام، لامتناع الصائم عما يفسد صومه ينظر: معجم مقاييس اللغة (٢/ ٤٥)، والقاموس المحيط (٤/ ٩٣)، ومختار الصحاح (١٣٢)، والنهاية في غريب الحديث (١/ ٣٥٨).

وقد ورد التحريم بهذا المعنى (الامتناع) في القرآن الكريم في آيات منها:

١- قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ (القصص: ١٢).

أي منعنا موسى المراضع، أن يرتضع منهن إلا من قِبَلِ أمه. (١)

٢- وقوله ﷻ: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ (المائدة: ٧٢) أي منعه من دخولها.

٣- وقوله سبحانه: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ (آل عمران: ٩٣) أي إلا ما امتنع عنه سيدنا يعقوب عليه السلام عنه من قبل نفسه.

والامتناع عما أحله الله قد يكون مؤكدًا باليمين مع اعتقاد حله، وهذا مباح صرف، وحلال محض.

وعلى هذا الوجه الثاني تحمل آية التحريم، والتفسير الصحيح، والحديث الصحيح يعضده فإن النبي ﷺ في العسل قال: فلن أعود له، وقد حلفت. وفي مارية عندما قالت حفصة، كيف تحرم عليك وهي جاريتك حلف لها لا يقربها.

فالتحريم منه ﷺ كان امتناعًا عن العسل أو مارية، وهو امتناع أكده باليمين، مع اعتقاد حله، ولذا نزلت الآيات. (٢)

* * *

---

(١) جامع البيان للطبري (٢٠/ ٤٠).

(٢) رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ(١/ ٢٧٣).

٢ـ شبهة: إسرار النبي ﷺ لبعض أزواجه.

نص الشبهة:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾﴾ (التحريم: ٣).

كيف يقول إلى بعض أزواجه، ثم يقول: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ﴾ بصيغة المفرد؟

أسر بكلام لها وهي أفشته، ما المغزى الروحي والإفادة الروحية مما حصل؟

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: كلمة بعض في اللغة.

الوجه الثاني: تفسير الآيات، والمغزى الروحي.

الوجه الثالث: سبب نزول الآيات، وفيه أن الله لم يسكت على هذا الخطأ.

الوجه الرابع: كل شيء مكتوب في اللوح المحفوظ.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: كلمة (بعض) في اللغة.

﴿بَعْضُ﴾ بَعْضُ الشيء طائفة منه، والجمع أَبعاض، قال ابن سيده: حكاه ابن جني. وقيل: بَعْضُ الشيء كلُّه، قال لبيد: أَو يَعْتَلِقْ بَعْضَ النُّفوسِ حِمامُها، قال ابن سيده: وليس هذا عندي على ما ذهب إِليه أَهل اللغة من أَن البَعْضَ في معنى الكل هذا نقض ولا دليل في هذا البيت؛ لأَنه إِنما عنى ببعض النفوس نَفْسَه، قال أَبو العباس أَحمد بن يحيى: أَجمع أَهل النحو على أَن البعض شيء من أَشياء أَو شيء من شيء، وقوله تعالى: ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ بالتأْنيث في قراءة من قرأ به، فإِنه أَنث لأَنّ بَعْضَ السيّارة سَيّارةٌ كقولهم: ذهَبتْ بَعْضُ أَصابعه لأَن بَعْضَ الأَصابع يكون أُصبعًا وأُصبعين وأَصابع، وبعضٌ من كل[1].

فلفظة ﴿بَعْضُ﴾ تفيد جزءًا من كل، وقد تفيد كلًا حسب السياق، ولأنه جاء بعده

(١) لسان العرب (٧/ ١١٩).

﴿أَزْوَاجِهِ﴾ جمعًا، فقد أريد بها واحدة منهن، كما أراد لبيد من بعض النفوس نفسه هو، وهي واحدة، والقرآن نزل بلسان عربي مبين.

الوجه الثاني: المغزى الروحي من هذه القصة.

ولكي نعرف المغزى والإفادة من إفشاء هذا السر، لابد من التعريج على أغراض هذه السورة، والآيات الأول منها خاصةً:

- وهي أن أحدًا لا يُحَرِّم على نفسه ما أحل الله له لإرضاء أحد؛ إذ ليس ذلك بمصلحة له، ولا للذي يسترضيه.
- تنبيه نساء النبي ﷺ إلى أن غيرة الله على نبيه أعظم من غيرتهن عليه، وأسمى مقصدًا.
- وأن الله يطلعه على ما يخصه من الحادثات.
- أن من حلف على يمينٍ فرأى حنثها خيرًا من برها أن يكفر عنها ويفعل الذي هو خير.
- تعليم الأزواج ألا يكثرن من مضايقة أزواجهن؛ فإنها ربما أدت إلى الملال فالكراهة فالفراق.
- موعظة الناس بتربية بعض الأهل بعضًا، ووعظ بعضهم بعضًا.

وأتبع ذلك بوصف عذاب الآخرة ونعيمها، وما يقضي إلى كليهما من أعمال الناس صالحاتها وسيئاتها، وذَيَّلَ ذلك بضرب مثلين من صالحات النساء، وضدهن لما في ذلك من العظة لنساء المؤمنين ولأمهاتهم.[١]

وقد تضمنت الآية عدة معان، منها:

- ﴿بَعْضِ أَزْوَاجِهِ﴾ هي حفصة بنت عمر بن الخطاب، وعدل عن ذكر اسمها ترفعًا عن أن يكون القصد معرفة الأعيان، وإنما المراد العلم بمغزى القصة وما فيها مما يجتنب مثله أو يقتدى به، وكذلك طي تعيين المنَبَّأة بالحديث وهي عائشة- وذكرت حفصة بعنوان بعض أزواجه للإشارة إلى أن النبي ﷺ وضع سِرّه في موضعه؛ لأن أولى الناس بمعرفة سرّ الرجل زوجهُ، وفي ذلك تعريض بملامها على إفشاء سرّه؛ لأن واجب المرأة أن تحفظ سرّ زوجها إذا أمرها بحفظه أو كان مثله مما يجب حفظه.

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٨/ ٣٤٥).

ولذا فمن الآداب العربية القديمة قولهم: السر أمانة، وقد وافق ذلك التشريع الإسلامي وحث عليه.

- و﴿وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾: هذا تنبيه إلى عناية الله برسولهﷺ وانتصاره له، لأن إطلاعه على ما لا علم له به مما يهمه عناية ونصحًا له.

- ﴿عَرَّفَ﴾: عرّفها النبيﷺ بذلك ليوقفها على مخالفتها واجب الأدب من حفظ سرّ زوجها.

- ﴿وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾: إعراض الرسولﷺ عن تعريف زوجه ببعض الحديث الذي أفشته من كرم خلقهﷺ في معاتبة المفشية وتأديبها، وهذا من كمال خلق النبي ﷺ، فإنه أعرض عن بعض تَكرُّمًا، قاله السدي، وقال الحسن: ما استقصى كريمٌ قط، قال تعالى: ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾ وقال سفيان: ما زَال التغافل من فعل الكرام.

- والاستفهام في قوله: ﴿مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا﴾ للتحقق من الذي أعلم النبي ﷺ خبرها فلا قبل للرسول ﷺ بعلم ذلك إلا من قبل عائشة أو من طريق الوحي. وفي هذا كفاية من تيقظها بأن إفشاءها سرّ زوجها زَلة خُلقية عظيمة حجبها عن مراعاتها شدة الصفاء لعائشة وفرط إعجابها بتحريم مارية لأجلها، فلم تتمالك عن أن تبشر به خليلتها ونصيرتها ولو تذكرت لتبين لها أن مقتضى كتم سرّ زوجها أقوى من مقتضى إعلامها خليلتها؛ فإن أواصر الزوجية أقوى من أواصر الخلة وواجب الإخلاص لرسول الله ﷺ أعلى من فضيلة الإخلاص للخلائل، ولذا كان إنهاء الآية بوصفي: ﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ لما فيهما من التذكير بما يجب أن يعلمه الناس من إحاطة الله تعالى علمًا وخُبْرًا بكل شيء.

الوجه الثالث: سبب نزول الآيات.[(١)]

لم يسكت الله ورسوله على هذا الخطأ من حفصة وعائشة: قال تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾ (التحريم: ٤).

(١) قد فصلنا ذلك في آية التحريم.

وعن ابن عباس ﷺ، قال: أردت أن أسأل عمر، قريبًا من سنة، عن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول الله ﷺ، وفيه أن النبي ﷺ طلق حفصة، فكان هذا جزاؤها، ثم راجعها بعد ذلك.

وعن ابن عمر، قال: دخل عمر ﷺ على حفصة وهي تبكي، فقال لها: "ما يبكيك؟ لعل رسول الله ﷺ طلقك؟ إنه قد كان طلقك مرة، ثم راجعك من أجلي، والله لئن كان طلقك مرة أخرى لا أكلمك أبدًا". [١]

وللحديث شواهد مختصرة عن أنس قال: "لما طلق النبي ﷺ أُمِرَ أن يراجعها فراجعها"[٢].

قال الألباني: وإسناده صحيح. [٣]

وله شاهد عن أنس قال: "طلق النبي ﷺ حفصة تطليقة، فأتاه جبريل ﷺ، فقال: يا محمد، طلقت حفصة وهي صوامة قوامة، وهي زوجتك في الجنة"[٤].

الوجه الرابع: كل شيء في اللوح المحفوظ.

كل ما هو كائن، وما يكون، وما سيكون مكتوب وقد علمه الله قبل وقوعه، وقدره قبل الخلق، فالله يعلم ما كان وما يكون وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، سبحانه وتعالى.

وقد قَالَ عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ ﷺ لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: "إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ الله الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، قَالَ: رَبِّ، وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ" يَا بُنَيَّ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: " مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي". [٥]

---

(١) مسند أبي يعلى (١٧٢).

(٢) المستدرك (٦٧٥٤)، الأوسط (١٥١).

(٣) السلسلة الصحيحة (٢٠٠٧)، وانظر صحيح الجامع (٤٣٥١).

(٤) المستدرك (٦٧٥٤)، الأوسط (١٥١)، وقال الألباني في صحيح الجامع (٤٣٥١): حسن.

(٥) أخرجه أبو داود (٤٧٠٠)، وصححه الألباني في المشكاة (٩٤).

فالحادثة حدثت بين النبي ﷺ وبين أزواجه، وهي مكتوبة في قدر الله، والقرآن كان باللوح المحفوظ، ثم نزل إلى بيت العزة بالسماء الدنيا، ثم نزل منجمًا تبعًا للحوادث والأسئلة والمواقف، حتى يكون أكثر ارتباطًا بهذه الوقائع التي نزل فيها.[1]

* * *

(١) انظر الإتقان (١/ ١١٧).

٣ـ شبهة: مصير امرأة نوح ﷺ.

نص الشبهة:

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ (التحريم: ١٠)، وقال تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ (الأنبياء: ٧٦)، وقال أيضًا: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ (الصافات: ٧٦).

السؤال: في سورة التحريم يقول: إن امرأة نوح هلكت في الطوفان، وفي الأنبياء والصافات يقول: إنها نجت معه، فأين الحقيقة؟ وإذا طالعنا التوراة نرى أن امرأة نوح نجت معه، والإنجيل يشهد على صحة التوراة، لماذا في الأول أوحى إلى موسى أنها نجت وهنا يقول: إنها هلكت؟ أم سيتهم الكتاب المقدس بالتحريف للهروب من الحقيقة؟.

والجواب على هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: معنى كلمة (الأهل).

الوجه الثاني: معنى الأهل في قوله: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

الوجه الثالث: القرآن بَيَّنَ عاقبة امرأة نوح ﷺ.

الوجه الرابع: المراد بالخيانة في قوله: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾.

الوجه الخامس: مصير امرأة نوح ولوط -عليهما السلام- في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: معنى كلمة (الأهل).

الأَهْل: أَهل الرجل وأَهْلُ الدار وكذلك الأَهْلة، قال أَبو الطَّمَحان:

وأَهْلةِ وُدٍّ تَبَرَّيتُ وُدَّهم وأَبْلَيْتُهم في الحمد جُهْدي ونَائلي

وقال ابن سيده: أَهْل الرجل عَشِيرتُه وذَوُو قُرْباه، والجمع أَهْلون، وآهَالٌ، وأَهَالٌ، وأَهْلات، وأَهَلات، وتطلق كلمة (أهل) على كثير.

وفي الحديث: "أَهْل القرآن هم أَهْلُ الله وخاصَّته"[١] أي: حَفَظة القرآن العاملون به هم أَولياء الله والمختصون به اختصاصَ أَهْلِ الإِنسان به، وفي حديث أَبي بكر رضي الله عنه في استخلافه عمر أَقول له إِذا لَقِيتُه: اسْتعملتُ عليهم خَيْرَ أَهْلِكَ يريد خير المهاجرين، وكانوا يسمُّون أَهْلَ مكة أَهل الله تعظيمًا لهم، كما يقال بيت الله، ويجوز أَن يكون أَراد أَهل بيت الله؛ لأَنهم كانوا سُكَّان بيت الله.

وأَهْلُ المذهب مَنْ يَدين به، وأَهْلُ الإِسلام مَن يَدِين به، وأَهْلُ الأَمر وُلاتُه، وأَهْلُ البيت سُكَّانه، وأَهل الرجل أَخَصُّ الناس به، وأَهْلُ بيت النبي ﷺ أَزواجُه وبَناته وصِهْرُه أَعني: عليًّا رضي الله عنه، وقيل: نساء النبي ﷺ والرجال الذين هم آله، وفي التنزيل العزيز: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾[٢]، وقوله ﷻ لنوح عليه السلام: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾؛ قال الزجاج: أَراد ليس من أَهْلِك الذين وعدتُهم أَن أُنجيهم، قال: ويجوز أَن يكون ليس من أَهل دينك وأَهْلُ كل نَبيٍّ أُمَّته، ومَنْزِلٌ آهِلٌ أَي: به أَهْلُه، ومكان آهِلٌ له أَهْل.[٣]

الوجه الثاني: معنى الأهل في قوله: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾.

إن المَعْنِيَّ من الأهل في قوله: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ (الأنبياء: ٧٦) جاء على عدة معان؛ منها:

١ـ أهله الذين آمنوا به: قال ابن كثير: يخبر تعالى عن استجابته لعبده ورسوله نوح عليه السلام حين دعا على قومه لما كذبوه: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ (١٠)﴾ (القمر: ١٠)، ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧)﴾ (نوح: ٢٧: ٢٦)، ولهذا قال هاهنا: ﴿إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ (الأنبياء: ٧٦) أي: الذين آمنوا به كما قال: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢١٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢١٥٦).

(٢) القراءة ﴿أَهْلَ﴾ بالنصب على المدح كما قال: بك الله نرجو الفَضْل، وسُبْحانك الله العظيمَ، أَو على النداء كأَنه قال: يا أَهل البيت.

(٣) لسان العرب لابن منظور (١١/ ٢٩: ٢٨).

ﵟٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞﵞ (هود: ٤٠). [١]

قال ابن عاشور: والمراد بأهله: عائلته إلاّ مَن حق عليه القول منهم، وكذلك المؤمنون من قومه، قال تعالى: ﵟقُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞﵞ (هود: ٤٠)، فالاقتصار على أهله هنا لقلة من آمن به من غيرهم.

٢. **أهل دينه:** أو أُريد بالأهل أهل دينه كقوله تعالى: ﵟإِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُﵞ (آل عمران: ٦٨). [٢]

الوجه الثالث: القرآن بَيَّنَ عاقبة امرأة نوح عليه السلام.

قال تعالى: ﵟضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ١٠ﵞ (التحريم: ١٠).

قال الطبري: يقول تعالى ذكره: مَثَّل الله مثلًا للذين كفروا من الناس وسائر الخلق امرأة نوح وامرأة لوط، كانتا تحت عبدين من عبادنا، وهما نوح ولوط فخانتاهما. [٣]

قال ابن عاشور: فمعنى: ﵟضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖﵞ، أن الله جعل حالة هاتين المرأتين عظة وتنبيهًا للذين كفروا؛ أي: ليُذكرهم بأن الله لا يصرفه عن وعيده صَارِف، فلا يحسبوا أن لهم شفعاء عند الله، ولا أن مكانهم من جوار بيتِه وعمارة مسجده وسقاية حجيجه تصرف غضب الله عنهم، فإن هم أقلعوا عن هذا الحسبان أقبلوا على التدبر في النجاة من وعيده بالنظر في دلائل دعوة القرآن وصدق الرسول ﷺ، فلو كان صارفٌ يصرف الله عن غضبه لكان أولى الأشياء بذلك مكانة هاتين المرأتين من زوجيهما رسولي رب العالمين[٤].

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٦٠٠).

(٢) التحرير والتنوير (٣٥٧١).

(٣) تفسير الطبري (٢٨/ ١٦٩).

(٤) التحرير والتنوير (٢٨/ ٣٧٤).

ومناسبة ضرب المثل بامرأة نوح وامرأة لوط دون غيرهما من قرابة الأنبياء نحو أبي إبراهيم وابن نوح؛ لأن ذكر هاتين المرأتين لم يتقدم، لتكون في ذكرهما فائدة مستجدة.

الوجه الرابع: المراد بالخيانة في قوله: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾.

قال ابن كثير: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ أي: في الإيمان، لم يوافقاهما على الإيمان، ولا صدَّقاهما في الرسالة، فلم يُجْد ذلك كلُّه شيئًا، ولا دفع عنهما محذورًا؛ ولهذا قال: ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: لكفرهما، ﴿وَقِيلَ﴾ أي: للمرأتين: ﴿ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ وليس المراد: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ في فاحشة، بل في الدين، فإن نساء الأنبياء معصوماتٌ عن الوقوع في الفاحشة لحرمة الأنبياء[1].

قال ابن عادل: قال القشيريُّ: وهذا إجماع من المفسرين أنها كانت خيانتهما في الدين، وكانتا مشركتين، وقيل: كانتا منافقتين، وقيل: خيانتهما النَّميمةُ إذا أوحى الله إليهما شيئًا أفشتاه إلى المشركين؛ قاله الضحاك، وقيل: كانت امرأة لوط إذا نزل به ضيف دخنت لتعلم قومها أنه قد نزل به ضيف لما كانوا عليه من إتيان الرجال[2].

قال السعدي: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ في الدين؛ بأن كانتا على غير دين زوجيهما، وهذا هو المراد بالخيانة، لا خيانة النسب والفراش، فإنه ما بغت امرأة نبي قط، وما كان الله ليجعل امرأة أحد من أنبيائه بغيًا. [3]

والدليل على صحة ما في القرآن: هو أن قابين لما قتل هابيل ولد حنوك ولد عيراد، وعيراد ولد محويائيل، ومحويائيل ولد متوشائيل، ومتوشائيل ولد لامك، ولامك ولد يابال الذي كان أبًا لساكني الخيام ورعاء المواشي، واسم أخيه يوبال الذي كان أبًا لكل ضارب بالعود والمزمار، واسم أخيه توبال قابين الضارب كل آلة من نحاس وحديد (تكوين: ٤).

قوله عن الثلاثة: الذي كان أبًا لساكني الخيام ورعاء المواشي ـ الذي كان أبًا لكل

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٢١).

(٢) تفسير اللباب (١٥/ ٣٦٦).

(٣) تفسير السعدي (٨٧٤).

ضارب بالعود والمزمار ـ الضارب كل آلة من نحاس وحديد؛ يدل على أنه كان من الناجين غير أبناء نوح، ولذلك قال مفسرو التوراة: (وسلالة قابين سلالة الحياة المدنية، وسلالة شعث سلالة الحياة القدسية).

الوجه الخامس: مصير امرأة نوح ولوط ـ عليهما السلام ـ في الكتاب المقدس.

نجد أن الكتاب المقدس لم يذكر أن امرأة نوح كانت خائنة له وأنها من الكافرين به، ففي (التكوين٦/ ١٨): وَلكِنْ أُقِيمُ عَهْدِي مَعَكَ، فَتَدْخُلُ الْفُلْكَ أَنْتَ وَبَنُوكَ وَامْرَأَتُكَ وَنِسَاءُ بَنِيكَ مَعَكَ، وفي (التكوين٧/ ١): وَقَالَ الرَّبُّ لِنُوحٍ: ادْخُلْ أَنْتَ وَجَمِيعُ بَيْتِكَ إِلَى الْفُلْكِ، لأَنِّي إِيَّاكَ رَأَيْتُ بَارًّا لَدَيَّ فِي هذَا الْجِيلِ.

حتى إنها كانت ممن دخل معه أيضًا في الفلك، على عكس ما في القرآن الكريم الذي هو كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ففي سفر (التكوين٧/ ٧: ٦): وَلَمَّا كَانَ نُوحٌ ابْنَ سِتِّ مِئَةِ سَنَةٍ صَارَ طُوفَانُ الْمَاءِ عَلَى الأَرْضِ، [٧] فَدَخَلَ نُوحٌ وَبَنُوهُ وَامْرَأَتُهُ وَنِسَاءُ بَنِيهِ مَعَهُ إِلَى الْفُلْكِ مِنْ وَجْهِ مِيَاهِ الطُّوفَانِ.

أما امرأة لوط ففيها مثل ما في قصة امرأة نوح إذ إن الملكين اللذين جاءا ليهلكا سدوم التي كان يعيش فيها لوط وأهله يأمرانه بأن يأخذ امرأته مع الناجين من العذاب، ففي سفر (التكوين ١٩/ ١٦: ١٥): وَلَمَّا طَلَعَ الْفَجْرُ كَانَ الْمَلاَكَانِ يُعَجِّلاَنِ لُوطًا قَائِلَيْنِ: (قُمْ خُذِ امْرَأَتَكَ وَابْنَتَيْكَ الْمَوْجُودَتَيْنِ لِئَلاَّ تَهْلِكَ بِإِثْمِ الْمَدِينَةِ). [١٦] وَلَمَّا تَوَانَى، أَمْسَكَ الرَّجُلاَنِ بِيَدِهِ وَبِيَدِ امْرَأَتِهِ وَبِيَدِ ابْنَتَيْهِ، لِشَفَقَةِ الرَّبِّ عَلَيْهِ، وَأَخْرَجَاهُ وَوَضَعَاهُ خَارِجَ الْمَدِينَةِ.

ولكن امرأة لوط هلكت في نهاية الأمر، ولكن بطريقة غريبة؛ إذ إنها لما نظرت ورائها تحولت وصارت كعمود ملح، وهذا ما جاء به سفر (التكوين١٩/ ٢٦: ٢٣): وَإِذْ أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ عَلَى الأَرْضِ دَخَلَ لُوطٌ إِلَى صُوغَرَ، [٢٤] فَأَمْطَرَ الرَّبُّ عَلَى سَدُومَ وَعَمُورَةَ كِبْرِيتًا وَنَارًا مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ مِنَ السَّمَاءِ. [٢٥] وَقَلَبَ تِلْكَ الْمُدُنَ، وَكُلَّ الدَّائِرَةِ، وَجَمِيعَ سُكَّانِ الْمُدُنِ، وَنَبَاتِ الأَرْضِ. [٢٦] وَنَظَرَتِ امْرَأَتُهُ مِنْ وَرَائِهِ فَصَارَتْ عَمُودَ مِلْحٍ.

* * *

سورة الحاقة

شبهة: معنى كلمة (الحاقة).

نص الشبهة:

يقولون أن قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٣﴾ (الحاقة٣: ١) كلام ليس له معنى!

والجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: التفسير الصحيح للآيات.

الوجه الثاني: علاقتها بما قبلها وما بعدها.

الوجه الثالث: وماذا عن الكلام الغريب الموجود في الكتاب المقدس؟

وإليك التفصيل

الوجه الأول: التفسير الصحيح للآيات.

قال الطبري: يقول تعالى ذكره: الساعة﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ التي تحقّ فيها الأمور، ويجب فيها الجزاء على الأعمال، ﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ يقول: أيّ شيء الساعة الحاقة، وذُكر عن العرب أنها تقول: لما عرف الحاقة متى والحقة متى، وبالكسر بمعنى واحد في اللغات الثلاث، وتقول: وقد حقّ عليه الشيء إذا وجب، فهو يحقّ حقوقًا.

والحاقة الأولى مرفوعة بالثانية، لأن الثانية بمنزلة الكناية عنها، كأنه عجب منها، فقال ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ ما هي، كما يقال: زيد ما زيد، والحاقة الثانية مرفوعة بها، وما بمعنى أي، وما رفع بالحاقة الثانية، ومثله في القرآن﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ۝٢٧﴾ و﴿ٱلۡقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٢﴾ فما: في موضع رفع بالقارعة الثانية والأولى بجملة الكلام بعدها، وعن ابن عباس، في قوله: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ۝١﴾ قال: من أسماء يوم القيامة، عظمه الله، وحذّره عباده[1].

وعن قتادة قال: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ۝١﴾ يعني: الساعة أحقت لكل عامل عمله.

(١) تفسير الطبري (٢٩/ ٤٧).

وقال عكرمة: يعني القيامة[١].

وقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ٣﴾ وأيّ شيء أدراك وعرّفك: أيّ شيء الحاقة؟ وقال قتادة: تعظيم ليوم القيامة كما تسمعون[٢].

قال البقاعي: قال تعالى: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ (الحاقة٣: ١)، لما قدم سبحانه في (نون) الإنكار الشديد لأن يسوي المسيء بالمحسن، وذكر القيامة وبيّنها بيوم كشف الساق، وزيادة المشاق، وهدد التهديد العظيم بآية الاستدراج الذي لا يدفع بعلاج، وختم بأن القرآن ذكر- أي شرف -، وتذكير، ومواعظ للعالمين في شمولهم كلهم برحمته، أما من بعد إنزاله فبوعيده ووعده، ووعظه وقصه، وأمره ونهيه، وأما من قبل إنزاله فبالشهادة لهم وعليهم، وكان تأويل ذلك وجميع آثاره إنما يظهر ظهورًا تامًا يوم الجمع الأكبر، وكان ذلك اليوم أعظم مذكر للعالمين، وواعظ لهم وزاجر، تنبني جميع الخيرات على تذكره، وتذكر العرض على الملك الديان، والسر في إنزال القرآن هو: التذكير بذلك اليوم الذي هو نظام الوجود، قال واصفًا للقيامة واليوم الذي يكشف فيه عن ساق، واعظًا بذكرها، ومحذرًا من أمرها: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ أي الساعة التي يكذب بها هؤلاء، وهي أثبت الأشياء وأجلاها، فلا كاذبة لها ولا لشيء عنها، فلا بد من حقوقها، فهي ثابتة في نفسها، ومن إحضار الأمور فيها بحقائقها، والمجازاة عليها بالحق الذي لا مرية فيه لأحد من الخلق، فهي فاعلة بمعنى مفعول فيها، وهي فاعلة أيضًا؛ لأنها غالبة لكل خصم، من حاققته فحققته أحقه أي: غالبته في الحق فغلبته فيه، فهي تحق الحق ولا بد، فتعلو الباطل فتدمغه وتزهقه، فتحق العذاب للمجرمين، والثواب للمسلمين، وكل ما فيها دائر على الثبات والبيان؛ لأن ذلك مقتضى الحكمة، ولا يرضى لأحد من الحكام ترك رعيته بغير إنصاف بينهم- على زعمه- فكيف بالحكيم العليم!

وقصة صاحب الحوت عليه السلام أدل دليل على القدرة عليها.

---

(١) تفسير الطبري (٢٩/ ٤٨) بإسناد صحيح إلى قتادة، والإسناد ضعيف إلى عكرمة.

(٢) تفسير الطبري (٢٩/ ٤٨).

ولما كان ذلك كله أمرًا رائعًا للعقول، هازًا للقلوب، مزعجًا للنفوس، وكان ربما توقف فيه الجلف الجافي، أكد أمره وزاد في تهويله، وأطنب في تفخيمه وتبجيله، إشارة إلى أن هوله يفوت الوصف بقوله، معلمًا أنه مما يحق له أن يستفهم عنه سائقًا له بأداة الاستفهام مرادًا بها التعظيم للشأن، وأن الخبر ليس كالعيان ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾﴾ فأداة الاستفهام: مبتدأ أخبر عنه بالحاقة، وهما خبر عن الأولى، والرابط تكرير المبتدأ بلفظه، نحو: زيدأي ما هو؟ وأكثر ما يكون ذلك إذا أريد معنى التعظيم والتهويل.

ولما كان السياق لترجمة المراد بكشف الساق، عظم التهويل بقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾أي في الزمن الماضي، وقصره لتذهب النفس فيه كل مذهب، أي: وأي شيء أعلمك بشيء من الأشياء، مع تعاطيك للبحث والمداورة، ثم زاد التحذير منها بقوله على النهج الأول مستفهمًا، والمراد به التفخيم ومزيد التعظيم: ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾أي: إنها بحيث لا يعلم كنهها أحد، ولا يدركها، ولا يبلغها درايته، وكيف ما قدرت حالها، فهي أعظم من ذلك، فلا تعلم حق العلم إلا بالعيان[1].

وقال البغوي: سُمّيت حاقة لأنها حقت فلا كاذبة لها، وقيل: لأن فيها حواق الأمور وحقائقها؛ ولأن فيها يحق الجزاء على الأعمال- أي: يجب-، يقال: حق عليه الشيء؛ إذا وجب يحق حقوقًا، قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (الزمر: ٧١)، وقوله: ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ هذا استفهام معناه التفخيم لشأنها كما يقال: زيد ما زيد، على التعظيم لشأنه، ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾﴾ أي أنك لا تعلمها؛ إذ لم تعاينها ولم تر ما فيها من الأهوال[2].

وقال الشوكاني: قوله: فالقيامة حاقة؛ لأنها تحاق كل محاق في دين الله بالباطل، وتخصم كل مخاصم، وقال في الصحاح: حاقه أي: خاصمه في صغار الأشياء، ويقال: ماله فيها حقّ، ولا حقاق، ولا خصومة، والتحاقّ: التخاصم، والحاقة والحقة والحقّ ثلاث لغات بمعنى. قال الواحدي: هي القيامة في قول كل المفسرين، وسميت بذلك لأنها ذات

---

(١) نظم الدرر للبقاعي (٨/ ١٢٠، ١١٩)، تفسير ابن كثير (٤/ ٥٤٨).

(٢) تفسير البغوي (٤/ ٢٨٥).

الحواقّ من الأمور، وهي الصادقة الواجبة الصدق، وجميع أحكام القيامة صادقة واجبة الوقوع والوجود، قال الكسائي، والمؤرج: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ۝١﴾ يوم الحق، وقيل: سميت بذلك لأن كل إنسان فيها حقيق بأن يجزى بعمله، وقيل: سميت بذلك لأنها أحقت لقوم النار، وأحقت لقوم الجنة، والمعنى: أيّ شيء هي في حالها أو صفاتها؟ أي: أيّ شيء أعلمك ما هي؟ أي: كأنك لست تعلمها إذا لم تعاينها وتشاهد ما فيها من الأهوال، فكأنها خارجة عن دائرة علم المخلوقين[1].

الوجه الثاني: علاقتها بما قبلها.

مما سبق بينا فائدة تكرار هذه الكلمة، وفائدة الاستفهام في هذه الآيات؛ ردًا على قولهم أن هذا الكلام ليس له معنى.

وأما قولهم أنها ليس لها رابط بما قبلها، فهو كلام مردود، وقد بينا ذلك في نقلنا لتفسير هذه الآيات من تفسير البقاعي، وقلنا: أن الله تعالى يكمل كلامه الذي بدأه في سورة (ن)، التي حذر فيها الكافرين والمكذبين، وذكر فيها اليوم الذي يكشف فيه عن ساق، ويشتد العذاب على الظالمين، فأكمل كلامه في سورة الحاقة ببيان عظم شأن هذا اليوم، وبيان بعض أهواله التي لا يطيقها أحد- إلا من رحم الله-.

وأما رابطها بما بعدها: فقد بين الله ﷻ بعد ذكره هذه الآيات أهوال هذا اليوم، وذكر أمثالًا من القوم الذين كذبوا بالبعث والنشور، فقال: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ۝٤﴾ (الحاقة: ٤)، والقارعة هي القيامة، ثم ذكر بعض أهوال هذا اليوم فقال: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ۝١٣﴾ (الحاقة: ١٣)، إلى قوله ﴿فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ ۝٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ ۝٣٦ لَّا يَأۡكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ ۝٣٧﴾ (الحاقة٣٧: ٣٥)، وسرد في هذه الآيات كيفية بدء هذا اليوم، وذكر فيه حال أصحاب اليمين، وحال أصحاب الشمال، فكيف لا تكون هذه الآيات ليس لها علاقة بما بعدها، إن هذامن سفه العقول، وانعدام الفهم والتدبر.

---

(١) فتح القدير (٥/ ٣٩٦).

ثم إن الله ﷻ لا يقول شيئًا عبثًا، أو ليس له معنى، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ (الأنبياء١٨: ١٦).

الوجه الثالث: وماذا عن الكلام الغريب الموجود في الكتاب المقدس؟

جاء في سفر (العدد٥/ ٢٢): وَيَدْخُلُ مَاءُ اللَّعْنَةِ هذَا فِي أَحْشَائِكِ لِوَرَمِ الْبَطْنِ، وَلإِسْقَاطِ الْفَخْذِ. فَتَقُولُ الْمَرْأَةُ: آمِينَ، آمِينَ.

وفي سفر (الرؤيا ٦/ ٦): وَسَمِعْتُ صَوْتًا فِي وَسَطِ الأَرْبَعَةِ الْحَيَوَانَاتِ قَائِلًا: (ثُمْنِيَّةُ قَمْحٍ بِدِينَارٍ، وَثَلاَثُ ثَمَانِيِّ شَعِيرٍ بِدِينَارٍ. وَأَمَّا الزَّيْتُ وَالْخَمْرُ فَلاَ تَضُرَّهُمَا

وفي (الرؤيا ١٧/ ٦): وَرَأَيْتُ الْمَرْأَةَ سَكْرَى مِنْ دَمِ الْقِدِّيسِينَ وَمِنْ دَمِ شُهَدَاءِ يَسُوعَ. فَتَعَجَّبْتُ لَمَّا رَأَيْتُهَا تَعَجُّبًا عَظِيمًا!.

* * * *

سورة نوح

شبهة: أن نوحًا عليه السلام يدعو للضلال.

نص الشبهة:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ (نوح: ٢٤) فكيف يدعو نوح ربه أن يزيد الناس ضلالًا؟!

والتاريخ المقدس يشهد له: "كان نوح رجلًا بارًا كاملًا في أجياله"(تكوين: ٦/ ٩) ".

وأنه كان كارزًا للبر" (٢بطرس: ٢/ ٥).

كما أن الله ليس مصدرًا للضلال، ونوح نفسه لا يحب الضلال.

والجواب عليه من وجوه:

الوجه الأول: الأصل في دعوة الأنبياء هداية الناس.

الوجه الثاني: مدة دعوة نوح عليه السلام قومه استمرت دعوته تسعمائة وخمسين (٩٥٠) سنة.

الوجه الثالث: بيان معاملة قوم نوح له عند دعوتهم إلى عبادة الله وحده وطاعته.

الوجه الرابع: شكاية نوح عليه السلام قومه لربه، وبيان إعراضهم مع علم الله بذلك.

الوجه الخامس: بيان تكذيب قوم نوح له، وبيان عاقبة المكذبين.

الوجه السادس: ما دعا نوح على قومه إلا بعد أن أعلمه الله أنهم لا يؤمنون.

الوجه السابع: أن للآية الكريمة عدة معانٍ يصح حملُ الآية على أي معنى منها.

الوجه الثامن: فضل نوح عليه السلام.

الوجه التاسع: دعاء الأنبياء على الظالمين في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: الأصل في دعوة الأنبياء هداية الناس.

قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ (الكهف: ٥٦) وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ (الأنبياء: ٢٥) وقال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ (الأنعام: ٤٨، ٤٩).

الوجه الثاني: مدة دعوة نوح عليه السلام قومه استمرت دعوته تسعمائة وخمسين (٩٥٠) سنة قبل الطوفان.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ولم يستجيبوا ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ﴾ فمكث في قومه هذه المدة يدعوهم إلى الله ليلًا، ونهارًا، وسرًا، وجهارًا، ومع هذا ما زادهم ذلك إلا فرارًا عن الحق، وإعراضًا عنه وتكذيبًا له، وما آمن معه منهم إلا قليل[1].

وبعد هذه المدة الطويلة ما نجح فيهم البلاغ والإنذار[2].

الوجه الثالث: بيان معاملة قوم نوح له عند دعوتهم إلى عبادة الله وحده وطاعته.

وقد عاملوه بأشياء:

أولها: قوله تعالى: ﴿جَعَلُوٓا۟ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ والمعني أنهم بلغوا في التقليد إلى حيث جعلوا أصابعهم في آذانهم لئلا يسمعوا الحجة والبينة.

ثانيها: قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾ أي: تغطوا بها، إما لأجل أن لا يبصروا وجهه، كأنهم لم يجوزوا أن يسمعوا كلامه، ولا أن يروا وجهه، وإما لأجل المبالغة في أن لا يسمعوا؛ فإنهم إذا جعلوا أصابعهم في آذانهم، ثم استغشوا ثيابهم مع ذلك، صار المانع من السماع أقوى.

وثالثها: قوله: ﴿وَأَصَرُّوا۟﴾ والمعنى أنهم أصروا على مذهبهم، أو على إعراضهم عن سماع دعوة الحق.

ورابعها: قوله: ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾ أي: عظيمًا بالغًا إلى النهاية القصوى[3].

بل كانت مراتب دعوته ثلاث: فبدأ بالمناصحة في السر، فعاملوه بالأمور الأربعة ﴿جَعَلُوٓا۟ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾، ثم ثنى بالمجاهرة،

---

(١) تفسير ابن كثير (١٠/ ٤٩٨).

(٢) تفسير ابن كثير (١٠/ ٤٩٩).

(٣) تفسير الفخر الرازي (٣٠/ ١٣٧، ١٣٦).

فلما لم يؤثر جمع بين الإعلان والإسرار، وكلمة ﴿ ثُمَّ ﴾ دالة على تراخي بعض هذه المراتب عن بعض إما بحسب الزمان، أو بحسب الرتبة؛ لأن الجهار أغلظ من الإسرار، والجمع بين الإسرار و الجهار أغلظ من الجهار وحده[١].

ثم بعد ذلك سخروا منه، كانوا يرونه يعمل السفينة، فيقولون: يا نوح صرت بعد النبوة نجارًا[٢]، كما قال الله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾ (هود: ٣٨).

الوجه الرابع: شكاية نوح عليه السلام قومه لربه، وبيان إعراضهم مع علم الله بذلك.

قال تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ (نوح: ٢١- ٢٥).

يقول تعالى مخبرًا عن نوح عليه السلام أنه أنهى إليه، وهو العليم الذي لا يعزب عنه شيء، أنه مع البيان المتقدم ذكره، والدعوة المتنوعة المشتملة على الترغيب تارة والترهيب أخرى، أنهم عصوه وكذبوه وخالفوه، واتبعوا أبناء الدنيا ممن غفل عن أمر الله، ومتع بمال وأولاد، وهي في نفس الأمر استدراج وإنظار لا إكرام؛ ولهذا قال: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾ ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾ قال مجاهد: ﴿كُبَّارًا﴾ أي: عظيمًا، وقال ابن زيد ﴿كُبَّارًا﴾ أي: كبيرًا، وأي: باتباعهم في تسويلهم لهم بأنهم على الحق والهدى[٣].

(وَوَدًّا وَسُوَاعًا وَيَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا) أسماء أصنامهم التي كانوا يعبدونها من دون الله.

وقصتهم ذكرها البخاري رحمه الله في صحيحه (٤٩٢٠) فدعا على قومه لتمردهم وكفرهم وعنادهم، وبسبب كثرة ذنوبهم وعتوهم وإصرارهم على كفرهم ومخالفتهم رسولهم[٤]. فدعاهم إلى الله ونبههم على هذه الدلائل الظاهرة، فلم يستجيبوا فحكى عنهم

---

(١) تفسير الفخر الرازي (٣٠/ ١٣٧، ١٣٦).

(٢) تفسير فتح البيان لصديق حسن خان (٦/ ١٧٧).

(٣) تفسير ابن كثير (١٤/ ١٤٢) باختصار.

(٤) تفسير ابن كثير (١٤/ ١٤٤).

أنواع قبائحهم وأقوالهم وأفعالهم، فقال تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ وذلك لأنه قال في أول السورة: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣﴾ فكأنه قال: قلت لهم أطيعون فهم عصوني، ثم قال عليه السلام: ﴿وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ فذكر في الآية الأولى أنهم عصوه وفي هذه الآية أنهم ضموا إلى عصيانه معصية أخرى وهي طاعة رؤسائهم الذين يدعونهم إلى الكفر، ولم يكتفوا بذلك بل: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ۝٢٢ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ۝٢٣ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ۝٢٤﴾ **فالمتبوعين مكروا وقالوا للأتباع:** ﴿لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ و﴿كُبَّارًا﴾ مبالغة في الكبر.

المكر الكبار هو أنهم قالوا لأتباعهم: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا﴾ فهم منعوا القوم عن التوحيد، وأمروهم بالشرك، ولما كان التوحيد أعظم المراتب لا جرم كان المنع منه أعظم الكبائر فلهذا وصفه الله تعالى بأنه كبار، واستدل بهذا من فضل علم الكلام على سائر العلوم، فقال: الأمر بالشرك كبار في القبح والخزي، فالأمر بالتوحيد والإرشاد وجب أن يكون كبارًا في الخير والدين.

وسمي الله فعلهم ﴿مَكْرًا﴾ لوجهين:

الأول: لما في إضافة الإلهية إليهم من الحيلة الموجبة لاستمرارهم على عبادتها، كأنهم قالوا: هذه الأصنام آلهة لكم، وكانت آلهة لآبائكم، فلو قبلتم قول نوح لاعترفتم على أنفسكم بأنكم كنتم جاهلين ضالين كافرين، وعلى آبائكم بأنهم كانوا كذلك، ولما كان اعتراف الإنسان على نفسه، وعلى جميع أسلافه بالقصور والنقص والجهل شاقًا شديدًا، صارت الإشارة إلى هذه المعاني بلفظ آلهتكم صارفًا لهم عن الدين، فلأجل اشتمال هذا الكلام على هذه الحيلة الخفية سمى الله كلامهم ﴿مَكْرًا﴾.

الثاني: أنه تعالى حكى عن أولئك المتبوعين أنهم كان لهم مال وولد، فلعلهم قالوا لأتباعهم: إن آلهتكم خير من إله نوح، لأن آلهتكم يعطونكم المال والولد، وإله نوح لا يعطيه شيئًا لأنه فقير، فبهذا المكر صرفوهم عن طاعة نوح، وهذا مثل مكر فرعون إذ قال:

﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ وقال: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾[1].

ومع كل هذا كان الدعاء على الظالمين، ولو كان في هذا الدعاء إجحافًا لما استجاب الله له، فهل يقر الله الباطل ويعلي شأنه؟

الوجه الخامس: بيان تكذيب قوم نوح له، وبيان عاقبة المكذبين.

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ (الشعراء: ١٠٥)، وقال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾﴾ (الفرقان: ٣٧)، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ (القصص: ٥٩).

والله ﷻ لا يهلك إلا بالعصيان؛ قال تعالى: ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾﴾ (الحاقة: ١٠)، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤١﴾﴾ (الأنعام: ١٠)، وغير ذلك من الآيات؛ وهي كثيرة.

الوجه السادس: ما دعا نوح على قومه إلا بعد أن أعلمه الله أنهم لا يؤمنون.

فهذا دعاء عليهم بعدما أعلم الله نوحًا أنهم لا يؤمنون؛ وهو قوله: ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ﴾ (هود: ٣٦)[2].

الوجه السابع: أن للآية الكريمة عدة معانٍ يصح حملُ الآية على أي معنى منها.

الأول: والضلال، مستعار لعدم الاهتداء إلى طرائق المكر الذي خشي نوح غائلته في قوله: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾ (نوح: ٢٢) أي حُلْ بيننا وبين مكرهم ولا تزدهم إمهالًا في طغيانهم علينا إلاّ أن تضللهم عن وسائله، فيكون الاستثناء من تأكيد الشيء بما يشبه ضده[3].

---

(١) تفسير الفخر الرازي (٣٠/ ١٤٢: ١٤١) بتصرف يسير.

(٢) تفسير البغوي (٨/ ٢٣٣)، تفسير الخازن (٤/ ٣٤٧).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢١١).

ثانيًا: ﴿إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ أي: إلا عذابًا، قال ابن بحر: واستشهد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ ۝٤٧﴾ (القمر: ٤٧)[(١)].

ويجوز أن يكون الضلال أطلق على العذاب المسبب عن الضلال؛ أي: في عذاب يوم القيامة وهو عذاب الإهانة والآلام[(٢)].

ثالثًا: يقول نوح عليه السلام: ولا تزد الظالمين أنفسهم بكفرهم بآياتنا إلا ضلالًا؛ أي: إلا طبعًا على قلبه حتى لا يهتدي للحق[(٣)].

رابعًا: قيل: إنما الضلال الضياع والهلاك في أمر الدنيا وما يتعلق بها لا في أمر الآخرة[(٤)].

خامسًا: ﴿إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ أي: خذلانًا واستدراجًا[(٥)]. والمقصود: أن يخذلوا ويمنعوا الألطاف لتصميمهم على الكفر ووقوع اليأس من إيمانهم، وذلك حسن جميل يجوز الدعاء به، بل لا يحسنَ الدعاء بخلافه[(٦)].

سادسًا: أو أراد إبهام طرق النفع عليهم حتى تنكسر شوكتهم وتلين شكيمتهم نظير قول موسى عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ (يونس: ٨٨) وليس المراد بالضلال: الضلال عن طريق الحق والتوحيد لظهور أنه ينافي دعوة نوح قومه إلى الاستغفار والإيمان بالبعث؛ فكيف يسأل الله أن يزيدهم منه[(٧)].

سابعًا: ويجوز أن تكون جملةً معترضة؛ وهي من كلام الله تعالى لنوح فتكون الواو

---

(١) تفسير القرطبي (١٨/ ٢٩٧)، التفسير الكبير للرازي (٣٠/ ١٤٥)، واللباب (١٥/ ٤٨٩).

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٩/ ٢١١).

(٣) تفسير الطبري (٢٩/ ١٠٠)، والخازن (٤/ ٣٤٧)، والبغوي (٤/ ٤٠٠).

(٤) تفسير الخازن (٤/ ٣٤٧)، البحر المحيط (٨/ ٣٩٦)، تفسير الكشاف (٤/ ٦٢٠)، تفسير الآلوسي (٢٩/ ٧٨)، تفسير أبي السعود (٩/ ٤١).

(٥) تفسير القاسمي (١٦/ ٣٠٠).

(٦) تفسير الكشاف للزمخشري (٤/ ٦٢٠) ورد عليه المعلق بأن هذا مبني على مذهب المعتزلة أنه تعالى لا يريد الشر ولا يفعله.

(٧) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٩/ ٢١١).

اعتراضية، ويقدر قول محذوف: وقلنا لا تزد الظالمين، والمعنى: ولا تزد في دعائهم فإن ذلك لا يزيدهم إلاّ ضلالًا، فالزيادة منه تزيدهم كفرًا وعنادًا، وبهذا يبقى الضلال مستعملًا في معناه المشهور في اصطلاح القرآن، فصيغة النهي مستعملة في التأييس من نفع دعوته إياهم، وأعلَمَ الله نوحًا أنه مهلكهم بقوله: ﴿أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ (نوح: ٢٥) وهذا في معنى قوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ (هود: ٣٦، ٣٧)[١].

ثامنًا: أن يكون المعنى كما هو على ظاهره. وإنما دعا عليهم بعد أن أعلمه الله أنهم لا يؤمنون وهو قوله تعالى: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ (هود: ٣٦)[٢].

وهذا دعاء منه على قومه لتمردهم وكفرهم وعنادهم كما دعا موسى على فرعون وملئه في قوله: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (يونس: ٨٨)، وقد استجاب الله لكل من النبيين في قومه وأغرق أمته بتكذيبهم لما جاءهم به[٣]. وإنما دعا ذلك ليأسه من إيمانهم[٤].

ومع هذا فقد ثبت في حديث الشفاعة في الصحيح أنه يقول: إني دعوت على أهل الأرض دعوة لم أؤمر بها، فإنه وإن لم ينه عنها فلم يأمر بها، فكان أولى أن لا يدعو إلا بدعاء مأمور به واجب أو مستحب، فإن الدعاء من العبادات فلا يعبد الله إلا بمأمور به واجب أو مستحب، وهذا لو كان مأمورًا به لكان شرعًا لنوح، ثم ننظر في شرعنا هل نسخه أم لا؟ [٥]

الوجه الثامن: فضل نوح عليه السلام.

١- أنه أول رسول إلى أهل الأرض بعد آدم عليه السلام[٦].

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٩/ ٢١١).

(٢) تفسير الخازن (٤/ ٣٤٧)، مجموع فتاوى ابن تيمية (٨/ ٣٣٦).

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٦٨).

(٤) تفسير القاسمي (١٦/ ٣٠٠).

(٥) فتاوى ابن تيمية (٨/ ٣٣٦).

(٦) تفسير ابن كثير (٢/ ١٥٨).

٢-قال عنه رب العالمين: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبله هديناه كما هديناه، ووهبنا له ذرية صالحة، وكل منهما له خصوصية عظيمة، أما نوح عليه السلام، فإن الله تعالى لما أغرق أهل الأرض إلا من آمن به - وهم الذين صحبوه في السفينة- جعل الله ذريته هم الباقين، فالناس كلهم من ذرية نوح، وكذلك الخليل إبراهيم عليه السلام لم يبعث الله عز وجل بعده نبيًا إلا من ذريته، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ (العنكبوت: ٢٧)، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ (الحديد: ٢٦)، وقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ (٥٨)﴾ (مريم: ٥٨)[1].

٣-دعوته لقومه لخوفه عليهم ولحب الخير لهم. قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (الأعراف: ٥٩).

وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ (الشعراء١٠: ٧).

٤-من جزاء الله لنوح عليه السلام ثناء الناس عليه. قال تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (٧٩) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١)﴾ (الصافات٧٩: ٨١)

قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (٧٩)﴾ مفسر لما أبقى عليه من الذكر الجميل والثناء الحسن أنه يسلم عليه في جميع الطوائف والأمم. ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: هكذا نجزي من أحسن من العباد في طاعة الله، نجعل له لسانَ صدْق يذكر به بعده بحسب مرتبته في ذلك، ثم قال: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: المصدقين الموحدين الموقنين[2].

أثبت الله التسليم على نوح وأدامه في الملائكة والثقلين فيسلمون عليه بكليتهم، ثم إنه

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٠٨).

(٢) تفسير ابن كثير (٧/ ٢٢)، وانظر تفسير الطبري (٢١/ ٥٩).

تعالى لما شرح تفاصيل إنعامه عليه قال: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ والمعنى: أنا إنما خصصنا نوحًا عليه السلام بتلك التشريفات الرفيعة من جعل الدنيا مملوءة من ذريته ومن تبقية ذكره الحسن في ألسنة جميع العالمين لأجل أنه كان محسنًا، ثم علل كونه محسنًا بأنه كان عبدًا لله مؤمنًا، والمقصود منه بيان أن أعظم الدرجات وأشرف المقامات الإيمان بالله والانقياد لطاعته[1].

٦- عن عبد الله بن عمرو ﷺقال: كنا عند رسول الله ﷺ فجاء رجل من أهل البادية عليه جبة سيجان مزرورة بالديباج فقال: ألا إن صاحبكم هذا قد وضع كل فارس ابن فارس. قال: يريد أن يضع كل فارس ابن فارس ويرفع كل راع ابن راع. قال: فأخذ رسول الله ﷺ بمجامع جبته وقال: ألا أرى عليك لباس من لا يعقل. ثم قال: إن نبي الله نوحًا عليه السلام لما حضرته الوفاة قال لابنه: إني قاصٍ عليك الوصية؛ آمرك باثنتين، وأنهاك عن اثنتين: آمرك بلا إله إلا الله؛ فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة ووضعت لا إله إلا الله في كفة رجحت بهن لا إله إلا الله، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة قصمتهن لا إله إلا الله وسبحان الله وبحمده؛ فإنها صلاة كل شيء، وبها يرزق الخلق، وأنهاك عن الشرك والكبر.

قال: قلت أو قيل يا رسول الله، هذا الشرك قد عرفناه فما الكبر؟ قال: أن يكون لأحدنا نعلان حسنتان لهما شراكان حسنان؟ قال: "«لا»، قال: هو أن يكون لأحدنا حلة يلبسها؟ قال: «لا»، قال: الكبر هو أن يكون لأحدنا دابة يركبها؟ قال: «لا»، قال: أفهو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه؟ قال: «لا»، قيل: يا رسول الله، فما الكبر؟ قال: «سفه الحق وغمص الناس»"[2].

أما قولهم عن الله: ليس مصدرًا للضلال؛ فهذا حقٌّ أريد به باطل، وقد فصل ذلك في شبه العقيدة فانظره في محله.

الوجه التاسع: دعاء الأنبياء على الظالمين في الكتاب المقدس.

وأخيرًا: فما قولكم في دعاء الأنبياء على الظالمين كما في التوراة.

ففي المزمور الثامن عشر (١٨/ ٤٨)"من الرجل الظالم تنقذني" وأيضًا (١٨/ ٤٢) "مثل طين الأسواق اطرحهم"

(١) تفسير الرازي (١٣/ ١٣٠).

(٢) مسند أحمد (٢/ ١٦٩)، صححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٦٢٩٥).

وفي الإنجيل يقول المسيح لله عن الذين آمنوا به في (يوحنا ١٧/ ١١) "أحفظهم في أسمك الذين أعطيتني" ولم يدع للكل.

ثم ماذا عن هذه الأمور التي تزعمون أن نوحًا ﷺ وقع فيها هل تصدقون أن نوحًا يسكر ويتعرى ويتكلم بالفواحش بل ويقع عليه ابنه الصغير بالفاحشة بل ويلعن كل أولاد كنعان.

والإجابة اقرأ عن هذه المآسي التي يصفون بها نبي الله نوحًا ﷺ في الكتاب المقدس لتعلم الفارق بين الإسلام وغيره.

ففي سفر التكوين (٩/ ٢١: ٢٧): **"وَشَرِبَ مِنَ الْخَمْرِ فَسَكِرَ وَتَعَرَّى دَاخِلَ خِبَائِهِ. ٢٢ فَأَبْصَرَ حَامٌ أَبُو كَنْعَانَ عَوْرَةَ أَبِيهِ، وَأَخْبَرَ أَخَوَيْهِ خَارِجًا. ٢٣ فَأَخَذَ سَامٌ وَيَافَثُ الرِّدَاءَ وَوَضَعَاهُ عَلَى أَكْتَافِهِمَا وَمَشَيَا إِلَى الْوَرَاءِ، وَسَتَرَا عَوْرَةَ أَبِيهِمَا وَوَجْهَاهُمَا إِلَى الْوَرَاءِ. فَلَمْ يُبْصِرَا عَوْرَةَ أَبِيهِمَا. ٢٤ فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ نُوحٌ مِنْ خَمْرِهِ، عَلِمَ مَا فَعَلَ بِهِ ابْنُهُ الصَّغِيرُ، ٢٥ فَقَالَ: «مَلْعُونٌ كَنْعَانُ! عَبْدَ الْعَبِيدِ يَكُونُ لإِخْوَتِهِ». ٢٦ وَقَالَ: «مُبَارَكٌ الرَّبُّ إِلهُ سَامٍ. وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْدًا لَهُمْ. ٢٧ لِيَفْتَحِ اللهُ لِيَافَثَ فَيَسْكُنَ فِي مَسَاكِنِ سَامٍ، وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْدًا لَهُمْ»**.

انظر إلى هذا السفه الذي تطاولوا به على أنبياء الله ورسله وحاشا وكلا أن يقوم نبي الله نوح ﷺ بمثل هذه الخبائث التي افتروا به عليه في كتابهم.

لتعلم أيها المنصف أن مثل هذا لا يكون إلا في كتاب حُرِّفَ، حرفه أقوام لا يعرفون شيئًا عن أنبياء الله.

* * *

سورة البلد

شبهة: القسم.

نص الشبهة:

قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١﴾ حيث أخبر ألا يقسم، ثم أقسم في آية أخرى ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾، فكيف توجه هذا التناقض؟

والجواب على ذلك كما يلي من وجوه:

الوجه الأول (**إثبات قراءة**):

قرأ قنبل: (لأقسم بيوم القيامة) بغير ألف بعد اللام، وكذا روى النقاش عن أبي ربيعة عن البزي والباقون بألف ولا خلاف في الثاني.[1]

الوجه الثاني: إن كلمة (لا) في قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾ هي نافية على معناها غير أن في الكلام مجازًا تركيبًا، وتقديره أن نقول: (لا) في النفي ههنا كما في قول القائل: لا تسألني عما جرى عليه أعظم من أن يشرح، فلا ينبغي أن يسأله فإن غرضه من السؤال لا يحصل ولا يكون غرضه من ذلك النهي إلا بيان عظمة الواقعة، ويصير كأنه قال: " جرى على أمر عظيم ويدل عليه أن السامع يقول له ماذا جرى عليك ولو فهم من حقيقة كلامه النهي عن السؤال لما قال ماذا جرى عليك فيصح منه أن يقول أخطأت حيث منعتك عن السؤال ثم سألتني وكيف لا وكثيرًا ما يقول ذلك القائل الذي قال لا تسألني عند سكوت صاحبه عن السؤال أولا تسألني ولا تقول ماذا جرى عليك ولا يكون للسامع أن يقول إنك منعتني عن السؤال كل ذلك تقرر في أفهامهم أن المراد تعظيم الواقعة لا النهي.

إذا اعلم هذا فنقول في القسم مثل هذا موجود من أحد وجهين إما لكون الواقعة في غاية الظهور فيقول لا أقسم بأنه على هذا الأمر لأنه أظهر من أن يشهر، وأكثر من أن ينكر، فيقول لا أقسم ويريد به القسم ونفيه وإنما يريد الإعلام بأن الواقعة ظاهرة وإما

---

(١) التيسير في القراءات السبع لأبي عمرو الداني (١٧٣)، وانظر الحجة في القراءات السبع لابن خالويه (٢٣٤)، والسبعة في القرآن لابن مجاهد (٦٦١).

لكون المقسم به فوق ما يقسم به، والمقسم صار الأمير بل برأس السلطان ويقول لا أقسم بكذا أمر مريد لكونه في غاية الجزم.

والثاني: يدل عليه أن هذه الصيغة لم ترد في القرآن والمقسم به هو الله تعالى أو صفة من صفاته وإنها جاءت أمور مخلوقه والأول لا يرد عليه إشكال إن قلنا أن المقسم به في جميع المواضع رب الأشياء(١).

الوجه الثالث: أن (لا) على عادة العرب، فإنها ربها لفظت بلفظة (لا) من غير قصد معناها الأصلي، بل لمجرد تقوية الكلام وتوكيد كقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ يعني: أن تتبعني وقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ (طه: ٩٢- ٩٣) أي: أن تسجد.

وكقول أبي النجم: فما اللوم البيض ألا تسخرا لما رأين الشمط القفندرا. (٢)

يعني: أن تسخر.

وقول امرىء القيس:

فلا وأبيك ابنه العامري   لا يدعى القوم أني أفر

يعني: وأبيك(٣).

الوجه الرابع:

في قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾ (القيامة: ١-٢).

وقوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾﴾ فإنها زيدت في الكلام على نية الرد على المكذبين، كما في الكلام لا والله ماذا كما تقول، ولو قلت: والله ماذا كما تقول لكان غير أن إدخالك (لا) في الكلام أولا أبلغ في الرد. (٤)

---

(١) التفسير الكبير للرازي (٢٩/ ١٨٧)، وانظر: الكشاف الزمخشري (٤/ ٦٥٨).

(٢) انظر لسان العرب (٩٢- ٩٣).

(٣) دفع إيهام الاضطراب للشنقيطي (٢٦٣)، وانظر معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٥٦/ ٢٥١)، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي زمنين (٥/ ٦٣)، والمقتضب المبرد (١/ ٨٩).

(٤) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (٢٥٩)، وانظر جامع البيان للطبري (٢٩/ ١٧٥)، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج (٥/ ٢٥١)، والحجة في القرآن لابن خالويه (٢٣٤).

زيادة وتوضيح: جاء القرآن بالرد على الذين أنكروا البعث والجنة والنار فجاء الإقسام بالرد عليهم في كثير من الكلام المبتدأ منه، وغير المبتدأ كقولك في الكلام إلا والله لا أفعل ذاك جعلوا (لا) وإن رأيتها مبتدأة ردًا الكلام قد كان مضى، فلو ألقيت (لا) مما ينوى به الجواب لم يكن بين اليمين التي تكون جوابًا واليمين التي تستأنف فرق، ألا ترى أنك تقول مبتدئًا: والله إن الرسول لحق، فإذا قلت: لا والله إن الرسول لحق فكأنك أكذبت قومًا أنكروه فهذه جهة لامع الإقسام وجميع الأيمان في كل موضع ترى فيه (لا) مبتدأ بها، وهو كثير في الكلام.[1]

رد هذا القول بعض العلماء فقال: لا يجوز لأن في ذلك حذف اسم (لا) وخبرها، وليس جوا ب السائل سأل فيحتمل ذلك نحو قوله: لا، لمن قال: هل من رجل في الدار؟[2] ويقال أيضًا: هذا القول ليس بوجيه لقوله تعالى في سورة القيامة: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾: يدل على أنه لم يرد الإثبات المؤتنف بعد النفي بقوله ﴿أُقۡسِمُ﴾.[3]

الوجه الخامس

أنها لام أشبعت فتحتها فتولدت منها ألف كقوله: (أعوذ بالله من العقراب) يريد من العقرب، وهذا وإن كان قليلًا فقد جاء نظيره في قوله تعالى: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ (إبراهيم: ٣٧) بياء بعد الهمزة وذلك في قراءة هشام، فالمعنى (فلا أقسم) كقراءة الحسن وعيسى.[4]

زيادة وتوضيح: إن الام لام الابتداء، أشبعت فتحتها والعرب ربما أشبعت الفتحة بألف، والكسرة بياء، والضمة بواو.

فمثاله في الفتحة: قول عبد يغوث بن وقاص الحارثي:

وتضحك مني شيخة عبشمية كأن لم ترى قبلي أسيرًا يمانيًا[5]

فالأصل: كأن لم تر ولكن الفتحة أشبعت.

---

(١) معاني القرآن للفراء (٣/ ٢٠٧).

(٢) البحر المحيط لأبي حيان (٨/ ٢١٢).

(٣) دفع إيهام الاضطراب للشنقيطي (٢٦٥).

(٤) البحر المحيط لأبي حيان (٨/ ٢١٢).

(٥) لسان العرب لابن منظور (٣/ ٥١٧).

وليس إشباع الفتحة هنا من ضرورة الشعر لتصريح علماء اللغة العربية بأن إشباع الحركة بحرف يناسبها أسلوب من أساليب اللغة العربية، ولأنه مسموع في النثر كقولهم: كلكال، وخاتام يعنون: كلكلًا وخاتمًا.

ومثال إشباع الكسرة بالياء قول قيس بن زهير:

ألم يأتيك والأنباء تنمى   بما لاقت لبون بني زياد. [١]

ويدل لهذا الوجه قراءة قنبل: (لأقسم بهذا البلد) بلام الابتداء. [٢]

الوجه السادس:

(لا) استفتاح كلام بمنزلة (ألا) وأنشدوا على ذلك:

فلا وأبيك ابنة العامري   لا يعلم القوم أني أفر. [٣]

الوجه السابع: (في قراءة لأقسم):

إن اللام من لام توكيد دخلت على الفعل المضارع كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾. [٤]

زيادة وتوضيح: (لأقسم) على أن اللام للابتداء، وأقسم خبر مبتدأ محذوف، ومعناه لأنا أقسم ويعضده أنه في مصحف عثمان بغير ألف واتفقوا في قوله. [٥]

الوجه الثامن: أن اللام لام القسم[٦]، وأقسم فعل حال. [٧]

ورد بعض العلماء هذا الوجه فقال: طعن أبو عبيدة في هذه القراءة وقال: لو كان المراد هذا لقال: لأقسمن، لأن العرب لا تقول لأفعل كذا، وإنما يقولون: لأفعلن كذا. [٨]

---

(١) لسان العرب لابن منظور (٥/ ٧٥).

(٢) دفع إيهام الاضطراب للشنقيطي (٢٦٦).

(٣) المحرر الوجيز لابن عطية (٥/ ٤٠١)

(٤) إملاء ما منَّ به الرحمن (٢/ ٢٠٧).

(٥) التفسير الكبير للرازي (٣٠/ ٢١٥)، وانظر: معاني القرآن الكريم للفراء (٣/ ٢٠٧)، والكشاف للزمخشري (٤/ ٦٥٩).

(٦) إملاء ما منّ به الرحمن للعكبري (٢/ ٢٧٤).

(٧) البحر المحيط لأبي حيان (٨/ ٢١٣).

(٨) التفسير الكبير للفخر الرازي (٣٠/ ٢١٥).

زيادة وتوضيح: لا يصح أن تكون اللام لام القسم لأمرين:

أحدهما: أن حقها أن يقرن بها النون المؤكد والإخلال بها ضعيف قبيح.

الثاني: أن لأفعلن في جواب القسم للاستقبال وفعل القسم يجب أن يكون للحال. [١]

رد بعض العلماء هذا الرد فقالوا: لم تصحبها النون اعتمادًا على المعنى ولأن الله صدق فجاز أن يأتي من غير توكيد. [٢]

إن كان الفعل قد وقع وحلفت عليه لم تزد على اللام، وذلك قولك: والله لفعلت وسمعنا من العرب من يقول: (والله لكذبت، والله لكذب)، فالنون لا تدخل على فعل قد وقع، وإنما تدخل على غير الواجب. [٣]

* * *

(١) الكشاف للزمخشري (٤/ ٤٦٨).

(٢) إملاء ما منّ به الرحمن للعكبري (٢/ ٢٧٤)، وانظر البحر المحيط لأبي حيان (٨/ ١٣).

(٣) الكتاب لسيبويه (٣/ ١٠٥).

سورة الكوثر

شبهة: إن شانئك هو الأبتر

نص الشبهة:

الاعتراض على قوله سبحانه: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣﴾ (الكوثر: ٣)

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣﴾ (الكوثر٣: ١).

قالوا: هذه الآية نزلت في العاص بن وائل، وأن هذه السورة بما فيها من قوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣﴾، رد على ما قاله العاص بن وائل وهذا وما شابهها من آيات كما في سورة المسد في قول أبي لهب وأنه من أهل النار وقالوا: كيف يكون الرد بهذه الصورة، وأين تحمل الأذى، وكيف يكيل باللعنات لكل من تعرض لرسوله وأين هو من المسيح في معاملته للناس وأنه إذا شتم لم يشتم عوضًا.

والجواب على هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: بيان سبب نزول ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣﴾.

الوجه الثاني: بيان معنى الأبتر.

الوجه الثالث: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

الوجه الرابع: بيان بعض الأدلة على سعة رحمة الله سبحانه وتعالى.

الوجه الخامس: هدي النبي ﷺ فيمن تعرض له بالأذى.

الوجه السادس: أن من تكلم فيه النبي ﷺ بشيء من الذم تحول إلى رحمة وقربة من الله لصاحبه شريطة أن يكون مسلمًا.

الوجه السابع: جزاء من تعرض للنبي ﷺ بالأذى.

الوجه الثامن: بعض النماذج من السنة لمن تعرض للنبي بالأذى، وجزاؤه.

الوجه التاسع: بيان الحكمة في تولي رب العزة الدفاع عن نبيه ﷺ.

الوجه العاشر: بيان بعض صفات الرب في الكتاب المقدس وبعض نماذج الغلظة واللعنات في الحديث بالسب والشتم.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: بيان سبب نزول ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾.

اختلف أهل العلم بالتفسير في شأن من نزلت فيه هذه الآية على هذه الأقوال:

القول الأول: نزلت في العاص بن وائل. وهذا مروي عن جماعة.

١- ابن عباس قال: هو العاص بن وائل[1].

٢-قتادة، قال: هو العاص بن وائل قال إني شانئ محمدًا وهو أبتر ليس له عقب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾[2].

٣-سعيد بن جبير، قال: هو العاص بن وائل[3].

٤-يزيد بن رومان، قال: كان العاص بن وائل السهمي إذا ذكر رسول الله ﷺ قال دعوه فإنما هو رجل أبتر لا عقب له ولو هلك انقطع ذكره واسترحت منه، فأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾﴾ إلى آخر السورة[4].

٥-مجاهد، قال: هو العاص بن وائل قال أنا شانئ محمد ومن شنأه الناس فهو الأبتر[1].

---

(١) قلت مروي عنه من ثلاثة طرق:

الأول: من طريق محمد بن سعد قال ثني أبي قال ثني عمر قال ثني أبي عن أبيه عن ابن عباس محمد بن سعد لين الحديث، إسناد مسلسل بالضعفاء، كما هو معلوم، وقد سبق هذا الإسناد مرارًا.

الثاني: من طريق أبي صالح بازام، وهو ضعيف، وفيه أيضًا الكلبي متهم بالكذب، أخرجه ابن سعد في الطبقات ١/ ١٠٦.

الثالث: من طريق ميمون بن مهران، أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٣/ ١٢٨ وفيه محمد بن زياد كذاب، والفرات بن السائب منكر الحديث.

(٢) تفسير الطبري (٣٠/ ٣٢٩) بإسناد صحيح.

(٣) تفسير الطبري (٣٠/ ٣٢٩)، فيه هلال بن خباب صدوق تغير بآخره.

(٤) الواحدي في أسباب النزول (٩٣٥)، فيه أحمد بن عبد الجبار ضعيف.

٦-الكلبي، قال: هو العاص بن وائل قال أنا شانئ محمد وهو الأبتر وأنه ليس له عقب قال الله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ الحقير الرقيق الذليل[(٢)].

القول الثاني: نزلت في جماعة على رأسهم كعب بن الأشرف، ورُوي عن:

١- ابن عباس قال: لما قَدِم كعب بن الأشرف مكة أَتَوْه، فقالوا له: نحن أهل السقاية والسدانة، وأنت سيد أهل المدينة، فنحن خير أم هذا الصنبور المنبتر من قومه، يزعم أنه خير منا؟ قال: بل أنتم خير منه، فنزلت عليه: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ قال: وأنزلت عليه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ (النساء: ٥٠)[(٣)].

٢- عكرمة، قال في هذه الآيـــة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَـٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ۝٤٤﴾ (النساء: ٥٠)، قال: نزلت في كعب بن الأشرف أتى مكة فقال له أهلها نحن خير أم هذا الصنبور المنبتر من قومه ونحن أهل الحجيج وعندنا منحر البدن قال: أنتم خير فأنزل الله في هذه الآية، وأنزل في الذين قالوا للنبي ﷺ ما قالوا: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾[(٤)].

القول الثالث: نزلت في عمرو بن العاص. عن محمد بن علي قال: كان القاسم بن رسول الله ﷺ قد بلغ أن يركب الدابة، ويسير على النجيب، فلما قبضه الله قال عمرو بن العاص: لقد

---

(١) تفسير الطبري (٣٠/ ٣٢٩)، من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد، ثقة ربما دلس. قلت: ذكره ابن حجر في طبقات المدلسين في الطبقة الثالثة، وهذا معناه أنه لابد من التصريح بالسماع، وقد عنعن.

قال يحيى القطان لم يسمع التفسير من مجاهد وإنما نظر في كتاب القاسم بن أبي بزة فنسخه ودلسه عنه، التاريخ الكبير (٥/ ٢٣٣)، الثقات لابن حبان (٧/ ٥) طبقات المدلسين.

(٢) تفسير عبد الرزاق (٣٧٢٠)، والكلبي [محمد بن السائب الكلبي] متهم بالكذب.

(٣) تفسير الطبري (٣٠/ ٣٣٠)، وابن أبي حاتم في التفسير (٥٤٤٠)، من حديث ابن عدي، والحديث ذكر ابن كثير في تفسيره (١٤/ ٤٨٣) وعزاه إلى البزار وصحح إسناده.

(٤) تفسير الطبري (٣٠/ ٣٢٩: ٣٣٠) بإسناد صحيح.

أصبح محمد أبتر من ابنه، فأنزل الله تعالى على نبيه ﷺ ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١﴾ عوضًا يا محمد من نصيبك ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾[1].

قال البيهقي: كذا روي بهذا الإسناد وهو ضعيف والمشهور أن الآية نزلت في أبيه[2].

القول الرابع: نزلت في عقبة بن أبي معيط، عن شمر بن عطية قال: كان عقبة بن أبي معيط يقول: إنه لا يبقى للنبي ﷺ ولد، وهو أبتر فأنزل الله فيه هؤلاء الآيات: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ۝٣﴾ عقبة بن أبي معيط ﴿هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾[3].

هذه هي الأقوال المسندة في أسباب نزول هذه الآيات وثَم أقوال أخرى قيل نزلت في أبي جهل[4]، وقيل نزلت في أبي لهب[5].

وبعد أن ذكر الإمام الطبري -رحمه الله -جملة الأقوال في سبب نزول الآية:

وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر أن مبغض رسول الله ﷺ هو الأقل الأذل المنقطع عقبه فتلك صفة كل من أبغضه من الناس وإن كانت الآية نزلت في شخص بعينه[6].

قال الرازي: واعلم أنه لا يبعد في كل أولئك الكفرة أن يقولوا مثل ذلك فإنهم كانوا يقولون فيه ما هو أسوأ من ذلك ولعل العاص بن وائل كان أكثرهم مواظبة على هذا القول فلذلك اشتهرت الروايات بأن الآية نزلت فيه[7].

---

(١) البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٦٩).

(٢) فيه جابر الجعفي: ضعيف عند الجمهور ثم هو مدلس وقد عنعن، وفيه عمرو بن شمر الكوفي: قال أبو داود والنسائي متروك، وقال يحيى ليس بشيء وقال البخاري: منكر الحديث (ميزان الاعتدال ٣/ ٢٦٨).

(٣) تفسير الطبري (٣٠/ ٣٢٩)، وفيه ابن حميد أجمع أهل الرأي على ضعفه.

(٤) تفسير ابن أبي حاتم (١٩٥١٦) عن عطاء، تفسير ابن كثير (١٤/ ٤٨٣)، القرطبي (٢٠/ ٢٢٠)، الرازي (٣٢/ ١٣٣)، فتح القدير (٥/ ٧٣٣)، النكت والعيون (٦/ ٣٥٦).

(٥) تفسير ابن كثير (١٤/ ٤٨٣)، تفسير الرازي (٣٢/ ١٣٣)، النكت والعيون (٦/ ٣٥٦).

(٦) تفسير الطبري (٣٠/ ٣٣٠).

(٧) تفسير الرازي (٣٢/ ١٣٣).

الوجه الثاني: معنى الأبتر:

لغة: الأبتر من الرجال الذي لا ولد له [الذي لا عقب له]، الأبتر من الدواب المقطوع الذنب من أي موضع وكل أمر انقطع من الخير أثره فهو أبتر، والبَتْرُ القطع، والانبتار: الانقطاع(١).

شرعًا: المراد بالأبتر في الآية لا يخرج بعيدًا عن المعنى اللغوي، فقيل هو الحقير والذليل، وقيل هو الفرد الوحيد وقيل هو الذي لا خير فيه وقيل هو الذي لا عقب له أي مات ذكور أولاده.

ورجح غير واحد أن المراد بقوله ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾ أي المقطوع عنه الخير والذي خير فيه.

قال ابن عاشور: ومعنى الأبتر في الآية الذي لا خير فيه وهو رد لقول العاصي بن وائل أو غيره في حق النبي ﷺ فبهذا المعنى استقام وصف العاصي أو غيره بالأبتر دون المعنى الذي عناه هو حيث لمز النبي ﷺ بأنه أبتر، أي لا عقب له لأن العاصي بن وائل له عقب، فابنه عمرو الصحابي الجليل، وابن ابنه عبد الله بن عمرو بن العاص الصحابي الجليل ولعبد الله عقب كثير. فقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ اقتضت صيغة القصر إثبات صفة الأبتر لشانيء النبي ﷺ ونفيها عن النبي ﷺ وهو الأبتر بمعنى الذي لا خير فيه.

ولكن لما كان وصف الأبتر في الآية جيء به لمحاكاة قول القائل: محمد أبتر، إبطالًا لقوله ذلك، وكانَ عرفهم في وصف الأبتر أنه الذي لا عقب له تعيّن أن يكون هذا الإبطال ضربًا من الأسلوب الحكيم وهو تلقي السامع بغير ما يترقب بحمل كلامه على خلاف مراده تنبيهًا على أن الأحقَّ غيرُ ما عناه من كلامه كقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ (البقرة: ١٨٩)، وذلك بصرف مراد القائل عن الأبتر الذي هو عديم الابن الذكر إلى ما هو أجدر بالاعتبار وهو الناقص حظّ الخير، أي ليس ينقص للمرء أنه لا ولد له لأن ذلك لا يعود على المرء بنقص في صفاته وخلائقه وعقله. وهب أنه لم يولد له البتة وإنما اصطلح الناس على اعتباره نقصًا لرغبتهم في الولد بناء على ما كانت عليه أحوالهم الاجتماعية

---

(١) لسان العرب ١/ ٢٠٥، القاموس المحيط ١/ ٤٩٤، الصحاح ٢/ ٥٠٩: ٥٠٨.

من الاعتماد على الجهود البدنية فهم يبتغون الولد الذكور رجاء الاستعانة بهم عند الكبر وذلك أمر قد يعرض، وقد لا يعرض أو لمحبة ذِكر المرء بعد موته وذلك أمر وهمي، والنبي ﷺ قد أغناه الله بالقناعة، وأعزّه بالتأييد، وقد جعل الله له لسان صدق لم يجعل مثله لأحد من خلقه، فتمحض أن كماله الذاتي بما علمه الله فيه إذ جعل فيه رسالته، وأن كماله العرضي بأصحابه وأمته إذ جعله الله أولى بالمؤمنين من أنفسهم(١).

وعلى هذا المعنى فالآية ليست سبًا وشتمًا، وإنما كانت تسلية للنبي ﷺ لما حدث له وليس فيها شيء من السب كما أراد هو أن يسب النبي ﷺ ويعيره.

الوجه الثالث: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

فالآية تسلية للنبي ﷺ وليست ردًا على الشتم والسب، أي أن مبغضك هو المنقطع عن الخير على العموم فيعم خيري الدنيا والآخرة أو الذي لا عقب له أو الذي لا يبقى ذكره بعد موته.

وظاهر الآية العموم وأن هذا شأن كل من يبغض النبي ﷺ ولا ينافي ذلك كون سبب النزول هو العاص بن وائل فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فتوهموا لجهلهم أنه إذا مات بنوه ينقطع ذكره وحاشا وكلا بل قد أبقى الله ذكره على رؤوس الأشهاد وأوجب الله شرعه على رقاب العباد مستمرا على دوام الآباد إلى يوم الحشر والمعاد صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم التناد(٢).

وعلى هذا فالمعنى: أن الذي قالوه فيك كلام فاسد يضمحل ويفنى، وأما المدح الذي ذكرناه فيك فإنه باق على وجه الدهر، ومن ثم نزلت هذه السورة تمسح على قلبه ﷺ بالروح والندى وتقرر حقيقة الخير الباقي الممتد والذي اختاره له ربه وحقيقة الانقطاع والبتر المقدر لأعدائه. فالآية تدل عن حال ومآل من اتصف بهذا الوصف.

الوجه الرابع: بيان بعض الأدلة على رحمة الله سبحانه وتعالى من القرآن والسنة.

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/ ٥٧٦: ٥٧٧، تفسير الرازي ٣٢/ ١٣٣، النكت والعيون ٦/ ٣٥٦.

(٢) ابن كثير ١٤/ ٤٨٣، تفسير أبي مسعود ٩/ ٢٠٦: ٢٠٥، فتح القدير ٥/ ٧٣٠، فتح البيان ٣٠/ ٢٤٧، الكشاف ٤/ ٨٠٧، الرازي ٣٢/ ١٣٤، التحرير والتنوير ٣٠/ ٥٧٢.

أولًا: من القرآن:

فمن رحمته سبحانه وتعالى أن يقبل التوبة والعفو عن العاصين والمضطرين قال سبحانه: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾ (البقرة: ٣٧)، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٠﴾ (البقرة: ١٦٠: ١٥٩) قال سبحانه: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٤﴾ (الأنعام: ٥٤) وقال سبحانه: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٤﴾ (النور: ١٤) وقال سبحانه: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٥٠﴾ (الروم: ٥٠).[1]

ثانيًا: من السنة:

عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ سَبْيٌ فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنْ السَّبْيِ قَدْ تَحْلُبُ ثَدْيَهَا تَسْقِي إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ " أَتُرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ " قُلْنَا لَا وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ، فَقَالَ: " **للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا** "[2].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: " **لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي** "[3].

---

(١) للمزيد يراجع موسوعة نضرة النعيم.

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٩٩)، مسلم (٢٧٥٤).

(٣) أخرجه البخاري (٧٤٠٤)، مسلم (٢٧٥١).

وعَنْ سَلْمَانَ ﷺقَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " إِنَّ الله خَلَقَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِائَةَ رَحْمَةٍ كُلُّ رَحْمَةٍ طِبَاقَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فَجَعَلَ مِنْهَا فِي الْأَرْضِ رَحْمَةً فَبِهَا تَعْطِفُ الْوَالِدَةُ عَلَى وَلَدِهَا وَالْوَحْشُ وَالطَّيْرُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَكْمَلَهَا بِهَذِهِ الرَّحْمَةِ "(١).

و عن أبي سعيد الخدري، أن نبي الله ﷺقال: " كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب، فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفسا، فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله، فكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناسا يعبدون الله فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك، فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبًا مقبلًا بقلبه إلى الله، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرًا قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي، فجعلوه بينهم، فقال: قيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة "(٢).

وعَنْ حُذَيْفَةَ ﷺعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " كَانَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ يُسِيءُ الظَّنَّ بِعَمَلِهِ فَقَالَ لِأَهْلِهِ إِذَا أَنَا مُتُّ فَخُذُونِي فَذَرُّونِي فِي الْبَحْرِ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ فَفَعَلُوا بِهِ فَجَمَعَهُ الله ثُمَّ قَالَ: مَا حَمَلَكَ عَلَى الَّذِي صَنَعْتَ قَالَ مَا حَمَلَنِي إِلَّا مَخَافَتُكَ فَغَفَرَ لَهُ"(٣).

وعَنْ أَبِي مُوسَى ﷺقَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ لَا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى يَسْمَعُهُ مِنْ الله ﷻ إِنَّهُ يُشْرَكُ بِهِ وَيُجْعَلُ لَهُ الْوَلَدُ ثُمَّ هُوَ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ "(٤).

هذا وفي الباب أدلة كثيرة، وقد ذكرت مثل هذه الأدلة لأبين أن الله سبحانه تعالى يحب أن يعفو ويتجاوز لا يحب أن يأخذ ويبطش فهو العفو الغفور الرحمن الرحيم.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٠٠)، مسلم (٢٧٥٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٧٠)، مسلم (٢٧٦٦) واللفظ له.

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٨٠).

(٤) أخرجه البخاري (٦٠٩٩)، مسلم (٢٨٠٤).

الوجه الخامس: بيان بعض هدي النبي ﷺ وكيف كان خلقه لمن تعرض له بالأذى وكيف عامله ﷺ.

وفي هذا الوجه أسوق بعض الأمثلة لترى كيف كانت معاملة النبي ﷺ لمن تعرض له بالأذى سواء بالكلام أو بالفعل وتستطيع من خلالها أن ترى خلق النبي ﷺ وأنه كان لا ينتقم لنفسه وكان يصبر ويتحمل الأذى في مقابل دعوة الله ﷻ إلا أن تنتهك محارم الله فكان غضبه لله سبحانه.

النموذج الأول: في رحلته إلى الطائف:

أَنَّ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ حَدَّثَتْهُ [عروة] أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ قَالَ: " لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ فَنَادَانِي فَقَالَ إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ يَا مُحَمَّدُ فَقَالَ ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمْ الْأَخْشَبَيْنِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا"(١).

النموذج الثاني: الرجل الذي قال للنبي ﷺ اعدل:

في حديث جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ قَالَ أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِالْجِعْرَانَةِ مُنْصَرَفَهُ مِنْ حُنَيْنٍ وَفِي ثَوْبِ بِلَالٍ فِضَّةٌ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَقْبِضُ مِنْهَا يُعْطِي النَّاسَ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ اعْدِلْ قَالَ وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ لَقَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ دَعْنِي يَا رَسُولَ اللهِ فَأَقْتُلَ هَذَا الْمُنَافِقَ فَقَالَ مَعَاذَ اللهِ أَنْ يَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَنِّي أَقْتُلُ أَصْحَابِي إِنَّ هَذَا وَأَصْحَابَهُ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنْهُ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ"(٢).

النموذج الثالث: الرجل الذي أخذ سيف النبي ﷺ وهدده:

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٣١)، مسلم (١٧٩٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦١٠)، مسلم (١٠٦٣) واللفظ له.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله ﷺقَالَ: غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ غَزْوَةً قِبَلَ نَجْدٍ فَأَدْرَكَنَا رَسُولُ الله ﷺ فِي وَادٍ كَثِيرِ الْعِضَاهِ فَنَزَلَ رَسُولُ الله ﷺ تَحْتَ شَجَرَةٍ فَعَلَّقَ سَيْفَهُ بِغُصْنٍ مِنْ أَغْصَانِهَا قَالَ وَتَفَرَّقَ النَّاسُ فِي الْوَادِي يَسْتَظِلُّونَ بِالشَّجَرِ قَالَ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " إِنَّ رَجُلًا أَتَانِي وَأَنَا نَائِمٌ فَأَخَذَ السَّيْفَ فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِي فَلَمْ أَشْعُرْ إِلَّا وَالسَّيْفُ صَلْتًا فِي يَدِهِ فَقَالَ لِي مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي قَالَ قُلْتُ الله ثُمَّ قَالَ فِي الثَّانِيَةِ مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي قَالَ قُلْتُ الله قَالَ فَشَامَ السَّيْفَ فَهَا هُوَ ذَا جَالِسٌ ثُمَّ لَمْ يَعْرِضْ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ ".[(١)]

النموذج الرابع: الرجل الذي جذب النبي ﷺ من ورائه: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَذَبَهُ جَذْبَةً شَدِيدَةً حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ أَثَّرَتْ بِهِ حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَذْبَتِهِ ثُمَّ قَالَ مُرْ لِي مِنْ مَالِ الله الَّذِي عِنْدَكَ فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ فَضَحِكَ ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ.[(٢)]

الوجه السادس: أن من تكلم فيه النبي ﷺ بشيء فيه ذم فقد حول الله ذلك كرامة وقربة لصاحبه شريطة أن يكون مسلمًا، لأنه لا يستحق ذلك اللعن، وهذا من خصوصيته ﷺ.

حديث أبي هريرة ﷺ:

١-من طريق أَبِي صَالِحٍ عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **"اللهمَّ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ سَبَبْتُهُ أَوْ لَعَنْتُهُ أَوْ جَلَدْتُهُ فَاجْعَلْهَا لَهُ زَكَاةً وَرَحْمَةً"**[(٣)].

٢-من طريق الْأَعْرَجِ عَنْه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: **"اللهمَّ إِنِّي أَتَّخِذُ عِنْدَكَ عَهْدًا لَنْ تُخْلِفَنِيهِ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ فَأَيُّ الْمُؤْمِنِينَ آذَيْتُهُ شَتَمْتُهُ لَعَنْتُهُ جَلَدْتُهُ فَاجْعَلْهَا لَهُ صَلَاةً وَزَكَاةً وَقُرْبَةً تُقَرِّبُهُ بِهَا إِلَيْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"**[(٤)].

٣-من طريق سَالِمٍ مَوْلَى النَّصْرِيِّينَ عنه أن رَسُولَ الله ﷺ قال: **" اللهمَّ إِنَّمَا مُحَمَّدٌ بَشَرٌ يَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ وَإِنِّي قَدْ اتَّخَذْتُ عِنْدَكَ عَهْدًا لَنْ تُخْلِفَنِيهِ فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ آذَيْتُهُ أَوْ سَبَبْتُهُ**

---

(١) أخرجه البخاري (٤١٣٥)، مسلم (٨٤٣) واللفظ له.

(٢) أخرجه البخاري (٥٨٠٩)، مسلم (١٠٥٧).

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٠١).

(٤) أخرجه مسلم (٢٦٠١).

أَوْ جَلَدْتُهُ فَاجْعَلْهَا لَهُ كَفَّارَةً وَقُرْبَةً تُقَرِّبُهُ بِهَا إِلَيْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"(١).

من طريق سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ عَنْه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: " **اللهمَّ فَأَيُّمَا عَبْدٍ مُؤْمِنٍ سَبَبْتُهُ فَاجْعَلْ ذَلِكَ لَهُ قُرْبَةً إِلَيْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** "(٢).

حديث جابر بن عبد الله ﷺ قال سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: " **إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ وَإِنِّي اشْتَرَطْتُ عَلَى رَبِّي ﷻ أَيُّ عَبْدٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ سَبَبْتُهُ أَوْ شَتَمْتُهُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ لَهُ زَكَاةً وَأَجْرًا** "(٣)

حديث أنس بن مالك ﷺ، قال: كانت عند أم سليم يتيمة، وهي أم أنس، فرأى رسول الله ﷺ اليتيمة، فقال: " آنت هيه؟ لقد كبرت، لا كبر سنك " فرجعت اليتيمة إلى أم سليم تبكي، فقالت أم سليم: ما لك؟ يا بنية قالت الجارية: دعا علي نبي الله ﷺ، أن لا يكبر سني، فالآن لا يكبر سني أبدا، أو قالت قرني فخرجت أم سليم مستعجلة تلوث خمارها، حتى لقيت رسول الله ﷺ، فقال لها رسول الله ﷺ: " ما لك يا أم سليم " فقالت: يا نبي الله أدعوت على يتيمتي قال: " وما ذاك؟ يا أم سليم " قالت: زعمت أنك دعوت أن لا يكبر سنها، ولا يكبر قرنها، قال فضحك رسول الله ﷺ، ثم قال: " يا أم سليم أما تعلمين أن شرطي على ربي، أني اشترطت على ربي فقلت: **إنما أنا بشر، أرضى كما يرضى البشر، وأغضب كما يغضب البشر، فأيما أحد دعوت عليه، من أمتي، بدعوة ليس لها بأهل، أن يجعلها له طهورا وزكاة، وقربة يقربه بها منه يوم القيامة"**. (٤)

حديث عائشة ﵂ قالت: دَخَلَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ رَجُلَانِ فَكَلَّمَاهُ بِشَيْءٍ لَا أَدْرِي مَا هُوَ فَأَغْضَبَاهُ فَلَعَنَهُمَا وَسَبَّهُمَا، فَلَمَّا خَرَجَا قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، مَنْ أَصَابَ مِنْ الْخَيْرِ شَيْئًا مَا أَصَابَهُ هَذَانِ، قَالَ: وَمَا ذَاكِ؟ قَالَتْ: قُلْتُ: لَعَنْتَهُمَا وَسَبَبْتَهُمَا، قَالَ: أَوَ مَا عَلِمْتِ مَا شَارَطْتُ عَلَيْهِ رَبِّي؛ قُلْتُ: **اللهمَّ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ فَأَيُّ الْمُسْلِمِينَ لَعَنْتُهُ أَوْ سَبَبْتُهُ فَاجْعَلْهُ لَهُ زَكَاةً وَأَجْرًا** "(٥).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٠١).

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٦١)، مسلم (٢٦٠١).

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٠٢).

(٤) أخرجه مسلم (٢٦٠٣).

(٥) أخرجه مسلم (٢٦٠٠).

الوجه السابع: جزاء من يتعرض بالأذى للنبي ﷺ.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ ﴾ (الأحزاب: ٥٧).

قال ابن كثير: يقول تعالى مهددا ومتوعدا من آذاه بمخالفة أوامره وارتكاب زواجره وإصراره على ذلك وآذى رسوله بعيب أو تنقص، عياذا بالله من ذلك.

ثم قال: والظاهر أن الآية عامة في كل من آذاه بشيء ومن آذاه فقد آذى الله ومن أطاعه فقد أطاع الله[1].

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ (التوبة: ٦١).

قال القاضي عياض: قد تقدم من الكتاب والسنة وإجماع الأمة ما يجب من الحقوق للنبي ﷺ وما يتعين من له بر وتوقير وتعظيم وإكرام وبحسب هذا حرم اتلله تعالى أذاه في كتابه وأجمعت الأمة على قتل متنقصه من المسلمين وسابّه قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ ﴾ وقال تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٥٣)[2].

قال القاضي عياض: اعلم ـ وفقنا الله و إياك ـ أن جميع من سب النبي ﷺ أو عابه أو ألحق به نقصا في نفسه أو نسبه أو دينه أو خصلة من خصاله أو عرض به أو شبهه بشيء على طريق السب له أو الإزراء عليه أو التصغير لشأنه أو الغض منه و العيب له فهو ساب له و الحكم فيه حكم الساب يقتل كما نبينه . . . . . و كذلك من لعنه أو دعا عليه أو تمنى مضرة له أو نسب إليه ما لا يليق بمنصبه على طريق الذم أو عبث في جهته العزيزة بسخف من الكلام و هجر و منكر من القول و زور أو عيره بشيء مما جرى من البلاء و المحنة عليه

---

(١) تفسير ابن كثير ١١/ ٢٤٠.

(٢) الشفا ٢/ ٢٢٥.

أو غمصه ببعض العوارض البشرية الجائز و المعهودة لديه **وهذا كله إجماع** من العلماء وأئمة الفتوى من لدن الصحابة رضوان الله عليهم إلى هلم جر.

و قال أبو بكر بن المنذر: أجمع عوام أهل العلم على أن من سب النبي ﷺ يقتل و ممن قال ذلك مالك بن أنس والليث وأحمد وإسحاق وهو مذهب الشافعي.

قال القاضي أبو الفضل: وهو مقتضى قول أبي بكر الصديق ﷺ و لا تقبل توبته عند هؤلاء المذكورين وبمثله قال أبو حنيفة وأصحابه والثوري وأهل الكوفة والأوزاعي في المسلم لكنهم قالوا: هي ردة روى مثله الوليد بن مسلم عن مالك.

وحكي الطبري مثله عن أبي حنيفة و أصحابه فيمن تنقصه ﷺ أو برئ منه أو كذب، وقال سحنون فيمن سبه: ذلك ردة كالزندقة.

وعلى هذا وقع الخلاف في استتابته و تكفيره و هل قتله حد أو كفر ... ولا نعلم خلافًا في استباحة دمه بين علماء الأمصار و سلف الأمة، وقد ذكر غير واحد الإجماع على قتله و تكفيره و أشار بعض الظاهرية ـ و هو أبو محمد علي بن أحمد الفارسي إلى الخلاف في تكفير المستخف به.

والمعروف ما قدمناه قال محمد بن سحنون: أجمع العلماء أن شاتم النبي ﷺ المتنقص له كافر و الوعيد جار عليه بعذاب الله و حكمه عند الأمة القتل و من شك في كفره و عذابه كفر.

وقال أحمد بن أبي سليمان صاحب سحنون: من قال: إن النبي ﷺ كان أسود يقتل. و قال في رجل قيل له: لا و حق رسول الله فقال فعل الله برسول الله كذا و كذا ـ و ذكر كلاما قبيحا فقيل له: ما تقول يا عدو الله؟ فقال أشد من كلامه الأول ثم قال: إنما أردت برسول الله العقرب فقال ابن أبي سليمان للذي سأله: اشهد عليه و أنا شريكك ـ يريد في قتله و ثواب ذلك.

قال حبيب بن الربيع: لأن ادعاءه التأويل في لفظ صراح لا يقبل لأنه امتهان وهو غير معزز لرسول الله ﷺ ولا موقر له فوجب إباحة دمه.

وأفتى أبو عبد الله بن عتاب في عشار قال لرجل: أد واشك إلى النبي ﷺ وقال: إن سألت أو جعلت فقد جهل وسأل النبي ﷺ ـ بالقتل.

وأفتى فقهاء الأندلس بقتل ابن حاتم المتفقه الطليطلي وصلبه بما شهد عليه به من استخفافه بحق النبي ﷺ وتسميته إياه أثناء مناظرته باليتيم وختن حيدرة وزعمه أن زهده

لم يكن قصدًا ولو قدر على الطيبات أكلها إلى أشباه لهذا. وأفتى فقهاء القيروان وأصحاب سحنون بقتل إبراهيم الفزاري وكان شاعرًا متفننا في كثير من العلوم وكان ممن يحضر مجلس القاضي أبي العباس بن طالب للمناظرة فرفعت عليه أمور منكرة من هذا الباب في الاستهزاء بالله وأنبيائه ونبينا ﷺ فأحضر له القاضي يحيى بن عمر وغيره من الفقهاء وأمر بقتله وصلبه فطعن بالسكين وصلب منكسا ثم أنزل وأحرق بالنار.

وحكى بعض المؤرخين أنه لما رفعت خشبته و زالت عنها الأيدي استدارت و حولته عن القبلة فكان آية للجميع وكبر الناس و جاء كلب فولغ في دمه و قال القاضي أبو عبد الله بن المرابط: من قال: إن النبي ﷺ هزم يستتاب فإن تاب وإلا قتل لأنه تنقص إذ لا يجوز ذلك عليه في خاصته إذ هو على بصيرة من أمره ويقين من عصمته، وقال حبيب بن ربيع القروي: مذهب مالك و أصحابه أن من قال فيه ﷺ: ما فيه نقص ـ قتل دون استتابة، وقال ابن عتاب: الكتاب والسنة موجبان أن من قصد النبي ﷺ بأذى أو نقص معرضا أو مصرحا وإن قل ـ فقتله واجب فهذا الباب كله مما عده العلماء سبا أو تنقصا يجب قتل قائله لم يختلف في ذلك متقدمهم ولا متأخرهم وإن اختلفوا في حكم قتله على ما أشرنا إليه ونبيه بعد وكذلك أقول حكم من غمصه أو عيره برعاية الغنم أو السهو أو النسيان أو السحر أو ما أصابه من جرح أو هزيمة لبعض جيوشه أو أذى من عدوه أو شدة من زمنه أو بالميل إلى نسائه فحكم هذا كله لمن قصد به نقصه القتل(١)

حكم الله عليهم بالكفر:

قوله سبحانه: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ (التوبة: ٦٤ ـ ٦٦).

وهذا نص في أن الاستهزاء بالله و بآياته و برسوله كفر فالسب المقصود بطريق الأولى

(١) الشفا للقاضي عياض(٢/ ٢٣٢: ٢٢٩)

وقد دلت هذه الآية على أن كل من تنقص رسول الله ﷺ جادًا أو هازلًا فقد كفر[١].

الوجه الثامن: بعض النماذج من السنة لمن تعرض بالأذى للنبي ﷺ وجزاء من تعرض بالأذى.

*قتل كعب بن الأشرف وإذن النبي ﷺ في ذلك لأنه آذى الله ورسوله:

فقد أخرج البخاري ومسلم من حديث جابر بن عبد الله ﷺقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " مَنْ لِكَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ فَإِنَّهُ قَدْ آذَى الله وَرَسُولَهُ فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ: يَا رَسُولَ الله، أَتُحِبُّ أَنْ أَقْتُلَهُ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: ائْذَنْ لِي فَلْأَقُلْ، قَالَ: قُلْ"[٢].

*الإذن في قتل أبي رافع عبد الله بن أبي الحقيق والسبب أيضًا لأنه كان يؤذي النبي ﷺ:

عن الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ ﷺ قَالَ: " بَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى أَبِي رَافِعٍ الْيَهُودِيِّ رِجَالًا مِنْ الْأَنْصَارِ فَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عَبْدَ الله بْنَ عَتِيكٍ وَكَانَ أَبُو رَافِعٍ يُؤْذِي رَسُولَ الله ﷺ وَيُعِينُ عَلَيْهِ"[٣].

*إسقاط النبي ﷺ دية المرأة التي كانت تسبه لما قتلت:

فعن ابْنُ عَبَّاسٍ: أَنَّ أَعْمَى كَانَتْ لَهُ أُمُّ وَلَدٍ تَشْتُمُ النَّبِيَّ ﷺ وَتَقَعُ فِيهِ فَيَنْهَاهَا فَلَا تَنْتَهِي وَيَزْجُرُهَا فَلَا تَنْزَجِرُ قَالَ فَلَمَّا كَانَتْ ذَاتَ لَيْلَةٍ جَعَلَتْ تَقَعُ فِي النَّبِيِّ ﷺ وَتَشْتُمُهُ فَأَخَذَ الْمِغْوَلَ فَوَضَعَهُ فِي بَطْنِهَا وَاتَّكَأَ عَلَيْهَا فَقَتَلَهَا فَوَقَعَ بَيْنَ رِجْلَيْهَا طِفْلٌ فَلَطَّخَتْ مَا هُنَاكَ بِالدَّمِ فَلَمَّا أَصْبَحَ ذُكِرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ الله ﷺ فَجَمَعَ النَّاسَ فَقَالَ: "أَنْشُدُ الله رَجُلًا فَعَلَ مَا فَعَلَ لِي عَلَيْهِ حَقٌّ إِلَّا قَامَ "، فَقَامَ الْأَعْمَى يَتَخَطَّى النَّاسَ وَهُوَ يَتَزَلْزَلُ حَتَّى قَعَدَ بَيْنَ يَدَيْ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، أَنَا صَاحِبُهَا كَانَتْ تَشْتُمُكَ وَتَقَعُ فِيكَ فَأَنْهَاهَا فَلَا تَنْتَهِي وَأَزْجُرُهَا فَلَا تَنْزَجِرُ وَلِي مِنْهَا ابْنَانِ مِثْلُ اللُّؤْلُؤَتَيْنِ وَكَانَتْ بِي رَفِيقَةً فَلَمَّا كَانَ الْبَارِحَةَ جَعَلَتْ تَشْتُمُكَ وَتَقَعُ فِيكَ فَأَخَذْتُ الْمِغْوَلَ فَوَضَعْتُهُ فِي بَطْنِهَا وَاتَّكَأْتُ عَلَيْهَا حَتَّى قَتَلْتُهَا فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: " **أَلَا اشْهَدُوا أَنَّ دَمَهَا هَدَرٌ** "[٤].

وحتى لا يكون هذا الحكم في إسقاط النبي ﷺ دمها عامًا للناس جميعًا بعد موته، فقال

---

(١) الصارم المسلول صـ (٣١) والمسألة فيها تفصيل. انظر: كتاب الشفا وكتاب الصارم المسلول.

(٢) أخرجه البخاري (٤٠٣٧)، مسلم (١٨٠١).

(٣) أخرجه البخاري (٤٠٣٩).

(٤) أخرجه أبو داود (٤٣٦١)، النسائي (٧/ ١٠٨)، والحديث صحيح إسناده الألباني في صحيح سنن النسائي (٣٧٩٤).

أبو بكر الصديق: ليس هذا لأحد بعد رسول الله ﷺ[1].

*الرجل لفظته الأرض بعد دفنه لأنه افترى على رسول الله ﷺ:

من حديث أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رَجُلٌ نَصْرَانِيًّا فَأَسْلَمَ وَقَرَأَ الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ فَكَانَ يَكْتُبُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَعَادَ نَصْرَانِيًّا فَكَانَ يَقُولُ مَا يَدْرِي مُحَمَّدٌ إِلَّا مَا كَتَبْتُ لَهُ فَأَمَاتَهُ الله فَدَفَنُوهُ فَأَصْبَحَ وَقَدْ لَفَظَتْهُ الْأَرْضُ فَقَالُوا هَذَا فِعْلُ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ لَمَّا هَرَبَ مِنْهُمْ نَبَشُوا عَنْ صَاحِبِنَا فَأَلْقَوْهُ فَحَفَرُوا لَهُ فَأَعْمَقُوا فَأَصْبَحَ وَقَدْ لَفَظَتْهُ الْأَرْضُ فَقَالُوا هَذَا فِعْلُ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ نَبَشُوا عَنْ صَاحِبِنَا لَمَّا هَرَبَ مِنْهُمْ فَأَلْقَوْهُ فَحَفَرُوا لَهُ وَأَعْمَقُوا لَهُ فِي الْأَرْضِ مَا اسْتَطَاعُوا فَأَصْبَحَ وَقَدْ لَفَظَتْهُ الْأَرْضُ فَعَلِمُوا أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ النَّاسِ فَأَلْقَوْهُ[2].

قال ابن تيمية: فهذا الملعون الذي افترى على النبي ﷺ أنه ما كان يدري إلا ما كتب له قصمه الله و فضحه بأن أخرجه من القبر بعد أن دفن مرارًا و هذا أمر خارج عن العادة يدل كل أحد على أن هذا كان عقوبة لما قاله و أنه كان كاذبا إذ كان عامة الموتى لا يصيبهم مثل هذا و أن هذا الجرم أعظم من مجرد الارتداد إذ كان عامة المرتدين يموتون و لا يصيبهم مثل هذا و أن الله منتقم لرسوله ممن طعن عليه و سبه و مظهر لدينه و لكذب الكاذب إذ لم يمكن الناس أن يقيموا عليه الحد[3].

الوجه التاسع: بيان الحكمة في تولي رب العزة الدفاع عن نبيه ﷺ. وأن هذا ليس كلام النبي ﷺ.

قال الرازي: الكفار لما شتموه، فهو تعالى أجاب عنه من غير واسطة، فقال: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ (الكوثر: ٣) وهكذا سنة الأحباب، فإن الحبيب إذا سمع من يشتم حبيبه تولى بنفسه جوابه، فههنا تولى الحق سبحانه جوابهم، وذكر مثل ذلك في مواضع حين قالوا: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٦٣)، النسائي ٧/ ١٠٩، وصححه الألباني في صحيح النسائي (٣٧٩٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦١٧)، مسلم (٢٧٨١).

(٣) الصارم المسلول (١١٦: ١١٧)، ومن أراد المزيد حول هذا فلينظره في هذا الكتاب الماتع.

(سبأ: ٧)، فقال سبحانه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ فِي ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ (سبأ: ٨) وحين قالوا: هو مجنون أقسم ثلاثًا، ثم قال: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ (القلم: ٢) ولما قالوا: ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ (الرعد: ٤٣) أجاب فقال: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ (يس: ١: ٣) وحين قالوا: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ (الصافات: ٣٦) رد عليهم وقال: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ (الصافات: ٣٧) فصدقه، ثم ذكر وعيد خصمائه، وقال: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾ (الصافات: ٣٨) وحين قال حاكيًا: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ (الطور: ٣٠) قال سبحانه: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ (يس: ٦٩) ولما حكى عنهم قوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ (الفرقان: ٤) سماهم كاذبين بقوله: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ (الفرقان: ٤) ولما قالوا: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾ (الفرقان: ٧) أجابهم فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾ (الفرقان: ٢٠) فما أجل هذه الكرامة[1].

الوجه العاشر: بيان بعض صفات الرب في الكتاب المقدس وبعض نماذج الغلظة في الحديث بالسب والشتم.

أولا: صفات الرب:

الرب جاهل: لأَنَّ جَهَالَةَ الله أَحْكَمُ مِنَ النَّاسِ! وَضَعْفَ الله أَقْوَى مِنَ النَّاسِ! (الرسالة الأولى إلى كورونثوس ١/ ٢٥)

الرب يسيئ الأمانة: وَصَرَخَ إِلَى الرَّبِّ وَقَالَ: «أَيُّهَا الرَّبُّ إِلهِي، أَأَيْضًا إِلَى الأَرْمَلَةِ الَّتِي أَنَا نَازِلٌ عِنْدَهَا قَدْ أَسَأْتَ بِإِمَاتَتِكَ ابْنَهَا؟ (الملوك الأول ١٧/ ٢٠)

الرب يسيئ: فَقَالَ مُوسَى لِلرَّبِّ: «لِمَاذَا أَسَأْتَ إِلَى عَبْدِكَ؟ وَلِمَاذَا لَمْ أَجِدْ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْكَ حَتَّى أَنَّكَ وَضَعْتَ ثِقْلَ جَمِيعِ هذَا الشَّعْبِ عَلَيَّ؟ (العدد١١/ ١١)

الرب شتام: فَقَالَ لَهُ الله: يَاغَبِيُّ! هذِهِ اللَّيْلَةَ تُطْلَبُ نَفْسُكَ مِنْكَ، فَهذِهِ الَّتِي أَعْدَدْتَهَا لِمَنْ

---

(١) تفسير الرازي ٣٢/ ١٣٤.

تَكُونُ؟ (لوقا ١٢/ ٢٠)

رب ينتقم بالزنا: هكَذَا قَالَ الرَّبُّ: هأَنَذَا أُقِيمُ عَلَيْكَ الشَّرَّ مِنْ بَيْتِكَ، وَآخُذُ نِسَاءَكَ أَمَامَ عَيْنَيْكَ وَأُعْطِيهِنَّ لِقَرِيبِكَ، فَيَضْطَجِعُ مَعَ نِسَائِكَ فِي عَيْنِ هذِهِ الشَّمْسِ. [١٢] لأَنَّكَ أَنْتَ فَعَلْتَ بِالسِّرِّ وَأَنَا أَفْعَلُ هذَا الأَمْرَ قُدَّامَ جَمِيعِ إِسْرَائِيلَ وَقُدَّامَ الشَّمْسِ (صموئيل الثانى١٢/ ١٢: ١١).

يسوع يأمر بالنفاق: مَعَ الطَّاهِرِ تَكُونُ طَاهِرًا، وَمَعَ الأَعْوَجِ تَكُونُ مُلْتَوِيًا. (المزامير ١٨/ ٢٦)

ثانيا: بعض أمثلة في السب والشتم:

* يَا أَغْبِيَاءُ، أَلَيْسَ الَّذِي صَنَعَ الْخَارِجَ صَنَعَ الدَّاخِلَ أَيْضًا؟ لوقا (١١/ ٤٠).

* أَيُّهَا الْغَلاَطِيُّونَ الأَغْبِيَاءُ، مَنْ رَقَاكُمْ حَتَّى لاَ تُذْعِنُوا لِلْحَقِّ؟ أَنْتُمُ الَّذِينَ أَمَامَ عُيُونِكُمْ قَدْ رُسِمَ يَسُوعُ الْمَسِيحُ بَيْنَكُمْ مَصْلُوبًا! [٢] أُرِيدُ أَنْ أَتَعَلَّمَ مِنْكُمْ هذَا فَقَطْ: أَبِأَعْمَالِ النَّامُوسِ أَخَذْتُمُ الرُّوحَ أَمْ بِخَبَرِ الإِيمَانِ؟ [٣] أَهكَذَا أَنْتُمْ أَغْبِيَاءُ! أَبَعْدَمَا ابْتَدَأْتُمْ بِالرُّوحِ تُكَمَّلُونَ الآنَ بِالْجَسَدِ؟ (بولس الى غلاطية٣/ ٣: ١)

* يَا أَوْلاَدَ الأَفَاعِي! كَيْفَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَتَكَلَّمُوا بِالصَّالِحَاتِ وَأَنْتُمْ أَشْرَارٌ؟ فَإِنَّهُ مِنْ فَضْلَةِ الْقَلْبِ يَتَكَلَّمُ الْفَمُ. (متى ١٢/ ٣٤).

* لأَنَّ شَعْبِي أَحْمَقُ. إِيَّايَ لَمْ يَعْرِفُوا. هُمْ بَنُونَ جَاهِلُونَ وَهُمْ غَيْرُ فَاهِمِينَ. هُمْ حُكَمَاءُ فِي عَمَلِ الشَّرِّ، وَلِعَمَلِ الصَّالِحِ مَا يَفْهَمُونَ (أرميا ٤/ ٢٢).

هذه بعض الأمثلة في السب والشتم وأسوق هذا النص الآتي في كتابكم ولك أن تحكم.

وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كُلَّ مَنْ يَغْضَبُ عَلَى أَخِيهِ بَاطِلًا يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ الْحُكْمِ، وَمَنْ قَالَ لأَخِيهِ: رَقَا، يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ الْمَجْمَعِ، وَمَنْ قَالَ: يَا أَحْمَقُ، يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ نَارِ جَهَنَّمَ. (متى ٥/ ٢٢).

سفر اللعنات: وَلكِنْ إِنْ لَمْ تَسْمَعْ لِصَوْتِ الرَّبِّ إِلهِكَ لِتَحْرِصَ أَنْ تَعْمَلَ بِجَمِيعِ وَصَايَاهُ وَفَرَائِضِهِ الَّتِي أَنَا أُوصِيكَ بِهَا الْيَوْمَ، تَأْتِي عَلَيْكَ جَمِيعُ هذِهِ اللَّعَنَاتِ وَتُدْرِكُكَ: [١٦] مَلْعُونًا تَكُونُ فِي الْمَدِينَةِ وَمَلْعُونًا تَكُونُ فِي الْحَقْلِ. [١٧] مَلْعُونَةً تَكُونُ سَلَّتُكَ وَمِعْجَنُكَ. [١٨] مَلْعُونَةً تَكُونُ ثَمَرَةُ بَطْنِكَ وَثَمَرَةُ أَرْضِكَ، نِتَاجُ بَقَرِكَ وَإِنَاثُ غَنَمِكَ. [١٩] مَلْعُونًا تَكُونُ فِي دُخُولِكَ، وَمَلْعُونًا تَكُونُ فِي خُرُوجِكَ. [٢٠] يُرْسِلُ الرَّبُّ عَلَيْكَ اللَّعْنَ وَالاضْطِرَابَ وَالزَّجْرَ فِي كُلِّ مَا تَمْتَدُّ إِلَيْهِ يَدُكَ لِتَعْمَلَهُ، حَتَّى تَهْلِكَ وَتَفْنَى سَرِيعًا مِنْ أَجْلِ سُوءِ أَفْعَالِكَ إِذْ تَرَكْتَنِي. [٢١] يُلْصِقُ بِكَ الرَّبُّ الْوَبَأَ حَتَّى يُبِيدَكَ عَنِ

الأَرْضِ الَّتِي أَنْتَ دَاخِلٌ إِلَيْهَا لِكَيْ تَمْتَلِكَهَا. ٢٢ يَضْرِبُكَ الرَّبُّ بِالسِّلِّ وَالْحُمَّى وَالْبُرَدَاءِ وَالالْتِهَابِ وَالْجَفَافِ وَاللَّفْحِ وَالذُّبُولِ، فَتَتْبَعُكَ حَتَّى تُفْنِيَكَ. ٢٣ وَتَكُونُ سَمَاؤُكَ الَّتِي فَوْقَ رَأْسِكَ نُحَاسًا، وَالأَرْضُ الَّتِي تَحْتَكَ حَدِيدًا. ٢٤ وَيَجْعَلُ الرَّبُّ مَطَرَ أَرْضِكَ غُبَارًا، وَتُرَابًا يُنَزِّلُ عَلَيْكَ مِنَ السَّمَاءِ حَتَّى تَهْلِكَ. ٢٥ يَجْعَلُكَ الرَّبُّ مُنْهَزِمًا أَمَامَ أَعْدَائِكَ. فِي طَرِيقٍ وَاحِدَةٍ تَخْرُجُ عَلَيْهِمْ، وَفِي سَبْعِ طُرُقٍ تَهْرُبُ أَمَامَهُمْ، وَتَكُونُ قَلِقًا فِي جَمِيعِ مَمَالِكِ الأَرْضِ. ٢٦ وَتَكُونُ جُثَّتُكَ طَعَامًا لِجَمِيعِ طُيُورِ السَّمَاءِ وَوُحُوشِ الأَرْضِ وَلَيْسَ مَنْ يُزْعِجُهَا. ٢٧ يَضْرِبُكَ الرَّبُّ بِقُرْحَةِ مِصْرَ وَبِالْبَوَاسِيرِ وَالْجَرَبِ وَالْحِكَّةِ حَتَّى لاَ تَسْتَطِيعَ الشِّفَاءَ. ٢٨ يَضْرِبُكَ الرَّبُّ بِجُنُونٍ وَعَمًى وَحَيْرَةِ قَلْبٍ، ٢٩ فَتَتَلَمَّسُ فِي الظُّهْرِ كَمَا يَتَلَمَّسُ الأَعْمَى فِي الظَّلاَمِ، وَلاَ تَنْجَحُ فِي طُرُقِكَ بَلْ لاَ تَكُونُ إِلاَّ مَظْلُومًا مَغْصُوبًا كُلَّ الأَيَّامِ وَلَيْسَ مُخَلِّصٌ. ٣٠ تَخْطُبُ امْرَأَةً وَرَجُلٌ آخَرُ يَضْطَجِعُ مَعَهَا. تَبْنِي بَيْتًا وَلاَ تَسْكُنُ فِيهِ. تَغْرِسُ كَرْمًا وَلاَ تَسْتَغِلُّهُ. ٣١ يُذْبَحُ ثَوْرُكَ أَمَامَ عَيْنَيْكَ وَلاَ تَأْكُلُ مِنْهُ. يُغْتَصَبُ حِمَارُكَ مِنْ أَمَامِ وَجْهِكَ وَلاَ يَرْجِعُ إِلَيْكَ. تُدْفَعُ غَنَمُكَ إِلَى أَعْدَائِكَ وَلَيْسَ لَكَ مُخَلِّصٌ. ٣٢ يُسَلَّمُ بَنُوكَ وَبَنَاتُكَ لِشَعْبٍ آخَرَ وَعَيْنَاكَ تَنْظُرَانِ إِلَيْهِمْ طُولَ النَّهَارِ، فَتَكِلاَّنِ وَلَيْسَ فِي يَدِكَ طَائِلَةٌ. ٣٣ ثَمَرُ أَرْضِكَ وَكُلُّ تَعَبِكَ يَأْكُلُهُ شَعْبٌ لاَ تَعْرِفُهُ، فَلاَ تَكُونُ إِلاَّ مَظْلُومًا وَمَسْحُوقًا كُلَّ الأَيَّامِ. ٣٤ وَتَكُونُ مَجْنُونًا مِنْ مَنْظَرِ عَيْنَيْكَ الَّذِي تَنْظُرُ. ٣٥ يَضْرِبُكَ الرَّبُّ بِقَرْحٍ خَبِيثٍ عَلَى الرُّكْبَتَيْنِ وَعَلَى السَّاقَيْنِ، حَتَّى لاَ تَسْتَطِيعَ الشِّفَاءَ مِنْ أَسْفَلِ قَدَمِكَ إِلَى قِمَّةِ رَأْسِكَ. ٣٦ يَذْهَبُ بِكَ الرَّبُّ وَبِمَلِكِكَ الَّذِي تُقِيمُهُ عَلَيْكَ إِلَى أُمَّةٍ لَمْ تَعْرِفْهَا أَنْتَ وَلاَ آبَاؤُكَ، وَتَعْبُدُ هُنَاكَ آلِهَةً أُخْرَى مِنْ خَشَبٍ وَحَجَرٍ، ٣٧ وَتَكُونُ دَهَشًا وَمَثَلًا وَهُزْأَةً فِي جَمِيعِ الشُّعُوبِ الَّذِينَ يَسُوقُكَ الرَّبُّ إِلَيْهِمْ. ٣٨ بِذَارًا كَثِيرًا تُخْرِجُ إِلَى الْحَقْلِ، وَقَلِيلًا تَجْمَعُ، لأَنَّ الْجَرَادَ يَأْكُلُهُ. ٣٩ كُرُومًا تَغْرِسُ وَتَشْتَغِلُ، وَخَمْرًا لاَ تَشْرَبُ وَلاَ تَجْنِي، لأَنَّ الدُّودَ يَأْكُلُهَا. ٤٠ يَكُونُ لَكَ زَيْتُونٌ فِي جَمِيعِ تُخُومِكَ، وَبِزَيْتٍ لاَ تَدَّهِنُ، لأَنَّ زَيْتُونَكَ يَنْتَثِرُ. ٤١ بَنِينَ وَبَنَاتٍ تَلِدُ وَلاَ يَكُونُونَ لَكَ، لأَنَّهُمْ إِلَى السَّبْيِ يَذْهَبُونَ. ٤٢ جَمِيعُ أَشْجَارِكَ وَأَثْمَارِ أَرْضِكَ يَتَوَلاَّهُ الصَّرْصَرُ. ٤٣ اَلْغَرِيبُ الَّذِي فِي وَسَطِكَ يَسْتَعْلِي عَلَيْكَ مُتَصَاعِدًا، وَأَنْتَ تَنْحَطُّ مُتَنَازِلًا. ٤٤ هُوَ يُقْرِضُكَ وَأَنْتَ لاَ تُقْرِضُهُ. هُوَ يَكُونُ رَأْسًا وَأَنْتَ تَكُونُ ذَنَبًا. ٤٥ وَتَأْتِي عَلَيْكَ جَمِيعُ هذِهِ اللَّعَنَاتِ وَتَتْبَعُكَ وَتُدْرِكُكَ حَتَّى تَهْلِكَ، لأَنَّكَ لَمْ تَسْمَعْ لِصَوْتِ الرَّبِّ إِلهِكَ لِتَحْفَظَ وَصَايَاهُ وَفَرَائِضَهُ الَّتِي أَوْصَاكَ بِهَا. ٤٦ فَتَكُونُ فِيكَ آيَةً وَأُعْجُوبَةً وَفِي نَسْلِكَ إِلَى الأَبَدِ.

* * *

الفهرس

الفهرس الإجمالي للموسوعة